

الجزء الأول

جمعه

طه عبد الرءوف سعد

الناشر

دار الحرم للتراث

٤٥ سوق الكتاب الجديد بالعتبه - القاهرة

ت - ٥٩١٦٠٢١

- اسم الكتاب: ألف ليلة وليلة
- الناشر: دار الحرم للتراث
- جمع وتحقيق: طه عبد الرءوف سعد
- الطبعة الأولى: ٢٠٠٣م
- كمبيوتر: السندس لخدمات الكمبيوتر
ت: ٥٨٩٧٥٢٩ - ٠١٢/٢٥٩٢٤٦٧

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٣/٣٦٨٦
الترقيم الدولى
977-6038-02-6

الطبعة الأولى
٢٠٠٣م - ١٤٢٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وعلى الله يتوكل المتوكلون

مقدمة

الحمد لله ولى الحمد وأهله والصلاة والسلام على من لا نبى بعده.

وبعد

إن القصص الهادف والذى يسعى إلى تنوير الذهن وبراعة الفكر والارتقاء بالخاطر لهو جد مطلوب فى كل زمان ومكان.

حتى إن من القصص العربى ما كان له الحظ الأوفر والنصيب الوافى والقسط الوافر من الذيوع والانتشار وذلك من مثل قصة **(الأميرة ذات الهمة وولدها الأمير عبد الوهاب)** ثم تأتى القصص المختلفة أمثال **(عنتر بن شداد)** **(الملك سيف بن ذى يزن)** **(الظاهر بيبرس البندقدارى)** **(الزير سالم)** **(فيروز شاه)**.

ولقد حظيت **(ألف ليلة وليلة)** بما لم تحظ به قصص أخرى من الذيوع والانتشار وعدد المبيعات.

إذ أثرت فى النفوس وارتفعت بالخيال إلى ما لا حدود حتى وإنها ترجمت من العربية لأكثر من لغة مشهورة متداولة أخرى.

وكانت أشهر تلك اللغات الفرنسية والإنجليزية.

والكتاب مجموعة من القصص قل أن يجتمع مثله فى كتاب غيره فهى حكايات تتناول الإنس والجن. الملائكة والأرواح. الحكماء والجهلاء. الحكام والمحكومين والوزراء، الإخوان والأعداء.

الحب والبغض، الخدع والحيل، الثراء الباذخ والفقر المدقع مما يبين الأشياء ويوضحها تمام الوضوح.

❖والضد يظهر عكسه الضد❖

أما عن أسلوب الكتاب:

فهو بسيط واضح يفهمه العامة ويلتذ به الخاصة ويبدو أنه كتبه أكثر من مؤلف على مدى قرون طويلة حتى إن اسمه لم يكن أحد من المؤلفين يتوقع له هذا الاسم حتى إن من جمعوا قصص هذا الكتاب على مدى الأيام ومر السنين والعصور لم يتخذوا له اسما فقد كان الاسم الذى أطلق عليه قبل عصورنا الحديثة (ألف خرافة) ثم أطلق عليها (ألف ليلة) وأخير عرف باسم (ألف ليلة وليلة).

واضع الكتاب:

لم يعرف على مدى التاريخ من هو واضع هذا الكتاب حتى إن فى كتاب (مروج الذهب) يقول مؤلفه المسعودى: إن الكتاب ينسب إلى الهند فيقول: ... وإن سبيل الأخبار سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية سبيل تأليفها ما ذكرنا مثل كتاب **(هزار أفسانه)** أى ألف خرافة.

ومهما يكن فالكتاب شرقى الأصل تختلط فيه الروح الفارسية بالهندية والتركية والمصرية القاهرية الشعبية.

أما متى وضع هذا الكتاب:

فقد اختلفوا فى زمنه كما اختلفوا فى مؤلفيه.

فهناك رأى يقول: إن هذا حدث فى العهد العباسى ورأى آخر يقول: إنه لا يستبعد أن يكون قد أضيفت وزاد عليه الكتاب نوادر وأخبارا فى أوقات لاحقة كما فعلوا مع جحا وأبى نواس.

أما أسباب وضع الكتاب:

فقد قيل إنه جمع من أجل الدعوة إلى الإسلام وقيل بل لتعليم اللغة العربية المبسطة لمن أراد أن يتعلم.

وقد انتشر هذا الكتاب بسبب الأمية والظروف التى كان يعيش فيها العامة من ناطقى العربية والتى جعلت (الحواكتية) العازفين على الربابة والمتجولين على

المقاهى والقعدات الخاصة أن يجتمعوا ليسمعوا تلك الحكايات (**من ألف ليلة وليلة**) وحكايات من كتب أخرى.

نهاية الكتاب:

لم تتفق المخطوطات التى أطلعنا عليها على نهاية محددة للكتاب. فيقول ابن النديم فى كتابه (**الفهرست**).

«وظلت شهرزاد تخرف للملك وتنهى الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على الحفاظ على حياتها ليلة أخرى إلى أن رزقت منه بولد فاستعلقها ومال إليها واستبقاها.

وعند اطلاعنا على النسخة المطبوعة بالهند التى تقول «فترزق شهرزاد من الملك ثلاثة بنين لئلا تضيع عليه من ألف ليلة وليلة»

أما طبعة المطبعة الأميرية بالقاهرة المحروسة فتقول: بأن الملك قد أعجب بذكاء شهرزاد وبراعتها فى الرواية والسرد فيعفو عنها لتسلم له بهجة ومسرة.

وختاما نقول إن هذا الكتاب لا يخلو من فرائد ونوادر وفوائد وعجائب وغرائب لم تجمع فى كتاب آخر مثله تجمع بين التسلية والمعرفة الفكرية قد تشطح بالقارئ إلى دنيا أخرى تجمع كل المتناقضات التى يخرج بها القارئ إلى عالم آخر أجاد صنعه هؤلاء (الحكاواتية).

وإنه لمن دواعى سرورنا أن نقدم لك تلك الطبعة المهذبة التى يسمح كل بيت أن تكون ضيفا غير ثقيل عليه يقرأها الأب لأفراد أسرته دون حرج.

والله من وراء القصد

(الناشر)

حكاية الملك شهريار وأخيه شاه زمان

حُكى -والله أعلم بغيبه وأحكم، وأعزُّ وأكرم، وألطف وأرحم- فيما مضى وتقدم، وسلف من أحاديث الأمم: أنه كان فى قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، ملك من ملوك بنى ساسان، بجزائر الهند والصين، صاحب جند وأعوان وخدم وحشم. وكان له ولدان أحدهما كبير والآخر صغير، وكانا فارسين بطلَين وكان الأكبر أفرس من الأصغر. وقد ملك البلاد وحكم بالعدل فى الرعية وأحبه أهل بلاده ومملكته. وكان اسمه الملك شهريار. وكان أخوه الصغير اسمه الملك شاه زمان، وكان ملك سمرقند العجم.

ولم يزالا مستمرين فى بلادهما وكل واحد فى مملكته، حاكم عادل فى رعيته مدة عشرين سنة فى غاية البسط والانشراح. ولم يزالا على هذه الحالة. فعند ذلك اشتاق الملك الكبير إلى أخيه الصغير فأمر وزيره أن يسافر إليه ويحضر به. فأجابه بالسمع والطاعة.

وسافر إلى أن وصل بالسلامة. ودخل على أخيه وبلَّغه السلام. وأعلمه أن أخاه مشتاق إليه وقصده يزوره فأجابه بالسمع والطاعة. وتجهز للسفر وأخرج خيامه وجماله وبغاله وخدمه وأعوانه. وأقام وزيره حاكمًا فى بلاده وخرج طالبًا بلاد أخيه. فلما ابتعد قليلاً تذكر حاجة نسيها فى قصره؛ فرجع ودخل قصره فوجد زوجته تنادم مغنيًا وهو يضرب بالعود. فلما رأى هذا الأمر اسودت الدنيا فى وجهه. وقال فى نفسه: «إذا كان هذا الأمر قد وقع وأنا ما فارقت المدينة فكيف حال هذه الخائنة إذا غبت عند أخى مدة؟».

ثم إنه سحب سيفه وضرب الاثنين وقتلهما. ورجع من وقته وساعته وأمر بالرحيل وسار إلى أن وصل إلى مدينة أخيه. فلما قرب من المدينة أرسل المبشرين إلى أخيه بقدومه. فخرج إليه ولقيه وسلم عليه وفرح به غاية الفرح وزين له المدينة وجلس معه يتحدث وينشرح. فتذكر الملك شاه زمان ما كان من أمر زوجته فحصل عنده غم زائد واصفر لونه وضعف جسمه. فلما رآه أخوه على هذه الحالة ظن أن ذلك بسبب مفارقته بلاده فترك سبيله ولم يسأله عن ذلك. ثم إنه فى بعض الأيام قال له: «يا أخى أراك قد ضعف جسمك واصفر لونك». فقال له: «يا أخى إن فى باطنى جرحًا». ولم يخبره بأمره.

فقال له: «إنى أريد أن تسافر معى إلى الصيد والقنص لعله ينشرح خاطرك فأبى ذلك». فسافر أخوه وحده إلى الصيد وكان فى قصر الملك طيقان تطل على بستان أخيه فنظر وإذا بباب القصر قد انفتح وخرج منه عشرون جارية وعشرون عبدًا وامرأة أخيه تمشى بينهم، وهى بديعة الحسن والجمال، حتى وصلوا إلى فسقية وجلسوا على حافتها. وأخذوا فى الشرب واللعب والغناء وتناشد الأشعار حتى ولَّى النهار.

فلما رأى ذلك أخو الملك قال فى نفسه: «إن بليتى أخف من هذه البلية». وقد انفك ما عنده من الغيرة والغم. وقال: «هذا أعظم مما جرى لى».

وبعد هذا جاء أخوه من السفر فسلما على بعضهما ونظر الملك شهريار إلى أخيه الملك شاه زمان فرآه قد رُدَّ له لونه واحمرَّ وجهه وصار يأكل بنهمة بعد ما كان قليل الأكل، فقال له

أخوه الملك الكبير: «يا أخي، كنت أراك مصفر اللون والوجه، والآن قد رُدَّ إليك لونك فأخبرني بحالك». فقال له: «أما تغير لوني فأذكره لك واعفني من إخباري لك برد لوني» فقال له: «أخبرني أولاً بتغير لونك وضعفك حتى أسمعه».

فقال له: «يا أخي، اعلم أنه لما أرسلت وزيرك إليَّ يطلبني للحضور بين يديك جهزت حالي وقد برزت خارج مدينتي. ثم إني تذكرت الخرَزة التي أعطيتها لي في قصري. فرجعت إلى قصري فوجدت زوجتي تنادم مغنيًا فقتلتهما وجئت إليك وأنا متفكر في هذا الأمر. فهذا سبب تغير لوني وضعفي. وأما رد لوني فاعفني من ذكره». فلما سمع أخوه كلامه قال له: «أقسمت عليك بالله إلا ما أخبرتني عن رد لونك».

فأخبره بجميع ما رآه. فقال شهريار لأخيه شاه زمان: «مرادي أنظر بعيني». فقال له أخوه شاه زمان: «اجعل أنك مسافر للصيد والقنص واختف عندي وأنت تشاهد ذلك وتتحققه عيانًا» فنادى الملك بالسفر فخرجت العساكر والخيام إلى ظاهر المدينة وخرج الملك. ثم إنه جلس في الخيام، وقال لغلمانه: «لا يدخل عليَّ أحد».

ثم إنه تنكر وخرج متخفيًا إلى القصر الذي فيه أخوه. وجلس في الطاقة المطلة على البستان ساعة من الزمان. وإذا بالجواري وسيدتهن دخلن مع العبيد وفعلن كما قال أخوه إلى أذان العصر. فلما رأى الملك شهريار ذلك الأمر طار عقله من رأسه وتذكر قول الشاعر:

لا تأمنن إلى النسا ولا تثق بعهودهنَّ
فيرين ودًا كاذبًا والغدر حشو ثيابهنَّ
بحديث يوسف فاعتبر ستراه بعض خدوعهنَّ
أو ما رأيت أباك آ دم خارجًا من أجلهنَّ

ثم إن الملك شهريار ذهب إلى الجنينة وعقله طائر من رأسه، ورمى عنق زوجته والجواري والعبيد وصار لبغضه للنساء يتزوج بهن ويقتلهن. فضج الناس كلهم وهربوا ببناتهم. ثم إن الملك أمر الوزير أن يأتيه ببنت على جرى عادته فخرج الوزير وفتش فلم يجد بنتًا في المدينة. فتوجه إلى منزله وهو مغموم مقهور خائف من الملك.

وكان لوزير الملك بنتان الكبيرة اسمها شهرزاد والصغيرة اسمها دنيازاد. وكانت الكبيرة قد قرأت الكتب والتواريخ وسير الملوك المتقدمين وأخبار الأمم الماضين. قيل: إنها جمعت ألف كتاب من كتب التواريخ المتعلقة بالأمم السالفة والملوك الخالية والشعراء. فقالت لأبيها: «ما لي أراك مغمومًا حاملَ الهم والأحزان وقد قال بعضهم في المعنى:

قل لمن يحمل همًّا إن همًّا لا يدومُ
مثل ما يفني سرور هكذا تفنى الهموم

فلما سمع الوزير من ابنته هذا الكلام حكى لها ما جرى له من الأول إلى الآخر مع الملك. فقالت له: «بالله يا أبت زوّجني هذا الملك فإما أن أعيش وإما أن أكون فدًى لأولاد المسلمين وخلاصهم من بين يديه». فقال لها: «بالله عليك لا تخاطري بنفسك أبدًا». فقالت له: «لا بد من ذلك». فقال: «أخشى عليك أن يتم لك ما تمَّ على الحمار والثور مع صاحب الزرع». فقالت له: «وما الذي جرى لهما؟».

حكاية الثور مع الحمار

قال: «اعلمي يا ابنتي أنه كان لبعض التجار أموال ومواش، وكان له زوجة وأولاد، وكان الله تعالى أعطاه معرفة لغات وألسن الحيوانات والطيور وكان مسكن ذلك التاجر الأرياف وكان عنده في داره حمار وثور.

فأتى يومًا الثور مكان الحمار فوجده مكنوسًا مرشوشًا وفي معلفه شعير مغربل وتبن وهو راقد مستريح. وفي بعض الأوقات يركبه صاحبه لحاجة تعرض له ويرجع على حاله.

فلما كان في بعض الأيام سمع التاجر الثور وهو يقول للحمار: «هنيئًا لك. أنا تعبان وأنت مستريح، تأكل الشعير ويخدمك صاحبنا، وفي بعض الأوقات يركبك ويرجع وأنا دائمًا للحرث والطحن». فقال له الحمار: «عندما تخرج إلى الغيط ويجعلون على رقبتك النير فارقد ولو ضربوك لا تقم أو قم وارقد. ولما يرجعون بك ويضعون لك الفول فلا تأكله كأنك ضعيف، وامتنع من الأكل والشرب يومًا أو يومين أو ثلاثة فتستريح من التعب والجهد».

وكان التاجر يسمع كلامهما. فلما جاء السوّاق إلى الثور بعشائه أكل منه شيئًا يسيرًا. فأصبح السوّاق ليأخذ الثور إلى الحرث فوجده ضعيفًا فحزن عليه، وقال: «هذا سبب أنه ما قدر أمس يشتغل». ثم جاء إلى التاجر وقال له: «يا مولاي إن الثور مقصر لم يأكل هذه الليلة العلف ولا ذاق منه شيئًا». وقد عرف التاجر الأمر فقال: «امض وخذ الحمار وحرّث عليه مكانه اليوم كله». فلما رجع آخر النهار بعد ما حرث عليه اليوم كله شكره الثور على تفضلاته لأنه أراحه من التعب في ذلك اليوم. فلم يرد عليه الحمار جوابًا وندم أشد الندم. فلما كان ثاني يوم جاء الزراع وأخذ الحمار وحرث عليه إلى آخر النهار. فما رجع الحمار إلا مسلوخ الرقبة ميتًا من التعب فتأمله الثور فشكره ومدحه. فقال الحمار: «كنت قاعدًا بطولي فما خلاني فضولي». ثم قال له: اعلم أني لك ناصح وقد سمعت أستاذنا: يقول: إن لم يقم الثور أعطوه الجزّار ليذبحه ويعمل جلده قطعًا، وأنا خايف عليك وقد نصحتك والسلام». فلما سمع الثور كلام الحمار شكره وقال: «بكرة أسرح معهم». ثم إن الثور أكل علفه بتمامه حتى لحس المذود بلسانه. كل ذلك وصاحبهما يسمع كلامهما. فلما طلع النهار خرج التاجر وزوجته إلى دار البقر وجلسا فجاء السواق وأخذ الثور وخرج. فلما رأى الثور أستاذه حرك ذيله ومرح فضحك التاجر حتى استلقى على قفاه. فقالت له زوجته: «من أي شيء تضحك»؟ فقال لها: «سر رأيته وسمعته ولا أقدر أبوح به فأموت». فقالت له: لا بد أن تخبرني به وبسبب ضحكك ولو كنت تموت» فقال لها: «ما أقدر أن أبيحه خوفًا من الموت» فقالت له: «أنت ما تضحك إلا عليَّ». ثم إنها لم تزل تلحّ وتلحُّ عليه إلى أن غلب منها وضجر فأحضر أولاده وأرسل فأحضر القاضي والشهود وأراد أن يوصي ويبيح لها السر ويموت لأنه كان يحبها محبة عظيمة وهي بنت عمه وأم أولاده، وقد كان عُمِّر من العمر مائة وعشرين سنة. ثم إنه أرسل وأحضر جميع أهلها وأهل حارته، وقال لهم حكايته: إنه متى قال لأحد سره مات. فقال لها جميع من حضرهما: «بالله عليك اتركي هذا الأمر لئلا يموت زوجك أبو أولادك». فقالت لهم: «ما أرجع عنه حتى يقول لي وأدعه يموت». فسكتوا عنها. ثم إن التاجر قام من عندهم وتوجه إلى

الدواب يتوضأ ويرجع يقول لهم ويموت. وكان عنده ديك وتحته خمسون دجاجة. وكان عنده كلب فسمع التاجر الكلب وهو ينادى ويسب الديك ويقول له: «أنت فرحان وأستاذنا رائح يموت؟». فقال الديك للكلب: «وكيف ذلك الأمر؟» فأعاد الكلب على الديك القصة. فقال الديك: «والله إن أستاذنا قليل العقل. إن لى خمسين زوجة أراضى هذه وأصالح هذه وأستاذنا ما له إلا زوجة واحدة ولا يعرف يسوس أمره معها. ما له لا يأخذ لها من عيدان التوت ويدخل إلى خزانتها ويضربها حتى تموت أو تتوب ولا تعود تسأله عن شيء؟». فلما سمع التاجر كلام الديك وهو يخاطب الكلب قال الوزير لابنته شهرزاد: «أفعل معك مثل ما فعل التاجر بزوجته». فقالت له: «وما فعل؟» قال: «دخل بها إلى الخزانة. ثم بعد ما قطع لها من عيدان التوت وخبأها داخل الخزانة دخل الخزانة، وقال لها: «تعالى حتى أقول لك داخل الخزانة وأموت ولا ينظرنى أحد». فدخلت معه ثم إنه قفل الباب ونزل عليها بالضرب إلى أن أغمى عليها. فقالت: «تبتُ». وقبّلت يديه ورجليه وتابت وخرجت هى وإياه وفرح الجماعة وأهلها وقعدوا فى أسرّ الأحوال إلى الممات». فلما سمعت ابنة الوزير مقالة أبيها قالت له: «لا بد من ذلك». فجهزها وطلع إلى الملك شهريار وكانت قد أوصت أختها الصغيرة وقالت لها: «إذا توجهت عند الملك أرسل أطلبك فإذا جئت إلىّ قولى: يا أختى حدثينى حديثا وكلامًا نقطع به الليل والسهر وأنا أحدثك حديثًا يكون فيه إن شاء الله تعالى الخلاص». ثم إن أباها الوزير طلع بها إلى الملك، فلما رآها فرح وقال: «هل أتيت بحاجتى؟» فقال: «نعم». فبكت شهرزاد. فقال لها: «ما لك؟» فقالت: «أيها الملك إن لى أختًا صغيرة وأريد أن أودعها». فأرسل الملك إليها فجاءت إلى أختها وعانقتها وجلست تحت السرير وجلسوا يتحدثون. فقالت لها أختها الصغيرة: «بالله عليك يا أختى حدثينا حديثًا نقطع به سهر ليلتنا». فقالت: «حبا وكرامة وأدب إن أذن لى الملك».

❖ ❖ ❖

حكاية التاجر والجنى

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

أنه لما سمع الملك منهما ذلك وكان قلقًا فرح لسماع الحديث فأذن لها. قالت شهرزاد:

حكى أيها الملك السعيد أنه كان تاجر من بعض البلاد يتاجر وكان كثير المال والمعاملات فى البلاد. فركب يومًا وخرج يتاجر فى بعض البلاد فطلع عليه الحر فجلس تحت شجرة وحط يده فى خرجه فأخرج كسرة وتمرة فأكل الكسرة والتمرة. فلما فرغ من أكل التمرة رمى النواة وإذا هو بعفريت طويل القامة وبيده سيف مسلول فدنا من التاجر وقال له: «قم حتى أقتلك مثل ما قتلت ولدى». فقال له التاجر: «كيف قتلت ولدك؟» قال له: «لما أكلت التمرة ورميت نواتها جاءت النواة فى صدر ولدى وكان ماشيًا فمات لساعته». فقال التاجر: «إنّا لله وإنا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم إن كنت قتلته فما قتلته إلا خطأً منى أريد أن تعفوَ عنى». فقال الجنى: «لا بد لى من قتلك». ثم إنه جذبه وبطحه على الأرض ورفع السيف ليضربه فبكى التاجر، وقال: «فوضت أمرى إلى الله». وأنشد يقول:

الدهرُ يومان ذا أمن وذا حــذَرٌ والعيش شطران ذا صفو وذا كدرٌ

قل للذى بصروف الدهر عيرنا ... هل عاند الدهر إلا من له خطر
أما ترى الريح إن هبت عواصفها ... فليس تعصف إلا ما هو الشجر
وما ترى البحر تعلو فوقه جيفٌ ... وتستقر بأقصى قعره الدرر
فإن تكن عبثت أيدى الزمان بنا ... ونالنا من تمادى بؤسه الضرر
ففى السماء نجوم لا عداد لها ... وليس يكسف إلا الشمس والقمر
وكم على الأرض من خضر ويابسة ... وليس يُرجم إلا ما له ثمر
أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتى به القدر

فلما فرغ التاجر من شعره قال له الجنى: «اقصر كلامك والله لا بد لى من قتلك». فقال التاجر: «اعلم أيها العفريت أنى علىَّ دين ولى مال كثير وأولاد وزوجة ورهون. فدعنى أروح إلى بيتى وأوصل إلى كل ذى حق حقه وأعود إليك على رأس السنة. ولك علىَّ عهد الله وميثاقه أنى أعود إليك تفعل بى ما تريد. والله على ما أقوله وكيل». فاستوثق منه الجنى وأطلقه. فرجع إلى بلده وقضى جميع تعلقاته وأوصل الحقوق إلى أهلها وأعلم زوجته وأولاده وأوصى وقعد عندهم إلى تمام السنة. ثم إنه قام وتوضأ وأخذ كفنه تحت إبطه وودع أهله وجيرانه وخرج رغمًا عن أنفه. فأقاموا عليه الصراخ والعويل. فتمشى إلى أن وصل إلى ذلك البستان وكان ذلك اليوم رأس السنة الجديدة.

فبينما هو جالس يبكى على ما جرى له وإذا بشيخ كبير قد أقبل عليه ومعه غزالة مقيدة فسلم على ذلك التاجر وحياه، وقال له: «ما سبب جلوسك فى هذا المكان وأنت منفرد وهو مأوى الجان؟». فأخبره التاجر بما جرى له مع ذلك العفريت، فتعجب الشيخ صاحب الغزالة وقال: «والله يا أخى ما دينك إلا دين عظيم وحكايتك حكاية عجيبة، لو كتبت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر». ثم إنه جلس إلى جانبه وقال: «والله يا أخى لا أبرح من عندك حتى أنظر ما يجرى لك مع هذا العفريت». ثم إنه جلس عنده. وبينما هما فى الحديث، أدرك ذلك التاجر الخوف والفزع والغم الشديد والفكر المزيد وصاحب الغزالة بجانبه. ثم أقبل عليهما شيخ ثان ومعه كلبان أسودان من الكلاب السلوقية. فسألهما بعد السلام عليهما واستخبرهما وقال لهما: «ما سبب جلوسكما فى هذا المكان وهو مأوى الجان؟» فأخبراه بالقصة من أولها إلى آخرها.

فما استقر بهم الجلوس حتى أقبل عليهم شيخ ثالث ومعه بغلة زوزورية فسلّم عليهم فأخبروه بالقصة من أولها إلى آخرها وليس فى الإعادة إفادة يا سادة. فجلس عندهم. وإذا بغبرة قد أقبلت وزوبعة عظيمة من وسط تلك البرية، فانكشفت الغبرة وإذا به ذلك الجنى وبيده سيف مسلول وعيونه ترمى بالشرر فأتاهم وجذب ذلك التاجر بيده من بينهم، وقال له: «قم حتى أقتلك مثل ما قتلت ولدى، وحشاشة كبدى». ثم انتحب ذلك التاجر وبكى وقامت الشيوخ الثلاثة بالبكاء والعويل والنحيب فانتبذ منهم الشيخ الأول، وهو صاحب الغزالة، وقبّل يد ذلك العفريت وقال له: «أيها الجنى وتاج ملوك الجان إذا حكيت لك حكايتى مع هذه الغزالة ورأيتها عجيبة تهب لى ثلث دم هذاالتاجر». فقال: «نعم أيها الشيخ، إذا حكيت لى الحكاية ورأيتها عجيبة وهبت لك ثلث دم هذا التاجر».

قصة الشيخ الأول صاحب الغزالة

فقال الشيخ: «اعلم أيها العفريت أن هذه الغزالة هى بنت عمى ولحمى ودمى وكنت تزوجت بها وهى صغيرة السن وأقمت معها نحو ثلاثين سنة فلم أرزق منها ولدًا. فأخذت لى جارية سرية فرزقت منها ولدًا ذكرًا كأنه البدر إذا بدا بعيون وحواجب كاملة فكبر ونشأ وصار ابن خمس عشرة سنة، فعرضت لى سفرة إلى بعض المدائن فسافرت بمتجر عظيم، وكانت بنت عمى، هذه الغزالة، تعلمت السحر والكهانة من صغرها. فسحرت ذلك الولد عجلاً وتلك الجارية أمه بقرة وسلمتهما إلى الراعى. وجئت أنا بعد مدة طويلة من السفر، فسألت عن ولدى وأمه فقالت لى: «امرأتك ماتت وابنك هرب ولم أعلم أين راح».

فجلست مدة سنة، وأنا حزين القلب باكى العين، إلى أن جاء عيد الله الأكبر، فأرسلت إلى الراعى وأمرته أن يحضر لى بقرة سمينة. فحضر ببقرة سمينة، وهى جاريتى التى سحرتها هذه الغزالة. فشمرت أذيالى وأخذت السكين بيدى وأردت أن أذبحها. فصاحت وولولت وبكت فتعجبت أنا من ذلك وأخذتنى الرأفة فوقفت عنها وقلت للراعى: «ائتنى بغيرها». فصاحت ابنة عمى: «هذه اذبحها فما عندى أحسن ولا أسمن منها». فتقدمت إليها لأذبحها فصاحت. فقمت وأمرت ذلك الراعى بذبحها وسلخها فذبحها وسلخها فلم يجد فيها شحمًا ولا لحمًا غير جلد وعظم. فندمت على ذبحها حيث لا ينفعنى الندم وأعطيتها الراعى وقلت له: «ائتنى بعجل سمين». فأتانى بولدى فلما رآنى ذلك العجل قطع حبله وجاءنى وتمرغ علىّ وولول وبكى. فأخذتنى الرأفة عليه فقلت للراعى: «ائتنى ببقرة ودع هذا». فصاحت علىّ بنت عمى، هذه الغزالة، وقالت: «لا بد لك من ذبح هذا العجل فى هذا اليوم فإنه يوم شريف مبارك لا يذبح فيه إلا الشىء المليح وليس عندنا بين العجول أسمن منه ولا أحسن منه». فقلت لها: «انظرى كيف كان حال البقرة التى ذُبحت بأمرك. فها نحن طلعنا منها خائبين وما انتفعنا منها بشىء أصلاً، وندمت غاية الندم على ذبحها. والآن لا أقبل منك كلامًا فى ذبح هذا العجل هذه المرة». فقالت لى: «والله العظيم، الرحمن الرحيم، لا بد لك من ذبحه فى هذا اليوم الشريف، وإن لم تذبحه فما أنت زوجى ولا أنا زوجتك». فلما سمعت منها هذا الكلام الصعب، ولم أعلم بمقصدها، تقدمت إلى العجل وأخذت بيدى السكين. فأدرك شهر زاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح، فقالت لها أختها: «ما أحسن حديثك وأطيبه وألذه وأعذبه». فقالت لها: «وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة إن عشت وأبقانى الملك». فقال الملك فى نفسه: «والله ما أقتلها حتى أسمع بقية حديثها». ثم إنهم باتوا تلك الليلة إلى الصباح. فخرج الملك إلى محل حكمه وجاء الوزير بالكفن تحت إبطه. ثم حكم الملك وولى وعزل إلى آخر النهار ولم يأمر الوزير بشىء من ذلك، فتعجب الوزير غاية العجب وانفض الديوان ودخل الملك شهريار إلى قصره. فقالت دنيازاد لأختها شهرزاد: «أتمى لنا حديثك الذى هو حديث التاجر والجنى». قالت: «حبا وكرامة إن أذن لى الملك». فقال الملك: «احكى». فقالت:

بلغنى أيها الملك السعيد، والولى الرشيد، أنه لما أراد الشيخ أن يذبح العجل حنَّ قلبه

وقال للراعي: «ابق هذا العجل بين البهائم». كل ذلك والشيخ يحدث الجنى والجنى يتعجب من ذلك الكلام العجيب. قال صاحب الغزالة:

«يا سيد ملوك الجان، كل ذلك جرى وابنة عمى هذه الغزالة تنظر وترى وتقول: اذبح هذا العجل فإنه سمين. فلم يهن علىَّ أن أذبحه. وأمرت الراعى أن يأخذه فأخذه وتوجه به. ففى ثانى يوم، بينما أنا جالس، وإذا بالراعى مقبل إلىَّ وقال: يا سيدى، أقول لك شيئًا تُسر به ولى البشارة. فقلت: نعم. فقال: أيها التاجر، إن لى بنتًا وكانت تعلمت السحر فى صغرها من امرأة عجوز كانت عندنا. فلما كان بالأمس وأعطيتنى العجل، دخلت عليها فنظرت إليه بنتى وغطت وجهها وبكت. ثم إنها ضحكت وقالت: يا أبت، بخس قدرى عندك حتى أنك تُدخل علىَّ الرجال الأجانب؟ فقلت لها: وأين الرجال الأجانب ولماذا بكيت وضحكت؟ فقالت لى: إن هذا العجل الذى معك ابن أستاذنا، وهو مسحور، وقد سحرته زوجة أبيه هو وأمه فهذا سبب ضحكى. وأما سبب بكائى، فمن أجل أمه كيف ذبحها أبوه. فعجبت من ذلك غاية العجب. وما أيقنت بطلوع الصباح حتى جئت إليك لأعلمك. فلما سمعت أيها الجنى هذا الكلام من الراعي خرجت معه وأنا سكران من غير مدام من كثرة الفرح والسرور الذى حصل لى، إلى أن أتيت داره فرحبت بى ابنة الراعى، وقبلت يدى. ثم إن العجل جاء إلىّ وتمرغ علىَّ فقلت لابنة الراعى: أحَقٌّ ما تقولين عن هذا العجل؟ قالت: نعم يا سيدى إنه ابنك وحشاشة كبدك. فقلت لها: أيتها الصبية إن أنت خلصته فلك عندى ما تحت يد أبيك من المواشى والأموال. فتبسمت وقالت: يا سيدى ليس لى رغبة فى المال إلا بشرطين: الأول أن تزوجنى به. والثانى أن أسحر من سحرته وأحبسها وإلا فلست آمنة من مكرها. فلما سمعت أيها ا[illegible]نى كلام بنت الراعى قلت: ولك فوق ما طلبت جميع ما تحت يد أبيك من الأنعام والأموال. وأما بنت عمى فدمها لك مباح.

فلما سمعت كلامى أخذت طاسًا وملأته ماء، ثم إنها عزمت عليه ورشت به العجل وقالت له: إن كنت عجلاً وأنت على خلقة الله تعالى، دم على هذه الصفة ولا تتغير، وإن كنت مسحورًا فعد إلى خلقتك الأولى بإذن الله تعالى. وإذا به انتفض وصار إنسانًا. فوقعت عليه وقلت له: بالله عليك احك لى ما صنعت بك بنت عمى وبأمك. فحكى لى ما جرى لهما. فقلت: يا ولدى، قد بعث الله لك من خلصك وخلص حقك.

ثم إنى أيها الجنى زوجت ابنة الراعى بولدى ثم إنها سحرت ابنة عمى، هذه الغزالة، وقالت لى: هذه صورة جميلة ليست بصورة وحشية يكره النظر إليها.

ثم إن بنت الراعى أقامت عندنا أيامًا وليالى، وأيامًا حتى اختارها الله إليه، وبعد أن توفيت سافر ابنى إلى الهند وهى بلاد هذا الرجل الذى جرى لك معه ما جرى.

فعند ذلك أخذت الغزالة بنت عمى وسرت بها من بلد إلى بلد أبصر خبر ولدى حتى ساقتنى المقادير إلى هذا المكان ورأيت التاجر جالسًا يبكى. وهذا حديثى». فقال الجنى: «هذا حديث عجيب وقد وهبت لك ثلث دمه».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

قصة الشيخ الثانى صاحب الكلبين

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

فعند ذلك تقدم الشيخ الثانى، صاحب الكلبين السلوقيين، وقال للجنى: «إن حكيت لك ما جرى لى مع أخويَّ هذين الكلبين ورأيتها أغرب حكاية وأعجب تهب لى ثلث دمه؟» فقال له: «إن كانت حكايتك أعجب وأغرب ف ذلك».

فقال له الشيخ: «اعلم يا سي ك الجان، أن هذين الكلبين أخواي وأنا ثالثهم، ومات والدى وخلف لنا ثلاثة آلاف دينار فتحت أنا دكانًا أ ع فيه وأشترى وكذلك أخواى كل واحد فتح دكانًا. فما قعدت كثيرًا إلا وأخى الكبير، أحد هذين الكلبين، باع متاع دكانه بألف دينار واشترى بضائع ومتجرًا وسافر، فغاب عنا سنة كاملة. وبينما أنا يومًا فى دكانى إذ وقف علىَّ سائل فقلت يفتح لك الله، فقال لى، وقد بكى: ما بقيت تعرفنى؟ فحققته وإذا به أخى. فقمت ورحبت به وذهبت به إلى البيت، فسألته عن حاله فأجابنى: لا تسأل لأن المال مال، والحال حال، فقمت وأدخلته الحمام وألبسته حلة من ملابسى وأخذته إلى دارى. ثم كشفت حسابى وبيع دكانى فوجدت أنى قد كسبت ألف دينار ورأس مالى ألفا دينار، فقسمت الربح بين أخى وبينى وقلت له: احسب أنك ما سافرت وما تغربت. فأخذ المال وهو فرحان وفتح له دكانة وقمت أيامًا وليالى. ثم بعد ذلك. قام أخى الثانى وهو الكلب الآخر وباع ما كان عنده وجميع ما له وأراد السفر فمنعناه فلم يمتنع. فاشترى تجارة وسافر وغاب سنة. ثم إنه أتانى كما أتى أخوه الكبير فقلت له: «يا أخى، أما نصحتك أن لا تسافر؟ فبكى وقال: «يا أخى هذا مقدر وها أنا فقير لا أملك الدرهم الفرد، عريان ما علىَّ قميص. فأخذته أيها الجنى وأدخلته الحمَّام وألبسته ثوبًا جديدًا من ملابسى وجئت به إلى دكانى فأكلنا وشربنا، وبعده قلت له: يا أخى إنى أعمل حساب دكانى فى كل رأس سنة مرة والذى أراه زائدًا هو بينى وبينك. فقمت أيها العفريت، وعملت حساب دكانى فرأيت ألفى دينار، فحمدت البارى تعالى، فأعطيته ألفًا وبقى معى ألف.

فقام أخى وفتح دكانًا وقعدنا جملة أيام. وبعد مدة قام علىَّ أخواى وأرادا أن أسافر فى صحبتهما فلم أفعل وقلت لهما: أى شىء كسبتما فى سفركما حتى أكسب أنا؟ فما سمعت منهما. وأقمنا فى دكاكيننا نبيع ونشترى وهما يعرضان علىَّ السفر كل سنة وأنا لا أرضى حتى مضت لنا ست سنين فأنعمت عليهما بالسفر وقلت لهما: يا أخويَّ، ها أنا مسافر معكما ولكن هلمَّ ننظر أى شىء معكما من المال؟ فلم أجد معهما شيئًا بل ودًّرا كل شىء لأنهما كانا عاكفين على الأكل والشرب والملذات. فما كلمتهما ولا قلت لهما شيئًا، بل قمت وعملت حساب دكانى وما خليت عندى من المال، وكل ما كان عندى من البضائع، فوجدت معى ستة آلاف دينار. ففرحت وقمت قسمتها نصفين وقلت لهما: هذه ثلاثة آلاف دينار لى ولكما لكى نتاجر بها. وقمت دفنت الثلاثة آلاف دينار الأخرى احتمالاً أن يجرى علىَّ ما جرى عليهما، فأجئ وأجد ثلاثة آلاف دينار نفتح بها دكاكيننا، فارتضيا كلاهما، فأعطيت كل واحد ألف دينار وبقى لى مثلهما ألف دينار.

فتبضعنا البضائع الواجبة، وتجهزنا للسفر، واكترينا مركبًا، ونقلنا إليه حوائجنا وسافرنا أول يوم وثانى يوم مدة شهر كامل. فدخلنا مدينة ومعنا بضائعنا، فربحنا فى الدينار عشرة دنانير وأردنا أن نسافر، فوجدنا على شاطئ البحر جارية عليها ثياب خلقة مقطعة، فقبّلت يدى وقالت: يا سيدى هل فيك حسنة ومعروف أجازيك عليهما؟ قلت: نعم إنى أحب الحسنة والمعروف وإن لم تجازينى، فقالت: يا سيدى تزوجنى وخذنى إلى بلادك فإنى قد وهبت نفسى لك فافعل معى معروفًا. وأما أنا فممن يفعل معه المعروف والحسنة وأجازيك عليهما ولا يغرنك حالى. فلما سمعت كلامها حن لها قلبى لأمر يريده الله عز وجل، فأخذتها وكسوتها وفرشت لها فى المركب فرشًا حسنًا وأكرمتها ثم سافرنا. أما أخواى فحسدانى على كثرة بضاعتى وصارا يتحدثان فى قتلى، وأخذ مالى وقالا: نقتل أخانا ويصير المال جميعه لنا وزين لهما الشيطان أعمالهما وخليانى. وبينما أنا نائم، حملانى وزوجتى ورميانى فى البحر، فلما استيقظت زوجتى انتفضت فصارت عفرية وحملتنى وأصعدتنى إلى جزيرة وغابت عنى قليلاً وعادت عند الصباح وقالت: ها أنا جاريتك أنا التى حملتك ونجيتك من القتل بإذن الله تعالى واعلم أنى جنية رأيتك فحبك قلبى لله، وأنا مؤمنة بالله ورسوله، فجئتك بالذى رأيتنى فيه، فتزوجت بى، وها أنا قد نجيتك من الغرق وقد غضبت على أخويك ولا بد من أن أقتلهما. فلما سمعت حكايتها تعجبت وشكرتها على فعلها وقلت لها: أما هلاك أخوى فلا. ثم قصصت ما جرى لى معهما من أول الزمان إلى آخره، فلما عرفت حقيقة أمرى قالت: أنا فى هذه الليلة أطير إليهما وأغرق مركبهما وأهلكهما. فقلت لها: بالله عليك لا تفعلى فإن المثل يقول: يا محسنًا لمن أساء كفى المسيء فعله. وهما أخواى على كل حال. قالت: والله لا بد لى من قتلهما فتوسلت إليها فيهما. ثم إنها حملتنى وطارت، فوضعتنى على سطح دارى، ففتحت الأبواب، وأخرجت الذى خبأته تحت الأرض، وفتحت دكانى بعد ما سلمت على الناس، واشتريت بضائع. فلما كان العشاء، رجعت إلى بيتى فوجدت هذين الكلبين مربوطين فى دارى، فلما رآيانى قاما إلى وبكيا وتعلقا بى فلم أشعر إلا وزوجتى قالت: هذان أخواك، فقلت: ومن فعل بهما هذا الفعل؟ قالت: أنا أرسلت إلى أختى ففعلت بهما ذلك، وما يتخلصان إلا بعد عشر سنوات، فجئت وأنا سائر إليها لتخلصهما بعد إقامتهما عشر سنوات فى هذه الحال. فرأيت هذا الرجل فأخبرنى بما جرى له فأردت أن لا أبرح حتى أنظر ما يجرى بينك وبينه. وهذه قصتى. فقال الجنى: «إنها حكاية عجيبة وقد وهبت لك ثلث دمه وجنايته».

❖ ❖ ❖

قصة الشيخ الثالث صاحب البغلة

قال الشيخ الثالث صاحب البغلة: «أنا أحكى لك حكاية أعجب من الاثنين وتهب لى باقى دمه وجنايته أيها الجنى». قال: «نعم».

قال الشيخ: «أيها السلطان، ورئيس الجان، إن هذه البغلة كانت زوجتى، فسافرت وغبت عنها سنة كاملة، ثم قضيت سفرى وجئت إليها، وكانت فاجرة، فلما رأتنى -جلت وقامت إلىّ بكوز فيه ماء، فتكلمت عليه ورشتنى وقالت: اخرج من هذه الصورة إلى صورة كلب. فصرت

فى الحال كلبًا فطردتنى من البيت. فخرجت من الباب، ولم أزل أسير حتى وصلت إلى دكان جزار فتقدمت وصرت آكل من العظام، فلما رآنى صاحب الدكان أخذنى ودخل بى بيته. فلما رأتنى بنت الجزار غطت وجهها منى وقالت: تجىء لنا برجل وتدخل به علينا؟ فقال أبوها: أين الرجل؟ قالت: هذا الكلب رجل سحرته امرأته وأنا أقدر أن أخلصه. فلما سمع أبوها كلامها قال: بالله عليك يا ابنتى خلصيه. فأخذت كوزًا فيه ماء، وتكلمت عليه، ورشت علىَّ منه قليلاً وقالت: اخرج من هذه الصورة إلى صورتك الأولى. فعدت إلى صورتى فقبلت يدها وقلت لها: أريد أن تسحرى زوجتى كما سحرتنى. فأعطتنى قليلاً من الماء وقالت: إذا رأيتها نائمة، رش هذا الماء عليها وتكلم معها بأى كلام أردته فإنها تتحول إلى ما أنت طالب. فأخذت الماء، ودخلت إلى زوجتى، فوجدتها نائمة. فرششت عليها الماء وقلت: اخرجى من هذه الصورة إلى صورة بغلة. فصارت فى الحال بغلة، وهى هذه التى تنظرها بعينك أيها السلطان ورئيس ملوك الجان. فقال لها: أصحيح؟ فهزت رأسها وقالت بالإشارة تعنى: «إى والله» هذا حديثى وما جرى لى». فلما فرغ من حديثه اهتز الجنى من الطرب ووهب له ثلث دمه. فأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح. فقالت لها أختها: «يا أختى ما أحلى حديثك وأطيبه وألذه وأعذبه». فقالت: «وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة إن عشت وأبقانىَ الملك». فقال الملك: «لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها لأنه عجيب». ثم باتوا تلك الليلة إلى الصباح. فخرج الملك إلى محل حكمه، وخرج العسكر والوزير واحتبك الديوان، فحكم الملك وولى وعزل ونهى وأمر إلى آخر النهار. فانفض الديوان، فدخل الملك شهريار إلى قصره. فلما أقبل الليل قالت دنيازاد: «يا أختى أتمى لنا حديثك». فقالت: «حبًا وكرامة».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية الصياد والعفريت

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

أن الشيخ الثالث قال للجنى حكاية أعجب من الحكايتين فتعجب الجنى غاية العجب واهتز من الطرب، وقال: «قد وهبت لك باقى جنايته وأطلقته لكم». فأقبل التاجر على الشيوخ، وشكرهم. وهنأوه بالسلامة، ورجع كل واحد إلى بلده. وما هذا بأعجب من حكاية الصياد، قال: «وكيف ذلك؟» قالت:

بلغنى أيها الملك السعيد أنه كان رجل صياد وكان طاعنًا فى السن، وله زوجة وثلاثة أولاد وهو فقير الحال وكان من عادته أن يرمى شبكته كل يوم أربع مرات لا غير. ثم إنه خرج يومًا من بعض الأيام فى وقت الظهر وأتى شاطئ البحر وحط مقطفه وشمر قميصه وخاض فى البحر وطرح شبكته وصبر إلى أن استقرت فى الماء وجمع خيطانَها فوجدها ثقيلة، فجذبها، فلم يقدر على ذلك، فجاء بالطرف للبر، ودق وتدًا وربطها وتعرى وغطس فى الماء حول الشبكة، وما زال يعالج حتى أطلعها ففرح وخرج ولبس ثيابه وأتى الشبكة فوجد فيها حمارًا ميتًا، وقد خرق الشبكة. فلما رأى ذلك حزن وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. إن هذا الرزق عجيب». وأنشد يقول:

يا خائضًا فـي ظلام الليل والهلكة — اقصر عنالك فليس الرزق بالحركة
أما ترى البحر والصياد منتصبًا — لرزقه ونجـوم الليل محتبكه
قد خاض فى وسطه والموج يلطمه — وعينه لم تزل فى كلكل الشبكه
حتى إذا بات مسرورًا بليلتـه — بالحوت قد شق سفود الردى حنكه
ابتاعه منه من قد بات ليلتـه — خلوًا من البرد فى خير من البركه
سبحان ربى يعطى ذا ويحرم ذا — هـذا يصيد وهذا يأكل السمكه

ثم قال: «هيا لا بد من كرامة إن شاء الله تعالى». وأنشد يقول:

وإذا بليت بعسرة فالبس لها — صبر الكريم فإن ذلك أحزم
لا تشكون إلى العباد فإنما — تشكو الرحيم إلى الذى لا يرحم

ثم خلصه من الشبكة وعصرها، فلما فرغ من عصرها نشرها وخاض البحر، وقال: «بسم الله». وطرحها وصبر عليها حتى استقرت فثقلت ورسخت أكثر من الأول. فظن أنه سمك، فربط الشبكة وتعرى ونزل وغطس وعالج إلى أن خلصها وأطلعها على البر فوجد فيها زيرًا كبيرًا، وهو ملآن رملاً وطينًا، فلما رأى ذلك تأسف وأنشد يقول:

يا حرقة الدهر كفى — إن لم تكفى فعفى
خرجت أطلب رزقى — وجدت رزقى توفى
كم جاهل فى الثريا — وعالم فى الثرى مختفى

ثم إنه رمى الزير، وعصر شبكته ونظفها، واستغفر الله تعالى، وعاد إلى البحر ثالث مرة ورمى الشبكة وصبر عليها حتى استقرت فى الماء وجذبها فوجد فيها شقفًا وقوارير وعظامًا، فاغتاظ الصياد جدا وبكى وأنشد يقول:

هو الرزق لا حل لديك ولا ربط — ولا أدب يعطيك رزقًا ولا خطُّ
ولا الحظ والأرزاق إلا مقسمٌ — فأرض بها خصب وأرض بها قحط
تحطُّ صروف الدهر كل مهذب — وترفع من يستحق له الحط
فيا موت زر إن الحياة ذميمة — إذا انحطت البازات وارتفع البط
فلا عجبًا إن كنت عاينت فاضلاً — فقيرًا وذا نقص بدولته يسطو
فطير يطوف الأرض شرقًا ومغربًا — وآخر يعطى الطيبات ولا يخطو

ثم إنه رفع رأسه إلى السماء يقول: «اللهم، إنك تعلم أنى لم أرم شبكتى كل يوم إلا أربع مرات، وقد رميت ثلاثًا ولم يأتنى شىء فارزقنى اللهم هذه المرة برزقى». ثم إنه سمى الله، ورمى الشبكة فى البحر، وصبر إلى أن استقرت، وجذبها، فلم يطق جذبها وإذا بها اشتبكت فى الأرض فقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله». ثم أنشد:

أف للدنيا إذا كانت كذا — أنا فيها فى بلاء وأذى
إن صفا عيش امرئ فى صبحها — جرعته ممسيًا كأس الردى
ولقد كنت إذا ما قيل من — أنعم الناس عيشًا قيل ذا

ثم تعرى وغطس وصار يعالج حتى أخرجها إلى البر وفتح الشبكة فوجد فيها قمقم

نحاس أصفر ملآن وفمه مختوم برصاص عليه طبع خاتم سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام. فلما رآه الصياد فرح، وقال: «هذا أبيعه فى سوق النحاس فإنه يساوى عشرة دنانير ذهبًا». ثم إنه حركه فوجده ثقيلاً ووجده مسدودًا، فقال فى نفسه: «يا ترى أى شىء فى هذا القمقم؟ أفتحه وأنظر ما فيه وبعد هذا أبيعه». ثم إنه أخرج سكينًا وعالج الرصاص إلى أن فكه من القمقم وحطه على الأرض وهزه لينصب ما فيه، فلم ينزل منه شىء فتعجب غاية العجب. ثم إنه خرج من القمقم دخان صعد إلى عنان السماء، ومشى على وجه الأرض، وبعد ذلك تكامل الدخان وانتفض فصار عفريتًا رأسه فى السحاب، ورجلاه فى التراب، برأس كالقبة، بأيد كالمذارى، برجلين كالسوارى، بفم كالمغارة، وأسنان كالحجارة، ومناخير كالإبريق، وعينان كالسراجين، أعبس أنحس. فلما رأى الصياد ذلك العفريت، ارتعدت فرائصه، وتشبكت أسنانه، ونشف ريقه، وعمى عن طريقه، فلما رآه العفريت قال: «لا إله إلا الله، سليمان نبى الله». ثم قال العفريت: «يا نبى الله، لا تقتلنى، فإنى عدت لا أخالف لك قولاً ولا أعصى لك أمرًا». فقال له الصياد: «أيها المارد، تقول: سليمان نبى الله، وسليمان مات من مدة ألف وثمانى مئة سنة ونحن فى آخر الزمان. وما قصتك وما سبب دخولك فى هذا القمقم؟».

فلما سمع المارد كلام الصياد قال: «لا إله إلا الله، أبشر يا صياد». فقال الصياد: «بماذا تبشرنى؟» فقال: «بقتلك فى هذه الساعة شر قتلة».

قال الصياد: «يعدمك العافية تستاهل على هذه البشارة يا قيم العفاريت زوال الستر عنك. لأى شىء تقتلنى؟. وأى شىء يوجب قتلى وقد خلصتك من القمقم ونجيتك من قرارالبحر وأخرجتك إلى البر؟».

قال العفريت: «تمنَّ علىَّ أى مِيتة تموتها وأى قتلة تُقتَلها».

فقال الصياد: «ما ذنبى حتى يكون هذا جزائى منك؟!».

قال العفريت: «اسمع حكايتى يا صياد».

قال الصياد: «قل، وأوجز فى الكلام، فإن روحى وصلت إلى أنفى».

فقال: «اعلم يا صياد أنى من الجن المارقين وقد عصيت سليمان بن داود، عليهما السلام، أنا وصخر الجنى، فأرسل لى وزيره، آصف بن برخيا، فأتى بى كرهًا وقادنى وأنا ذليل على رغم أنفى وأوقفنى بين يديه. فلما رآنى سليمان، استعاذ منى وعرض علىَّ الإيمان والدخول تحت طاعته فأبيت. فدعا بهذا القمقم. وحبسنى فيه، وختم علىَّ بالرصاص، وطبعه بالاسم الأعظم، وأمر الجن فاحتملونى وألقونى فى وسط البحر، فأقمت مئة عام وقلت فى قلبى؟ كل من خلصنى أغنيته إلى الأبد. فمرت مئة عام ولم يخلصنى أحد. ودخلت علىَّ مئة أخرى فقلت: كل من خلصنى فتحت له كنوز الأرض. فما خلصنى أحد. فمر علىَّ أربع مئة عام أخرى. فقلت: كل من خلصنى أقضى له ثلاث حاجات. فلم يخلصنى أحد، فغضبت غضبًا شديدًا وقلت فى نفسى؟ كل من خلصنى فى هذه الساعة قتلته ومنيته كيف يموت. وها أنت قد خلصتنى ومنيتك كيف تموت».

فلما سمع الصياد كلام العفريت قال: «يا للعجب، أنا ما جئت أخلصك إلا فى هذه الأيام؟» ثم قال الصياد للعفريت: «اعفُ عن قتلى يعفُ الله عن قتلك، ولا تهلكنى فيسلط عليك من يهلكك».

فقال المارد: «لا بد من قتلك فتمن عليَّ أى ميتة تموتها». فلما تحقق ذلك منه الصياد راجع العفريت وقال: «اعف عنى إكرامًا لما أعتقتك».

فقال العفريت: وأنا ما أقتلك إلا لأجل ما خلصتنى. فقال له: «يا شيخ العفاريت، هل أصنع معك مليحًا فتقابلنى بالقبيح؟ ولكن لم يكذب المثل حيث قال:

فعلنا جميلاً قابلونا بضدِّه وهذا لعمرى من فعال الفواجر
ومن يفعل المعروف مع غير أهله يُجازى كما جوزى مجير امِّ عامر

فلما سمع العفريت كلامه قال له: «لا تطل فلا بد من موتك». فقال الصياد: «هذا جنى وأنا أنسىّ وقد أعطانى الله عقلاً كاملاً وها أنا أدبر على هلاكه بحيلتى وعقلى وهو يدبر بمكره وخبثه».

ثم قال للعفريت: «هل صممت على قتلى؟». قال: «نعم». فقال له: «بالاسم الأعظم المنقوش على خاتم سليمان بن داود، عليهما السلام، أسألك عن شىء وتصدقنى فيه؟». قال: «نعم». ثم إن العفريت لما سمع ذكر الاسم الأعظم اضطرب واهتز، وقال له: «سل وأوجز».

فقال له: «أنت كنت فى هذا القمقم، والقمقم لا يسع يدك ولا رجلك فكيف يسعك كلك؟».

فقال له العفريت: «وأنت لا تصدق أننى كنت فيه؟».

فقال الصياد: «لا أصدقك أبدًا حتى أنظرك فيه بعينى».

حينئذ انتفض العفريت، وصار دخانًا على البحر واجتمع ودخل القمقم قليلاً قليلاً حتى استكمل الدخان داخل القمقم.

وإذا بالصياد أسرع وأخذ سدادة الرصاص المختومة وطبعها على فم القمقم ونادى على العفريت، وقال له: «تمنَّ علىَّ أى ميتة تموتها، لأرمينَّك فى هذا البحر وأبنى لى هنا بيتًا وكل من أتى هنا أمنعه أن يصطاد وأقول له: هنا عفريت كل من أخرجه يمنيه كيف يموت وكيف يقتله».

فلما سمع العفريت كلام الصياد ورأى نفسه محبوسًا وأراد الخروج فلم يقدر ومنعه خاتم سليمان وعلم أن الصياد تحيَّل عليه قال: «أنا كنت أمزح معك

فقال له الصياد: «تكذب يا أحقر العفاريت وأقذرها وأ[illegible]ا».

ثم إن الصياد أخرج القمقم إلى جانب البحر، فقال له العفريت: «لا لا». فقال الصياد: «أى أى»... فرقق المارد كلامه وخضع وقال: «ما تريد أن تصنع بى يا صياد؟» قال: «ألقيك فى البحر، إن كنت أقمت فيه ألفًا وثمانمائة سنة فأنا أجعلك أن تمكث فيه إلى أن تقوم الساعة، أما قلت لك: أبقنى يبقك الله، ولا تقتلنى يقتلك الله؟ فأبيت قولى وما أردت إلا أن تغدر بى، فرماك الله فى يدى فغدرت بك». قال العفريت: «افتح لى حتى أحسن إليك». فقال له الصياد: «تكذب يا ملعون، أنا مثلى ومثلك كمثل وزير الملك يونان والحكيم دوبان». فقال العفريت: «و[illegible] وزير الملك يونان والحكيم دوبان وما قصتهما؟» فقال الصياد: اعلم أيها العفريت...

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية وزير الملك يونان

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

إنه كان فى قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، فى مدينة الفرس وأرض رومان، ملك يقال له: يونان، وكان ذا مال وجنود وهيبة وأعوان من سائر الأجناس. وكان فى جسده برص وقد أعيا الأطباء والحكماء ولم ينفعه منهم شرب أدوية ولا سفوف ولا دهان، ولم يقدر أحد من الأطباء أن يبرئه.

وكان قد دخل إلى مدينة الملك يونان حكيم كبير طاعن فى السن يقال له الحكيم دويان وكان قد قرأ الكتب اليونانية والفارسية والرومانية والعربية والسريانية وعلم الطب والنجوم وعلم تأسيس حكمتها وقواعد أمورها ومنفعتها ومضرتها وعلم جميع النباتات والحشائش والأعشاب المضرة والنافعة وعلم الفلاسفة وحاز جميع العلوم الطبية وغيرها.

ثم إن الحكيم لما دخل المدينة وأقام بها أيامًا قلائل سمع خبر الملك وما جرى له فى بدنه من البرص الذى ابتلاه الله به وقد عجزت عن مداوته الأطباء وأهل العلوم. فلما بلغ ذلك الحكيم بات مشغولاً ولما أصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح، لبس الحكيم أفخر ثيابه ودخل على الملك يونان وقبل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العز والنعم، وأحسن ما به تكلم، وأعلمه بنفسه فقال: «أيها الملك، بلغنى ما اعتراك من هذا الذى فى جسدك وإن كثيرًا من الأطباء ما عرفوا هذه الحيلة فى ذهابه وها أنا أداويك أيها الملك ولا أسقيك دواء ولا أدهنك بدهن». فلما سمع الملك يونان كلامه تعجب وقال له: «كيف تفعل؟ فوالله إن أبرأتنى أغنك لولد الولد وأنعم عليك وكل ما تمنيته فهو لك وتكون نديمى وحبيبى». ثم إنه خلع عليه وأحسن إليه، وقال له: «أتبرئنى من هذا المرض بلا دواء ولا دهان؟» قال: «نعم أبرئك». فتعجب الملك غاية العجب. ثم قال له: «أيها الحكيم الذى ذكرته لى يكون فى أى الأوقات، وأى الأيام فأسرع يا والدى؟». قال له: «سمعًا وطاعة، إنه يكون غدًا».

ثم نزل إلى المدينة واكترى له بيتًا وحطّ فيه كتبه وأدويته وعقاقيره، ثم استخرج الأدوية والعقاقير وجعل منها صولجان وجوفه وعمل له قبضة وصنع له كرة بمعرفته.

فلما صنع الجميع وفرغ منها، صعد إلى الملك فى اليوم الثانى ودخل عليه وقبّل الأرض بين يديه وأمره أن يركب إلى الميدان وأن يلعب بالكرة والصولجان. وكان معه الأمراء والحجاب والوزراء وأرباب الدولة. فما استقر به الجلوس فى الميدان حتى دخل عليه الحكيم دويان وناوله الصولجان، وقال له: «خذ هذا الصولجان واقبض عليه مثل هذه القبضة وامش فى الميدان واضرب الكرة حتى تعرق كفك وجسدك فينفذ الدواء من كفك فيسرى فى جسدك فإذا فرغت وحا[illegible] بك الدواء فارجع إلى قصرك وادخل بعد ذلك الحمام واغتسل ونم فقد برئت والسلام».

فعند ذلك أخذ الملك يونان الصولجان من الحكيم وأمسكه بيده وركب الجواد ورمى الكر[illegible] بين يديه وساق خلفها حتى لحقها وضربها بقوة وقد قبض بكفه على قبضة الصولجان وما زال يضرب الكرة ويسوق فرسه خلفها ويضربها حتى عرقت كفه وسائر بدنه وسرى الدواء من القبضة وعرف الحكيم دويان أن الدواء سرى فى جسده، فأمره بالرجوع إلى قصره ودخول

الحمام من ساعته، فرجع الملك يونان من وقته، وأمر أن يخلو له الحمام، فأخلوه له وتسارعت عليه الفراشون، وتسابقت المماليك، وأعدوا له قماشه، ودخل الحمام واغتسل جيدًا، ولبس ثيابه داخل الحمام، وخرج منه وركب إلى قصره ونام فيه.

هذا ما كان من أمر الملك يونان، وأما ما كان من أمر الحكيم دوبان فإنه رجع إلى داره وبات. فلما أصبح الصباح برز إلى الملك واستأذن عليه. فأمره بالدخول، فدخل وقبَّل الأرض بين يديه وأشار إلى الملك بهذه الأبيات، وأنشد مترنمًا يقول:

سَمَت الفضائل إذ دُعيت لها أبا ... وإذا دَعت يومًا سواك لها أبى
يا صاحب الوجه الذى أنواره ... تمحو من الخطب الجسيم غياهبا
ما زال وجهك مشرقًا متهللاً ... كى لا ترى وجه الزمان مقطبا
أوليتنى من فضلك المنن التى ... فعلت بنا فعل السحاب مع الرُّبا
وصرفت جل المال فى طلب العلا ... حتى بلغت من المعالى ماربا

فلما فرغ من شعره، نهض الملك قائمًا على قدميه، واعتنقه وأجلسه بجنبه وخلع عليه الخلع السنية، وكان الملك لما خرج من الحمام نظر إلى جسده فلم يجد فيه شيئًا من البرص وصار جسده نقيًا مثل الفضة البيضاء. ففرح الملك غاية الفرح واتسع صدره وانشرح، فلما أصبح الصباح ودخل إلى الديوان وجلس على سرير ملكه قامت إليه الحجاب وأكابر الدولة ودخل عليه الحكيم دوبان. فلما رآه قام إليه مسرعًا وأجلسه بجانبه، وإذا بموائد الطعام الفاخرة وضعت فأكل فى صحبته وما زال عنده ينادمه طول نهاره. فلما أقبل الليل أعطى الحكيم دوبان ألفى دينار غير الخلع والإنعام وأركبه جواده، فانصرف إلى داره، والملك يونان يتعجب من صنعه ويقول: هذا دوانى من ظاهر جسدى ولم يدهنى بدهان. فوالله، ما هذه إلا حكمة بالغة فيجب لهذا الرجل الإنعام والإكرام وأن اتخذه جليسًا وأنيسًا مدى الزمان. وبات الملك يونان مسرورًا فرحان لصحة جسمه وخلاصه من مرضه.

فلما أصبح، خرج الملك يونان، وجلس على كرسيه، ووقفت أرباب دولته، وجلست الأمراء والوزراء عن يمينه ويساره. وعند ذلك طلب الملك يونان الحكيم دوبان فدخل عليه وقبل الأرض بين يديه. فقام له الملك وأجلسه بجانبه، وأكل معه وحياه وخلع عليه وأعطاه ولم يزل يحدثه إلى أن أقبل الليل فرسم له بخمس خلع وألف دينار، ثم انصرف الحكيم إلى داره وهو شاكر للملك. فلما أصبح الصباح، خرج الملك إلى الديوان، وقد أحدقت به الأمراء والوزراء والحجاب. وكان للملك وزير بشع المنظر نحس لئيم بخيل حسود مجبول على الحسد، فلما رأى ذلك الوزير أن الملك قرب الحكيم دوبان وأعطاه هذا الإنعام حسده عليه وأضمر له الشر كما قيل فى المعنى: ما خلا جسد من حسد.

ثم إن الوزير تقدم إلى الملك يونان وقبَّل الأرض بين يديه وقال له: «يا ملك العصر والأوان، أنا الذى نشأتُ فى إحسانك ولك عندى نصيحة عظيمة، فإن أخفيتها عنك كنت خائنًا فإن أمرتنى أن أبديها أبديتها لك». فقال الملك وقد أزعجه كلام الوزير: «وما نصيحتك؟». فقال: «أيها الملك الجليل، قالت القدماء: من لم ينظر فى العواقب، فما الدهر له

بصاحب. وقد رأيت الملك على غير صواب حيث أنعم على عدوه وعلى من يطلب زوال ملكه وقد أحسن إليه وأكرمه غاية الإكرام وقربه غاية القرب، وأنا أخشى على الملك. فقال له الملك، وقد انزعج وتغير لونه: «من الذى تزعم وإلى من تشير؟». قال له الوزير: «يا أيها الملك، إن كنت نائمًا فاستيقظ فأنا أشير إلى الحكيم دوبان». فقال الملك: «ويلك، هذا صديقى وهو أعز الناس عندى لأنه دوانى بشىء قبضته بيدى وأبرأنى من مرضى الذى عجزت فيه الأطباء وهو لا يوجد مثله فى هذا الزمان، ولا فى الدنيا غربًا ولا شرقًا، وأنت تقول عنه هذا المقال؟ وأنا من اليوم أرتب له الرواتب وأجرى عليه فى كل شهر ألف دينار، ولو قاسمته ملكى لكان قليلاً، وما أظن أنك تقول ذلك إلا حسدًا». ثم قالت شهرزاد:

بلغنى أيها الملك السعيد، أن الملك يونان قال لوزيره: «أيها الوزير، أنت داخلك الحسد من أجل هذا الحكيم وتريد قتله، وبعد ذلك أندم كما ندم الملك السندباد على قتل الباز». فقال الوزير: «العفو يا ملك الزمان، وكيف كان ذلك؟» فقال الملك:

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية الملك السندباد وطير الباز

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

أنه كان ملك من ملوك الفرس وكان يحب الفرجة والتنزه والصيد والقنص. وكان له باز رباه ولا يفارقه ليلاً ولا نهارًا، وكان طول الليل يرفعه على يده وإذا خرج للصيد يأخذه معه وعمل له طاسًا من الذهب معلقًا فى رقبته يسقيه منه.

فبينما الملك جالس، وإذا بأمير الرخة يقول: «يا ملك الزمان، هذا أوان الخروج للصيد». فأمر الملك بالخروج، وأخذ الباز على يده وساروا إلى أن وصلوا إلى واد وضربوا حلقة الصيد وإذا بغزالة وقعت فى حلقة الصيد فقال الملك: «كل من قفزت الغزالة فوق دماغه قتلته». فضيقوا عليها حلقة الصيد، وإذا بالغزالة أقبلت على الملك، وثبتت على رجليها، وحطت يديها على صدرها، كأنها تريد تقبيل الأرض أمام الملك، فطأطأ الملك للغزالة، فقفزت من فوق دماغه وراحت إلى البر. فالتفت الملك إلى العسكر فرآهم يتغامزون عليه. فقال: «يا وزير، ما يقول العسكر؟» فقال: «يقولون: إنك قلت كل من قفزت الغزالة فوق رأسه يقتل». فقال الملك: «وحياة رأسى لأتبعنها حتى أجىء بها». فطلع الملك تابعًا الغزالة ولم يزل وراءها إلى جبل من الجبال فأرادت أن تعبر الغار فسيب الباز وراءها فصار يلطمها فى عينيها إلى أن أعماها ودوخها. فسحب الملك دبوسًا وضربها فقلبها ونزل فذبحها وسلخها وعلقها فى قربوس السرج وكانت ساعة حر وكانت الغابة مقفرة لا يوجد فيها ماء.

فعطش الملك وعطش الحصان فالتفت الملك فرأى شجرة ينزل منها ماء مثل السمن وكان الملك لابسًا كفوفًا من جلد السرادق. فأخذ الطاس من رقبة الباز وملأه من ذلك الماء ووضع الماء قدامه، وإذا بالباز لطس الطاس فقلبه، فأخذ الملك الطاس ثانيًا وأخذ النقط النازلة حتى ملأه وظن أن الباز عطشان، فوضعه قدامه فلطسه ثانيًا وقلبه. فانقبض الملك من

الباز وقام ثالث مرة وملأ الطاس وقدمه للحصان فقلبه الباز بجناحه. فقال الملك: «الله يخيبك يا أشأم الطيور، حرمتنى الشرب وحرمت نفسك وحرمت الحصان». وضرب الباز بالسيف فرمى أجنحته. فصار الطير يقيم رأسه ويقول بالإشارة: «انظر الذى فوق الشجرة». فرفع الملك عينه، فرأى فوق الشجرة حية والذى يسيل سمها. فندم الملك على قص أجنحة الباز، ثم قام وركب حصانه وسار، ومعه الغزالة، إلى أن وصل إلى الوطاق بمتاعه، فأعطى الغزالة الطباخ وقال له:

«خذها اشوها، وجلس الملك على الكرسى والباز على يده». فشهق الباز ومات. فصرخ الملك حزنًا وأسفًا على قتل الباز؛ لأنه خلصه من الهلاك.

هذا ما كان من حديث الملك السندباد. فلما سمع الوزير كلام الملك يونان قال له: «أيها الملك العظيم الشأن، وما الذى فعلته من الضرر، ورأيت منه سوءًا، وإنما أفعل هذا شفقة عليك، ولأجل أن تعلم صحة ذلك، وإلا هلكت كما هلك وزير كان احتال على ابن ملك من الملوك. قال الملك يونان: «وكيف كان ذلك؟».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



حكاية الوزير المحتال

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

فقال الوزير: اعلم أيها الملك العظيم أنه كان لبعض الملوك ولد مولع بالصيد والقنص، وكان معه وزير لأبيه قد أمره أبوه الملك أن يكون معه أينما توجه. فخرج الولد يومًا من الأيام إلى الصيد والقنص، وخرج معه وزير أبيه فسارا جميعًا، فنظرا وحشًا كبيرًا، فقال الوزير لابن الملك: «دونك هذا الوحش فاطلبه». فقصده ابن الملك حتى غاب عن العين وغاب عنه الوحش فى البرية وتحير ابن الملك فلم يعرف أين يروح ولا أين يسير، وإذا بجارية على رأس الطريق وهى تبكى.

فقال لها ابن الملك: «من أنت؟» قالت: «أنا بنت ملك من ملوك الهند، وكنت فى البرية فأدركنى النعاس فوقعت من على الدابة ولم أعلم بنفسى فصرت منقطعة حائرة». فلما سمع ابن الملك كلامها، رثى لحالها وحملها على ظهر دابته. وأردفها، وسار حتى مر بخربة. فقالت له الجارية: «يا سيدى، أريد أن أزيل ضرورة». فأنزلها إلى خربة، ثم تعوقت فاستبطأها، فدخل خلفها وهى لا تعلم به، فإذا هى غولة وهى تقول لأولادها: «يا أولادى قد أتيتكم اليوم بغلام سمين». فقالوا لها: «ائتينا به حتى نرعاه فى بطوننا».

فلما سمع ابن الملك كلامهم أيقن بالهلاك وارتعدت فرائصه وخشى على نفسه، ورجع. فخرجت الغولة فرأته كالخائف الوجل وهو يرتعد. فقالت له: «ما بالك خائفًا؟» فقال لها: «إن لى عدوا وأنا خائف منه». فقالت الغولة: «إنك تقول: أنا ابن ملك». قال لها: «نعم».

قالت له: «ما لك لا تدفع لعدوك شيئًا من المال ترضيه به؟» فقال لها: «إنه لا يرضى إلا بالروح، وأنا خائف منه وأنا رجل مظلوم». فقالت له: «إن كنت مظلومًا كما تزعم، استعن بالله؛ فإنه يكفيك شره وشر ما تخاف منه».

فرفع ابن الملك رأسه إلى السماء، وقال: «يا من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، اللهم انصرنى على عدوى واصرفه عنى إنك على ما تشاء قدير». فلما سمعت الغولة دعاءه انصرفت عنه، وانصرف ابن الملك إلى أبيه وحدثه بحديث الوزير فدعا الملك الوزير وقتله.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



بقية قصة وزير الملك يونان

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

وأنت أيها الملك متى أمنت لهذا الحكيم قتلك شر القتلات، والذى قد أحسنت إليه وقربته منك يعمل على هلاكك، أما ترى أنه أبرأك من المرض من ظاهر الجسد بشىء أمسكته بيدك؟ فلا تأمن أن يهلكك بشىء تمسكه أيضًا؟». فقال الملك يونان: «صدقت يا وزير، وقد يكون كما ذكرت أيها الوزير الناصح، وأن هذا الحكيم أتى جاسوسًا فى طلب هلاكى وإن يكن أبرأنى بشىء أمسكته بيدى يقدر أن يهلكنى بشىء أشمه» ثم إن الملك يونان قال لوزيره: «أيها الوزير كيف العملُ فيه؟» فقال الوزير: «أرسل خلفه فى هذا الوقت واطلبه فإن حضر فاضرب عنقه فتُكفَى شره وتستريح منه، واغدر به قبل أن يغدر بك». فقال الملك يونان: «صدقت أيها الوزير». ثم إن الملك أرسل إلى الحكيم فحضر وهو فرحان، ولا يعلم ما قدره الرحمن، كما قال بعضهم:

يا خائفًا من دهره كن آمنًا   سلّم أمورك للذى مدَّ الثرى
إن المقدّر كائن يا سيدى   فلك الأمان من الذى ما قدّرا

فلما دخل الحكيم على الملك أنشد يقول:

إذا لم أقم فى بعض حقك بالشكر   فقل لى لمن أعددت نظمىَ أو نثرى
لقد جدت لى قبل السؤال بأنعم   أتتنى بلا مطل لديك ولا عذر
فما لى لا أعطى ثناءك حقه   وأثنى على جدواك فى السر والجهر
سأذكر ما أوليتنى من صنائع   يخف بها همى وإن أثقلت ظهرى
كن عن همومك معرضًا   وكل الأمور إلى القضا
أبشر بخير عاجل   تنسى به ما قد مضى
فلربَّ أمر متعب   لك فى عواقبه رضا
الله يفعل ما يشا   ء فلا تكن متعرضا
سلم أمورك للطيف العالم   وأرح فؤادك من جميع العالم
واعلم بأن الأمر ليس كما تشا   بل ما يشاء الله أحكم حاكم
طب وانشرح وانس الهموم جميعها   إن الهموم تزيل لب الحازم
لا ينفع التدبير عبدًا عاجزًا   فاتركه تسلم فى نعيم دائم

فقال الملك للحكيم دوبان: «أتعلم لماذا أحضرتك؟» فقال الحكيم: «لا يعلم الغيب إلا الله تعالى». فقال له الملك: «أحضرتك لأقتلك وأعدمك روحك». فتعجب الحكيم دوبان من تلك

المقالة غاية العجب، وقال: «أيها الملك، لماذا تقتلنى وأى ذنب بدا منى؟». فقال له الملك: «قد قيل لى إنك جاسوس وقد أتيت تقتلنى، وها أنا أقتلك قبل أن تقتلنى». ثم إن الملك صاح على السياف، وقال له: «اضرب رقبة هذا الغدار». فقال الحكيم للملك: «أبقنى يبقِك الله، ولا تقتلنى يقتلك الله».

ثم إنه كرر عليه القول مثل ما قلت لك أيها العفريت، وأنت لا تدعنى، بل تريد قتلى. فقال الملك يونان للحكيم دوبان: «إنى لا آمن إلا أن أقتلك، فإنك أبرأتنى بشىء مسكته بيدى، فلا آمن أن تقتلنى بشىء أشمه أو غير ذلك». فقال الحكيم: «أيها الملك، هذا جزائى منك تقابل المليح بالقبيح؟». فقال الملك: «لا بد من قتلك من غير مهلة». فلما تحقق الحكيم أن الملك قاتله لا محالة بكى وتأسف على ما صنع من الجميل مع غير أهله، كما قيل فى المعنى:

ميمونة من سمات العقل عارية	لكن أبوها من الألباب قد خُلِقا
لم يمش فى يابس يومًا ولا وحلٍ	إلا بنور هداه يتقى الزلقا

وبعد ذلك تقدم السياف، وعصب عينيه، وشهر سيفه، والحكيم يبكى، ويقول للملك: «أبقنى يبقك الله، ولا تقتلنى يقتلك الله». وأنشد يقول:

نصحت فلم أفلح وخانوا فأفلحوا	وأورثنى نصحى لدار هوانِ
فإن عشت لم أنصح وإن مت فالعنوا	ذوى النصح من بعدى بكل لسانِ

ثم إن الحكيم قال للملك: «هذا جزائى منك، تجازينى مجازاة التمساح». فقال الملك: «وما حكاية التمساح؟» فقال الحكيم: «لا يمكننى أن أقولها وأنا فى هذا الحال، فبالله عليك أبقنى يبقِك الله».

ثم إن الحكيم بكى بكاءً شديدًا. فقام بعض خواص الملك، وقال: «هب لى دم هذا الحكيم لأننا ما رأيناه فعل معك ذنبًا وما رأيناه إلا أبرأك من مرضك الذى أعيا الأطباء والحكماء». فقال لهم الملك: «لم تعرفوا سبب قتلى هذا الحكيم، وذلك لأنى إن أبقيته فأنا هالك لا محالة ومن أبرأنى من المرض الذى كان بى بشىء أمسكته بيدى، يمكن أن يقتلنى بشىء أشمه. فأنا أخاف أن يقتلنى ويأخذ علىَّ البرطيل (الرِّشْوَة) لأنه جاسوس وما جاء إلا ليقتلنى فلا بد من قتله، وبعد ذلك آمن على نفسى». فقال الحكيم: «أبقنى يبقك الله، ولا تقتلنى يقتلك الله».

فلما تحقق أيها العفريت أن الملك قاتله لا محالة قال له: «أيها الملك، إن كان لا بد من قتلى فأمهلنى حتى أنزل إلى دارى وأوصى أهلى وجيرانى أن يدفنونى وأبرئ نفسى وأهب كتب الطب، وعندى كتاب خاص الخاص أهديه لك هدية تدّخره فى خزائنك». فقال الملك للحكيم: «وما فى ذلك الكتاب؟» قال: «فيه شىء لا يحصى، وأقل ما فيه من الأسرار أنك إذا قطعت رأسى وفتحت ثلاث ورقات وقرأت ثلاثة أسطر من الصفحة التى على يسارك، فإن الرأس يكلمك ويجاوبك عن جميع ما سألته عنه». فتعجب الملك غاية العجب، واهتز من الطرب، وقال له: «أيها الحكيم إذا قطعت رأسك تكلمنى؟». قال: «نعم أيها الملك». فقال الملك: «هذا أمر عجيب». ثم إن الملك أرسله مخفورًا.

فنزل الحكيم إلى داره وقضى أشغاله فى ذلك اليوم، وفى اليوم الثانى خرج الحكيم إلى الديوان، وخرجت الأمراء والوزراء والحجاب والنواب وأرباب الدولة جميعًا وصار الديوان كزهر البستان. وإذا بالحكيم طلع على الديوان ووقف قدام الملك مخفورًا ومعه كتاب عتيق ومكحلة فيها زرور وجلس وقال: «ائتونى بطبق». فأتوه بطبق وكبَّ فيه الذرور وفرشه وقال: «أيها الملك، خذ هذا الكتاب ولا تفتحه حتى تقطع رأسى، فإذا قطعته فاجعله فى ذلك الطبق ومر بكبسه على ذلك الذرور، فإذا فعلت ذلك فإن دمه ينقطع، ثم افتح الكتاب أول سطر».

ثم إن الملك أمر بضرب رقبته، فأخذ الكتاب منه وقام السياف وضرب رقبته فطاح الرأس فى وسط الطبق وكبسه على الذرور. فانقطع دمه، ففتح الحكيم دوبان عينيه وقال: «افتح الكتاب أيها الملك». ففتحه الملك فوجده ملصقًا فحط أصبعه فى فمه وبلها بريقه وفتح أول ورقة والثانية والثالثة والورق ما ينفتح إلا بجهد. ففتح الملك ست أوراق ونظر فيها فلم يجد فيها كتابة. فقال الملك: «أيها الحكيم ما فيه شىء مكتوب». فقال الحكيم: «افتح زيادة على ذلك». ففتح ثلاثًا أُخر فما كان إلا قليل من الزمن حتى سرى فيه السم لوقته وساعته، فإن الكتاب كان مسمومًا. فعند ذلك تزعزع الملك وصاح، وقال: «سرى فىَّ الدواء». وأنشد الحكيم دوبان يقول:

تحكموا واستطالوا فى تحكمهم ... وعن قليل كأن الحكم لم يكن
لو أنصفوا أنصفوا لكن بغوا فبغى ... عليهم الدهر بالآفات والمحن
وأصبحوا ولسان الحال ينشدهم ... هذا بذاك ولا عُتبُ على الزمن

فلما فرغ رأس الحكيم من كلامه سقط الملك من وقته ميتًا. فاعلم أيها العفريت أنه لو أبقى الملك يونان الحكيم دوبان لأبقاه الله، ولكن أبى وطلب قتله فقتله الله. وأنت أيها العفريت لو أبقيتنى لأبقاك الله.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

بقية حكاية الصياد مع الجنى

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

أن الصياد قال للعفريت: «لو أبقيتنى كنت أبقيتك، لكن ما أردت إلا قتلى، فها أنا أقتلك بحبسك فى هذا القمقم، وألقيك فى هذا البحر». فصرخ المارد، وقال: «بالله عليك أيها الصياد، لا تفعل وأبقنى أنت ولا تؤاخذنى بعملى، فإذا كنت أنا مسيئًا، كن أنت محسنًا، وفى الأمثال السائرة: يا محسنًا لمن أساء كفى المسىء فعلُه. ولا تعمل كما عملت أمامة مع عاتكة». فقال الصياد: «وما عملت أمامة مع عاتكة؟». فقال العفريت: «ما هذا وقت حديث وأنا فى هذا السجن حتى تطلقنى منه وأنا أحدثك به». فقال الصياد: «خل عنك هذا الكلام، لا بد من إلقائك فى البحر، ولا سبيل إلى إخراجك أبدًا، فإنى كنت أستعطفك وأتضرع إليك وأنت لا تريد إلا قتلى بغير ذنب أستوجبه منك، ولا فعلت معك سوءًا أبدًا، ولم افعل معك إلا خيرًا لكونى أخرجتك من السجن. فلما فعلت ذلك علمت أنك ردى الأصل. واعلم أنى إذا رميتك فى

هذا البحر، فلأجل أن يرميك فيه ثاني مرة كل من يخرجك أخبره بما جرى لي معك وأحذره. وتقيم بهذا البحر إلى آخر الزمان حتى تهلك». قال له العفريت: «أطلقني فهذا وقت المروءة، وأنا أعاهدك أني لا أسوءك أبدًا، بل أنفعك بشيء يغنيك».

فأخذ عليه الصياد العهد أنه إذا أطلقه لا يؤذيه أبدًا، بل يعمل معه الجميل، فلما استوثق منه وحلفه باسم الله الأعظم فتح له الصياد القمقم فتصاعد الدخان حتى خرج وتكامل فصار عفريتًا سويا ورفس القمقم فرماه في البحر.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قصة البركة والسمكات الملونة

قالت شهرزاد: بلغني أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد والقول السديد.

فلما رآه الصياد رمى القمقم في البحر أيقن بالهلاك، وقال: «هذه ليست علامة خير». ثم إنه قوّى على قلبه وقال: «أيها العفريت، قال الله تعالى: **﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا﴾** وأنت قد عاهدتني وحلفت أنك لا تغدر بي يغدر بك الله، فإنه غيور يُمهل ولا يُهمل، وأنا قلت لك مثل ما قال الحكيم دوبان للملك يونان: أبقني يبقك الله». فضحك العفريت، ومشى قدامه، وقال: «أيها الصياد، اتبعني». فمشى الصياد وراءه، وهو لا يصدق بالنجاة، ومشى إلى أن خرجا إلى ظاهر المدينة وصعدا جبلاً ونزلا إلى برية متسعة وإذا هما ببركة ماء، فنزل في وسطها، وقال للصياد: «اتبعني» فتبعه إلى وسط البركة فوقف العفريت وأمر الصياد أن يطرح الشبكة ويصطاد. فنظر الصياد إلى البركة فرأى فيها السمك الملون الأبيض والأحمر، والأزرق والأصفر. فتعجب الصياد من ذلك، ثم إنه أخرج شبكته وطرحها وجذبها فوجد فيها أربع سمكات كل سمكة بلون، فلما رآها الصياد فرح، فقال له العفريت: «ادخل بها على السلطان، وقدمها له، فإنه يعطك ما يغنيك، وبالله اقبل عذري، فإني في هذا الوقت لم أعرف طريقًا، وأنا في هذا البحر مدة ألف وثمانمائة عام، ما رأيت ظاهر الدنيا إلا في هذه الساعة، ولا تصطاد من هذه البركة إلا مرة كل يوم». وودعه، وقال له: «أستودعك الله». ثم دق الأرض برجله، فانشقت الأرض وبلعته.

ومضى الصياد إلى المدينة، وهو متعجب مما جرى له مع العفريت، ثم أخذ السمك ودخل إلى منزله وأخذ ماجورًا، ثم ملأه ماء وحط فيه السمك، فاختبط السمك من داخل الماجور في الماء، وحمل الماجور فوق رأسه. وقصد به قصر الملك كما أمره العفريت.

فلما طلع الصياد على الملك، وقدم له السمك تعجب الملك غاية التعجب من ذلك السمك الذي قدمه الصياد؛ لأنه لم ير في عمره صفته ولا شكله، فقال الملك: «أعطوا هذا السمك للجارية الطباخة». وكانت هذه الجارية أهداها له ملك الروم منذ ثلاثة أيام، وهو لم يجربها في طبيخ. فأمر الوزير بعد ما أوصاها وأمره أن يعطي الصياد أربع مئة دينار، فأعطاه الوزير إياها، فأخذها في حجره، وراح يجري إلى بيته، وهو يقع ويقوم ويعثر ويظن أن ذلك منامًا، ثم اشترى لعياله ما يحتاجون، ورقد وهو فرحان مسرور.

هذا ما كان من أمر الصياد، وأما ما كان من أمر الجارية فإنها أخذت السمك، ونظفته ونصبت الطاجن، ثم إنها تركت السمك، فما هو إلا أن استوى وجهه وقلبته على الوجه الثانى، وإذا بحائط المطبخ قد انشق وخرجت منه صبية كاملة الوصف، وهى لابسة كوفية حرير بهداب أزرق، وفى أذنيها أقراط، وفى معاصمها زوج أساور، وفى أصابعها خواتم بفصوص من الجواهر الثمينة، وفى يدها قضيب من الخيزران، فغرزت القضيب فى الطاجن، وقالت: «يا سمك، هل أنت على العهد مقيم؟». فلما رأت الجارية ذلك غشى عليها، والصبية أعادت القول ثانيًا، وثالثًا، والسمك رفع رأسه من الطاجن وقال بلسان فصيح: «نعم، نعم». ثم أنشد السمك يقول:

إن عدتِ عدنا وإن وافيت وافينا ... وإن هجرت فإنّا قد تكافينا

فعند ذلك، قلبت الصبية الطاجن، وخرجت من موضع ما أتت والتحم الحائط كما كان، ثم أفاقت الجارية من غشيتها فرأت الأربع سمكات محروقة مثل الفحم الأسود، فقالت: «من أول غزواته انكسرت عصاه». ووقعت على الأرض مغشيا عليها.

وفيما هى على هذا الحال، إذا بالوزير قد جاءها فرآها واقعة الدردبيس، لا تعرف السبت من الخميس، فحركها برجله، فأفاقت وبكت وأعلمت الوزير بالقضية وبالذى جرى، فتعجب الوزير وقال: «ما هذا إلا أمر عجيب». ثم إنه أرسل الصياد، فأتوا به، فصرخ عليه الوزير، وقال له: «أيها الصياد، جئ لنا بأربع سمكات مثل التى جئت بها».

فخرج الصياد إلى البركة، وطرح الشبكة وجذبها وإذا بأربع سمكات مثلها، فأخذها وجاء بها إلى الوزير. فدخل بها الوزير إلى الجارية، وقال لها: «قومى اقليها قدامى حتى أرى هذه القضية». فقامت الجارية وأصلحتها ووضعت الطاجن على النار وطرحتها فيه.

فما استقر السمك فى الطاجن، إلا والحائط قد انشق، والصبية ظهرت وهى فى هيئتها الأولى، وفى يدها قضيب فغرزته فى الطاجن، وقالت: «يا سمك يا سمك، هل أنت على العهد القديم مقيم؟». وإذا بالسمك رفعت رؤوسها وقالت: هذا البيت السابق، وهو:

إن عدتِ عدنا وإن وافيت وافينا ... وإن هجرت فإنّا قد تكافينا

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد أنه لما تكلم السمك قلبت الصبية الطاجن بالقضيب وخرجت من موضع ما جاءت والتحم الحائط. فقام الوزير، وقال: «هذا أمر عجيب، لا يجب إخفاؤه على الملك». ثم إنه تقدم إلى الملك وأخبره بالقصة وبما شاهد قدامه. فقال الملك: «لا بد أن أنظر بعينى».

فأرسل إلى الصياد وأمره أن يأتى بأربع سمكات مثل الأولى وأمهله ثلاثة أيام. فذهب الصياد وأتاه بالسمك فى الحال، فأمر الملك أن يعطوه أربع مئة دينار، ثم التفت الملك إلى الوزير وقال له: «قم أنت واقل السمك هنا قدامى». فقال الوزير: «سمعًا وطاعة». فأحضر الطاجن وهيأ السمك، ووضع الطاجن على النار، ورمى فيه السمك، وإذا بالحائط قد انشق

وخرج منه عبد أسود، كأنه طود من الأطواد، أو من بقية قوم عاد، وفى يده فرع من شجرة خضراء، وقال بكلام مزعج: «يا سمك، يا سمك، هل أنت على العهد القديم مقيم؟». فرفع السمك رأسه من الطاجن، وقال: «نعم، نعم نحن على العهد».

إن عدت عدنا وإن وافيت وافينا وإن هجرت فإنَّا قد تكافينا

فأقبل العبد على الطاجن، وقلّبه بالغصن الذى فى يده، وخرج من موضع ما أتى. فنظر الوزير والملك إلى السمك، فرأياه صار مثل الفحم. فانذهل الملك، وقال: «هذا أمر لا يمكن السكوت عنه، وإن السمك له شأن». فأمر الملك بإحضار الصياد فلما حضر، قال له الملك: «ويلك من أين هذا السمك؟» فقال له: «من بركة بين أربعة جبال، تحت هذا الجبل الذى بظاهر مدينتك». فالتفت الملك إلى الصياد، وقال: «مسيرة كم يوم؟». قال: «يا مولانا السلطان، مسيرة نصف ساعة».

فتعجب السلطان، وأمر بخروج العسكر وركوب الجيش من وقته، والصياد معه سائرًا قدامه يلعن العفريت، إلى أن صعدوا الجبل ونزلوا إلى برية واسعة الأطراف لم يروها مدة عمرهم، والسلطان وجميع العسكر يتعجبون، فنظروا تلك البرية والبركة فى وسطها بين أربعة جبال، والسمك فيها أربعة ألوان، أحمر وأبيض، وأصفر وأزرق. فوقف الملك، وتعجب، وقال للعسكر ولمن حضر: «هل أحد منكم رأى هذه البركة؟». فقالوا: «لا يا ملك الزمان، لم نرها مدة عمرنا». فسأل الطاعنين فى السن. فقالوا: «عمرنا ما رأينا هذه البركة فى هذا المكان». فقال الملك: «والله لا أدخل مدينتى ولا أجلس على تخت ملكى حتى أعرف أمر هذه البركة وهذا السمك». ثم أمر الناس بالنزول حول هذه الجبال، ثم دعا بالوزير، وكان وزيرًا خبيرًا عاقلاً لبيبًا، عالمًا بجميع الأمور، فحضر بين يديه، فقال له: «إنى أحببت أن أعمل شيئًا وأخبرك به، وخطر ببالى أن أنفرد بنفسى فى هذه الليلة، وأبحث عن خبر هذه البركة، وهذا السمك، فاجلس أنت على جانب خيمتى، وقل للأمراء والوزراء والحجاب والنواب، وكل من سأل عنى: إن السلطان متوعك، وأمرنى أن لا أعطى أحدًا دستورًا بالدخول عليه، ولا تعلم أحدًا بقصدى». فما قدر الوزير أن يخالفه.

ثم إن الملك غير حليته، وتقلد سيفه، وتسلق أحد الجبال ومشى بقية ليلته إلى الصباح، فلاح له سواد من بعيد ففرح، وقال: «لعلى أجد من يخبرنى بقضية البركة والسمك». فاقترب فوجد قصرًا مبنيا بالحجارة السود مصفحًا بالحديد، وبابه أحد مصراعيه مفتوح والآخر مغلق، ففرح الملك، ووقف على الباب، ودق دقا لطيفًا فلم يسمع جوابًا، فدق ثانيًا وثالثًا فلم يسمع جوابًا. فدق دقا مزعجًا، فلم يجبه أحد. فقال: «لا شك أنه خال». فشجع نفسه ودخل باب القصر، إلى دهليز وصرخ، وقال: «يا أهل القصر، رجل غريب وعابر سبيل، هل عندكم شىء من الزاد؟». وأعاد ثانيًا وثالثًا. فلم يسمع جوابًا. فقوى نفسه وثبت جنانه ودخل من الدهليز إلى وسط القصر. فلم يجد فيه أحدًا غير أنه مفروش من الحرير والأقطاع الملوكية والستائر المرخاة. وفى وسط القصر رحبة وأربعة أواوين، ومصطبة وإيوان، قبل إيوان وشاذروان وفسقية عليها أربعة سباع من الذهب الأحمر، تلقى الماء من أفواهها كالدر

والجوهر، وداثر القصر طيور، وعلى القصر شبكة من الذهب تمنعها من الصعود، ولم ير أحدًا داخل القصر. فتعجب الملك لكونه لم ير أحدًا يستخبر منه عن تلك البرية والبركة والسمك والجبال والقصر. فجلس بين الأبواب يتفكر وإذا هو بأنين من كبد حزين وهو يترنم:

أخفيت ما ألقاه منك وقد ظهر ... والنوم من عينى تبدل بالسهر
يا دهر لا تبق عليَّ ولا تذر ... ها مهجتى بين المشقة والخطر
ما ترحمون عزيز قوم ذل فى ... شرع الهوى وغنيَّ قوم افتقر
كنا نغار من النسيم عليكمُ ... لكن إذا نزل القضا عمى البصر
ما حيلة الرامى إذا التقت العدا ... فأراد يرمى السهم فانقطع الوتر
وإذا تكاثرت الهموم على الفتى ... أين المفر من القضا ومن القدر

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية الشاب المسحور

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد والقول السديد.

فلما سمع السلطان الأنين نهض قائمًا وتبع الحس، فوجد سترًا مرخيا على باب مجلس. فرفع الستر فرأى خلفه شابًا جالسًا على سرير مرتفع عن الأرض مقدار ذراع وهو شاب مليح بقد رجيح، ولسان فصيح، وجبين أزهر، وخد أحمر، وشامة، كما قال الشاعر:

ومهفهف من شعره وجبينه ... تمسى الورى فى ظلمة وضياء
لا تنكروا الخال الذى فى خده ... كل الشقيق بنقطة سوداء

ففرح الملك حين رآه وسلم عليه، والصبى جالس وعليه قباء حرير بطراز من الذهب المصرى. وفوق رأسه تاج مكلل بالجواهر، ولكن عليه أثر الحزن. فسلم عليه الملك، فرد عليه بأحسن سلام، وقال: «يا سيدى، أنت أعز من القيام ولى المعذرة». فقال الملك: «فقد عذرتك أيها الفتى، وأنا ضيف عندك وأتيتك فى حاجة مهمة، أريد أن تخبرنى عن هذه البركة وعن هذا السمك، وعن هذا القصر، وعن سبب وحدتك فيه وسبب بكائك». فلما سمع الشاب هذا الكلام، نزلت دموعه على خدوده وبكى بكاءً شديدًا حتى غرق صدره، ثم أنشد يقول بصوت مرتجف:

قولوا لمن ناوم الأيام لو نامت ... كم أقعدت نائبات الدهر كم قامت
إن كنت نمت فعين الله ما نامت ... لمن صفا الوقت والدنيا لمن دامت؟!

ثم تنفس تنفُّسَ الصعداء، وأنشد:

سلِّم الأمر إلى رب البشر ... واترك الهم ودع عنك الفكر
لا تقل فيما جرى كيف جرى ... كل شيء بقضاء وقدر

فتعجب الملك وقال له: «ما يبكيك أيها الشاب؟» فقال: «وكيف لا أبكى وهذه حالتى؟» فاعتبر الملك حال الشاب، وإذا هو نصفه التحتانى حجر إلى قدميه وما سوى ذلك إلى شعر

رأسه بشر. فلما رأى الملك الشاب بهذه الحالة حزن حزنًا عظيمًا وقال: «يا فتى، لقد زدتنى هما على همى، كنت أطلب السمك وخبره، وصرت الآن أسأل عن خبره وخبرك، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. عجل علىَّ يا فتى ببث الحديث». فقال: «أعطنى سمعك وبصرك». فقال الملك: «إن سمعى وبصرى حاضران». فقال الشاب: «إن لهذا السمك ولى أمرًا عجيبًا لو كتب بالإبر على آماق البصر، لكان عبرة لمن اعتبر». فقال الملك: «وكيف ذلك؟» فقال:

يا سيدى، اعلم أن والدى كان ملك هذه المدينة واسمه محمود، وهو صاحب الجزائر السود، وهو فى هذه الجبال الأربعة، فأقام فى الملك سبعين عامًا ثم توفى والدى وتسلطنت بعده وتزوجت بابنة عمى وكانت تحبنى محبة عظيمة بحيث إنى إذا غبت عنها لا تأكل ولا تشرب حتى ترانى عندها. فقعدت فى صحبتى خمس سنين. إلى أن راحت فى بعض الأيام إلى الحمام، فأمرت الطباخ أن يسرع لنا فى شىء ويجهز لنا عشاء وطعامًا، ثم دخلت هذا القصر ونمت موضع ما نتام وأمرت جاريتين أن تجلسا عندى واحدة على رأسى والثانية عند رجلىّ وقد تشوشتُ لغيابها ولم يأخذنى نوم غير أن عينى مغمضة ونفسى يقظانة. فسمعت الجارية التى عند رأسى تقول للتى عند رجلىّ: «يا مسعودة، مسكين سيدنا ومسكين شبابه ويا خسارته مع سيدتنا الساحرة». فقالت لها: «نعم، لعن الله النساء الخائنات، ولكن مثل سيدنا وشبابه لا يصلح لمثل هذه». فقالت التى عند رأسى «إن سيدنا مغفل لا يسأل عنها». فقالت الأخرى: «ويلكِ، وهل سيدنا عنده علم أو هى تخليه فى اختياره إلا تعمل له عملاً فى قدح الشراب الذى يشربه كل ليلة قبل المنام، وتضع فيه البنج، فيرقد ولا يشعر بما يجرى ولا يعلم أين تذهب ولا أين تروح، فبعد أن تسقيه الشراب، تلبس أثوابها وتخرج من عنده وتغيب إلى الفجر وتأتى إليه وتبخر عند أنفه بشىء فيستيقظ من منامه». فلما سمعت كلام الجوارى صار الضياء فى وجهى ظلامًا وما أيقنت أن الليل أقبل فجاءت بنت عمى من الحمام فمددنا السماط وأكلنا وجلسنا ساعة نتنادم كالعادة ثم دعت الشراب الذى أشربه عند المنام فناولتنى الكاس فأهرقتها. وجعلت كأنى أشربه مثل عادتى ورقدت فى الوقت وصرت أغط كأنى نائم فقالت: «نم ليلتك، لا تقم أبدًا إنى كرهتك وكرهت صورتك ومِلت نفسى من عشرتك ولا أدرى متى يقبض الله روحك». ثم لبست أفخر ثيابها وتبخرت وأخذتْ سيفى وتقلدته وفتحت أبواب القصر وخرجت.

فقمت وتبعتها حتى خرجت من القصر وشقت أسواق المدينة إلى أن انتهت إلى باب المدينة، فتكلمت بكلام لا أفهمه فتساقطت الأقفال وانفتح الباب وخرجت أنا خلفها وهى لا تشعر حتى انتهت إلى بين الكيمان وأتت حصنًا فيه قبة مبنية بطوب ولها باب. فدخلت وتسلقت أنا على سطح القبة وأشرفت عليها، وإذا بينت عمى قد دخلت على عبد أسود له شفة كالغطا، وشفة كالوطا، وشفة تلقط الرمل على الحصا، وهو مبتلى وراقد على قش قصب لابس أهدامًا خلقة فقبلت الأرض بين يديه فرفع ذلك العبد رأسه إليها، وقال: «ويلك لأى شىء كان قعودك إلى هذه الساعة؟» فقالت: «يا سيدى، أما تعلم أنى متزوجة بابن عمى وأنا أكره صورته وأبغض صحبته ولولا أنى أخشى على خاطرك ما كنت تركت الشمس تطلع إلا ومدينته

خراب، يزعق فيها البوم والغراب، وتأويها الثعالب والذئاب، وأنقل حجارتها إلى خلف جبل قاف». فقال العبد: «تكذبين يا ملعونة، وأنا أحلف وحق فتوة السودان، ولا تظنى مروءتنا مروءة البيضان فى هذا اليوم، إن بقيت تقعدين إلى هذا الوقت لا أصاحبك، يا ملعونة، يا ملعونة، إنك تلعبين بنا شقف لكف يا قذرة، يا أخس البيضان». فلما سمعت كلامه، وأنا أنظر وأرى وأسمع ما جرى، صارت الدنيا فى وجهى ظلامًا وما عرفت روحى فى أي موضع أنا وبنت عمى واقفة تبكى عليه وتتذلل له وتقول للعبد: «يا سيدى، إذا غضبت علىَّ من يبقينى، وإذا طردتنى من يؤوينى؟»، وما زالت تبكى وتضرع له حتى رضى عنها ففرحت وقامت وقالت: «يا سيدى، ما عندك ما تأكل جاريتك؟» فقال لها: «اكشفى اللقن، فإن تحته عظام فيران مطبوخة فكليها، وقومى لهذه القوارة فيها بقية مزر فاشربيها». فأكلت وشربت وغسلت يديها وفمها.

فلما نظرت إلى هذه الفعال التى فعلتها بنت عمى تأكدت أنها خائنة وغبت عن الوجود، فنزلت من على القبة وأنا متلثم، ودخلت وأخذت السيف الذى جاءت به بنت عمى وهممت أن أقتل الأثنين فضربت العبد على رقبته فظننت أنه قد قضى عليه.

ولكن لما ضربت العبد لأجل أن أقطع رأسه، لم أقطع الوريدين، بل قطعت الحلقوم والجلد واللحم، فظننت أنى قتلته فشخر شخيرًا عاليًا فهربت بنت عمى، فرجعت إلى خلفى ورددت السيف إلى موضعه وأتيت المدينة ودخلت القصر ورقدت فى فراشى إلى الصباح، وإذا بنت عمى جاءت ونبهتنى، وإذا بها قطعت شعرها ولبست ثياب الحزن، وقالت: «يا ابن عمى، لا تعارضنى فيما أفعل، فإنه بلغنى أن والدتى توفيت وأن والدى قتل فى الجهاد وإخوتى أحدهم مات ملسوعًا والآخر مات فى الردم، فيحق لى أن أبكى وأحزن». فلما سمعت كلامها سكت عنها، وقلت: «افعلى ما بدا لك، فإنى لا أخالفك».

فقعدت فى حزن وبكاء وتعديد سنة كاملة من الحول إلى الحول. وبعد السنة قالت لى: «أريد أن تبنى لى فى قصرك مدفنًا، مثل القبة وأفرده للحزن وأسميه بيت الأحزان». فقلت لها: «افعلى ما بدا لك». فبنت لها بيتًا للحزن وبنت فى وسطه قبة ومدفنًا مثل الضريح، ثم نقلت العبد وأنزلته فيه. وهو بقى لا ينفعها أبدًا بنافعة لكن يشرب الشراب، ومن يوم جرحته ما تكلم لأن أجله ما فرغ، وصارت كل يوم تأتيه بكرة وعشيًا وتنزل إلى القبة تبكى وتعدده وتسقيه الشراب والمساليق بكرة وعشية، ولم تزل على هذا الحال إلى ثانى سنة وأنا أطوّل روحى عليها ولا ألتفت إليها ولا إلى أعمالها.

إلا أن يومًا من الأيام، دخلت عليها على غفلة منها فوجدتها تبكى، وتقول: «لما تغيبت عن ناظرى يا نزهة خاطرى؟ حدثنى يا روحى كلمنى يا صديقى. وأنشدت:

عدمت وجودى فى الورى بعد بعدكم ... فإن فؤادى لا يحب سواكمُ
خذوا أعظمى والروح أين سريتم ... وإن حللتم فادفنونى حذاكم
ونادوا باسمى عند قبرى يجبكم ... أنين عظامى عند إصغاء صداكم
فيوم الأمانى يوم فوزى بقربكم ... ويوم المنايا يوم إعراضكم عنى
إذا بت فى خوف أهدَّد بالردى ... فوصلكم عندى ألذ من الأمن

ولو أننى أصبحت فى كل نعمة وكانت لى الدنيا وملك الأكاسره
لما سويت عندى جناح بعوضة إذا لم تكن عينى لشخصك ناظره

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

فلما فرغت من كلامها وبكائها قلت لها: «يا بنت عمى، يكفيك من الحزن، فما يغنيك عن البكاء، ما بقى ينفع». قالت: «لا تتعرض لى فيما أعمله، وإن اعترضت لى قتلت نفسى». فسكت عنها وخليتها وحالها. فلم تزل فى حزن وبكاء وتعديد سنة أخرى. وبعد السنة الثالثة دخلت يومًا من الأيام وأنا مغتاظ لحادث عرض لى، وقد طال بى هذا العناء الشديد فوجدتها نحو الضريح داخل القبة وهى تقول: «يا سيدى، لا أسمع منك ولا كلمة واحدة، يا سيدى، لما لا تردُّ علىَّ جوابًا؟» ثم أنشدت تقول:

يا قبر يا قبر، هل زالت محاسنه أم زال منك ضياك المنظر النضرُ
يا قبر ما أنت لا أرض ولا فلك فكيف يُجمع فيك الشمس والقمر

فلما سمعت شعرها ازددت غيظا على غيظى، وقلت: «أواه إلى كم ذا الحزن». وأنشدتُ:

يا قبر يا قبر، هل زالت مساخمه أم زال منك ضياك المنظر القذر
يا قبر، ما أنت لا حوض ولا قدر فكيف يجمع فيك الفحم والكدر

فلما سمعت كلامى، وثبت قائمة، وقالت: «ويلك أنت الذى فعل معى هذا الفعل، وجرح صديقى وأوجعنى وشبابه، وله ثلاث سنين لا هو ميت ولا هو حى». فقلت لها: «نعم، أنا فعلت ذلك». ثم إنى أخذت سيفى وجردته فى كفى، وصوبته نحوها لأقتلها، فلما سمعت كلامى، ورأتنى مصممًا على قتلها ضحكت وقالت: «تخسأ، هيهات أن يرجع ما فات، أو تجىء الأموات، لقد أمكننى الله بمن فعل بى هذا، وكانت فى قلبى منه نار لا تطفأ ولهيب لا يخفى». ثم وقفت على قدميها وتكلمت بكلام لا أفهمه وقالت: «اخرج بسحرى، نصفك حجرًا ونصفك بشرًا». فصرت كما ترانى الآن وبقيت لا أقوم ولا أقعد ولا أنا ميت يعرف ولا أنا حى يوصف.

فلما صرت هكذا سحرَت المدينة وما فيها من الأسواق والغيطان، وكانت مدينتنا أربعة صنوف مسلمين ونصارى ويهودًا ومجوسًا، فسحرتهم سمكًا، فالأبيض المسلمون، والأحمر المجوس، والأزرق النصارى، والأصفر اليهود، وسحرت الجزائر الأربع أربعة جبال محيطة بالبركة، ثم إنها كل يوم تضربنى وتعذبنى بالسوط مئة ضربة حتى يسيل دمى وتتفسخ أكتافى، ثم تلبسنى ثوب شعر صفة اللباس على نصفى الفوقانى وتلبسنى هذه الثياب الفاخرة من فوق، ثم إن الشاب بكى وأنشد يقول:

صبرًا لحكمك يا إلهى والقضا أنا صابر إن كان فيه لك الرضا
جاروا علينا واعتدوا وتجبروا فلعل بالفردوس أن نتعوضا
قد ضقت بالأمر الذى قد نالنى فوسيلتى بالمصطفى والمرتضى

فعند ذلك التفت الملك إلى الشاب وقال: «أيها الشاب زدتنى هما على همى، بعد أن

فرجت عنى غمى، ولكن يا فتى أين هى وأين المدفن الذى فيه العبد المجروح؟». فقال الشاب: «إن العبد فى القبة، فى مدفنه راقد، وهى فى ذلك المجلس الذى يحاذى الباب، تجىء مرة فى كل يوم عندما تطلع الشمس، فأول ما تجىء تأتينى وتجردنى من أثوابى وتضربنى بالسوط مائة جلدة، وأنا أبكى وأصيح ولا لى حركة حتى أدفعها عن نفسى، وبعد أن تجلدنى تنزل للعبد بالشراب والمسلوقة تسقيه. وغدًا من باكر تجىء». قال الملك: «وحقك يا فتى، لأفعلن معك معروفًا أُذكر به ويؤرخونه إلى آخر الزمان». ثم جلس الملك يتحدث معه إلى الليل وناما. فقام الملك باكرًا، وتجرد من أثوابه وسل سيفه، ونهض إلى المحل الذى فيه العبد فنظر إلى الشمع والقناديل وبخورات وأدهان وصار يقصد العبد حتى أتاه فضربه وقتله ثم حمله ورماه فى بئر فى القصر.

ثم نزل والتف بأثواب العبد ورقد داخل الضريح والسيف معه مسلول فى طوله، فبعد ساعة أتت الملعونة الساحرة، فأول ما دخلت جردت ابن عمها من ثيابه وأخذت سوطا وضربته فقال: «أواه يكفينى ما أنا فيه يا بنت عمى، ارحمينى يا بنت عمى». فقالت: «كنت أنت رحمتنى وأبقيت لى صديقى». وضربته حتى تعبت وسال الدم من جنبيه، ثم ألبسته اللباس الشعرى والنسيج من فوقه ونزلت إلى العبد ومعها قدح الشراب وطاس المسلوقة ونزلت فى القبة وبكت وولولت وقالت: «يا سيدى، كلمنى يا سيدى حدثنى». وأنشدت تقول هذه الأبيات:

حتى متى هذا الصدود وذا الجفا ... فلقد جرى من أدمعى ما قد كفى
فلكم تطيل الهجر لى متعمدًا ... إن كان صدك حاسدى فقد اشتفى

ثم إنها بكت وقالت: «يا سيدى، كلمنى وحدثنى». أما الملك فخفض صوته وعقد لسانه وتكلم بكلام السودان، وقال: «أواه، أواه، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم». فلما سمعت كلامه صرخت من الفرح، وغشى عليها. ثم إنها استفاقت وقالت: «يا سيدى، هو صحيح؟». والملك أضعف صوته وقال: «يا ملعونة، أنت تستاهلين من يكلمك ويحدثك»؟! قالت: «وما السبب؟». قال: «السبب أنك طول النهار تعاقبين زوجك وهو يستغيث، وقد حرمنى النوم من العشاء إلى الصباح وهو يتضرع ويدعو علىَّ وعليك، وقد أقلقنى وأضرنى ولولا هذا لكنت تعافيت، فهذا الذى منعنى عن جوابى». فأجابت الملك: «عن إذنك أخلصه مما هو فيه». فقال لها الملك: «خلصيه وأريحينا». فقالت: «سمعًا وطاعة، يا سيدى».

وقامت وخرجت من القبة إلى القصر وأخذت طاسًا وملأته ماء وتكلمت عليه بكلام، فغلى الطاس وبقبق وصار يغلى كما تغلى القدر على النار، ثم رشته بالماء، وقالت: بحق ما تلوته وقلته إن كنت صرت هكذا بسحرى ومكرى، فاخرج من هذه الصورة إلى صورتك الأولى». وإذا بالشاب انتفض وقام على قدميه وفرح بخلاصه. ثم قالت له: «اخرج ولا ترجع إلى هنا وإلا قتلتك»، وصرخت فى وجهه من بين يديها.

وعادت إلى القبة ونزلت وقالت: «يا سيدى، اخرج لى حتى أنظرك وأفرح بسلامتك». فقال لها الملك بكلام ضعيف: «أى شىء عملت؟ أرحتنى من الفرع، ولم تريحينى من الأصل». فقالت: «يا حبيبى، يا سيدى، وما هو الأصل؟»، قال: «ويلاً لك يا ملعونة، أهل هذه المدينة

والأربع الجزائر، كل ليلة إذا انتصف الليل يرفع السمك رأسه ويستغيث ويدعو علىَّ وعليك، فهذا هو سبب منع عافيتى. فروحى وخلصيهم عاجلاً وتعالى خذى بيدى وأقيمينى فقد توجهت لى العافية».

فلما سمعت كلام الملك وهى تظنه العبد، وهى فرحانة قالت: «يا سيدى، على رأسى وعينى، باسم الله». ثم نهضت وقامت وهى مسرورة تجرى وخرجت إلى البركة وأخذت من مائها قليلاً، ثم تكلمت على الماء بكلام لا يفهم، فتراقص السمك ورفع رأسه، وقام فى الحال، وانفك عن أهل المدينة السحر، وصارت المدينة عامرة والبياعون يبيعون ويشترون، وصار كل واحد فى صناعته، ورجعت الجزائر كما كانت.

ثم إن الصبية الساحرة جاءت إلى الملك وقالت له: «ناولنى يدك الكريمة وقم». فقال الملك بكلام خفى: «تقربى منى». فدنت فسلَّ الملك سيفه وضربها فى صدرها، فخرج السيف يلمع من ظهرها، ثم ضربها فشقها نصفين، ورماها على الأرض شطرين، وخرج فوجد الشاب المسحور فى انتظاره، فهنأه بالسلامة وقبل الشاب يده وشكره.

فقال له الملك: «أتقعد فى مدينتك أم تجيئ معى إلى مدينتى؟» فقال الشاب: «يا ملك الزمان، أتدرى ما بينك وبين مدينتك؟» فقال الملك: «يومان ونصف». فعند ذلك قال له الشاب: «أيها الملك، إن كنت نائمًا فاستيقظ، إن بينك وبين مدينتك سنة كاملة للمُجدِّ المسافر وما أتيت فى يومين ونصف إلا لأن المدينة كانت مسحورة، وأنا أيها الملك لا أفارقك لحظة عين» ففرح الملك ثم قال: «الحمد لله الذى مَنَّ علىَّ بك وأنت ولدى لأنى طول عمرى لم أرزق ولدًا».

ثم تعانقا وفرحا فرحًا شديدًا، ثم مشيا حتى وصلا إلى القصر وأمر الملك الذى كان مسحورًا أرباب دولته أن يتجهزوا للسفر ويهيئوا أسبابه وجميع ما يحتاج إليه الحال من زاد ومؤن، فشرعوا فى التجهيز مدة عشرة أيام، وخرج هو والسلطان وقلبه ملتهب على مدينته وكيف يغيب عنها، ثم إنهما سافرا ومعهما خمسون مملوكًا وهدايا عظيمة، وما زالا مسافرين ليلاً ونهارًا سنة كاملة، وكتب الله لهما بالسلامة حتى وصلا إلى مدينة السلطان، وأرسلا فأعلما الوزير بوصول السلطان وسلامته، فخرج الوزير والعساكر بعد ما قطعوا الرجاء من الملك، فأقبل العسكر وقبلوا الأرض بين يديه وهنأوه بالسلامة، فدخل وجلس على الكرسى، ثم أقبل على الوزير وأعلمه بكل ما جرى على الشاب، فلما سمع الوزير ما جرى على الشاب هنأه بالسلامة.

ولما استقر الحال، قال الملك للوزير: «علىَّ بالصياد الذى أتانا بالسمك». فأرسل إلى الصياد وخلع عليه وسأله عن حاله، فأخبره أن له ابنًا وبنتين، فأرسل الملك وأحضرهم وتزوج ببنت وأعطى الشاب البنت الأخرى ثم أرسل الوزير سلطانًا إلى مدينة الشاب التى هى الجزائر السود، فقبل الوزير يديه وخرج وسافر من ساعته، وأما الصياد فإنه صار أغنى أهل زمانه، وما هذا بأعجب مما جرى للحمال.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية الحمال والثلاث بنات

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

أنه كان رجل من الحمالين فى مدينة بغداد وكان عزبًا، فبينما هو فى بعض الأيام واقف فى السوق، متكئًا على قفصه، إذ وقفت عليه امرأة ملتفة بإزار موصلى من حرير، بخف مزركش، بحاشية قصب وبشريط لاعب، فوقفت والتفتت إلى الحمال وقالت بكلام عذب فصيح: «هات قفصك واتبعنى». فما صدق الحمال الكلام حتى أخذ القفص وأسرع وقال: «يا نهار السعادة، يا نهار التوفيق». وتبعها إلى أن وقفت على باب دار، فطرقت الباب، فنزل رجل نصرانى فأعطته دينارًا وأخذت منه شيئًا من الزيتون، فحطته فى القفص، وقالت: «احمل واتبعنى». فقال الحمال: «هذا نهار مبارك، ونهار سعيد بالقبول». فحمل القفص وتبعها.

فوقفت على دكان تباع فيه الفواكه، واشترت منه تفاحًا شاميا وسفرجلاً عثمانيا، وخوخًا عُمانيا، وياسمينًا حلبيا، ونوفرًا دمشقيا، وخيارا أقلاميا، وليمونا مصريا، ونارنجا سلطانيا ومرسينًا ريحانيا، وتمر حنا وأقحوانا وشقائق النعمان، وبنفسجًا وجلنارًا ونسرينًا، وحطت الجميع فى قفص الحمال، وقالت: «احمل». فحمل وتبعها.

فوقفت على الجزار، وقالت له: «اقطع عشرة أرطال لحم»، فقطع لها وأعطته الثمن، ولفته فى قرطاس موز وجعلته فى القفص، وقالت: «احمل يا حمال». فحمل وتبعها.

ثم أتت الصبية ووقفت على النقلى وأخذت منه قلب فستق مما يصلح للنقل وزبيبًا تهاميا وقلب لوز وقالت للحمال: «احمل واتبعنى»، فحمل القفص وتبعها إلى أن وقفت على دكان الحلوانى، واشترت طبقًا وملأته من جميع ما عنده من مشبك وقطائف بالمسك محشوة وصابونية وأقراص ليمونية وأمشاط وأصابع ولقيمات القاضى، وأخذت من جميع أصناف الحلوى فى طبق وحطته فى القفص، فقال لها الحمال: «لو كنت أعلمتنى لأتيت بالجحيش تحمل عليه هذه الأمور». فتبسمت وضربت بيدها على كتفه وقالت له: «أسرع فى مشيك، وخل عنك الكلام الكثير وأجرك حاصل إن شاء الله تعالى».

ثم وقفت على العطار، وأخذت منه عشرة أمواه ماء ورد وماء زهر، وماء نوفر، وماء خلاف، وأخذت أبلوجين سكر، وأخذت مرش ماء ورد ممسك وحصى لبان ذكرًا، وعودًا وعنبرًا ومسكًا، وأخذت شمعًا إسكندرانيا، وحطت الجميع فى القفص، وقالت: «احمل قفصك واتبعنى»، فحمل القفص وتبعها به إلى أن أتت دارًا مليحة وقدامها رحبة فسيحة عالية البنيات مشيدة الأركان بابها بفلقين من الأبنوس مصفح بالذهب الأحمر.

فوقفت الصبية على الباب وأدارت النقاب عن وجهها، ودقت دقا لطيفًا والحمال واقف، وإذا بالباب قد انفتح بمصراعيه، فنظر الحمال إلى من فتحت لها الباب، وإذا بها ذات كمال واعتدال، فقالت الصبية البوابة للخوشكاشة: «ادخلى من الباب وحطى عن هذا الحمال المسكين». فدخلت الخوشكاشة ووراءها البوابة والحمال ومشوا حتى انتهوا إلى قاعة فسيحة مهندسة مليحة، ذات تراكيب وعقودات وكشك وسدلات وخزائن عليها ستور مرخيات، وفى وسط القاعة بركة كبيرة ملآنة ماء وفيها زورق وفى صدر القاعة سرير من المرعر مرصع

بالجوهر مرخى عليه ناموسية من الأطلس الأحمر أزرارها لؤلؤ فى قدر البندق وأكبر، وبرزت من داخلها صبية بطلعة مضية وأخلاق فيلسوفية وكأنها بعض الكواكب العلوية كما قال فيها الشاعر:

كــــأنما تبــــسمُ عن لؤلؤ | منضــــد أو بَرَدٍ أو أقــــاحْ
وطرة كــالليل مســبــــولة | وبهجــة تخجل ضوء الصبــاحْ

فنهضت الصبية الثالثة من فوق السرير، وخطرت مهلاً إلى أن صارت فى وسط القاعة عند أختيها، وقالت: «ما وقوفكما؟» انزلا عن رأس هذا المسكين الحمال». فجاءت الدلالة من قدام، والبوابة من خلف، وساعدتهما الثالثة وحططن القفص عن الحمال وأفرغن ما فى القفص ووضعن كل شىء فى محله وأعطين الحمال دينارين، وقلن له: «توجه يا حمال». فنظر إلى الصبايا وما عندهن من الشراب والفواكه والمشمومات، والحلوى والعطور وغير ذلك فتعجب غاية العجب وتوقف عن الخروج. فقالت له الصبية: «ما لك، لم لا تروح، كأنك استقللت الأجرة؟» ثم التفتت إلى أختها وقالت لها: «اعطيه دينارًا آخر». فقال الحمال: «يا سيدتى، ما استقللت الأجرة، وأجرتى ما تساوى درهمين، وإنما اشتغل قلبى وسرى بكن وكيف أنتن وحدكن ولا أحد يؤنسكن وأنتن تعرفن أن المائدة لا تقف إلا على أربعة وما لكن رابع كما قال الشاعر:

أمــا ترى أربعًــا للهــو قــد جــمــعت | جنك وعــــود وقــانونٌ ومــزمــار
ووافــقــتــهــا من المشــمــوم أربعــة | ورد وآس ومنثــــــــور ونوار
وليس يحــســن ذا إلا بـأربعــــة | خــمــــر وروض وترنيم ودينــار

وأنتن ثلاثة فتحتجن إلى رابع يكون رجلاً عاقلاً لبيبًا حاذقًا وللأسرار كاتمًا». فلما سمعن كلامه أعجبهن وضحكن منه، وقلن: «ومن لنا بذلك ونحن نخاف أن نودع السر من لا يحفظه، وقد قرأنا فى بعض الأخبار ما قال أبو نواس وأجاد:

من أطلع الناس على ســـــره | اســتوجب الكية فى جبــهــتــه

فلما سمع الحمال كلامهن قال: «وحياتكن إنى رجل عاقل أمين، قرأت كتب العلم وطالعت تواريخ الملوك والأمراء، والشاعر يقول فى كلامه:

مــا يكتم الســر إلا كل ذى ثقـــة | والســر عند خــيــار الناس مكتــومُ
الســر عندى فى بيت لــــه غلق | ضاعت مفاتيحه والباب مختوم

فلما سمعت البنات الشعر والنظم وما أبداه قلن له: «ما ندعك تجلس عندنا إلا بشرط وهو أن تكون أديبًا رصينًا لا تسأل عما لا يعنيك وإلا طردناك وضربناك». فقال الحمال: «رضيت على الراس والعين، وها أنا بلا لسان».

فقامت الخوشكاشة وشدت وسطها وصفت القنانى وروقت المدام وعملت الخضرة على جانب البحيرة وأحضرت ما يُحتاج إليه. ثم قدمت المدام وجلست هى وأختاها وجلس الحمال. ثم قدمت باطية المدام وملأت أول قدح وشربته والثانى والثالث. ثم ملأت وناولت أختها وأختها الأخرى، ثم ملأت وناولت الحمال وقالت له:

اشــرب هنيـئًـا ممتـعًـا بالعـوافى إن هـــذا الشـراب للداء شـافى

فأخذ الحمال الكاس بيده وشكر الثلاث بنات والخوشكاشة، وأنشد يقول:

لا تشـرب الكاس إلا مع أخى ثقـة وطاهـر الأصل منسـوبًا إلى السلفِ

فـالراح كـالريح إن هبت على عطر طابت وتنتن إن مـرت على الجـيفِ

كل شىء من الـدمـاء حـــرامٌ شـربه مـا خـلا دم العنقـودِ

ثم مـلأت الكاس وناولتهـا لأختهـا الوسطى فـأخذتهـا من يدهـا وشكرتهـا وشـربت، ثم ملأت وناولت صاحبة السرير، وملأت كاسًا أخرى وناولتها الحمال فشرب وأنشد:

هـاتهـا بـالله هــاتِ من كـئـوس مـتـرعــات

واسـقـنى منهـا بكـاس إنهـا مـاء الحـيـاةِ

ثم تقدم إلى صاحبة المحل فرفع الكاس بيده وشكر لها وأنشد يقول:

على البـاب عبـد من عبيدك واقف بجـودك والإحسـان مـا زال معترف

فقالت له: «والله لا أخرجك، طب نفسًا واشرب هنيا وعافية تجرى مجارى الصحة».

فشرب طنين القدح وملأ وناولها، فأخذت الصبية القدح وشربته، فترنم الحمال وأنشد:

ناولتـهـا شبـه مـصبـاح مـشـعـشـةً صـرفًـا كـأن سناها ضـوء مـقبـاس

ثم نـزلت الصبـيـة عند أخـتـهـا ومـا زالوا يشـربون وهم فى ضـحـك وغناء وأشـعـار وموشحات. ثم إن الحمـال لما طاب له الأكل والشرب والراحة طلب من البنات أن يبقى خادمًا عندهن. فقلن: «ما تبقى خادمًا عندنا إلا بشرط أن تدخل تحت الحكم ومهما رأيت لا تسأل عنه ولا عن سببه». فقال: «نعم»، فقلن: «قم واقرأ الكتابة التى على الباب». فقام إلى الباب، فوجد مكتوبًا عليه بماء الذهب: «من يتكلم فيما لا يعنيه، يسمع ما لا يرضيه». فقال الحمال: «علىَّ العهدأنى لا أتكلم فيما لا يعنينى».

ثم قامت الخوشكاشة وجهزت مأكولاً فأكلن. ثم أوقدن الشموع والقناديل وغرسن فى الشموع العنبر والعود وقعدن على الشراب بمذاكرة ذوى الألباب، وقد غيرن ذلك المقام بغيره وصففن فاكهة طرية وكذلك المشروب، وما زلن فى أكل وشرب ومنادمة ونقل وضحك ساعة من الزمان، وإذا هن بالباب يدق، فلم يختل نظامهن، وإذا بواحدة قامت إلى الباب ثم عادت وقالت: «قد كمل صفاؤنا فى هذه الليلة». قلن: «وما ذلك؟» قالت: «على الباب ثلاثة أعجام قلندرية محلوقو الذقون والرؤوس والحواجب والثلاثة عور بالعين الشمال وهذا من أعجب الاتفاق، وهم كمن قد حضر من السفر الآن، وحالة السفر ظاهرة عليهم، وقد وصلوا إلى بغداد وهذا أول دخولهم بلدنا، وأما سبب دق الباب، فإنهم لم يجدوا موضعًا يبيتون فيه، فقالوا: عسى صاحب هذه الديار يعطينا مفتاح الاصطبل أو خربة نبيت فيها الليلة، فقد أدركهم المساء، وهم غرباء ما يعرفون فى المدينة أحدًا يلتجئون إليه، ويا أختى، لكل واحد منهم شكل وصورة مضحكة». فلم تزل تتلطف بأختيها حتى قالتا لها: «دعيهم يدخلون واشرطى عليهم أن لا يتكلموا فيما لا يعنيهم فيسمعوا ما لا يرضيهم».

ففرحت وراحت، ثم عادت ومعها الثلاثة العور، وهم محلوقو الذقون والشوارب فسلموا

وتأخروا وقام لهم البنات ورحبن بهم وهنأنهم بالسلامة وأقعدنهم، فنظر القلندرية إلى محل ظريف، ومقام نظيف فيه خضرة، وشموع توقد، وبخور يتصاعد، ونقل وفواكه ومدام وآداب البنات الثلاث، فقالوا جميعًا: «والله طيب». ثم التفتوا إلى الحمال، فوجدوه جذلان تعبان سكران، فلما عاينوه ظنوا أنه منهم وقالوا: «هل قلندرى مثلنا وهو غريب أو من البادية». فلما سمع الحمال هذا الكلام قام وحملق عينيه فيهم وقال لهم: «اقعدوا بلا فضول، ما قرأتم ما على الباب؟ وما بالفقراء أنتم، وردتم علينا تطلقون لسانكم فينا». قالوا: «نحن نقول: نستغفر لله، يا فقير، راسنا بين يديك».

فضحكت البنات، وقمن وصلحن بين القلندرية والحمال، وقدمن للقلندرية الأكل. فأكلوا ثم جلسوا يتنادمون والبوابة تسقيهم ودارت الكاس بينهم، فقال الحمال للقلندرية: «وأنتم يا إخواننا ما معكم حكاية أو نادرة تحكوها لنا؟» فدبت فيهم الحرارة وطلبوا آلات اللهو فأحضرت لهم البوابة دفا وعودًا وجنكًا أعجميا. فقام القلندرية فأصلحوا الآلات وأخذ واحد منهم الدف والآخر العود والآخر الجنك وضربوا بها وغنوا وصرخت البنات بصوت عال، وبينما هم كذلك إذ بالباب يطرق فقامت البوابة تبصر خبر الباب.

قالت شهرزاد: أيها الملك وكان السبب لدق الباب أنه تلك الليلة نزل الخليفة هارون الرشيد يتفرج ويسمع ما يتجدد من الأخبار، هو وجعفر وزيره ومسرور سياف نقمته، وكان من عادته أنه يتنكر فى صفة التجار.

فلما نزل تلك الليلة وشق المدينة، جاءت طريقهم على تلك الدار فسمعوا الآلات والغناء، فقال الخليفة لجعفر: «أشتهى أن ندخل إلى هذه الدار ونسمع هذه الأصوات ونرى أصحابها». فقال جعفر: «يا أمير المؤمنين، هؤلاء قوم قد دخل السكر فيهم، ونخشى أن يصيبنا منهم شر». فقال الخليفة: «لا بد من دخولى، وأريدك أن تحتال حتى ندخل عليهم؟» فقال جعفر: «سمعًا وطاعة».

ثم تقدم جعفر وطرق الباب، فخرجت البوابة وفتحت الباب فتقدم جعفر، وقال: «يا سيدتى، نحن ناس تجار من طبرية ولنا فى بغداد عشرة أيام وبعنا تجارتنا ونحن نازلون فى خان التجار، وقد دعانا تاجر فى هذه الليلة فدخلنا إلى منزلة فقدم لنا طعامًا فأكلنا، ثم تنادمنا عنده ساعة، فأذن لنا فى الانصراف، فخرجنا بالليل، ونحن غرباء، فتهنا عن الخان الذى نحن فيه، فلعل من صدقاتكم أن تدخلونا هذه الليلة عندكم نبيت، ولكم الثواب». فنظرت البوابة إليهم وهم متزيون كالتجار وعليهم الحشمة، فدخلت على أختيها وأخبرتهما بحديث جعفر، فتأسفتا عليهم، وقالتا لها: «دعيهم يدخلون». فرجعت وفتحت لهم الباب، فقالوا لها: «ندخل بإذنك». قالت: «ادخلوا».

فدخل الخليفة وجعفر ومسرور، فلما رأتهم البنات قمن لهم وأجلسنهم وكرمنهم وقلن: «مرحبًا وأهلاً بالضيوف، ولنا عليكم شرط». فقالوا: «وما هو هذا الشرط؟». قالوا: «ألا تتكلموا فيما لا يعنيكم تسمعوا ما لا يرضيكم». فقالوا: «نعم».

ثم إنهم جلسوا للشراب والمنادمة، فنظر الخليفة إلى الثلاثة القلندرية، فوجدهم عورًا

بالعين الشمال، فتعجب من ذلك، ونظر إلى البنات وما هن فيه من الكمال والجمال فتحير وتعجب، ثم أخذوا فى المنادمة والحديث، فقلن للخليفة: «اشرب». فقال: أنا عازم على الحج». فقامت البوابة وقدمت سفرة مزركشة وأقعدت عليها باطية صينية وقلبت فيها ماء خلاف وأدخلت فيها قطعة ثلج وأبلوج سكر، فشكرها الخليفة وقال فى نفسه: «لأجزينها فى غداة غد على فعلها من الخير». فلما تحكم الشراب قامت السيدة وخدمتهم، ثم أخذت بيد الخوشكاشة وقالت: «يا أختى قومى نقضى دَيننا». فقالت الأختان: «نعم». فعند ذلك، قامت البوابة قدامهما، وذلك بعد أن نظفت المقام ورمت القشور وغيرت البخور ومسحت وسط القاعة وأصعدت القلندرية إلى جانب الإيوان على صفة، وأخذت الخليفة وجعفرًا ومسرورًا إلى جانب القصر على صفة وصرخت على الحمال، وقالت: «ما أقل مودتك، أنت ما أنت غريب، أنت من أهل الدار». فقام الحمال، وشد وسطه، وقال: «ما تريدين؟» فقالت: «قف مكانك». ثم قامت الخشكاشة، ونصبت فى وسط القاعة كرسيا، وفتحت خوشكانة وقالت للحمال: «ساعدنى». فرأى كلبتين سوداوين فى رقابهما زناجير، فقالت للحمال: «خذهما». فأخذهما الحمال وخرج بهما إلى وسط القاعة، فقامت الصبية صاحبة المنزل، وشمرت على معصمها وأخذت سوطًا وقالت للحمال: «قدم كلبة منهما». فقدمها وجرها فى الزنجير والكلبة تبكى وتحرك رأسها إلى الصبية. فنزلت الصبية عليها بالضرب على رأسها والكلبة تصرخ، وما زالت تضربها حتى كلت سواعدها، فرمت السوط من يدها وضمت الكلبة إلى صدرها، ومسحت دموع الكلبة بيدها وقبلت رأسها. ثم قالت للحمال: «خذها وهات الثانية». فجاء بها وفعلت بها مثل ما فعلت بالأولى. فعند ذلك اشتغل قلب الخليفة وضاق صدره وعيى صبره ليعرف خبر هاتين الكلبتين. فغمز جعفرًا، فالتفت إليه وقال بالإشارة: «اسكت وتذكر الشرط».

ثم التفتت الصبية إلى البوابة فقالت لها: «قومى اقضى ما عليك». فقالت: «نعم». ثم إنها قامت، وصعدت على السرير، وهو من العرعر مصفح بصفائح الذهب والفضة. ثم قالت للبوابة والخشكاشة: «هاتيا ما عندكما». فقامت البوابة وجلست على كرسى بجانبها. وأما الخشكاشة، فإنها دخلت مخدعًا وخرجت ومعها كيس أطلس بشراريب خضر وبشمستين من ذهب ووقفت قدام الصبية ونفضت الكيس فأخرجت منه عود غناء فأصلحت أوتاره وشدت ملاويه وأصلحته وأنشدت تقول:

ردوا على جفنى النوم الذى سلبا ... وخبرونى بعقلى أينما ذهبا
علمت لما رضيت الود منزلة ... أن المنام على جفنىَّ قد غضبا

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

فلما سمعت الصبية ذلك الغناء قالت: «آه آه آه». ثم شقت ثيابها ووقعت على الأرض مغشيا عليها فرأى الخليفة على جسدها أثر ضرب المقارع والسياط، فتعجب غاية العجب فقامت البوابة ورشت الماء عليها وأتت إليها بحلة وألبستها إياها. فلما عاين الجماعة ذلك

تكدر خاطرهم ولم يعلموا القصة ولا الخبر. فعند ذلك قال الخليفة لجعفر: «ما ظنك فى هذه الصبية وما هذا الضرب؟ فأنا لا أقدر أسكت إلا أن أقف على حقيقة الحال وخبر هذه الصبية وخبر الكلبتين السوداوين». فقال جعفر: «يا مولانا، قد شرطن علينا أن لا نتكلم فيما لا يعنينا فنسمع ما لا يرضينا». ثم قالت الصبية: «بالله يا أختى أوفينى وأتينى» فقالت الخوشكاشة «حبا وكرامة». وأخذت العود وأسندته إلى صدرها وجسته بأناملها وأنشدت تقول:

إن شكونا بعدًا فماذا نقول ... أو بلغنا شوقًا فأين السبيلُ
أو بعثنا رسلاً تترجم عنا ... ما يؤدى شكوى الودود رسولُ
ليس إلا تأسفٌ ثم حزنٌ ... ودموع على الخدود تسيلُ
أيها الغائبون عن شخص عينى ... وهم فى الفؤاد منى حلولُ
أتراكم فهل علمتم بعهدى ... فهو طول الزمان ليس يحولُ

فلما سمعت القصيدة الثانية صرخت، وقالت: «والله طيب» ثم شقت ثيابها ووقعت على الأرض مغشيا عليها، فقامت الخشكاشة ورشت عليها الماء وألبستها بدلة ثانية، فقامت وجلست، ثم قالت لأختها: «زيدينى، وأوفى دينى، فما بقى غير هذا الصوت». فأحضرت الخشكاشة العود وأنشدت تقول هذه الأبيات:

حتى متى هذا الصدود وذا الجفا ... فلقد جرى من أدمعى ما قد كفى
ولكم تطيل الهجر لى متعمدًا ... إن كان قصدك حاسدى فقد اشتفى

فلما سمعت الصبية قصيدتها الثالثة صرخت وشقت ثيابها، ووقعت على الأرض مغشيا عليها ثالث مرة فبان ضرب المقارع، فقالت القلندرية: «ليتنا ما دخلنا هذه الدار وكنا نمنا على الكيمان، فقد تعكر مقامنا بشىء يقطع القلب». فالتفت الخليفة إليهم وقال لهم: «لم ذلك؟» قالوا: «قد اشتغل سرنا بهذا الأمر». فقال الخليفة: «أما أنتم من هذا البيت؟» قالوا: «لا، ولا رأينا هذا الموضع إلا فى هذه الساعة؟». فتعجب وقال: «فيكون الرجل الذى عندكم يعرف خبرهم». ثم غمزوا الحمال وسألوه عن الأحوال، فقال الحمال: «كلنابالجهل سواء، وأنا نشأت فى بغداد وعمرى ما دخلت هذه الدار إلا فى هذا النهار». فقالوا: «حسبنا أنك منهم، والآن نراك نظيرنا». ثم إن الخليفة قال: «نحن سبعة رجال وهم ثلاثة نساء، ليس لهن رابع، فاسألوهن عن حالهن، فإن لم يجبننا طوعًا أجبننا كرهًا». واتفق الجميع على ذلك. فقال جعفر: «ما هذا رأيى، دعوهن، فنحن ضيوف عندهن، وقد شرطن علينا شرطًا وقد قبلنا شرطهن كما علمتم، فالأولى السكوت عن هذا الأمر، وقد بقى من الليل القليل، وكل منا يمضى إلى حال سبيله». ثم غمز الخليفة وقال له: «ما بقى إلا ساعة وفى غد تحضرهن بين يديك وتسألهن عن قصتهن». فرفع الخليفة رأسه وصرخ مغضبًا وقال: «ما بقى لى صبر عن خبرهن، فدع القلندرية يسألونهن». فقال جعفر: «ما هذا برأيى». فتقاوضوا فى الكلام وكثر بينهم القال والقيل فيمن يسألهن قبلاً. قالوا: «الحمال». فقالت لهم الصبية: «يا جماعة، لأى شىء أنتم مضطربون؟» فقام الحمال لصاحبة البيت، وقال لها: «يا سيدتى، إن هؤلاء الجماعة

يحبون أن تحدثيهم بخبر الكلبتين وما قصتهما وكيف أنت تعاقبينهما وتعودين فتبكين وتقبلينهما، وأن تخبريهم عن أختك وضربها بالمقارع، وهذا هو سؤالهم لك والسلام». فقالت الصبية صاحبة المكان للضيوف: «صحيح ما يقول عنكم؟» فقال الجميع: «نعم»، إلا جعفرًا فإنه سكت. فلما سمعت الصبية كلامهم قالت: «والله، لقد آذيتمونى يا ضيوفنا الأذية البالغة، وتقدم لنا أننا شرطنا عليكم أن من تكلم فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه، وما كفاكم أننا أدخلناكم منزلنا وأطعمناكم زادنا، وما لكم ذنب بل الذنب لمن أوصلكم إلينا». ثم شمرت عن معصمها، وضربت الأرض ثلاث ضربات، وقالت: «عجلوا». وإذا بباب خرستانة قد فُتح، وخرج منه سبعة عبيد، وبأيديهم سيوف مسلولة، فقالت: كتفوا هؤلاء الكثيرى الكلام واربطوا بعضهم ببعض». ففعلوا، وقالوا: «أيتها السيدة، ارسمى لنا بضرب رقابهم». فقالت: «أمهلوهم ساعة، حتى أسألهم عن حالهم قبل ضرب رقابهم». فقال الحمال: «يا ستر الله، يا سيدتى، لا تقتلينى بذنب غيرى، والجميع أخطأوا ودخلوا فى الذنب إلا أنا، والله لقد كانت ليلتنا طيبة لو سلمنا من هؤلاء القلندرية الذين لو دخلوا مدينة عامرة أخربوها». ثم قال:

ما أحسن الغفران من قادر لا سيما عن غير ذى ناصر
بحرمة الود الذى بيننا لا تقتلى أولا بالآخر

فلما فرغ الحمال من شعره ضحكت الصبية، ولما ضحكت من غيظها، أقبلت على الجماعة، وقالت: «أخبرونى بخبركم فما بقى من أعماركم إلا ساعة، ولو لم تكونوا أعزاء أو أكابر قومكم أو حكامًا لما كنتم تجرأتم». فقال الخليفة: «ويلك يا جعفر، أخبرها بنا وإلا قتلنا غلطًا وحسن لها القول قبل أن يحل بنا المكروه». فقال جعفر: «من بعض ما تستاهل». فزعق عليه الخليفة، وقال: «الهزل له وقت، والجد له وقت».

هذا والصبية أقبلت على القلندرية وقالت لهم: «أنتم إخوة؟»، قالوا: «لا، ما نحن إلا فقراء وأعجام». فقالت لواحد منهم: «أنت ولدت أعور؟» قال: «لا، أنا قد جرى لى حديث عجيب وأمر غريب لما قلعت عينى، ولى حكاية لو كتبت بالإبر، على آماق البصر، لصارت عبرة لمن اعتبر»، وسألت الثانى والثالث، فقالوا مثل الأول، وقالوا: «يا مولاتنا، كل واحد منا من بلد، وابن ملك وحاكم على بلاد وعباد». فالتفتت الصبية إليهم، وقالت: «كل واحد منكم يقص علىَّ حكايته وما سبب مجيئه إلى عندنا، ثم يملس على رأسه ويروح إلى حال سبيله». فأول ما تقدم الحمال فقال: «يا سيدتى، أنا رجل حمال حملتنى هذه الخوشكاشة وجاءت بى من بيت النباذ إلى دكان الجزار ومن دكان الجزار إلىَ الفاكهانى، ومن عنده إلى النقلى ومن النقلى إلى الحلوانى والعطار، ومنه إلى هنا وجرى لى معكن ما جرى، وهذا حديثى والسلام». فضحكت الصبية، وقالت له: «ملِّس على رأسك ورح». فقال لها الحمال: «والله ما أروح حتى أسمع حديث رفقائى».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قصة القلندرى الأول

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

فتقدم القلندرى الأول وقال لها: يا سيدتى، اعلمى أن سبب حلق ذقنى وقلع عينى أن والدى كان ملكًا، وله أخ وكان أخوه ملكًا فى مدينة أخرى. واتفق أن أمى ولدتنى وولد ابن عمى فى يوم واحد، ومضت سنون وأعوام وأيام حتى كبرنا، وكنت أزور عمى فى كل قليل وأقعد عنده أشهرًا عديدة، فأكرمنى ابن عمى غاية الإكرام، وذبح لى الأغنام، وروق لى المدام، وجلسنا للشراب، فلما تحكم الشراب منا قال لى ابن عمى: «يا ابن عمى، لى إليك حاجة مهمة وأريد أن لا تخالفنى فيما أريد أن أفعله». فقلت: «حبا وكرامة». فاستوثق منى بالأيمان العظام، ونهض من وقته وساعته وغاب قليلاً وعاد وخلفه امرأة متزرة وعليها من الحلل ما يساوى مبلغًا عظيمًا. فالتفت إلى، والمرأة خلفه، وقال: «خذ هذه المرأة واسبقنى إلى الجبانة الفلانية». ووصفها لى فعرفتها، وقال لى: «ادخل بها إلى التربة وانتظرنى هناك».

فلم يمكنى المخالفة ولم أقدر أن أرد سؤاله لأجل اليمين التى حلفتها، فأخذت المرأة وسرت إلى أن دخلت التربة أنا وإياها، فلما استقر بنا الجلوس جاء ابن عمى ومعه طاس فيه ماء وكيس فيه جبس وقدوم، ثم إنه أخذ القدوم، وجاء إلى قبر فى وسط التربة، ففكه ونقل أحجاره إلى ناحية التربة. ثم بحث بالقدوم فى أرض القبر، ثم انكشف عن طابق حديد قدر الباب الصغير فى الأرض، فرفعه فبان من تحته سلم معقودة. ثم التفت إلى المرأة وقال لها: «دونك وما تختارين». فنزلت المرأة من على تلك السلم، فالتفت إلى، وقال: «يا ابن عمى، تمام المعروف، إذا نزلت أنا فى ذلك الموضع رد الطابق ورد عليه التراب كما كان على الطابق، وهذا الجبس الذى فى الكيس وهذا الماء الذى فى الطاس اعجن به الجبس وليِّس القبر كما كان أولاً فى دائر الأحجار حتى لا يراها أحد ويقول: هذا فُتح جديدًا وبطنه عتيق، لأن لى سنة كاملة وأنا أعمل فيها ما يعلم بى إلا الله، وهذه حاجتى إليك». ثم قال لى: «لا أوحش الله منك يا ابن عمى». ثم نزل فى السلم. فلما غاب عن عينى قمت ورددت الطابق، وفعلت ما أمرنى به وبقى القبر كما كان، وأنا فى خمار سكران..

ورجعت إلى قصر عمى، وكان عمى فى الصيد والقنص، فنمت تلك الليلة، فلما أصبح الصباح تفكرت فى الليلة الماضية، وما جرى فيها على ابن عمى، وندمت حيث لا ينفع الندم على ما فعلت معه وطاوعته، فظننت أنه كان منامًا. فأخذت أسأل عن ابن عمى، فما كان أحد يجيبنى عنه، فخرجت إلى المقابر والجبانة، وفتشت على التربة فلم أعرفها، ولم أزل أدور تربة تربة وقبرًا قبرًا، حتى أقبل الليل ولم أهتد إليها.

فرجعت إلى القصر، ولم آكل ولم أشرب، وقد اشتغل خاطرى بابن عمى، بحيث لا أعلم له حالاً. فاغتممت غما شديدًا، فنمت ليلتى وبت مهمومًا إلى الصباح.

فجئت ثانيًا إلى الجبانة، وأنا أفتكر فى ما فعلته بابن عمى، وندمت على سماعى منه. وقد درت فى الترب جميعًا فلم أعرف تلك التربة، وذلك القبر. فندمت على ذلك ودمت على

هذا الحال سبعة أيام، أبحث وأنقب، فلم أعرف لها طريقًا، فزادنى الوسواس حتى كدت أجن، فلم أجد فرجًا دون أن سافرت ورجعت إلى أبى.

فساعة وصولى إلى مدينة أبى، نهض جماعة على باب المدينة وكتفونى، فتعجبت كل العجب، وأنا ابن سلطان المدينة، وهم خدم أبى وغلمانى. فلحقنى منهم خوف زائد، فقلت فى نفسى: «يا ترى، ما جرى على والدى؟». وسألت الذين مسكونى عن سبب ذلك، فلم يردوا علىَّ جوابًا. فبعد حين قال لى بعضهم، وكان خادمًا عندى: «إن أباك قد غدر به الزمان وتآمر عليه العساكر وقتله الوزير، وقعد مكانه، ونحن نترقبك بأمره». فأخذونى وأنا غائب عن الدنيا من هذه الأخبار التى سمعتها عن أبى.

فلما تمثلت بين يديه، وكان بينى وبين الوزير عداوة قديمة، وسبب تلك العداوة أنى كنت مولعًا بضرب قوس البندق، ولما كنت يومًا من الأيام واقفًا على سطح قصرى، إذا بطائر نزل على سطح قصر الوزير، وكان واقفًا، فأردت أن أضرب الطير، وإذا بالبندقة أخطأت ووقعت فى عين الوزير فقلعتها بالقضاء والقدر، كما قيل فى المثل:

مشيناها خطًا كُتِبَتْ علينا   ومَن كُتِبَتْ عليه خُطًا مشاها
ومن كانت منيته بأرض   فليس يموت فى أرض سواها

قال القلندرى: فلما انقلعت عين الوزير، لم يقدر أن يتكلم؛ لأن والدى كان ملك المدينة، فهذا سبب العداوة بينى وبينه، فلما وقفت قدامه، وأنا مكتف أمر بضرب عنقى، فقلت له: «بأى ذنب تقتلنى؟». فقال: «أى ذنب أعظم من هذا؟» وأشار إلى عينه المقلوعة، فقلت له: «هذا فعلته خطأ». فقال: «إن كنت فعلته خطأ، فأنا أفعله عمدًا». ثم قال: «قدموه». فقدمونى بين يديه. فمد إصبعه فى عينى اليمنى وقلعها، فصرت من ذلك الوقت أعور كما تروننى.

ثم كتفنى وحطنى فى صندوق وقال للسياف: «تسلم هذا واشهر حسامك وخذه واذهب به إلى ظاهر المدينة، واقتله ودع الوحوش والطيور تأكل لحمه».

فخرج بى السياف وسار حتى خرج من المدينة إلى وسط البرية، وأخرجنى من الصندوق وأنا مكتف اليدين مغلول الرجلين وأراد أن يعصب عينى ويقتلنى بعد ذلك. فبكيت بكاءً شديدًا حتى أبكيته ونظرت إليه وأنشدت أقول هذه الأبيات:

جعلتكم درعًا حصينًا لتمنعوا   سهام العدى عنى فكنتم نصالها
وكنت أرجيكم لكل ملمة   إذا أعوزت يدى اليمين شمالها
دعو قصة العذال عنى بمعزل   وخلوا العدى ترمى على نبالها
إ١٦ أنتم لم تحرسونى من العدى   فكنتم سكتم لا علىَّ ولا لها
وإخوان حسبتهم دروعًا   فكانوها ولكن للأعاديا
وخلتهم سهامًا صائبات   فكانوها ولكن فى فؤاديا

فلما سمع السياف شعرى، وكان سياف أبى ولى عليه الإحسان، قال: «يا سيدى، كيف أفعل وأنا عبد مأمور؟». ثم إنه قال لى: «فز بعمرك، يا سيدى، ولا تعد إلى هذه الأرض فتهلك نفسك وتهلكنى معك كما قال بعضهم:

ونفسك فز بها إن خشيت ضيمًا وخلِّ الدار تنعى من بناها
فإنك واجد أرضًا بأرض ونفسك لم تجد نفسًا سواها
عجبت لمن يعيش بدار ذل وأرض الله واسعة فلاها
ولا تبعث رسولك فى مهم فما للنفس ناصحة خلاها
وما غلظت رقاب الأسد حتى بأنفسها تولت ما عناها

فقبلت يده، وما أيقنت بالنجاة، وهان عليَّ قلع عينى بنجاتى من القتل. وسافرت حتى وصلت إلى مدينة عمى، فدخلت عليه وأعلمته بما جرى على والدى وبما جرى لى من قلع عينى. فبكى بكاءً شديدًا، وقال: «لقد زدتنى هما على همى وغما على غمى. فإن ابن عمك قد عدم ولا أعلم ما جرى عليه منذ أيام ولم يخبرنى أحد بخبره». وبكى حتى أغمى عليه حزنًا شديدًا. فأراد أن يحط على عينى دواء فرآها صارت جوزة فارغة. فقال: «يا سيدى، بعينك ولا بروحك». ولم يمكنى السكوت على ابن عمى الذى هو ولده فأعلمته بكل ما جرى. ففرح عمى بما قلته له فرحًا شديدًا عند سماع خبر ابنه، وقال: «قم أرنى التربة». فقلت: «يا عمى، لا أعرف مكانها لأنى رحت بعد ذلك مرارًا، وفتشت مرارًا عنها فلم أعرف مكانها». ثم أتيت أنا وعمى إلى الجبانة، ونظرت يمينًا وشمالاً. فعرفتها، ففرحت أنا وعمى فرحًا شديدًا، ودخلت أنا وإياه التربة، ورفعنا التراب والطابق، ونزلت أنا وعمى قدر خمسين درجة، فلما وصلنا إلى آخر السلم إذا بدخان طلع علينا حتى غشى أبصارنا، فقال عمى كلمة لا يخجل قائلها: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم». ثم مشينا وإذا نحن بقاعة ملآنة دقيقًا ومن الحبوب والمأكول وغير ذلك. ورأينا فى وسط القاعة كلة مرخاة على سرير. فنظر عمى إلى السرير فوجد ابنه والمرأة التى قد نزلت معه صارا فحمًا أسود كأنهما ألقيا فى جب من نار. فلما نظر عمى ذلك بصق فى وجهه، وقال: «تستاهل يا خنزير، هذا عذاب الدنيا وبقى عذاب الآخرة، وهو أشد وأقوى».

ثم إن القلندرى قال: «إن عمى ضرب ولده بسرموجته وهو راقد فحمًا أسود. فتعجبت من فعله وحزنت على ابن عمى وكيف صار هو والصبية فحمًا أسود، فقلت: «بالله يا عمى، زوِّل عن قلبك غصة، لقد اشتغل خاطرى بما قد جرى على ولدك وكيف بقى فحمًا أسود هو والصبية، وما كفاهما ما هما فيه حتى ضربته بالسرموجة».

فقال: «يا ابن أخى، هذا ولدى من صغره مولع بحب أخته، وكنت أنهاه عنها، وأقول: هما صغيران. فلما كبرا أمسكته وزجرته زجرًا بليغًا وقلت له: «انكف عما أنت فيه لئلا تبقى بين الملوك بالمعاير والنقصان إلى آخر الزمان، وتسير أخبارنا مع الركبان، وإياك أن تصدر منك هذه الفعال، فإنى أسخط عليك وأقتلك، وحجبته عنها وحجبتها عنه، وكانت الخائنة تحبه محبة عظيمة وقد أغواهما الشيطان وزين لهما أعمالهما. فلما رآنى حجبته، حفر له هذا النفق الذى تحت الأرض وسواه ونقل إليه المأكول كما تراه. وتغفلنى لما خرجت إلى الصيد وأتى هذا المكان، فغار عليه الحق وعليها وأحرقهما وعذاب الآخرة أشد وأقوى». ثم بكى وبكيت معه ونظر إلى وقال: «أنت ولدى عوضًا عنه». وتفكرت ساعة فى الدنيا وحوادثها،

وكيف قتل الوزير والدى، وجلس مكانه وقلع عينى، وما تم على ولد عمى من الحوادث الغريبة، ثم بكيت وبكى عمى معى. ثم إننا صعدنا ورددنا الطابق والتراب وعملنا القبر كما كان. ثم رجعنا إلى منزلنا، فلم يستقر بنا الجلوس، حتى سمعنا صوت طبول وبوقات وكوسات، ورماح أبطال، وزمجرة رجال، وقعقعة لجم، وصهيل خيل، وانطبقت الدنيا بالعجاج والغبار من حوافر الخيل، فحارت عقولنا ولم نعرف ما الأمر. فسألنا عن الخبر، فقيل: «إن الوزير الذى أخذ مملكة أبيك جهز العساكر وجمع الجيوش واستخدم العربان وجاءنا بعساكر كعدد الرمال، لا يحصى لهم عدد، ولا يقوى عليهم أحد، وقد هجموا على المدينة على غفلة وأهل المدينة لم يكن لهم طاقة بهم فسلموا إليه المدينة». فبقى عمى وهربت أنا من جانب المدينة، وقلت: «إذا وقعت فى يده قتلنى». وتجددت على الأحزان وتذكرت الحوادث التى حدثت لأبى وعمى، وكيف كان الأمر. فإن ظهرت عرفنى أهل المدينة وعسكر أبى فيكون قتلى وهلاكى. فما وجدت شيئًا أنجو به إلا حلق لحيتى وشواربى، فحلقتهما وغيرت أثوابى وخرجت من المدينة وقصدت هذه المدينة لعل أحدًا يوصلنى إلى أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين فأخبره بما جرى لى.

فوصلت إلى هذه المدينة الليلة فوقفت حائرًا لا أدرى أين أمضى. وإذا بهذا القلندرى واقف، فسلمت عليه وقلت له: «غريب». فقال: «وأنا غريب». فبينما نحن كذلك، وإذا برفيقنا هذا الثالث جاء وسلم علينا، وقال لنا: «غريب». فقلنا له: «ونحن غريبان». فمشينا وقد هجم علينا الظلام، فساقنا القدر إليكم. وهذا سبب حلق لحيتى وشواربى وقلع عينى، فقالت الصبية: «ملس على رأسك وروح». فقال لها: «والله لا أروح حتى أسمع خبر غيرى». فتعجبوا كلهم من حديثه. فقال الخليفة لجعفر: «والله ما رأيت ولا سمعت مثل الذى جرى لهذا القلندرى».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قصة القلندرى الثانى

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

ثم تقدم القلندرى الثانى وقبل الأرض، وقال: «يا سيدتى، أنا ما ولدت أعور، ولى حكاية عجيبة، لو كتبت بالإبر، على آماق البصر، لكانت عبرة لمن اعتبر، وهى أنى كنت ملكًا ابن ملك، وقرأت القرآن على سبع رواياته، وقرأت الكتب وعرضتها على مشايخ العلم، وقرأت علم النجوم وكلام الشعراء، واجتهدت فى سائر العلوم حتى فقت أهل زمانى، وفاق خطى خطوط سائر الكتبة، وشاع ذكرى فى جميع الأقاليم والبلدان وعند عامة الملوك، فسمع بى ملك الهند فأرسل إلى أبى يطلبنى وأرسل لأبى هدايا وتحفًا.

فجهزنى أبى فى ستة مراكب، وسرنا فى البحر مدة شهر كامل. فوصلنا إلى البر وأخرجنا خيلاً كانت معنا فى المركب وشددنا الهدايا على عشرة جمال ومشينا قليلاً، وإذا بغبار قد علا وثار، حتى سد الأقطار، وبعد ساعة، انكشف الغبار، وبان من تحته خمسون فارسًا ليوث عوابس، للحديد لوابس، فتأملناهم وإذا هم عرب قطاع طريق.

فلما رأونا، ونحن نفر قليل ومعنا عشرة أجمال محملة هدايا لملك الهند، هجموا علينا وقدموا السنان بين أيدينا، فأشرنا إليهم بالأصابع، وقلنا لهم: «نحن رسل ملك الهند المعظم فلا تؤذونا». فقالوا: «نحن لسنا فى أرضه، ولا تحت حكمه». ثم إنهم قتلوا بعض الغلمان وهرب الباقون وهربت أنا بعد أن جرحت جرحًا بليغًا. واشتغلت عنى العرب بالمال والهدايا التى معنا، فصرت لا أدرى أين أذهب، وكنت عزيزًا فصرت ذليلاً.

وسرت إلى أن أتيت رأس الجبل فأويت إلى مغارة إلى أن طلع النهار، ولم أزل كذلك حتى وصلت إلى مدينة أمينة حصينة ولى عنها الشتاء ببرده، وأقبل عليها الربيع بورده، وطلعت أزهارها، وتدفقت أنهارها، وغردت أطيارها، كما قال فيها الشاعر:

مدينة ما بها لساكنها	مروع والأمان صاحبها
كأنها جنة مزخرفة	لأهلها قد بدت عجائبها

ففرحت بوصولى إليها، وقد تعبت من المشى وعلانى الهم والاصفرار فتغيرت حالتى وأنا لا أدرى أين أسلك، فاجتزت خياطًا فى دكان فسلمت عليه، فرد علىَّ السلام ورحب بى وانبسط معى وآنسنى وسألنى عن سبب غربتى، فأخبرته بما جرى لى من أوله إلى آخره. فاغتم لأجلى وقال: «يا فتى، لا تظهر ما عندك فإنى أخاف عليك من ملك هذه المدينة وإنه أكبر أعداء أبيك وله عنده ثار».

ثم أحضر لى مأكولاً ومشروبًا، فأكلت وأكل معى وقضينا الليل مسامرة، وأفرد لى محلا إلى جانب حانوته وأتانى بما أحتاج إليه من فراش ولحاف فأقمت عنده ثلاثة أيام فقال لى: «ما تعرف صنعة تكتسب منها؟». فقلت له: «إنى فقيه عالم كاتب حاسب خطاط». فقال: «صنعتك كاسدة فى بلادنا وما فى مدينتنا من يعرف علمًا ولا كتابة غير الكسب». فقلت: «والله لا أدرى شيئًا غير الذى ذكرته لك». فقال: «شد وسطك وخذ فأسًا وحبلاً واحتطب من البرية حطبًا تتقوت به إلى أن يفرج الله عنك، ولا تعرفهم بنفسك يقتلوك». ثم اشترى لى فأسًا وحبلاً وسلمنى إلى بعض الحطابين وأوصاهم بى، فخرجت معهم واحتطبت نهارى كله فأتيت بحمل على رأسى فبعته بنصف دينار فأكلت ببعضه وأبقيت بعضه، ودمت على هذا الحال مدة سنة.

فبعد السنة، أتيت يومًا على عادتى إلى البرية، وتوغلت فيها فوجدت غوطة أشجار فيها حطب كثير، فدخلت الغوطة فوجدت أصل الشجرة غليظة فحفرت حولها وأزلت التراب عنها، فعثرت الفأس فى حلقة نحاس فنظفت التراب وإذا هى فى طابق خشب، فكشفته فبان تحته سلم فنزلت إلى أسفل السلم فرأيت بابًا فدخلته فرأيت قصرًا من أحسن البنيان، مشيد الأركان، فوجدت فيه صبية كالدرة السنية.

فلما نظرت إليها سبحت خالقها لما أبدع فيها من الحسن والجمال، فنظرت إلىَّ وقالت: «أنت من تكون إنسى أم جنى؟». فقلت لها: «إنسى». فقالت: «ومن أوصلك إلى هذا المكان الذى لى فيه خمس وعشرون سنة ما رأيت فيه إنسيا أبدًا؟» فحكيت لها ما جرى لى من الأول إلى الآخر، فصعب عليها حالى، وبكت وقالت: «وأنا أعلمك بقصتى». «اعلم أنى بنت الملك

أفيتاموس صاحب جزيرة الأبنوس، وكان قد زوجنى بابن عمى. فليْلة زفافى اختطفنى عفريت اسمه جرجيس بن رخموس ابن خالة إبليس، فطار ونزل بى فى هذا المكان ونقل فيه كل ما احتاج إليه من الحلل والحلى والقماش والمتاع والطعام والشراب وغير ذلك، وفى كل عشرة أيام يأتينى بما أحتاج إليه ثم يذهب لحال سبيله. وعاهدنى إذا عرض لى حاجة ليلاً أو نهارًا أن ألمس بيدى هذين السطرين المكتوبين على القبة فما أرفع يدى عنها إلا وأراه عندى. وله اليوم أربعة أيام وبقى له ستة أيام حتى يأتى».

ثم نهضت على أقدامها، فمسكتنى من يدى وأدخلتنى من باب مقنطر، فجلست على مصطبة وأجلستنى إلى جانبها وأتت بسكر ممسك وسقتنى، ثم قدمت لى مأكولاً فأكلنا وتحادثنا ساعة، ثم قالت: «والله كنت ضيقة الصدر وأنا تحت الأرض وحدى ولم أجد من يحدثنى خمسا وعشرين سنة، فالحمد لله الذى أرسلك لى». ثم قالت: «يا فتى، هل لك فى الشراب؟» فقلت: «افعلى». فعمدت إلى خزانة وأخرجت شرابًا عتيقًا مختومًا، ونصبت خضرة، فأخذت وأنشدت تقول:

لو علمنا قدومكم لنثرنا ... مهجة القلب أو سواد العيون

وفرشنا خدودنا للقاكم ... ليكون السير فوق الجفون

فلما فرغت من شعرها أثنيت عليها وشكرتها على حسن صنيعها وذهب همى وغمى وجلسنا فى منادمة، فسكرت سكرًا حتى غبت عن الوجود، فقمت أتمايل يمينًا وشمالاً وقلت لها: «قومى أخرجك من تحت الأرض وأرحك من هذا الجنى». فضحكت وقالت: «هيهات أن يمكنك ذلك». فقلت وقد غلب علىَّ السكر: «أنا الساعة أكسر هذه القبة التى عليها النقش المكتوب ودعى العفريت يجىء حتى أقتله فإنى تعودت قتل العفاريت». فلما سمعت كلامى اصفر لونها، وقالت لى: «بالله لا تفعل». وأنشدت:

إنّ شيئًا هلاك نفسك فيه ... ينبغى أن تصون نفسك عنه

يا طالبًا للفراق مهلاً ... وخيله سُبَّق عتاقُ

اصبر فطبع الزمان غدرٌ ... وآخر الصحبة الفراق

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

أنه لما فرغت من شعرها لم ألتفت لكلامها ورفست القبة رفسًا قويا. ولما رفست القبة ما شعرت إلا الأقطار قد أظلمت، وأرعدت وأبرقت، وتهزهزت الأرض، وأطبقت الدنيا. فطار السكر من رأسى وقلت لها: «ما الخبر؟» قالت: «العفريت قد وصل إلينا، أما حذرتك من هذا؟ والله لقد آذيتنى، انج بنفسك واصعد من المكان الذى جئت منه». فمن شدة خوفى نسيت حذائى وفأسى.

فلما صعدت درجتين والتفت لأنظر وإذا بالأرض قد انشقت وطلع منها عفريت ذو منظر هائل، وقال: «ما هذه الزعجة التى أزعجتينى بها، ما مصيبتك؟». فقالت: «ما أصابنى

شىء غير أن صدرى ضاق، فأردت أن أشرب شرابًا يشرح صدرى فثقل علىَّ رأسى فوقعت على القبة». فقال لها العفريت: «تكذبين يا خائنة». ونظر فى القصر يمينًا وشمالاً فرأى الحذاء والفأس. فقال لها: «ما هذا إلا لبس الإنس. من جاء إليكِ؟». فقالت: «ما نظرت هذا إلا الساعة كأنهما تعلقا معك». فقال العفريت: «هذا كلام محال». ثم إنه شبحها بين أربع سكك وجعل يعاقبها ويقررها، فما كان ليهون علىَّ أن أسمع بكاءها فصعدت على السلم وأنا من الخوف أرجف. فلما وصلت إلى أعلى الموضع رددت الطابق كما كان وسترته بالتراب وندمت على ما فعلت غاية الندم. وتذكرت الصبية وحسنها وكيف يعاقبها هذا الملعون، وكيف لها خمس وعشرون سنة وما جرى لها بسببى، وافتكرت فى أبى ومملكته وكيف صرت حطابًا، وقد تكدر عيشى بعد أن صفا الوقت فبكيت وقلت هذا البيت:

إذا ما أتاك الدهر يومًا بنكبة فيومًا ترى يسرًا ويومًا ترى عسرا

ثم مشيت إلى أن أتيت رفيقى الخياط فلقيته من أجلى على مقالى النار، وهو لى فى الانتظار. فقال: «إنى بت البارحة وقلبى عندك وخفت عليك من وحش وغيره فالحمد لله على سلامتك». فشكرته على شفقته علىَّ ودخلت خلوتى وجعلت أتفكر فى ما جرى لى مع الصبية ولمت نفسى على كثرة فضولى ورفسى هذه القبة. وأنا فى هذا الحساب وإذا بصديقى الخياط دخل علىَّ وقال لى: «يا فتى، فى الدار شيخ عجمى يطلبك ومعه فأسك وحذاؤك قد جاء بهما إلى الحطابين، وقال لهم: «أنا خرجت وقت أذان المؤذن إلى صلاة الفجر فعثرت بهما ولم أعلم لمن هما. دلونى على صاحبهما». فدله الحطابون عليك وقد عرفوا فأسك وهو قاعد فى دكانى فاخرج إليه واشكره وخذ فأسك وخفك. فلما سمعت هذا الكلام اصفر لونى وتغير كونى. فبينما أنا كذلك وإذا بأرض خلوتى انشقت وطلع منها العجمى وإذا هو العفريت وقد كان عاقب الصبية غاية العقاب فلم تقر له بشىء. فأخذ الفأس والخف وقال لها: «إن كنت جرجيس، من ذرية إبليس، فأنا أجىء بصاحب هذا الفأس والحذاء». ثم جاء لهذه الغابة إلى الحطابين ودخل علىَّ ولم يمهلنى، بل اختطفنى وطار وعلا بى ونزل وغاص فى الأرض، وأنا لا أعلم بنفسى، ثم طلع بى القصر الذى كنت فيه فرأيت الصبية مشبوحة والدم يسيل من أجنابها، فذرفت عيناى الدمع. فأخذها العفريت وقال لها: «أما هذا هو الذى دخل ههنا؟ فنظرت إلي وقالت له: «لا أعرف هذا.ولا رأيته إلا فى هذه الساعة». فقال لها العفريت: «أما تقرين مع ما نالك من العقوبة؟». فقالت: «ما رأيته عمرى وما يحل من الله أن أكذب عليه». فقال لها: «إن كنت لم تعرفيه خذى هذا السيف واضربى عنقه». فأخذت السيف وجاءتنى ووقفت علىَّ رأسى. فأشرت لها بحاجبى ودمعى يجرى على وجنتى. ففهمت إشارتى، وقالت: «كل هذا بسببك؟». فأشرت لها أن هذا وقت العفو ولسان حالى يقول:

يترجم طرفى عن لسانى فتعلم ويبدى لها ما فى ضميرى أكتم
ولما التقينا والدموع سواجم خرست وطرفى عنكم يتكلم
تشير فأدرى ما تقول بطرفها وأومى إليها بالبنان فتفهم

فلما فرغت من الشعر رمت الصبية السيف من يدها، وقالت: «كيف أضرب عنق من لا

أعرفه ولا أساء إلى؟ ما يحل هذا فى دينى». وتأخرت. فقال العفريت: «ما يهون عليك قتله ولا تقرين عنه، وبعد هذا لا يحن على الجنس إلا الجنس».

ثم التفت إلىَّ العفريت وقال: «يا إنسى، وأنت ما تعرف هذه؟». فقلت: «ومن تكون هذه وما رأيتها قط إلا فى هذه الساعة؟». فقال: «فخذ هذ السيف واضرب عنقها وأنا أطلقك وتروح وإنى أتحقق أنك لا تعرفها أبدًا». فقلت: «نعم. وأخذت السيف وتقدمت بنشاط ورفعت يدى. فقالت لى بحاجبها أى: «ما قصرت معك أهكذا تقابلنى؟». ففهمت ما قالت وأشرت إليها بعينى أنى سأفديك بروحى كما فديتنى فكتب لسان حالنا يحث يقول:

كم صامت حدثت عينه ... خليله بالذى أضمرا
فما أحسن اللحظ فى وجهه ... وما أرشق الطرف إذا عبرا
فهذا بأجفانه كاتبٌ ... وذاك بمقلته قد قرا

فهملت عينانى بالدموع ورميت السيف من يدى، وقلت: «أيها العفريت الشديد، والبطل الصنديد، إذا كانت امرأة ناقصة عقل ودين ما استحلت ضرب عنقى، فكيف يحل لى أن أضرب عنقها ولم أرها عمرى، فلا أفعل ذلك أبدًا ولو سقيت كاس الموت والردى». فقال العفريت: «أنتما بينكما مودة». فأخذ العفريت السيف وضرب يد الصبية وقطعها ثم ضرب الثانية قطعها فقطع أربعة أطرافها، وأنا أنظر وأيقنت بالموت، وقد أشارت إلى بعينها كالمودع، ثم إن العفريت ضرب رأسها. ثم التفت إلىَّ وقال: «يا إنسى، لا بد لى أن أقتلك فتمنَّ علىَّ». فقلت: «وما أتمناه عليك؟». قال: «تمنَّ علىَّ أى صورة أسحرك فيها، إما صورة كلب أو قرد». فقلت: وقد طمعت أن يعفو عنى: «والله إن عفوت عنى يعف الله عنك بعفوك عن رجل مسلم لم يؤذك». وتضرعت غاية التضرع، وقلت له: «أنا مظلوم». فقال: «لا تُطل علىَّ الكلام ما يبعد علىَّ قتلك ولكن أخيرك». فقلت «أيها العفريت، إن العفو عنى هو أليق بك، فاعف عنى كما عفى المحسود عن الحاسد». فقال العفريت: «وكيف كان ذلك؟».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية الحاسد والمحسود

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

قالت: زعموا أيها العفريت أنه كان فى مدينة رجلان يسكنان فى بيتين بحائط واحد ملصقين. وكان أحدهما يحسد الآخر ويصيبه بعينه ويبالغ فى أذيته وكل وقت يحسده. وزاد به حسده حتى إنه امتنع عن الطعام ولذيذ المنام. والمحسود لا يزداد إلا خيرًا وكلما حسده جاره تحسنت حاله. فبلغ المحسود حسد جاره له فرحل من جواره وابتعد عن أرضه، وقال: «والله لأهجرن الدنيا لأجله». وسكن فى مدينة أخرى واشترى له فيها أرضًا وكان فى تلك الأرض بئر قديمة فعمَّر فيها زاوية واشترى له كل ما يحتاج إليه. وعَبَدَ الله تعالى فيها وأخلص عبادته، وجاءته الفقراء والمساكين من كل جانب وشاع خبر إحسانه وعطفه على الفقراء فى تلك المدينة.

ثم اتصل خبره بجاره الحاسد له بما وصل إليه من الخير، فقدم عليه مع أكابر المدينة، فدخل الزاوية فتلقاه الجار المحسود بالرحب والسعة وأكرمه غاية الإكرام. فقال له الحاسد: «لى معك كلام وهو سبب سفرى إليك وأريد أن أبشرك فقم وامش معى فى زاويتك». فقام المحسود وأخذ بيد الحاسد وتمشيا إلى آخر الزاوية. فقال الحاسد: «قل لفقرائك يدخلون إلى خلواتهم فأنا ما أقول لك إلا سرا بحيث لا أحد يسمعنا». فقال المحسود لفقرائه: «ادخلوا إلى خلواتكم». ففعلوا كما أمرهم به ومشى به قليلاً إلى أن وصل به إلى البئر القديمة فدفع الحاسد المحسود فألقاه فى البئر ولم يعلم به أحد. وخرج من الزاوية وراح فى سبيله وقد ظن أنه قتله.

وكانت البئر مسكونة من الجن فحملوه على أيديهم وأقعدوه على الصخرة وقال بعضهم لبعض: «تعرفون من هذا؟». قالوا: «لا». قال قائل منهم: «هذا الرجل المحسود الذى هرب من حاسده وسكن مدينتنا وأنشأ هذه الزاوية وآنسنا بذكره وقراءته وقد جاءه الحاسد فاجتمع به وتحيل عليه حتى رماه عندكم وقد اتصل خبره فى هذه الليلة بسلطان هذه المدينة وعزم على زيارته فى الغداة لأجل ابنته». فقال بعضهم: «وما الذى بابنته؟». قال: «بها جنون ولو عرف دواءها لكان أبرأها، ودواؤها أهون شىء». قال بعضهم: «وما دواؤها؟». قال: «عند هذا العابد قطٌ أسود فى آخر ذنبه نقطة بيضاء بقدر الدرهم. فلو أخذ منها سبع شعرات من الشعر الأبيض وبخرها نجت من المارد ولا يعود إليها أبدًا وتبرأ لوقتها». أيها العفريت، هذا كله جرى والمحسود يسمع. فلما أصبح الصباح، وطلع الفجر ولاح، جاء الفقراء إلى الشيخ فوجدوه طالعًا من البئر فعظم فى أعينهم. ثم عمد المحسود إلى القط الأسود وأخذ من النقطة البيضاء التى فى ذنبه سبع شعرات، وما طلعت الشمس إلا والملك قد جاء فى عسكره فدخل هو وأكابر دولته وأمر بقية عسكره بالوقوف.

فلما دخل الملك على المحسود رحب به، وقربه وقال له: «هل أكاشفك بما جئتنى به؟». قال: «نعم». قال: «إنك جئت تزورنى وفى نفسك أن تسألنى عن ابنتك». فقال الملك: «نعم أيها الشيخ الصالح». فقال المحسود: «أرسل من يأتى بها وأرجو إن شاء الله تعالى أنها تبرأ فى هذه الساعة».

ففرح الملك وأرسل أعوانه فجاؤوا بها وهى مكتفة مغللة. فأجلسها المحسود وستر عليها سترًا وأخرج الشعر وبخرها به. فصاح الذى كان فى رأسها ومضى عنها، وعاد إليها عقلها وسترت وجهها. فقالت: «ما هذه الأحوال، وما جاء بى إلى هذا المكان؟». وفرح السلطان فرحًا ما عليه من مزيد، وقبل عينيها وقبل يدى الشيخ المحسود. ثم إنه التفت إلى أكابر دولته، وقال: «ماذا تقولون؟ ما يستاهل من شفى ابنتى؟». قالوا: «يتزوج بها». قال: «صدقتم». ثم زوجه بها، وصار المحسود صهر الملك.

وبعد قليل مات الوزير، فقال الملك: «من نعمل وزيرًا مكانه؟». فقالوا: «صهرك». فعملوا المحسود وزيرًا. وبعد قليل مات السلطان. قالوا: «من نعمل ملكًا مكانه؟» قالوا: «الوزير». فعملوا الوزير سلطانًا وصار ملكًا حاكمًا.

ففي يوم من الأيام ركب مركبه وكان الحاسد مارا في طريقه وإذا بالمحسود بدست مملكته بين أمرائه ووزرائه وأرباب دولته، فوقعت عينه على حاسده فالتفت إلى بعض وزرائه، وقال: «ائتني بذلك الرجل ولا ترجفه». فغاب وأتاه بالحاسد جاره. فقال: «أعطوه ألف مثقال من خزانتي واحملوا له عشرين حملاً من المتجر وأرسلوا معه حارسًا يوصله إلى بلده». ثم إنه ودّعه وانصرف عنه وما عاقبه على ما فعل به.

انظر أيها العفريت إلى عفو المحسود عن الحاسد وكيف حسده في البداية، ثم أذاه وسافر إليه، ثم بلغ به إلى أن رماه في البئر وأراد قتله، ولم يقابله على أذاه بل صفح عنه وعفا عنه، ثم بكيت بين يديه البكاء الشديد الذي ما عليه من مزيد وأنشدت:

صفح الكرام فلم تزل أهل النهى ... يهبون للجانين ما يجنونه
فلقد حويت على الذنوب بأسرها ... فاحو من الصفح الجميل فنونه
فمن ابتغى عفو الذي هو فوقه ... فليعف عن ذنب الذي هو دونه

فقال العفريت: «لا تطل عليَّ الكلام، أما القتل فلا تخف منه وأما العفو عنك فلا تطمع فيه ولكني أسحرك». ثم اقتلعني من الأرض وطار بي إلى الجو حتى نظرت إلى الدنيا تحتي كأنها قصعة في وسط الماء. ثم حطني على جبل عال وأخذ قليلاً من التراب وهمهم عليه وتكلم وعزم ورشني به، وقال: «اخرج الآن من هذه الصورة إلى صورة قرد». فمن ذلك الوقت صرت قردًا ابن مائة سنة.

فلما رأيت نفسي في هذه الصورة القبيحة بكيت على نفسي وصبرت على جور الزمان وعلمت أن الزمان ليس لأحد وقد انحدرت من على الجبل إلى أسفل فوجدت برا متسعًا فسافرت مدة شهر فانتهى بي السير إلى شاطئ البحر المالح. فوقفت ساعة وإذا أنا بمركب في وسط البحر، وقد طاب ريحه وهو طالب البر، فاختفيت خلف صخرة على جانب البر، وصبرت إلى أن أتى المركب فنزلت فيه. فقال واحد من الركاب: «أخروا هذا المشؤوم عنا». فقال الرئيس: «نقتله». وقال الآخر: «اقتله بهذا السيف». فمسكت ذيل الرئيس وبكيت وسالت دموعي فحن عليَّ. وقال: «يا تجار هذا القرد قد استجار بي، وقد أجرته وهو في ذمامي فلا أحد يعكر عليه ولا يشوشه».

ثم إن الرئيس صار يحسن إليَّ ومهما تكلم به أفهمه وأقضي حوائجه كلها وأخدمه في المركب فحبني، ثم إن المركب طاب له الريح مدة خمسين يومًا فارسينا على مدينة عظيمة وفيها عالم عظيم لا يُحصى عددهم إلا الله. فساعة وصولنا وقف مركبنا وإذا قد أقبل إلينا مماليك من جهة ملك المدينة، فصعدوا إلى مركبنا وهنأوا التجار بالسلامة، وقالوا: «ملكنا يهنئكم بالسلامة، وقد أرسل إليكم هذا الدرج الورق وكل واحد منكم يكتب سطرًا واحدًا، فإن الملك كان له وزير خطاط، وقد مات وأقسم السلطان وحلف الأيمان العظام، بأن لا يوزر إلا من يكتب مثل خطه». ثم ناول التجار درج ورق طوله عشرة أذرع في عرض ذراع واحد فكتب كل من كان يعرف الكتابة إلى آخرهم. فقمت، وأنا في صورة القرد، وخطفت الدرج من أيديهم، فخافوا أني أقطعه، فنهروني، فأشرت إليهم أني أكتب. فأشار لهم الرئيس: «خلوه يكتب، فإن

خلط وخرفش طردناه عنا، وإن أحسن الكتاب اتخذته ولدًا، فإنى ما رأيت قردًا أفهم منه». ثم إنى مسكت القلم واستمددت من الدواة حبرًا وكتبت بالقلم الرقاعى هذين البيتين:

لقد كتب الدهر فضل الكرام ... وفضلك للآن لا يكتب
فلا أيتم الله منك الورى ... لأنك للفضل أمٌّ وأب

وكتبت بقلم الريحان:

له قلم عم الأقاليم نفعه ... وعم جميع العالمين منافع
فما نيل مصر مثل نائلك الذى ... يمد إلى الأمصار خمسًا أصابع

وكتبت بقلم الثلث:

وما من كاتب إلا سيفنى ... ويبقى الدهر ما كتبت يداهُ
فلا تكتب بكفك غير شىء ... يسرك فى القيامة أن تراهُ

وكتبت بقلم النسخ:

لما نبئنا بالفراق تحكمت فينا ... بذاك حوادث الأيامِ
عدنا لأفواه المحابر نشتكى ... ألم الفراق بألسن الأقلامِ

وكتبت بقلم الطومار:

إن الخلافة لا تدوم لواحد ... إن كنت تنكر ذا فأين الأولُ
اغرس من الفعل الجميل غرائسًا ... فإذا عزلت فإنها لا تعزلُ

وكتبت بقلم المحقق:

إذا فتحت دواة العز والنعم ... فاجعل مدادك من جود ومن كرمِ
واكتب بخير إذا ما كنت مقتدرًا ... بذاك شرفت فضلاً نسبة القلم

ثم ناولتهم الدرج وكتبوا كل واحد سطرًا، ثم أخذوه وذهبوا به إلى الملك، فلما نظر الملك إلى الدرج فلم يعجبه خط أحد إلا خطى. فقال للجماعة: «توجهوا إلى صاحب هذا الخط وأركبوه بغلة وجيئوا به بآلات الطرب وألبسوه حلة سنية وأحضروه إلىَّ». فلما سمعوا كلام الملك تبسموا. فغضب الملك منهم، وقال: «يا ملاعين، أتضحكون منى لأجل أمر أقوله لكم؟». فقالوا: «أيها الملك، إن لضحكنا سببًا». فقال: «وما هو؟» فقالوا: «أيها الملك، أنت تأمرنا أن نحضر لك الذى كتب هذا الخط، والحال أن الذى كتبه قرد، وليس هو آدمى وهو مع رئيس المركب». فقال: «أحقا ما تقولون؟». قالوا: «إى والله، وحق نعمتك». فتعجب الملك من كلامهم واهتز من الطرب، وقال: «أريد أن أشترى هذا القرد من الرئيس».

ثم بعث رسولاً إلى المركب ومعه البغلة والحلة وآلة الطرب وقال: «لا بد أن تلبسوه هذه الحلة وتركبوه البغلة وتجيئوا به من المركب فى التوّ والساعة».

فساروا إلى المركب وأخذونى من الرئيس وألبسونى الحلة وأركبونى البغلة فاندهش الخلائق وانقلبت المدينة لأجلى وصاروا يتفرجون علىَّ. فلما أصعدونى إلى الملك ولاقانى قبلت الأرض بين يديه ثلاث مرات. ثم أمرنى بالجلوس فجلست على ركبتى. فتعجب الخلائق

الحاضرون من أدبى وكان أكثرهم تعجبًا الملك. ثم أمر الملك الخلق بالانصراف فانصرفوا ولم يبق إلا أنا وحضرة الملك والطواشى ومملوك صغير. ثم أمر الملك فقدموا سفرة الطعام وفيها ما هش وطار، وتناغى فى الأوكار، من القطا والسمانى وسائر الطيور. فأشار الملك إلى أن آكل معه، فقمت وقبلت الأرض بين يديه وجلست أكلت معه. ثم رفعت السفرة. فغسلت يدى سبع مرات وأخذت الدواة والقلم وكتبت أقول هذه الأبيات:

عج بالفرانيق فى ربع السكاريج	وابك لفقد القلايا والطياهيج
واندب بنات القطا ما زلت أندبها	مع الدجاج وأصناف الفراريج
يا لهف قلبى على لونين من سمك	على رغيف من الخبز المعاريج
لله در الشوا ما كان أطيبهُ	والدهن يغمس فى حل السكابيج
ما هزنى الجوع إلا بت معتكفًا	على الهريسة فى ضوء الدماليج
تروعه عند أكل فى فكاهته	على الموائد أصناف الديابيج
يا نفس صبرًا فإن الدهر ذو عجب	إن ضاق يومًا أتانا بالتفاريج

ثم قمت وجلست بعيدًا، فنظر الملك إلى ما كتبته وقرأه فتعجب وقال: «يا للعجب قرد ويكون عنده هذه الفصاحةوالخط. والله إن هذا من أعجب العجب». ثم قدم للملك مشروب خاص فى زجاج فشرب، ثم ناولنى فقبلت الأرض وشربت وكتبت:

أحرقونى بالنار واستنطقونى	وجدونى على البلاء صبورا
لأجل هذا حملت فوق الأيادى	ولثمت من الملوك الثغورا
هتف الصبح بالدجى فاسقنيها	خمرة تترك الحليم سفيها
لست أدرى لرقة وصفاء	هى فى كاسها أم الكاس فيها

فقرأ الملك الشعر فتحسر وقال: «لو كان هذا الأدب فى إنسان لفاق أهل عصره، وزمانه». ثم قدم الملك رقعة شطرنج، وقال: «هل لك أن تلعب معى؟». فأشرت برأسى: «نعم». وتقدمت ووضعت الشطرنج ولعبت معه مرتين وأنا أغلبه. فحارعقل الملك. ثم أخذت الدواة والقلم وكتبت على الرقعة هذين البيتين:

جيشان يقتتلان طول ضحاهما	وتخاصم فى كل وقت زائدُ
حتى إذا جَنَّ الظلام عليهما	ناما وضمهما فراش واحد

فلما قرأ الملك هذين البيتين عجب وطرب ولحقته الحيرة وقال لخادمه: «امض إلى سيدتك سيدة الحسن وقل لها: كلمى الملك حتى تجىء تتفرج على هذا القرد العجيب». فغاب الخادم وعاد ومعه السيدة. فلما نظرت إلى غطت وجهها وقالت: «يا أبى، كيف طاب على قلبك أن ترسل إلىّ لترينى الرجال؟». فقال: «يا سيدة الحسن ما عندى سوى المملوك الصغير والمقدم الذى رباك وأنا أبوك فممن تغطين وجهك؟». فقالت: إن هذا القرد شاب ابن ملك وأبوه اسمه أفتيماروس صاحب جزائر أبنوس وهو مسحور سحره العفريت جرجيس، الذى هو من ذرية إبليس، وقتل زوجته بنت ملك أفتاموس، وهذا الذى تزعم أنه قرد هو رجل عالم

عاقل». فتعجب الملك من ابنته ونظر إلىَّ وقال: «أحق ما تقول عنك؟» فقلت برأسى: «نعم». وبكيت. فقال الملك لابنته: «من أين عرفت أنه مسحور؟». فقالت: «يا أبت، كان عندى وأنا صغيرة عجوز ماكرة ساحرة فعلمتنى السحر وصناعته، وقد حفظته وأتقنته وحفظت منه مائة وسبعين بابًا من أبوابه، أقل باب فيه أجعل حجارة مدينتك خلف جبل قاف وأجعلها لجة بحر وأجعل أهلها سمكًا فى وسطها». فقال أبوها: «يا ابنتى، بحياتى خلصى لنا هذا الشاب حتى أجعله وزيرى؛ لأنه شاب ظريف لبيب». فقالت له: «حبا وكرامة». ثم أخذت بيدها سكينًا وعملت دائرة وسط القصر.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: «وكتبت عليها أسماء وطلسمات وعزمت وقرأت كلامًا يفهم وكلامًا لا يفهم. فبعد ساعة أظلمت علينا الدنيا وإذا بالعفريت قد تدلى علينا فى صفته وهيئته، له أيد كالمذارى، وأرجل كالسوارى، وعينان مثل شعلتى النار. ففزعنا منه. فقالت بنت الملك: «لا أهلاً بك، ولا سهلاً». فانقلب العفريت فى صورة أسد، وقال لها: «يا خائنة، نقضت العهد واليمين، أما تحالفنا بأن لا يتعرض أحد منا للآخر؟». فقالت له: «يا لعين، ومثلك له عندى يمين؟». فقال العفريت: «خذى ما جاءك». ثم فتح الأسد فمه وهجم على الصبية فأسرعت هذه وأخذت من شعرها شعرة وهزتها بيدها وهمهمت بشفتيها، فصارت الشعرة سيفًا ماضيًا وضربت به ذلك الأسد فصار نصفين، وانقلب رأسه عقربًا فانقلبت الصبية حية عظيمة وهجمت على هذا اللعين وهو فى صفة عقرب فتقاتلا قتالاً شديدًا. ثم انقلبت العقرب عقابًا فانقلبت الحية نسرًا وصارت وراء العقاب وطلبته ساعة زمانية.

فانقلب العقاب قطا أسود فانقلبت الصبية ذئبًا أبلق، فتقاتلا فى القصر ساعة زمانية، فرأى القط نفسه مغلوبًا فانقلب وصار رمانة حمراء كبيرة. وقعدت الرمانة فى وسط فسقية القصر فجاءها الذئب فارتفعت فى الهواء ووقعت على بلاط القصر فانكسرت، وانتشر الحب كل حبة وحدها وامتلأت أرض القصر حب رمان. فانتفض الذئب وصار ديكًا والتقط ذلك الحب حتى لم يترك ولا حبة. فبالأمر المقدر بقيت حبة فى جانب الفسقية، فصار الديك يصيح ويرفرف بأجنحته ويشير إلينا بمنقاره، ونحن لا نفهم ما يقول. وصرخ علينا صرخة تخيل لنا عندها أن القصر قد انقلب علينا، ودار فى أرض القصر كله فرأى الحبة التى اختبأت فى جانب الفسقية فانقض عليها ليلتقطها، وإذا بالحبة غاصت فى وسط الماء الذى فى الفسقية وصارت سمكة وغارت فى قعر الماء. فانقلب الديك حوتًا كبيرًا ونزل خلفها وغاب ساعة. ثم سمعنا صراخًا علا فارتجفنا. فبعد ذلك طلع علينا العفريت وهو شعلة نار يفتح فمه، يخرج منه نار ومن عينيه وأنفه نار ودخان. وخرجت الصبية وهى جمرة نار عظيمة فتقاتلت هى وإياه ساعة حتى انعقدت عليهما النيران. وانحبس الدخان فى القصر. فخفنا وأردنا أن نغطس فى الماء خشية من الحريق والهلاك، فقال الملك: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون. يا ليتنا ما كلفناها خلاص هذا القرد، حتى إننا

أتعبناها هذا التعب العظيم مع هذا العفريت الملعون الذى ما تقدر عليه كل العفاريت الموجودة فى الدنيا، ويا ليتنا ما عرفنا هذا القرد، لا بارك الله فيه ولا فى ساعته. قصدنا أن نعمل معه جميلاً لوجه الله تعالى ونخلصه من السحر فابتلينا بتعب القلب».

أما أنا يا سيدتى فكنت مربوط اللسان لا أقدر أتكلم معه بشىء ثم ما شعرنا إلا والعفريت قد صرخ تحت النيران، وصار عندنا فى الإيوان، ونفخ فى وجوهنا بالنار، فلحقته الصبية ونفخت فى وجهه فأصابنا الشرار منها ومنه. فأما شرارها فلم يؤذنا وأما شراره فلحقنى فى عينى شرارة منه فطمستها وأنا فى صورة القرد، ولحق الملك شرارة منه فى وجهه أحرقت نصف وجهه ولحيته وحنكه التحتانى، وأوقعت صف أسنانه التحتانية، ووقعت شرارة فى صدر الخصى فاحترق ومات فأيقنا بالهلاك ويأسنا من الحياة. فبينما نحن كذلك إذ بقائل يقول: «الله أكبر الله أكبر. فتح ونصر». وإذا بينت الملك قد أحرقت العفريت وإذا به قد صار كومة رماد وأقبلت الصبية إلينا، وقالت: «الحقونى بطاس ماء». فجاءوها بها فتكلمت عليها بكلام لا نفهمه. ثم رشتنى بالماء وقالت: «اخلص بحق الحق، وبحق اسم الله الأعظم إلى صورتك الأولى». فانتفضت فإذا أنا بشر كما كنت ولكن ذهبت عينى. فقالت الصبية: «النار النار يا والدى ما بقيت أعيش، وما أنا معودة قتال الجن، ولو كان من الإنس قتلته من زمان. وما تعبت إلا وقت تفرق حبوب الرمانة والتقاط حبها. ونسيت الحبة التى فيها روح الجنى فلو التقطتها لمات لساعته. ولكن ما علمت بالقضاء والقدر فإذا هو قد أتى وجرى لى معه حرب شديدة تحت الأرض وفى الهوء والماء. وكلما كنت أفتح عليه بابًا يفتح على بابًا إلى أن فتح علىَّ باب النار، وقليل من يفتح عليه باب النار وينجو منه. وإنما ساعدنى عليه القدر حتى حرقته قبلى. وكنت أعهد منه التدين بدين الإسلام، وأما أنا فميتة فخليفتى الله عليكم». ثم إنها استغاثت ولم تزل تستغيث من النار، فإذا شرار أسود قد صعد إلى صدرها وسرى إلى وجهها. فلما وصل إلى وجهها بكت، وقالت: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله». ثم نظرنا إليها وإذا بها كومة رماد إلى جانب كومة العفريت، فحزنا عليها وتمنيت لو كنت مكانها، ولا أرى ذلك الوجه المليح الذى يعمل معى هذا الخير يصير رمادًا لكن حكم الله لا يرد. فلما رأى الملك ابنته صارت كومة رماد نتف بقية لحيته ولطم وجهه وشق أثوابه. وفعلت كما فعل وبكينا عليها. فأقبل الحجاب وأرباب الدولة فوجدوا السلطان فى حالة العدم وكومتَى رماد فتعجبوا وداروا حول الملك ساعة. فلما أفاق أخبرهم بما جرى لابنته مع العفريت وكيف كان موتهما، فعظمت مصيبتهم وصرخ النساء والجوارى وأقاموا المأتم سبعة أيام وقام الملك وأمر أن يبنى على رماد ابنته قبة عظيمة وأوقدوا فيها الشموع والقناديل، وأما رماد العفريت فإنهم ذروه فى الهواء إلى لعنة الله. ثم مرض السلطان مرضًا أشرف منه على الموت ودام مرضه شهرًا. ثم تعافى ونبتت لحيته فطلبنى وقال لى: «يا فتى، قد قضينا زماننا فى أهنأ عيش آمنين من نوائب الزمان حتى أقبلت علينا، يا ليتنا ما كنا رأيناك ولا رأينا يوم طلعتك القبيحة فها نحن صرنا فى حالة العدم بسببك، أولاً عدمت ابنتى التى كانت تساوى مائة رجل، وثانيًا جرى لى من الحريق ما جرى وعدمت أضراسى ومات خادمى وقبل ذلك وبعده ما رأينا منك شيئًا. لكن

الكل من الله عليك وعلينا، والحمد لله حيث خلصتك ابنتى وأهلكت نفسها. فاخرج يا ولدى من بلدى وكفى ما جرى بسببك وكل ذلك مقدر علينا وعليك فاخرج بسلام وإن عدت رأيتك قتلتك». وصرخ علىَّ فخرجت يا سيدتى من عنده وما أوقن بالنجاة ولا أدرى أين أتوجه. وخطرعلى قلبى ما جرى لى وكيف خلونى فى الطريق وسلامتى منهم ومشيت شهرًا ودخلت فى المدينة غريبًا واجتماعى بالخياط واجتماعى بالصبية تحت الأرض وخلاصى من العفريت بعد أن كان عازمًا على قتلى، وما عبر علىَّ من المبتدا إلى المنتهى. فحمدت الله، وقلت: «بعينى ولا بروحى». ودخلت الحمام قبل أن أخرج من المدينة وحلقت لحيتى ولبست مسحًا أسود وقصدت الحج يا سيدتى، وفى كل يوم أبكى وأتفكر فى المصائب التى جرت علىَّ وقلع عينى، وكل ما أفتكر فى ما جرى لى أبكى وأنشد وأقول هذه الأبيات:

تحيرت والرحمن لا شك فى أمـــرى	**وحاطت بى الأحزان من حيث لا أدرى**
سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى	**وأصبـــــر حتى يقضى الله فى أمرى**
سأصبر مغلوبًا بغير توجـــــــع	**كما يصبر الظمآن فى أزمن الحر**
سأصبـــــر حتى يعلم الناس أننى	**صبرت على شىء أمر من الصبر**
ولا شىء مثل الصبـر مـــــر وإنما	**أمر من الأمرين إن خاننى صبرى**
سرائر سرى ترجمان سريرتى	**إذا كان سر السر سرك فى سرى**
ولو أن مـــا بى بالجبـال لهدمت	**وبالنار أطفـــأها وبالريح لم تسر**
ومن قال إن الدهر فيه حلاوة	**فـــــــلا بد من يوم أمـــر من المرّ**

ثم سافرت الأقطار، ووردت الأمصار، وقصدت دار السلام بغداد لعلى أتوصل إلى أمير المؤمنين وأخبره بما جرى لى. فوصلت بغداد هذه الليلة فوجدت أخى هذا الأول واقفًا حائرًا. فقلت: «السلام عليك وتحدثت معه». وإذا بأخينا الثالث قد أقبل علينا، وقال: السلام عليكم، أنا رجل غريب. فقلنا له: «ونحن غرباء وقد وصلنا هذه الليلة المباركة». فتمشينا نحن الثلاثة وما فينا أحد يعرف حكاية أحد فساقتنا المقادير إلى هذا الباب ودخلنا إليكم. وهذا سبب حلق لحيتى وشواربى وقلع عينى. فقالت: «إن حكايتك غريبة، ملس على رأسك واخرج إلى حال سبيلك». فقال: «لا والله، لا أخرج حتى أسمع حديث رفقتى هؤلاء».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قصة القلندرى الثالث

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

فتقدم القلندرى الثالث، وقال: «أيها السيدة الجليلة، ما قصتى مثل قصتهما، بل قصتى أعجب وأغرب، وهى سبب لحلق لحيتى وقلع عينى، إن هذين جاءهما القضاء والقدر، وأنا جلبت القضاء بيدى، والهم لروحى، وذلك أنى كنت ملكًا ابن ملك، ومات والدى وأخذت الملك من بعده، وحكمت وعدلت وأحسنت للرعية وكان فىَّ محبة للسفر، وركوب البحر، وكانت مدينتى على البحر، والبحر متسع وحولنا جزائر كثيرة عظيمة فى وسط البحر. وكان لى فى

البحر خمسون مركبًا للمتجر وخمسون مركبًا أصغر للفرجة، ومائة وخمسون قطعة معدة للحرب والجهاد، فأردت أن أتفرج على الجزائر فنزلت فى عشرة مراكب، وأخذت معى زاد شهر كامل وسافرت عشرين يومًا. فلما كانت ليلة من الليالى هبت علينا رياح مختلفة وهاج البحر علينا هيجات عظيمة، وتلاطمت الأمواج فيأسنا من الحياة، ونزلت علينا ظلمة شديدة، وقلت: «ليس المخاطر بمحمود ولو سلم». فدعونا الله تعالى وابتهلنا إليه، وما زالت الأرياح تختلف والأمواج تلطم إلى أن انفجر الفجر، فهدأت الريح وصفا البحر وأشرقت الشمس.

ثم إننا أشرفنا على جزيرة وخرجنا إلى البر وطبخنا شيئًا نأكله فأكلنا. ثم أخذنا راحة يومين وسافرنا عشرين يومًا فاختلفت علينا المياه وعلى الرئيس واستغرب الرئيس البحر فقلنا للناظور: «اكشف البحر واطلع البطية». فصعد للسارية ثم نظر، وقال للرئيس: «يا رئيس، رأيت عن يمينى سمكًا على وجه الماء، ونظرت إلى وسط البحر فرأيت سوادًا من بعيد يلوح ساعة أسود وساعة أبيض». فلما سمع الرئيس كلام الناظور ضرب عمامته فى الأرض ونتف لحيته وقال للناس: «أبشروا بهلاكنا نحن الجميع فلا يسلم منا أحد». وشرع يبكى ونحن الجميع نبكى على أنفسنا، فقلت: «أيها الرئيس أخبرنا بما رأى الناظور؟».

فقال: «اعلم يا سيدى، أننا تهنا فى يوم هاجت علينا الأرياح وما هدأت الريح إلا بكرة النهار وأقمنا يومين، وتهنا فى البحر، وقد مضى علينا أحد عشر يومًا من تلك الليلة ولا لنا ريح ترجعنا إلى ما نحن قاصدون، وآخر النهار غدًا نصل إلى جبل حجر أسود وتجرنا المياه غصبًا إلى تحته فينفتح المركب ويروح كل مسمار فى المركب إلى الجبال ويلتصق به؛ لأن الله تعالى ركب فى حجر المغناطيس سرا وهو أن جميع الحديد يذهب إليه. وفى ذلك الجبل حديد كثير لا يعلمه إلا الله حتى إنه تكسر من قديم الزمان مراكب كثيرة على ذلك الجبل، ومما يلى البحر قبة من النحاس الأصفر معقودة على عشرة أعمدة وفوق القبة فارس وفرس من النحاس، وفى يد ذلك الفارس رمح من النحاس معلق فى صدره لوح من رصاص منقوش عليه أسماء وطلاسم». فقال لى: «أيها الملك، ما يهلك الناس إلا الراكب على هذه الفرس وما الخلاص إلا إذاوقع هذا الفارس من على تلك الفرس». ثم بكى الرئيس يا سيدتى بكاءً شديدًا فتحققنا أننا هالكون لا محالة وكل منا ودع صاحبه احتمال أن لا يسلم. فلم ننم تلك الليلة.

فلما جاء الصباح قربنا إلى ذلك الجبل وساقتنا المياه غصبًا إليه، فلما صارت المراكب تحته خرجت المسامير وكل حديد فيها طلب حجر المغناطيس واشتبك فيه. وعند آخر النهار درنا حوله فمنا من غرق ومن من نجا وأكثرنا غرق، والذين سلموا لم يعلموا بعضهم ببعض لأن الأمواج واختلاف الرياح قذفت كلا إلى جانب. أما أنا فنجانى الله تعالى لما يريد من شقائى، فركبت لوحًا من الألواح فضربته الريح فالتصق بالجبل فاصبت طريقًا متطرقًا إلى أعلاه كهيئة السلالم منقورة فى الجبل، فسميت الله تعالى.

ثم إنى لما سميت الله دعوته وابتهلت إليه، وتعلقت بالنقر الذى فى الجبل، وقد تسلقت قليلاً، فأذن الله أن تسكن الريح فى تلك الساعة، وأعاننى على الصعود فسلمت وصعدت إلى الجبل، فلم يكن لى دأب إلا القبة وفرحت بسلامتى غاية الفرح.

فدخلت القبة وتوضأت وصليت ركعتين شكرًا لله على سلامتى، ثم إنى نمت تحت القبة فسمعت فى منامى قائلاً يقول: «يا ابن خصيب، إذا انتبهت من منامك احفر تحت رجليك تجد قوسًا من نحاس وثلاث نشابات من رصاص منقوشًا عليها طلسمات. فخذ القوس والنشاب وارم الفارس الذى على القبة وأرح الناس من هذا البلاءالعظيم. فإذا رميت الفارس يقع فى البحر والقوس يقع عندك. فخذ القوس وادفنه فى موضع الفرس. فإذا فعلت ذلك يطفو البحر ويعلو حتى يساوى الجبل ويطلع عليه زورق فيه شخص نحاس غير الذى رميته يجىء إليك وفى يده مقذاف، فاركب معه، ولا تسم الله تعالى، فإنه يقذف ويسافر بك مدة عشرة أيام إلى أن يوصلك إلى بحر السلامة، فإذا وصلت هناك تجد من يوصلك إلى بلدك، فهذا يتم لك إذا لم تسم الله». كذا

ثم استيقظت من نومى وقمت بنشاط وفعلت مثلما قال الهاتف ورميت الفارس فوقع فى البحر ووقعت القوس عندى، فأخذت القوس ودفنتها فهاج البحر وعلا حتى ساوى الجبل وساوانى فلم ألبث غير ساعة حتى رأيت زورقًا فى وسط البحر آتيًا إلىَّ فحمدت الله تعالى. فلما وصل إلىَّ الزورق وجدت فيه شخصًا من النحاس فى صدره لوح من الرصاص منقوش بأسماء وطلسمات. فطلعت فى الزورق وأنا ساكت لا أتكلم. فقذف الشخص أول يوم والثانى والثالث، إلى تمام العشرة الأيام، فنظرت ورأيت جزائر السلامة، ففرحت فرحًا عظيمًا ومن شدة فرحى ذكرت الله، وسميت وهللت وكبرت.

فلما فعلت كذلك قذفنى الزورق فى البحر، ثم رجع وانقلب فى البحر فكنت أعرف العوم فعمت ذلك اليوم إلى الليل حتى كلت سواعدى، وتعبت، ولم أزل فى الهلكات، ثم تشهدت وأيقنت بالموت، فهاج البحر من كثرة الرياح فجاءت موجة كالقلعة العظيمة فحملتنى وقذفتنى قذفة حتى صرت فوق البر لما يريد الله. فقمت وعصرت ثيابى ونشفتها ونشرتها على الأرض، وبت. فلما أصبحت لبست أثوابى وقمت أنظر أين أمشى فوجدت غوطة فجئتها ودرت حولها فوجدت الموضع الذى أنا فيه جزيرة صغيرة والبحر محيط بها فقلت: «كلما أخلص من بلية أقع فى أعظم منها».

فبينما أنا متفكر فى أمرى وأنا أتمنى الموت نظرت من بعيد مركبًا فيه ناس وهو قاصد الجزيرة التى أنا فيها فقمت وقعدت على شجرة، وإذا بالمركب قد التصق وخرج منه إلى البر عشرة عبيد، ومعهم مساح ومشوا إلى أن وصلوا إلى وسط الجزيرة فحفروا فى الأرض وكشفوا عن طابق فرفعوا الطابق وفتحوا بابه ثم عادوا إلى المركب ونقلوا منه خبزًا ودقيقًا وسمنًا وعسلاً وأغنامًا والآلات التى تحتاج إليها المساكن. وما زال العبيد فى صعود ونزول إلى المركب إلى أن نقلوا جميع ما فى المركب إلى الحفرة. وبعد ذلك خرجوا ومعهم ثياب أحسن ما يكون وفى وسطهم شيخ كبير قد أبقى ما أبقى وعركه الدهر فما استبقى كأنه مفنى ملقى، فى خرقة زرقا، تمر فيها الأرياح غربًا وشرقًا، كما قال فيه الشاعر:

قد أرعش الدهر أى رعش والدهر ذو قوة وبطش
قد كنت أمشى ولست أعيا واليوم أعيا ولست أمشى

وبيد ذلك الشيخ فى يد صبى قد أفرغ فى قالب الكمال، حتى ضربت به الأمثال. فلم يزالوا ماشين حتى أتوا الطابق ونزل الجميع فى الطابق وغابوا ساعة، ثم طلع العبيد والشيخ ولم يطلع الصبى معهم. ثم ردوا الباب كما كان ونزلوا فى المركب وغابوا عن عينى.

فلما توجهوا قمت ونزلت من على الشجرة ومشيت إلى موضع الردم ونبشت التراب ونقلته، وطولت روحى حتى رفعت جميع التراب فانكشف الطابق، فإذا هو خشب وسع فلقة حجر الطاحون، فرفعتها فبان من تحتها سلم حجر عقد، فتعجبت لذلك ونزلت فى السلم حتى انتهيت إلى آخرها فوجدت بنيانًا نظيفًا مفروشًا بأنواع البسط والحرير والصبى جالس على مرتبة عالية متكئ على مخدة وفى يده مروحة وبين يديه مشموم ورياحين وهو وحده فلما رآنى اصفر لونه، فسلمت عليه وقلت له: «أرح روحك، وهدئ روعك، لا بأس عليك، أنا إنسى مثلك وابن ملك وإنما ساقتنى المقادير إليك أؤنسك على وحدتك فما قصتك وما حكايتك حتى سكنت تحت الأرض وحدك؟». فلما تحقق أنى من جنسه فرح ورد لونه وقربنى إليه، وقال:

«يا أخى، قصتى عجيبة. وذلك أن والدى تاجر جوهرى، وله تجارة وعبيد ومماليك تجار، يسافرون له فى المراكب بالتجارات إلى أقصى البلاد، ولهم معاملات وأموال متسعة ولم يرزق ولدًا قط. فرأى فى منامه أنه يرزق ولدًا فى عمره قِصَر. فأصبح والدى فى صراخ وبكاء، فلما كانت الليلة القابلة حبلت والدتى بى، فأرخ تاريخ حبلها وانقضت أيامها فولدتنى، ففرح والدى وأولم الولائم وأطعم الفقراء والمساكين لكونه رزقنى فى آخر عمره. فجمع المنجمين وأهل التقاويم وحكماء الزمان، وأصحاب التواريخ والمواليد فكشفوا ميلادى، وقالوا له: «ولدك يعيش خمس عشرة سنة، وعليه مخاطر إن سلم منها عاش زمانًا طويلاً. وسبب موته أن فى بحر الهلكات جبل المغناطيس عليه فارس وفرس من نحاس، والفارس فى صدره لوح من رصاص، فمتى وقع الفارس من على فرسه يموت ولدك بعد خمسين يومًا. وقاتله هو الذى يرمى الفارس وهو ملك اسمه عجيب بن خصيب، فاغتم أبى غما شديدًا، ثم ربانى وأحسن تربيتى، إلى أن بلغت خمس عشرة سنة. ومن مدة عشرة أيام جاء أبى الخبر أن الفارس وقع فى البحر، وأن الذى رماه ملك اسمه عجيب بن خصيب. فخاف علىَّ أبى من القتل، فنقلنى إلى هذا المكان وهذه قصتى وسبب وحدتى».

فلما سمعت قصته تعجبت وقلت فى نفسى: «أنا الذى عملت هذا كله؟». وأنا والله لا أقتله أبدًا». ثم قلت: «يا مولاى، كفيت الردى ووقيت الأذى، وإن شاء الله تعالى لا ترى هما ولا غما. وأنا أقعد عندك وأخدمك وأرجع إلى حال سبيلى، وبعد أن أؤنسك فى هذه الأيام توصلنى إلى بعض المماليك لأسافر معهم إلى بلادى». وجلست أحدثه إلى الليل، فقمت وأوقدت شمعة كبيرة، وأشعلت القناديل وجلسنا بعد أن مددنا شيئًا من الأكل فأكلنا، وقمت مددت شيئًا من الحلوى فتحلينا وجلسنا نحدث بعضنا شتى الأحاديث حتى ذهب الليل أكثره، فنام غطيته وقمت أنا فنمت.

فلما أصبحت قمت وسخنت قليلاً من الماء ونبهته برفق فاستيقظ. فأتيته بالماء المسخن فغسل وجهه، وقال: «جُزيت خيرًا يا فتى، والله متى سلمت من الذى أنا فيه، ومن الذى اسمه

عجيب بن خصيب خليت أبى يكافئك، وأما إذا مت فالسلام عليك». فقلت له: «لا كان يوم يصيبك فيه شر وجعل الله يومى قبل يومك». ثم قدمت شيئًا من الأكل فأكلنا وعملت له بخورًا فطاب ووضعت له المنقلة ولعبت أنا وإياه. ثم أكلنا شيئًا من الحلوى ولعبنا إلى الليل. فقمت أوقدت المصابيح وقدمت شيئًا من الأكل وقعدت أحدثه إلى أن بقى شىء قليل من الليل، فنام وغطيته ونمت ولم أزل يا سيدتى أيامًا وليالى وبقى له فى قلبى محبة وسلوت همى وقلت فى نفسى: «كذب المنجمون، والله لا أقتله».

ولم أزل أخدمه وأنادمه وأحادثه إلى تسعة وثلاثين يومًا. وليلة الأربعين فرح الصبى، وقال: «يا أخى، الحمد لله الذى نجانى من الموت وهذا ببركتك وبركة قدومك، وأسأل الله أن يردك إلى بلدك، ولكن يا أخى، أريد أن تسخن لى ماءً أغتسل وأغسل جسدى». فقلت: «حبا وكرامة». وسخنت له ماء بكثرة ودخلت به عليه وغسلت جسده غسلاً جيدًا ودلكته وخدمته. وغيرت له أثوابه وفرشت تحته فرشًا عاليًا فجاء الصبى واستلقى عليه ونام من الاستحمام، وقال: «يا أخى اقطع لنا بطيخة وذوب بها سكر نبات». فدخلت الخزانة فلقيت بطيخة مليحة ووجدتها فى طبق فكلمته وقلت: «يا سيدى، ما عندك سكين؟». فقال: «ها هى فوق رأسى على هذه الصفة العالية». فقمت وأنا مستعجل وأخذت السكين ومسكتها من نصلها ورجعت إلى خلفى فعثرت رجلى بشىء على الأرض، وتبطشت على الصبى، والسكين فى يدى. فأسرعت السكين بما كتب فى الأزل وانغرزت فى قلب الصبى فمات من ساعته.

فلما قضى نحبه وعلمت أنى قتلته صرخت صرخة عظيمة، ولطمت وجهى وشققت أثوابى، وقلت: «إنا لله وإنا إليه راجعون، يا مسلمون هذا الصبى بقى له من الخطر الذى أخبر به المنجمون والحكماء إلى تمام الأربعين يومًا ليلة واحدة، وكان أجل هذا المليح على يدى. فيا ليتنى مت قبله، ولم أقطع هذه البطيخة، ما هذا إلا مصائب وغصص ولكن ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً». ولما تيقنت أنى أنا قتلته قمت وخرجت من السلم ورددت التراب ونظرت بعينى إلى البحر فرأيت المركب يشق البحر طالبًا البر. فخفت وقلت: «الساعة يجيئون ويصيبون ولدهم مقتولاً فيعرفون أنى قتلته فيقتلونى لا محالة». فعمدت إلى شجرة عالية وطلعتها واستترت بأوراقها، فما استقررت فوق الشجرة إلا وقد خرج العبيد وطلع معهم الشيخ الكبير أبو الصبى.

فجاءوا إلى الموضع وأزالوا التراب فوجدوا الطابق فنزلوا فوجدوا الصبى نائمًا وجهه يضىء من أثر الحمام، وهو لابس ثيابًا نظافًا والسكين مغروزة فى صدره. فصرخوا وبكوا ولطموا وجوههم ودعوا بالويل والثبور وغشى على الشيخ ساعة طويلة. ثم إن العبيد ظنوا أن الشيخ لا يعيش بعد ولده. ولفوا الصبى فى أثوابه وأرخوا عليه ملاءة من الحرير وذهبوا إلى المركب. وطلع الشيخ خلفهم فنظر ولده ممدودًا فوقع على الأرض وأخذ التراب على رأسه ولطم وجهه ونتف لحيته وتفكر فى قتل ولده فزاد بكاؤه وغشى عليه فطلع عبد منهم فجاء بقطع حرير ومدوا الشيخ على المقعد وجلسوا عند رأسه. هذا كله وأنا فى الشجرة فوق

رؤوسهم أنظر ما يجرى وقد شاب قلبى قبل أن يشيب رأسى بما قاسيت من الهموم والأحزان وأنشدت أقول:

وكم لله من لطف خفىٍّ يدق خفاه عن فهم الذكى
وكم أمر تساء به صباحًا فتأتيك المسرة بالعشى
وكم يسر أتى من بعد عسرٍ ففرج كربة القلب الشجى

فيا سيدتى، لم يزل الشيخ فى غشوته إلى أن قرب الغروب. ثم استفاق ونظر إلى ولده وما جرى له، والذى خاف منه وقع ولطم وجهه ورأسه وأنشد هذه الأبيات:

القلب من فرقة الأحباب منصدع وإن دمعى من الآماق ينهملُ
شط المرام بهم بعدًا فوا أسفى ما حيلتى فيهم ما القول ما العملُ
فليتنى لم أكن انظرهم أبدًا ما حيلتى سادتى ضاقت بى السبلُ
كيف السلو بسلوان وقد لعبت نارالأسى بفؤادى وهى تشتعلُ
ما كان أحسننا والدار تجمعنا ونحن فى غبطة والعيش متصلُ
حتى رمينا بسهم البين فرقنا من ذا الذى لسهام البين يحتملُ
إذ نابنا فى عزيز القوم نائبة فريد عصر له بالحسن مكتملُ
أنشدته ولسان الحال يسبقنى يا ليت يا ولدى لم يأتك الأجلُ
كيف السبيل إلى لقياك من عجل نفديك يا ولدى بالروح لو قبلوا
لهفى عليك من الأيام يا أسفى ما عنك بد فمن ذا عنك يشتغلُ
أبوك أضحى به شوق إليك وإذ حل الممات بكم ضاقت بى الحيلُ
عين الحواسد فينا اليوم قد وقعت يلقون ما صنعوا يا بئس ما فعلوا

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

ثم شهق شهقة فارقت روحه جسده. فصرخ العبيد: «واسيداه». وأخذوا التراب على رؤوسهم وزادوا فى البكاء وأنزلوه المركب مع ولده. وأرخوا قلع المركب فغابوا عن عينى. فنزلت من الشجرة ونزلت الطابق وتفكرت فى الشاب فرأيت بعض حوائجه فأنشدت:

أرى آثارهم فأذوب شوقًا وأسكب فى مواطنهم دموعى
وأسأل من قضى بالبعد عنهم يمنُّ علىَّ يومًا بالرجوع

ثم إنى يا سيدتى، خرجت من الطابق وكنت فى النهار أطوف فى الجزيرة وبالليل أنزل إلى القاعة فأقمت على ذلك شهرًا، وأنا أنظر إلى طرف الجزيرة التى من ناحية الغرب، وهو كل ما مر يوم من الأيام ينشف البحر إلى أن قل الماء من جهة الغرب وانقطع تياره. فلما كمل الشهر نشف البحر من تلك الناحية ففرحت وأيقنت بالسلامة. وقمت خضت ما بقى من

البحر وخرجت إلى البر الأصيل فلقيت كثبان رمل تغوص رجل الجمل فيها إلى الركب. فقويت روحى وقطعت الرمل وإذا أنا بنار تلوح من بعيد وهى تشتعل اشتعالاً قويا. فقصدتها لعلى أجد فرجًا وأنشدت أقول:

عسى ولعل الدهر يلوى عنانه ويأتى بخير والزمان غيورُ
ويسعف آمالى ويقضى حوائجى وتحدث من بعد الأمور أمور

ثم إنى قصدت النار، فلما قربت إليها رأيت قصرًا بابه من النحاس الأصفر. فلما أشرقت عليه الشمس أضاء من بعيد كأنه نار. ففرحت برؤيته وجلست مقابلاً بابه. فلم يستقر بى الجلوس حتى أقبل عشرة شباب لابسين الأثواب المفتخرة. ومعهم شيخ كبير، إلا أن الشباب عور بالعين اليمنى. فتعجبت من اتفاقهم فى عورهم، فلما رأونى سلموا على وسألونى عن حالى. فحكيت لهم ما جرى لى وما تم بى من المصائب. فتعجبوا لحديثى وأخذونى وأطلعونى إلى القصر، فرأيت فى دائر القصر عشرة تخوت وكل تخت أزرق، وفى وسط التخوت تخت صغير، وهو مثلها كل ما عليه أزرق.

فلما دخلنا صعد كل شاب تخته وقام الشيخ إلى ذلك التخت الصغير الذى فى وسط التخوت، وقال: «يا فتى، اجلس فى هذا القصر، ولا تسأل عن أحوالنا ولا عن عور أعيننا». ثم قام الشيخ وقدم لكل واحد طعامًا فى إناء وشرابًا فى إناء وقدم لى كذلك. وبعد ذلك جلسوا يسألونى عن أحوالى وما جرى لى، وأنا أخبرهم إلى أن ذهب أكثر الليل. فقال الشباب: «أيها الشيخ، قدم لنا راتبنا فقد جاء وقته». فقال: «حبا وكرامة».

ثم قام ودخل إلى مخدع فى القصر وغاب وعاد وعلى رأسه عشرة أطباق كل واحد مغطى بغطاء أزرق. فقدم لكل شاب طبقًا، ثم أوقد شموع وغرز فى كل طبق شمعة. ثم كشف الأغطية فبان من تحتها فى الأطباق رماد ودق فحم وسواد القدر. فشمر الجميع عن سواعدهم وبكوا وانتحبوا وسخموا وجوههم وخبطوا أثوابهم، ولطموا وجوههم، ودقوا على صدورهم وصاروا يقولون: «كنا قاعدين بطولنا، ما خلانا فضولنا». ولم يزالوا على هذا إلى الصبح، فقام الشيخ وسخن لهم ماء فغسلوا وجوههم ولبسوا أثوابًا غير الأولى.

فلما رأيت ذلك يا سيدتاه ذهب عقلى، وحار فكرى، واشتغل سرى، ونسيت ما جرى لى، ولم أستطع السكوت دون أنى كلمتهم وسألتهم وقلت لهم: «أى شىء أوجب هذا بعد انشراحنا وسرورنا، وأنتم بحمد الله تعالى فيكم عقل تام، وهذه الأفعال لا يفعلها غير المجانين؟ فأسألكم بأعز الأشياء عليكم إلا ما قلتم لى خبركم وسبب قلع أعينكم وسخامة وجوهكم بالرماد والسواد». فقالوا: «يا فتى، لا يغرك شبابك واعدل عن سؤالك».

ثم قاموا وقمت معهم فقدم الشيخ شيئًا من المأكول، فبعد أن أكلنا ورُفعت الأوانى فعدوا يتحدثون إلى أن أقبل الليل فقام الشيخ وأوقد الشموع والقناديل وقدم لنا الأكل والشرب. فلما فرغنا قعدنا للمحادثة والمنادمة إلى نصف الليل. فقال الشباب للشيخ: «هات لنا راتبنا فقد جاء وقت النوم». فقام الشيخ وأتى بالأطباق وفيها الرمل الأسود. ففعلوا مثل ما فعلوا أول

ليلة، وأنا قاعد عندهم على هذا الحال مدة شهر، وهم كل ليلة يسخمون وجوههم بالرماد ثم يغسلونها ويغيرون أثوابهم. وأنا أتعجب من ذلك وازدادت وساوسى بحيث أنى امتنعت من الأكل والشرب. فقلت لهم: «أيها الفتيان، إن لم تخبرونى عن سبب تسخيم وجوهكم تركتكم». فقالوا: «كتمان سرنا أصلح».

فبقيت متحيرًا فى أمرهم، وأنا أمتنع من الأكل والشرب، فقلت لهم: «لا بد أن تخبرونى ما سبب ذلك؟». فقالوا: «هذا فيه مشقة عليك؛ لأنك تبقى مثلنا». فقلت: «لا بد من ذلك وإلا دعونى أسافر من عندكم إلى أهلى وأستريح من نظرى هذه الأحوال، والمثل يقول: عين لا تنظر، قلب لا يحزن».

فعمدوا إلى كبش ذبحوه وسلخوه، وقالوا لى: «خذ هذا السكين وادخل هذا الجلد ونحن نخيطه عليك، فإنه يأتيك طير اسمه الرخ فيرفعك ويحطك على جبل فشق الجلد واخرج منه فيخاف منك الطير فيروح ويخليك. فامش نصف نهار تلق قدامك قصرًا غريب الصفة فادخل فيه، وقد بلغت مناك. فدخولنا إلى القصر هو سبب سخامة وجوهنا وقلع عيوننا. وأما نحن إذا حكينا لك يطول شرحنا فإن كل واحد منا جرت له حكاية فى قلع عينه اليمنى». ففرحت بذلك، ثم فعلوا بى ما قالوا.

وحملنى الطير وحطنى على الجبل، فخرجت من الجلد ومشيت حتى دخلت القصر وإذا فيه أربعون جارية كالأقمار. فلما رأيننى قلن جميعًا: «أهلاً وسهلاً بك ومرحبًا يا مولانا». ثم إنهن أجلسننى على مرتبة عالية وأتيننى بطعام فأكلت أنا وإياهن، وقدمن لى الشراب، وقام منهن خمسة ففرشن حصيرة ووضعن حولهن من المشموم والفواكه والنقل أشياء كثيرة وأحضرن المدام. فجلسنا للشراب وأخذت الجوارى عودًا وغنين عليه ودارت الكؤوس والطاسات بيننا فدخل علىَّ من الفرح ما أنسانى هموم الدنيا جميعها.

وحيث كان رأس السنة الجديدة قلن لى: «ليتنا ما عرفناك، فإن سمعت منا كان فى صلاح حالك». وصرن يبكين. فتعجبت وقلت لهن: «ما الخبر؟». فقلن: «إننا نحن بنات ملوك ونحن مجتمعات هنا مدة سنين نغيب أربعين يومًا ونقعد سنة نأكل ونشرب، ونلذ ونطرب، ثم نغيب. وهذا دأبنا ونخشى أنك تخالفنا بعد أن نغيب عنك فيما نأمرك به، فها نحن نسلمك مفاتيح القصر وفيه أربعون خزانة. فأنت تفتح التسعة والثلاثين بابًا والحذر أن تفتح الباب الأربعين فتفارقنا». فقلت لهن: «لا أفتحه».

وبعد أن قضينا سنة الوداع خرجن وطرن، فقعدت فى القصر وحدى، ولما قرب المساء فتحت الخزانة الأولى ودخلتها فوجدت فيها بيتًا كأنه الجنة، وفيه بستان أشجاره مخضرة وثماره يانعة، وأطياره صادحة، ومياهه متدفقة، فارتاح بها خاطرى وتمشيت بين الأشجار وشممت روائح الأزهار، وسمعت غناء الأطيار، وهى تسبح الواحد القهار، ورأيت لون التفاح بين احمرار واصفرار، ثم نظرت إلى السفرجل واستروحت المزرى عرفه برائحة المسك والعنبر وهو كما قال الشاعر وأخبر:

حاز السفرجل لذات الورى فغدا ... على الفواكه بالتفضيل مشهورا
كالراح طعمًا ونشر المسك رائحة ... والتبر لونًا وشكل البدر تدويرا

ثم نظرت إلى برقوق يروق العين حسنه كأنه ياقوت مخلوق، ثم خرجت من ذلك المكان، وأغلقت باب الخزانة كما كان، وذهبت فنمت إلى الصبح.

ولما كان الغد فتحت خزانة أخرى ودخلتها فوجدت فيها ميدانًا كبيرًا، وفيه نخل كبير، ونهر جار وأشجار الورد والياسمين، والمردقوش والنسرين، والنرجس والمنثور مفروشة بحافته. وقد هبت الرياح على تلك الرياحين، فانتشر ذلك الطيب يمينًا وشمالاً وحصل لى من ذلك الحبور التام، ثم خرجت من ذلك المكان، وأغلقت باب الخزانة كما كان.

ثم فتحت باب الخزانة الثالثة، فرأيت فيه قاعة كبيرة مفروشة بالرخام الملون والمعادن الثمينة، والأحجار الفاخرة، وفيها أقفاص من الصندل والعود، فيها طيور تغنى مثل الهزاز، والمطوق، والشحرور، والقمرى والنوبى المغرد. فطاب قلبى من ذلك وانفرج همى ونمت فى ذلك المكان إلى الصباح.

ثم فتحت باب الخزانة الرابعة.فوجدت فيها بيتًا كبيرًا وفى ذلك البيت أربعون خزانة مفتحة الأبواب، فدخلت فيها فرأيت من اللؤلؤ والياقوت والزبرجد والزمرد والجواهر النفيسة ما لا يوصف بلسان، فاندهش عقلى من ذلك وقلت: «هذه الأشياء أظن أنها لا توجد فى خزانة ملك من الملوك». وانشرح حينئذ خاطرى وزال همى فقلت: «أنا الآن ملك عصرى وهذه الأموال من فضل الله عندى».

ولم أزل أتنقل من موضع إلى موضع حتى مضت تسعة وثلاثون يومًا، وقد فتحت فى هذه المدة الخزائن كلها إلا الخزانة التى منعننى عن فتح بابها.

فبقى خاطرى مشتغلاً يا سيدتى بتلك الخزانة التى هى تمام الأربعين، وحكم على الشيطان لأجل شقاوتى بأن أفتحها فلم أجد صبرًا على ذلك، ولم يبق من الميعاد إلا يوم واحد. فقمت إلى الخزانة المذكورة وفتحت بابها ودخلت فوجدت رائحة ذكية لم أستروح مثلها، وخامرت عقلى تلك الرائحة فوقعت مغشيا على مقدار ساعة. ثم قوَّيتُ قلبى ودخلت الخزانة فرأيت أرضها مفروشة بالزعفران، وفيها قناديل من ذهب ومشمومات، يضوع نشر المسك والعنبر منها، وهى تتقد نورًا. ورأيت مبخرتين عظيمتين كل واحدة منهما مملوءة من العود والعنبر. وقد تعطر المكان من عرفهما.

ونظرت يا سيدتى جوادًا أدهم كسواد الليل إذا أظلم، وقدامه معلف من البلور الأبيض، فيه سمسم مقشور، ومعلف آخر مثله فيه ماء ورد ممسك، والجواد مشدود ملجم، وسرجه من الذهب الأحمر. فلما رأيته تعجبت منه وقلت فى نفسى: «إن هذا لا بد له من شأن عظيم». وأضلنى الشيطان فأخرجته وركبته فلم يبرح من مكانه. فرفسته فلم يتحرك فأخذت المقرعة وضربته بها فلما أحس بالضربة صهل بصوت كالرعد القاصف، وفتح له جناحين فطار بى

وغاب عن الأبصار فى جو السماء ثم حطنى على سطح وضربنى بذيله على وجهى فقلع عينى اليمنى وسيَّلها على خدى وذهب عنى.

فنزلت من على السطح فوجدت العشرة الشباب العور فقالوا لى: «لا مرحبًا بك، ولا أهلاً»، فقلت لهم: «ها أن قد صرت واحدًا مثلكم وأشتهى أن تعطونى أطباق السواد أسخم بها وجهى وتقبلونى أجلس عندكم». فقالوا: «والله لا تجلس عندنا أبدًا».

فلما طردونى وضاق بى الأمر، وافتكرت فى ما جرى علىَّ خرجت من عندهم حزين القلب، باكى العين، وقلت: «كنت قاعدًا بطولى، فما خلانى فضولى؟». فحلقت لحيتى وشواربى وطفت فى بلاد الله وكتب الله لى السلامة، حتى وصلت إلى بغداد فى مساء هذه الليلة فوجدت هذين الاثنين الواقفين حائرين فسلمت عليهما، وقلت: «أنا غريب». فقالوا: «ونحن أيضًا غريبان، واتفق لنا نحن الثلاثة القلندرية أننا عور من اليمين، وهذا يا سيدتى سبب حلق لحيتى وقلع عينى». فقالت له: «ملس على رأسك ورح». فقال: «والله لا أروح حتى أسمع قصة هؤلاء».

ثم إن الصبية التفتت إلى الخليفة وجعفر ومسرور، وقالت لهم: «احكوا لى خبركم». فتقدم جعفر وحكى لها الحكاية التى قالها للبوابة عند دخولهم. فلما سمعت كلامه قالت: «وهبتكم لبعضكم». فخرجوا إلى أن صاروا فى الزقاق. فقال الخليفة للقلندرية: «يا جماعة، أين أنتم قاصدون الآن، والفجر ما لاح؟». فقالوا: «والله يا سيدنا لا ندرى إلى أين نذهب؟». فقال لهم الخليفة: «سيروا وبيتوا عندنا». وقال لجعفر: «خذهم وأحضرهم لى غدًا نؤرخ ما جرى». فامتثل جعفر ما أمره به الخليفة.

ثم إن الخليفة صعد قصره ولم يعتره منام فى تلك الليلة، فلما أصبح الصباح جلس على كرسى المملكة، والتفت إلى جعفر بعد أن حضر أرباب الدولة، وقال: «ائتنى بالثلاث الصبايا والكلبتين والقلندرية»، فنهض جعفر وأحضرهم بين يديه فأدخل الصبايا تحت الأستار، والتفت إليهن جعفر وقال: «قد عفونا عنكن بما أسلفتن من الإحسان إلينا ولم تعرفننا، فها أنا أعرّفكنَّ بنا، أنتن بين يدى الخامس من بنى العباس هارون الرشيد أخى موسى الهادى بن المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور بن محمد أخى السفاح ابن محمد فلا تخبرنه إلا حقا». فلما سمعت الصبايا كلام جعفر عن لسان أمير المؤمنين تقدمت الكبيرة وقالت: «يا أمير المؤمنين، لى حديث لو كتب بالإبر، على آماق البصر، لصار عبرة لمن اعتبر، ونصيحة لمن ينتصح».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قصة الصبية الأولى والكلبتان السوداوان

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والقول السديد.

أنه لما تقدمت الصبية بين يدى أمير المؤمنين قالت: «لى حديث عجيب، وهو أن هاتين الكلبتين السوداوين أختاى، ونحن كنا ثلاث أخوات شقائق من أب وأم، وأما هاتان البنتان فالواحدة التى عليها أثر الضرب والأخرى الخوشكاشة من أم أخرى. فلما مات والدنا أخذ كل حصته من الميراث، وبعد أيام توفيت والدتى، وخلفت لنا ثلاثة آلاف دينار، فأخذت كل بنت ميراثها ألف دينار، وكنت أنا أصغرهن سنا فتجهزت أختاى وتزوجت كل واحدة برجل وقعدنا مدة، ثم إن كلا من زوجيهما عبى متجرًا وأخذ من زوجته ألف دينار وسافروا جميعًا وتركونى وحدى. فغابوا خمس سنين، وضيع زوجاهما المال وأفلسا وتركاهما فى بلاد الناس، وهربا على وجهيهما.

فبعد خمس سنين جاءتنى الكبيرة فى صفة متسولة وعليها ثياب ممزقة وإزار وسخ قديم وهى فى أنحس الأحوال. فلما رأيتها ذهلت عنها، ولم أعرفها، ثم إنى لما عرفتها قلت لها: «ما هذا الحال؟». فقالت: «يا أختى، ما بقى الكلام يفيد وجرى القلم بما حكم».

فأرسلتها إلى الحمام وألبستها حلة وقلت لها: «يا أختى، أنت عوض أبى وأمى، والإرث الذى أصابنى قد جعل الله فيه البركة، وأنا أزكيه وأحوالى جليلة وأنا وأنت سواء». وأحسنت إليها غاية الإحسان، فقعدت عندى مدة سنة كاملة.

وقد اشتغل خاطرنا على أختنا الأخرى، فما كان قليل إلا وجاءت بزى أنحس مما جاءت به الأخت الكبيرة فعملت معها أكثر مما عملت مع الأولى، ثم إنهما بعد مدة قالتا لى: «يا أختاه، إنا نريد الزواج، إذ ليس لنا صبر على القعود بلا زوج».

فقلت لهما: «يا عيونى، ما بقى فى الزواج خير، والآن الرجل الجيد عزيز الوجود، ولم أر فيما ذكرتما صلاحًا وأنتما جربتما الزواج».

فلم تقبلا كلامى، وتزوجتا بغير رضائى. فجهزتهما من مالى وسترتهما ومضتا مع زوجيهما فقعدتا مدة يسيرة، فلعب عليهما زوجاهما، وأخذا ما كان معهما وسافرا وتركاهما فجاءتا إلىَّ واعتذرتا وقالتا: «لا تؤاخذينا فأنت أصغر منا سنا. وأكمل عقلاً. وما بقينا نذكر الأزواج أبدًا، فاتخذينا جوارى عندك نأكل لقمتنا». فقلت: «مرحبا بكما يا أختاى، ما عندى أعز منكما». وقبلتهما وزودتهما إكرامًا، ولم نزل على هذه الحالة سنة كاملة.

ثم أردت أن أجهز لى مركبًا إلى البصرة، فجهزت مركبًا كبيرًا وحملت فيه البضائع والمتاجر وما نحتاج إليه فى المركب، وقلت: «يا أختاى، هل لكما أن تقعدا فى المنزل حتى أسافر وأرجع أو تأتيا معى؟». فقالتا: «نسافر معك، فإنا لا نطيق فراقك». فأخذتهما. وكنت قسمت مالى نصفين أخذت معى الأول، والثانى أودعته وقلت: «ربما يصيب المركب شىء، ويكون فى العمر مدة، فإذا رجعنا نجد شيئًا ينفعنا».

وسافرنا أيامًا وليالى، فتاه بنا المركب وغفل الرئيس عن الطريق ودخل المركب بحرًا

الناظور ينظر فقال: «البشارة». ونزل وهو فرحان، وقال: «رأيت صفة مدينة وهى مثل الحمامة». ففرحنا وما مرت علينا ساعة من النهار إلا وقد لاحت لنا مدينة على بعد فقلنا للرئيس: «ما اسم هذه المدينة التى أشرفنا عليها؟». فقال: «لا أعلم ولا رأيتها قط، ولا سلكت عمرى هذا البحر، ولكن جاء الأمر بسلامة، فما بقى إلا أن تدخلن هذه المدينة وتعرضن بضائعكن فإن حصل لكن بيع فبعن واستبضعن مما كان فيها، وإن لم يحصل بيع نرتاح يومين ونتزود ونسافر». فدخلنا المدينة وخرج الرئيس إليها وغاب ساعة، وأتانا، وقال: «اخرجن إلى المدينة وتعجبن من صنع الله فى خلقه، واستعذن من سخطه». فخرجنا إلى المدينة. فلما أتيت الباب رأيت أناسًا بأيديهم عصى على باب المدينة فدنوت منهم، وإذا هم ممسوخون وقد صاروا أحجارًا، فدخلنا المدينة فوجدنا كل من فيها ممسوخًا أحجارًا سودًا ولا فيها ديار ولا نافخ نار، فاندهشنا من ذلك فشققنا الأسواق فوجدنا البضائع باقية، والذهب والفضة باقية على حالها ففرحنا، وقلنا: «لعله أن يكون لهذا شأن». فتفرقنا فى شوارع المدينة وكل واحدة اشتغلت عن رفيقتها بالكسب والمال والنسائج.

وأما أنا فصعدت إلى القلعة فوجدتها محكمة، فدخلت قصر الملك فوجدت جميع الأوانى من الذهب والفضة. فعند ذلك رأيت الملك جالسًا وعنده حجابه، ونوابه ووزراؤه وعليه من الملابس شىء يحار فيه الفكر. فلما قدمت إلى الملك وجدته جالسًا على كرسى مرصع بالدر والجوهر وعليه حلة من الذهب كل جوهرة فيها تضىء مثل النجمة وحوله خمسون مملوكًا لابسين الحرير، وفى أيديهم السيوف مجردة. فلما نظرت ذلك دهش عقلى.

ثم مشيت ودخلت قاعة الحريم. فوجدت فى حيطانها ستائر من الحرير منقوشة بقضبان الذهب ووجدت الملكة نائمة، وعليها حلة من اللؤلؤ الرطب وعلى رأسها تاج مكلل بأنواع الفصوص وفى عنقها قلائد وعقود، وجميع ما عليها من الملبوس والمصاغ على حاله وهى ممسوخة حجرًا أسود، ووجدت بابًا مفتوحًا فصعدت إليه وهو مكان بسبع درجات فوجدته موضوعًا مرخمًا مفروشًا بالبسط المذهبة، ووجدت فيه سريرًا من العرعر مرصعًا بالدر والجوهر ورمانتين من الزمرد وعليه كلة مرخية منظومة باللؤلؤ. ونظرت نورًا خارجًا من باب الكلة، فصعدت فوجدت جوهرة قدر بيضة الأوزة على كرسى صغير، وهى تتوقد كالشمعة ونورها ساطع. ونظرت مفروشًا على ذلك السرير من أنواع الحرير ما يحير الناظر، فلما نظرت ذلك تعجبت، ورأيت فى ذلك المكان شموعًا موقدة فقلت: «لا بد أن أحدًا أوقد هذه الشموع». ثم إنى مشيت ودخلت إلى موضع غيره، وصرت أفتش وأدور فى الأماكن ونسيت نفسى مما لحقنى من العجب من تلك الأحوال، وغرقت فى فكرى إلى أن دخل الليل. فأردت الخروج، فلم أعرف الباب وتهت فعدت إلى الكلة التى فيها الشموع الموقدة، وجلست على السرير وتغطيت بلحاف بعد أن قرأت شيئًا من القرآن، وأردت النوم، فلم أستطع ولحقنى القلق. فلما انتصف الليل سمعت تلاوة القرآن بصوت حسن، لكنه ضعيف. ففرحت وتبعت الصوت، إلى أن جئت إلى مخدع فرأيت بابه مردودًا. ففتحت الباب ونظرت المكان، فإذا هو معبد ومحراب وفيه قناديل معلقة موقدة وشمعتان، وفيه سجادة مفروشة وعليها شاب جالس

حسن المنظر وقدامه ختمة مكرسة وهو يقرأ. فتعجبت كيف هو سالم دون أهل المدينة، فدخلت وسلمت عليه. فرفع بصره ورد علىَّ السلام. فقلت له: «أسألك بحق ما تلوته إلا ما أجبتنى عن سؤالى». والشاب ينظر إلى ويتبسم وقال: «أيتها الأمة، أخبرينى أنت عن سبب دخولك هذا المكان، وأنا أخبرك بما جرى علىَّ وعلى أهل هذه المدينة، وبسبب خلاصى». فأخبرته بخبرى، فتعجب من ذلك، ثم إنى سألته عن خبر أهل هذه المدينة، فقال: «أمهلينى يا أختى». ثم طبق الختمة ووضعها فى كيس أطلس وأجلسنى إلى جانبه. فنظرت إليه، فإذا هو كالبدر إذا زهر، حسن الأوصاف لين الأعطاف حسن المنظر، كأنه قالب سكر، كما قيل فيه:

رصد المنجم ليله فبدا له ... طيف الخليل يميس فى برديه
وعطارد أعطاه فرط ذكائه ... وأبى السهى نظر الوشاة إليه
فغدا المنجم حائرًا مما رأى ... والبدر باس الأرض بين يديه

وقد ألبسه الله تعالى حلة الكمال، وطرزها من عذاره بالبهاء والجمال، كما قيل:

قسمًا بجودته وصدق لسانه ... ويطيب مولده وعالى قدره
ما المسك إن عرفوه إلا عرفه ... والريح عنبر نشرها من نشره
وكذلك الشمس المنيرة دونه ... مما حكته قلامة من ظفره

فنظرت إليه نظرة أعقبتنى ألف حسرة وتعلق قلبى بمحبته. فقلت له: «يا مولاى، أخبرنى عما سألتك». فقال: «سمعًا وطاعة. اعلمى يا أمة الله، أن هذه المدينة مدينة والدى وهو الملك الذى نظرته على الكرسى وهو حجر أسود مسخوط عليه، وأما الملكة التى قد نظرتها فى الكلة فهى أمى، وجميع أهلها مجوس كانوا يعبدون النار، دون الملك الجبار، وكانوا يقسمون بالنار والنور، والظل والحرور، والفلك الذى يدور. وكان أبى ليس له ولد ورزقنى فى آخر عمره، فربانى حتى نشأت وقد سبقت لى السعادة.

وكان عندنا عجوز طاعنة فى السن تؤمن بالله ورسوله فى الباطن، وتوافق أهلى فى الظاهر، وكان أبى يعتقد فيها بما يرى عليها من الأمانة والعفة، وكان يكرمها ويزيد فى إكرامها، وكان يعتقد أنها فى دينه. فلما كبرتُ سلمنى أبى إليها وقال: «خذيه ربيه وعلميه أحوال ديننا وأحسنى تربيته وقومى بخدمته». فأخذتنى العجوز وعلمتنى دين الإسلام من الوضوء وفرائض الوضوء والصلاة وحفظتنى القرآن. وقالت: «لا تعبد سوى الله تعالى». فلما تممت ذلك قالت لى: «يا ولدى، اكتم هذا الأمر عن أبيك، ولا تعلمه به لئلا يقتلك». فكتمته عنه، ولم أزل على هذا الحال مدة أيام قلائل، وقد ماتت العجوز، وزاد أهل المدينة فى كفرهم، وعتوهم وضلالهم. فبينما هم على ما هم فيه إذ سمعوا مناديًا ينادى بأعلى صوته مثل الرعد القاصف سمعه القريب والبعيد يقول: «يا أهل المدينة، ارجعوا عن عبادة النيران، واعبدوا الله الملك الرحمن». فحصل عند أهل المدينة فزع واجتمعوا عند أبى وهو ملك المدينة، وقالوا له: «ما هذا الصوت المزعج الذى سمعناه فاندهشنا من شدة فزعه؟». فقال لهم: «لا يهولنكم الصوت ولا يخيفكم ولا يردكم عن دينكم».

فمالت قلوبهم إلى قول أبى، ولم يزالوا مكبين على عبادة النار، وزادوا فى طغيانهم إلى

مدة سنة لميعاد ما سمعوا الصوت الأول، فظهر لهم ثانيًا فسمعوه، وثالثًا على ثلاث سنين فى كل سنة مرة. فلم يزالوا عاكفين على ما هم عليه حتى نزل بهم المقت والسخط من السماء بعد طلوع الفجر، فمسخوا أحجارًا سودًا هم ودوابهم وأنعامهم. ولم يسلم من أهل هذه المدينة غيرى ومن يوم جرت هذه الحركة وأنا على هذه الحالة فى صلاة وصيام وتلاوة قرآن. وقد عيل صبرى من الوحدة وما عندى من يؤنسنى.

فعند ذلك قلت له، وقد سلب لبى: «يا هذا الشاب، هل لك أن تروح معى إلى مدينة بغداد، وتنظر إلى العلماء والفقهاء وتزداد علمًا وفهمًا وفقهًا؟ واعلم أن الجارية التى قدامك سيدة قومها وحاكمة على رجال وخدم وغلمان وعندى مركب موسق بالمتجر، وقد رمتنا المقادير إلى هذه المدينة، حتى كان ذلك سببًا فى اطلاعنا على هذه الأمور، وكان النصيب فى اجتماعنا. ولم أزل أحسن له التوجه والاطفه وأتحيل عليه حتى قبل وأنعم به.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد، أن الصبية ما زالت تحسن للشاب التوجه معها حتى قال لها: «نعم». قالت الصبية: «فبت تلك الليلة وأنا لا أصدق ما أنا فيه من الفرح. وعند الصباح قمنا إلى الخزائن وأخذنا ما خف حمله، وغلا ثمنه. ونزلنا من القلعة إلى المدينة فقابلنا العبيد والرئيس وهم يفتشون علىَّ. فلما رأونى فرحوا وأخبرتهم بما رأيت وحكيت لهم قصة الشاب، وسبب سخط هذه المدينة وما جرى لهم. فتعجبوا من ذلك، ولما رأتنى أختاى، هاتان الكلبتان، ومعى ذلك الشاب حسدتانى عليه وأضمرتا المكر.

ثم صعدنا إلى المركب فرحين بل طائرين من الفرح بالكسب، وأقمنا ننتظر الريح حتى طابت لنا فنشرنا القلوع وسافرنا، فقعدت أختاى عندنا وصرنا نتحدث. فقالتا لى: «يا أختنا، ما تصنعين مع هذا الشاب الحسن؟». فقلت لهما: «قصدى أتخذه بعلاً». ثم التفتُّ إليه، وأقبلت عليه، وقلت: «يا سيدى، قصدى أن أقول لك شيئًا لا تخالفنى فيه، وهو أنه إذا وصلنا إلى بغداد مدينتنا فأنا أقدم نفسى لك جارية باسم الحرم وتكون لى بعلاً، وأكون أنا لك أهلاً». فقال: «سمعًا وطاعة يا سيدتى». والتفت إلى أختىَّ، وقلت لهما: «يكفينى هذا الشاب، وكل من كسب شيئًا فهو له». فقالتا لى: «نعم ما قلت يا أختنا». لكنهما أضمرتا لى الشر.

ولم نزل سائرين وطابت لنا الريح حتى خرجنا من بحر الخوف، ودخلنا الأمان وسافرنا أيامًا قلائل إلى أن قربنا من مدينة البصرة ولاحت لنا أسوارها فأدركنا المساء، فلما أخذنا النوم قامت أختاى وحملتانى بفراشى ورمتانى فى البحر، وكذا فعلتا بالشاب وكان لا يحسن العوم فغرق وكتبه الله من الشهداء.

وأما أنا، ليتنى كنت غرقت معه، ولكن قدر الله أنى كنت من السالمين. فلما سقطت فى البحر رزقنى الله قطعة خشب، فركبتها وضربتنى الأمواج إلى أن رمتنى على سواحل جزيرة فلم أزل أمشى فى الجزيرة باقى ليلتى. ولما أصبح الصباح رأيت طريقًا على قدر قدم ابن آدم متصلة من الجزيرة إلى البر، وقد طلعت الشمس. فنشفت أثوابى فيها وأكلت من ثمار الجزير

وشربت من مائها وسرت في الطريق ولم أزل سائرة إلى أن قربت من البر، وقد بقي بيني وبين المدينة ساعتان. وإذا أنا بحية عامدة إليَّ وهي في غلظ النخلة تسعى سعيًا مسرعًا، وقد أقبلت نحوي. فرأيتها تأخذ يمينًا وشمالاً وقد قبض ذنبها ثعبان فسال دمعها، وقد تدلى لسانها من شدة الخوف، فأخذتني الشفقة عليها فعمدت إلى حجر وألقيته على رأس الثعبان فمات من وقته ففتحت جناحين وطارت في الجو حتى غابت. وجلست أتعجب من ذلك وقد تعبت ولحقني النعاس فنمت في موضعي ساعة.

فلما أفقت وجدت تحت رجلي جارية ومعها كلبتان وهي تكبس رجلي. فاستحييت منها، وقعدت جالسة، وقلت لها: «يا أختي، من تكونين؟». فقالت: «ما أسرع ما نسيتيني أنا التي عملت معي الجميل وزرعت المعروف وقتلت عدوي. فأنا الحية التي خلصتيني من الثعبان، فإني جنية وهذا الثعبان جني فإنه عدوي وما نجاتي منه إلا بكِ». فلما نجيتيني منه طرت في الريح ورحت إلى المركب الذي رمتكِ منه أختاك فنقلت جميع ما فيه إلى بيتك وغرقته، وأما أختاك فجعلتهما كلبتين سوداوين. فإني عرفت جميع ما جرى لك معهما. وأما الشاب فإنه غرق». ثم حملتني أنا والكلبتين ورمتنا فوق سطح داري. فرأيت جميع ما كان في المركب من الأموال في وسط بيتي ولم يضع منه شيء.

ثم إن الحية قالت لي: «وحق النقش الذي على خاتم سيدنا سليمان عليه السلام، إن لم تضربي كل واحدة منهما كل يوم ثلثمائة سوط جئت وجعلتك مثلهما». فقلت: «سمعًا وطاعة». فلم أزل يا أمير المؤمنين أضربهما ذلك الضرب وأشفق عليهما وهما يعرفان أنه ما لي ذنب في ضربهما، ويقبلان عذري. وهذه قصتي وحكايتي.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قصة الصبية الثانية المضروبة

قالت شهرزاد: فتعجب الخليفة من ذلك، ثم قال للصبية الثانية: «وأنت ما سبب الضرب الذي على جسدك؟» فقالت: يا أمير المؤمنين إني كان لي والد فتوفي وخلف مالاً كثيرًا. فأقمت بعده مدة يسيرة وتزوجت برجل أسعد أهل زمانه. فأقمت معه سنة ومات فورثت منه ثمانين ألف دينار ذهبًا وهي حصتي بالفريضة الشرعية. وفقت في السعادة وشاع خبري فعملت عشر حلل كل حلة بألف دينار.

فبينما أنا جالسة في يوم من الأيام، إذ دخلت علي عجوز بخد مشموط وحاجب ممقوط وعيون معجورة وأسنان مكسورة ووجه أنمش ولحظ أعمش ورأس أغبر وشعر أشهب وجسم أجرب، وقدٌ مائل ولون حائل ومخاط سائل، كما قال فيها القائل:

عجوز النحس إبليس يراها ... تعلمه الخديعة من سكوت
تقود من السياسة ألف بغل ... إذا نفروا بخيط العنكبوت

فلما دخلت العجوز سلمت علي، وقبلت الأرض بين يدي وقالت لي: «عندي بنت يتيمة والليلة عملت عرسها وجلاها ونحن غرباء في هذه المدينة ولا نعرف أحدًا من أهلها، وقد

انكسرت قلوبنا، فاربحي الأجر والثواب بأن تحضري جلاها، حتى إذا سمعت سيدات مدينتنا بأنك حضرت فيحضرن فتكونين جبرت خاطرها، فإنها مكسورة الخاطر ليس لها إلا الله تعالى». وبكت وقبلت رجلي، وجعلت تقول هذه الأبيات:

حضوركم لنا شرف ونحن بذاك نعترفُ
فإن غبتم فلا عوضٌ لنا عنكم ولا خلفُ

فأخذتني الرحمة والرأفة، فقلت: «سمعًا وطاعة». وقلت لها: «أنا أعمل معها شيئًا لوجه الله تعالى، وما أجلوها إلا بحللي ومصاغي». ففرحت العجوز وطأطأت رأسها على رجليَّ وقالت: «الله يجازيك خيرًا ويجبر قلبك مثل ما جبرت قلبي، ولكن سيدتي لا تزعجي نفسك الآن، ولكن تجهزي للعشاء حتى أجيء آخذك». وقبلت يدي وذهبت.

فقمت وهيأت نفسي وحالي وإذا بالعجوز قد أقبلت وقالت: «يا سيدتي إن سيدات البلد قد حضرن وأخبرتهن بحضورك ففرحن وهن في انتظارك متطلعات إلى قدومك». فقمت واتزرت وأخذت جواريَّ معي، وسرت حتى أتينا إلى زقاق مكنوس مرشوش هب فيه النسيم وراق. فقدمنا إلى باب مقنطر بقبة من الرخام مشيدة البنيان، وفي داخلها قصر قد قام من التراب، وتعلق بالسحاب، ومكتوب على الباب هذه الأبيات:

أنا دار بنيت للأفراحِ طول دهري للبسط والانشراحِ
ويوسطي فسقية في اندفاقِ بمياه تزيل للأتراحِ
وعليها من الزهور شقيقٌ نَوّر آس ونرجس وأقاحِ

فلما وصلنا إلى الباب طرقته العجوز ففتح لنا ودخلنا، فوجدنا دهليزا مفروشًا بالبسط ومعلقة فيه قناديل موقدة وشموع مصفوفة، وفيه الجواهر والمعادن فمشينا في الدهليز إلى أن دخلنا قاعة لا يوجد لها نظير مفروشة بفرش الحرير معلقة فيها القناديل موقدة والشموع صفين، وفي صدر القاعة سرير من العرعر، مرصع بالدر والجوهر، وعليه كلة أطلس مزرر، ولم نشعر إلا وصبية خرجت من وراء الكلة، فنظرت إليها يا أمير المؤمنين، فإذا هي أكمل من البدر إذا بدر، بجبين أزهر كالصبح إذا أسفر كما قال الشاعر:

كأن طرتها من فوق غرتها ليل الهموم على صبح المسرات

فنزلت الصبية من الكلة وقالت لي: «مرحبًا وأهلاً وسهلاً بالأخت العزيزة الجليلة وألف مرحبًا». ثم أنشدت تقول هذه الأبيات:

لو تعلم الدار من قد زارها فرحت واستبشرت ثم باست موضع القدمِ
وأنشدت بلسان الحال قائلة أهلاً وسهلاً بأهل الجود والكرمِ

ثم جلست وقالت لي: «يا أختي، إن لي أخًا قد رآك في بعض الأفراح والمواسم، وهو شاب أحسن مني، وقد أحبك قلبه حبا شديدًا؛ لأنك حزت من الكمال والفضائل بأوفى نصيب، وسمع أنك سيدة قومك، وهو أيضًا سيد قومه، فأراد أن يصل حبله بحبلك، ويريد أن يتزوج بك بسنة الله ورسوله وما في الحلال من عيب.

فلما سمعت كلامها ورأيت نفسي قد تجوفت الدار قلت للصبية: «سمعًا وطاعة»،

ففرحت وصفقت بيديها وفتحت بابًا وخرج منه شاب مليح الشباب، نقى الأثواب، بقد واعتدال وحسن وجمال وبهاء وكمال ورخيم الدلال، بحاجب كقوس نبال وعيون تختلس القلوب بالسحر الحلال كما قال فيه بعض واصفيه:

له وجــه كــأنوار الهــلال	وآثار السعـادة كـالـلآلى
بـدا بحـسـن تبـارك اللهُ	جل الذى صـاغـه وسـواه
قـدْ حـاز كل الجـمـال منفـردًا	كل الورى فى جمـالـه تاهوا
قـد كـتب الحسن فـوق وجنتـه	أشهـد أن لا مليح إلاه

فلما نظرته مال قلبى إليه وأحببته، وتحدثت معه ساعة، ثم صفقت الصبية ثانى مرة، وإذا بخزانة قد انفتحت وخرج منها قاض ومعه أربعة شهود، فسلموا وجلسوا، وكتبوا لى الكتاب على الشاب وانصرفوا، فالتفت الشاب إلى وقال لى: «ليلة مباركة». ثم قال: «يا سيدتى، أشرط عليك شرطًا». فقلت: «يا سيدى، وما الشرط؟» فقام وأحضر لى مصحفًا، وقال: «احلفى أنك لا تنظرين أحدًا غيرى، ولا تميلين إليه». فحلفت. ففرح فرحًا شديدًا، وقدموا لنا السماط فأكلنا وشربنا حتى اكتفينا.

ولم نزل فى حالة هناء وسرور مدة شهر، وبعد الشهر استأذنته فى أنى أسير إلى السوق وأشترى شيئًا من النسائج، فأذن لى فى الرواح، فأتزرت وأخذت العجوز معى وجارية ونزلت إلى السوق، فجلست على دكان شاب تاجر تعرفه العجوز، فقالت لى: «هذا ولد صغير، مات أبوه وخلف له مالاً كثيرًا، وعنده متجر عظيم، مهما طلبته وجدته وما عند أحد فى السوق أحسن من بضائعه». ثم قالت له: «هات أعز ما عندك من النسائج لهذه الصبية». فقال: «سمعًا وطاعة». فأثنت عليه العجوز، فقلت: «ما لنا حاجة إلى ثنائك عليه، ومرادنا أن نأخذ حاجتنا منه ونعود إلى منزلنا». فأخرج لنا ما طلبناه وأخرجنا له الدراهم، فأبى أن يأخذ شيئًا، وقال: «هذه ضيافتكم اليوم عندى». فقلت للعجوز: «إن لم يأخذ الدراهم أعطيته فى الحال بضاعته». فقال: «لا آخذ منك شيئًا، والجميع هدية من عندى فى قبلة واحدة». فقلت: «أعوذ بالله من ذلك». فلما رأى نفورى حرد على ولطمنى وعضنى عضة قوية حتى غرزت أسنانه فى خدى وغشى على، وأخذتنى العجوز فى حضنها.

فلما أفقت رأيته قفل الدكان وهرب، والدم نازل من وجهى، والعجوز قد احترقت وأبدت حزنًا وتأسفت، ثم قالت لى: «قومى بنا إلى البيت، ارقدى وتمارضى وارمى عليك الغطاء، وأنا أجىء لك بدواء تداوين به هذه العضة فتبرأ سريعًا».

فبعد ساعة قمت من مكانى، وأنا فى غاية الفكر، واشتد بى الخوف ومشيت قليلاً قليلاً، حتى وصلت البيت وصرت فى حالة المرض، فلما دخل الليل وإذا بزوجى دخل، وقال: «ما الذى أصابك يا سيدتى فى هذه الخرجة؟» فقلت له: «ما أنا طيبة، فى رأسى وجع». فنظر إلى، ثم أوقد شمعة وقرب منى، وقال: «ما هذا الجرح الذى فى خدك؟» فقلت: «إنى لما استأذنتك وخرجت فى هذا النهار أشترى النسيج زاحمنى حمل حطب فشرط نقابى وجرح خدى كما ترى، فإن المكان ضيق فى هذه المدينة». فقال: «غدًا أذهب إلى الحاكم وأقول له

يشنق كل حطاب فى المدينة». فقلت: «بالله عليك لا تحتمل خطيئة أحد فإنى ركبت حمارًا فعثر بى فوقعت على الأرض فصادفنى عود خدش خدى وجرحنى». فقال: غدًا أواجه جعفرًا البرمكى وأحكى له الحكاية فيقتل كل حمار فى هذه المدينة». فقلت له: «أنت تضيع الناس كلهم بسببى وهذا الذى جرى لى بقضاء الله وقدره». فقال لى وقد عيل صبره: «لا بد من ذلك». وألح علي بالكلام ونهض قائمًا، فنفرت منه وأغلظت كلامى عليه.

فعند ذلك يا أمير المؤمنين اتهمنى، وقال: «خنت اليمين». وصاح صيحة عظيمة فانفتح الباب، وطلع منه سبعة عبيد سود، فأمرهم فسحبونى من فراشى ورمونى وسط الدار. وأمر عبدًا منهم أن يمسكنى من أكتافى ويجلس على رأسى، وأمر الثانى أن يجلس على ركبتى ويمسك رجلى، وجاء الثالث وفى يده سيف، فقال له: «يا سيدى، أأضربها بالسيف فأقسمها نصفين وكل واحد يأخذ قطعة يرميها فى بحر دجلة ليأكلها السمك، وهذا جزاء من يخون الأيمان». فاشتد غضب زوجى، وأنشد يقول هذه الأبيات:

إذا كان لى فيمن أحب مشاركٌ ... منعت الهوى روحى ليتلفنى وجدى

وقلت لها: يا نفس موتى كريمةً ... فلا خير فى حب يكون مع الضدِّ

ثم قال للعبد: «اضربها يا سعد». فلما تحقق العبد الأمر جلس على، وقال: «يا سيدتى، اذكرى الشهادة، وما كان لك من الحوائج أخبرينا به، فإن هذا آخر حياتك». فقلت له: «يا عبد الخير، تمهل على قليلاً حتى أوصيك». فرفعت رأسى، ونظرت إلى حالى وكيف صرت فى الذل بعد العز فجرت عبرتى وبكيت بكاءً شديدًا فنظر إلى زوجى بعين الغضب. فالتفت إليه وأنشدت أقول هذه الأبيات:

أقمتم فراقى فى الهوى وقعدتم ... وأسهرتم جفنى القريح ونمتمُ

وألفتم بين السهاد وناظرى ... فلا القلب يسلاكم ولا الدمع يكتمُ

وعاهدتمونى أن تقيموا على الوفا ... فلما تملكتم فؤادى غدرتمُ

ولم ترحموا وجدى بكم وتلهفى ... أأنتم صروف الحادثات أمنتمُ

سألتكم بالله إن متُّ فاكتبوا ... على لوح قبرى إن هذا متيمُ

لعل شجيا عارفًا لوعة الهوى ... يمر على قبر المحب فيرحمُ

فلما فرغت من شعرى بكيت. فلما سمعنى ونظر إلى بكائى ازداد غيظًا على غيظه وأنشد:

تركت حبيب القلب لا عن ملالة ... ولكن جنى ذنبًا يؤدى إلى التركِ

أراد شريكًا فى المحبة بيننا ... وإيمان قلبى لا يميل إلى الشركِ

فلما فرغ من شعره بكيت وتضرعت له، وقلت فى نفسى: «أخدعيه بالكلام لعله يعتقنى من القتل، ولو كان يأخذ جميع ما أملك». ثم شكوت إليه ما أجده وأنشدت أقول:

وحقك لو أنصفتنى ما قتلتنى ... ولكنَّ حكم البين ما فيه منصفُ

وحملتنى ثقل الغرام وإننى ... لأعجز عن حمل القميص وأضعفُ

وما عجبى إتلاف روحى وإنما ... عجبت لجسمى بعدكم كيف يعرفُ

فلما فرغت من شعرى بكيت. فنظرنى ونهرنى وشتمنى وأنشد يقول هذه الأبيات:

تشاغلتم عنا بصحبة غيرنا وأظهرتم الهجران ما هكذا كنا
سأتركم من حيث ما تركتم ونصبر عنكم حق صبركم عنا
ونشغل عنكم مذ شغلتم بغيرنا ونجعل قطع الوصل منكم لا منا

فلما فرغ من شعره صرخ على العبد: «اقتلها وأرحنا منها فليس لنا فيها فائدة».

فبينما نحن يا أمير المؤمنين نتشاجر بالأشعار، وقد تحققت الموت وأيست من الحياة، وسلمت أمرى لله تعالى إذا بالعجوز دخلت ورمت نفسها على أقدام الشاب، وبكت، وقالت: «يا ولدى، بحق تربيتى لك، وخدمتى أن تعفو عن هذه الصبية، فإنها ما فعلت ذنبًا يوجب ذلك، وأنت شاب صغير أخاف عليك أن تدخل فى إثمها، وقد قيل: كل قاتل مقتول. وأى شىء هذه الدنية اتركها عنك، وعن بالك وقلبك». ثم بكت ولم تزل تلح عليه حتى رضى. وقال: «عفوت عنها، لكن لا بد أن أعمل أثرًا يظهر عليها بقية عمرها». ثم أمر العبيد فجذبونى ومددونى وقام الغلام وأحضر قضيبًا من سفرجل ونزل به على جسدى بالضرب، ولم يزل يضربنى على ظهرى وجنبى حتى غبت عن الوجود من شدة الضرب، وقد أيست من حياتى، فأمر العبيد أنه إذا دخل الليل يحملوننى ويأخذون العجوز معهم تدلهم على البيت فيرموننى فى بيتى الذى كنت فيه سابقًا. ففعلوا ما أمرهم به سيدهم ورمونى فى بيتى وراحوا.

وما زلت أنا فى غشوتى حتى لاح الصباح، فلاطفت حالى بالمراهم والأدوية وداويت جسمى وبقيت أضلاعى كأنها مضروبة بالمقارع كما ترى ورقدت ضعيفة طريحة الفراش أداوى روحى أربعة أشهر، حتى استفقت وشفيت، وجئت إلى الدار التى جرى لى فيها ذلك الأمر، فوجدتها خرابًا والزقاق مهدومًا من أوله إلى آخره، ولم أعلم خبرها، فجئت إلى أختى هذه التى من أبى فوجدت عندها هاتين الكلبتين السوداوين. فسلمت عليها وأخبرتها بخبرى وجميع حديثى، فقالت لى: «يا أختى، من ذا الذى من نكبات الزمان سلم؟» الحمد لله الذى جاء الأمر بسلامة وجعلت تقول:

وما الدهر إلا هكذا فاصطبر له إذا اشتد ضيق فانتظر بعده فتحًا

ثم أخبرتنى بخبرها وبالذى جرى لها مع أختيها وما قد صرن إليه، فقعدت أنا وهى لا نذكر خبر الزواج على ألسنتنا. ثم صاحبتنا هذه الصبية الخشكاشة، وفى كل يوم تخرج تشترى لنا ما نحتاج إليه من المصالح فى يومنا وليلتنا وصرنا على هذه الحالة إلى هذه الليلة التى مضت فخرجت أختنا تشترى لنا شيئًا على جرى عادتها، فوقع لنا ما وقع بمجىء الحمال وهؤلاء الثلاثة القلندرية. فتحادثنا معهم وأدخلناهم عندنا وأكرمناهم، ولم يذهب من الليل برهة حتى اجتمعنا بثلاثة تجار محتشمين من الموصل، فقصوا علينا حكايتهم وتحادثنا معهم، وكنا شرطنا عليهم شرطًا فخالفونا فيه، فإننا قابلناهم على مخالفتهم واستخبرناهم عما جرى لهم، فحكوا لنا حكايتهم وما جرى لهم فعفونا عنهم وانفصلوا عنا وما نشعر اليوم إلا ونحن بين يديك وهذه حكايتنا. فتعجب الخليفة منها وفرح.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

بقية قصة الصبية الأولى

قالت شهرزاد: وعند ذلك أمر الخليفة أن تكتب هذه القصة فى الدواوين ويجعلوها فى خزانة الملك ثم إنه قال للصبية الأولى: «هل عندك خبر بالعفريتة التى سحرت أختيك؟». قالت: «يا أمير المؤمنين، إنها أعطتنى شيئًا من شعرها، وقالت: متى أردت حضورى فاحرقى من هذا الشعر شعرة فأحضر إليك عاجلاً ولو كنت خلف جبل قاف». فقال الخليفة: «أحضرى لى الشعر». فأحضرت الصبية، فأخذه الخليفة وحرقه. فلما ظهرت رائحته اهتز القصر وسمعوا دويا وقرقعة وإذا جنية حضرت وكانت مسلمة. فقالت: «السلام عليك يا خليفة الله». فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته». فقالت: «اعلم أن هذه الصبية زرعت معى جميلاً، ولا أقدر أن أكافئها عليه، وهى أنقذتنى من الموت، وقتلت عدوى، ورأيت ما فعلت معها أختاها، فما رأيت إلا أنى أنتقم منهما وأسحرهما كلبتين بعد أن أردت قتلهما فخشيت أن يصعب عليها، والآن إن أردت خلاصهما يا أمير المؤمنين أخلصهما كرامة لك ولها، فإنى من المسلمين». فقال لها: «خلصيهما، وبعد ذلك نشرع فى أمر الصبية المضروبة، ونفحص عن حالها، فإذا ظهر لى صدقها أخذت ثارها ممن ظلمها». فقالت: «يا أمير المؤمنين، ها أنا أخلصهما وأدلك على من فعل بهذه الصبية هذا الفعل وظلمها وأخذ مالها وهو أقرب الناس إليك». ثم إن العفريتة أخذت طاسًا من الماء وعزمت عليه، وتكلمت بكلام لا أفهمه، ورشت وجه الكلبتين، وقالت لهما: «عودا إلى صورتكما الأولى البشرية». فعادتا إلى صورتهما التى كانتا عليها. ثم قالت العفريتة: «يا أمير المؤنين، إن الذى ضرب الصبية ولدك الأمين أخو المأمون، فإنه كان يسمع بحسنها وجمالها فاحتال وتزوجها بالحلال، وهو ما له ذنب فى ضربها فإنه اشترط عليهاوحلفها أيمانًا عظامًا أن لا تفعل شيئًا وقد ظن أنها خانت اليمين، فأراد قتلها فخاف الله تعالى فضربها هذا الضرب وأعادها إلى مكانها».

فلما سمع الخليفة ذلك من كلام العفريتة وعلم ضرب الصبية تعجب كل العجب، وقال: «سبحان الله العلى العظيم، الذى منّ علىّ بخلاص هاتين البنتين من السحر والعذاب، ومنّ علىّ بخبر هذه الصبية، والله لأعملن عملاً يكتب بعدى». ثم أحضر ولده الأمين بين يديه، وسأله عن قصة الصبية الأولى، فأخبره على وجه الحق، ثم أحضر القضاة والشهود وأحضر القلندرية الثلاثة وأحضر الصبية الأولى وأختيها اللتين كانتا مسحورتين وزوجهن الثلاثة القلندرية الذين أخبروا أنهم كانوا ملوكًا وعملهم حجابا عنده وأعطاهم ما يحتاجون إليه، وأجرى لهم جرايات وأنزلهم فى قصر بغداد، ورد الصبية المضروبة لولده الأمين، وجدد كتابه عليها وأعطاها مالاً كثيرًا وأمر أن تبنى الدار أحسن مما كانت، ثم إن الخليفة تزوج بالخوشكاشة وأفرد لها بيتًا وجوارى لخدمتها، ورتب لها رواتب وجعل لها بيتًا بسراريه، فتعجب الناس من كرم الخليفة وسماحة نفسه وحكمته.

◆ ◆ ◆

حكاية الصبية المقتولة

قالت دنيازاد لأختها شهرزاد: «يا أختاه، هذه قصة جميلة لطيفة، لا يسمع مثلها قط. ولكن احك لى قصة أخرى لنقضى ما بقى من سهر ليلتنا هذه». قالت: «حبا وكرامة إن أذن لى الملك». فقال الملك: «قصى قصتك واعجلى». فقالت:

زعموا يا ملك الزمان، وسالف العصر والأوان، أن هارون الرشيد أحضر ليلة من الليالى وزيره جعفرًا، وقال له: «أريد أن ننزل إلى المدينة، ونسأل العامة عن أحوال الحكام المتولين، فمن شكوا منه عزلناه، ومن شكروه أوليناه». فقال جعفر: «سمعًا وطاعة».

فلما نزل الخليفة وجعفر ومسرور وشقوا المدينة ومشوا فى الأسواق والشوارع اجتازوا بزقاق، فرأوا شيخًا على رأسه شبكة وقفة وفى يده عصًا وهو ماش على مهله ينشد:

يقـــــولون لى أنت بين الورى	بعلمك كـــالليلة المقـــمـــره
فـــقلت دعـــونى من قـــولكم	فــــلا علم إلا مع المقـــدره
فلو رهنونى وعلمى مـــعى	وكل الدفـــاتر والمحـــبـــره
على قـــوت يوم لما أدركـــوا	قـــبـــول الرهان إلى الآخـــره
فأما الفـــقـــير وحال الفـــقـــير	وعـــيش الفـــقـــير فـــما أكـدره
وهل الضـــيف يعـــجـــز عن قـوته	وفى البـــرد يدفـــا على المجـــمـــره
تليـــه الكلاب إذا مـــا مـــشى	ذليـــلاً مـــهـــانًا فـــمـــا أحـــقـــره
إذا مـــا شكا حـــاله لامرئ	ويبْن عـــــذرًا فلن يعـــذره
إذا كـان هـــذا حـــياة الفـــقـــير	فـــأصلح مـــا كـــان فى المقـــبـــره

فلما سمع الخليفة إنشاده تأثر، وقال لجعفر: «انظر هذا الرجل الفقير، وانظر هذا الشعر، فإنه يدل على احتياجه وفقره». ثم إن الخليفة تقدم إليه، وقال له: «يا شيخ، ما صنعتك؟». فقال: «يا سيدى، أنا صياد، وعندى عائلة، وخرجت من بيتى من نصف النهار، وإلى هذا الوقت لم يقسم الله لى شيئًا أقوت به عيالى وقد كرهت نفسى، وتمنيت الموت». فقال الخليفة: «هل لك أن ترجع معنا إلى البحر وتقف على شاطئ دجلة وترمى شبكتك على بختى ومهما طلع اشتريته منك بمائة دينار؟». ففرح لما سمع الكلام وقال: «على رأسى أرجع معكم». ثم إن الصياد رجع معهم إلى البحر ورمى شبكته وصبر عليها، ثم إنه جذب الخيط وجر الشبكة إليه، فطلع فى الشبكة صندوق مقفل ثقيل الوزن. فلما نظره الخليفة جسه فوجده ثقيلاً، فأعطى للصياد مائة دينار وانصرف.

وحمل الصندوق مسرور وجعفر وصعدا به مع الخليفة إلى القصر وأوقدا الشموع، والصندوق بين يدى الخليفة، فتقدم جعفر ومسرور وكسرا الصندوق فوجدا فيه قفة خوص مخيطة بخيط صوف أحمر، فقطعا القفة فرأيا فيها بساطًا فرفعا البساط فوجد إزارًا ووجدا فيه صبية، كأنها سبيكة فضة، مقتولة مقطعة. فلما نظرها الخليفة تأسف وجرت دموعه على خده والتفت إلى جعفر، وقال: «يا كلب الوزراء، تقتل القتلى فى زمنى ويرمون فى البحر،

قتله». وقال لجعفر: «وحق اتصال نسبي بالخلفاء من بني العباس، إن لم تأتني بالذي قتل هذه لأنتصف لها منه، لأشنقنّك على باب قصري أنت وأربعين من بني عمك». واغتاظ الخليفة غيظًا شديدًا، فقال له جعفر: «أمهلني ثلاثة أيام». قال: «أمهلتك». فنزل جعفر المدينة وهو حزين، وقال: «من أين أعرف من قتل هذه الصبية حتى أحضره للخليفة؟ وإن أحضرت له غيره يصير متعلقًا بذمتي، ولا أدري ما أصنع». جلس جعفر في بيته ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أرسل الخليفة إليه بعض الحجاب يطلبه، فذهب إليه. فقال له الخليفة: «أين قاتل الصبية؟» قال جعفر: «يا أمير المؤمنين، هل أنا أعلم الغيب حتى أعرف قاتلها؟». فاغتاظ الخليفة، وأمر بشنقه تحت قصره، وأمر مناديًا ينادي في الشوارع من أراد الفرجة على شنق جعفر البرمكي وزير الخليفة، وشنق أربعين برمكيا من أولاد عمه على باب قصر الخليفة، فليخرج يتفرج.

فخرجت الناس من جميع الدور يتفرجون على شنق جعفر وأولاد عمه، ولم يعلموا سبب شنقهم، ونصبوا الخشب وأوقفوهم تحته لأجل الشنق، وصاروا ينتظرون الإذن من الخليفة، وكانت الإشارة ظهور المنديل، وصار الخلق يتباكون على جعفر وأولاد عمه.

فبينما هم كذلك، وإذا بشاب حسن الوجه نقي الأثواب بوجه أقمر، وطرف أحور، وجبين أزهر، وخد أحمر، وعذار أخضر، وخال كأنه قرص عنبر، وما زال يدفع الناس إلى أن وقف بين يدي جعفر. فقال له: «لاكنت من هذه الوقفة يا سيد الأمراء، وكهف الفقراء، أنا الذي قتلت القتيلة التي وجدتموها في الصندوق فاشنقني وخذ حقها مني». فلما سمع جعفر كلام الشاب فرح بخلاص نفسه وحزن على الشاب.

فبينما هما في الكلام وإذا بشيخ كبير طاعن في السن، يدفع الناس ويشق الخلائق إلى أن وصل إلى جعفر والشاب، فسلم عليهما، فقال: «أيها الوزير، والسيد الخطير، لا تصدق كلام هذا الشاب فيما يقول، فإنه ما قتل الصبية إلا أنا، فخذ حقها مني، أو أطالبك بين يدي الله تعالى إن لم تفعل». فقال الشاب: «أيها الوزير، هذا شيخ كبير، خرفان لا يدري ما يقول، وأنا الذي قتلتها فخذ حقها مني». فقال الشيخ: «يا ولدي، أنت صغير تشتهي الدنيا وأنا كبير شبعت من الدنيا، وأنا أفديك بروحي وأفدي الوزير وبني عمه وما قتل الصبية إلا أنا، فبالله عليك عجل بشنقي فلا حياة لي بعدها».

فلما نظر الوزير إلى ذلك تعجب وأخذ الشاب والشيخ وصعدا بهما إلى الخليفة وقبل الأرض بين يديه، وقال: «يا أمير المؤمنين، قد أحضرنا قاتل الصبية». فقال الخليفة: «أين هو؟». فقال: «إن هذا الشاب يقول إنه هو القاتل، وهذا الشيخ يكذبه، ويقول: إنه هو القاتل، وها هما بين يديك فاسألهما بنفسك».

فنظر الخليفة إلى الشيخ والشاب، وقال: «من منكما قتل هذه الصبية؟». فقال الشاب: «أنا»، وقال الشيخ: «ما قتلها إلا أنا». فقال الخليفة لجعفر: «خذ الاثنين واشنقهما». فقال جعفر: «إذا كان أحدهما قتل، فشنق الثاني ظلم». فقال الشاب: «وحق من رفع السماء، وبسط الأرض، أنا الذي قتلت الصبية». وأدى أمارة قتلها ووصف ما وجده الخليفة. فتحقق عند

الخليفة أن الشاب هو الذى قتل الصبية، فتعجب الخليفة، وقال: «ما سبب قتلك لهذه الصبية بغير حق، وأى شىء سبب إقرارك بالقتل من غير ضرب، ومجيئك بنفسك فى هذا، وقولك خذوا حقها منى؟» فقال الشاب:

اعلم يا أمير المؤمنين، أن هذه الصبية زوجتى وبنت عمى، وهذا الشيخ أبوها وهو عمى، وتزوجت بها وهى بكر، فرزقنى الله منها ثلاثة أولاد ذكور، وكانت تحبنى وتخدمنى، ولم أر عليها سوءًا، وكنت أنا أيضًا أحبها حبا عظيمًا إلى أن كان أول هذا الشهر، فمرضت مرضًا شديدًا فأحضرت لها الأطباء، فتوجهت لها العافية قليلاً قليلاً. فأردت أن أدخلها الحمام فقالت: «إنى أريد شيئًا قبل دخول الحمام، فقد اشتهيته». فقلت لها: «سمعًا وطاعة، وما هو؟». فقالت: «إنى أشتهى تفاحة أشمها وأعض منها عضة». فدخلت المدينة وفتشت على التفاح فلم أجده، ولو كانت الواحدة بدينار لاشتريتها، فشق على ذلك وذهبت إلى البيت وقلت لها: «يا بنت عمى، والله ما لقيت شيئًا». فشوشت وهى ضعيفة وزاد عليها الضعف تلك الليلة كثيرًا، فبت وأنا متفكر.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قصة التفاحات الثلاث

قالت شهرزاد: يقول الرجل: فلما أصبح الصباح، خرجت من بيتى ودرت على البساتين واحدًا واحدًا فلم أجد فيها. فصادفنى خولى كبير فسألته عن التفاح، فقال: «يا ولدى، هذا شىء قلَّ أن يوجد، وهو معدوم، ولا يوجد إلا فى بستان أمير المؤمنين، الذى فى البصرة، وهو عند الخولى يدخره للخليفة». فجئت إلى البيت وقد حملتنى محبتى لها ومودتى على أن هيأت نفسى وسافرت خمسة عشر يومًا ليلاً ونهارًا فى الذهاب والإياب، وجئتها بثلاث تفاحات اشتريتها من خولى البصرة بثلاثة دنانير، ودخلت وناولتها إياها فلم تفرح بها وتركتها إلى جانبها، وكان قد زاد بها الضعف والحمى.

ولم تزل فى ضعفها إلى أن مضى لها عشرة أيام، وبعد ذلك عوفيت، فخرجت من البيت وذهبت إلى دكانى وجلست فى بيعى وشرائى، فبينما أنا جالس وسط النهار، وإذا بعبد أسود دخل على، وفى يده تفاحة من تلك التفاحات الثلاث يلعب بها، فقلت له: «يا عبد الخير، من أين أخذت هذه التفاحة حتى آخذ مثلها؟» فضحك وقال: «أخذتها من صاحبتى، وأنا كنت غائبًا وجئت فوجدتها ضعيفة، وعندها ثلاث تفاحات، فقالت لى: إن زوجى سافر من شأنها إلى البصرة واشتراها بثلاثة دنانير، فأخذت منها هذه التفاحة».

فلما سمعت يا أمير المؤمنين كلام العبد اسودت الدنيا فى وجهى، وقمت أغلقت دكانى، وجئت إلى البيت، وأنا عادم العقل من شدة الغيظ، ونظرت إلى التفاح فلم أجد إلا اثنتين. فقلت لها: «أين الثالثة؟». فقالت: «لا أدرى ولا أعرف». فتحققت قول العبد، فقمت وأخذت سكينًا،وجئت من خلفها وما كلمتها حتى ركبت على صدرها ونحرتها بالسكين، وقطعت رأسها ووضعتها فى القفة بسرعة، وغطيتها بالإزار، وخيطته، ووضعت عليها شقة من البساط،

وأنزلتها فى الصندوق وأغلقته، وحملتها على بغلتى وذهبت فرميتها فى دجلة بيدى، فبالله عليك يا أمير المؤمنين، عجل بشنقى، فإنى خائف من مطالبتها لى يوم القيامة، فإنى لما رميتها فى بحر دجلة ولم يعلم بها أحد، رجعت إلى البيت فوجدت ولدى الكبير يبكى، ولم يكن له علم بما فعلت فى أمه، فقلت له: «ما يبكيك يا ولدى؟». فقال: «إنى أخذت تفاحة من التفاح الذى عند أمى، ونزلت بها إلى الزقاق ألعب مع إخوتى، وإذا بعبد أسود طويل خطفها منى، وقال لى: هذه جاءتك من أين؟ فقلت له: هذه سافر لها أبى وجاء بها من البصرة من أجل أمى، وهى ضعيفة، واشترى ثلاث تفاحات بثلاثة دنانير، ثم أخذها ولم يلتفت إلى، فأعدت عليه القول ثانيًا وثالثًا، ولم يلتفت إلى وضربنى وراح بها، فخفت من أمى أن تضربنى من شأن التفاحة، فغبت أنا وإخوتى خوفًا منها إلى ظاهر المدينة، وقد أمسى علينا المساء وأنا خائف منها، فبالله يا أبى لا تقل لها شيئًا، فتزداد ضعفًا على ضعفها».

فلما سمعت كلام الولد، علمت أن العبد هو الذى افترى الكلام الكذب على بنت عمى، وتحققت أنها قتلت ظلمًا، ثم إنى بكيت بكاءً شديدًا، وإذا بهذا الشيخ وهو عمى والدها قد أقبل فأخبرته بما كان، فجلس بجانبى، ولم نزل نبكى إلى نصف الليل، وأقمنا المناحة خمسة أيام، ولم نزل إلى هذا اليوم نتأسف على قتلها ظلمًا. وكل ذلك كان بسبب العبد، وهذا سبب قتلها. فبحرمة أجدادك عجل بقتلى فلا حياة لى بعدها. وخذ حقها منى». فلما سمع الخليفة كلام الشاب تعجب، وقال: «إنى لا أشنق إلا العبد الملعون ولأعملن عملاً يشفى الغليل ويرضى الملك الجليل».

ثم إن الخليفة التفت إلى جعفر، وقال له: «أحضر لى هذا العبد الملعون الذى جرت منه هذه القضية، وإن لم تحضره فأنت عوضه». فنزل جعفر يبكى ويقول: هذه موتة ثانية ولا كل مرة تسلم الجرة، وليس فى هذا الأمر حيلة، والذى سلمنى فى الأول يسلمنى فى الثانى، والله لن أخرج من بيتى ثلاثة أيام، والحق تعالى يفعل ما يشاء».

ثم أقام فى بيته ثلاثة أيام، وفى اليوم الرابع أحضر القضاة والشهود وودع أولاده وهو يبكى، وإذا برسول الخليفة أتاه، وقال له: «إن أمير المؤمنين فى أشد ما يكون من الغضب وأرسل يطلبك وحلف أنه لا يمر هذا النهار إلا وأنت مشنوق». فلما سمع جعفر هذا الكلام بكى، وبكى أولاده وعبيده مع كل من فى الدار، فلما فرغ من التوديع تقدم إلى بنته الصغيرة ليودعها، وكان يحبها أكثر من أولاده جميعًا، فضمها إلى صدره وقبلها وبكى على فراقها فوجد فى جيبها شيئًا مكتلاً، فقال لها: «ما الذى فى جيبك؟». فقالت: «يا أبت تفاحة، مكتوب عليها اسم مولانا الخليفة جاء بها عبدنا ريحان، ولها معى أربعة أيام، وما أعطانى إياها حتى أخذ منى دينارين».

فلما سمع جعفر بذلك العبد، والتفاحة فرح وحط يده فى جيب ابنته، وأخرج التفاحة فعرفها، وقال: «يا قريب الفرج». ثم إنه أمر بإحضار العبد فحضر، فقال له: «ويلك يا ريحان، من أين لك هذه التفاحة؟». فقال العبد: «والله يا سيدى، إن كان الكذب أنجى، فالصدق أنجى وأنجى، هذه التفاحة ما سرقتها لا من قصرك، ولا من قصر الحضرة ولا من بستان أمير

إنى من مدة خمسة أيام مشيت فدخلت إلى بعض أزقة المدينة، فنظرت صغارًا يلعبون ومع واحد منهم هذه التفاحة فخطفتها منه وضربته فبكى، وقال: «يا فتى، هذه لأمى، وهى مريضة، وقد اشتهت على أبى تفاحًا فسافر إلى البصرة، وجاءها بثلاث تفاحات بثلاثة دنانير، فسرقت منها واحدة ألعب بها». ثم بكى، فلم ألتفت إليه وأخذتها وجئت إلى هنا، فأخذتها سيدتى الصغيرة بدينارين هما، وهذه حكايتى.

فلما سمع جعفر هذه القصة تعجب لحصول الفتنة وقتل الصبية بسبب عبده، وحزن لنسبة العبد له، وفرح بخلاص نفسه، ثم أنشد يقول:

إذا كانت مصيبتك بعبدٍ فتجعله لنفسك من فداها
فإنك واجد خدمًا كثيرًا ونفسك لم تجد نفسًا سواها

ثم إنه أمسك بيد العبد، وذهب به إلى الخليفة، وحكى له قصته من أولها إلى آخرها، فتعجب الخليفة كل العجب وضحك حتى انقلب، وأمر أن تؤرخ هذه الحكاية وتجعل سيرًا بين الناس. فقال جعفر: «لا تعجب يا أمير المؤمنين، من هذه القصة، فما هى أعجب من حديث الوزير نور الدين المصرى وشمس الدين أخيه».

◆ ◆ ◆

حكاية شمس الدين وزير مصر
ونور الدين وزير البصرة

فقال الخليفة: «هات، وأى شىء أعجب من هذه الحكاية». قال جعفر: «يا أمير المؤمنين، لا أحدثك إلا بشرط أن تعتق عبدى من القتل». فقال: «إن كان أعجب مما اتفق لنا، وهبت دمه لك، وإن لم يكن بأعجب قتلت عبدك».

فقال جعفر: اعلم يا أمير المؤمنين، أنه كان فى سالف الزمان، بأرض مصر، سلطان صاحب عدل وإحسان، يحب الفقراء ويجالس العلماء، وكان له وزير عاقل خبير له علم بالأمور والتدبير، وكان شيخًا كبيرًا له ولدان، كأنهما قمران، لم ير مثلهما فى الحسن والجمال، وكان اسم الكبير شمس الدين محمد، واسم الصغير نور الدين على، وكان الصغير أميز من الكبير فى الصباحة والملاحة، حتى إنهم فى بعض البلدان سمعوا به فسافروا من بلادهم البعيدة إلى بلاده لأجل رؤية جماله.

فاتفق أن والدهما مات. فحزن عليه السلطان، وأقبل على الولدين وقربهما وخلع عليهما، وقال لهما: «أنا فى مرتبة أبيكما، فلا تكدرا خاطركما». ففرحا وقبلا الأرض بين يديه، وعملا المأتم على أبيهما إلى إتمام شهر، ثم دخلا فى الوزارة وصار الحكم بأيديهما كما كان بيد أبيهما، وكان إذا أراد السلطان السفر يسافر واحد منهما معه.

فاتفق فى ليلة من الليالى، وكانت ليلة سفر الكبير مع السلطان، بينما هما يتحدثان إذ قال الكبير للصغير: «يا أخى، قصدى أن أتزوج أنا وأنت فى ليلة واحدة». فقال الصغير: «افعل يا أخى ما تريد؛ فإنى موافقك على ما تقول». فاتفقا على ذلك، ثم إن الكبير قال لأخيه: «إن

قدر الله وخطبنا بنتين ووضعتا فى يوم واحد، وأراد الله وجاءت زوجتك بصبى وجاءت زوجتى بنت، نزوجهما لبعضهما ويصيران أولاد عم». فقال نور الدين: «يا أخى، ما تأخذ من ولدى فى مهر بنتك؟». فقال: «آخذ من ولدك لبنتى ثلاثة آلاف دينار، وثلاثة بساتين، وثلاث ضياع، وإن كتاب الشاب بغير هذا لا يصح». فلما سمع نور الدين هذا الكام قال: «ما هذا المهر الذى شرطته على ولدى؟ أما تعلم أننا أخوان، ونحن الاثنان بفضل الله وزيران فى مقام واحد، وكان الواجب عليك أن تقدم ابنتك لولدى من غير مهر؟ وإن كان لا بد من مهر فتجعل شيئًا معلومًا ليظهر للناس، فإنك تعلم أن الذكر أفضل من الأنثى، وولدى ذكر ونذكر به بخلاف ابنتك». فقال: «وما لها؟». فقال: «لا نذكر بها بين الأمراء، ولكن أنت تريد أن تفعل معى كما فعل بعضهم. قيل: إن بعض الناس قدم على بعض أصحابه فقصده فى حاجة فقال: بسم الله نقضى حاجتك، ولكن غدًا، فأنشد فى الجواب:

إذا كان فى الحاجات مهلاً إلى غد فذاك يكون الطرد للمتفكر

فقال شمس الدين لأخيه: «أراك تقصر وتعمل ابنك أفضل من بنتى، لا شك أنك ناقص عقل ولا لك أخلاق حيث تذكر شركة الوزارة، وأنا ما أدخلتك معى فى الوزارة إلا شفقة عليك، ولكى تساعدنى وتكون لى معينًا ولا أكسر بخاطرك وحيث إن هذا القول قولك، فلا أزوج بنتى لولدك، ولو وزنت ثقلها ذهبًا». فلما سمع نور الدين كلام أخيه اغتاظ، وقال: «وأنا ما بقيت أزوج ابنى بابنتك». فقال شمس الدين: «أنا لا أرضاه لها بعلاً، ولولا أنى فى السفر لكنت عملت معك غاية العبر، ولكن عندما أرجع من سفرى أريك ما تقتضى مروءتى». فلما سمع نور الدين من أخيه ذلك الكلام امتلأ غيظًا وغاب عن الدنيا وكتم ما به، وبات كل واحد فى ناحية، فلما أصبح الصباح برز السلطان للسفر وغدا فى الجيزة وقصد الأهرام وصحبه الوزير شمس الدين، وأما ما كان من أمر أخيه نور الدين فبات تلك الليلة فى أشد ما يكون من الغيظ.

فلما أصبح الصباح قام وصلى الصبح، وعمد إلى خزانته وأخذ منها خرجًا صغيرًا وملأه ذهبًا وتذكر قول أخيه واحتقاره إياه، فأنشد وجعل يقول هذه الأبيات:

سافر تجد عوضًا عمن تفارقه وانصب فإن لذيذ العيش فى النصب
ما فى المقر أرى عزا ولا إربًا سوى العنا فدع الأوطان واغترب
إنى رأيت وقوف الماء يفسده إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب
والبدر لولا أفول منه ما نظرت إليه فى كل حين عين مرتقب
والأسد لولا فراق الغاب ما اقتنصت والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والتبر كالترب ملقى فى أماكنه والعود فى أرضه نوع من الحطب
فإن تغرب هذا عز مطلبه وإن تغرب ذاك عَزّ كالذهب

فلما فرغ من شعره أمر بعض غلمانه أن يشد له على بغلة النوبة بسرجها المضرب. وهى بغلة زرزورية عالية الظهر كأنها قبة مبنية سرجها ذهب، وركاباتها هندية وعليها عباءة كسروية، وأمره أن يجعل عليها بساط حرير وسجادة وجعل الخرج من تحت السجادة، ثم قال

للغلام والعبيد: «قصدى أطوف خارج المدينة وأروح نواحى القليوبية، وأبيت ثلاث ليال فلا أحد منكم يتبعنى، فإن بى ضيق صدر».

وأسرع وركب البغلة وأخذ معه شيئًا قليلاً من الزاد وخرج من مصر واستقبل البر، فما جاء عليه الظهر حتى دخل مدينة بلبيس فنزل عن بغلته فاستراح وأراح البغلة وأخذ شيئًا من الزاد فأكله وأخذ من بلبيس ما يأكله وعلفًا لبغلته واستقبل البر.

فما جاء عليه الليل حتى دخل بلدًا يقال لها: السعدية، فبات بها وأخرج شيئًا أكله وحط الخرج تحت رأسه وفرش البساط ونام فى مكان البرية والغيظ غالب عليه.

ثم إنه بات فى ذلك المكان، فلما أصبح الصباح ركب وسار يسوق البغلة إلى أن وصل إلى مدينة حلب، فنزل فى بعض الخانات، وأقام ثلاثة أيام حتى استراح وأراح البغلة واستنشق الهواء ثم عزم على السفر وركب بغلته وخرج مسافرًا لا يدرى إلى أين يذهب، ولم يزل سائرًا إلى أن أقبل مدينة البصرة، ولم يشعر بذلك حتى نزل فى الخان، فأنزل الخرج عن البغلة وفرش السجادة وأعطى البغلة بعدتها للبواب ليسيرها، فأخذها وسيرها.

فاتفق لوزير البصرة أنه كان جالسًا فى شباك قصره، فنظر إلى البغلة، ونظر ما عليها من العدة المثمنة فظنها بغلة موكب ومركوب وزراء أو ملوك، فتفكر فى ذلك وحار عقله، وقال لبعض غلمانه: «ائتنى بهذا البواب». فذهب الغلام، وأتاه بالبواب، فتقدم البواب، وقبل الأرض، وكان الوزير شيخًا كبيرًا، فقال للبواب: «من يكون صاحب البغلة وما صفاته؟» فقال البواب: «يا سيدى، صاحب هذه البغلة شاب صغير ظريف الشمائل عليه هيبة ووقار، من أولاد التجار».

فلما سمع الوزير كلام البواب قام وركب وسار إلى الخان ودخل على الشاب. فلما رأى نور الدين الوزير قادمًا عليه، قام ولاقاه وسلم عليه، فرحب به الوزير ونزل من على جواده واحتضنه وأجلسه عنده، وقال له: «يا ولدى، من أين أقبلت، وماذا تريد؟»، فقال نور الدين: «يا مولاى، إنى قدمت من مدينة مصر، وكان أبى وزيرًا فيها، وقد انتقل إلى رحمة الله تعالى»، وأخبره بما جرى له من المبتدأ إلى المنتهى، ثم قال: «وقد عزمت على نفسى أن لا أعود أبدًا، حتى أشق جميع المدن والبلدان». فلما سمع الوزير كلامه تأثر كثيرًا، وقال له: «يا ولدى، لا تطاوع النفس، فترميك فى الهلاك، فإن البلاد خراب وأنا أخاف عليك من عواقب الزمان».

ثم إنه حمل خرجه على بغلته وأخذ البساط والسجادة وأخذ نور الدين معه إلى بيته وأنزله فى مكان ظريف، وأكرمه وأحسن إليه وأحبه حبا شديدًا، وقال له: «يا ولدى، أنا بقيت رجلاً كبيرًا، ولم يكن لى ولد ذكر وقد رزقنى الله بنتًا تعادلك فى الحسن، ومنعت عنها خطيبين كثيرين وقد وقع حبك فى قلبى، فهل لك أن تقبل ابنتى جارية لخدمتك وتكون لها بعلاً». فإن كنت تقبل ذلك أذهب بك إلى سلطان البصرة وأقول له: إنه ولد أخى، وأوصلك إلى أن أجعلك وزيره مكانى والزم أنا بيتى، فإنى صرت رجلاً كبيرًا». فلما سمع نور الدين كلام وزير البصرة، أطرق برأسه، وقال: «سمعًا وطاعة».

ففرح الوزير وأمر غلمانه أن يجعلوا له طعامًا وأن يزينوا قاعة الجلوس الكبيرة التى تجرى فيها أعراس الأمراء. ثم دعا أصحابه ودعا أكابر الدولة وتجار البصرة فحضروا بين

يديه، فقال: «إنه كان لى أخ وزير بالديار المصرية، ورزقه الله ولدين، وأنا كما تعلمون رزقنى الله بنتًا، وكان أخى أوصانى أن أزوج بنتى بأحد أولاده فأجبته إلى ذلك، فلما حق الزواج أرسل إلى أحد أولاده وهو هذا الشاب الحاضر، فلما جاءنى جئت لأكتب كتابه على بنتى وهو أولى من الغريب، وبعد ذلك إن شاء يقعد عندى وإن شاء السفر أسيره هو وزوجته إلى أبيه».
فقالوا: «نعم ما رأيت». ونظروا إلى الشاب فأعجبهم.

فأحضر الوزير الشهود والقضاة وكتبوا الكتاب، وأطلقوا البخور وشربوا السكر ورشوا ماء الورد وانصرفوا، وأما الوزير فأمر غلمانه أن يأخذوا نور الدين ويدخلوا به الحمام وأعطاه الوزير ثوبًا من خاص ملبوسه وأرسل له المناشف والطاسات ومجامر البخور، وما يحتاج إليه، فلما خرج ولبس الثوب صار كالبدر إذا زهر ليلة أربعة عشر، فلما خرج من الحمام ركب بغلته، ولم يزل سائرًا حتى وصل إلى قصر الوزير، فنزل عن البغلة ودخل على الوزير، فقبل يديه وجلس عنده.

أما الوزير، فإنه رحب به وقال له: «فى غد أذهب بك إلى السلطان وأرجو لك من الله كل خير». هذا ما كان من أمر نور الدين.

وأما كان من أمر أخيه، فإنه غاب مع السلطان مدة فى السفر ورجع، فلم يجد أخاه، فسأل عنه الخدام، فقالوا له: «من يوم سافرت مع السلطان ركب بغلته بعدة الموكب وقال: أنا رائح ناحية القليوبية وأغيب يومًا أو يومين، فإن صدرى ضاق، ولا أحد يتبعنى، ومن يوم خروجه إلى هذا اليوم لم نسمع له خبرًا». فتشوش شمس الدين على فراق أخيه، واغتم غما شديدًا، لفقده، وقال فى نفسه: «ما هو إلا مما نهرته فى تلك الليلة، فأخذ على خاطره وخرج مسافرًا، فلا بد أن أرسل خلفه».

ثم طلع، وأعلم السلطان، وكتب بطاقات، وأرسل البريد إلى نوابه فى جميع البلاد، وأما نور الدين، فإنه فى مدة العشرين يومًا التى غابوها كان قطع بلادًا بعيدة، ففتشوا ولم يقفوا له على خبر فرجعوا، ويئس شمس الدين من أخيه، وقال: «لقد فرطت فى أخى بكلامى له على زواج الأولاد، وما كان ذلك إلا من قلة عقلى، وعدم تدبيرى». ثم بعد مدة يسيرة خطب بنت رجل من تجار مصر، وكتب كتابه عليها.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



قصة بدر الدين حسن بن نور الدين

قالت شهرزاد: ثم إن زوجة شمس الدين وزير مصر وضعت بنتًا لا يرى أحسن منها. ووضعت فى اليوم نفسه زوجة نور الدين ولدًا ذكرًا لا يرى أحسن منه، كما قال فيه الشاعر:

ومهفهف من شعره وجبينه	**تغدو الورى فى ظلمة وضياء**
لا تنكروا الخال الذى فى خده	**كل الشقيق بنقطة سوداء**
إن جىء بالحسن كى يقاس به	**ينكس الحسن رأسه خجلا**
أو قيل يا حسن هل رأيت كذا	**فقال أما كذا رأيت فلا**

فسماه بدر الدين حسنًا، وفرح به جده وزير البصرة وصنع الولائم، وعمل سُمطًا تصلح لأولاد الملوك، ثم إن وزير البصرة أخذ معه نور الدين وذهب إلى السلطان، فلما أقبل قدامه قبل الأرض بين يديه، وكان فصيح اللسان، ثابت الجنان، فأنشد يقول:

دام لك الإنعام يا سيدى ودمت ما دام الضحى والمسا
وعشت ما غرد طير وما غنّت على أغصانها الورقا

فقام لهما السلطان وشكر نور الدين على ما قاله. وقال لوزيره: «من هذا الشاب؟». فقال له الوزير قصته من أولها إلى آخرها. وقال له: «هذا ابن أخى». فقال له: «وكيف يكون ابن أخيك ولم نسمع به؟». فقال: «يا مولانا السلطان، إنه كان لى أخ وزير بالديار المصرية، وقد مات وخلّف ولدين، فالكبير جلس مكان والده وزيرًا، وهذا ولده الصغير، جاء عندى وحلفت أنى لا أزوج بنتى إلا له، فلما جاء زوجته بها وهو شاب وأنا صرت شيخًا كبيرًا، وقل سمعى، وعجز تدبيرى، والقصد من مولانا أن يجعله فى مرتبتى، فإنه ابن أخى وزوج ابنتى، وهو أهل للوزارة، لأنه صاحب رأى وتدبير».

فنظر السلطان إليه، فلاق بخاطره، وأنعم إليه بما أراده الوزير وقدمه فى الوزارة، وأمر له بخلعه عظيمة وأمر له السلطان ببغلة من خاص مركوبه وعين له الرواتب والجوامك، فقبل نور الدين يد السلطان، ونزل هو وعمه إلى منزلهما وهما فى غاية الفرح، وقالا: «هذا بكعب المولود حسن». ثم إن نور الدين توجه فى صباح اليوم الثانى إلى الملك، وقبل الأرض بين يديه، وأنشد يقول هذه الأبيات:

سعادات تجدد كل يوم وإقبال وقد كيد الحسود
فما زالت لك الأيام بيضًا وأيام الذى عاداك سود

فأمره السلطان بالجلوس فى مرتبة الوزارة، فجلس وتعاطى أمور خدمته ونظر بين الناس فى أمورهم وأحكامهم، كما جرت عادة الوزراء، وصار السلطان ينظر إليه، ويتعجب من أمره وعقله وتدبيره وتصرفه. فحبه وقربه إليه، ولما انصرف الديوان نزل نور الدين إلى بيته وحكى لعمه ما وقع، ففرح ولم يزل نور الدين فى الوزارة حتى إنه لا يفارق السلطان لا فى ليل ولا فى نهار، وزاد له الجوامك والجرايات إلى أن اتسع له الحال، وصار له مراكب تسافر من تحت يده بالمتاجر، وصار له عبيد ومماليك وعمر أملاكًا كثيرة، ودواليب وبساتين وصار عمر ولده حسن أربع سنين. فتوفى الوزير الكبير، والد زوجة نور الدين، فأخرجه خرجة عظيمة وواراه فى التراب، ثم اشتغل نور الدين بتربية ولده، فلما اشتد وصار له من العمر سبع سنين أحضر له فقيهًا يقرئه فى بيته، وأوصاه بتعليمه وأدبه وحسن تربيته، فأقرأه وعلمه فوائد فى العلم ودرسه القرآن، فى مدة ست سنوات، وما زال حسن يزداد جمالاً وقدا واعتدالاً، كما قيل:

قمر تكامل فى سماء جماله والشمس تشرق من شقائق خده
ملك الجمال بأسره فكأنما حسن البرية كلها من عنده

وقد رباه الفقيه فى قصر أبيه، ومن حين نشأ لم يخرج من قصر الوزارة، ففى يوم من بعض الأيام أخذه والده نور الدين وألبسه حلة من أفخر ملبوسه، وأركبه بغلة من خيار بغاله،

وذهب به إلى السلطان ودخل به عليه، فنظر الملك إلى بدر الدين حسن ابن الوزير نور الدين فأعجبه وحبه، وأما أهل المملكة فلما مر عليهم أول مرة، وهو ذاهب مع أبيه إلى الملك، بهتوا من حسنه وجلسوا فى طريقه ينتظرون عوده عليهم ليرتووا من حسنه وجماله وقده واعتداله، كما قيل فيه:

بدا فقالوا تبارك الله جل الذى صاغه وسواه

فلما رآه السلطان أنعم عليه وحبه وقال لأبيه: «يا وزير لا بد من أن تحضره دائمًا معك». فقال نور الدين «السمع والطاعة».

وعاد الوزير بولده إلى منزله، وما زال كل يوم يذهب به إلى السلطان إلى أن بلغ الولد من العمر خمس عشرة سنة، فضعف والده نور الدين الوزير، فأحضر ولده، وقال: «يا ولدى، اعلم أن الدنيا دار فناء، والآخرة دار بقاء، وأريد أن أوصيك بعض وصايا فافهم ما أقول لك». وصار يوصيه على حسن عشرة الناس والتدبير، ثم إن نور الدين تذكر أخاه وأوطانه وبلاده، فبكى على فرقة الأحباب ومسح دموعه وأنشد يقول:

إن شكونا بعدًا فماذا نقول أو بلغنا شوقًا فكيف السبيلُ
أو بعثنا رسلاً تترجم عنا ما يؤدى شكوى المحب رسولُ
أنتم يا من غبتم عن جفونى إنكم فى لب فؤادى حلولُ
هل تظنون أنتم إن عهدى بعدَ طول الصدود ليس يحولُ
أم تناسيتم على البعد صبًا شفّه فيكم البكا والنحولُ
وإذا ضمّنا وإياكم الحى لى هناك معكم عتاب يطولُ

فلما فرغ من إنشاده وبكائه التفت إلى ولده وقال له: «اعلم قبل أن أوصيك أن لك عما وهو وزير بمصر، فارقته وخرجت على غير رضاه، والقصد أنك تأخذ دَرْجًا وتكتب فيها ما أقول لك». فأخذ بدر الدين حسن درجًا من الورق وصار يكتب فيه كما قال أبوه، فأملى عليه ما جرى من الأول إلى الآخر، وكتب له تاريخ زواجه وتاريخ وصوله إلى البصرة واجتماعه بوزيرها، وأن عمره دون الأربعين من يوم النزاع، وهذا كتابى إليه، والله خليفتى من بعد ذلك عليه.

ثم طوى الدرج وختمه وقال: «يا ولدى حسن، احفظ الوصية، فإن الرقعة فيها أصلك وحسبك ونسبك، فإن أصابك شىء من الأمور فاعمد إلى مصر، واسأل عن عمك واستدل عليه، وأعلمه أنى مت غريبًا مشتاقًا إليه، فأخذ بدر الدين حسن الرقعة، وطواها وخيطها بين البطانة والظهارة، ولف عليها شاشة، وهو يبكى على أبيه، وعلى فراقه وهو صغير، وقال نور الدين: «إنى أوصيك بخمس وصايا:

أولها: أن لا تعاشر أحدًا تسلم من شره، فإن السلامة فى العزلة، ولا تخالطه ولا تباشره فإنى سمعت الشاعر يقول:

ما فى زمانك من ترجو مودته ولا صديق إذا جار الزمان وفَى
فعش فريدًا ولا تركن إلى أحد فقد نصحتك فيما قلته وكفى

الثانية: يا ولدى لا تُجر على أحد يجُر عليك الدهر، فالدهر يوم لك ويوم عليك. الدنيا قرض بوفاء. ولقد سمعت الشاعر يقول فى هذا المعنى:

تأنَّ ولا تعجل لأمر تريده ... وكن راحمًا للناس تُدعى براحمِ

فما من يد إلا يد الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيبلى بظالمِ

الوصية الثالثة: الزم الصمت واشتغل بعيبك عن عيوب الناس. فقد قيل: من لزم الصمت نجا، وسمعت الشاعر منشدًا هذه الأبيات يقول:

الصمت زين والسكوت سلامة ... فإذا نطقت فلا تكن مهذارا

فلئن ندمت على سكوتك مرة ... فلتندمن على الكلام مرارا

الرابعة: يا ولدى، أحذرك من شرب الخمر، فإن الخمر رأس كل فتنة، والخمر مذهبة العقول، الحذر الحذر من شرب الخمر لأنى سمعت الشاعر يقول:

تركت النبيذ وشرَّابه ... وصرت حديثًا لمن عابه

شراب يضل سبيل الهدى ... ويفتح للشر أبوابه

الخامسة: ياولدى، صُن مالك فيصونك، احفظ مالك يحفظك، ولا تفرط فى مالك فتحتاج إلى أقل الناس، صن الدراهم فهى المراهم؛ لأنى سمعت بعضهم يقول:

إن قل مالى فلا خل يصاحبنى ... أو زاد مالى فكل الناس خِلانى

فكم صديق لبذل المال صاحبنى ... وصاحبى عند فقد المال خَلانى

وما زال نور الدين يوصى بدر الدين حسنًا حتى زهقت روحه، فأقام الحزن فى بيته، وحزن عليه السلطان وجميع الأمراء ودفنوه.

ولم يزل بدر الدين على والده فى حزن مدة شهرين، وهو لا يركب ولا يخرج إلى الديوان ولا يقابل السلطان، فاغتاظ السلطان عليه فأقام مكانه بعض الحجاب وأجلسه وزيرًا، وأمره أن يختم على أماكن نور الدين وعلى ماله وعماراته وأملاكه، فنزل الوزير الجديد يختم عليها ويقبض على ولده بدر الدين حسن ويذهب به إلى السلطان ليعمل فيه ما يقتضى رأيه. وكان بين العسكر مملوك من مماليك الوزير المتوفى، فلما سمع بهذه القضية ساق جواده وأتى مسرعًا إلى بدر الدين حسن فوجده جالسًا على باب داره، وهو منكس الرأس حزين القلب. فترجل له المملوك وقبل يده وقال له: «يا سيدى، وابن سيدى، العجل العجل قبل حلول الأجل». فارتجف حسن، وقال: «ما الخبر؟». قال: «السلطان غضب عليك ورسم بالحوطة عليك، والبلاء يجىء من خلفى إليك، ففز بنفسك». فقال له بدر الدين: «هل فى الأمر مهلة حتى أدخل إلى بيتى أصحب شيئًا من الدنيا أستعين به على الغربة؟». فقال المملوك: «يا سيدى، قم الآن وخل عنك الدار». فنهض حسن، وهو يقول:

ونفسك فز بها إن شمت ضيمًا ... وخل الدار تنعى من بناها

فإنك واجد أرضًا بأرض ... ونفسك لم تجد نفسًا سواها

ولا تبعث رسولك فى مهم ... فما للنفس ناصحة سواها

وما غلظت رقاب الأسد حتى ... بأنفسها تولت ما عناها

ولما سمع كلام المملوك غطى رأسه بذيله وخرج يمشى إلى أن صار خارج المدينة، فسمع الناس يقولون: إن السلطان أرسل الوزير الجديد إلى بيت وزيره المتوفى يختم على ماله وأماكنه، ويقبض على ولده بدر الدين حسن ويذهب به إلى السلطان ليقتله، فتأسف الناس على حسنه وجماله، فلما سمع كلام الناس خرج على رأسه، وهو لا يعلم أين يذهب، ولم يزل سائرًا إلى أن ساقته المقادير إلى تربة والده، فدخل المقبرة وشق القبور إلى أن جلس على قبر أبيه وأرسل ذيل فرجيته من فوق رأسه، وكانت منسوجة بطراز ذهب مكتوبًا عليها هذه الأبيات:

يا من له وجه بدا يحكى الكواكب والندى
لا زال عزك دائمًا وعلو مجدك سرمدا

فبينما هو عند تربة أبيه، قدم عليه يهودى كأنه صيرفى ومعه خرج فيه ذهب كثير، فتقدم اليهودى إلى حسن البصرى، وقال له: «يا سيدى، مالى أراك متغيرًا؟». فقال له: «إنى كنت نائمًا فى هذه الساعة فرأيت أبى يعاتبنى على عدم زيارتى له، فقمت وأنا مرعوب وخفت أن يفوت النهار، ولا أزوره فيكون صعبًا علىّ». فقال له اليهودى: «يا سيدى، إن أباك كان أرسل مراكب للتجارة وقدم منها البعض، ومرادى أشترى منك وسق أول مركب قدم بهذا الألف الدينار ذهبًا». وأخرج اليهودى كيسًا ملآن من الذهب، وعد منه ألف دينار ودفعها إلى حسن ابن الوزير. فقال اليهودى: «اكتب لى ورقة واختمها». فأخذ حسن ابن الوزير ورقة وكتب فيها: «كاتبها حسن ابن الوزير باع لإسحاق اليهودى جميع وسق أول مركب يدخل لأبيه بألف دينار وقبض الثمن على سبيل التعجيل». فأخذ اليهودى الورقة وصار حسن يبكى ويتذكر ما كان فيه من العز عندما كان أبوه حيا وينشد ويقول:

ما الدار مذ غبتم يا سادتى دار كلا ولا الجار مذ غبتم لنا جارُ
ولا الأنيس الذى قد كنت أعهده بها أنيسى ولا الأقمار أقمار
غبتم فأوحشتم الدنيا ببعدكم وأظلمت بعدكم دور وأقطار
ليت الغراب الذى نادى بفرقتنا يَعْرَى من الريش لا تحويه أوكارُ
قد قل صبرى وأضنى بعدكم جسدى وكم تهتك يوم البين أستار

ثم بكى بكاءً شديدًا، ودخل عليه الليل فأسند رأسه إلى قبر أبيه فأدركه النوم، ولم يزل نائمًا حتى طلع القمر فتدحرج رأسه عن القبر ونام على ظهره، وصار وجهه يلمع فى القمر، وكانت المقبرة عامرة من الجان المؤمنين، فخرجت جنية فرأت حسنا نائمًا، فتعجبت من حسنه وجماله وقالت: «سبحان الله ما هذا الشاب إلا كأنه من ولدان الجنة».

ثم طارت إلى الجو تطوف على عادتها، فرأت عفريتًا طائرًا فسلم عليها. فقالت له: «من أين أنت قادم؟». فقال: «من هنا». فقالت: «هل لك أن تروح معى حتى تنظر إلى حسن هذا الشاب النائم فى التربة؟». فقال لها: «نعم».

فسارا حتى نزلا على القبر، فقالت: «هل رأيت فى عمرك مثل هذا؟». فنظر العفريت إليه، وقال: «سبحان من لا شبيه له، ولكن يا أختى إن أردت حدثتك بما رأيت». قالت: «وما

هو؟». فقال لها: «إنى رأيت مثل هذا الشاب فى أقليم مصر، وهى بنت الوزير شمس الدين وعمرها قريب من عشرين سنة، ولها حسن وجمال وبهاء وكمال وقد واعتدال، فلما جاوزت هذا السن سمع بها السلطان بمصر فأحضر الوزير أباها، وقال له: اعلم أيها الوزير أنه بلغنى أن لك بنتًا وأنا أريد أخطبها منك. فقال له الوزير: يا مولانا السلطان أقبل عذرى وارحم عبرتى، فإنك تعرف أن أخى نور الدين خرج من عندنا ولا نعلم أين هو وكان شريكى فى الوزارة، وقد خرج وهو غضبان لأنى جلست وإياه وحدثته عن سبب الزواج والأولاد، فكان سببًا لغيظه، وأنا حالف أنى لا أزوج بنتى إلا بابن أخى من يوم ولدتها أمها، أى: من نحو ثمانى عشرة سنة، ومن مدة قريبة سمعت أن أخى تزوج بنت وزير البصرة وجاءه منها ولد، ولا أزوج بنتى إلا له كرامة لأخى، وأرخت زواجى وحمل زوجتى، وولادة هذه البنت، وهى على اسم ابن عمها، والبنات لمولانا السلطان كثيرات، فلما سمع السلطان كلام الوزير غضب غضبًا شديدًا، وقال: مثلى يخطب من مثلك بنتًا تمنعها منى وتحتج بحجة باردة. وحياة رأسى لا أزوجها إلا أقل خدمى رغمًا عن أنفك.

«وكان عند الملك سائس أحدب بحدبة من قدام وحدبة من وراء، فأمر السلطان بإحضاره وكتب كتابه على بنت الوزير بالقهر، وقد تركته وهو بين مماليك السلطان، وهم موقدون الشموع حوله ويسخرون منه على باب الحمام. وأما بنت الوزير فجالسة تبكى بين المواشط، وهى أشبه الناس بهذاالشاب، وقد منعوا أباها أن يراها، وما رأيت يا أختى أبشع من هذا الأحدب، وأما الصبية فهى أحسن من هذا الشاب».

وعند ذلك قالت الجنية للعفريت: «تكذب، فإن هذا الشاب أحسن أهل زمانه». فردها العفريت، وقال: «والله يا أختى إن الصبية أحسن من هذا، ولكن لا يصلح لها إلا هو، فإنهما مثل بعضهما أخوان وولدا عم يا خسارتها مع هذا الأحدب». فقالت له: «يا أخى دعنا نحمله ونروح به إلى الصبية التى تقول عنها، وننظر من منهما أحسن». فقال العفريت: «سمعًا وطاعة هذا كلام صواب ولا هناك أحسن من هذا الرأى الذى تقولينه، وها أنا أحمله».

ثم إنه حمله وطار به إلى الجو، ورافقته العفريتة إلى أن نزل به إلى مدينة مصر وحطه على مصطبة ونبهه فاستيقظ من النوم، فلم يجد نفسه على قبر أبيه فى أرض البصرة، فنظر يمينًا وشمالاً وهو لا يجد نفسه إلا فى مدينة غير مدينة البصرة، فأراد أن يصرخ فوكزه العفريت، وكان العفريت قد أتاه بحلة فاخرة وألبسه إياها، وأوقد له شمعة، وقال له: «اعلم أنى جئت بك وأنا رائح أعمل معك شيئًا لله، فخذ هذه الشمعة وامش إلى ذلك الحمام واختلط بالناس، ولا تزل تمشى معهم إلى أن تصل قاعة العروسة، فاسبق وادخل القاعة ولا تخش أحدًا وقف فوق يمين العروس الأحدب، وكلما جاءتك المواشط والمغنيات حط يدك فى جيبك تجده ملآن ذهبًا، فخذ وارم لهن، ولا تتوهم أنك إذا أدخلت يدك لا تجد جيبك ملآن ذهبًا، فنقط كل من جاءتك بالحفنة ولا تخش من شىء وتوكل على الذى خلقك، فما هذا بحولك بل هذا بقضاء الله».

فلما سمع بدر الدين حسن من العفريت هذا الكلام، قال: «يا ترى أى شىء تكون هذه

الصبية وما سبب الإحسان؟» ثم مشى وأوقد الشمعة وجاء إلى الحمام فوجد الأحدب راكبًا الفرس، فدخل بدر الدين حسن بين الناس وهو على تلك الحالة والصورة الحسنة، وكان عليه كما ذكرنا الطربوش والشاش والفرجية المنسوجة بالذهب، وما زال ماشيًا فى الزفة وكلما وقفت المغنيات والناس ينقّط ويحط يده فى جيبه يلقاه ملآن ذهبًا، فيقبض ويرمى فى الإطار الذى للمغنيات فيملأ الإطار دنانير، فاحتارت عقول المغنيات وتعجب الناس من حسنه وجماله، ولم يزالوا على هذا الحال حتى وصلوا إلى بيت الوزير فزدت الحجاب الناس ومنعوهم، فقالت المغنيات: «لا ندخل إلا أن يدخل هذا الشاب معنا لأنه غمرنا بإحسانه ولا نجلو العروسة إلا وهو حاضر».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فعند ذلك الحين دخلوا به إلى قاعة الفرح وأجلسوه بمرأى من العروس والأحدب، واصطفت جميع نساء الأمراء والوزراء والحجاب صفين، وكل امرأة معها شمعة كبيرة موقدة ضاربة لثامًا، وهن صفوف يمينًا وشمالاً من تحت المنصة إلى صدر الإيوان الذى عند المجلس الذى تخرج منه العروسة، فلما نظرت النساء بدر الدين حسنًا وما عليه من الحسن والجمال ووجهه يضئ كأنه الهلال، قالت المغانى للنساء الحاضرات: «اعلمن أن هذا المليح ما نقطنا إلا بالذهب الأحمر فلا تقصرن فى خدمته». ثم دعون على ذلك السائس الأحدب وعلى ما كان له سببًا فى زواجه هذه الصبية، وصرن كلما دعون لبدر الدين حسن دعون على ذلك الأحدب.

ثم إن المغنيات ضربن بالدفوف وزعقن بالمواصل وأقبلت المواشط وبنت الوزير بينهن، وقد طيبنها وعطرنها وحسن شعرها وبخرنها وألبسنها الحلى والحلل من لباس الملوك الأكاسرة، ومن جملة ما عليها ثوب منقوش بالذهب الأحمر وفيه صور الوحوش والطيور، وهو مسبول عليها من فوق ثيابها، وقلدنها بعقد يمنى يساوى الألوف، وقد حوى كل فص من جوهر ما حاز مثله تُبَّع ولا قيصر، والعروسة كأنها البدر إذا بدا فى ليلة أربعة عشر، فأحدق بها النساء كالنجوم، وكان بدر الدين حسن البصرى جالسًا والناس ينظرون إليه وكلهم أحدقوا به، وبقى السائس الأحدب وحده، كأنه قرد وكلما أوقدوا له الشمعة تنطفئ ولم يبق له صوت وصار قاعدًا فى الظلام، وأما بدر الدين فإنه صار قدامه شموع فى أيدى الناس، فلما نظر إلى العروس وحده فى الظلام، ونظر هؤلاء الناس محدقين به وهذه الشموع الموقدة تحير وتعجب، ولما رأى ابنة عمه فرح واستبشر.

وأما العروسة فإنها لما فتحت عينها قالت: «اللهم اجعل هذا بعلى وأرحنى من هذا السائس الأحدب». وأخذوا يجلون العروسة إلى آخر السبع خلع على بدر الدين البصرى والسائس الأحدب، جالس وحده، فلما فرغوا ذلك أذنوا للناس فى الانصراف، فخرج جميع من كان فى الفرح من النساء والأولاد ولم يبق إلا بدر الدين والسائس الأحدب.

ثم إن المواشط أدخلن العروسة ليغيرن ما عليها من الحلى والحلل، فعند ذلك تقدم

السائس الأحدب إلى بدر الدين حسن، وقال: «يا سيدى آنستنا الليلة وغمرتنا بإحسانك فما تقوم تروح؟» فقال: «بسم الله». ثم قام وخرج من الباب، فلقيه العفريت، فقال له: «قف يا بدر الدين فإذا خرج الأحدب إلى بيت الراحة ادخل أنت، وإذا أقبلت العروسة فقل لها: أنا زوجك، والملك إنما عمل هذه الحيلة خوفًا عليك من العين، وهذا الذى رأيته هو سائس من سياسنا».

فبينما بدر الدين يتحدث مع العفريت وإذا بالسائس خرج ودخل بيت الراحة. فطلع له العفريت من الحوض الذى فيه الماء فى صفة فار، وقال: «زيق». فقال الأحدب: «ما حالك؟» فكبر الفار حتى صار قطا، وقال: «مياو مياو». وكبر حتى صار كلبًا، وقال: «عوه عوه». فلما نظر السائس ذلك فزع، وقال: «اخسأ يا مشؤوم». والكلب كبر وانتفخ حتى صار جحشًا ونهق وصرخ فى وجهه: «هاق هاق». فانزعج وقال: «الحقونى يا أهل البيت». وإذا بالحمار كبر وصار قدر الجاموس وسد عليه المكان وتكلم بكلام بنى آدم، وقال: «ويلك يا أحدب يا منتن». أما السائس فارتعدت فرائصه واشتبكت أسنانه بعضها ببعض، فقال له العفريت: «قد ضاقت عليك الدنيا وما وجدت من تتزوج بها إلا هذه الابنة؟». فسكت. فقال له: «رد الجواب وإلا أسكنتك التراب». فقال: «ما لى ذنب إلا أنهم غصبونى. ولكن أنا تائب إلى الله ثم إليك». فقال له العفريت: «أقسم عليك إن خرجت هذا الوقت من هذا الموضع أو تكلمت قبل أن تطلع الشمس قتلتك. فإذا طلعت الشمس اخرج إلى حال سبيلك ولا تعد إلى هذا البيت أبدًا، وسأحرسك إلى طلوع الشمس». فأجاب الأحدب بالسمع والطاعة.

هذا ما كان من قصة الأحدب، وأما ما كان من قصة بدر الدين حسن البصرى، فإنه خلّى الأحدب والعفريت يتخاصمان ودخل البيت وجلس، وإذا بالعروسة أقبلت ومعها عجوز فوقفت فى باب البيت، وقالت: «قم خذ هذه وداعة الله». ثم ولت العجوز.

هذا ما كان من أمر بدر الدين حسن وسيدة الحسن بنت عمه، وأما ما كان من أمر العفريت، فإنه عندما رقد بدر الدين حسن، قال للعفريتة: «قومى ودعينا نأخذ الشاب إلى مكانه لئلا يدركنا الصبح لأن الوقت قريب». فعند ذلك تقدمت العفريتة وأخذته وطارت به وهو على حاله، وما زالت العفريتة طائرة به والعفريت يحاذيها إلى أن أدركهما الصباح فى أثناء الطريق وصاح المؤذنون بحى على الفلاح، فأذن الله ملائكته أن ترمى العفريت بشهب من نار فاحترق، وسلمت العفريتة فنزلت ببدر الدين فى موضع ما أخذت الشهب العفريت، ولم تتعد به خوفًا عليه.

وكان بالأمر المقدر أنهما وصلا دمشق الشام، فوضعته العفريته على باب من أبوابها وطارت، فلما طلع النهار وفتحت أبواب المدينة وخرج الناس نظروا شابا مليحًا بقميص وسراويل وطاقية، وهو مما قاسى من السهر غرقان فى النوم، فلما رأوه قالوا: «ليته صبر حتى لبس حوائجه». وقال الآخر: «مساكين أولاد الناس، لا بد أنه خرج هذه الساعة من الخمارة لبعض شغله، فقوى عليه السكر، فتاه عن المكان الذى كان قاصده حتى وصل إلى باب المدينة فوجده مغلقًا فنام هنا».

وقد خاض الناس فيه بالكلام، وإذا بالهواء هب على بدر الدين فانتبه، فوجد روحه

على باب مدينة وعليه ناس، فتعجب وقال: «أين أنا يا جماعة الخير، وما سبب اجتماعكم وما حكايتى معكم؟». فقالوا: «نحن رأيناك عند أذان الصبح ملقى نائمًا ولا نعلم من أمرك غير هذا، فأين كنت هذه الليلة؟» فقال بدر الدين حسن: «يا جماعة كنت هذه الليلة فى مصر». فقال واحد: «أنت تأكل حشيشًا». وقال بعضهم: «أنت مجنون تكون بائتًا فى مصر وتصبح نائمًا فى مدينة دمشق؟». فقال لهم: «يا جماعة الخير، لم أكذب عليكم، وأنا كنت البارحة بالليل فى ديار مصر، وفى نهار أمس كنت بالبصرة». فقال واحد: «طيب». وقال الآخر: «هذا الشاب مجنون». وصفقوا عليه بالكفوف، وتحدث الناس بعضهم مع بعض، وقالوا: «يا خسارة شبابه، والله ما فى جنونه شك أبدًا». ثم إنهم قالوا له: «أدر بالك وارجع لعقلك». فقال بدر الدين حسن: «كنت البارحة فى عرس فى ديار مصر». فقالوا: «لعلك حلمت ورأيت هذا الذى تقول فى المنام؟». فتوهم حسن فى نفسه وقال لهم: «ما هذا منام ولا رأيته فى الأحلام، إلا أنى رحت وقد جلوا العروسة قدامى وكان الثالث الأحدب قاعدًا. يا أخى ما هذا منام، ولو كان منامًا فأين الكيس الذهب وأين شاشى وثيابى؟».

ثم قام ودخل المدينة وشق شوارعها وأسواقها، فازدحمت الناس عليه، فدخل دكان طباخ وكان ذلك الطباخ رجلاً شاطرًا، يعنى لصا، فتاب الله عليه من الحرام وفتح له دكان طباخ، وكان أهل دمشق كلهم يخافون منه ومن شدة بأسه، فلما نظر الناس إلى الشاب وقد دخل دكان الطباخ افترقوا وخافوا منه، فلما نظر الطباخ إلى بدر الدين حسن ونظر حسنه وجماله وقعت فى قلبه محبته فقال له: «من أين أنت يا فتى؟ فاحك لى حكايتك فإنك صرت عندى أعز من روحى». فحكى له ما جرى من المبتدا إلى المنتهى. فقال له الطباخ: «يا سيدى بدر الدين، اعلم أن هذا أمر عجيب، وحديث غريب، ولكن يا ولدى اكتم ما معك حتى يفرج الله ما بك، واقعد عندى فى هذا المكان، وأنا ما لى ولد فأتخذك ولدى». فقال له بدر الدين: نعم يا عم». فعند ذلك نزل الطباخ إلى السوق واشترى لبدر الدين أقمشة مفتخرة وألبسه إياها وتوجه وإياه إلى القاضى وأشهد على نفسه أنه ولده، وقد اشتهر بدر الدين حسن فى مدينة دمشق أنه ولد طباخ، وقعد عنده فى الدكان يقبض الدراهم، وقد استقر حاله عند الطباخ.

هذا ما كان من أمر بدر الدين حسن وما جرى له، وأما ما كان من أمر سيدة الحسن بنت عمه، فإنها لما لم تجد بدر الدين حسن، اعتقدت أنه خرج لحاجة فجلست تنتظره ساعة وإذا بأبيها قد دخل وهو مهموم مما جرى عليه من السلطان وكيف غصبه وزوج ابنته غصبًا لأحد غلمانه، وهو قطعا سائس أحدب، وقال فى نفسه: «أقتل هذه البنت وأريحها من هذا الملعون».

فمشى إلى أن وصل إلى الكلة ووقف على بابها، وقال: «يا سيدة الحسن؟». فقالت له: «لبيك يا سيدى». ثم إنها خرجت وهى تتمايل من الفرح، وقبلت الأرض وزاد وجهها نورًا وجمالاً، فلما نظرها أبوها وهى بتلك الحالة قال لها: «يا ملعونة، أنت فرحانة بهذا السائس؟». فلما سمعت سيدة الحسن كلام والدها تبسمت وقالت: «بالله يكفى ما جرى أمس، والناس يضحكون على ويعيرونى بهذا السائس الذى ما يجىء فى قلامة ظفر زوجى، فلا تهزأ بى ولا تذكر لى ذلك الأحدب».

فلما سمع والدها كلامها امتزج بالغضب وازرقت عيناه، وقال لها: «ويلك أى شيء هذا الكلام الذى تقولينه، لعلك رضيت بالسائس الأحدب؟». فقالت: «بالله عليك لا تذكره ولا تعمل مزاحًا، فما كان السائس إلا مستأجرًا بعشرة دنانير، وأخذ أجرته وراح، وجئت أنا ودخلت الكلة، فنظرت زوجى قاعدًا بعد ما جلتنى عليه المغنيات ونقط الذهب الأحمر حتى أغنى الفقراء الحاضرين». فلما سمع والدها هذا الكلام صار الضياء فى وجهه ظلامًا، وقال لها: «يا فاجرة، ما هذا الذى تقولينه أين عقلك؟». فقالت له: «يا أبت، لقد فتت كبدى، حسبك تثاقلاً علي فهذا زوجى سيأتى عن قريب وتتحققه بعينك».

فقام والدها وهو متعجب ودخل إلى بيت الخلاء فوجد السائس الأحدب، فبهت فيه الوزير، وقال: «ما هذا إلا الأحدب؟». فقال له: «يا أحدب». فقال: «تفوم تفوم». وظن أنه ما يكلمه إلا العفريت، فصاح عليه الوزير، وقال: «تكلم وإلا قطعت رأسك بهذا السيف». فعند ذلك قال الأحدب: «يا شيخ العفاريت من حين جعلتنى فى هذا المكان، ما رفعت رأسى فبالله عليك أرفق بى». فلما سمع الوزير كلام الأحدب، قال له: «ما تقول؟ فأنا أبو العروسة ما أنا عفريت». فقال: «كفاك فأنت رائح تأخذ روحى فرح إلى حال سبيلك قبل أن يأتيك الذى فعل معى هذه الفعال، فأنتم ما جئتم بى إلا لتزوجونى أخت العفريت، فقبحًا لمن زوجنى بها ولمن كان السبب فيها». ولما سمع الوزير كلام الأحدب قال له: «قم واخرج من هذا المكان». فقال له: «هل أنا مجنون حتى أروح معك بغير إذن العفريت؟ فإنه قال لى: إذا طلعت الشمس اخرج ورح إلى حال سبيلك، فطلعت الشمس أم لا؟ فإنى لا أقدر أطلع من موضعى إلا أن تطلع الشمس».

فعند ذلك قال الوزير: «من أتى بك إلى هذا المكان؟». فقال: «إنى جئت البارحة إلى هنا لأزيل ضرورتى، وإذا بفار طلع من وسط الماء وصاح، وصار يكبر حتى بقى قدر الجاموس، وقال لى كلاما دخل فى أذنى فخلانى وراح، قبح الله العروسة ومن زوجنى بها». فتقدم إليه الوزير وأخرجه فخرج وهو يجرى وما صدق أن الشمس طلعت، وذهب إلى السلطان وأعلمه بما اتفق له مع العفريت.

وأما الوزير أبو العروسة فإنه دخل إلى البيت وهو حائر العقل فى أمر ابنته فقال: «يا ابنتى اكشفى لى خبرك». فقالت: «إن العروس الذى كنت أجلى عليه البارحة هو شاب مليح، وإن كنت لا تصدقنى فهذا شاشه بلفته على الكرسى». فلما سمع والدها هذا الكلام دخل الكلة فوجد شاش بدر الدين حسن ابن أخيه، ففى الحال أخذه فى يده وقبله وقال: «هذه عمامة وزراء لأنها موصلية». ثم نظر إلى حرز مخيط فى طربوشه، فأخذه وفتقه وأخذ الثوب فوجد الكيس الذى فيه الألف الدينار، ففتحه فوجد فيه ورقة فقرأها، فوجد فيها مبايعة اليهودى باسم بدر الدين حسن بن نور الدين على المصرى، ووجد الألف الدينار معها.

فلما قرأ شمس الدين الورقة صرخ صرخة وخر مغشيا عليه، فلما أفاق وعلم مضمون القصة تعجب، وقال: «لا إله إلا الله، ألقادر على كل شيء». وقال: «يا ابنتى أتعرفين من الذى اقترنت به؟» قالت: «لا». قال: «إنه ابن أخى وهو ابن عمك، وهذه الألف الدينار مهرك فسبحان الله، فليت شعرى كيف اتفقت هذه القصة؟». ثم فتح الحرز فوجد فيه ورقة مكتوبًا

فيها تاريخ بخط أخيه نور الدين المصرى أبى بدر الدين حسن، فلما نظر خط أخيه أنشد، وقال هذين البيتين.

أرى آثارهم فأذوب شوقًا وأسكب فى مواطنهم دموعى
وأسأل من بفرقتهم رمانى يمن علىَّ يومًا بالرجوع

فلما فرغ من الشعر قرأ الحرز فوجد فيه تاريخ اقترانه ببنت وزير البصرة، وتاريخ مولد بدر الدين حسن، وتاريخ عمره إلى حين وفاته، فتعجب واهتز من الطرب وقابل ما جرى له فوجده سواء بسواء، وزواجه وزواج الآخر متوافقين تاريخًا، ورأى ولادة بدر الدين وولادة بنته سيدة الحسن أيضًا متوافقتين.

فأخذ الورقة وذهب بها إلى السلطان، وأعلمه بما جرى من أول الأمر إلى آخره، فتعجب الملك وأمر أن يؤرخ هذا الأمر فى الحال، ثم أقام الوزير ينتظر ابن أخيه ذلك اليوم فما أتى. وثانى يوم وثالث يوم إلى سبعة أيام، فما وقع له على خبر، فقال: «لأعلمن عملاً ما سبقنى إليه أحد». فأخذ دواة وقلمًا وكتب فى ورقة صورة نصب البيت جميعه، وأن الخزانة موضع كذا، والستارة الفلانية موضع كذا، وكتب جميع ما فى البيت، ثم طوى الكتاب وأمر برفع المتاع، وأخذ الشاش والطربوش، وأخذ الفرجية والكيس وأبقاها عنده وقفل عليها بقفل من حديد، وختم عليه إلى أن يصل ابن أخيه.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قصة عجيب بن بدر الدين حسن

قالت شهرزاد: وأما بنت الوزير فتمت أشهرها، وولدت ولدًا مثل القمر يشبه والده فى الحسن والكمال والبهاء والجمال، فطيبوه وكحلوا مقلته وسلموه إلى المربيات وسموه عجيبا، فصار يومه بشهر، وشهره بسنة، فلما مر عليه سبع سنين أعطاه لفقيه، وأوصاه أن يربيه ويقرئه ويحسن تربيته، فأقام فى المكتب أربع سنوات، فصار يقاتل أهل المكتب ويسبهم ويقول لهم «من فيكم مثلى؟ أنا ابن وزير مصر؟».

فقام الأولاد واجتمعوا يشكونه للعريف مما قاسوه من عجيب، فقال لهم العريف: «غدًا عند ما يجىء أعلمكم شيئا تقولونه له، فيتوب عن المجىء للمكتب، وذلك أنه إذا جاء غدًا فاقعدوا حوله وقولوا لبعضكم بعضًا: ما يلعب معنا هذه اللعبة إلا من يقول لنا عن اسم أمه وأبيه، ومن لا يعرف أسم أمه وأبيه فهو ابن حرام فلا يلعب معنا».

فلما أصبح الصباح أتوا إلى المكتب وحضر عجيب فأحاطت به الأولاد فقالوا: «نحن نلعب لعبة ولكن ما يلعب معنا إلا من يقول لنا عن اسم أمه وأبيه». فقالوا: «طيب». فقال واحد منهم: «اسمى ماجد، وأمى علوية، وأبى عز الدين». وقال الآخر مثل قوله، والآخر كذلك. إلى أن جاء الدور إلى عجيب فقال: «أنا اسمى عجيب، وأمى سيدة الحسن، وأبى شمس الدين الوزير بمصر». فقالوا له: «إن الوزير ما هو أبوك». فقال لهم عجيب: «الوزير أبى حقيقة». فعند ذلك ضحكت عليه الأولاد وصفقوا له بأيديهم وقالوا: «ما يعرف له أب، قم من عندنا فلا

يلعب معنا إلا من يعرف اسم أبيه». ففى الحال تفرقت الأولاد من حوله، وتضاحكوا عليه، فضاق صدره وانخنق بالبكاء. فقال له العريف: «نعرف أن الوزير جدك أبو أمك سيدة الحسن لا أبوك، أما أبوك فلا تعرفه أنت ولا نحن، لأن السلطان كان زوجها للأحدب السائس، ولا لك أب يُعرف ولا تعد أنت فتمتهن صغار الكتاب دون أن تعرف لك أبًا. ألا ترى أن ابن البياع يعرف بأبيه، وأنت جدك وزير مصر، وأما أبوك فلا نعرفه، ونحن نقول ما لك أب، فاصح لعقلك».

فلما سمع من العريف والأولاد هذا الكلام وتعييرهم له، قام من ساعته ودخل على والدته سيدة الحسن وشكا لها وهو يبكى، ومنعه البكاء عن الكلام، فلما سمعت أمه كلامه وبكاءه التهب قلبها بالنار عليه وقالت: «يا ولدى، ما الذى أبكاك فاحك لى قصتك». فحكى لها عجيب ما سمعه من الأولاد والعريف وقال لها: «يا والدتى من هو أبى؟». فقالت له: «أبوك وزير مصر». فقال لها: «لا تكذبى على فإن الوزير أبوك أنت لا أبى أنا، فمن هو أبى؟ فإن لم تخبرينى بالصحيح قتلت روحى بهذا الخنجر». فلما سمعت والدته ذكر أبيه بكت لذكر ولد عمها، وتذكرت جلاها على بدر الدين حسن البصرى وما جرى لها معه، وأنشدت تقول هذه الأبيات:

أقاموا الوجد فى قلبى وساروا ... وقد شطت بهم تلك الديارُ
وبان تجلدى من حيث بانوا ... وفارقنى وعز الاصطبار
ومذ ساروا سرى عنى سرورى ... وقد عدم القرار فلا قرار
وأجروا بالفراق دموع عينى ... فأدمعها ببعدهم غزار
إذا ما اشتقت يومًا إن أراهم ... وطال بهم حنين وانتظار
أمثل شخصهم فى وسط قلبى ... فحزن واشتياق وافتكار
أيا من ذكرهم أضحى دثارى ... وما لى غير ودهم شعار
أحبتنا إلى كم ذا التمادى ... وكم هذا التباعد والنفار

ثم بكت وصرخت وكذلك ولدها، وإذا بالوزير دخل عليهما، فلما نظر إلى بكائهما احترق قلبه، وقال: «ما يبكيكما؟». فأخبرته بما اتفق لولدها مع صغار المكتب فبكى هو أيضًا. ثم تذكر أخاه وما اتفق له معه وما اتفق لابنته، ولم يعلم ما فى باطن الأمر.

❖ ❖ ❖

سَفَرُ شمس الدين مع عجيب إلى الشرق
فى طلب ابن أخيه بدر الدين

ففى الحال قام الوزير ومشى حتى صعد إلى الديوان، ودخل على الملك وأخبره بالقصة، وطلب منه الإذن فى السفر إلى الشرق ليقصد مدينة البصرة ويسأل عن ابن أخيه، وطلب من السلطان أن يكتب له مراسيم لسائر البلاد أن يأخذ ابن أخيه فى أى موضع وجده، ثم بكى بين يدى السلطان فرق له قلبه، وكتب له مراسيم لسائر الأقاليم والبلاد، ففرح بذلك الوزير ودعا للسلطان وودعه، وفى الحال نزل وتجهز للسفر، وأخذ ما يحتاج إليه وبنته وولده عجيبا،

وسافر أول يوم وثانى يوم وثالث يوم إلى أن وصل إلى مدينة دمشق، فوجدها ذات أشجار وأنهار، كما قال فيها الشاعر:

من بعد يومى فى دمشق وليلتى	حلف الزمان بمثلها لا يغلط
بتنا وجنح الليل فى غفلاته	ومن الصباح عليه فرع أشمط
والطل فى تلك الغصون كأنه	در يصافحه النسيم فيسقط
والطير يقرأ والغدير صحيفة	والريح تكتب والغمام ينقّط

فنزل الوزير فى ميدان الحصى ونصب خيامه وقال لغلمانه: «نأخذ الراحة هنا يومين». فدخلت الغلمان المدينة لقضاء حوائجهم هذا يبيع وهذا يشترى وهذا يدخل الحمام وهذا يدخل جامع بنى أمية الذى ما فى الدنيا مثله.

وخرج عجيب هو وخادمه ودخلا المدينة يتفرجان، والخادم يمشى خلف عجيب بنبوت لو ضرب به جمل ما عطس، فلما نظر أهل دمشق إلى عجيب وقده واعتداله وبهائه وكماله، وهو غلام بديع الجمال، رخيم الدلال، ألطف من نسيم الشمال، وأحلى للظمآن من الماء الزلال، وألذ من العافية لصاحب السقام، تبعه جم غفير يجرى وراءه ويسبقه، وقعدوا فى الطريق حتى يمر بهم وينظروه إلى أن وقف العبد بالأمر المقدر على دكان أبيه بدر الدين حسن، وكان قد نبت عذاره وتكامل عقله فى مدة الاثنتى عشرة سنة، وكان قد مات الطباخ وأخذ بدر الدين حسن ماله ودكانه، لأنه اعترف عند القضاة والشهود أنه ولده. فلما كان ذلك اليوم وقف ولده والخادم عليه، فنظر إلى ولده عجيب فوجده فى غاية الحسن فخفق فؤاده وحن الدم إلى الدم وتعلق به قلبه، وكان قد طبخ حب رمان محلى وهاجت فيه المحبة الأبوية فنادى ولده عجيبًا، وقال: «يا سيدى، يا من ملك قلبى وفؤادى وحن إليه كبدى، هل لك أن تدخل عندى وتجبر قلبى وتأكل من طعامى؟». ثم دمعت عيناه بالدموع من غير اختياره، وافتكر فى ما كان فيه وما هو فيه تلك الساعة. فلما سمع عجيب كلام أبيه حن قلبه له ونظر إلى الخادم، وقال له: «إن هذا الطباخ حن قلبى له وكأنه قد فارق ولدًا له، فادخل بنا عنده لنجبر قلبه، ونأكل ضيافته، لعله بمجابرتنا له يجمع الله شملنا بأبينا». فلما سمع الخادم كلام عجيب قال: «طيب تكون ولد الوزير وتأكل فى دكان الطباخ؟ ولكن أنا أحجب الناس عنك بهذه العصا خوفًا من أن ينظروا إليك، وإلا فما آمن عليك أن تدخل إلى الدكان أبدًا».

فلما سمع بدر الدين حسن كلام الخادم تعجب والتفت إلى الخادم، ودموعه سالت على خديه، فقال عجيب للخادم: «إن قلبى أحبه». فقال له الخادم: «دعنا من هذا الكلام ولا تدخل». فعند ذلك التفت أبو عجيب للخادم وقال له: «يا كبير لأى شىء ما تجبر خاطرى وتدخل عندى، يا من كأنه قسطل أسود وقلبه أبيض، يا من قال فيه بعض واصفيه..». فضحك الخادم، وقال: «أى شىء قلت فبالله قل وأوجز؟». ففى الحال أنشد بدر الدين حسن وجعل يقول هذين البيتين:

لولا تأدبه وحسن ثقاته	ما كان فى دار الملوك محكّما
وعلى الوليد فيا له من خادم	من حسنه خدمته أملاك السما

فتعجب الخادم من هذا الكلام وأخذ عجيبًا ودخل الدكان، فغرف بدر الدين حسن زبدية حب رمان عالية، وكانت بلوز وسكر، فأكلا سويا. فقال لهم بدر الدين حسن: «آنستما فكلا هنيئًا مريئًا». ثم إن عجيبًا قال لوالده: «اقعد كل معنا لعل الله يجمعنا بمن نريد». فقال بدر الدين حسن: «يا ولدى على صغر سنك بليت بفرقة الأحباب؟». فقال عجيب: «نعم يا عم احترق قلبى بفراق الأحباب وهو والدى وقد خرجت أنا وجدى نطوف عليه البلاد، فواحسرتاه على جمع شملى». وبكى بكاءً شديدًا. فبكى والده لفراقه وبكائه، وتذكر فرقة الأحباب وبعده عن والده ووالدته، فحزن له الخادم، وأكلوا جميعًا إلى أن اكتفوا.

ثم بعد ذلك قاما وخرجا من دكان بدر الدين حسن، فشعر أن روحه فارقت جسده وراحت معهما، فما قدر يصبر عنهما لحظة واحدة، فقفل الدكان وتبعهما، وهو لا يعلم أنه ولده وأسرع فى مشيه حتى لحقهما قبل أن يخرجا من الباب الكبير، فالتفت الطواشى وقال له: «ما لك؟» فقال لهما بدر الدين حسن: «لما نزلتما من عندى شعرت أن روحى راحت معكما، ولى حاجة فى المدينة خارج الباب، فأردت أن أرافقكما حتى أقضى حاجتى وأرجع». فغضب الطواشى وقال لعجيب: «كنت خائفًا من هذا، أكلنا لقمة كانت مشؤومة، وها هو تابعنا من موضع إلى موضع». فالتفت عجيب فلقى الطباخ خلفه، فاغتاظ واحمر وجهه ثم قال للخادم: «دعه يمشى فى طريق المسلمين فإذا خرجنا إلى خيامنا وعرفنا أنه تبعنا نطرده». فأطرق رأسه ومشى الخادم وراءه، فتبعهما بدر الدين حسن إلى ميدان الحصى وقربا من الخيام، فالتفتا ورأياه خلفهما، فغضب عجيب وخاف من الطواشى أن يخبر جده، فامتزج بالغضب وساءه أن يقال: إنه دخل دكان الطباخ، وإن الطباخ تبعه، فالتفت ووجد عينه فى عينه، وقد صار كأنه جسد بلا روح، فظن عجيب أن عينه عين خائن، فازداد غضبًا، فأخذ حجرًا وضرب به والده فوقع بدر الدين حسن مغشيا عليه. وسال الدم على وجهه، وسار عجيب والخادم إلى الخيام، وأما بدر الدين حسن فإنه لما أفاق مسح دمه وقطع قطعة من عمامته وعصب رأسه ولام نفسه، وقال: «أنا ظالم الصبى، غلقت دكانى وتبعته حتى ظن أنى خائن». فرجع إلى دكانه وباع طعامه وصار يتشوق إلى والدته التى فى البصرة ويبكى عليها، وأنشد يقول:

لا تسأل الدهر إنصافًا فتظلمه ... ولا تلمه فلم يخلق لإنصاف

خذ ما تيسر والق الهم ناحية ... لا بد من كدر فيه ومن صافى

ثم إن بدر الدين حسن استمر ببيع طعامه، وأما الوزير عمه فإنه أقام فى دمشق ثلاثة أيام ثم رحل طالبًا حمص، فدخل إليها وفتش فى طريقه أينما حل، واستمر فى سيره إلى أن وصل إلى ديار بكر وماردين والموصل، ولم يزل سائرًا إلى البصرة فدخلها.

فلما استقر به المنزل دخل إلى سلطانها واجتمع به، فاحترمه وأكرم منزله وسأله عن سبب مجيئه، فأخبره بقصته وأن أخاه الوزير نور الدين على، فترحم عليه السلطان وقال له: «أيها الصاحب كان وزيرى وكنت أحبه، ومن مدة خمس عشرة سنة مات وخلف ولدًا، وما أقام بعد موته إلا شهرًا واحدًا، ولقد تاه، ولم نطلع له على خبر، غير أن أمه عندنا؛ لأنها بنت وزيرى الكبير».

فلما سمع الوزير شمس الدين من الملك أن أم ابن أخيه طيبة فرح، وقال: «يا ملك، إنى أريد أن أجتمع بها». ففى الحال أذن له ودخل إليها فى دار أخيه، فجال ببصره فى نواحيها وقبل أعتابها وافتكر فى أخيه نور الدين، وكيف مات غريبًا، فبكى وأنشد:

أمرُّ على الديار ديار صحبى ... أقبِّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى ... ولكن حب من سكن الديارا

ثم دخل من الباب إلى فسحة عظيمة فوجد بابًا معقودًا بالحجر مفروشًا بأنواع الرخام من سائر الألوان، فمشى فى نواحى الدار ونظرها، وجال بطرفه فيها، فوجد اسم أخيه نور الدين مكتوبًا عليها بماء الذهب، فأتى إلى الاسم وقبله وبكى وتذكر فرقته، فبرحت به العبرات وأنشد يقول هذه الأبيات:

استخبر الشمس عنكم كلما طلعت ... وأسأل البرق عنكم كلما لمعا
أبيت والشوق يطوينى وينشرنى ... فى راحتيه ولا أشكو له وجعا
أحبابنا إن يكن طال المدى فلكم ... قد قطع القلب منى بعدكم قطعا
فلو تمنوا على طرفى برؤيتكم ... لكان أحسن إذا ما بيننا جمعا
لا تحسبوا أننى بالغير مشتغل ... إن الفؤاد لحب الغير ما وسعا

ثم إنه صار يمشى إلى أن جاء إلى قاعة زوجة أخيه، أم بدر الدين حسن البصرى، وكانت فى مدة غيبة ولدها لزمت البكاء والنحيب بالليل والنهار، فلما طالت عليها السنون عملت لولدها قبرًا من الرخام فى وسط القاعة، وصارت تبكى ليلاً ونهارًا ولا تنام إلا عند القبر، فلما وصل الوزير إلى مسكنها سمع صوتها، فوقف خلف الباب فسمعها تنشد:

بالله يا قبر هل زالت محاسنه ... وهل تغير ذاك المنظر النضر
يا قبر ما أنت لا روض ولا فلك ... فكيف يجمع فيك الغصن والقمر

فبينما هى كذلك وإذا بالوزير شمس الدين قد دخل عليها وسلم. وأعلمها أنه أخو زوجها، ثم أخبرها بما جرى وكشف لها القصة، وأن ابنها بدر الدين حسنًا اقترن بابنته من مدة عشر سنين، وفقد عند الصباح، وإن ابنتى حملت وولدت ولدًا، وهو معى، وإنه ولد ولدك من ابنتى، فلما سمعت خبر ولدها وأنه حى، ورأت سلفها فعند ذلك قامت ووقعت على قدميه، وقبلتهما وأنشدت تقول:

لله در مبشرى بقدومهم ... فلقد أتى بأطايب المسموع
لو كان يقنع بالخليع وهبته ... قلبًا تقطع ساعة التوديع

ثم إن الوزير أرسل إلى عجيب من يحضره، فلما حضر قامت جدته واعتنقته وبكت، فقال لها شمس الدين: «ما هذا وقت بكاء هذا وقت تجهيزك للسفر معنا إلى ديار مصر، عسى الله يجمع شملنا وشملك بولدك ابن أخى». فقالت: «سمعًا وطاعة». ثم قامت من وقتها وجمعت مصالحها وذخائرها وجواريها. وفى الحال تجهزت.

وذهب الوزير شمس الدين إلى سلطان البصرة وودعه، فبعث معه هدايا وتحفًا إلى سلطان مصر، وسافر من وقته إلى أن وصل إلى مدينة دمشق فنزل على القانون وضرب الخيام، وقال لمن معه: «نقيم بها جمعة إلى أن نشترى للسلطان هدايا وتحفًا».

ثم قال عجيب للطواشي: «يا لائق إني اشتقت إلى الفرجة فقم بنا ننزل السوق ونعبر دمشق، وننظر ما جرى لذلك الطباخ كنا قد أكلنا طعامه وشججنا رأسه، وهو قد كان أحسن إلينا ونحن أسأنا إليه». فقال الطواشي: «سمعًا وطاعة».

ثم إن عجيبًا خرج من الخيام هو والطواشي وحركته القرابة لوالده، وفي الحال دخلا إلى المدينة وما زالا سائرين إلى أن وصلا إلى دكان الطباخ، فوجداه واقفًا في الدكان وكان الوقت قريب العصر، وقد وافق الأمر أنه طبخ حب رمان، فلما قرب منه ونظر عجيب إليه حن له ونظر إلى أثر الضربة بالحجر في جبينه فقال له: «السلام عليك يا هذا، اعلم أن خاطري عندك». فلما نظر إليه بدر الدين تقلقلت أحشاؤه وخفق فؤاده وأطرق برأسه إلى الأرض، وأراد أن يدير لسانه في فمه فما قدر. ثم إنه رفع رأسه إلى ولده خاضعًا متذللاً. وأنشد يقول هذه الأبيات:

تمنيت من أهوى فلما رأيته ... ذهلت فلم أملك لسانًا ولا طرفا
وأطرقت إجلالاً له ومهابة ... وحاولت أن أخفي الذي بي فلا يخفى
وقد كان عندي للعتاب دفاترٌ ... فلما التقينا ما نطقت ولا حرفا

ثم قال لهما: «اجبرا قلبي وكلا من طعامي، فاعلم أيها الغلام أني ما نظرت إليك إلا خفق قلبي، وما كنت تبعتك إلا وأنا بغير عقل». فقال عجيب: «أنت محب لنا ونحن أكلنا عندك لقمة لزمتنا عقبها وأردت تهتكنا، ونحن لا نأكل لك أكلاً إلا بشرط أن تحلف أنك لا تخرج وراءنا ولا تتبعنا، ولا تظن أننا ما نرجع إليك، لأننا نقيم هنا جمعة زمان حتى يأخذ جدي هدايا للملك». فقال بدر الدين: «لكما ذلك». فدخل عجيب هو والخادم الدكان فقدم لهما زبدية حب رمان، فقال عجيب: «كل معنا لعل الله يفرج عنا». ففرح بدر الدين وأكل معهما، وهو باهت في وجهه وقد تعلق قلبه وجوارحه معه، فقال له عجيب: «أما قلت أنك ثقيل فحسبك تطيل النظر إلى وجهي». فلما سمع بدر الدين كلام ولده أنشد يقول:

لك في القلوب سريرة لا تظهر ... مطوية مكنونة لا تنشر
أأذوب من حرقي ووجهك جنتي ... وأموت من ظمأي وثغرك كوثرُ

فصار بدر الدين يلقم عجيبًا ساعة، ويلقم الطواشي ساعة، فأكلا حتى اكتفيا وقاما، فقام حسن البصري وصب على أيديهما الماء وحل فوطة حرير من وسطه، فمسح أيديهما بها ورش عليهما ماء الورد من قمقم كان عنده، وخرج من الدكان وعاد بقلة شراب ممزوجة بماء الورد المسك، وقدمها بين أيديهما، وقال: «أتما إحسانكما». فأخذ عجيب وشرب، وناول الخادم فشربا حتى ارتويا وشبعا شبعًا بخلاف عادتهما، ثم انصرفا وأسرعا في مشيهما حتى وصلا إلى الخيام، ودخل عجيب على جدته أم والده بدر الدين حسن فقبلته وافتكرت في ولدها بدر الدين حسن فتنهدت وبكت وقالت:

قد كنت أرجو بأن الشمل يجتمع ... ما كان لي في حياتي بعدكم طمعُ
أقسمت ما في فؤادي غير حبكم ... والله ربي على الأسرار مطلع

ثم قالت لعجيب: «يا ولدي أين كنت؟» قال: «في مدينة دمشق». فعند ذلك قامت

وقدمت له زبدية طعام حب رمان، وكان قليل الحلاوة وقالت للخادم: «اقعد مع سيدك». فقال الخادم فى نفسه: «والله ما لنا نفس نأكل». وجلس الخادم.

وأما عجيب فلما جلس كان بطنه ملآن مما أكل وشرب. فأخذ لقمة وغمسها فى حب الرمان، وأكل فوجده قليل الحلاوة لأنه كان شبعان، فقال: «أفوه أى شىء هذا الطعام البشع؟». فقالت جدته: «يا ولدى تعيب طبيخى وأنا طبخته، ولا يحسن أحد الطبخ مثلى إلا والدك بدر الدين حسن؟». فقال: «يا جدتى، إن طبيخك هذا بشع، نحن فى هذه الساعة رأينا فى المدينة طباخًا طبخ حب رمان رائحته ينفتح لها القلب، وأما طعامه فإنه يشتهى أن يُؤكل، وأما طعامك عنده فلا يساوى شيئًا».

فلما سمعت جدة عجيب كلامه اغتاظت غيظًا شديدًا ونظرت إلى الخادم وقالت له: «ويلك أنت أفسدت ولدى، لأنك دخلت به إلى دكاكين الطباخين». فخاف الطواشى وأنكر وقال: «ما دخلنا الدكان ولكن جزنا جوازًا». فقال عجيب: «دخلنا وأكلنا وهو أحسن من طعامك». فقامت جدته وأخبرت أخا زوجها وأغرته على الخادم، فحضر الخادم قدام الوزير فقال له: «لم دخلت بولدى دكان الطباخ؟». فخاف الخادم وقال: «ما دخلنا». فقال عجيب: «دخلنا وأكلنا من حب الرمان حتى شبعنا، وسقانا الطباخ شرابًا بثلج وسكر». فازداد غضب الوزير على الخادم وسأله فأنكر. فقال له الوزير: «إن كان كلامك صحيحًا فاقعد وكل قدامنا».

فعند ذلك تقدم الخادم وأرد أن يأكل فلم يقدر ورمى اللقمة وقال: «يا سيدى إنى شبعان من البارحة». فعرف الوزير أنه أكل عند الطباخ، فأمر العبيد أن يطرحوه فطرحوه، ونزل عليه بالضرب الوجيع فاستغاث، وقال: «يا سيدى، لا تضربنى وأنا أقول لك الصحيح». فكف عن ضربه، وقال له: «انطق بالحق». فقال له: «اعلم أننا دخلنا دكان الطباخ، وهو يطبخ حب الرمان، فحط لنا منه، وما أكلت عمرى مثله يا سيدى، ولا ذقت أنحس من هذا الذى قدامنا».

فغضبت أم بدر الدين حسن وقالت: «لا بد أن تروح لهذا الطباخ وتجىء لنا بزبدية حب رمان من الذى عنده، وتريه لسيدك ليقول أيهما أطيب». فقال الخادم: «نعم».

ففى الحال أعطته زبدية ونصف دينار. فمضى الخادم حتى وصل إلى الدكان، وقال للطباخ: «نحن تراهنا على طعامك فى بيت سيدنا لأن عندهم حب رمان، فهات لنا بهذا النصف دينار وأدر بالك، فقد أكلنا الضرب الموجع على طبيخك». فضحك بدر الدين حسن، وقال: «هذا الطعام ما يحسنه أحد إلا أنا ووالدتى، وهى الآن فى بلاد بعيدة». ثم إنه أخذ الزبدية وغرف فيها وختمها بالمسك وماء الورد. فأخذها الخادم وأسرع بها حتى وصل إليهم، فأخذتها والدة حسن، ونظرت حسن طعمها وجودة طبخها فعرفت طباخها، فصرخت ثم وقعت مغشيا عليها. فبهت الوزير ثم رش عليها ماء الورد وبعد ساعة أفاقت وقالت: «إن كان ولدى فى الدنيا فما طبخ حب الرمان هذا إلا هو، وهو ولدى بدر الدين حسن لا شك فيه ولا محالة، لأن هذا الطعام ما أحد يطْبخه غيره إلا أنا، لأنى علمته طبيخه». فلما سمع الوزير كلامها فرح فرحًا شديدًا، وقال: «واشوقاه إلى رؤية ابن أخى، أترى تجمع الأيام شملنا به وما نطلب الاجتماع إلا من الله تعالى؟».

ثم إن الوزير قام من وقته وساعته وصاح على الرجال الذين معه، وقال: «ليمض منكم عشرون رجلاً إلى دكان الطباخ ويهدموها ويكتفوه بعمامته ويجروه غصبًا إلىَّ من غير أذية تحصل له». فقالوا: «نعم». ثم إن الوزير ركب من وقته إلى دار السعادة واجتمع بنائب دمشق، وأطلعه على الكتب التى معه من السلطان فوضعها على رأسه بعد تقبيلها وقال له: «وأين هو غريمك؟» قال: «رجل طباخ».

ففى الحال أمر حجابه أن يذهبوا إلى دكانه فذهبوا، فرأوها مهدومة وكل شىء فيها مكسور، لأنه لما توجه إلى دار السعادة فعل جماعته ما أمرهم به، فقعدوا منتظرين مجىء الوزير من دار السعادة، وبدر الدين حسن يقول: «يا ترى، أى شىء رأوا فى حب الرمان حتى صار لى هذا الأمر؟». فلما حضر الوزير من عند نائب دمشق، وقد أذن له فى أخذ غريمه وخفره به، دخل الخيام وطلب الطباخ فأحضروه مكتفًا بعمامته.

فلما نظر بدر الدين حسن إلى عمه بكى بكاءً شديدًا، وقال: «يا مولاى، ما ذنبى عندكم؟». فقال له: «أنت الذى طبخت حب الرمان؟». قال: «نعم، فأنتم وجدتم فيه شيئًا يوجب ضرب الرقبة؟». فقال الوزير: «هذا أقل جزائك». فقال له: «ما تعرفنى بذنبى؟». فقال له الوزير: «نعم فى هذه الساعة».

ثم إن الوزير صرخ على الغلمان، وقال: «هاتوا الجمال». وأخذوا بدر الدين حسن معهم وأدخلوه فى صندوق وقفلوا عليه وساروا، ولم يزالوا سائرين إلى الليل، فحطوا وأكلوا شيئًا من الطعام، وأخرجوا بدر الدين فأطعموه وأعادوه إلى الصندوق، ولم يزالوا كذلك إلى أن وصلوا إلى ديار مصر، فأخرجوا بدر الدين حسنًا من الصندوق، وقال له الوزير: «أنت الذى طبخت حب الرمان؟». قال: «نعم يا سيدى». فقال الوزير: «قيدوه». فقيدوه وأعادوه إلى الصندوق وساروا إلى أن وصلوا مصر، وقد نزلوا فى الريدانية، فأمر بإخراج بدر الدين حسن من الصندوق وأمر بإحضار نجار وقال له: «اصنع لهذا لعبة خشب». فقال بدر الدين حسن: «وما تصنع بها؟». فقال: أشنقك عليها وأسمرك على اللعبة، ثم أدور بك المدينة كلها». فقال: «على أى شىء تفعل لى ذلك؟». فقال الوزير: «على نحس طبيخك حب الرمان، كيف طبخته وهو عاوز فلفل؟». فقال: «ولكونه عاوز فلفل تصنع معى هذا كله؟». وما كفاك حبسى وكل يوم تطعمونى أكلة واحدة؟». فقال: «عاوز فلفل وما جزاؤك إلا القتل».

فتعجب بدر الدين وحزن على روحه، فقال له الوزير: «فيمَ تفكر؟». فقال له: «فى العقول السخيفة التى مثل عقلك. فإنه لو كان عندك عقل ما كنت فعلت معى هذه الفعال». فقال له الوزير: «يجب علينا أن نؤذيك حتى لا تعود لمثله». فقال بدر الدين حسن: «إن الذى فعلته معى أقل شىء فيه أذيتى». فقال له: «لا بد من شنقك». كل هذا والنجار يصلح الخشب وهو ينظر.

ولم يزالوا كذلك إلى أن أقبل الليل، فأخذه عمه ورماه فى الصندوق وقال: «فى غد يكون الأمر». وصبر عليه حتى عرف أنه نام، فقام وحمل الصندوق وركب وحطه قدامه ودخل المدينة، وسار إلى أن دخل بيته، ثم قال لابنته سيدة الحسن: «الحمد لله الذى جمع شملك بابن عمك قومى افرشى البيت مثل فرشة ليلة الجلاء».

فقامت أوقدت الشموع وقد أخرج الوزير الورقة المصورة التى كان صورها بنصبة البيت ووضعوا كل شىء مكانه، حتى إن الرائى إذا رأى ذلك لا يشك أنها ليلة الجلاء بعينها، ثم أمر الوزير أن يحطوا شاش بدر الدين فى مكانه كما كان حطه بيده، وكذلك الكيس الذى تحت الطراحة، ثم أمر الوزير ابنته، وقال: «إذا دخل ابن عمك فقولى له: أبطأت فى رجوعك، وتحدثى معه إلى النهار ونكشف له هذا التاريخ».

ثم إن الوزير أخرج بدر الدين من الصندوق بعد أن فك القيود من رجليه، كل هذا وهو نائم لا يعلم، فبالأمر المقدر انقلب بدر الدين وانتبه فوجد نفسه فى دهليز نير، فقال فى نفسه: «أنا فى أضغاث أحلام». ثم قام بدر الدين تمشى قليلاً إلى باب ثان ونظر وإذا هو فى البيت الذى انجلت فيه العروسة ورأى الكلة والكرسى، ونظر عمامته وحوائجه، فلما نظر ذلك بهت وصار يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وقال: «أنا نائم أم يقظان؟». وضرب جبينه ويقول وهو متعجب: «هذا مكان العروسة التى جليت علىَّ. فأين أنا فإنى كنت فى صندوق».

فبينما هو يخاطب نفسه وإذا بسيدة الحسن، قالت له: «يا سيدى، ما تدخل فإنك أبطأت؟» فلما سمع كلامها ونظرها ضحك، وقال: «إننى فى أضغاث أحلام». ثم دخل وتنهد وتفكر فى ما جرى له وتحير فى أمره، وأشكلت عليه قضيته لما رأى شاشه والكيس الذى فيه الألف الدينار، فقال: «الله أعلم أنى فى أضغاث أحلام». فعند ذلك قالت له سيدة الحسن: «ما لك تتعجب وتبهت ما كنت كذا أول الليل؟». فضحك وقال: «كم لى غائب عنك؟». فقالت له: «سلامتك، اسم الله حواليك أنت خرجت تقضى لك شغلاً وترجع فهل عدم عقلك؟». فلما سمع بدر الدين ذلك ضحك وقال: «صدقت ولكن لما خرجت من عندك حلمت أنى كنت طباخًا فى دمشق وأقمت بها عشر سنين، وكأنى جاءنى صغير، وهو من أولاد الأكابر ومعه خادم».

ثم إن بدر الدين حسن مس بيده جبينه فرأى أثر الضرب عليه، فقال: «يا سيدتى، كأنه حق لأنه ضربنى على جبينى فشجه فكأنه فى اليقظة». ثم قال: «كأنه من ساعة فارقتك رأيته فى المنام، ورأيت كأنى سافرت إلى دمشق بلا طربوش وصرت طباخًا».

ثم بهت ساعة، وقال: «كأنى رأيت أنى طبخت حب رمان وفلفله قليل، والله ما كأنى إلا نمت ورأيت هذا كله فى المنام». فقالت له سيدة الحسن: «بالله عليك أى شىء قال سمرونى على لعبة خشب». فقالت له: «على أى شىء؟» فقال: «على قلة فلفل حب الرمان، وكأنهم خربوا دكانى وكسروا مواعينى، وحطونى فى صندوق وجاؤوا بالنجار يصنع لى خشبة لأنهم أرادوا شنقى، فالحمد لله على أن ذلك كله جرى لى فى المنام، وما كان فى اليقظة». فضحكت سيدة الحسن، ثم تفكر، وقال: «ما كأنه إلا فى اليقظة فأنا ما عرفت ما هى القضية».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



تلاقى بدر الدين حسن مع
أمه وابنه عجيب وعمه شمس الدين

قالت شهرزاد: ثم إنه بات وهو متحير فى أمره تارة يقول: «أنا حلمت». وتارة يقول: «كنت فى اليقظة». ولا زال كذلك إلى الصباح، فدخل عليه عمه شمس الدين الوزير فسلم

عليه، فنظر إليه بدر الدين حسن، وقال: «ما أنت الذى أمرت بتكتيفى وتسميرى وتخريب دكانى من شأن حب الرمان لكونه قليل الفلفل؟». فعند ذلك قال له الوزير: «اعلم يا ولدى أنه ظهر الحق، وبان ما هو مختف، أنت ابن أخى، وما فعلت ذلك إلا لأجل أن أتأكد أنك الذى اقترنت ببنتى، وما تحققت ذلك إلا لكونك عرفت البيت وعرفت شاشك وذهبك والورقة التى بخطك والتى كتبها والدك أخى، فإنى ما رأيتك قبل ذلك، وما كنت أعرفك، واعلم أن أمك جئت بها من البصرة». ثم رمى نفسه عليه وبكى.

فلما سمع بدر الدين حسن من عمه هذا الكلام تعجب غاية العجب وعانق عمه وبكى من شدة الفرح، ثم قال له الوزير: «يا ولدى، إن سبب ذلك كله ما جرى بينى وبين والدك». وحكى له ما جرى بينه وبين أخيه وسبب سفر والده إلى البصرة. ثم إن الوزير أرسل إلى عجيب، فلما رآه والده، قال: «هذا هو الذى ضربنى بالحجر».

فقال الوزير: «هذا ولدك». فعند ذلك رمى نفسه عليه وأنشد يقول:

ولقد بكيت على تفرُّق شملنا ... زمنا وفاض الدمع من أجفانى

ونذرت إن عاد الزمان يلمُّنا ... ما عدت أذكر فرقة بلسانى

هجم السرور علىَّ حتى إنه ... من فرط ما قد سرَّنى أبكانى

فلما فرغ من شعره إذ بوالدته أقبلت ورمت نفسها عليه وبكت. ثم إنها حكت له ما وقع لها بعده، وحكى لها ما قاساه، فشكر الله تعالى على اجتماع شملهما ببعضهما.

ثم إن الوزير شمس الدين ذهب إلى السلطان بعد وصوله بيومين، فلما دخل عليه قبَّل الأرض بين يديه وحيَّاه بتحية الملوك، ففرح به السلطان وبش فى وجهه وأدناه إليه، ثم استخبره عما رأى فى سفرته وجرى فى ذهابه، فأخبره بالقصة من أولها إلى آخرها، فقال له السلطان: «الحمد لله على ظفرك بالمراد ورجوعك سالما إلى الأهل والأولاد، ولا بد من أن أرى ابن أخيك حسنًا البصرى، فائتنى به إلى الديوان غدًا. فقال له شمس الدين: «يحضر عندك غدًا إن شاء الله تعالى». ثم سلم عليه وخرج.

فلما رجع إلى داره أخبر ابن أخيه باشتياق السلطان إليه، فقال حسن البصرى: «المملوك منقاد لأمر مولاه». والحاصل أنه ذهب إلى حضرة السلطان مع عمه شمس الدين، ولما حضر بين يديه حياه بأكمل التحيات وأفضلها وأنشد يقول:

يقبِّل الأرض من عزَّت مراتبه ... بكم وبالنُّجح قد فازت مطالبه

أنتم أولو المجد يحظى من يؤملكم ... بما به فى الدنيا تعلو مناصبه

فتبسم السلطان وأشار إليه بالجلوس فجلس بقرب عمه شمس الدين، ثم سأله الملك عن اسمه فقال له: «احقر عبيدك المعروف بحسن البصرى. الداعى لك ليلاً ونهارًا». فأعجب كلامه السلطان وأراد أن يمتحنه فيما يظهر به شأن علمه وأدبه فقال له: «ألك علم بتفصيل الحسن؟». قال: «نعم، الصباحة فى الوجه، الوضاءة فى البشرة، الجمال فى الأنف، الحلاوة فى العينين، الملاحة فى الفم، الظرف فى اللسان، الرشاقة فى القدّ، اللباقة فى الشمائل، كمال الحسن فى الشعر». وقد جمع هذا كله فى أبياته هذه:

صباحة للوجه قل والبشره لها وضاءة فكن ذا تبصره
وبالجمال الأنف حقا يوصف وبالحلاوة العيون تعرف
نعم وقالوا للفم الملاحه فافهمه عنى لا عدمت الراحه
والظرف فى اللسان والرشاقه للقد والشمائل اللباقه
ثم كمال الحسن قالوا فى الشعر فاصغ إلى نظمى وكن ممن عذرْ

فسر السلطان بكلامه واستأنس به، ثم قال له: «ما معنى قولهم فى المثل، شريحٌ أدهى من الثعلب؟». فقال: «اعلم أيها الملك، أيدك الله تعالى، إن شريحًا خرج أيام الطاعون إلى النجف، وكان إذا قام يصلى يجىء ثعلب، فيقف تجاهه ويحاكيه، فيشغله عن صلاته، فلما طال ذلك عليه نزع يومًا قميصه فجعله على قصبة، وأخرج كميه وجعل عمامته عليها وشد وسطها ونصبها فى محل صلاته، فأقبل الثعلب على عادته فوقف بإزائه وأتاه شريح من خلفه فأخذه، فقيل ما قيل».

فلما سمع السلطان ما كشف عن حسن البصرى، قال لعمه شمس الدين: «إن ابن أخيك هذا كامل فى فن الأدب، ولا أظن أن مثله يوجد فى مصر». فقام حسن البصرى وقبل الأرض بين يديه وقعد قعود المملوك بين يدى مولاه.

ثم إن السلطان لما اطلع على حقيقة ما حصل لحسن البصرى من العلوم الأدبية فرح فرحًا عظيمًا وخلع عليه خلعة فاخرة وقلده أمرًا يستعين به على ما يصلح حاله، ثم قام حسن البصرى وقبل الأرض بين يديه، ودعا له بالعز الدائم واستأذنه فى الذهاب مع عمه الوزير شمس الدين، فأذن له.

فخرج وأتى هو وعمه إلى البيت، فقدم لهما الطعام فأكلا ما يسر الله لهما.

ثم دخل حسن البصرى، بعد الفراغ من الطعام، مجلس امرأته سيدة الحسن وأخبرها بما اتفق له فى حضرة السلطان فقالت له: «لا بد من أن يجعلك نديمًا له ويوفر لك الصِّلات والهبات، وأنت بفضل الله كالنير الأعظم، تسطع أنوار كمالك حيثما كنت فى بر وبحر». فقال: «أريد أن أقول قصيدة فى مدحه لتزداد محبتى فى قلبه». قالت: «أصبت فيما نويت، فجود الفكرة وتأنق فيما تقول، وما أراه إلا مقابلاً لك بالقبول» ثم انفرد حسن ناحية ونمق أبياتًا رشيقة المبانى، حسنة المعانى، وهى:

لى همامٌ قد سما أوج العلى وهو فى نهج الكرام الغرّ سالكٌ
أمّن الأقطار طرا عدله وعلى أعدائه سد المسالك
يرجع العافى غنيا إن ترم وصفه قصرت عنه فى مقالك
هو صبح مسفر يوم العطا وهو فى يوم الوغى كالليل حالك
قلد الأعناق منا جوده وهو بالإحسان للأحرار مالك
طوّل الله لنا فى عمره ووقاه شر أحداث المهالك

فلما فرغ من تحريرها أرسل بها إلى حضرة السلطان بصحبة عبد من عبيد عمه الوزير شمس الدين، فاطلع عليها الملك وسر خاطره بها وقرأها للحاضرين بين يديه، فأثنوا

عليه ثناء عظيمًا، ثم استدعاه إلى مجلسه فحضر، فقال له الملك: «أنت من هذا اليوم نديمى، وقد عينت لك فى كل شهر ألف درهم مع ما قلدتك به سابقًا». فقام حسن البصرى وقبل الأرض بين يديه ثلاث مرات، ودعا له بدوام البقاء. ثم إن حسن البصرى علا قدره وطار صيته فى البلدان، وبقى فى أجمل حال وأرغد عيش مع زوجته وعمه وأهله إلى أن أدركته الوفاة. فلما سمع القصة هارون الرشيد تعجب، وقال: «ينبغى أن تكتب هذه الأحاديث بماءالذهب». ثم أطلق العبد وأمر أن يعين للشاب فى كل شهر ما يطيب به عيشه.

«وما هذا بأعجب من حكاية الخياط والأحدب واليهودى والشاهد والنصرانى وما وقع لهم». قال الملك: «وما حكايتهم؟».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية الخياط والأحدب واليهودى والشاهد والنصرانى وما حدث لهم

قالت شهرزاد: «بلغنى أيها الملك السعيد، أنه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان، فى مدينة الصين، رجل خياط مبسوطه الأنامل، يحب اللهو والطرب، وكان يخرج هو وزوجته فى بعض الأحيان إلى المنتزهات، فخرجا يومًا من أول النهار ورجعا فى آخره إلى منزلهما عند المساء فوجدا فى طريقهما رجلاً أحدب، رؤيته تضحك المغموم وتزيل الهم عن المحزون، فعند ذلك تقدم الخياط وزوجته يتفرجان عليه، ثم إنهما دعواه أن يروح معهما إلى بيتهما لينادمهما تلك الليلة، فأجابهما ومشى معهما إلى البيت. فخرج الخياط إلى السوق وكان الليل قد أقبل فاشترى سمكًا مقليا وخبزًا وليمونًا وعقيدًا يحلون به. وأتى وحط السمك قدام الأحدب وأكلوا، فأخذت امرأة الخياط جزلة سمك كبيرة ولقمتها للأحدب وسدت فمه بكفها وقالت: «اقسم عليك ما أكلتها إلا دفعة واحدة، ولا أمهلك حتى تمضغها». فبلعها، وكانت فيها شوكة قوية فانشبكت فى حلقه مع انقضاء أجله، فمات لساعته.

أما الخياط فلما رأى ذلك قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، مسكين ما جاء موته هكذا إلا على أيدينا». فقالت المرأة: «وما هذا التوانى أما سمعت القائل؟»:

مـا لى أعلل نفسى بالمحال على	أمـر يكون به همٌّ وأحـزانُ
كيف الجلوس على نار وما خمدت	إن الجلوس على النيران خسران

فقال لها زوجها: «وما أفعل؟». قالت له: «قم واحمله فى حضنك وانشر عليه فوطة حرير، وأخرج أنا قدامك وأنت ورائى فى هذه الليلة، وقل: «هذا ولدى، وهذه أمه ونحن ذاهبان إلى الطبيب ليراه». فلما سمع الخياط هذا الكلام قام وحمل الأحدب فى حضنه، وزوجته تقول: «يا ولدى، سلامتك، أى شىء يوجعك، وهذا الجدرى كان لك فى أى مكان؟». فكل من رآهما يقول: «معهما طفل مريض». ولم يزالا سائرين وهما يسألان عن منزل الطبيب، فدلوهما على بيت طبيب يهودى، فقرعا الباب فنزلت لهما جارية سوداء وفتحت الباب

ونظرت، وإذا بإنسان حامل صغيرًا وامرأة معه. فقالت الجارية: «ما خبركما؟». فقالت امرأة الخياط: «معنا صغير مرادنا ينظره الطبيب، فخذى هذا ربع الدينار وأعطيه لسيدك وخليه ينزل ليرى ولدى فقد لحقه ضعف». فطلعت الجارية ودخلت زوجة الخياط داخل العتبة وقالت لزوجها: «اترك الأحدب هنا وخلنا نفوز بأنفسنا». فأسند الخياط إلى الحائط وخرج وزوجته. وأما الجارية فدخلت إلى اليهودى وقالت له: «إن على الباب رجلاً معه واحد ضعيف. ومعه حرمة وقد أعطيانى ربع دينار لك لتنزل وتصف لهما ما يوافقه». فلما رأى اليهودى ربع الدينار فرح وقام عاجلاً ونزل فى الظلام، فأول ما حط رجله عثر بالأحدب وهو ميت، فقال: «يا للعزيز، يا لموسى والعشر كلمات، يا لهارون ويوشع بن نون، كأنى عثرت بهذا المريض فوقع إلى أسفل فمات، فكيف أخرج بقتيل من بيتى؟». فحمله وصعد به البيت وأعلم زوجته بذلك فقالت له: «وما قعودك؟ إن قعدت هنا إلى طلوع النهار راحت أرواحنا أنا وأنت، نصعد به السطح ونرميه فى بيت جارنا المسلم». وكان جاره رجلاً شاهدًا مشرفًا على مطبخ السلطان، وهو كثير ما يأتى بالدهن إلى بيته وتأكله القطط والفيران، وإن غاب عنه ليلة تنزل عليه الكلاب من السطوح وتجره، وقد أذته كثيرًا فى جميع ما يأتى به.

فخرج اليهودى وزوجته وهما حاملان الأحدب وأنزلاه بيديه ورجليه إلى الأرض وخلياه ملاصق الحائط ونزلا وانصرفا، وما كاد ينزل الأحدب إلا والشاهد جاء إلى البيت وفتحه فصعد ومعه شمعة موقدة فوجد ابن آدم واقفًا فى الزاوية تحت البادهنج، فقال له الشاهد: «واه، بحياتى طيب، إن الذى يسرق حوائجنا ما هو إلا ابن آدم». فالتفت إليه، وقال له: «هذا اللحم والدهن تأخذه أنت وأنا أحسب الذنب من القطط والكلاب؟ وأنا قتلت قطط الحارة وكلابها، ودخلت خطيتها وأنت تنزل من السطوح؟». ثم أخذ مطرقة عظيمة وهمز بها وصار عنده وضربه على صدره فوجده مات، فحزن وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم». وخاف على نفسه، وقال: «لعن الله الدهن والألية، وكيف فرغت منية هذا الرجل على يدى». ثم نظر إليه فإذا هو أحدب فقال: «ما يكفى أنك أحدب حتى تصير لصا وتسرق اللحم والدهن؟ يا ستار استرنى بسترك الجميل».

ثم حمله على أكتافه ونزل به من بيته آخر الليل وما زال به إلى أول السوق فأوقفه بجانب دكان فى رأس عطفة وتركه وراح. وإذا بنصرانى سمسار السلطان مار وكان سكرانًا، فخرج يريد الحمام فقال له سكره: «إن التسبيح قريب». فما زال يمشى ويتمايل حتى قرب من الأحدب وجلس يبول قباله وهو لا يراه. فلاحت منه التفاتة وإذا بواحد واقف، وكان النصرانى قد خطفوا عمامته فى أول تلك الليلة، فلما رأى الأحدب قائمًا اعتقد أنه يريد خطف عمامته، فطبق كفه ولكمه على رقبته فوقع على الأرض. وصرخ النصرانى على خفير السوق ونزل على الأحدب من شدة سكره وبقى يلكمه ويخنقه خنقًا. فجاء الخفير فوجد النصرانى باركًا على المسلم يلكمه. فقال له الخفير: «قم عنه». فقام. فتقدم إليه الخفير وجسّه فوجده ميتًا. فقال الخفير: «طيب نصرانى يقتل مسلمًا». ثم مسك الخفير النصرانى وكتفه وجاء به إلى بيت

الوالى. والنصرانى يقول فى نفسه: «يا مسيح، يا عذراء، كيف قتلت هذا وما أسرع ما مات من لكمة واحدة». فراحت السكرة وجاءت الفكرة.

ثم إن الأحدب والنصرانى باتا فى بيت الوالى إلى الصباح، وأصبح الوالى فأمر بشنق القاتل وأمر المشاعلى أن ينادى عليه، ونصب للنصرانى خشبة وأوقفه تحتها وجاء المشاعلى فرمى فى رقبة النصرانى الحبل، وأراد أن يعلقه، وإذا بالشاهد قد شق الناس فرأى النصرانى وهو رائح يشنق، فدفع الناس وقال للمشاعلى: «لا تفعل أنا الذى قتلته» فقال له الوالى: «لأى شىء قتلته؟» قال: «إنى ذهبت الليلة إلى بيتى فرأيته نزل من البادهنج وسرق رحلى، فضربته بمطرقة على صدره فمات. فحملته وجئت إلى السوق وأوقفته فى موضع كذا فى عطفة كذا فاستر على». ثم قال الشاهد: «ما كفانى أنى قتلت مسلمًا حتى أقتل نصرانيا فلا تشنق غيرى».

فلما سمع الوالى كلام الشاهد أطلق النصرانى السمسار وقال للمشاعلى «اشنق باعترافه». فأخذ الحبل من رقبة النصرانى ووضعه فى رقبة الشاهد وأوقفه تحت الخ وأراد أن يعلقه. وإذا باليهودى الطبيب قد شق القوم وصرخ على الناس وعلى المشاعلى وقال له: «لا تفعل. ما قتله إلا أنا. وهو أنى فى هذه الليلة كنت فى بيتى وإذا برجل وامرأة دقا الباب ومعهما هذا الأحدب ضعيف فدفعا للجارية ربع دينار فأعلمتنى وأعطتنى إياه. وأما الرجل والمرأة فادخلاه إلى البيت ووضعاه على السلم وذهبا».

فنزلت لأنظره وأنا فى الظلام فعثرت فيه فوقع من فوق السلم إلى أسفل فمات من وقته، فحملته أنا وزوجتى ثم صعدنا به إلى السطح ودار الشاهد هذا بجوار دارى، فأرخينا هذا الأحدب وهو ميت فى البادهنج متاع الشاهد، فلما طلع هذا الشاهد وجده فى بيته فاعتقد أنه لص، فضربه بمطرقة فوقع على الأرض، فاعتقد أنه قتله. فما كفانى أنى قتلت مسلمًا بغير علمى حتى آخذ فى ذمتى مسلمًا آخر بعملى؟».

فلما سمع الوالى كلام اليهودى قال للمشاعلى: «أطلق الشاهد واشنق اليهودى». فأخذه المشاعلى وحط الحبل فى رقبته. وإذا بالخياط شق الناس وقال للمشاعلى: «لا تفعل. ما قتله إلا أنا وذلك أنى كنت بالنهار أتفرج، وجئت العشاء فلقيت هذا الأحدب سكران ومعه دف وهو يغنى. فدعوته وجئت به إلى بيتى، واشتريت سمكًا وقعدنا نأكل. فأخذت زوجتى قطعة سمك ولقمة ودستها فى حنكه فازور بعضه فى حنكه فمات لوقته، فأخذته أنا وزوجتى وجئنا به لبيت اليهودى. فنزلت الجارية وفتحت لنا الباب، فقلت لها: قولى لسيدك إن بالباب امرأة ورجلاً ومعهما ضعيف تعال انظره. وأعطيتها ربع دينار. فذهبت إلى سيدها. وحملت أنا الأحدب إلى رأس السلم وأسندته، ومضيت أنا وزوجتى. فنزل اليهودى فعثر فيه فظن أنه قتله». ثم قال الخياط لليهودى: «صحيح؟». قال: «نعم».

والتفت الخياط إلى الوالى، وقال له: «أطلق اليهودى واشنقنى». فلما سمع الوالى كلامه تعجب من أمر هذا الأحدب. وقال: «إن هذا أمر يؤرخ فى الكتب». ثم قال للمشاعلى: «أطلق اليهودى واشنق الخياط باعترافه». فقدمه المشاعلى وقال: «تعبنا نقدم هذا ونؤخر هذا، ولا يشنق أحد». ثم وضع الحبل فى رقبة الخياط.

فهذا ما كان من أمر هؤلاء. وأما ما كان من أمر الأحدب، فقيل: إنه كان مسخرة للسلطان، وكان لا يقدر أن يفارقه. فلما سكر الأحدب، وغاب عنه تلك الليلة وثانى يوم إلى نصف النهار، سأل عنه بعض الحاضرين فقالوا له: «يا مولانا ذهب به الوالى وهو ميت وأمر بشنق قاتله، ولما نزل الوالى ليشنق القاتل حضر ثان وثالث وكل واحد يقول ما قتله إلا أنا، وكل واحد يذكر للوالى سبب قتله».

فلما سمع الملك هذا الكلام صرخ على الحاجب، وقال: «انزل إلى الوالى وائتنى بهم جميعًا». فنزل الحاجب فوجد المشاعلى موشكًا أن يشنق الخياط. فصرخ عليه الحاجب وقال: «لا تفعل». وأعلم الوالى بقصة الملك، فأخذه وأخذ الأحدب معه محمولاً والخياط واليهودى والنصرانى والشاهد وذهب بالجميع. فلما تمثل الوالى بين يديه قبل الأرض وحكى له ما جمع الجميع. وليس فى الإعادة إفادة. فلما سمع الملك الحكاية تعجب وأخذه الطرب. وأمر أن يؤرخ ذلك بماء الذهب. وقال للحاضرين: «هل سمعتم بأعجب من قصة هذا الأحدب؟».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية الشاب مقطوع اليد

قالت شهرزاد: فعند ذلك تقدم النصرانى، وقال: «يا ملك الزمان، إن أذنت لى حدثتك بشىء جرى لى، وهو أعجب وأغرب من قصة الأحدب». فقال الملك: «حدثنا بما عندك».

فقال: «يا ملك الزمان، إنى لما دخلت هذه الديار، أتيت بمتجر فأوقعنى المقدور عندكم، وأصل مولدى بمصر، وأنا من قبطها، وتربيت بها، وكان والدى سمسارًا، فلما بلغت مبلغ الرجال، توفى والدى فصرت سمسارًا مكانه.

فبينما أنا فى يوم من الأيام، وإذا بشاب حسن الوجه، وعليه أفخر ملبوس، وهو راكب حمارًا فلما رآنى سلم علىَّ. فقمت تعظيمًا له. فأخرج منديلاً، وفيه قدر سمسم وقال: «كم يساوى الإردب من هذا؟». فقلت له: «مائة درهم». فقال لى: «خذ التراصين والكيالين واعمد إلى باب النصر، إلى خان الجوالى تجدنى فيه».

وتركنى ومضى وأعطانى السمسم بمنديله الذى فيه العينة، فدرت على المشترين، فجاء كل أردب بمائة وعشرين درهمًا. فأخذت معى أربعة تراصين ومضيت إليه فوجدته فى انتظارى. فلما رآنى قام إلى المخزن وفتحه فكيلناه حتى فرغ المخزن، فجاء خمسين إردبا بخمسة آلاف درهم. فقال الشاب: «لك فى سمسرتك فى كل إردب عشرة واقبض الثمن وخل لى عندك أربعة آلاف وخمسمائة درهم. فإذا فرغت أنا من بيع حواصلى أجىء إليك آخذ المبلغ من عندك». فقلت له: «نعم». وقبلت يديه ومضيت من عنده. فحصل لى فى ذلك اليوم ألف وخمسمائة درهم.

فغاب عنى شهرًا، وجاء، وقال لى: «أين الدراهم؟». فقمت وسلمت عليه، وقلت له: «هل لك أن تأكل عندنا شيئًا؟». فأبى، وقال: «احضر لى الدراهم حتى أمضى وأجىء آخذها منك». ثم ولى. فقمت وأحضرت له الدراهم وقعدت أنتظره.

فغاب عنى شهرًا فقلت: «هذا الشاب كامل السماحة». ثم بعد الشهر جاء راكبًا على بغلة وعليه ثياب فاخرة. وله منظر مشرق كالبدر فى ليلة تمامه، ويظن ناظره أنه قد خرج من الحمام، بخد أحمر وجبين أزهر وشامة كقرص عنبر.

فلما رأيته قبلت يديه، وقمت ودعوت له، وقلت: «يا سيدى، ما تقبض دراهمك؟». فقال: «ولماذا العجلة لما أفرغ من مصالحى آخذها منك». وولى. فقلت: «والله إذا جاء هذه المرة لا بد أن أنعم عليه لكونى اتجرت فى دراهمه وحصلت منه كثيرًا».

فلما كان آخر السنة جاء وعليه حلة أفخر من الأولى. فحلفت عليه أن ينزل عندى ويأكل ضيافتى فقال: بشرط أن ما تنفقه على من مالى الذى عندك». قلت: «نعم». وأجلسته ونزلت هيأت ما ينبغى من الأطعمة والأشربة وغير ذلك وجئت بين يديه، وقلت: «باسم الله». فتقدم للمائدة ومد يده الشمال وأكل معى. فتعجبت منه.

فلما فرغنا غسلت يده وناولته ما يمسحها به، وجلسنا للحديث بعد ما قدمت له شيئًا من الحلوى فقلت: «يا سيدى فرج عنى كربة. لِمَ أكلت بيدك الشمال؟ لعل بيدك شيئًا يؤلمك؟» فلما سمع كلامى أنشد يقول:

خليلى لا تسأل على ما بمهجتى ... من اللوعة الحرى فتظهر أسقامُ
وما عن رضا فارقت سلمى معوضًا ... بديلاً ولكن للضرورة أحكامُ

وأخرج يده من كمه، وإذا هى مقطوعة الزند بلا كف، فتعجبت من ذلك، فقال لى: «لا تعجب لا ظاهرًا ولا باطنًا؛ لأنى أكلت معك بيدى الشمال. ولكن لقطع اليمين سبب من العجب». فقلت له: «وما سبب ذلك؟» فقال: «اعلم أنى من أولاد بغداد، ووالدى من أكابرها فلما بلغت مبلغ الرجال سمعت السياح والمسافرين يتحدثون عن الديار المصرية، فبقى ذلك فى خاطرى حتى مات والدى. فأخذت أموالاً كثيرة وعبيت متجرًا من قماش بغدادى وموصلى وسافرت من بغداد. وكتب الله لى السلامة حتى دخلت مدينتكم هذه». ثم بكى وأنشد يقول:

قد يسلم المطمس من حفرة ... يسقط فيها الباصرُ الناظرُ
ويسلم الجاهل من لفظة ... يهلك فيها العالمُ الماهرُ
ويعسر المؤمن فى رزقه ... ويرزق الكافرُ والفاجرُ
ما حيلة المرء وما فعله ... هذا الذى قدره القادرُ

فلما فرغ من شعره، قال: «فدخلت مصر، وأنزلت القماش فى خان مسرور، وفككت احمالى وأدخلتها، وأعطيت الخادم دراهم يشترى لنا شيئًا نأكله، ونمت قليلاً. فلما قمت ذهبت إلى بين القصرين ورجعت فبت ليلتى.

فلما أصبحت فتحت قطعة من القماش، وقلت فى نفسى: «أقوم أشق بعض الأسواق وأنظر الحال». وأخذت القماش وحملته بعض غلمانى وصرت حتى وصلت قيصرية جرجس. فاستقبلنى السماسرة وكانوا علموا بمجيئى فأخذوا منى القماش، ونادوا عليه. فلم يجىء برأس ماله، فاغتممت لذلك، فقال لى شيخ الدلالين: «يا سيدى، أعرف لك شيئًا تستفيد منه. تعمل ما يعمل التجار وتبيع متجرك إلى أشهر معلومة بكتاب وشاهد وصيرفى، وتأخذ مالك

كل يوم خميس واثنين، فتكسب الدراهم كل درهم اثنين. وزيادة على ذلك تتفرج على مصر ونيلها». فقلت: «هذا رأى سديد».

فأخذت معى الدلالين وذهبت إلى الخان، فأخذوا القماش إلى القيصرية وبعته، وكتبت عليهم وثيقة ودفعتها للصيرفى، وأخذت وثيقة عليه، ورجعت إلى الخان وأقمت أيامًا كل يوم أفطر على قدح شراب وأحضر اللحم الضانى والحلويات.

ودخل الشهر الذى استحقت فيه الجباية، فبقيت كل يوم خميس واثنين أدخل القيصرية وأقعد على دكاكين التجار، ويمضى الصيرفى والكاتب يحضرون الدراهم من التجار إلى ما بعد العصر، فأحسبها وأختمها وآخذها وأنصرف إلى الخان.

ففى يوم من الأيام، وكان يوم الاثنين دخلت الحمام وخرجت إلى الخان، ودخلت موضعى، وفطرت على قدح من الشراب، ونمت. وانتبهت فأكلت دجاجة وتعطرت وذهبت لدكان تاجر يقال له: بدر الدين البستانى. فلما رآنى رحب بى وتحدث معى ساعة حتى قامت السوق، وإذا بامرأة وهى تتبختر فى مشيها، جاءت بعصبة مائلة وروائح فائحة. وسلمت على بدر الدين فرد عليها السلام، ووقف وتحدث معها. فقالت لبدر الدين: «هل عندك تفصيلة من القماش المنسوج من خالص الذهب؟». فأخرج لها تفصيلة من التفاصيل التى اشتراها منى فبايعته عليها بألف ومائتى درهم. ثم قالت للتاجر: «آخذ التفصيلة وأذهب ثم أرسل لك ثمنها». فقال لها التاجر: «لا يمكن يا سيدتى؛ لأن هذا صاحب القماش وله على قسط». فقالت: «ويلك، إنى معودة آخذ منك كل قطعة قماش بجملة من الدراهم وأفيدك فيها فوق ما تريد وأرسل لك ثمنها». فقال: «نعم، ولكنى مضطر إلى الثمن فى هذا اليوم». فأخذت التفصيلة ورمت بها فى صدره، وقالت: «طائفتكم لا تعرف لأحد قيمة». وقامت مولية.

فقمت وأوقفتها، وقلت لها: «يا سيدتى، تصدقى علىّ وارجعى بخطواتك الكريمة إلى». فرجعت وتبسمت وقالت: «لأجلك رجعت». وقعدت قبالتى على الدكان. فقلت لبدر الدين: «هذه التفصيلة كم شراؤها عليك؟». قال: «ألف ومائة درهم». فقلت له: «ولك مائة درهم فائدة فهات ورقة لأكتب لك فيها ثمنها».

فأخذت التفصيلة منه وكتبت له ورقة بخطى، وأعطيتها التفصيلة وقلت لها: «خذيها وروحى وإن شئت هاتى ثمنها بالسوق الآتى، وإن شئت هى ضيافتك منى». فقالت: «جزاك الله خيرًا، ورزقك مالى وجعلك بعلى». فقبل الله دعاءها. ثم قلت لها: «يا سيدتى، اجعلى هذه التفصيلة لك. ولك أيضًا مثلها». فأخذت التفصيلة وقالت: «يا سيدى، لا توحشنى فأنت ضيفنا هذه الليلة». ثم ولت.

وقعدت أنا فى القيصرية إلى بعد العصر. وسألت التاجر عنها، فقال: «هذه صاحبة مال، وهى بنت أمير، مات والدها، وخلف مالاً كثيرًا، وتسكن فى قاعة النقيب». فودعته وانصرفت. وجئت إلى الخان، وركبت حمارًا، وقلت لصاحبه: «امض بى إلى الجبانية». فمضى فى لحظة فما أسرع ماوقف على درب يقال له: درب المنقرى. فقلت له: «أدخل الدرب واسأل عن قاعة النقيب». فغاب قليلاً. وقال: «انزل». فقلت له: «امش قدامى إلى القاعة». ثم ناولته ربع دينار ذهب فأخذه وانصرف.

فطرقت الباب فخرج لى خادم وأدخلنى. فدخلت إلى قاعة معلقة بسبعة أبواب، ودائرها شبابيك مطلة على بستان فيه من الفواكه ألوان، وبه أنهار دافقة، وطيور ناطقة، وهى مبيضة ببياض سلطانى، يرى الإنسان وجهه فيها، وسقفها مطلى بذهب، وفى دائرها طرازات مكتوبة باللازورد قد حوت أوصافًا حسنة وأضاءت للناظرين، وأرضها مفروشة بالرخام وفى وسطها فسقية وفى أركان تلك الفسقية طيور وأربع حيات مسبوكة بالذهب، تلقى الماء من أفواهها كأنها الدر والجواهر، والقاعة مفروشة بالبسط والحرير الملون والمراتب، فلما دخلت جلست على أحد البسط».

ثم إن الشاب التاجر قال للنصرانى: «ومن بعد أن جلست لم أشعر إلا والصبية قد أقبلت وعليها تاج مكلل بالدر والجوهر، فلما رأتنى تبسمت فى وجهى، وقالت: «أهلاً ومرحبًا». ثم جلسنا. فلم تلبث أن قدمت لى سفرة من أفخر ألوان الأطعمة من سكباجة وقربوس مقلى منزل فى عسل نحل ودجاج محشى. فأكلنا واكتفينا. فقدموا لى الطست والإبريق فغسلت يدى ثم تطيبنا بماء الورد المسك. ثم جلسنا نتحدث. فأنشدت:

لو علمنا قدومكم لنشرنا ... مهجة القلب مع سواد العيون
وفرشنا خدودنا للقاكم ... ليكون المسير فوق الجفون

ولما أقبل العشاء قامت الجوارى، وقدّمن الطعام والمدام فأكلنا وشربنا، ثم أرسلت إلى الشهود فحضروا فقالت لهم: «اكتبوا كتابى على هذا الشاب». وأشهدتهم على المهر، وكان المهر أن أعطيها كل يوم خمسين دينارًا. فكتبوا كتابى عليها وانصرفوا بعد ما أخذوا الأجرة. ثم إنى بقيت معها فى أطيب عيش. وكل يوم كنت أعطيها منديلاً فيه خمسون دينارًا. ولم أزل على تلك الحالة مدة إلى أن بت وأصبحت لا أملك درهمًا ولا دينارًا. فقلت فى نفسى: «كل هذا غرور». وأنشدت أقول:

فقر الفتى يذهب أنواره ... كما اصفرار الشمس عند المغيب
إن غاب لا يُذكر بين الورى ... وإن أتى فما له من نصيب
يمر فى الأسواق مستخفيًا ... وفى الفلا يبكى بدمع صبيب
والله ما الإنسان فى أهله ... إذا ابتلى بالفقر إلا غريب

فخرجت وما زلت أمشى فوجدت الخلق فى ازدحام والطريق مسدودة من كثرة الخلق، فرأيت بالأمر المقدر جنديا فزاحمته بغير اختيارى، فجاءت يدى على جيبه فشعرت بصرة من داخل الجيب الذى يدى عليه، فأخذتها من جيبه، فحس الجندى بأن جيبه خف فحط يده فى جيبه فلم يجد شيئًا والتفت نحوى ورفع يده بالدبوس وضربنى على رأسى، فسقطت إلى الأرض فأحاط بنا الناس ومسكوا لجام فرس الجندى، وقالوا: «لأجل الزحمة تضرب هذا الشاب هذه الضربة؟» فصرخ عليهم الجندى وقال: «هذا لص ملعون». فعند ذلك استفقت ورأيت الناس يقولون: «هذا شاب مليح لم يأخذ شيئًا». فبعضهم يصدق وبعضهم يكذب وكثر القال والقيل.

وجذبنى الناس وأرادوا خلاصى منه. فبالأمر المقدر جاء الوالى والمقدم والظلمة ودخلوا

من الباب. فوجدوا الخلق مجتمعين عليَّ وعلى الجندى. فقال الوالى: «ما الخبر؟». فقال الجندى: «والله يا خوند هذا لص. وكان فى جيبى كيس أزرق فيه عشرون دينارًا فأخذه وأنا فى الزحام». فقال الوالى للجندى: «هل كان معك أحد؟». فقال الجندى: «لا». فصرخ الوالى على المقدم فمسكنى وقد زال الستر عنى. فقال له الوالى: «عره». فلما عرونى وجدوا الكيس فى ثيابى. فلما وجدوا الكيس أخذه الوالى وفتحه وعده، فرأى فيه عشرين دينارًا كما قال الجندى. فغضب الوالى وصاح على المقدمين. فقدمونى بين يديه، فقال لى: «يا صبى، قل الحق هل أنت سرقت هذا الكيس؟». فأطرقت برأسى إلى الأرض، وقلت: «إن قلت ما سرقته فقد وجد معى، وإن قلت سرقته وقعت فى العناء» فرفعت رأسى وقلت: «نعم أخذته». فلما سمع منى الوالى هذا الكلام تعجب. وذعا بالشهود فحضروا وشهدوا على منطقى هذا كله فى باب زويلة، فأمر الوالى المشاعلى فقطع يدى اليمنى. فرق قلب الجندى فشفع بى. وتركنى الوالى ومضى. وبقيت الناس حول وسقونى قدح شراب. وأما الجندى فإنه أعطانى الكيس، وقال: «أنت شاب مليح ولا ينبغى أن تكون لصا». ثم إنى أنشدت:

والله مـا كنت لصـا يا أخـا ثقـة ... ولا أنا سـارق يا أحسن الناس

لكن رمتنى صروف الدهر عن عجل ... فزاد همـى ووسواسى وإفلاسى

ومـا رميت ولكنَّ الإله رمـى ... سهمًا فطير تاج الملك عن راسى

فتركنى الجندى وانصرف بعد أن أعطانى الكيس، وانصرفت أنا ولففت يدى فى خرقة وأدخلتها عبى، وقد تغيرت حالتى واصفر لونى مما جرى على.

فتمشيت إلى القاعة وأنا على غير استواء ورميت روحى على الفراش، فنظرتنى امرأتى متغير اللون فقالت لى: «ما وجعك وما لى أرى حالتك تغيرت؟». فقلت لها: «رأسى يوجعنى وما أنا طيب». فعند ذلك اغتاظت وتشوشت لأجلى وقالت: «لا تحرق قلبى يا سيدى. اقعد وارفع رأسك وحدثنى بما قد تم لك اليوم، فقد بان لى فى وجهك كلام». فقلت: «دعينى من الكلام». فبكت وقالت: «إنى أراك بخلاف العادة». فبكت وصارت تحدثنى وأنا لا أجيبها حتى أقبل الليل فقدمت لى الطعام فامتنعت منه وخشيت أن ترانى آكل بيدى الشمال، فقلت: «لا أشتهى أن آكل هذه الساعة». فقالت: «حدثنى بما تم لك اليوم وما لك مهمومًا ومكسور الخاطر والقلب». فقلت: «الساعة أحدثك على مهلى». فقدمت لى الشراب، وقالت: «دونك فإنه يزيل همك فلا بد أن تشرب وتحدثنى بخبرك». فقلت لها: «لا بد أن أحدثك؟». قالت: «نعم». فقلت: «إن كان لا بد فاسقينى بيدك». فملأت القدح وشربته وملأته وناولتنى إياه فتناولته منها بيدى الشمال. وفرت الدموع من جفنى فأنشدت أقول:

إذا أراد الله أمـرًا لامـرئ ... وكـان ذا عـقل وسـمع وبصـر

أصم أذنيـه وأعـمى قلبـه ... وسلَّ منه عـقله سلَّ الشعـر

حتى إذا أنفـذ فـيه حكمـه ... رد إليـه عـقله ليعـتـبر

فلما فرغت من شعرى تناولت القدح بيدى الشمال وبكيت، وصرخت هى صرخة قوية، وقالت: «ما سبب بكائك؟ أحرقت قلبى، وما لك تناولت القدح بيدك الشمال؟». فقلت لها: «إن

فى يدى بثرة». فقالت: «أخرجها أفقأها لك». فقلت: «ما هو وقت فقئها فلا تطيلى علىّ، فما أخرج يدى فى هذه الساعة». ثم شربت القدح.

ولكنها لم تزل تسقينى حتى غلب علىّ السكر فنمت مكانى فأبصرت يدى بلا كف ففتشتنى فرأت معى كيس الذهب. فدخل عليها من الحزن ما لا يدخل على أحد وما زالت تتألم وتبكى بسببى إلى الصباح.

فلما أفقت من النوم وجدتها هيأت لى مسلوقة وقدمتها، فإذا هى أربعة أطيار دجاج وسقتنى قدح شراب فأكلت وشربت وحطت الكيس وأردت الخروج. فقالت لى: «إلى أين أنت رائح؟». فقلت «إلى مكان أذهب إليه». فقالت: «لا ترح اجلس». فجلست. فقالت: «أو بلغت محبتك أن صرفت معى مالك وعدمت كفك؟ أشهدك على والشاهد الله أنى لا أفارقك وسترى صحة قولى».

ثم أخذتنى من يدى وأوقفتنى على خزانة وفتحت صندوقًا كبيرًا، وقالت لى: انظر إلى الذى فى الصندوق». فنظرت فإذا هو ملآن مناديل، فقالت: «هذا مالك الذى أخذته منك. فكلما أعطيتنى منديلاً فيه خمسون دينارًا ألفّه وأرميه فى هذا الصندوق، فخذ مالك فقد رجع إليك وأنت اليوم معذور، فقد جرى عليك القضاء بسببى حتى عدمت يمينك. وأنا لا أقدر أكافئك. ولو بذلت روحى لكان قليلاً ولك الفضل». ثم قالت لى: «تسلم مالك». فنقلت صندوقها إلى صندوقى وجعلت مالى إلى مالها الذى كنت أعطيتها. وفرح قلبى وزال همى فقمت وشكرت لها، فقالت: «لقد بذلت يدك فى محبتى فكيف أقدر على مكافاتك. إنى لو بذلت روحى فى محبتك لكان قليلاً وما أقوم بواجب حقك علىّ».

ثم إنها كتبت لى جميع ما تملك من ثياب بدنها وصيغتها وأسبابها بحجة. وما نامت تلك الليلة إلا مهمومة من همى حتى حكيت لها جميع ما وقع لى. وأقمنا أقل من شهر وقوى بها الضعف وزاد بها المرض. وما مكثت خمسين يومًا إلا وهى من أهل الآخرة. فجهزتها وواريتها التراب وعملت لها ختمات وتصدقت عليها بجملة من المال. ونزلت من التربة فرأيت لها مالاً جزيلاً وأملاكًا وعقارات. ومن جملة تلك المخازن مخزن السمسم الذى بعت لك منه. وما كان اشتغالى عنك هذه المدة إلا لأنى بعت بقية الحواصل وجميع ما فى المخازن، وإلى الآن لم أفرغ من قبض الثمن فلا تخالفنى فيما أقوله لك لأنى أكلت زادك، وقد وهبتك ثمن السمسم الذى عندك فهذا سبب قطع يمينى وأكلى بالشمال».

فقلت له: «لقد أحسنت وتفضلت». فقال لى: «هل لك أن تسافر معى إلى بلادى فإنى اشتريت متجرًا مصريا وإسكندرانيا. فهل لك أن تصاحبنى؟». فقلت: «نعم». ووعدته على رأس الشهر، ثم بعت جمع ما أملك واشتريت به متجرًا آخر. وسافرت أنا والشاب إلى هذه البلاد التى هى بلادكم. فباع الشاب متجره واشترى عوضه من بلادكم ومضى إلى الديار المصرية. فكان قسمى أنا فى قعودى هذه الليلة أنه حصل ما حصل فى غربتى، فهذا يا ملك الزمان ما هو أعجب من حديث الأحدب». فقال الملك: «لا بد من شنقكم كلكم».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية الشاب الذى أكل الزيرباجة

قالت شهرزاد: فعند ذلك تقدم الشاهد إلى ملك الصين، وقال له: «إن أذنت لى حكيت لك حكاية اتفقت لى فى الليلة البارحة، قبل أن أجد هذا الأحدب، فإن كانت أعجب من حديثه أتهب أرواحنا؟». فقال الملك: «نعم». فقال: اعلم أنى كنت فى الليلة الماضية عند جماعة عملوا ختمة وجمعوا الفقهاء. فلما قرأ القراء وفرغوا مدوا السماط. فمن جملة ما قدموا زيرباجة. فتقدمنا نأكل من الزيرباجة، فتأخر واحد منا وامتنع من الأكل منها. فحلفنا عليه فأقسم هو أن لا يأكل منها. فألزمناه وشددنا عليه، فقال: «لا تغصبونى فكفانى ما جرى لى من أكلها». ثم أنشد يقول:

خذ ميلك فوق كفك وارتحل إن يرقك الكحل منه فاكتحل

فلما فرغ قلنا له: «بالله عليك ما سبب امتناعك من الأكل من الزيرباجة؟». فقال: «إن كان ولا بد أن آكل من هذه الزيرباجة، فلا آكل منها إلا أن أغسل يدى أربعين مرة بالصابون وأربعين مرة بالأشنان، وأربعين مرة بالسعد. جملتها مائة وعشرون مرة». فعند ذلك أمر صاحب الدعوة غلمانه فأتوا بالماء وبالذى طلبه فغسل يديه كما ذكرنا. وجاء الشاب، وهو متكره، وجلس ومد يده، وهو مثل الخائف، وغمس يده فى الزيرباجة، وصار يأكل وهو متغصب. ونحن نتعجب منه غاية العجب، ويده ترتعد، فنصب إبهام يده، فإذا هو مقطوع، وهو يأكل بأربعة أصابع، فقلنا له: «بالله عليك، ما لإبهامك هكذا؟ أهى خلقة الله، أم أصابها حادث؟». فقال: «يا إخوانى، وما هذه الإبهام وحدها، ولكن إبهامى الأخرى ورجلاى الاثنتان». ثم كشف إبهام يده الأخرى فوجدناها مثل اليمين. وكذلك رجلاه بلا إبهامين، فلما رأيناه كذلك ازددنا عجبًا، وقلنا له: «ما بقى لنا صبر على حديثك وسبب قطع إبهامك وسبب غسل يديك مائة وعشرين مرة، فأخبرنا به».

فقال: «اعلموا أن والدى كان تاجرًا من التجار الكبار وكان أكبر تجار مدينة بغداد على أيام الخليفة هارون الرشيد، وكان مولعًا بشرب الخمر وسماع العود وآلات الملاهى. فلما مات لم يترك شيئًا فهيأته وقد عملت له ختمات وحزنت عليه أيامًا وليالى. ثم فتحت دكانه فما وجدته خلف إلا يسيرًا، ووجدت عليه ديونًا فصبرت أصحاب الديون وطيبت خاطرهم، وصرت أبيع وأشترى من الجمعة إلى الجمعة وأعطى أصحاب الديون، وما زلت على هذه الحالة مدة إلى أن وفيت الديون وزدت على رأس مالى». فبينما أنا يوم من الأيام جالس إذا بصبية لم تر عينى أحسن منها عليها حلى وحلل وهى راكبة بغلة وقدامها عبد ووراءها عبد. فأوقفت البغلة على رأس القيصرية ودخلت، ودخل خادم خلفها، وقال: «يا سيدتى اخرجى». فخرجت ونظرت إلى دكاكين التجار فلم تجد أحدًا فتح دكانه غيرى. فتمشت والخادم خلفها وجلست على دكانى وسلمت علىَّ. فما سمعت أحسن من حديثها ولا أعذب من كلامها. ثم قالت: «يا فتى، أعندك تفاصيل ملاح؟». فقلت: «يا سيدتى، مملوكك فقيَر، ولكن اصبرى حتى يفتح التجار دكاكينهم وأجىء لك بما تريدينه».

ثم تحدثت أنا وإياها حتى فتح التجار دكاكينهم. فقمت وأخذت لها جميع ما طلبته،

وكان ثمن ذلك خمسة آلاف درهم وناولتها للخادم. فأخذها الخادم، وخرجوا إلى خارج القيصرية فقدموا لها البغلة فركبت ولم تذكر لى من أين هى. واستحييت أن أذكر لها ذلك ولزمنى التجار بالثمن واستلمت الغرامة بخمسة آلاف درهم.

ولم أزل على هذه الحالة جمعة فطالبنى التجار بأموالهم فصبرتهم جمعة أخرى. فبعد الجمعة لم أشعر إلا وهى أقبلت راكبة البغلة ومعها خادم وعبدان فسلمت علىَّ وقالت: «يا سيدى، أبطأنا عليك بثمن القماش. فهات الصيرفى واقبض الثمن». فجاء الصيرفى وأخرج له الطواشى الثمن فقبضته وصرت أتحدث أنا وإياها إلى أن فتحت السوق. فقالت: «خذ لى كذا وكذا». فأخذت لها من التجار ما أرادت وأخذته ومضت ولم تخاطبنى فى ثمنه. فلما مضت ندمت على ذلك وكنت أخذت الذى طلبته بألف دينار. فلما غابت عن عينى قلت فى نفسى: «أى شىء فى هذه المحبة أعطتنى خمسة آلاف درهم وأخذت شيئًا بألف دينار». فحسست بالفقر من مال التجار، وقلت: «إن التجار لم يعرفوا إلا أنا، فما كانت هذه المرأة إلا محتالة خدعتنى بحسنها وجمالها ورأتنى صغيرًا فضحكت علىَّ، ولم أسألها عن منزلها». ولم أزل فى وسواس وطالت غيبتها أكثر من شهر. فطالبنى التجار وشددوا علىَّ. فقدمت عقارى للبيع وأشرفت على الهلاك. ثم قعدت وأنا مفتكر فلم أشعر إلا وهى نازلة على باب السوق ودخلت على. فلما رأيتها زالت الفكرة ونسيت ما كنت فيه. وأقبلت تحدثنى بحديثها الحسن، ثم قالت: «هات الصيرفى وزن مالك». فأعطتنى ثمن ما أخذته بزيادة. ثم انبسطت معى فى الكلام حتى قالت لى: «مالك تبكى؟». فقلت: «خير إن شاء الله». ثم قامت ومضت وقمت سلمت التجار أموالهم وحصل لهم الربح. إلا أنا حصل لى الندم من انقطاع خبرها عنى. فما كانت إلا أيام قلائل وجاءنى خادمها فأكرمته وسألته عنها، فقال: «إنها مريضة». فقلت للخادم: «اشرح لى أمرها». قال: «هذه الصبية ربتها السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد، وهى من جواريها وقد اشتهت على سيدتها الخروج والدخول. فوصلت حتى صارت قهرمانة. ثم إنها حدثت السيدة بك وسألتها أن تزوجها بك. فقالت السيدة: لا أفعل حتى أنظر هذا الشاب فإن كان يشبهك زوجتك به. ونحن نريد الساعة أن ندخل بك الدار. فإن دخلت الدار وصلت إلى تزويجك بها. وإن كشف أمرك ضربت رقبتك. فماذا تقول؟». قلت له: «أروح معك وأصبر على الأمر الذى حدثتنى به». فقال له الخادم: «إذا كانت هذه الليلة فامض إلى المسجد الذى بنته السيدة زبيدة على دجلة. فصل فيه وبت هناك». فقلت: «حبا وكرامة».

فلما كان العشاء مضيت إلى المسجد وصليت فيه وبت هناك. فلما كان وقت السحر إذا بخادمين أقبلا فى زورق ومعهما صناديق فارغة فأدخلاها المسجد وانصرفا. وتأخر واحد منهما، فتأملته، فإذا هو الذى كان مع الصبية فأخذنى ووضعنى فى صندوق وعبى جميع الصناديق أمتعة. ثم وضعها فى الزورق وأخذوا يسيرون إلى منزل السيدة زبيدة. فلحقنى الفكر وقلت فى نفسى: «لقد هلكت». وجعلت أبكى وأنا فى الصندوق وأدعو الله أن يخلصنى مما أنا فيه. ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا بالصناديق على باب الخليفة. وحملوا الصندوق الذى أنا فيه من جملتها فاجتازوا طائفة من الخدام الموكلين بالحريم وأصحاب الستائر إلى أن أتوا إلى خادم كبير. فانتبه من النوم وصاح، وقال: «أى شىء فى هذه الصناديق؟». وقام قائمًا.

فأول ما بدأ بفتح الصندوق الذى أنا فيه. فعند ذلك زال عقلى وارتعدت فرائصى. فقال الخادم للمقدم: «يا مقدم، أهلكتنى وأهلكت نفسك، وأفسدت شيئًا يساوى عشرة آلاف دينار. فإن فى هذا الصندوق ثيابًا ملونات وأربعة أمنان من ماء ورد. وهذه الساعة انفكت وجرت على الثياب التى فى الصندوق والساعة تنفسخ ألوانها». فقال الطواشى: «خذ صناديقك واذهب إلى لعنة الله». فحمل الخادم صندوقى وأسرعوا وتلاحقت الصناديق بصندوقى.

فبينما هم ذاهبون إذ جاء فى إذنى قائل يقول: «ويلاه، ويلاه، الخليفة الخليفة». فلما سمعت ذلك مت فى جلدى وقلت كلمة لا يخذل قائلها: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، هذه مصيبة عملتها بنفسى». فسمعت الخليفة يقول للخادم صاحبى: «أى شىء فى صناديقك هذه؟». فقال: «فى صناديقى ثياب للسيدة زبيدة». فقال: «افتح لى إياها». فلما سمعت ذلك مت الميتة الكاملة وقلت فى نفسى: «إن هذا اليوم آخر أيامى من الدنيا وإن سلمت من هذه فأنا أتزوج بها ولا كلام، وإن انكشف أمرى ضُربت رقبتى».

ثم إنى سمعت الخادم يقول للخليفلة: «هذه الصناديق فيها وداعة وشىء من الثياب للسيدة زبيدة وتريد أن لا يطلع عليها أحد». فقال الخليفة: «لا بد من فتحها لأنظر ما فيها». ثم صرخ على الخدام وقال: «قدموا الصناديق عندى». فأيقنت بالهلاك وغبت عن الدنيا. فجعل الخدام يقدمون واحدًا بعد واحد وهو يرى فيها العطر والقماش والثياب الفاخرة. وما زالوا يفتحون الصناديق، وهو يرى ما فيها من الأثواب وغيرها، حتى لم يبق إلا الصندوق الذى أنا فيه. ومدوا أيديهم ليفتحوه فأسرع الخادم وأتى إلى الخليفة، وقال: «هذا الذى تراه قدامك فهو قدام السيدة زبيدة، وهو الذى فيه سرها». فلما سمع كلامه أمر بإدخال الصناديق، فأتى الخدام وحملونى بالصندوق الذى أنا فيه ووضعونى فى وسط القاعة بين الصناديق. وكان نشف ريقى فأخرجنى الخادم وقال: «ما عليك بأس ولا خوف. فاشرح صدرك وطيب قلبك. واجلس حتى تأتى السيدة زبيدة، لعله يكون لك نصيب». فجلست ساعة. وإذا بعشر جوار أبكار كأنهن الأقمار قد أقبلن واصطففن خمسة مقابلات لخمسة. وإذا بعشرين جارية أخرى وهن أبكار وبينهن السيدة زبيدة، وهى لا تقدر أن تمشى مما عليها من الحلىَ والحلل، فلما أقبلت تفرقت الجوارى من حواليها، فأتيت أنا إليها وقبلت الأرض بين يديها فأشارت إلى بالجلوس. فجلست بين يديها. ثم شرعت تسألنى وتسأل عن نسبى. فأجبتها عما سألتنى عنه. ففرحت وقالت: «ما خابت تربيتنا فيك أيتها الجارية». ثم قالت: «اعلم أن هذه الجارية عندنا بمنزلة الولد. وهى وديعة الله عندك». فقبلت الأرض قدامها ورضيت بزواجى إياها. ثم أمرتنى بأن أقيم عندها عشرة أيام، فأقمت هذه المدة وأنا لا أرى وجه الجارية. إلا أن بعض الوصائف كانت تأتينى بالغداء والعشاء.

وبعد هذه المدة شاورت السيدة زبيدة الخليفة فى زواج جاريتها. فأذن لها وأمر لها بعشرة آلاف دينار، فأرسلت السيدة زبيدة إلى الشهود والقاضى وكتبوا كتابى عليها. وبعد ذلك عملوا الحلويات والأطعمة الفاخرة وفرقوا على سائر البيوت، ومكثوا على هذا الحال عشرة أيام أخر. وبعد العشرين يومًا أدخلوا الجارية الحمام.

ثم إنهم قدموا خونجة فيها طعام، ومن جملته خافقية فيها زيرباجة محشوة بالسكر

وعليها ماء الورد الممسك، وفيها صدور الدجاج المحمرة وبقية الألوان مما يدهش العقول. فوالله ما أمهلت دون أن بركت على الزيرباجة وأكلت منها بحسب الكفاية ومسحت يدىَّ ونسيت أن أغسلهما ولبثت جالسًا إلى أن دخل الظلام وأوقدت الشموع وأقبلت المغنيات بالدفوف. ولم يزلن يجلون العروس وينقطن بالذهب حتى طافت القصر كله. وبعد ذلك أقبلن بها وخففن ما عليها من الملابس. فلما انصرف الناس شمت فى يدى رائحة الزيرباجة فلما شمت الرائحة صرخت صرخة عظيمة فنزلت لها الجوارى من كل جانب، فارتجفت ولم أعلم ما الخبر. فقالت الجوارى: «ما لك يا أختنا؟». فقالت لهن: «أخرجن هذا المجنون عنى فأنا أحسب أنه عاقل». قلت لها: «وما الذى ظهر لك من جنونى؟». فقالت: «يا مجنون لأى شىء أكلت من الزيرباجة ولم تغسل يدك؟ فوالله لأجازينك على فعلك. أمثلك يعيش مع مثلى». ثم تناولت من جانبها سوطًا مضفورًا ونزلت به على ظهرى حتى غبت أنا عن الدنيا من كثرة الضرب. ثم قالت للجوارى: «خذوه وامضوا به إلى متولى المدينة يقطع يده التى أكل بها الزيرباجة ولم يغسلها». فقلت: «لا حول ولا قوة إلا بالله. تقطع يدى من أجل أكل الزيرباجة؛ لأنى لم أغسلها». فقالت لها الجوارى: «يا أختنا، لا تؤاخذيه بفعله هذه المرة». فقالت: «لا بد أن اقطع شيئًا من أطرافه».

ثم راحت وغابت عشرة أيام ولم أرها، وبعد العشرة أيام أقبلت على وقالت لى: «يا أسود الوجه، أنا لا أصلح لك، كيف تأكل الزيرباجة ولا تغسل يدك؟». ثم صرخت على الجوارى فكتفننى، وأخذت موسى ماضية وقطعت إبهام رجلى ويدى كما ترون يا جماعة فغشى على. ثم ذرت عليها الذرور فانقطع الدم وجعلت أقول: «ما بقيت آكل الزيرباجة حتى أغسل يدى أربعين مرة بالأشنان وأربعين مرة بالسعد وأربعين مرة بالصابون». فأخذت على ميثاقًا أنى لا آكل الزيرباجة حتى أغسل يدى كما ذكرت لكم. فلما جئتم بهذه الزيرباجة تغير لونى وقلت فى نفسى: «هذه سبب قطع إبهامى». فلما ألححتم على قلت: «لا بد أن أوفى بما حلفت». قال الحاضرون: «فما الذى حصل لك بعد ذلك؟». قال: «فلما حلفت لها طاب قلبها». وقعدنا مدة ثم قالت: «إن دار الخلافة لا يحسن مقامنا فيها وما دخل فيها غيرك. وما دخلت فيها إلا بعناية السيدة زبيدة». ثم أعطتنى خمسين ألف دينار وقالت لى: «خذ هذه الدراهم واخرج واشتر لنا دارًا فسيحة». فخرجت واشتريت دارًا مليحة فسيحة ونقلت جميع ما عندها فى الدار من النعم وما ادخرته من الأموال والقماش والتحف، فهذا سبب قطع إبهامى. فأكلنا وانصرفنا وبعد ذلك جرى مع الأحدب ما جرى. وهذا سبب حديثى والسلام. فقال الملك: «ما هذا بأعذب من حديث الأحدب، بل حديث الأحدب أعذب من ذلك، ولا بد من شنقكم أنتم الجميع».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية الشاب الموصلى

قالت شهرزاد: ثم إن اليهودى تقدم، وقبل الأرض، وقال: «يا ملك الزمان، أنا أحدثك بحديث أعجب من حديث الأحدب». فقال ملك الصين: «هات ما عندك». فقال: «أعجب ما جرى لى فى مدة شبابى، أنى كنت فى دمشق الشام، وتعلمت فيها الطب. فبينما أنا جالس فى أحد الأيام، إذ أتانى مملوك من بيت الصاحب بدمشق، وقال: «كلم سيدى».

فخرجت له وتوجهت معه إلى منزل الصاحب، فدخلت فرأيت فى صدر الإيوان سريرًا من المرمر مصفحًا بصفائح الذهب، عليه آدمى مريض، راقد، وهو شاب لم ير أحسن منه فى الشباب، فقعدت عند رأسه ودعوت له بالشفاء فأشار إلى بعينه. فقلت له: «يا سيدى، ناولنى يدك بسلامتك». فأخرج يده اليسرى. فتعجبت وقلت: «يا للعجب هذا شاب مليح، ومن بيت كبير وناقص أدب، إن هذا هو العجب».

ثم جسست مفاصله وكتبت له ورقة وبقيت أتردد عليه مدة عشرة أيام حتى تعافى ودخل الحمام، واغتسل وخرج، فخلع علىَّ الصاحب خلعة مليحة وجعلنى مباشرًا عنده فى المارستان الذى بدمشق، فلما دخلت معه الحمام ودخل الخدم بالشاب وأخذوا ثيابه من داخل الحمام، رأيت يده اليمنى قطعت من عهد قريب وهو سبب ضعفه. فلما رأيته أخذت أتعجب وحزنت عليه. ونظرت إلى جسده فوجدت عليه آثار ضرب مقارع. وقد استعمل الأدهان لأجل ذلك. وبان فى وجهى التعجب.

فنظر إلى الشاب وفهم عنى الأمر. وقال لى: «يا حكيم الزمان، لا تعجب من أمرى فسوف أحدثك بحديثى متى خرجت من الحمام».

فلما خرجنا من الحمام وأتينا إلى الدار وأكلنا الطعام واسترحنا قال الشاب: «هل لك أن تتفرج فى الغوطة؟». فقلت: «نعم». فأمر العبيد أن يصعدوا الفرش إلى الغوطة وأمرهم أن يشووا خروفًا وأن يأتوا إلينا بفاكهة، فأتى العبيد بالفاكهة فأكلنا وأكل هو بيده الشمال. فقلت له: «حدثنى بحديثك». فقال: «يا حكيم، اسمع ما جرى لى».

اعلم أننى من أولاد الموصل، وكان لى والد توفى والده، وخلف عشرة أولاد ذكور، من جملتهم والدى، يا حكيم، وكان أكبرهم، فكبر الجميع وتزوجوا ورزق والدى بى، وأما إخوته التسعة فلم يرزقوا أولادًا. فكبرت أنا وصرت بين أعمامى وهم فرحون بى فرحًا شديدًا. فلما كبرت وبلغت مبلغ الرجال كنت ذات يوم فى جامع الموصل وكان يوم جمعة ووالدى معنا فصلينا الجمعة وخرج الناس جميعًا. وأما والدى وأعمامى فإنهم قعدوا يتحدثون فى عجائب البلاد وغرائب المدن، إلى أن ذكروا مصر. فقال أعمامى: «يقول المسافرون: إنه ما على وجه الأرض أحسن من مصر ونيلها». فلما سمعت هذا الكلام تشوقت إلى مصر. ثم قال والدى: «من لم ير مصر ما رأى الدنيا، ترابها ذهب، ونيلها عجب، وبيوتها قصور، وهواؤها معتدل، يفوق عرفه الورد ويخجل. وكيف لا تكون كذلك وهى أم الدنيا؟ ولله در من قال فيها هذه الأبيات:

أأرحل من مصر وطيب نعيمها ... وأى مكان بعدها لى شائق
وأترك أوطانًا تراها لناشق ... هى الطيب لا ما ضمنته المفارق
وكيف وقد أضحت من الحسن جنة ... زرابيها مبثوثة والنمارق

بلاد تشوق العين والقلب بهجة وتجمع ما يهوى تقى ومارق
وإخوان صدق يجمع الفضل شملهم مجالسهم مما حووه حدائق
أسكان مصر إن قضى الله بالنوى فثمَّ عهود بيننا ومواثق
فلا تذكروها للنسيم فإنه لأمثالها من نفحة الروض سارق

ثم قال والدى: «ولو رأيتم رياضها بالأصائل، والظل عليها مائل، لشاهدتم عجبًا وملتم لها طربًا». وأخذوا يصفون مصر ونيلها.

فلما سمعت أنا هذه الأوصاف التى فى مصر بقى خاطرى فيها. فلما فرغوا وقام كل واحد توجه إلى منزلة بت تلك الليلة ولم يأتنى نوم من شغفى بها. وما بقى يهنأ لى أكل ولا شرب. فبعد أيام قلائل تجهز أعمامى إلى مصر. فبكيت على والدى حتى جهز لى متجرًا ومضيت معهم، وقال لهم: «لا تدعوه يدخل مصر ودعوه يبيع متجره بدمشق».

ثم سافرنا وودعت والدى وخرجنا من الموصل، وما زلنا مسافرين حتى وصلنا حلب فأقمنا بها أيامًا، ثم سافرنا إلى أن وصلنا دمشق فرأيناها مدينة ذات أشجار وأنهار وأثمار وأطيار كأنها جنة فيها من كل فاكهة. فنزلنا فى بعض الخانات ووقف أعمامى فباعوا واشتروا وباعوا أيضًا بضاعتى. فربح الدرهم خمسة دراهم. ففرحت بالربح، وخلانى أعمامى وتوجهوا إلى مصر. فقعدت بعدهم ومكثت فى قاعة مليحة البنيان يعجز عن وصفها اللسان، أجرتها كل شهر ديناران. فأقمت آكل وأشرب حتى صرفت مالى.

ففى يوم من بعض الأيام بينما أنا قاعد على باب القاعة وإذا بشابين كنت تعرفت بهما من بضعة أيام قد أقبلا. فقمت وجئت بسفرة من أطيب المأكول والفاكهة وما يحتاج إليه المقام وأتيت به وأكلنا ولعبنا وبعد اللعب شربنا حتى سكرنا. فعرب أحد الشابين مع الثانى وتفاقم الأمر بسبب السكر. فقمت وأصلحت بينهما وسألتهما أن يبيتا عندى فى القاعة. ولكن كتم أحدهما الحقد فى الباطن، ثم إننا نمنا إلى وقت الصبح فاستيقظت وقعدت أنبه رفيقى. فهززت أكتاف الواحد فتدحرج رأسه من على الوسادة. ونظرت الفراش مبلولاً بالدم. فطار عقلى وصرخت. وقلت: «يا جميل الستر، سترك».

وقد اسودت الدنيا فى عينى. وطلبت الرفيق الآخر، فلم أجده فعلمت أنه هو الذى ذبح الشاب من غضبه عليه، فقلت: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، كيف يكون عملى؟». فتفكرت ساعة وقمت وخلعت ثيابى وحفرت فى وسط القاعة حفرة وأخذت القتيل وجعلته فى الحفرة ورددت عليه التراب والرخام وغسلت يدى ولبست ثيابًا نظيفة. وأخذت بقية مالى وخرجت من البيت وقفلته، وجئت إلى صاحب القاعة وشجعت نفسى ودفعت له أجرة سنة وقلت له: «أنا مسافر إلى أعمامى بمصر». ثم سافرت إلى مصر واجتمعت بأعمامى ففرحوا بى ووجدتهم قد فرغوا من بيع متجرهم ثم قالوا لى: «ما سبب مجيئك؟» فقلت لهم: «اشتقت إليكم؟». ولم أعلمهم أن معى شيئًا من مالى.

فأقمت عندهم وأنا أتفرج على مصر ونيلها، وحططت يدى فى بقية مالى وصرت أصرف منه وآكل وأشرب حتى قرب سفر أعمامى فهربت واختفيت منهم. ففتشوا على فلم

يسمعوا لى خبرًا. فقالوا: «يكون رجع إلى دمشق». فسافروا. فأقمت بمصر ثلاث سنين حتى لم يبق معى من المال شىء وفى كل سنة أرسل لصاحب القاعة إلى دمشق أجرتها. وبعد الثلاث سنين ضاق صدرى. ولم يبق معى إلا أجرة السنة فقط.

ثم سافرت إلى أن وصلت إلى دمشق ونزلت القاعة ففرح بى صاحبها ووجدت المخازن مقفلة كما كانت. ففتحتها وأخرجت الحوائج التى فيها فوجدت تحت الفراش الذى كنت نائمًا عليه تلك الليلة خاتم ذهب مرصعًا بجواهر. فأخذته ومسحته من دم الشاب المذبوح ثم أقمت يومين. وفى اليوم الثالث دخلت الحمام وغيرت أثوابى وأنا ما معى من الدراهم شىء. فجئت يومًا إلى السوق فوسوس لى الشيطان لأجل إنفاذ القدر فأخذت الخاتم وتوجهت به إلى السوق وناولته للدلال. فقام وأجلسنى بجانبه وصبر حتى عمرت السوق وأخذه الدلال ونادى عليه خفية وأنا لا أعلم. وإذا الخاتم جاء بألفى دينار. ثم جاءنى الدلال. وقال: «هذا خاتم كنا نظنه ذهبًا فإذا هو نحاس مصنوع صنعة الإفرنج وقد وصل ثمنه إلى ألف درهم». فقلت له: «نعم هذا كنا صغناه لواحدة نضحك عليها به وورثته زوجتى فأردنا بيعه. فرح اقبض الألف الدرهم».

فلما سمع الدلال ذلك عرف أن قضيته مشكلة فمضى بالخاتم إلى كبير السوق وأعطاه إياه فأخذه وتوجه إلى الوالى وقال له: «إن هذا الخاتم سرق من عندى ووجدنا السارق لابسًا لبس أولاد التجار». فلم أشعر إلا والظلمة أحاطوا بى وأخذونى وذهبوا بى إلى الوالى. فسألنى الوالى عن ذلك الخاتم. فقلت له ما قلته للدلال. فضحك الوالى وقال: «ما هذا كلام الحق». فلم أدر إلا وأنا جردت من ثيابى وضربت بالمقارع على جنبى. فحرقنى الضرب فقلت: «أنا سرقته». وقلت فى نفسى: «الأحسن أنى أقول: أنا سرقته ولا أقول: إن صاحبه مقتول عندى فيقتلونى به». فقبلت أنى سرقته فقطعوا يدى وقلوها فى الزيت. فغشى على فسقونى الشراب حتى أفقت فأخذت يدى وجئت إلى القاعة. فقال صاحب القاعة: «حيث جرى لك هذا خل القاعة وانظر لك موضعًا آخر؛ لأنك متهم بالحرام». فقلت له: «سيدى اصبر على يومين أو ثلاثة حتى أنظر لى موضعًا». قال: «نعم». ومضى وتركنى. فبقيت قاعدًا أبكى، وأقول: «كيف أرجع إلى أهلى وأنا مقطوع اليد، ولم يعلموا أنى برئ. فلعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا».

فلما مضى صاحب القاعة عنى لحقنى غم شديد فتشوشت يومين. وفى اليوم الثالث لم أدر إلا وصاحب القاعة جاءنى ومعه بعض الظلمة وكبير السوق الذى ادعى أنى سرقت الخاتم. فخرجت وقلت لهم: «ما الخبر؟». فلم يمهلونى، بل كتفونى ورموا فى رقبتى زنجيرًا، وقالوا لى: «الخاتم الذى كان معك هو لصاحب دمشق ووزيرها وحاكمها». وقال: «إن هذا الخاتم عُدم من عنده من مدة ثلاث سنين مع ابنه». فلما سمعت هذا الكلام منهم غطس قلبى، وقلت: «راحت روحك لا محالة. والله لا بد أن أحكى للصاحب حكايتى، فإن شاء قتلنى، وإن شاء عفا عنى».

فلما وصلنا إلى الصاحب أوقفنى بين يديه، فلما رآنى نظر إلى بطرف عينه، وقال للحاضرين: «لم قطعتم يده، فإن هذا الرجل مسكين، وليس له ذنب، وقد ظلمتموه بقطعكم

يده». فلما سمعت هذا الكلام قوى قلبى وطابت نفسى، وقلت: «والله يا سيدى لست بسارق، وقد اتهمونى بهذه التهمة العظيمة، وضربونى بالمقارع فى وسط السوق، وحكموا على بأن أقر فكذبت على نفسى واعترفت بالسرقة وأنا برئ منها». فقال الصاحب: «لا بأس عليك». ثم أمر بسجن كبير السوق وقال له: «اعط لهذا دية يده وإلا أشنقك وآخذ جميع مالك». ثم صاح على المقدمين فأخذوه وجروه وبقيت أنا والصاحب. ثم رفعوا الزنجير من عنقى بإذنه وحلوا أكتافى فنظر الصاحب إلى وقال: «يا ولدى»، أصدقنى وحدثنى كيف وصل إليك هذا الخاتم». وقال:

عليك بالصدق ولو أنه أحرقك الصدق بنار الوعيد

فقلت: «يا مولاى، أقول لك الحق». ثم حدثته بما جرى لى بالتمام. فلما سمع كلامى هز رأسه وضرب يده اليمنى على اليسرى، وحط منديله على وجهه وبكى، وأنشد يقول:

أرى علل الدنيا علىَّ كثيرة وصاحبها حتى الممات عليلُ

لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذى دون الفراق قليلُ

ثم أقبل على، وقال: «اعلم يا ولدى أن الشاب هو ابنى، فانظر ما أعظم ما جرى لى وأنا أشتهى منك أن لا تخالفنى فيما أقوله لك، وهو أنى أزوجك ابنتى وهى بكر، ولا آخذ منك مهرًا، وأجعل لكما راتبًا من عندى وتبقى عندى بمنزلة ولدى. فقلت: «نعم، ومن أنا حتى أحظى بهذا؟». فأرسل فى الحال إلى القاضى والشهود وكتب كتابى وأخذ لى من كبير السوق مالاً كثيرًا. وصرتُ عنده فى أعز مكان، وفى هذا العام مات والدى فأرسل الصاحب من عنده بريدًا وأتانى بمالى الذى خلفه والدى. وأنا اليوم فى أرغد عيش. فهذا سبب قطع يدى اليمين». فتعجبت منه وأقمت عنده ثلاثة أيام وأعطانى مالاً كثيرًا. وسافرت من عنده فوصلت إلى بلدكم هذا. فطابت لى المعيشة وجرى لى مع الأحدب ما جرى». فقال ملك الصين: «ما هذا بأعجب من حديث الأحدب، ولا بد لى من شنقكم. ولكن بقى الخياط الذى هو رأس كل خطيئة». ثم قال: «يا خياط، إن حدثتنى بشىء أعجب من حديث الأحدب وهبتكم ذنوبكم».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية الشاب والمزين البغدادى الفضولى

قالت شهرزاد: فعند ذلك تقدم الخياط. وقال: «اعلم يا ملك الزمان، أن أعجب ما جرى لى واتفق لى بالأمس، أنى كنت أول النهار، قبل أن أجتمع بالأحدب فى وليمة لبعض أصحابى، قد جمع عنده نحو عشرين نفرًا من أهل هذه المدينة، وفينا أصحاب صنائع من خياطين وزجاجين ونجارين وغير ذلك. فلما طلعت الشمس مُد لنا الطعام لنأكل. وإذا بصاحب الدار قد دخل علينا ومعه شاب غريب مليح من أهل بغداد، وعلى ذلك الشاب أحسن ما يكون من الثياب والجمال، غير أنه أعرج. فدخل علينا وسلّم فقمنا له. فجاء ليجلس فرأى بيننا إنسانًا مزيّنًا فامتنع من الجلوس وأراد أن يخرج من عندنا فمسكناه، ومسك به صاحب المنزل وحلف عليه، وقال له: «ما سبب دخولك وخروجك؟». فقال: «بالله يا مولاى لا تتعرض لى بشىء، فإن سبب رجوعى هذا المزيّن النحس الذى هو قاعد».

فلما سمع منه صاحب الدعوة هذا الكلام تعجب غاية العجب، وقال: «كيف يكون هذا

الشـاب من بغـداد وتشـوش خـاطره من هـذا المزين؟». ثم نظرنا وقلنا له: «احك لنا مـا سـبب غيظك من هذا المزيّن». فقال الشاب: «يا جمـاعة جرى لى مع هذا المزيّن أمر فى بغـداد التى هى بلدى. وكان هو سبب عـرجى وكسر رجلى. وحلفت أنى مـا بقيت أجالسه فى مكان ولا فى بلد هو قـاطن فـيـه، وقد سـافـرت من بغـداد وسكنت فى هـذه المدينة، وأنا الليلة لا أبيت إلا مسافرًا». فقلنا له: «بالله عليك، احك لنا حكايتك».

فقال الشاب، وقد اصفر وجه المزين: «يا جمـاعة، اعلموا أن والدى كان من أكابر تجّار بغداد ولم يرزقه الله تعالى ولدًا غيرى، فلما كبرت وبلغت مبلغ الرجال توفى والدى إلى رحمة الله تعالى. وخلف لى مـالاً وخدمًا وحشمًا. فصرت ألبس مليحًا وآكل مليحًا. وكان الله بغّض إلى النسـاء. ففى يوم من الأيام بينما أنا أمشى فى أزقة بغداد إذا بجمـاعة نسوة فى الطرق. فهربت ودخلت زقاقًا لا ينفذ وارتكنت فى آخره على مصطبة. فلم أقعد إلا قليلاً وإذا بصوت لم أسـمع فى عمـرى أحسن منه طرق أذنى. فطربت ومـا زلت جـالسًا سـاعة من الزمـان وأنا غائب عن الدنيا. وكنت أود لو أسمعه من موضع أقرب.

ثم انقطع الغناء وظننت أن روحى تفارقنى. وإذا بقاضى المدينة راكب وقدامه عبيد ووراءه خدم. فنزل ودخل البيت الذى سمعت منه الصوت. فسألت عجوزًا عن صاحب الصوت فقالت لى: «يا ولدى هذه بنت قاضى بغداد، وهى مولعة بالغناء إلا أن أباها يمنعها عنه، فتستغنم الفرصة عندما يغيب أبوها لصلاة الجمعة وتندفع تغنى. وأنا كثيرًا ما أدخل عليها. فإن شئت تعالَ يوم الجمعة قبل الصلاة إلى هذا الموضع، وأنا آتى آخذك وأحتال لك وأعطى دراهم لبعض الخدم ليفتح لنا الباب، وأدخلك فى مخدع منفرد يمكنك منه أن تسمعها بدون أن تنظرها أو تنظرك وبدون تعب ولا عناء وترجع قبل أن يأتى أبوها من الصلاة». فلما سمعت كلام العجوز طاب قلبى ودفعت لها مائة دينار وانصرفت.

ولما كان يوم الجمـعة لبست ثيابى وبقيت انتظر أن يذهب الناس إلى الصلاة حتى أمضى. وإذا بالعجوز دخلت على وسألتنى عن حالى فأخبرتها أنى بخير وعافية، فقالت: «إن معك فى الوقت فسحة فلو مضيت إلى الحمام وأزلت شعرك لا سيما من أثر المرض لكان فى ذلك صلاحك». فقلت: «هو الصواب. ولكن أحلق رأسى أولاً وأعود أدخل الحمام». فذهبت تنتظرنى. وأرسلت أنا إلى المزين ليحلق رأسى. وقلت للغلام: «امضِ إلى السوق، وآتنى بمزين يكون عاقلاً وقليل الفضول، لا يصدع رأسى بكثرة كلامه». فمضى الغلام وأتى بهذا الشيخ السوء. فلما دخل سلم على، فرددت عليه السلام، فقال: «أذهب الله همك وغمك والبأس والأحزان عنك». فقلت: «تقبل الله منك». فقال: «أبشر يا سيدى، فقد جاءتك العافية، أتريد تقصير شعرك أو إخراج دم؟ فإنه ورد عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أنه قال: «من احتجم يوم الجمعة أمن من ذهاب البصر وكثرة المرض». فقلت له: «دع عنك هذا الكلام وقم الساعة احلق لى رأسى فإنى رجل ضعيف».

فقام ومد يده، وأخرج منديلاً وفتحه وإذا فيه اصطرلاب وهو سبعة صفائح مطعم بالفضة. فأخذه ومضى إلى وسط الدار ورفع رأسه إلى شعاع الشمس ونظر مليا وقال لى:

«اعلم أنه مضى من يومنا هذا الذى هو يوم الجمعة، وهو يوم جمعة عاشر صفر سنة ثلاث وخمسين وستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، وسبعة آلاف وثلثمائة وعشرون من تاريخ الإسكندر. والطالع فى يومنا هذا على ما أوجب علم الحساب من المريخ ثمانى درجات وستة دقائق. واتفق أنه قارنه عطارد، وذلك يدل على أن حلق الشعر طيب. ودل عندى على أنك تريد الذهاب إلى موضع وهو مسعود. لكن بعده كلام يقع وشىء لا أذكره لك». فقلت له: «لقد أضجرتنى وصفرت روحى وتفاءلت على بفأل غير مليح وأنا ما طلبتك إلا لتحلق رأسى، فقم وأحلق رأسى، فقم ولا تطول معى الكلام». فقال: «لو علمت بالذى سوف يجرى لك لما عملت فى هذا النهار شيئًا. وأنا أشير عليك أنك تعمل بالذى أقوله لك فى حساب الكواكب». فقلت له: «إنى ما رأيت مزينا له مهارة فى علوم النجوم سواك. لكنى أدرى وأعلم أنك كثير الخزعبلات، وأنا ما دعوتك إلا لتزين رأسى فجئتنى بهذا الكلام الفاسد». فقال المزين: «أتريد زيادة بيان فقد مَنَّ الله عليك بمزين منجم عالم بصنعة الكيمياء، والسيمياء، والنحو، والصرف، واللغة، وعلم المعانى والبيان، وعلم المنطق والحساب، والهيأة، والهندسة، والفقه، والحديث، والتفسير، وقد قرأت الكتب ودرستها، ومارست الأمور وعرفتها، وحفظت العلوم وأتقنتها. وعلمت الصنعة وأحسنتها، ودبرت جميع الأشياء وركبتها. وكان والدى يحبنى لقلة فضولى ولهذا خدمتى عليك فرض. وأنا قليل الفضول لا كما زعمت. ولأجل هذا أدعى بالصامت الرزين، وكان سبيلك أن تحمد الله ولا تخالفنى فإنى ناصح لك وشفقان عليك، وأود أن أكون فى خدمتك سنة كاملة وتقوم بحقى، ولا أريد منك أجرة على ذلك». فلما سمعت ذلك منه قلت له: «إنك قاتلى لا محالة فى هذا اليوم».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فقال الحلاق: «يا سيدى، أنا الذى يسمينى الناس الصامت لقلة كلامى دون إخوتى الخمسة؛ لأن أخى الكبير اسمه البقبوق، والثانى الهدار، والثالث فقيق، والرابع اسمه الكوز الأسوانى، والخامس اسمه النشار». فلما زاد على هذا المزين بالكلام شعرت أن مرارتى انفطرت وقلت للغلام: «أعطه ربع دينار ودعه ينصرف عنى لوجه الله فلا حاجة لى إلى حلاقة رأسى». فقال هذا المزين حين سمع كلامى للغلام: «ما هذا المقال يا مولاى؟ إنى لا آخذ منك أجرة حتى أخدمك ولا بد من خدمتك وقضاء حاجتك فإنه واجب علىّ. ولا أبالى إذا لم آخذ منك درهمًا، فإن كنت لا تعرف قدرى، فأنا أعرف قدرك، وكان والدك -رحمه الله تعالى- له علينا إحسان؛ لأنه كان كريمًا، وقد أرسل إلى يومًا بمثل هذا اليوم المبارك فدخلت عليه وكان عنده جماعة من أصحابه، فقال لى: «أخرج لى دمًا». فأخذت الاصطرلاب وأخذت له الارتفاع فوجدت الطالع له نحسًا وإخراج الدم فيه صعبًا. فأعلمته بذلك فامتثل أمرى، وصبر فأنشدت فى مدحه:

أتيت إلى المولى لإنقاصه دمًا	فلم أر وقتًا يقتضى صحة الجسم
جلست أناجيه بكل عجيبة	وبين يديه أنشر العلم من فهمى
فأعجبه منى السماع وقال لى	تجاوزت حد الفهم يا معدن العلم

فقلت له لولاك يا سيد الورى أفضت على الفهم ما زادنى فهمى
كأنك رب الفضل والجود والعطا وكنز الورى فى العلم والفهم والحلم

«فطرب والدك وصاح للغلام، وقال: أعطه مائة وثلاثة دنانير وخلعة. فأعطانى جميع ذلك. إلى أن أتت ساعة حميدة وأخرجت له فيها الدم وما خالفنى وشكرنى وشكرنى الجماعة الحاضرون، فبعد خروج الدم ما أمكننى السكوت حتى قلت له: بالله يا مولاى ما أوجب قولك للغلام: اعطه مائة وثلاثة دنانير؟ فقال: دينار حق النجامة ودينار حق المسامرة ودينار حق الحجامة والمائة دينار والخلعة حق مدحك لى». فقلت له: «لا رحم الله أبى الذى عرف مثلك». فضحك هذا المزين وقال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، سبحان من يغير ولا يتغير، ما كنت أظنك إلا عاقلاً لكنك خرفت من المرض. وقال الله فى كتابه العزيز: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ وأنت معذور على كل حال. وما أدرى سبب عجلتك. وأنت تعلم أن أباك وجدك ما كانا يفعلان شيئًا إلا بمشورتى. وقد قيل: إن المستشار مؤتمن وما خاب من استشار. وقد قيل فى بعض الأمثال: من لم يكن له كبير فليس هو بكبير. وقال الشاعر:

إذا ما عزمت على حاجة فشاور خبيرًا ولا تعصه

وما تجد أحدًا أعرف منى فى الأمور. وأنا واقف على أقدامى أخدمك، وما ضجرت منك فكيف ضجرت أنت منى. وأنا أصبر عليك لأجل ما لأبيك علىَّ من الفضل».

فقلت له: «يا ذنَب الحمار لقد أطلت على الخطاب وزدت على فى المقال، وأنا قصدى أن تحلق رأسى وتنصرف عنى». ثم إنه بل رأسى وقال لى: «قد علمت أنه دخلك الضجر منى، لكن لا أؤاخذك لأن عقلك ضعيف وأنت صبى، ولما كنت بالأمس صغيرًا كنت أحملك على كتفى وأمضى بك إلى المكتب». فقلت له: «يا أخى بالله عليك اصبر على حتى أقضى شغلى وقم إلى حال سبيلك». ثم شققت أثوابى.

فلما رآنى فعلت ذلك، أخذ الموسى وسنه. وما زال يسنه حتى كاد عقلى يفارقنى. ثم تقدم إلى رأسى وحلق منه بعضًا ثم رفع يده وقال: «يا مولاى العجلة من الشيطان والتأنى من الرحمن». ثم إنه أنشد يقول:

تأنَّ ولا تعجل لأمر تريده وكن راحمًا للناس تُبلَ براحمِ
وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيبلى بظالم

ثم قال: «يا مولاى ما أظنك تعرف بمنزلتى، فإن يدى تقع على رؤوس الملوك والأمراء والوزراء والحكماء والفضلاء، وفى قال الشاعر:

جميع الصنائع مثل العقود وهذا المزين در السلوك
فيعلو على كل ذى حكمة وتحت يديه رؤوس الملوك

فقلت له: «دع ما لا يعنيك فقد ضيَّقت صدرى وأشغلت خاطرى». فقال: «أظنك مستعجلاً؟». فقلت له: «نعم نعم نعم». فقال: «تمهل على نفسك، فإن العجلة من الشيطان، وهى تورث الندامة والحرمان، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «خير الأمر ما كان فيه تأنٍّ»، وأنا رابنى أمرك فأشتهى أن تعرفنى ما قصدته، ولعله خير فإنى أخشى أن يكون شيئًا غير

ذلك وقد بقى لوقت الصلاة ثلاث ساعات».

ثم قال: «ما أريد أن أكون فى شك من ذلك، بل أريد أن أعرف الوقت على التحقيق، لأن الكلام إذا كان رجمًا بالغيب كان فيه عيب لا سيما لمثلى، وقد ظهر واشتهر عند الناس فضلى، فما ينبغى لى أن أتكلم حدسًا كما تتكلم عامة المنجمين». ثم رمى الموسى من يده وأخذ الاصطرلاب ومضى تحت الشمس ووقف مدة مديدة وعاد وقال: «بقى لوقت الصلاة ثلاث ساعات لا تزيد ولا تنقص». فقلت له: «بالله عليك اسكت عنى فقد فتتت كبدى». فأخذ الموسى وسنه كما فعل أولاً وحلق بعض رأسى وقال: «أنا مهموم من عجلتك فلو أطلعتنى على سبيلها لكان خيرًا لك، لأنك تعلم أن أباك وجدك ما كانا يفعلان شيئًا إلا بمشورتى». فلما علمت أنه ما لى منه خلاص قلت فى نفسى: «جاء وقت الصلاة أريد أن أمضى قبل أن تخرج الناس من الصلاة، فإن تأخرت ساعة لا أدرى أين السبيل إلى استماع الغناء». فقلت: «أوجز ودع عنك هذا الكلام والفضول؛ فإنى أريد أن أمضى إلى دعوة عند بعض أصحابى». فلما سمع ذكر الدعوة قال: «يومك يوم مبارك على. لقد كنت البارحة حلفت على جماعة من أصدقائى ونسيت أن أهتم لهم فى شىء يأكلونه، والساعة افتكرت وافضيحتاه منهم». فقلت له: «لا تهتم بهذا الأمر بعد تعريفك أننى اليوم فى دعوة، فكل ما فى دارى من طعام وشراب فهو لك إن أنجزت أمرى وعجلت حلاقة راسى». فقال: «جزاك الله خيرًا. صف لى ما عندك حتى أعرفه». فقلت: «عندى خمسة ألوان طعام، وعشر دجاجات محمّرات، وخروف مشوى». فقال: «أحضرها لى حتى أنظر». فأحضرت له ذلك جميعه. فلما عاينه قال: «بقى الشراب». فقلت له: «عندى». فقال: «أحضره». فأحضرته له. قال: «لله درك، ما أكرم نفسك لكن بقى البخور والطيب». فأحضرت له درجًا فيه ند وعود وعنبر ومسك يساوى خمسين دينارًا.

وكان الوقت قد ضاق وضاق صدرى، فقلت له: «خذ هذا واحلق راسى بحياة محمد ﷺ» فقال المزين: «والله ما آخذه حتى أرى جميع ما فيه». فأمرت الغلام ففتح له الدرة. فرمى المزين الاصطرلاب من يده وجلس على الأرض يقلب الطيب والبخور والعود الذى فى الدرج حتى ضاق صدرى. ثم تقدم وأخذ الموسى وحلق من راسى شيئًا يسيرًا، وأنشد يقول:

ينشا الصغير على ما كان والده ... إنّ الأصولَ عليها ينبتُ الشجرُ

وقال: «يا ولدى، ما أدرى أأشكرك أم أشكر والدك، لأن دعوتى اليوم كلها من بعض فضلك وإحسانك، وليس عندى من يستحق ذلك، وإنما عندى سادة محترمون مثل زنتوت الحمامى، وصليع الفامى، وسيلة الفوال، وعكرشة البقال، وحميد الزبال، وسعيد الجمّال، وسويد العتال، وأبو مكارش البلان، وقسيم الحارس، وكريم السائس. كل هؤلاء ما فيهم ثقيل ولا مُعربد، ولا فضولى ولا منكد، ولكل واحد من هؤلاء رقصة يرقصها، وأبيات ينشدها، وأحسن ما فيهم أنهم مثل خادمك المملوك لا يعرفون كثرة الكلام ولا الفضول، أما الحمامى فإنه يغنى على الدّرْبَكّة شيئًا مثل السحر ويقوم يرقص ويقول: «أنا رائح أملّى جرتى». وأما الفامى، فإنه يجىء بالمعرفة أحسن من غيره ويرقص ويقول: يا نائحة يا ستى ما قصرت. فما

يخلى لأحد فؤادًا من الضحك عليه. وأما الزبال فإنه يغنى فيوقف الأطيار ويرقص ويقول: الخبر عند زوجتى، صار فى صندوق وله مقدار، وهو كيّس وفى حسنه أقول:

روحى الفداء لزبال شغفتُ به ... حلو الشمائل يحكى الغصن ميّادا

جاز الزمانُ به ليلاً فقلت له ... والشوق ينقص منى كلما زادا

أضرمت نارك فى قلبى فجاوبنى ... لا غرو إن أصبح الزبال وقادا

«وقد كمل فى كل واحد من هؤلاء ما يلهى العقول من اللهو والمضحكة». ثم قال: «وليس الخبر كالعيان، فإن اخترت أن تحضر عندنا، فإن ذلك أحب إليك وإلينا، واترك رواحك إلى أصدقائك الذين عولت عليهم، فإن عليك أثر المرض، ربما تمضى إلى أقوام كثيرى الكلام، يتكلمون فيما لا يعنيهم أو يكون فيهم واحد فضولى يصدع رأسك، وأنت صغرت روحك من المرض». فقلت له: «يكون ذلك فى غير هذا اليوم». وضحكت من قلب الغيظ. وقلت له: «اقض شغلى وأسير فى أمان الله تعالى وتمضى أنت إلى أصحابك فإنهم ينتظرون قدومك». فقال: «يا مولاى ما طلبت إلا أن أعاشرك بهؤلاء الأقوام الأكياس أولاد الناس، الذين ما فيهم فضولى ولا كثير الكلام. فإنى مذ نشأت لم أقدر أعاشر أبدًا من يسأل عمن لا يعنيه ولا أعاشر إلا من يكون مثلى قليل الكلام. فإنك لو عاشرتهم ورأيتهم مرة واحدة تترك جميع أصحابك». فقلت له: «تمم الله بهم سرورك ولا بد لى أن أحضر عندهم يومًا من الأيام». فقال: «أردت ذلك اليوم، فإن كنت عولت أن تمضى معى إلى أصدقائى فدعنى أمضى بما تفضلت به إليهم، وإن كان لا بد لك من الذهاب إلى أصدقائى حشمة تمنعنى عن تركهم، وأعود إليك عاجلاً أمضى معك أينما توجهت».

فقلت: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، امض أنت إلى أصدقائك وانشرح معهم، ودعنى أمض إلى أصدقائى وأكون معهم فى هذا اليوم، فإنهم ينتظروننى». فقال المزين: «لا أدعك تمضى وحدك». فقلت له: «إن الموضع الذى أمضى أنا إليه لا يقدر أحد أن يدخل فيه غيرى». فقال: أظنك اليوم تذهب إلى الأصحاب وإلا كنت تأخذنى معك، وأنا أحق من جميع الناس وأساعدك على ما تريد فإنى أخاف عليك، فإن هذه مدينة بغداد فيها خطر لا سيما فى مثل هذه الأيام». فقلت: «ويلك يا شيخ السوء انقلع لأى شىء هذا الكلام الذى تقابلنى به». فقال لى: «يا بارد إنما أريد أن أساعدك اليوم بنفسى».

فمن زيادة ضجرى سكت سكوتًا طويلاً. وأدركنا وقت الصلاة، وجاء وقت الخطبة وقد فرغ حلق رأسى. فقلت له: «امض إلى أصحابك بهذا الطعام والشراب، وأنا أنتظرك حتى تعود وتمضى معى. ولم أزل بهذا الملعون أداهنه وأخادعه لعله يمضى عنى. فقال لى: «إنك تخادعنى لتمضى وحدك وترمى نفسك فى مصيبة لا خلاص لك منها، فالله الله لا تَرُح حتى أعود إليك وأمضى معك حتى أعلم ما يتم من أمرك». فقلت له: «نعم، لا تبطىء على». فأخذ جميع ما أعطيته من الطعام والشراب وغيره وخرج من عندى. وسلمه هذا الملعون إلى حمال أداه إلى منزله وأخفى نفسه فى بعض الأزقة.

ثم قمت من ساعتى وقد سلم المؤذنون، فلبست ثيابى وخرجت وحدى وأتيت إلى الزقاق

ووقفت على البيت الذى سمعت منه الصوت، فوجدت العجوز واقفة تنتظرنى، فطلعت معها إلى طبقة منفردة، فلما دخلتها إذا بصاحب الدار عاد إلى منزله من الصلاة ودخل القاعة وأغلق الباب. فأشرفت أنا من الطاق فرأيت هذا المزين، لعنة الله عليه، قاعدًا على الباب، فقلت: «من أين علم هذا الشيطان بى».

فاتفق فى هذه الساعة لأمر يريده الله من هتك سترى أن جارية صاحب الدار أذنبت عنده فضربها فصاحت، فدخل عبده ليخلصها فضربه فصاح الآخر، فاعتقد المزيّن الملعون أنه يضربنى، فصاح وخرق أثوابه وحثا التراب على رأسه، وبقى يصرخ ويستغيث، والناس حوله وهو يقول: «قُتل سيدى فى بيت القاضى». ثم مضى إلى دارى وهو يصيح والناس خلفه وأعلم أهل بيتى وغلمانى فما دريت إلا وهم أقبلوا مخرقين الثياب وحالين شعورهم يصيحون: «واسيداه». وهذا المزين قدامهم مخرق الثياب وهو يصيح والناس معه.

ولم يزل أهلى يصرخون وهو فى أوائلهم يصرخ، وهم يقولون: «واقتيلاه واقتيلاه». وهموا نحو الدار التى أنا فيها. فسمع صاحب الدار الضجة والصراخ على بابه فقال لبعض غلمانه: «انظر ما الخبر». فخرج الغلام وعاد إلى سيده، وقال: «يا سيدى على الباب أزيد من عشرة آلاف نفس ما بين رجل وامرأة وهم يصيحون: واقتيلاه، ويشيرون إلى دارنا». فلما سمع القاضى ذلك عظم عليه الأمر، فغضب وقام وخرج وفتح الباب فرأى جمعًا عظيمًا، فبهت وقال: «يا قوم ما القصة؟». فقال له الغلمان: «يا ملعون يا كلب يا خنزير إنك قتلت سيدنا». أما القاضى فقال : «يا قوم، وما الذى فعله سيدكم حتى أقتله، وهذه دارى بين أيديكم». فقال له المزين: «أنت ضربته فى هذه الساعة بالمقارع، وأنا أسمع صراخه».

فقال القاضى: «وما الذى فعله حتى أقتله، ومن أدخله دارى، ومن أين جاء، وإلى أين يقصد؟». فقال له المزين: «لا تكن شيخًا نحسًا، وأنا أعلم الحكاية والحال كله، وأنت علمت أنه قد دخل دارك فأمرت غلمانك فضربوه، والله ما بيننا وبينك إلا الخليفة أو تخرج لنا سيدنا يأخذه أهله قبل أن أدخل وأخرجه من عندكم وتخجل أنت». فقال له القاضى، وقد التجم عن الكلام وأخذه الحياء من الناس: «إن كنت صادقًا فادخل أنت وأخرجه».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فهم المزين ودخل الدار. فلما رأيت المزين دخل طلبت طريقًا للخروج والهروب، فلم أجد، غير أنى رأيت فى الطبقة التى أنا فيها صندوقًا كبيرًا، فدخلت فيه ورددت الغطاء علىَّ وقطعت نفسى. فدخل القاعة. فلم يدخلها إلا واطلع على الموضع الذى أنا فيه فالتفت يمينًا وشمالاً وتقدم إلى الصندوق الذى أنا فيه وحمله على رأسه، فغاب رشدى، ثم مر مسرعًا، فلما علمت أنه ما يتركنى جذبت نفسى وفتحت الصندوق ورميت نفسى إلى الأرض فانكسرت رجلى، وانفتح الباب فشاهدت على الباب خلقًا كثيرًا، وكان فى كمى ذهب كثير، فجعلت أنثر الذهب على الناس ليشتغلوا به، فأخذوه واشتغلوا به.

وصرت أمشى فى أزقة بغداد يمينًا وشمالاً، وهذا المزين الملعون خلفى، وأى مكان دخلت

فيه يدخل هذا المزين خلفى، وهو يقول: «أرادوا أن يفجعونى فى سيدى، الحمد لله الذى نصرنى عليهم وخلص سيدى من أيديهم، فما زلت يسوءنى تدبيرك حتى فعلت بنفسك هذه الفعال، فلو لم يمنّ الله عليك بى ما كنت خلصت من هذه المصيبة التى وقعتَ فيها. وكانوا يرمونك فى مصيبة لا تخلص منها أبدًا. وكم أريد أن أعيش لك حتى أخلصك. لقد أهلكتنى بسوء تدبيرك. وكنت تريد أن تروح وحدك، ولكن ما نؤاخذك على جهلك لأنك قليل العقل عجول». فقلت له: «ما جرى منك حتى تجرى ورائى وتتكلم معى بمثل هذا الكلام فى الأسواق؟». وكادت روحى تزهق منى من شدة غيظى منه. فدخلت دكانًا فى وسط السوق واستجرت بالحائط. فمنعه عنى وجلست فى مخزن وقلت فى نفسى: «ما عدت أقدر أن أفترق من هذا المزين الملعون وهو يقيم عندى ليلاً ونهارًا، ولا بقى فى رمق لأنظر إلى خلقته».

فأرسلت فى الوقت أحضرت الشهود وكتبت وصية لأهلى وفرقت مالى، وعملت عليهم ناظرًا وأمرته أن يبيع الدار والعقارات ووصيته بالكبار والصغار، وخرجت مسافرًا من ذلك الوقت حتى أتخلص من هذا القواد، وجئت سكنت فى بلدكم ولى فيها مدة، فلما عزمتم على جئت إليكم فرأيت هذا الملعون القواد عندكم فى صدر المكان، فكيف يطيب قلبى ومقامى عندكم مع هذا، وقد فعل بى هذه الفعال وانكسرت رجلى بسببه».

ثم إن الشاب امتنع من الجلوس، فلما سمعنا حكايته مع المزين قلنا للمزين: «أحق ما قاله الشاب عنك؟». فقال: «أنا فعلت ذلك معه بمعرفتى وعقلى ومروءتى، ولولاى لهلك. وما سبب نجاته إلا أنا. والحمد لله الذى أصيب فى رجله ولم يصب فى روحه.

ولو كنت كثير الكلام لما فعلت معه الجميل، وها أنا أقول لكم حديثًا جرى لى حتى تصدقوا أنى قليل الكلام وما عندى فضول من دون إخوتى الخمسة». كنت فى بغداد على زمن المستنصر بالله ابن المستضىء بالله، وكان هو الخليفة يومئذ ببغداد، وكان يحب الفقراء والمساكين ويجالس العلماء والصالحين، فاتفق له يومًا أنه غضب على عشرة أنفار، فأمر المتولى أن يأتيه بهم يوم عيد، وكانوا لصوصًا قطاعين للطريق، فخرج متولى البلد فأخذهم ونزل بهم فى زورق، فنظرت أنا فقلت: «ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة وأظنهم يقطعون نهارهم فى هذا الزورق، فى أكل وشرب وما يكون نديمهم غيرى.

فقمت يا جماعة من جملة مروءتى ورزانة عقلى، ونزلت معهم فى الزورق واختلطت بهم. فعبروا وقعدوا إلى الجانب الآخر، فجاءت لهم الشرطة والأعوان بالزناجير ورموها فى رقابهم ورموا فى رقبتى زنجيرًا أيضًا. فهذا يا جماعة ما هو من مروءتى وقلة كلامى؛ لأنى سكت وما رضيت أن أتكلم، فأخذونا بالزناجير وقدمونا بين يدى المستنصر بالله أمير المؤمنين فأمر بضرب رقاب العشرة، فتقدم السياف بعد أن جلسنا بين يديه على نطع الدم، وجرد سيفه، وضرب رقبة واحد بعد واحد إلى أن ضرب رقبة العشرة.

فبقيت أنا، فنظرنى الخليفة فقال للسياف: «ما بالك ضربت رقاب تسعة فقط؟». فقال السياف: «معاذ الله، أن تأمر بضرب رقاب عشرة فأضرب أنا رقاب تسعة». فقال له: «ما أظنك ضربت إلا رقاب تسعة، وهذا الذى بين يديك هو العاشر». فقال السياف: «وحقّ نعمتك قتلت عشرة». قال: «عدوهم». فإذا هم عشرة. فنظر إلىّ الخليفة وقال: «ما حملك على

سكوتك فى مثل هذا الوقت، وكيف صرت مع أصحاب الدم، وما سبب هذا وأنت شيخ كبير وعقلك قليل».

فلما سمعت خطاب أمير المؤمنين قلت له: «اعلم يا أمير المؤمنين أنى أنا الشيخ الصامت، وعندى من الحكمة شىء كثير، وأما رزانة عقلى وجودة فهمى وقلة كلامى فلا نهاية لها وصنعتى مزين، فلما كان نهار أمس من باكر النهار ونظرت هؤلاء العشرة قاصدين الزورق، فاختلطت بهم ونزلت معهم وظننت أنهم فى وليمة، فما كان غير ساعة إلا حضرت إليهم الأعوان وجعلوا فى رقابهم الزناجير، وجعلوا فى رقبتى زنجيرًا من جملتهم، فمن كثرة مروءة عظيمة لأنى شاركتهم فيها فى القتل، ولكن طولَ دهرى هكذا أفعل الجميل مع الناس وهم يكافئوننى بأوحش مكافأة».

فلما سمع الخليفة كلامى وعلم أنى كثير المرءوة قليل الكلام ما عندى فضول كما يزعم هذا الشاب الذى خلصته من الأهوال، ضحك ضحكًا شديدًا حتى استلقى على قفاه. فقال الخليفة لى: «يا صامت، وإخوتك الخمسة مثلك، فيهم الحكمة والعلم وقلة الكلام». قلت: «لا عاشوا ولا بقوا إن كانوا مثلى، ولكن ذممتنى يا أمير المؤمنين، ولا ينبغى لك أن تقارن إخوتى بى، لأنهم من كثرة كلامهم وقلة مروءتهم صار كل واحد منهم بعاهة، فمنهم واحد أعور، وواحد أعمى، وواحد مقطوع الأذن والمنخر، وواحد مقطوع الشفتين، وواحد أحدب، ولا تحسب يا أمير المؤمنين أنى كثير الكلام ولا بد أن أبين لك أنى أعظم مروءة منهم، ولكل واحد منهم حكاية اتفقت له حتى صار فيه عاهة، وأنا أحكى لك حكايتهم».

حكاية الأخ الأول للمزين الفضولي

إن الأول وهو الأحدب، كانت صنعته الخياطة ببغداد، فكان يخيط فى دكان استأجرها من رجل كثير المال، وكان ذلك الرجل ساكنًا أعلى الدكان، وكان فى أسفل دار الرجل طاحون، فبينما أخى الأحدب جالس فى الدكان فى بعض الأيام يخيط رفع رأسه فرأى امرأة فى روشن الدار وهى تنظر إلى الناس، فلما رآها أخى صار ينظر إليها وترك الخياطة، فلما كان اليوم الثانى وقت الصباح فتح دكانه وقعد يخيط وهو كلما غرز غرزة ينظر إلى الروشن فرآها على تلك الحالة، ولما كان اليوم الثالث جلس فى مكانه وهو ينظر إليها، فرأته المرأة وعلمت أنه قد صار أسيرًا فضحكت فى وجهه، ثم إنها غابت عنه، وأرسلت جاريتها إليه، ومعها بقجة فيها طاقة مشجر أحمر. فجاءت الجارية إليه، وقالت له: «سيدتى تقرئك السلام وتقول لك: فصل لها بيد الفضل قميصًا من هذه الطاقة وخيطه خياطة حسنة». فقال لها: «سمعًا وطاعة». ثم إنه فصل لها ثوبًا وأتم خياطته فى ذلك اليوم، فلما كان الغد باكرته الجارية وقالت له: «سيدتى تسلم عليك وتسأل عن خاطرك». ثم قدمت بين يديه طاقة أطلس أصفر وقالت له: «تقول لك سيدتى: فصّل لها من هذه الطاقة قنبازين وخيطهما اليوم هذا». فقال لها: «سمعًا وطاعة سلمى عليها السلام الكثير». ثم إنه شرع فى التفصيل واجتهد فى خياطة القنبازين، وبعد ساعة تطلعت له المرأة من الشباك وسلمت عليه تبتسم فى وجهه، وهو يظن أنها غابت عنه. وجاءت الجارية إليه فسلمها القنبازين، فأخذتهما وانصرفت. ولما أقبل الليل انطرح على فراشه وبات يتقلب إلى الصباح، فلما أصبح قام وجلس فى مكانه فجاءت الجارية إليه، وقالت له: «إن مولاى يدعوك». فلما سمع ذلك خاف خوفًا عظيمًا، فلما شعرت الجارية بخوفه قالت

له: «لا بأس عليك، ما هناك إلا الخير، فقد جعلت سيدتى بينك وبين سيدى معرفة». ففرح الرجل فرحًا عظيمًا، ثم ذهب معها. فلما دخل على سيدها زوج سيدتها قبل الأرض، فرد عليه السلام. ثم ناوله ثيابًا كثيرة وقال له: «فصّل لى من هذا أقمصة وخيّطها». فقال أخى: «سمعًا وطاعة».

ولم يزل يفصل حتى فصل عشرين قميصًا إلى وقت العشاء، ولم يذق طعامًا، ثم قال له: «كم يكون لذلك أجرة؟». فقال له: «عشرون درهمًا». فصاح زوجها على الجارية وقال: «هاتى عشرين». فلم يتكلم أخى. فأشارت إليه الصبية بعينها: «لا تأخذ منه شيئًا». فقال: «والله ما آخذ منك شيئًا». وأخذ الخياطة وخرج. وكان أخى محتاجًا إلى فلوس، وبقى له ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب إلا القليل من اجتهاده فى تلك الخياطة التى لهما. فأتت الجارية وقالت له: «أى شىء عملت». فقال: «فرغت» فأخذ الثياب وأتى إليهما بها وسلم إلى زوجها الثياب وانصرف من ساعته.

وكانت الصبية قد عرفت زوجها بحال أخى، وأخى لا يعلم ذلك، واتفقت هى وزوجها على استعمال أخى فى الخياطة بلا شىء والضحك عليه. فلما أصبح الصباح أتى إلى الدكان، فأتت إليه الجارية، وقالت له: «كلم سيدى». فذهب معها فلما وصل إليه قال له: «أريد منك أن تفصل لى خمس فرجيات». ففصل له وأخذ الثياب معه وانصرف ثم إنه خيط تلك الفرجيَّات ومضى بها إليه، فاستحسن خياطته ودعا بكيس فيه دراهم ومدّ يده، فأشارت الصبية من خلف زوجها أن: «لا تأخذ شيئًا». فقال للرجل: «يا سيدى، لا تعجل فالزمان مواف». وخرج من عنده وهو أذل من حمار، وقد اجتمع عليه أربعة أشياء: إفلاس وجوع وعُرى وتعب، وإنما هو يشجع نفسه.

فلما فرغ أخى من جميع الأشغال عملا عليه حيلة وزوجاه بجاريتهما وفى ليلة الزفاف قالا له: «بت الليلة فى الطاحون إلى غد يكون خيرًا». فاعتقد أخى أنه صحيح فبات فى الطاحون وحده، وراح زوج الصبية غمز الطحان عليه حتى إنه يدوره فى الطاحون، فدخل عليه الطحان نصف الليل وجعل يقول: «هذا الثور بطل ووقف ولا بقى يدور فى هذه الليلة، والقمح عندنا كثير». فنزل إلى الطاحون وملأ القادوس قمحًا وقصد أخى وكان فى يده حبل فربط رقبته وقال له: «هيا در على القمح. ما مرادك إلا أن تأكل وترقد». ثم أخذ سوطًا فى يده وضربه به، وأخى يبكي ويصيح فلم يجد له مغيثًا، والقمح ينطحن إلى قريب الصبح، فجاء صاحب الدار فرأى أخى معلقًا على الخشبة ومضى. وجاءت الجارية إليه باكر النهار، وقالت له: «يشق على ما جرى لك، أنا وسيدتى قد حملنا همك». فلم يكن له لسان يرد جوابًا من شدة الضرب والتعب.

ثم إن أخى أتى إلى منزله وإذا بالمعلم الذى كتب الكتاب قد جاء وسلم عليه، وقال له: «حياك الله، هذا وجه النعيم، ودوام السعد والإقبال». فقال له أخى: «لا سلم الله الكاذب، يا نحس، وأى نعيم هذا، صدقنى ما جئت إلا أطحن موضع الثور إلى الصباح». فقال له: «حدثنى بحديثك». فحدثه أخى بما وقع له، فقال له: «ما وافق نجمك نجمها، ولكن إذا شئت أغير ذلك الكتاب». فقال له: «انظر إن بقى لك حيلة أخرى».

ثم تركه وأتى إلى مكانه ينظر أحدًا يأتيه بشغل يتقوت منه، وإذا هو بالجارية قد أتت

إليه، وقالت له: «كلم سيدتى». فقال لها: «روحى يا بنت الحلال، ما بينى وبين سيدتك معاملة». فراحت الجارية وأعلمت سيدتها بذلك، فما درى أخى إلا وهى قد طلعت له من الروشن وهى تبكي وتقول: «لأى شىء ما بقى بينى وبينك معاملة؟». فلم يرد عليها جوابًا. فحلفت له أن جميع ما وقع له فى الطاحون لم يكن باختيارها وإنها بريئة من ذلك الأمر. فذهب حينئذ عنه ما حصل وقبل عذرها وفرح ثم سلم عليها وجلس فى خياطته مدة. فلما كان بعد ذلك جاءت الجارية، وقالت له: «تسلم عليك سيدتى، وتدعوك إلى البيت». وكان زوجها قد قال لها: «ما يكون العمل فى رجوعه عنك؟» فقالت: «دعنى أحتال عليه بحيلة أخرى وأشهره فى هذه المدينة». وأخى لا يعلم شيئًا من كيد النساء.

فجاءته الجارية وأخذت أخى وذهبت به. فلما رأت الصبية أخى، قالت له: «يا سيدى، إنى مشتاقة إليك كثيرًا». فقال: «وأنا مشتاق إليك». فلم يتم كلامه إلا وحضر زوج الصبية من بيت هناك، وقال لأخى: «ما هذا تتحدث مع حريمى فى بيتى، والله لا أفارقك إلا عند صاحب الشرطة». فتضرع إليه أخى. فلم يسمعه، بل حمله إلى الوالى، فضربه بالسياط، وأركبه جملاً ودوره المدينة، والناس ينادون عليه: هذا جزاء الخائن.

ونفى من المدينة فخرج لا يدرى إلى أين يقصد، فخفت أنا فلحقته ورددته وأجلسته عندى إلى الآن، فضحك الخليفة من كلامى، وقال: «يا صامت، أحسنت يا قليل الكلام». وأمر لى بجائزة وانصرف، فقلت له: «لا أقبل شيئًا منك دون أن أحكى لك ما وقع لبقية أخوتى، ولا تحسب أنى كثير الكلام».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية الأخ الثانى للمزين الفضولى

قالت شهرزاد: يقول الحلاق: وأما أخى الثانى، فاسمه فقيق، وكان أعمى. فساقه القضاء والقدر إلى دار كبيرة، فدق الباب طمعًا أن يكلمه صاحبها فيسأله شيئًا، فقال صاحب الدار: «مَن بالباب؟». فلم يكلمه أحد. فسمعه أخى يقول بصوت عال: «من هذا؟» فلم يكلمه أخى. وسمع مشيه حتى وصل إلى الباب وفتحه فقال له: «ما تريد؟». فقال: «شيئًا لله تعالى». فقال له: «أنت ضرير؟». قال أخى: «نعم». فقال له: «ناولنى يدك». فناوله يده وهو يعتقد أنه يعطيه شيئًا، فأخذه بيده وأدخله الدار.

ولم يزل يصعد به من سلم إلى سلم حتى وصل إلى أعلى السطوح، وأخى يظن أنه يطعمه شيئًا أو يعطيه شيئًا فلما انتهى قال لأخى: «ما تريد يا ضرير؟». قال: «أريد شيئًا لله تعالى». فقال: «يفتح الله عليك». فقال له أخى: «يا هذا ما كنت تقول لى كذا وكذا وأنا أسفل؟». فقال له: «يؤسفنى لمَ لمْ تكلمنى من أول مرة». فقال له أخى: «والساعة ما تريد تصنع بى؟». فقال له: «ما عندى شىء أعطيكه». قال له: «انزل بى إلى السلالم». فقال: «الطريق بين يديك». فقام أخى وأقبل وما زال نازلاً حتى بقى بينه وبين الباب عشرون درجة فزلقت رجله فوقع إلى الباب، فانفتح رأسه، فخرج وهو لا يدرى أين يذهب فلحقه بعض رفقته العميان، فقالوا له: «أى شىء حصل لك اليوم؟» فحدثهم بما وقع له. ثم قال لهم: «يا إخوتى

أريد أن أخرج شيئًا من الدراهم التى بقيت معى وأنفق على نفسى».

وكان صاحب الدار يتبعه ويسمع كلامه، وأخى لا يدرى بالرجل ولا برفيقه، فجاء أخى إلى منزله ودخل ودخل الرجل خلفه، وأخى لا يشعر به، وقعد أخى ينتظر رفقاءه فلما دخلوا قال لهم: «أغلقوا الباب وفتشوا البيت كيلا يكون تبعنا أحد غريب». فلما سمع الرجل كلام أخى قام وتعلق بحبل كان فى السقف، فطافوا البيت جميعه فلم يجدوا أحدًا. ثم رجعوا وجلسوا إلى جانب أخى. ثم أخرجوا الدراهم التى معهم وعدوها فإذا هى اثنا عشر ألف درهم، فتركوها فى زاوية البيت وأخذ كل واحد ما يحتاج إليه وطرحوا بقية الدراهم فى التراب. ثم قدموا بين أيديهم شيئًا من الأكل وقعدوا يأكلون.

فسمع أخى إلى جانبه مضغًا غريبا. فقال لأصحابه: «معنا غريب». ثم مد يده فتعلق بيده يد الرجل صاحب الدار فوقعوا فيه ضربًا. فلما طال عليهم ذلك صاحوا: «يا مسلمون دخل علينا لص يريد أن يأخذ مالنا». فاجتمع عليهم خلق كثير، فأقبل الرجل وتعلق بهم وادعى عليهم مثلما ادعوا عليه. وغمض عينيه كأنه صار مثلهم لا يشك فيه أحد، وصاح: «يا مسلمون، إنا بالله وبالسلطان، أنا بالله وبالوالى مع نصيحة». فما شعر إلا وقد أحاطوا بالجميع، وأخى معهم، وساقوهم إلى بيت الوالى فأحضرهم قدامه وقال: «ما خبركم؟». فقال الرجل: «انظر ولا يبين لك شىء إلا بالعقوبة، وأول ما تبدأ ابدأ بى وعاقبنى، ثم بهذا قائدى». وأومأ بيده إلى أخى.

فمدوا ذلك الرجل وضربوه أربعمائة عصا فأوجعه الضرب ففتح عينه الواحدة، فلما زادوا عليه بالضرب فتح عينه الأخرى، فقال له الوالى: «ما هذه الفعال يا ملعون؟». فقال: «أعطنى خاتم الأمان، نحن أربعة نعمل أرواحنا عميانًا ونغير على الناس وندخل البيوت ونعمل فى خسارة الناس، فاجتمع لنا مكسب عظيم وهو اثنا عشر ألف درهم، فقلت لرفقتى: أعطونى حقى ثلاثة آلاف، فقاموا وضربونى وأخذوا مالى، وأنا مستجير بالله وبك، وأنا أحق بقسمى وأشتهى أن تعرف صدق قولى، فاضرب كل واحد أكثر مما ضربتنى فإنه يفتح عينيه، فعند ذلك أمر الوالى بعقوبتهم وأول ما بدأ بأخى، فشدوه إلى سلم وقال لهم الوالى: «يا فسقة تجحدون نعمة الله، وتدعون أنكم عميان؟».

فقال أخى: «الله الله، والله ما فينا بصير». فضربوه حتى غشى عليه، فقال الوالى: «دعوه حتى يفيق وأعيدوا عليه ثانى مرة». ثم أمر بضرب أصحابه كل واحد أكثر من ثلثمائة عصا والبصير يقول لهم: «افتحوا عيونكم وإلا جدد عليكم الضرب». ثم قال للوالى: «ابعث معى من يأتيك بالمال، فإن هؤلاء ما يفتحون عيونهم ويخافون من فضيحة الناس». فبعث الوالى أخذ المال وأعطى الرجل منه ثلاثة آلاف درهم، قسمته على ما زعم عنهم، وأخذ الوالى الباقى ونفى الثلاثة.

وخرجت أنا يا أمير المؤمنين ولحقت أخى وسألته عن حاله فأخبرنى بما ذكرته لك وأدخلته المدينة سرا، ورتبت له ما يأكل ويشرب فى الخفية، فضحك الخليفة من حكايتى وقال: «أعطوه جائزة ودعوه ينصرف». فقلت له: «ما آخذ شيئًا حتى أبين لأمير المؤمنين ما جرى لإخوتى، فإنى قليل الكلام».

حكاية الأخ الثالث للمزين الفضولي

ثم قال: وأما أخى الثالث يا أمير المؤمنين، وهوالأعور فإنه كان جزارًا ببغداد يبيع اللحم ويربى الكباش، وكان يقصده الكبار وأصحاب الأموال يشترون منه اللحم، فكسب من ذلك مالاً عظيمًا واقتنى الدواب والدور، وأقام على ذلك زمنًا طويلاً، فبينما هو ذات يوم من بعض الأيام عند دكانه إذ وقف عليه شيخ كبير اللحية فدفع له دراهم، وقال: «أعطنى لحمًا». فأعطاه اللحم فأخذه وانصرف. فتأمل أخى فى فضة الشيخ فرأى دراهمه بياضها ساطع فعزلها فى ناحية وحدها. وأقام الشيخ يتردد عليه خمسة أشهر. وأخى يطرح دراهمه فى صندوق وحدها.

ثم أراد أن يخرجها ويشترى غنمًا ففتح الصندوق فرأى جميع ما فيه ورق مقصص. فلطم وجهه وصاح، فاجتمع الناس عليه، فحدثهم بحديثه فتعجبوا منه. فقام أخى على عادته فذبح كبشًا وعلقه داخل الدكان، وقطع لحمًا وعلقه خارج الدكان وصار أخى يقول: «يا الله، يجئ الشيخ النحس». فما كانت ساعة إلا وقد أقبل الشيخ ومعه الفضة. فقام أخى وتعلق به وصار يزعق: «يا مسلمين، الحقونى واسمعوا قصتى مع هذا الفاجر. فلما سمع الشيخ كلامه قال له: «أيهما أحب إليك تتنحى عنى أو افضحك بين الناس». فقال له أخى: «بأى شىء تفضحنى». قال: «إنك تبيع لحم الناس على أنه لحم غنم».

فقال له أخى: «كذبت يا ملعون». فقال الشيخ: «ما ملعون إلا الذى عنده رجل في الدكان معلق». فقال له أخى: «إن كان الأمر كما ذكرت فمالى ودمى حلال لك». فقال الشيخ: «يا معاشر الناس، إن أردتم تحقيق قولى وصدقى، ادخلوا دكانه». فهجم الناس على دكان أخى فرأوا ذلك الكبش صار إنسانًا معلقًا، فلما رأوا ذلك تعلقوا بأخى، وصاحوا عليه: «يا كافر، يا فاجر». وصار أعز الناس إليه يضربه ويلطمه ويقول له: «أنت تطعمنا لحم بنى آدم». ولطمه الشيخ على عينه فقلعها.

وحملت الناس ذلك المذبوح إلى صاحب الشرطة. فقال له الشيخ: «أيها الأمير، هذا الرجل يذبح الناس، ويبيع لحمهم، على أنه لحم غنم، وقد أتيناك به فقم واقض حق الله عز وجل». فدافع أخى عن نفسه فلم يسمع منه، وأمر بضربه خمسمائة عصا وأخذوا جميع ماله ولولا المال لقتلوه، فقام أخى تائهًا على وجهه حتى دخل مدينة كبيرة، وكان أحسن له أن يعمل إسكافًا، ففتح دكانًا وقعد يعمل شيئًا يتقوت به.

فخرج ذات يوم فى حاجة فسمع صهيل خيل فسأل عن ذلك فقيل له: «إن الملك خارج فى الصيد والقنص». فجعل أخى ينظر إلى حسن الملك فوقعت عين الملك فى عين أخى، فأطرق الملك برأسه، وقال: «أعوذ بالله من شر هذا اليوم». وثنى عنان فرسه ورجع، فرجع جميع الغلمان، ثم أمر الغلمان فلحقوا أخى فضربوه ضربًا وجيعًا، حتى كاد أن يموت، ولم يدر أخى ما السبب، فرجع إلى موضعه وهو فى حالة العدم، ثم مضى إلى إنسان من حاشية الملك وقص عليه ما وقع له، فضحك حتى استلقى على قفاه، وقال له: «يا أخى، اعلم أن الملك لا يطيق أن ينظر إلى أعور، لا سيما إن كان أعور باليمنى، فإنه لا يعتقه دون قتله». فلما سمع

أخى ذلك الكلام عزم على الهرب من تلك المدينة، ثم قام وخرج منها وتحول إلى ناحية أخرى، لم يكن بها أحد يعرفه، وأقام بها زمنًا طويلاً.

وبعد ذلك تفكر أخى فى أمره وخرج يومًا يتفرج، فسمع صهيل خيل خلفه، فقال: «جاء أمر الله». فطلب موضعًا يستتر فيه فلم يجد، ثم نظر فإذا بباب مغلق فدفع ذلك الباب فوقع، فدخل فرأى دهليزًا طويلاً، فدخل أخى فيه فلم يشعر إلا ورجلان قد تعلقا به، وقالا لأخى: الحمد لله الذى أمكننا منك يا عدو الله، هذه ثلاث ليال ما خليتنا ننام، ولا نهدأ، وقد أذقتنا الموت». فقال أخى: «يا قوم ما أمركما؟». فقالا: «أنت تغير علينا وتريد أن تفضحنا وتدبر الحيلة، وتريد أن تذبح صاحب البيت، ما يكفيك أنك أفقرته أنت وأصحابك؟ ولكن أخرج لنا السكين التى تهددنا بها كل ليلة». وفتشاه فوجدا فى وسطه سكينًا، فقال: «يا قوم اتقوا الله فى أمرى، واعلما أن حديثى عجيب. فقالا: «وما حديثك؟». فحدثهما بحديثه طمعًا أن يطلقاه فما سمعا من أخى، ولا التفتا إليه، وضرباه وخرقا أثوابه، فوجدا أثر الضرب بالمقارع على جنبيه، فقالا له: «يا ملعون، هذا أثر الضرب». ثم أحضرا أخى بين يدى الوالى، فقال فى نفسه: «قد وقعت بذنوبى وما يخلصنى إلا الله تعالى. فقال الوالى لأخى: «يا فاجر، ما حملك على هذا الأمر، تدخل دارهما بالقتل». فقال له أخى: «سألتك بالله أيها الأمير، اسمع كلامى ولا تعجل على». فقال الوالى: نسمع كلام لص قد أفقر الناس وعليه أثر الضرب فى ظهره». وقال له: «ما فعلا بك هذا الأمر إلا عن جرم عظيم، فأمر أن يضرب مائة سوط». ثم حملوه على جمل ونادوا عليه: هذا جزاء وأقل من جزاء من يهجم على بيوت الناس. وأمر بإخراجه من المدينة وفر أخى على وجهه.

فلما سمعت به أنا خرجت إليه واستخبرته فأخبرنى بحديثه وما جرى له. وما زلت معه دائرًا وهم ينادون عليه حتى سيبوه، فأتيت إليه وأخذته وأدخلته المدينة سرا، ورتبت له ما يأكل وما يشرب.

حكاية الأخ الرابع للمزين الفضولى

وأما أخى الرابع، فإنه كان مقطوع الأذنين يا أمير المؤمنين، وكان رجلاً فقيرًا، وكان يسأل الناس ليلاً، وينفق ما أعطى نهارًا، وكان والدنا شيخًا كبيرًا طاعنًا فى السن، فاعتل ومات فخلف لنا سبعمائة درهم، فأخذ كل واحد منا ما أصابه وأما أخى الرابع فإنه لما أخذ حصته تحير ولم يدر ما يصنع بها، فبينما هو كذلك إذ وقع فى خاطره أنه يأخذ بها زجاجًا من كل نوع، وينتفع بثمنه، فاشترى زجاجًا وجعله فى طبق كبير، وقعد فى موضع يبيع فيه وبجانبه حائط فأسند ظهره إليه، وقعد متفكرًا فى نفسه، وقال:

إن رأس مالى فى هذا الزجاج مائة درهم وخمسة وسبعون درهمًا، وأنا أبيعه بمائتى درهم، ثم أشترى بمائتى درهم زجاجًا وأبيعه بأربعمائة، ولا أزال أبيع وأشترى إلى أن يبقى معى مال كثير، فأشترى به من جميع المتجر والجوهر، فأربح ربحًا عظيمًا، وبعد ذلك أشترى دارًا حسنة، وأشترى المماليك والخيل وسروج الذهب، وآكل وأشرب ولا أخلى مغنيًا ولا مغنية فى المدينة حتى أجىء بها عندى، وأعمل إن شاء الله تعالى رأس مالى مائة ألف درهم.

هذا كله وقفص الزجاج مطروح قدامه، ثم قال: «وإذا صار مالى مائة ألف درهم، أبعث الدلالات فى خطبة بنات الملوك والوزراء، وأخطب بنت الوزير، فقد بلغنى أنها كاملة فى الحسن بديعة فى الجمال، وأمهرها ألف دينار فإن رضى أبوها كان، وإن لم يرض أخذتها قهرًا عن رغم أنفه، فإن حصلت فى دارى أشترى عشرة خدام صغار، ثم أشترى لى كسوة من كساء الملوك والسلاطين، وأصنع لى سرج ذهب وأرصعه بالجواهر المثمنة، ثم أركب ومعى المماليك يمشون حولى وقدامى، وأدور المدينة والناس يسلمون على ويدعون لى، ثم أدخل على الوزير الذى هو أبو البنت والمماليك خلفى وقدامى، وعن يمينى وعن شمالى، فإذا رآنى قام الوزير إلى قائمًا وأقعدنى مكانه ويقعد هو دونى؛ لأنه عمى.

ويكون معى خادمان معهما كيسان، كل كيس فيه ألف دينار، فأعطيه ألفًا مهر بنته، وأهدى له ألف دينار أخرى حتى يعلم مروءتى وكرمى وكبر نفسى وصغر الدنيا فى عينى، وإذا خاطبنى بعشر كلمات أجبته بكلمتين، ثم أنصرف إلى دارى فإذا جاء أحد من جهة امرأتى وهبت له دراهم وخلعت عليه خلعة، وإن جاءنى بهدية رددتها عليه، ولم أقبلها منه. حتى يعلموا أنى عزيز النفس، ولا أخلى نفسى إلا فى موضعها.

ثم أتقدم إليهم بإصلاح شأنى، فإذا فعلوا ذلك أمرتهم بزفافها، وأصلح دارى إصلاحًا بينا، فإذا جاء وقت الجلاء لبست أفخر ثيابى وقعدت فى حلة من الديباج متكئًا لا ألتفت يمينًا ولا شمالاً. لكبر عقلى ورزانة فهمى. وتكون امرأتى قائمة قدامى كالبدر، وهى فى حليها وحللها، وأنظر إليها عجبًا وتيهًا حتى يقول جميع من حضر: «يا سيدى، امرأتك وجاريتك قائمة بين يديك، فأنعم عليها بالنظر، فقد أضرّ بها القيام». ثم يقبّلون الأرض قدامى مرارًا. فعند ذلك أرفع رأسى، وأنظر إليها نظرة واحدة، ثم أطرق برأسى إلى الأرض فيمضون بها، ثم أقوم وألبس أحسن مما كان علىّ. فإذا جاءوا بالعروسة للمرة الثانية لا أنظر إليها حتى يسألونى مرارًا، وأنظر إليها، ثم أطرق الأرض ولا أزال كذلك حتى يتم جلاؤها.

ثم إنى آمر بعض الخدم أن يرمى كيسًا فيه خمسمائة دينار، فإذا أحضرت أدفعه للمواشط وآمرهن أن يدخلنها إلى مجلسى، فإذا دخلن بها فلا أنظر إليها ولا أكلمها احتقارًا لكى يقال: إنى عزيز النفس، وتجئ أمها فتقبل رأسى ويدى، وتقول لى: «يا سيدى، تعطف على جاريتك». فلا أرد عليها جوابًا. فإذا رأت ذلك قامت وقبلت رجلى مرارًا ثم تقول: «يا سيدى، إن ابنتى صبية محتشمة، فإذا رأت منك هذا الانقباض انكسر خاطرها، فملّ إليها وكلمها». ثم إنها تقوم وتحضر لى قدحًا فيه شراب، ثم إن بنتها تأخذ القدح. فإذا جاءتنى تركتها قائمة بين يدى، وأنا متكئ على مدورة مزركشة، لا أنظر إليها من كبر نفسى، حتى تقول: إنى سلطان عظيم الشأن، فتقول لى: «يا سيدى، بحق الله عليك، لا ترد القدح من يد جاريتك فإنى جاريتك». فلا أكلمها فتلح على وتقول: «لا بد من شربه وتقدمه إلى فمى فأنفض يدى فى وجهها وأرفسها برجلى وأعمل هكذا». ثم رفس برجله فوقع الزجاج والقفص وكان فى مكان مرتفع فنزل إلى الأرض فتكسر كل ما فيه. فصاح أخى، وقال: «هذا كله من كبر نفسى».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: يقول الحلاق: فعند ذلك يا أمير المؤمنين لطم أخى وجهه وخرق ثيابه، وجعل يبكى، والناس ينظرون إليه، وهم رائحون إلى صلاة الجمعة، فمنهم من نظره ورحمه ومنهم من لم يفكر فيه، وأخى على تلك الحالة، قد راح منه المال والربح، فأقام ساعة يبكى، وإذا بامرأة حسنة ومعها عدة خدام وهى راكبة على بغلة بسرج من ذهب، يفوح المسك منها، وهى ماشية إلى صلاة الجمعة، فلما نظرت الزجاجات وحال أخى وبكائه أخذها الحزن عليه، ورق قلبها وسألت عن حاله، فقيل: «إنه كان معه طبق زجاج يتعيش به فانكسر منه فأصابه ما ترين». فنادت بعد الخدام، وقالت له: «ادفع الذى معك لهذا المسكين». فدفع له صرة وجد فيها خمسمائة دينار. فلما وقعت فى يده كاد أن يموت من شدة الفرح وأقبل أخى بالدعاء لها، وعاد إلى منزله غنيا. وقعد متفكرًا وإذا بالباب يدق فقام وفتح، وإذا بعجوز لا يعرفها فقالت له: «يا ولدى، إن الصلاة قد قربت وأنا بغير وضوء وأحب أن توسع لى منزلك حتى أتوضأ». فقال: «سمعًا وطاعة». ثم دخل أخى، وأمرها بالدخول فدخلت ودفع لها إبريقًا تتوضأ به، وجلس أخى وهو طائر من الفرح بالدنانير، ثم صرها فى الهيمان.

فلما فرغ من هذا وفرغت العجوز من الوضوء، أقبلت إلى الموضع الذى أخى جالس فيه وصلّت ركعتين، ثم دعت لأخى دعاءً حسنًا، فشكرها على ذلك ومد يده إلى الدنانير ودفع لها دينارين، وقال فى نفسه: «هذه صدقة عينى». فلما رأت الدنانير قالت: «يا سبحان الله، لِمَ نظرت إلى من أحبك بسمة الصعاليك، خذ مالك ما لى به حاجة واردده إلى قلبك، فإن كنت تريد أن تتزوج بالتى أعطتك المال، فأنا أدبر لك ذلك، وهى صاحبتى». فقال أخى: «يا أمى، كيف ذلك؟». قالت: «يا ولدى، إنها تميل إلى رجل موسر، فخذ جميع مالك معك واتبعنى لأدلك على المراد». فإذا دخلت البيت فلا تخلّ شيئًا من الملاطفة والكلام الحسن، فإنك تنال ما أقوله لك وتعطيك من مالها جميع ما تريد».

فأخذ أخى جميع الذهب، وقام ومشى معها وهو لا يصدق، فلم تزل هى تمشى وأخى تابعها إلى باب كبير فدقته، فخرجت جارية رومية ففتحت الباب، فدخلت العجوز وأمرت أخى بالدخول معها، فدخل إلى دار كبيرة ومجلس كبير مفروش بالزرابىّ العجيبة والستور المعلقة، فجلس أخى ووضع الذهب بين يديه، ووضع عمامته على ركبته، فلم يشعر إلا وعبد أسود عظيم الخلقة دخل عليه ومع سيف مجرّد فقال له: «ويلك، من جاء بك إلى هذا المكان، وما الذى تصنع ههنا؟». فلما رآه أخى لم يقدر أن يرد عليه جوابًا، وانعقد لسانه عن رد الجواب، فأخذه وعراه من أثوابه، ولم يزل يضربه بالسيف سطحًا إلى أن سقط على الأرض مغشيا عليه من شدة الضرب، واعتقد العبد النحس أنه قضى عليه، فسمعه أخى يقول: «أين المملحة؟». فأقبلت إليه جارية فى يدها طبق كبير، وفيه ملح كثير، ولم يزل العبد يحشو جراحات أخى، وهو لا يتحرك خيفة أن يعلم أنه حى فيقتله، ثم إن الجارية مضت، فجاءت العجوز إلى أخى وجرته من رجله إلى سرداب، فرمته فيه على جماعة قتلى، فأقام مقامه يومين كاملين.

وكان الله جعل الملح سبب حياته لأنه قطع الدم، فرأى أخى فى نفسه القوة والحركة، فقام أخى من السرداب وفتح طابقه وهو خائف وخرج إلى البر وأعطاه الله الستر، فمشى فى

الظلام واختفى فى ذلك الدهليز إلى الصبح. فلما كان وقت الصباح خرجت تلك العجزو الملعونة فى طلب صيد آخر، فخرج أخى فى أثرها وهى لا تعلم حتى أتى إلى منزله، ولم يزل يعالج نفسه حتى برئ وهو يتعهد العجوز، وينظر إليها كل وقت، وهى تأخذ الناس واحدًا واحدًا، وتؤديهم إلى تلك الدار، وأخى لا ينطق إليها بشىء، ولما رجعت إليه روحه وقوته عمد إلى خرقة وعمل منها كيسًا وملأه زجاجًا وشده فى وسطه، وتنكر حتى لا يعرفه أحد، ولبس ثياب العجم وأخذ سيفًا وجعله تحت ثيابه، فلما رأى العجوز قال لها بلسان العجم: «يا عجوز، أنا رجل غريب، وصلت اليوم إلى هذا البلد، ولا أعرف أحدًا، فهل عندك ميزان يسع تسعمائة دينار، وأنا أهبك شيئًا منه؟». فقالت له العجوز: «لى ولد صيرفى وعنده سائر الموازين، فامض معى قبل أن يخرج من مكانه حتى يزن ذهبك». فقال أخى: امشى قدامى». فسارت وأخى خلفها حتى أتت الباب فدقته فخرجت الجارية بعينها وفتحت الباب فضحكت العجوز فى وجهها، وقالت: «قد أتيتكم اليوم بلحمة سمينة».

فأخذت الجارية بيد أخى وأدخلته المنزل الذى دخل أخى فيه سابقًا وقعدت عنده ساعة. وقامت وقالت لأخى: «لا تبرح حتى أرجع إليك». وراحت فلم يشعر أخى إلا والعبد الملعون أقبل ومعه السيف المجرد وقال لأخى: «قم يا ملعون». فقام أخى وتقدم أمامه وأخى وراءه، ومد يده إلى سيفه الذى تحت ثيابه وضرب العبد فأطاح رأسه عن بدنه، وسحبه من رجله إلى السرداب ونادى: «أين المملحة؟». فجاءته الجارية ومعها الطبق الذى فيه الملح. فلما رأت أخى والسيف بيده ولت هاربة، ثم نادى: «أين العجوز؟». فجاءت. فقال لها: «أتعرفينى يا عجوز النحس؟». فقالت: «لا يا مولاى». فقال لها: «أنا صاحب الدراهم، وأنت التى جئت وتوضأت عندى وصليت وأوقعتنى هنا». فقالت: «اتق الله وتراجع فى أمرى». فلم يلتفت إليها وضربها حتى قطعها أربع قطع.

ثم خرج فى طلب الجارية. فلما رأته طار عقلها وقالت: «الأمان». فأمنها. فقال لها: «ما الذى أوقعك عند هذا الأسود». فقالت: «إنى كنت جارية لبعض التجار وكانت هذه العجوز تترد على فانست بها. فقالت لى يومًا من الأيام: إن عندنا فرحًا ما رأى أحد مثله وقد اشتهيت أن تنظرى إليه، فقلت: «سمعًا وطاعة». ثم قمت ولبست أحسن ثيابى ومصاغى وأخذت معى صرة فيها مائة دينار ومضيت معها حتى أدخلتنى هذه الدار. فلما دخلت ما شعرت إلا وهذا الأسود أخذنى، وأنا على هذه الحال من ثلاث سنين بحيلة العجوز الملعونة». فقال لها أخى: «هل له فى الدار شىء؟». فقالت: «عنده شىء كثير فإن كنت تقدر على نقله فانقله واستجر الله». فقام أخى ومشى معها وفتحت له صناديق فيها أكياس فبقى أخيى متحيرا. فقالت له الجارية: «امض الآن ودعنى هنا وهات من ينقل المال». فخرج واكترى عشرة رجال وجاء إلى الباب فوجده مفتوحًا، وما رأى الجارية ولا الأكياس، إلا شيئًا غير القماش، فعلم أن الجارية خدعته، فعند ذلك أخذ المال الذى بقى. وفتح الخزائن وأخذ ما فيها، ولم يترك فى الدار شيئًا وبات مسرورًا.

فلما أصبح الصباح وجد بالباب عشرين جنديا تعلقوا به وقالوا له: «إن الوالى يطلبك».

فأخذوه، فتوسل أخي إليهم ليعبر إلى بيته فلم يمهلوه، فوعدهم بجملة من الدراهم فأبوا. ثم ربطوه بحبل ربطًا شديدًا وراحوا به، فوجد في الطريق واحد من أصحابه، فتعلق أخي بذيله وابتهل إليه لكي يساعده على خلاصه من أيديهم، فوقف الرجل وسألهم عن قصته فقالوا له: «إن الوالي قد حكم علينا أن نحضره بين يديه وها نحن ذاهبون به». فالتمس منهم صاحب أخي أن يخلصوه ويعطيهم خمسمائة دينار، وقال لهم: «إذا رجعتم إلى الوالي فقولوا له: «ما لقيناه». فأعرضوا عن كلامه، وأخذوه مسحوبًا على وجهه حتى أحضروه بين يدي الوالي. فلما رأي الوالي أخي قال له: «من أين لك هذا القماش والمال»؟. فقال أخي: «أريد الأمان». فأعطاه منديل الأمان. فحدثه بما جرى وما وقع له مع العجوز من الأول إلى الآخر، وبهرب الجارية، ثم قال للوالي: «والذي أخذته خذ منه ما شئت ودع لي ما أتقوت به». فأخذ الوالي المال والقماش كله. وخشي أن يبلغ الخبر إلى السلطان، فأحضر أخي وقال له: «اخرج من هذه المدينة وإلا أشنقك». فقال: «السمع والطاعة». فخرج إلى بعض البلدان فخرجت عليه اللصوص فعروه وضربوه وقطعوا أذنيه فسمعت بخبره، فخرجت إليه، وأخذت إليه ثيابًا، وجئت به إلى المدينة سرا ورتبت له ما يأكل وما يشرب.

حكاية الأخ الخامس للمزين الفضولي

وأما أخي الخامس يا أمير المؤمنين، وهو المقطوع الشفتين، فكان افتقر، فخرج يومًا يطلب شيئًا يسد به رمقه، فبينما هو في بعض الطرق إذ رأى دارًا حسنة ولها دهليز واسع مرتفع وعلى الباب خدم وأمر ونهي، فسأل بعض من كان واقفًا هناك فقال: «هي لإنسان من أولاد البرامكة». فتقدم أخي إلى البوابين وسألهم شيئًا فقالوا: «ادخل باب الدار تجد ما تحب من صاحبنا». فدخل الدهليز ومشى فيه ساعة فوصل إلى دار في غاية ما يكون من الملاحة والظرف. وفي وسطها بستان، ما رأى مثله. وأرضها مفروشة بالرخام وستورها معلقة. فبقي أخي متحيرًا لا يدري أين يقصد فمضى نحو صدر المكان فرأى إنسانًا حسن الوجه واللحية. فلما رأى أخي قام له ورحب به وسأله عن حاله. فأخبره أنه محتاج.

فلما سمع كلام أخي أظهر له غما شديدًا. ومد يده إلى ثيابه فخرقها، وقال: «أأكون أنا ببلد وتكون أنت بها جائعًا والله لا صبر لي على ذلك». ووعده بكل خير وقال له: «لا بد أن تمالحني». فقال أخي: «يا سيدي، ليس لي صبر، وإني لشديد الجوع». فصاح: «يا غلام، هات الطست والإبريق». ثم قال لأخي: «يا ضيفي تقدم واغسل يدك». فقام أخي ليغسل يده، فما رأى طستًا ولا إبريقًا. ثم إنه أومأ كأنه يغسل يده. ثم صاح: «قدموا المائدة». فلم ير أخي شيئًا. ثم قال لأخي: «تفضل كل من هذا الطعام ولا تستحي». وأومأ بيده كأنه يأكل. وصار الرجل يقول لأخي: «عجبًا لقلة أكلك لا تقصر في الأكل. فإني أعلم ما أنت عليه من الجوع». فجعل أخي يومئ كأنه يأكل والرجل يقول لأخي: «كل وانظر إلى حسن هذا الخبز وبياضه». وأخي لا يرى شيئا.

ثم إن أخي قال في نفسه: «هذا رجل يحب أن يهزأ بالناس». فقال له أخي: «يا سيدي، عمري ما رأيت أحسن من بياضه ولا ألذ منه». فقال: «هذا خبزته جارية لي اشتريتها

بخمسمائة دينار». ثم صاح صاحب الدار: «يا غلام، قدم الهريسة أول الطعام وأكثر عليها الدهن». ثم قال لأخي: «يا ضيفي بالله عليك، هل رأيت أطيب من هذه الهريسة فبحياتي كل ولا تستحي». ثم قال: «يا غلام، قدم لنا السكباج الذي فيه القطا المسمن». ثم قال لأخي: «قم كل يا ضيفي فإنك جائع ومحتاج إلى ذلك».

فصار يدور حنكه ويمضغ. وأقبل الرجل يستدعي لونًا بعد لون ولا يحضر شيء إلا وهو يأمر أخي بالأكل. ثم صاح: «يا غلام، قدم لنا الفراريج المحشوة بالفستق». وقال لأخي: «وحياتك يا ضيفي، هذه الفراريج قد سُمنت بالفستق فكل ما لا أكلت مثله قط». فقال له أخي: «يا سيدي هذا طيب». وأقبل يومئ بيده إلى فم أخي كأنه يلقمه.

وكان يعدد هذه الألوان ويصفها لأخي وهو جائع، فاشتد جوعه وهو بشهوة رغيف شعير، ثم قال له: «هل رأيت أطيب من أبازير هذه الأطعمة؟». فقال أخي: «لا يا سيدي». فقال: «جود الأكل ولا تستحي». فقال: «قد اكتفيت من الطعام». فصاح الرجل: «ارفعوا هذه وقدموا الحلوى». وقال لأخي: «كل من هذا فإنه جيد وكل من هذه القطائف بحياتي خذ هذه القطيفة قبل أن ينزل منها الجلاب». فقال أخي: «لا عدمتك يا سيدي». وأقبل أخي يسأله عن كثرة المسك الذي في القطائف، فقال له: «هذه عادتي يضعون لي في كل قطيفة مثقالاً من المسك ونصف مثقال من العنبر».

هذا كله وأخي يحرك رأسه وفمه ويلعب بأشداقه، فقال لأخي: «كل من هذا اللوز ولا تستحي» فقال له أخي: «يا سيدي، قد اكتفيت ولم يبق لي قدرة أن آكل شيئًا». فقال: «يا ضيفي، إن أردت أن تأكل وتتفرج على سائر المأكولات فالله الله لا تكن جائعًا». فقال له أخي: «يا سيدي، من يأكل من هذه الألوان كلها كيف يكون جائعًا».

ثم افتكر أخي في نفسه، وقال: «لأعملن عملاً أتوبه عن هذه الفعال». ثم قال الرجل: «قدموا لنا الشراب». فحركوا أيديهم في الهواء حتى كأنهم قدموا الشراب، ثم ناوله القدح. وقال: «حلفت عليك بالله أن تأخذ هذا القدح، فإن أعجبك فعرفني». فقال له: «يا سيدي، إنه طيب الرائحة. لكنني تعودت شرب النبيذ العتيق الذي له عشرون سنة». فقال له الرجل: «ذق هذا القدح، فإنك لا تقدر تشرب شيئًا أحسن منه». فقال: «يا سيدي، من إحسانك». وأومأ أخي بيده كأنه يشربه. فقال له: «هنيئًا وصحة».

ثم إن صاحب البيت أومأ وشرب، ثم ناول أخي قدحًا ثانيًا، فشربه وأظهر أنه سكر. وغافله أخي، ورفع يده حتى بان بياض إبطه وصفعه في رقبته صفعة رن لها المكان، ثم اثنى عليه بصفعة ثانية، فقال الرجل: «ما هذا يا سفيه؟». فقال: «يا سيدي، عبدك أنعمت عليه، وأدخلته منزلك، وأطعمته، وأسقيته الخمر فسكر وعربد، ومقامك أعلى من أن تؤاخذه بجهله».

فلما سمع كلام أخي ضحك ضحكًا عاليًا. ثم قال له: «إن لي زمانًا طويلاً أسخر بالناس وأتماجن على الأصحاب، فما رأيت منهم من له طاقة وفطنة ولا من دخل معي في جميع أموري غيرك. والآن فقد عفوت عنك. فكن نديمي على الحقيقة ولا تفارقني أبدًا». ثم

أمر بإخراج عدة من ألوان الطعام المذكورة أولاً فأكل هو وأخى حتى اكتفيا ثم انتقلا إلى مجلس الشراب، فإذا فيه جوار ففنين بجميع الألحان وجميع الملاهى. ثم قاما وشربا حتى غلب عليهما السكر واستأنس الرجل بأخى حتى صار كأنه أخوه وأحبه محبة عظيمة وخلع عليه. فلما أصبح الصباح عادا إلى ما كانا عليه من الأكل والشرب. ولم يزالا كذلك مدة عشرين سنة.

ثم إن الرجل مات. وقبض السلطان على ماله وما احتوى عليه أخى وصادره السلطان حتى خلاه فقيرًا لا يقدر على شىء. فخرج أخى هاربًا على وجهه. فلما توسط الطريق خرج عليه العرب فأسروه وأتوا به إلى حيهم. وصار الذى أسره يعذبه ويقول له: «اشتر روحك بالأموال وإلا أقتلك». فجعل أخى يبكى ويقول: «إنى لا أملك شيئا وأنا أسيرك فافعل ما شئت». فأخرج البدوى سكينًا وقطع شفتى أخى وشدد عليه فجاز عليه المسافرون فعرفوه فأطعموه وسقوه وأعلمونى بخبره. فجئت إليه وحملته ودخلت به المدينة ورتبت له ما يكفيه وها أنا جئت عندك يا أمير المؤمنين وخفت أن أرجع قبل إخبارك فيكون ذلك غلطًا. وورائى خمسة إخوة وأنا أقوم بهم.

فلما سمع أمير المؤمنين قصتى وما أخبرت به عن إخوتى ضحك، وقال: «صدقت يا صامت أنت قليل الكلام، ما عندك فضول، ولكن الآن اخرج من هذه البلدة، واسكن غيرها». ثم نفانى حتى دخلت البلاد وطفت الأقاليم إلى أن سمعت بموته، وخلافة غيره، فأتيت المدينة فوجدت إخوتى قد ماتوا ووقعت عند هذا الشاب وفعلت معه أحسن الفعال، ولولاى لقتل، وقد اتهمنى بشىء ما هو فى، ويا جماعة جميع ما نُقل عنى من الفضول باطل، وأنا لأجل هذا الشاب طفت بلدانًا كثيرة حتى وصلت إلى هذه الأرض وحصلته عندكم. فهذا يا جماعة الخير ما هو من مروءتى.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فقال الخياط لملك الصين: «فلما سمعنا قصة المزين وكثرة كلامه وأن المزين ظلم هذا الشاب أخذنا المزين وقبضنا عليه وحبسناه وجلسنا نحن آمنين فأكلنا وشربنا وتمت الوليمة إلى أن أذن العصر. فخرجت وجئت منزلى فعبست بى زوجتى. وقالت: «أنت فى حظك وأنسك وأنا محزونة». إن لم تخرجنى وتفرجنى بقية النهار قطعت حبلى ويصير سبب فراقى منك». فأخذتها وخرجت بها وتفرجنا إلى العشاء ثم رجعنا فلقينا هذا الأحدب والسكر طافح منه، وهو ينشد هذين البيتين:

رق الزجاج ورقّت الخمر ... فتشابها فتشاكل الأمرُ

فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ ... وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

فعزمت عليه وخرجت أشترى سمكًا مقليا وجلسنا نأكل. ثم إن زوجتى أعطته قطعة سمك وأدخلتها فى فمه وسدته فمات. فحملته وتحيلتُ ورميته فى بيت هذا اليهودى، وتحيل الطبيب ورماه فى بيت الشاهد، وتحيل الشاهد ورماه فى طريق

السمسار، وهذه قصتى وما لاقيت البارحة. أفما هو بأعجب من قصة الأحدب. فلما سمع ملك الصين هذه القصة هز رأسه طربًا وأبدى عجبًا. وقال: «هذه القصة التى جرت بين هذا الشاب والمزين الفضولى إنها لأطرب وأحسن من قصة الأحدب الأكذب».

ثم إن الملك أمر بعض حجابه أن امضوا مع الخياط وأحضروا المزين من الحبس لأسمع كلامه ويكون سبب خلاصكم جميعًا، ثم ندفن هذا الأحدب ونعمل له ضريحًا».

وعند ذلك مضى الحاجب والخياط إلى الحبس وأخرجا منه المزين وسارا به إلى أن وقف بين يدى هذا الملك. فلما رآه وتأمله فإذا هو شيخ كبير، قد جاوز التسعين أسود الوجه أبيض اللحية والحواجب، مقرطم الآذان، طويل الأنف، فضحك الملك من رؤيته وقال له: «يا صامت، أريد أن تحكى لى شيئًا من حكايتك». فقال المزين: «يا ملك الزمان، وما قصة هذا النصرانى وهذا اليهودى، وهذا المسلم، وهذا الأحدب الميت بينكم وما سبب هذا الجمع». فقال له ملك الصين: «وما سؤالك عن هذا؟». فقال: «سؤالى عنهم حتى يعمل الملك أنى ما أنا فضولى، وأنا برئ مما اتهمونى به من كثرة الكلام، وأنا الذى أسمى الصامت وإن لى نصيبًا من اسمى. كما قال الشاعر:

وقلَّما أبصـــرت عـيناك ذا لقب ... إلا ومـعناه إن فـتـشت فى لقبـه

فقال الملك: «اشرحوا للمزين حال هذا الأحدب، وما جرى له وقت العشاء، وما حكى النصرانى، وما حكى اليهودى، وما حكى الشاهد، وما حكى الخياط، وليس فى الإعادة إفادة». فحرك المزين رأسه، وقال: «إن هذا لعجب عجيب، اكشفوا لى عن هذا الأحدب». فكشفوا له عنه فجلس عند رأسه وأخذ رأسه على حجره ونظر فى وجهه، وضحك حتى انقلب على قفاه. وقال: «لكل موتة عجب، وموتة هذا الأحدب يجب أن تؤرخ بماء الذهب». فبهتت الجماعة من كلام المزين وتعجب الملك من كلامه وقال: «مالك يا صامت احكِ لنا». فقال المزين: «يا ملك الزمان، وحق نعمتك إن الأحدب الأكذب فيه الروح».

ثم إن المزين أخرج من وسطه حرمدًا وفتحه وأخرج منه مكحلة فيها دهن ودهن به رقبة الأحدب، وعروقها، ثم أخرج كلبتين من حديد ونزل بهام فى حلقه فأخرج قطعة السمك بعظمها فإذا هى مغموسة دمًا والأحدب عطس عطسة ثم نط ووقف على حيله وملس وجهه وقال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله». فتعجب الملك والحاضرون من الذى رأوه وعاينوه، فضحك ملك الصين حتى غشى عليه وكذلك الحاضرون وقال السلطان: «والله إن هذه قصة عجيبة ما رأيت أغرب منها». ثم إن السلطان قال: «يا مسلمون، يا جماعة العسكر هل رأيتم عمركم أحدًا يموت ثم يحيا؟ ولو لم يرزقه الله هذا المزين لكان مات». فقالوا: «والله إن هذا عجب عجيب». ثم إن ملك الصين أمر أن تؤرخ هذه القصة فأرخوها ثم جعلوها فى خزانة الملك.

ثم خلع على اليهودى والنصرانى والشاهد على كل واحد خلعه سنية وأمرهم بالانصراف فانصرفوا. ثم أقبل السلطان على الخياط وخلع عليه خلعةً سنية وجعله خياطه ورتب له الرواتب وجعله نديمه. وأنعم على المزين وخلع عليه خلعة وجعله مزين المملكة ونديمه.

ولم يزالوا فى نعيم العيش إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات. وليس هذا بأعجب من قصة الوزيرين وأنيس الجليس، قالت دنيازاد لأختها شهرزاد: «وكيف كان ذلك».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية الوزيرين وأنيس الجليس

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد، أنه كان بالبصرة ملك من الملوك يحب الفقراء والصعاليك ويحب الرعية، وهو كما قال فيه بعض واصفيه:

ملكٌ إذا جالت عليه جحافلٌ ... قطع العداة بكل عضب أبترِ
ويخطُّ خطا فى الصدور إذا سطا ... يومًا عليهم بالقنا والأسمرِ
والشكل ضرب بالسيوف ونقطها ... رشق السهام وخطها بالسمهرى
والخيل بحر زاخر أمواجه ... ينبوعه من هامه والمنخرِ
بحر صواريه القنا وقلوعه ... أعلامه والبيض كل مضمرِ
حلف الزمان ليأتين بمثله ... حنثتَ يمينك يا زمان فكفرِ

وكان يقال لهذا الملك محمد بن سليمان الزينى. وكان له وزيران أحدهما يقال له: المعين بن ساوى، والثانى يقال له: الفضل بن خاقان، وكان الفضل بن خاقان أكرم أهل زمانه، حسن السيرة، أجمعت القلوب على محبته وأجمعت الناس على مشورته، والكل يدعون له بطول مدته، لأنه محض خير، مزيل للشر والضير، وكان الوزير المعين بن ساوى يكره الناس ولا يحب الخير وكان محضر سوء كما قيل فيه:

لُذْ بالكرام بنى الكرام فإنما ... تلد الكرام بنو الكرام كراما
ودع اللئام بنى اللئام فإنما ... تلد اللئام بنو اللئام لئاما

وكان الناس على قدر محبتهم للفضل بن خاقان، يبغضون المعين بن ساوى، وبقدرة القادر أن الملك محمد سليمان الزينى يومًا من الأيام بينما هو قاعد على كرسى مملكته وحوله أرباب دولته، إذ نادى وزيره الفضل بن خاقان وقال له: «أريد جارية لا يكون فى زمنها أحسن منها، وتكون كاملة فى الجمال فائقة فى الاعتدال حميدة الخصال».

فقالت أرباب الدولة: «هذه لا توجد إلا بعشرة آلاف دينار» فعند ذلك صرخ على الخازندار وقال: «احمل عشرة آلاف دينار إلى الفضل بن خاقان» أمر السلطان ونزل الوزير بعد ما أمره السلطان أن يعمد كل يوم إلى السوق ويوصى السماسرة ما ذكرناه، وأن لا تباع جارية ثمنها فوق ألف دينار حتى تعرض على الوزير، فلم تبع السماسرة جارية حتى يعرضوها، وكل جارية وقعت لهم لم تعجب الوزير، ففى يوم من الأيام إذا بالسمسار أقبل إلى دار الوزير الفضل بن خاقان فوجده راكبًا طالب المسير لقصر الملك، فدق فى ركابه وأنشد يقول:

أحييت ما مات بين الناس من كرم ... لا زال سعيك عند الله مشكورا
يا من أعاد رسوم الملك منشورا ... أنت الوزير الذى لا زلت مسرورا

ثم قال: «يا سيدى إن الذى سبق به المرسوم الكريم بطلبه قد حضر». فقال له الوزير: «علىَّ بها» فغاب ساعة وحضر ومعه جارية رشيقة القد عليها ثياب أحسن ما يكون من الثياب». وقوام أعدل من الغصون المائلة، وكلام أرق من نسيم الأسحار كما قال فيها بعض واصفيها:

حباها إله العرش عزا ورفعة وخولها الآداب بالقول والفعل
لها فى سماء العلم سبع كواكب ورأى وحلم فيهما منتهى الفضل

فلما رآها الوزير أعجبته غاية العجب ثم التفت إلى السمسار وقال له: «كم ثمن هذه الجارية؟». فقال: «وقف سعرها على عشرة آلاف دينار؛ وحلف صاحبها أن العشر آلاف الدينار لم تجئ بثمن الفراريج التى أكلتها ولا الشرب ولا الخلع، التى خلعتها على معلميها. فإنها تعلمت الخط والنحو واللغة والتفسير وأصول الفقه والدين والطب والتقويم والضرب بالآلات المطربة» فقال الوزير: «على بسيدها» فأحضره بالوقت والساعة فإذا هو رجل عجمى قد أبقى وعاركه الدهر واستبقى كما قال الشاعر:

أرعشنى الدهر أى رعش والدهر ذو قوة وبطش
قد كنت أمشى ولست أعيا واليوم أعيا ولست أمشى

فقال له الوزير: «أرضيت أن تأخذ فى هذه الجارية عشرة آلاف دينار من السلطان محمد بن سليمان الزينى؟» فقال العجمى: «والله لو قدمتها للسلطان بلا شىء لكان واجبا على» فعند ذلك أمر الوزير بإحضار الأموال فأحضرت فوزنت للعجمى، فأقبل النخاس على الوزير وقال: «عن إذن مولانا الوزير أتكلم» فقال الوزير: «هات ما عندك» فقال: «إن الرأى عندى أن لا تذهب بهذه الجارية إلى السلطان فى هذا اليوم، فإنها قادمة من السفر واختلف عليها الهواء ووكعها، ولكن خلها عندك فى القصر عشرة أيام عندما ترجع إلى حالها، ثم أدخلها الحمام وألبسها أحسن الثياب، واذهب بها إلى السلطان فيكون لك فى ذلك الحظ الأوفر».

فتأمل الوزير كلام النخاس فوجده صوابًا فأتى بها إلى قصره، وأخلى لها مقصورة ورتب لها كل يوم ما تحتاج إليه من طعام وشراب وغيره، فمكثت مدة على ذلك، وكان للوزير فضل بن خاقان ولد كأنه البدر إذا زهر بوجه أقمر، وخد أحمر، عليه خال كنقطة عنبر، بعزاز أخضر، لكنه شرس الأخلاق، فاتفق أن الجارية أسمعته يومًا كلمة قاسية، فاغتاظ ولكمها لكمة رمتها على الأرض، فشج جبينها، فسال من الدم وأغمى عليها، فصرخت بقية الجوارى، وفر الصبى هاربًا وللنجاة طالبًا لخوفه عقب الفعل الذى فعله، فلما سمعت سيدتهن الصراخ نهضت وقالت: «ما هذا الصياح الذى فى الدار» فلما نظرت أنيس الجليس والدم يسيل على وجنتيها والجوارى تداويها وتغسلها وعلمت الأمر، بكت ولطمت وجهها وخافت على نور الدين أن يذبحه أبوه.

فبينما هى كذلك وإذا بالوزير دخل وسأل عن الخبر، فقالت له زوجته: «احلف أن ما أقوله لك تسمعه». قال: «نعم»، فأعادت عليه ما فعله ولده، فحزن وخرق ثيابه ولطم وجهه ونتف لحيته وقال: «ما عاد ممكنًا أن نهديها للسلطان بسبب تشويه وجهها بهذه الشجة»،

فقالت له زوجته: «لا تقتل نفسك أنا أعطيك من مالى عشرة آلاف دينار ثمنها»، فعند ذلك رفع رأسه إليها وقال لها: «ويلك أنا ما لى حاجة بثمنها، ولكن خوفى أن تروح روحى ومالى»، فقالت له: «يا سيدى وكيف ذلك؟» قال لها: «أما تعلمين أن وراءنا هذا العدو الذى يقال له المعين بن ساوى؟ ومتى سمع بهذا الأمر تقدم إلى السلطان وقال له: وزيرك الذى تزعم أنه يحبك أخذ منك عشرة آلاف دينار واشترى له جارية ما رأى أحد مثلها، فلما أعجبته قال: أنا أحق بها من السلطان وحفظها عنده وها هى الجارية فى داره، فيقول الملك: تكذب. فيقول هو للملك: عن إذنك أهجم عليه وآتيك بها، فيرسم له بذلك، فيكبس الدار ويأخذ الجارية ويحضرها للسلطان ثم يسألها فما تقدر تنكر، فيقول له: يا سيدى تعلم أنى ناصح لك، ولكنى ما لى عندكم حظ، فيمثل بى السلطان والناس كلهم يتفرجون على وتروح روحى»، فقالت له زوجته: «لا تعلم أحدًا وسلم أمرك إلى الله فى هذه القضية»، فعند ذلك سكن قلب الوزير.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية نور الدين علي وأنيس الجليس

قالت شهرزاد: هذا ما كان من أمر الوزير، وأما ما كان من أمر نور الدين علي فخاف عاقبة الأمر، فكان يقضى نهاره فى البساتين، ويأتى آخر الليل إلى أمه فينام عندها، ويقوم قبل الصبح ويروح إلى البستان، ولم يزل كذلك شهرًا لا يُرى وجهه لأبيه، فقالت أمه لأبيه: «يا سيدى هل نعدم الجارية ونعدم الولد؟ فإن طال هذا الأمر على الولد هج منا»، قال لها: «وكيف العمل؟» قالت له: «اسهر هذه الليلة فإذا جاء امسكه، واصطلح أنت وإياه، وزوجه بالجارية، وأنا أعطيك ثمنها».

فصبر الوزير إلى الليل، فلما أتى ولده أمسكه وأراد نحره فادركته أمه وقالت له: «أى شىء تريد أن تفعل معه؟» فقال لها: «أذبحه». فقال الولد لأبيه: «هل أهون عليك أن تذبحنى؟» فتغرغرت عينا الوالد بالدموع وقال: «يا ولدى كيف هان عليك ذهاب مالى وروحى». فقال الصبى: اسمع يا والدى ما قال الشاعر:

هبنى جنيت فلم يزل أهل النهى ... يهبون للجانى سماحًا شاملا
ماذا عسى يرجو عدوك وهو فى ... درك الحضيض وأنت أعلى منازلا

فعند ذلك قام الوزير من على صدر ولده فقال: «يا ولدى عفوت عنك».. وحن قلبه وقام الصبى وقبَّل يدى والده، فقال: يا ولدى لو علمت أنك تنصف أنيس الجليس كنت وهبتها لك» فقال «يا والدى كيف لا أنصفها!» فقال له: «أوصيك يا ولدى أنك لا تتزوج عليها ولا تضاررها ولا تبيعها»، فقال له: «يا والدى أنا أحلف لك أنى لا أتزوج عليها ولا أبيعها»، فحلف على ذلك وأقام مع الجارية سنة وأنسى الله تعالى الملك قصة الجارية، وأما المعين بن ساوى فبلغه الخبر لكنه لم يقدر يتكلم لمنزلة الوزير عند السلطان.

فلما مضت السنة دخل الوزير فضل الدين بن خاقان الحمام وخرج وهو عرقان فضربه الهواء فلزمه الوساد، وطال به السهاد وتسلسل به الضعف، فعند ذلك نادى ولده نور الدين

عليا فحضر فقال له: «يا ولدى اعلم أن الرزق مقسوم والأجل محتوم، ولا بد لكل نسمة من شرب كأس الممات». ثم أنشد يقول شعرًا:

أنا ميت فسجل من لا يموت وتحققت أننى سأموت

ثم قال: «يا ولدى، ما لى عندك وصية إلا تقوى الله والنظر فى العواقب، والوصية بالجارية أنيس الجليس» فقال له: «يا أبت، ومن مثلك وقد كنت معروفًا بفعل الخير والدعاء على المنابر»، فقال له: «يا ولدى أرجو من الله القبول» ثم نطق بالشهادتين فكتب من أهل السعادة، فعند ذلك انقلب القصر بالصراخ، واتصل الخبر بالسلطان وسمع أهل المدينة بوفاة الفضل بن خاقان، فبكى عليه الصبيان فى مكاتبها، ونهض ولده نور الدين علي وجهزه، وحضرت الأمراء والوزراء وأرباب الدولة وأهل المدينة، وكان فيمن حضر الجنازة الوزير المعين ابن ساوى، وأنشد بعضهم عند خروج جنازته من الدار شعرًا:

يوم الخميس لقد فارقت أحبابى وغسلونى على لوح من الباب
وجردونى ثيابًا كنت لابسها والبسونى ثيابًا غير أثوابى
وحملونى على أعناق أربعة إلى المصلى وبعض الناس صلى بى
صلوا علىّ صلاة لا سجود لها صلى علي جميع الناس أصحابى
وشيعونى إلى دار مقنطرة يفنى الزمان ولا يفتح لها بابى

ولما واروه التراب، ورجعت الأهل والأصحاب، رجع نور الدين وقد انتحب من البكاء ولسان الحال يقول هذه الأبيات:

هم رحلوا يوم الخميس عشية فودعتهم لما استقلوا وودعوا
فلما تولوا راحت النفس مَعْهُمْ فقلت ارجعى قالت إلى أين أرجع
إلى جسد ما فيه روح ولا دم وما فيه إلا أعظمة تتقعقع
وعيناى قد أعماهما شدة البكا وأذنى صماء فما هى تسمع

ثم مكث شديد الحزن على والده مدة مديدة، فبينما هو ذات يوم من الأيام جالس فى بيت والده إذ طرق الباب فنهض نور الدين علي وفتح الباب، وإذا برجل من ندماء والده وأصحابه قد دخل فقبل يد نور الدين وقال: «يا سيدى من خلف مثلك ما مات، وهذا مصير سيد الأولين والآخرين، يا سيدى طب نفسًا ودع الحزن» فعند ذلك نهض نور الدين إلى القاعة التى للجلوس ونقل إليها ما يحتاجه واجتمع عليه عشرة من أولاد التجار، ثم إنه أكل الطعام وشرب الشراب وجدد مقامًا بعد مقام وصار يعطى ويتكرم، فعند ذلك جاء إليه وكيله وقال له: «يا سيدى نور الدين أما سمعت قول بعضهم: من ينفق ولم يحسب افتقر ولم يشعر: «والشاعر يقول:

أصون دراهمى وأذب عنها لعلمى أنها سيفى وترسى
أأبذلها إلى أعدى الأعادى وأبدل فى الورى سعدى بنحسى
فيأكلها ويشربها هنيئًا ولا يسخو إلى أحد بفلس
وأحفظ درهمى عن كل شخص لئيم الطبع لا يصفو لأنسى

أحب إلى من قـــولى لنذل أنلنى درهمًــا لغــد بخــمس
فــيــا ذل الرجـــال بغــيــر مـــال ولو كـــانت فــضــائلهم كــشــمس»

ثم قال: «يا سيدى هذه النفقة الجزيلة والمواهب العظيمة تفنى المال». فلما سمع نور الدين على من وكيله هذا الكلام نظر إليه وقال له: «جميع ما قلته لا أسمع منه ولا كلمة، فإنى سمعت الشاعر يقول:

إذا مــا ملكت كـــفى ولم أجُـد فــلا سلمت كــفى ولا نهـضت رجلى
فــهــاتوا بخــيــلاً نال مــجــدًا ببــخله وهـاتـــوا أرونى باذلا مــات بالبــذل»

ثم قـال: «اعلم أيهـا الوكيل أنى أريد إذا فـضل عندك قـدر غـدائى أن لا تحـملنى هم عشائى»، فولى الوكيل من عنده إلى حال سبيله، وأقبل نور الدين علىٌّ علَى اللذات فى أطيب عيش وكل من يقول له من ندمائه: «هذا الشىء مليح». يقول: «هو لك هبة». ويقول الآخر: «يا سيدى الدار الفلانية مليحة» فيقول: «هى هبة لك»، ولم يزل نور الدين يعمل لهم أول النهار مقامًا وآخر النهار مقامًا إلى أن مكث سنة على هذا الحال.

وبعد السنة بينما هو قاعد وإذا بالجارية أنيس الجليس تنشد وتقول:

أحـــسنت ظنك بالأيام إذ حـــسنت ولم تخف ســوء مـــا يأتى به القـــدر
وســالمتك الليـــالى فـــاغـتـــررت بهـــا وعند صــفــو الليـــالى يحــدث الكدر

فلما فرغت من شعرها إذا بالباب يطرق. فقام نور الدين فتبعه بعض جلسائه من غير أن يعلم به. فلما فتح الباب وجد وكيله، فقال له نور الدين علي: «ما الخبر؟» فقال له: «يا سيدى الذى كنت أخاف عليك منذ زمان قد وقع»، قال: «وكيف ذلك؟» قال: «اعلم أنه ما بقي تحت يدي شىء يساوى درهمًا ولا أقل ولا أكثر، وهذه دفاتر المصروف الذى صرفته ودفاتر أصل مالك». فلما سمع نور الدين علي هذا الكلام أطرق برأسه إلى الأرض وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله». فلما سمع الرجل الذى تبعه خفيةً خرج ليتسلل عليه، سمع ما قاله له الوكيل رجع إلى أصحابه وقال لهم: «انظروا أى شىء تعملون فإن نور الدين عليا أفلس».

فلما رجع إليهم نور الين علىّ تبين لهم الغم فى وجهه، فعند ذلك نهض واحد من الندماء على قدميه ونظر إلى نور الدين علي وقال له: «يا سيدى عسى أن تأذن لى فى الانصراف»، فقال نور الدين علي: «لماذا الانصراف اليوم؟» فقال: «إن زوجتى تلد ولا يمكننى أن أتخلف عنها، وأريد أن أذهب إليها وأنظرها»، فأذن له، ونهض آخر وقال له: «يا سيدى نور الدين أريد أن أحضر عند أخى فإنه يطاهر ولده» وكل واحد صار يستأذن بحيلة ويذهب إلى حال سبيله، حتى انصرفوا كلهم وبقي نور الدين وحده، فعند ذلك دعا جاريته وقال لها: «يا أنيس الجليس أما تنظرين ما حَلَّ بى؟» وحكى لها ما قاله الوكيل، فقالت: «يا سيدى منذ ليالى هممت أن أقول لك عن هذا الحال فسمعتك تنشد وتقول:

إذا جـادت الدنيـا عليك فـجـد بهـا على النـاس طرا قـبــــــل أن تتلفت
فـلا الجـود يفنيهـا إذا هى أقبلت ولا شح يبـقـيـهـــــــــا إذا هى ولت

فلما سمعتك تنشد هذه الأبيات سكت ولم أبد لك خطابًا» فقال لها نور الدين عليّ: «يا

أنيس الجليس أنت تعرفين أنى ما وهبت مالى إلا لأصحابى، وهم خلونى بلا شىء وأظنهم لا يتركوننى من غير مواساة». فقالت له أنيس الجليس: «والله ما ينفعونك بنافعة»، فقال نور الدين: «فأنا فى هذه الساعة أقوم وأروح، وأطرق أبوابهم لعله أن يحصل منهم شىء فأجعله فى يدى رأس مال وأتاجر فيه، وأترك اللهو واللعب».

ثم إنه نهض من وقته وساعته، وما زال سائرا حتى أقبل على الزقاق الذى فيه أصحابه العشرة، وكانوا كلهم ساكنين فى ذلك الزقاق، فتقدم إلى أول باب وطرقه، فخرجت له جارية وقالت له: «من أنت؟» فقال لها: «قولى لسيدك نور الدين علىّ واقف على الباب، ويقول لك مملوك يقبل أياديك وينتظر فضلك»، فدخلت الجارية وأعلمت سيدها فصاح عليها وقال لها: «ارجعى وقولى له ما هو هنا» فرجعت الجارية إلى نور الدين وقالت له: «يا سيدى، إن سيدى ما هو هنا»، فتوجه نور الدين وقال فى نفسه: «إن كان هذه شحيحًا وامتنع عن مواجهتى فغيره يكون أحسن منه». ثم تقدم إلى الباب الثانى وقال كما قال أولاً، فأنكر الآخر نفسه، فعند ذلك أنشد يقول:

ذهب الذين إذا وقفت ببابهم　　　منوا عليك بالحم وشواء

فلما فرغ من شعره قال: «والله لا بد أن أمتحنهم كلهم لعله يكون فيهم واحد يقوم مقام الجميع» فدار على العشرة فما منهم من فتح الباب ولا أراه نفسه ولا كسر فى وجهه رغيفًا فأنشد يقول:

المرء فى زمن الإقبال كالشجره　　　والناس من حولها ما دامت الثمره
حتى إذا راح عنها حملها رحلوا　　　وخلفوها تقاسى الحر والغبره
تبا لأبناء هذا الدهر كلهم　　　حتى ولا واحد يصفو من العشره

ثم إنه رجع إلى جاريته وقد تزايد همه، فقالت له: «يا سيدى أنا ما قلت لك إنهم لا ينفعونك بنافعة؟» فقال: «والله ما فيهم من أرانى وجهه ولا فيهم أحد يعرفنى»، فقالت له: «يا سيدى بع من أثاث البيت وآنيته إلى أن يدبر الله تعالى، وأنفق أولاً بأول»، فباع إلى أن باع جميع ما فى البيت وما بقى عنده شىء.

فعند ذلك نظر إلى أنيس الجليس وقال لها: «ما نفعل الآن؟» فقالت له: «يا سيدى عندى من الرأى أن تقوم الساعة وتنزل بى إلى السوق وتبيعنى، وأنت تعلم أن والدك اشترانى بعشرة آلاف دينار، فلعل الله يفتح عليك عن قريب من هذا الثمن، وإذا قدر الله لنا الاجتماع معًا فسوف نجتمع». فقال لها: «يا أنيس الجليس ما يهون علىَّ فراقك ساعة واحدة» فقالت له: «يا سيدى ولا أنا، ولكن للضرورة أحكام كما قال الشاعر:

تلجى الضرورات فى الأمور إلى　　　سلوك ما لا يليق بالأدب
ما حامل نفسه على سبب　　　إلا لأمر يليق بالسبب».

فعند ذلك نهض على قدميه وأخذ أنيس الجليس ودموعه تسيل على خده كالمطر، ثم أنشد بلسان الحال وقال:

قفوا زودونى نظرة قبل بينكم　　　أعلل قلبًا كاد بالبين يتلف

فــإن كنتم تلقــون فى ذاك كلفــة   دعــونى أمت وجــدًا ولا تتكلفــوا

ثم مضى ونزل بها إلى السوق وسلمها إلى الدلال وقال له: «يا حاج حسن اعرف قدر ما تنادى عليه»، فقال الدلال: «يا سيدى نور الدين الأصول محفوظة»، ثم قال له: «أما هى أنيس الجليس التى كان اشتراها والدك منى بعشرة آلاف دينار؟» قال: «نعم»، فعند ذلك طلع الدلال على التجار فوجدهم ما اجتمعوا كلهم، فصبر حتى اجتمع سائر التجار واحتبكت السوق بسائر أجناس الجوارى من تركية، وإفرنجية، وشركسية، وحبشية، ونوبية، وتكرورية، وروميـة، وتترية، وجريجية وغير ذلك.

فلما نظر الدلال إلى السوق قد احتبكت تقدم ونهض قائمًا وقال: «يا تجار يا أرباب الأموال، ما كل مدورة جوزة، ولا كل مستطيلة موزة، ولا كل حمراء لحمة، ولا كل بيضاء شحمة، يا تجار معى هذه الدرة التى ما لها قيمة. كم أنادى عليها؟» فقال أحد التجار: «ناد بأربعة آلاف دينار وخمسمائة»، ففتح باب المنادى أربعة آلاف دينار وخمسمائة.

وفيما هو يقول هذا الكلام إذا بالوزير المعين بن ساوى مار بالسوق فنظر إلى نور الدين علي واقفًا فى طرف السوق فقال فى نفسه: «ما بال ابن خاقان واقفًا ههنا؟ أبقى مع هذا الكلب شىء يشترى به الجوارى؟» ثم نظر بعينه، فسمع المنادى وهو واقف فى السوق والتجار حوله، فقال الوزير فى نفسه: «ما أظنه إلا أفلس ونزل بالجارية أنيس الجليس ليبيعها». ثم دعا المنادى فأقبل عليه وقبّل الأرض بين يديه، فقال له: «إنى أريد هذه الجارية التى تنادى عليها»، فما أمكنه المخالفة، فقال له: «يا سيدى بسم الله».

ثم تقدم بالجارية وعرضها عليه فأعجبته، فقال له: «يا حسن كم دفع لك فى هذه الجارية؟» فقال له: «فتح الباب بأربعة آلاف وخمسمائة دينار». فقال المعين: «على بأربعة آلاف وخمسمائة دينار»، فلما سمع التجار ذلك ما قدر واحد منهم أن يزيد درهمًا، بل تأخروا لما يعلمون من ظلم الوزير، ثم نظر المعين بن ساوى إلى الدلال وقال له: «لم وقوفك؟ رح وشاور، الجارية علي بأربعة آلاف دينار ولك خمسمائة دينار».

فتقدم الدلال إلى نور الدين وقال له: «يا سيدى راحت عليك الجارية بلا شىء». فقال له: «وكيف؟» قال له: «نحن فتحنا بابها بأربعة آلاف دينار وخمسمائة، فجاء هذا الظالم المعين ابن ساوى وعبر السوق فلما نظر إلى الجارية أعجبته وقال لى: شاور على أربعة آلاف وخمسمائة، وما أظنه إلا عرف أن الجارية لك. وإن كان فى هذه الساعة يعطيك ثمنها يكون مليحًا، وأنا أعرف من ظلمه أنه يكتب لك ورقة حوالة على بعض عماله، ثم يرسل إليهم ويقول: لا تعطوه شيئًا، فكلما رحت تطالبهم يقولون: الساعة نعطيك. ويعملون هذا الأمر يومًا بعد يوم وأنت عزيز النفس، وبعد أن يضجروا من مطالبتك يقولون: أرنا الورقة، فإذا أخذوا الورقة منك قطعوها. ويروح منك ثمن الجارية».

فلما سمع نور الدين على من الدلال هذه الكلام نظر إليه وقال له: «كيف يكون هذا العمل؟» فقال له: «أنا أشير عليك مشورة فإن قبلت منى كان لك الحظ الأوفر». قال: «وما هى؟» قال: «تجىء هذه الساعة إلى وأنا واقف وسط السوق وتأخذ الجارية من يدى وتلطمها

وتقول لها: فديت يمينى التى حلفتها، وما نزلت بك إلى السوق إلا لأنى حلفت أنه لا بد من إخراجك إليها ومنادا الدلال عليك، فإن فعلت ذلك فربما تنطلى عليه الحيلة وعلى الناس، ويعتقدون أنك ما نزلت بها إلى السوق إلا لأجل إبرار اليمين». فقال: «هذا هو الصواب». ثم إن الدلال فارقه وجاء وسط السوق ومسك يد الجارية وأشار إلى الوزير المعين بن ساوى وقال: «يا مولاى هذا مالكها قد أقبل». ثم جاء نور الدين إلى الدلال ونزع الجارية من يده ولكمها وقال لها: «ويلك نزلت بك إلى السوق لأجل فداء يمينى، وروحى إلى البيت ولا تعودى تخالفينى، ويلك هل أنا محتاج إلى ثمنك حتى أبيعك؟ أنا لو بعت أثاث البيت لجاء قدر ثمنك مرارًا عديدة». فلما نظر المعين بن ساوى إلى نور الدين قال له: «ويلك هل بقى عندك شىء يباع أو يشترى؟» ثم إن المعين بن ساوى أراد أن يبطش به. فعند ذلك نظر التجار إلى نور الدين وكانوا كلهم يحبونه فقال لهم: «ها أنا بين أيديكم وقد عرفتم ظلمه». فقال الوزير: «والله لولاكم لقتلته». ثم أشاروا كلهم إلى نور الدين أن انتصف منه، وقالوا: «ما أحد منا يدخل بينك وبينه». فعند ذلك تقدم نور الدين إلى الوزير ابن ساوى، وكان نور الدين شجاعًا، فجذب الوزير من فوق سرجه ورماه على الأرض، وكان هناك معجنة طين فوقع الوزير فى وسطها، وجعل يلطمه ويلكمه، فجاءت لكمة على أسنانه فاختضبت لحية الوزير بدمه. وكان مع الوزير عشرة مماليك، فلما رأوا سيدهم فعل به هذه الفعال وضعوا أيديهم على مقابض سيوفهم، وأرادوا أن يجردوها ويهجموا على نور الدين علي ليقطعوه، وإذا بالناس قالوا للمماليك: «هذا وزير وهذا ابن وزير، وربما اصطلحا وقتًا آخر فتصيرون مبغوضين عند كل منهما، وربما أصابته ضربة فتموتون جميعًا أقبح الميتات ومن الرأي أن لا تدخلوا بينهما».

فلما فرغ نور الدين علي من ضرب الوزير أخذ جاريته ومضى إلى داره، وأما الوزير فمضى من ساعته وبقى قماشه ثلاثة ألوان: طين أسود ودم أحمر ورماد.

فلما رأى نفسه على هذه الحالة أخذ برشًا وجعله فى رقبته وأخذ فى يده حزمتين من الحلفاء، وسار إلى أن وقف تحت القصر الذى فيه السلطان وصاح: «يا ملك الزمان مظلوم مظلوم»، فأحضروه بين يديه فتأمله وإذا به الوزير الكبير فقال له: «يا وزير من فعل بك هذه الفعال؟» فبكى وانتحب وأنشد يقول:

أيظلمنى الزمان وأنت فيه ... وتأكلنى الذئاب وأنت ليث
ويروى من حياضك كل ظام ... وأظمأ فى حماك وأنت غيث

ثم قال: «يا سيدى أهكذا يا سيدى كل من يحبك ويخدمك تجرى عليه هذه الفعال؟» قال له السلطان: «عجل وقل لى كيف جرى لك هذا ومن فعل بك هذه الفعال وأنت حرمتك من حرمتى؟» فقال الوزير: «اعلم يا سيدى أنى خرجت اليوم إلى سوق الجوارى على أنى اشترى جارية طباخة فرأيت فى السوق جارية ما رأيت طول عمرى مثلها، فأردت أن أشتريها لمولانا السلطان، فسألت عنها الدلال وعن سيدها. فقال الدلال: إنها لعلى بن الفضل بن خاقان، وكان مولانا السلطان أعطى سابقًا أباه عشرة آلاف دينار ليشترى بها جارية مليحة، فاشترى تلك الجارية فأعجبته، فبخل بها على مولانا السلطان فأعطاها ولده، فلما مات أبوه باع ابنه جميع

ما عنده من الأملاك والبساتين والأوانى حتى أفلس، فنزل بالجارية إلى السوق على أن يبيعها وسلمها إلى الدلال، فنادى عليها وزايد التجار فيها حتى أوصلوا ثمنها إلى أربعة آلاف دينار.

«فقلت لعقلى: أشترى هذه لمولانا السلطان فإن ثمنها فى الأصل كان من عنده. فقلت: يا ولدى خذ ثمنها منى أربعة آلاف دينار فلما سمع كلامى نظر إلي وقال: يا شيخ النحس أنا أبيعها لليهودى والنصرانى ولا أبيعها لك، فقلت: أنا ما أشتريها لنفسى وإنما أشتريها لمولانا السلطان الذى هو ولي نعمتنا. فلما سمع منى هذا الكلام اغتاظ وجذبنى ورمانى عن الجواد وأنا شيخ كبير، وضربنى بيده حتى تركنى كما ترانى، وأنا ما أوقعنى فى هذا كله إلا لأنى جئت أشترى هذه الجارية لك».

ثم إن الوزير رمى نفسه على الأرض وجعل يبكى ويرتعد، فلما نظر السلطان إلى حالته وسمع مقالته قام عرق الغضب بين عينيه، ثم التفت إلى أرباب الدولة وإذا بأربعين رجلاً ضاربين سيوفًا وقفوا بين يديه فقال لهم السلطان: «انزلوا الساعة إلى دار علي بن خاقان وانهبوها واهدموها واثتونى به وبالجارية مكتفين واسحبوهما على وجوههما». فقالوا له: «السمع والطاعة». ثم إنهم لبسوا العدد وعولوا على المسير إلى دار نور الدين علي.

وكان عند السلطان حاجب يقال له علم الدين سنجر، وكان أولا من مماليك الفضل بن خاقان والد نور الدين علي ثم انتقلت منزلته إلى أن جعله السلطان حاجبًا عنده فلما سمع مرسوم السلطان ورأى الأعداء تجهزوا إلى قتل ابن سيده ما هان عليه، فغاب من قدام السلطان وركب جواده وسار إلى أن جاء إلى بيت نور الدين علي فطرق الباب فخرج له نور الدين. فلما رآه عرفه فقال: «يا سيدى ما هذا الوقت سلام ولا كلام واسمع ما قال الشاعر:

ونفسك فز بها إن خشيت ضيمًا ... وخل الدار تنعى من بناها
فإنك واجد أرضًا بأرض ... ونفسك لم تجد نفسًا سواها»

فقال نور الدين: «يا علم الدين ما الخبر؟» فقال له: «انهض وفز بنفسك أنت والجارية فإن المعين بن ساوى نصب لكما شركًا، ومتى وقعتما فى يده قتلكما، وقد سير لكما السلطان أربعين ضاربًا بالسيف، والرأي عندي أن تهربا قبل أن يحل الضرر بكما». ثم إن سنجرًا مد يده إلى جيبه فوجد فيه أربعين دينارًا فأخذها وأعطاها نور الدين وقال له: «يا سيدى خذ هذه وسافر بها ولو كان معى أكثر من ذلك لأعطيتك إياه». فعند ذلك دخل نور الدين على الجارية وأعلمها بذلك فتخبلت يداها، ثم خرج الاثنان فى الوقت إلى ظاهر المدينة وأسبل الله عليهما ستره، ومشيا إلى ساحل البحر فوجدا مركبا يتجهز للسفر والرئيس واقف فى وسط المركب يقول: «من بقي له حاجة من زاده أو من وداع أهله أو من نسي حاجة فليأت بها فإننا متوجهون»، فقال كلهم: «لم يبق لنا شغل يا رئيس»، فعند ذلك قال الرئيس لجماعته: «هيا حلوا الأطراف وأقلعوا الأوتاد» فقال نور الدين علي: «إلى أين يا رئيس؟» فقال: «إلى دار السلام بغداد».

أما نور الدين علي فلما سمع كلام الرئيس فرح واستبشر وصعد المركب وصعدت الجارية معه وأرخوا القلوع، فخرج المركب كأنه يطير بجناحيه كما قال فيه بعضهم وأحسن:

انظر إلى مــركب يســبـيك منظره يســابق الريح فى ســيــر ومــجــراء
كــأنه طائر قــد مــد أجنحــة أتى من الجــو منقــضــا على الماء

فسار بهم المركب وطابت لهم الريح. هذا ما جرى لهؤلاء.

وأما ما جرى للمماليك فإنهم جاؤوا إلى بيت الوزير نور الدين علي فكسروا الأبواب ودخلوا وطافوا الأماكن، فلم يقعوا لهما على خبر، فهدموا الدار ورجعوا وأعلموا السلطان، فقال السلطان: «اطلبوهما من أى مكان كانا فيه». فقالوا: «السمع والطاعة».

ثم نزل الوزير المعين بن ساوى إلى بيته وكان خلع عليه السلطان خلعة واطمأن قلبه وقال له السلطان: «ما يأخذ بثأرك إلا أنا»، فدعا له بطول العمر والبقاء، ثم إن السلطان أمر أن ينادى فى المدينة: «يا معشر الناس كافة قد أمر مولانا السلطان أن من عثر على نور الدين ابن خاقان وجاء به إلى السلطان خلع عليه خلعة وأعطاه ألف دينار، ومن أخفاه أو عرف مكانه ولم يخبر به يستحق ما يجرى له من النكال»، فوقع الطلب على نور الدين علي فما وجد له حس ولا خبر. فهذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من أمر نور الدين وجاريته فإنهما وصلا بالسلامة إلى بغداد، فقال الرئيس: «هذه بغداد وهى مدينة أمينة قد ولى عنها الشتاء ببرده، وأقبل عليها فصل الربيع بورده، وأزهرت أشجارها وجرت أنهارها».

فعند ذلك خرج نور الدين وجاريته من المركب وأعطى الرئيس خمسة دنانير وسارا قليلاً فرمتهما المقادير بين البساتين، فجاءا إلى مكان فوجداه مكنوسًا مرشوشًا بمصاطب طولانية وقواديس معلقة ملآنة بالماء وفوقه مكعب من القصب بطول الزقاق، وفى صدر الزقاق باب بستان إلا أنه مغلق، فقال نور الدين على للجارية: «إن هذا محل مليح»، فقالت: «يا سيدى اقعد بنا ساعة على هذه المصاطب نأخذ لنا راحة»، فراحا وجلسا على المصاطب، ثم غسلا وجهيهما وأيديهما وضربهما الهواء فناما، جلَّ من لا ينام.

وكان هذا البستان يسمى بستان النزهة وفيه قصر يقال له قصر الفرجة والتماثيل، وهو للخليفة هارون الرشيد، وكان الخليفة إذا ضاق صدره يأتى إلى هذا البستان والقصر ويقعد فيه، وكان القصر له ثمانون شباكًا ومعلق فيها ثمانون قنديلاً، وفى وسطه شمعدان كبير من الذهب، فإذا دخله الخليفة أمر الجوارى أن تفتح الشبابيك وأمر بإسحاق بن إبراهيم النديم، والجوارى أن يغنوا فينشرح صدره ويزول همه، وكان للبستان خولي شيخ كبير يقال له الشيخ إبراهيم، وكان إذا خرج فى بعض حاجته يجد المتفرجين يعيثون بالبستان فيغضب غضبًا شديدًا، فصبر الشيخ حتى جاء عنده الخليفة فى بعض الأيام فأعلمه بذلك، فقال الخليفة: «أى من أصبته على باب البستان افعل معه ما أردت».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية نور الدين علي وأنيس الجليس والشيخ إبراهيم الخولي

قالت شهرزاد: فلما كان ذلك اليوم خرج الشيخ إبراهيم الخولى لقضاء حاجة عرضت له فوجد الاثنين نائمين على باب البستان مغطيين بإزار فقال: «والله طيب، هذان ما عرفا أن

الخليفة أعطانى إذنًا ومرسومًا أن كل ما لقيته هنا أقتله، ولكن أنا أضرب هذين ضربًا شنيعًا حتى لا يقترب أحد من باب البستان» وقطع جريدة خضراء وخرج إلى مكانهما ورفع يده حتى بان بياض إبطه وأراد ضربهما، ففكر بنفسه وقال: «يا إبراهيم كيف تضربهما ولم تعرف حالهما وقد يكونان غريبين أو من أبناء السبيل ورمتهما المقادير هنا، فأنا أكشف وجهيهما وأنظر إليهما»، فرفع الإزار عن وجهيهما وقال: «هذان حسنان لا ينبغى أن أضربهما» فغطى وجهيهما وتقدم إلى رجل نور الدين علي وجعل يكبسها.

ففتح عينه فوجد عند رجليه شخيًا كبيرًا عليه هيبة ووقار فاستحى نور الدين علي ولم رجليه وقعد على حيله وأخذ يد الشيخ إبراهيم وقبَّلها، فقال له الشيخ: «يا ولدى من أين أنت؟» فقال: «يا سيدى نحن غرباء» وفرت الدمعة من عينيه. فقال الشيخ إبراهيم: «يا ولدى اعلم أن النبى ﷺ أوصى بإكرام الغريب»، ثم قال له: «يا ولدى ما تقوم تدخل إلى البستان وتتفرج فيه وينشرح صدرك»، فقال له نور الدين: «يا سيدى هذا البستان لمن؟» قال: «يا ولدى هذا البستان ورثته من أهلى»، وما كان قصد الشيخ إبراهيم بهذا الكلام إلا أن يطمئنهما ويدخلا البستان. فلما سمع نور الدين شكره وقام هو وجاريته والشيخ إبراهيم قدامهما، فدخلوا البستان فإذا هو بستان وأى بستان، بابه مقنطر كأنه إيوان، عليه كروم وأعنابه مختلفة الألوان: الأحمر كأنه ياقوت؛ والأسود كأنه أبنوس، فدخلوا تحت عريشه فوجدا فيها الأثمار صنوانا وغير صنوان، والأطيار على الأغصان تغرد بالألحان، والهزار يرجع على الأفنان؛ والقمري قد ملأ بصوته المكان، والشحرور فى تغريده كأنه إنسان، والفاخت كأنه شارب نشوان، والأشجار قد أينعت منها الأثمار حتى صار فيها من كل فاكهة زوجان؛ والمشمش ما بين كافورى ولوزى وخراسانى، والبرقوق كأنه لون الغضبان، والقراصية شهية الطعم تحت الأسنان، والتين فى أحمر وأبيض لونان، والزهر كأنه اللؤلؤ والمرجان، والورد يفضح بحمرته أكسية المرجان؛ والبنفسج كأنه كبريت علق عليه بالليل النيران، والآس والمنثور والخزامى مع شقائق النعمان، وتكللت تلك الأوراق بمدامع الغمام، وضحك ثغر الأقحوان، وصار النرجس ناظرًا إلى الورد بعيون السودان والأترج كأنه أكواب؛ والليمون كبنادق من ذهب، وفرشت الأرض بالزهر من سائر الألوان، وأقبل الربيع فأشرق ببهجته المكان، والنهر فى خرير، والطير فى هدير، والريح فى صفير لاعتدال الزمان. ثم دخل بهما الشيخ إبراهيم القاعة المعلقة فنظرا إلى حسن تلك القاعة وتلك الشموع المذكورة التى فى تلك الشبابيك، فتذكر نور الدين المقامات التى مضت له فقال: «والله إن هذا المقام مليح». ثم إنهما جلسا فقدم لهما الشيخ أكلاً فأكلا كفايتهما ثم غسلا أيديهما. وتقدم نور الدين إلى شباك من تلك الشبابيك وصاح على جاريته فأتت إليه فصارا ينظران إلى الأشجار وقد حملت سائر الأثمار، ثم التفت نور الدين إلى الشيخ إبراهيم وقال له: «يا شيخ إبراهيم ما عندك شىء من الشراب لأن الناس يشربون بعد أن يأكلوا؟» فأتاه الشيخ إبراهيم بماء حلو بارد عذب، فقال له: «يا شيخ إبراهيم ما هذا الشراب الذى أريده»، فقال له: «لعلك تريد الخمرة؟» فقال له نور الدين: «نعم» فقال: «أعوذ بالله منها إن لى ثلاث عشرة سنة ما شممت لها رائحة لأن النبى لعن شاربها وعاصرها

وبائعها ومبتاعها»، فقال له نور الدين: «اسمع منى كلمتين» قال له: «قل». فقال: «هذا الحمار الملعون إذا لعن هل يصيبك من لعنته شيء؟» قال: «لا». قال: «خذ هذا الدينار وهذين الدرهمين واركب هذا الحمار وقف إلى بعيد، وأى من وجدته يشترى فناده وقل له: خذ هذين الدرهمين واشتر لى بهذا الدينار خمرا واحمله على الحمار، ولا تكن أنت حملته ولا اشتريته ولا أصابك منه شيء»، فقال الشيخ إبراهيم وقد ضحك من كلامه: «يا ولدى ما رأيت أظرف منك ولا أحلى من كلامك».

ثم إن الشيخ إبراهيم فعل ما قاله نور الدين فشكره على ذلك وقال له: «نحن صرنا محسوبين عليك وما عليك إلا الموافقة فادخله وخذ منه ما شئت، فإن فيه فوق ما تريد» فدخل نور الدين الحاصل فرأى فيه أوانى من الذهب والفضة والبلور مرصعة بأصناف الجواهر، فأخرجها ورصها وسكب الخمرة فى البواطى والقنانى.

وفرح بما رأى واندهش وأتاهما الشيخ إبراهيم بالفاكهة والمشموم، ثم إن الشيخ راح وقعد بعيدًا عنهما، فشربا وانبسطا وقد تحكم معهما الشراب واحمرت خدودهما وبان أثر المدام فى عيونهما وانسدلت شعورهما وتبدلت ألوانهما، فقال الشيخ إبراهيم: «ما لى أنا قاعد بعيدًا، وما لى لا أقعد عندهما، وأى وقت التقى فى حضرتى مثل هذين الاثنين اللذين كأنهما قمران؟» ثم إن الشيخ إبراهيم تقدم وقعد فى طرف الإيوان فقال له نور الدين علي: «يا سيدى بحياتى عليك تقدم إلينا»، فتقدم الشيخ إبراهيم إليهما فملأ نور الدين قدحًا ونظر إلى الشيخ إبراهيم وقال له: «اشرب حتى تنظر ما طعمه»، فقال الشيخ: «أعوذ بالله إن لى ثلاث عشرة سنة ما فعلت شيئًا من ذلك»، فتغافل عنه نور الدين وشرب القدح ورمى روحه على الأرض وأظهر أنه غلب عليه السكر، فعند ذلك نظرت إليه أنيس الجليس وقالت له: «يا شيخ إبراهيم انظر هذا كيف عمل معى»، قال لها: «يا سيدتى ما له؟» قالت: «دائمًا يعمل معى هكذا فيشرب ساعة وينام، وأبقى أنا وحدى ما أجد لى نديمًا ينادمنى على قدحى، ولا من أغنى له على قدحه»، فقال لها الشيخ إبراهيم: «والله ما هذا طيب». ثم إن الجارية ملأت قدحًا ونظرت إلى الشيخ إبراهم وقالت له: «بحياتى إلا ما أخذته وشربته ولا ترده واجبر قلبى»، فمد الشيخ إبراهيم يده وأخذ القدح وشربه وملأت له ثانيًا وجعلته على الشمعة وقالت له: «يا سيدى بقى لك هذا» فقال لها: «والله لا أقدر أن أشربه يكفينى الذى شربته»، فقالت له: «لا بد منه» فأخذ القدح وشربه، ثم أعطته الثالث فأخذه وأراد أن يشربه وإذ بنور الدين هم وقعد على حيله. أما نور الدين فلما قام وقعد التفت إلى الشيخ وقال: «يا شيخ إبراهيم ما هذا، أنا ما حلفت عليك من ساعة فأبيت وقلت: أنا لى ثلاث عشرة سنة ما فعلته؟» فقال الشيخ إبراهيم وقد استحى: «والله ما لى ذنب إنما هى قالت لى». فضحك نور الدين وقعدوا للمنادمة، فالتفتت الجارية وقالت لسيدها سرا فيما بينهما: «سيدى اشرب ولا تحلف على الشيخ إبراهيم حتى أفرجك عليه» فجعلت الجارية تملأ وتسقى سيدها وسيدها يملأ ويسقيها ولم يزالا كذلك مرة بعد مرة فنظر إليهما الشيخ إبراهيم وقال: «ما هذه المعاشرة لم لا تسقينى يا أخى ما هذا الحال يا مبارك؟» فضحكا من كلامه حتى استلقيا على ظهورهما. ثم شربا

وسقياه.

وما زالوا فى المنادمة إلى ثلث الليل، فعند ذلك قالت الجارية: «يا شيخ إبراهيم عن إذنك هلى أقوم وأوقد شمعة من هذا الشمع المصفوف؟» فقال لها: «قومى ولا توقدى إلا شمعة واحدة»، فنهضت على قدميها وابتدأت من أول الشمع إلى أن أوقدت الثمانين شمعة، ثم قعدت وبعد ذلك قال نور الدين: «يا شيخ إبراهيم وأنا ما قسمى عندك أماتخلينى أوقد قنديلاً من هذه القناديل؟» فقال له الشيخ إبراهيم: «قم وأوقد قنديلاً واحدًا ولا تتثاقل أنت الآخر» فقام وابتدأ من أولها إلى أن أوقد الثمانين قنديلاً، فعند ذلك رقص المكان، فقال لهما الشيخ إبراهيم وقد غلب عليه السكر: «أنتما اجرأ منى؟».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: ثم إنه نهض على قدميه وفتح الشبابيك جميعًا، وجلس وإياهما ينادمون ويتناشدون الأشعار وقد زهر بهم المكان، فقدر القادر الذى جعل لكل شىء سببًا، أن الخليفة فى تلك الساعة تطلع ونظر إلى الشبابيك التى فى ناحية دجلة فى ضوء القمر، فنظر ضوء القناديل والشموع فى البحر ساطعًا، فلاحت من الخليفة التفاتة فرأى قصر البستان يزهر من تلك الشموع والقناديل فقال: «على بجعفر البرمكى». فما كان إلا وقد حضر بين يدى أمير المؤمنين فقال له: «يا كلب الوزراء أتؤخذ منى مدينة بغداد ولا تعلمنى» فقال له جعفر: «ما هذا الكلام؟» فقال له: «لو أن مدينة بغداد لم تؤخذ منى، ما كان قصر التماثيل يتوقد بالقناديل والشموع وقد فتحت شبابيكه، ويلك من الذى يستجرئ يفعل هذه الفعال إلا إذا كانت الخلافة أخذت منى؟» فقال جعفر وقد ارتعدت فرائصه: «ومن أخبرك بأن قصر التماثيل موقد وفتحت شبابيكه؟» فقال له: «تقدم إلي وانظر».

فتقدم جعفر إلى الخليفة ونظر ناحية البستان، فوجد البستان يشتعل بالمصابيح فى حندس الظلام، فأراد جعفر أن يعتذر عن الشيخ إبراهيم الخولى ربما يكون هذا الأمر بإذنه لما رأى فيه من المصلحة فقال: «يا أمير المؤمنين كان الشيخ إبراهيم فى الجمعة التى مضت قال لى: «يا جعفر إنى اشتهى أن أفرح أولادى فى حياة أمير المؤمنين وحياتك»، فقلت له: «إلى أى شىء تحتاج؟» فقال لى: «تأخذ لى مرسومًا من الخليفة بأنى أطاهر أولادى فى القصر» فقلت له: «رح طهرهم وأنا أجتمع بالخليفة وأعلمه بذلك، فراح من عندى على هذا الحال ونسيت أن أعلمك». فقال الخليفة: «يا جعفر كان لك عندى ذنب واحد، فصار لك عندى ذنبان، لأنك أخطأت من وجهين الوجه الأول أنك ما أعلمتنى بذلك، والوجه الثانى أنك ما بلغت الشيخ إبراهيم مقصوده، فإنه ما جاء وقال لك هذا الكلام إلا تعريضًا بطلب شىء من المال يستعين به؛ فلا أعطيته شيئًا ولا أعلمتنى». فقال جعفر: «يا أمير المؤمنين نسيت». فقال الخليفة: «وحق آبائى وأجدادى ما أتم بقية ليلتى إلا عنده، فإنه رجل صالح يقوم بالمشائخ والفقراء ويدعوهم، ويكونون هذه الليلة مجتمعين عنده، عسى دعوة واحد منهم يحصل لنا بعض خير فى الدنيا والآخرة، وفى هذا الأمر مصالح لهم بحضورى عنده ويفرح الشيخ إبراهيم»، فقال

جعفر: «يا أمير المؤمنين الوقت أمسى وهم الساعة على فروغ». فقال الخليفة: «لا بد من الرواح عندهم». فسكت جعفر وتحير وبقى لا يدرى ما يفعل.

حكاية نور الدين علي وأنيس الجليس والخولي والخليفة هارون الرشيد

فنهض الخليفة على قدميه وبقي جعفر بين يديه، ومعهما مسرور الخادم، ومشى الثلاثة متنكرين من قصر الخلافة وجعلوا يشقون الأزقة، وهم فى زي التجار إلى أن وصلوا إلى باب البستان المذكور، فتقدم الخليفة فرأى باب البستان مفتوحًا، فتعجب وقال: «انظر يا جعفر كيف خلى الشيخ إبراهيم الباب مفتوحًا إلى هذا الوقت». ثم إنهم دخلوا إلى أن انتهوا إلى آخر البستان ووقفوا تحت القصر، فقال الخليفة: «يا جعفر أريد أن أتسلل قبل أن أطلع عليهم حتى أنظر أى شىء هم فيه، وأنظر إلى المشايخ، فإنى إلى الآن لم أسمع لهم صوتًا ولا فقيرًا يذكر الله». ثم إن الخليفة نظر فرأى شجرة جوز عالية فقال: «يا جعفر أريد أن أصعد على هذه الشجرة فإن فروعها قريبة من الشبابيك وأنظر إليهم».

ثم إن الخليفة طلع فوق الشجرة ولم يزل يتعلق من فرع إلى فرع إلى أن طلع على الفرع الذى يقابل الشباك وقعد فوقه، ونظر من شباك القصر فرأى صبية وصبيًا كأنهما قمران سبحان من خلقهما وصورهما، ورأى الشيخ إبراهيم قاعدًا وفى يده قدح وهو يقول: «الشرب بلا طرب ما هو فلاح. فإنى سمعت الشاعر يقول:

أدرها بالكبير وبالصغير ... وخذها من يد القمر المنير
ولا تشرب بلا طرب فإنى ... رأيت الخيل يشرب بالصفير

فلما عاين الخليفة من الشيخ إبراهيم هذه الفعال قام عرق الغضب بين عينيه ونزل وقال: «يا جعفر أنا ما رأيت الصالحين على هذا الحال أبدًا، فاطلع أنت الآخر على هذه الشجرة وانظر لئلا تفوتك بركات الصالحين».

فلما سمع جعفر كلام أمير المؤمنين صار متحيرًا فى أمره وصعد إلى أعلى الشجرة وإذا به نظر فرأى نور الدين والشيخ إبراهيم والجارية، وكان الشيخ إبراهيم فى يده القدح، فلما عاين جعفر تلك الحالة أيقن بالهلاك ونزل ووقف بين يدى أمير المؤمنين.

فقال له الخليقلة: «يا جعفر الحمد لله الذى جعلنا من المتبعين لظاهر الشريعة». فلم يقدر جعفر أن يتكلم من شدة الخجل. ثم نظر الخليفة إلى جعفر وقال: «يا ترى من أوصل هؤلاء إلىَ هذا المكان، ومن أدخلهم قصرى ولكن مثل حسن هذا الصبى وهذه الصبية ما رأت عينى قط». فقال جعفر وقد ترجى رضاء الخليفة: «صدقت يا مولانا السلطان» فقال: «يا جعفر اصعد بنا إلى هذا الفرع الذى هو مقابلهم لنتفرج عليهم». فصعد الاثنان إلى الشجرة ونظراهم فسمعا الشيخ إبراهيم يقول: «يا سادتى قد تركت الوقار بشرب العقار، ولا يلذ ذلك إلا بنغمات الأوتار» فقالت له أنيس الجليس: «يا شيخ إبراهيم لو كان عندنا شىء من آلات الطرب لكان سرورنا كاملا» فلما سمع الشيخ إبراهيم كلام الجارية نهض قائمًا على قدميه،

فغاب الشيخ إبراهيم وعاد ومعه عودٌ، فتأمله الخليفة فإذا عود أبى إسحاق النديم، فقال الخليفة: «إن غنت هذه الجارية قبيحًا لأصلبنكم كلكم، وإن غنت مليحًا فإنى أعفو عنهم وأصلبك أنت»، فقال جعفر: «اللهم اجعلها تغنى قبيحًا» فقال الخليفة: «لأى شىء؟» فقال جعفر: «لأجل أن تصلبنا كلنا نؤنس بعضنا البعض»، فضحك الخليفة من كلامه. ثم إن الجارية أخذت العود وتفقدته وأصلحت أوتاره وضربت ضربًا يذيب الحديد ويفطن البليد ثم أنشدت وجعلت تقول:

يا ناظرين مساكينًا محبينا ... ألا ارحموا كل من قد كان محزونا

مهما فعلتم فإنا مستحقونا ... نحن استجرنا لكم لا تشمتوا فينا

فقال الخليفة: «والله طيب يا جعفر عمرى ما سمعت صوتًا مطربًا مثل هذا». فقال جعفر: «لعل الخليفة ذهب ما عنده من الغيظ؟» قال: «نعم ذهب» ثم نزل من فوق الشجرة هو وجعفر ثم التفت إلى جعفر وقال: «أريد أن أطلع وأجلس عندهم، وأسمع الصبية تغنى قدامى»، فقال جعفر: «يا أمير المؤمنين إذا طلعت عليهم ربما تكدروا، وأما الشيخ إبراهيم فيموت من الخوف» فقال الخليفة: «يا جعفر لا بد أن تعرفنى كيف أتحيل عليهم بحيلة، وأدخل عليهم من غير أن يشعروا بى».

ثم إن الخليفة وجعفرًا ذهبا إلى ناحية دجلة وهما متفكران فى هذا الأمر وإذا بصياد واقف يصطاد تحت شبابيك القصر، وكان الخليفة سابقًا صاح على الشيخ إبراهيم وقال له: «ما هذا الحس الذى سمعته تحت شبابيك القصر؟» فقال له الشيخ إبراهيم: «صوت صيادى السمك»، فقال: «انزل وامنعهم من ذلك الموضع».

فلما كانت تلك الليلة جاء صياد سمك يسمى كريما ورأى باب البستان مفتوحًا فقال فى نفسه: «هذا وقت غفلة، اغتنم فى هذا الوقت صيد السمك»، ثم أخذ شبكته وطرحها فى البحر وإذا بالخليفة وحده واقف على رأسه فعرفه الخليفة فقال له: «يا كريم»، فالتفت إليه لما سمعه يسميه باسمه، فلما رأى الخليفة ارتعدت فرائصه وقال: «يا أمير المؤمنين ما فعلته استهزاء بالمرسوم ولكن الفقر والعيلة قد حملانى على ما ترى»، فقال الخليفة: «اصطد على اسمى» فتقدم الصياد وقد فرح وطرح الشبكة وصبر حتى أخذت حدها وثبتت فى القرار، ثم جذبها إليه فطلع فيها من أنواع السمك.

ففرح بذلك الخليفة فقال: «يا كريم انزع ثيابك»، فخلع ثيابه وكانت عليه جبة فيها مائة رقعة من الصوف الخشن، وقد علقت بها أوساخ وأقذار، ونزع من على رأسه عمامة مضى عليها ثلاث سنين ما رأى خرقة إلا خيطها عليها، فلما نزع الجبة والعمامة خلع الخليفة من فوق جسمه ثوبين اسكندرى وبعلبكى من حرير وملوطة وفرجية، ثم قال للصياد: «خذها»، ولبس الخليفة جبة الصياد وعمامته وضرب له لثامًا، ثم قال للصياد: «رح أنت إلى شغلك» فقبل رجل الخليفة وشكره وجعل يقول:

أوليتنى نعمى أبوح بشكرها ... وكفيتنى كل الأمور بأسرها

فلأشكرنك ما حييت وإن أمت ... شكرتك منى أعظمى فى قبرها

فما فرغ الصياد من شعره حتى دب القمل على جلد الخليفة فصار يقبض بيده اليمين

والشمال من على رقبته ويرميه ثم قال: «يا صياد ويلك ما هذا إلا قمل كثير فى هذه الجبة». فقال: «يا سيدى هذه الساعة يؤلمك فإذا مضت عليك جمعة لا تحس به ولا تفكر فيه». فضحك الخليفة وقال له: «ويلك كيف أخلى هذه الجبة على جسدى؟» فقال الصياد: «إنى اشتهى أن أقول لك كلامًا». فقال له: «قل ما عندك» فقال: «خطر ببالى يا أمير المؤمنين أنك إن أردت أن تتعلم الصيد لأجل أن يبقى فى يدك صنعة تنفعك لا يناسبك إلا هذه الجبة». فضحك الخليفة من كلام الصياد ثم ولى الصياد إلى حال سبيله. أما الخليفة فأخذ مقطف السمك ووضع فوقه قليلاً من الخضرة، وأتى به إلى جعفر ووقفت بين يده، فاعتقد جعفر أنه كريم الصياد فخاف عليه وقال له: «يا كريم أى شىء جاء بك إلى هنا. انج بنفسك فإن الخليفة هذه الليلة فى البستان ومتى رآك راحت رقبتك»، فلما سمع الخليفة كلام جعفر ضحك، فلما ضحك عرفه جعفر فقال له: «لعلك مولانا السلطان»، فقال الخليفة: «نعم يا جعفر وأنت وزيرى وجئت أنا وإياك هنا وما عرفتنى، فكيف يعرفنى الشيخ إبراهيم وهو سكران، فكن مكانك حتى أرجع إليك». ثم إن الخليفة تقدم إلى باب القصر وطرقه طرقًا خفيفًا، فقال نور الدين: «يا شيخ إبراهيم باب القصر يدق»، فقال الشيخ إبراهيم: «من بالباب؟» فقال له: «أنا يا شيخ إبراهيم» فقال له: «من أنت؟» قال: «أنا كريم الصياد، وسمعت أن عندك أضيافًا فجئت إليك بشىء من السمك فإنه مليح»، فلما سمع نور الدين سيرة السمك فرح هو وجاريته وقالا: «يا سيدى افتح له ودعه يدخل إلينا بالسمك الذى معه».

ففتح الشيخ إبراهيم الباب فدخل الخليفة وهو فى صورة الصياد وابتدأ بالسلام، فقال له الشيخ إبراهيم: «أهلاً باللص السارق المقامر تعال أرنا السمك الذى معك»، فأراهم إياه، فلما نظروه فإذا هو حى يتحرك، فقالت الجارية: «يا سيدى إن هذا السمك مليح يا ليته مقلى»، فقال الشيخ إبراهيم: «يا سيدتى صدقت»، ثم إنه قال للخليفة: «يا صياد لأى شىء ما جئت بهذا السمك مقليا؟ قم الآن واقله لنا وهاته لنا»، فقال الخليفة: «حاضر أقليه لكم وأجىء به». فقالوا له: «هيا».

فقام الخليفة يجرى حتى وصل إلى جعفر وقال له: «يا جعفر» فقال: «نعم يا أمير المؤمنين خيرًا؟» فقال له: «طلبوا السمك منى مقليا»، فقال جعفر: «يا أمير المؤمنين، هاته وأنا أقليه لهم»، فقال الخليفة: «وتربة أجدادى ما يقليه إلا أنا بيدى».

ثم إن الخليفة أتى إلى خص الخولى وفتش فيه، فوجد كل ما يحتاج إليه حتى الملح والزعفران والصعتر وغير ذلك، فتقدم للكانون وعلق الطاجن وقلاه قليًا مليحًا، فلما نضج جعله على ورق الموز، وأخذ من البستان نقلاً وليمونًا، وذهب بالسمك ووضعه بين أيديهم، فتقدم الصبى والصبية والشيخ إبراهيم وأكلوا، فلما فرغوا من الأكل غسلوا أيديهم فقال نور الدين: «يا صياد أعذرنى لو عرفتنى قبل الذى حصل لى، لكنت نزعت مرارة الفقر من قلبك، ولكن خذ هذا على حسب البركة»، ثم رمى قطعة نقود للخليفة فأخذها الخليفة وقبلها ودفعها فى جيبه، وما كان مراد الخليفة بذلك إلا سماع الغناء.

فقال له الخليفة: «أحسنت وتفضلت، لكن مرادى من تفضلاتك العميمة أن تأمر

الجارية تغنى لنا صوتًا حتى أسمعها»، فقال نور الدين على: «يا أنيس الجليس بحياتى غنى لنا شيئًا من شأن خاطر هذا الصياد، لأنه يريد أن يسمعك» فلما سمعت الجارية كلام سيدها أخذت العود وحركته بعد أن أصلحت أوتاره وأنشدت تقول:

وغادة مسكت للعود أنملها ... فعادت النفس عند الجس تختلس
غنّت فأبرى غناها من به صمم ... وقال أحسنت حقا من به خرس

ثم إنها ضربت ضربًا بديعًا إلى أن أذهلت العقول وأنشدت تقول هذه الأبيات:

ولقد شرفتا إذ نزلتم أرضنا ... ومحا سناكم ظلمة الديجور
فيحق لى أنى أخلق منزلى ... بالمسك والماورد والكافور

فعند ذلك اضطرب الخليفة ولم يملك نفسه من شدة الطرب إلى أن قال: «طيب طيب طيب». فقال نور الدين: «يا صياد هل أعجبتك الجارية؟» فقال الخليفة: «أى والله». فقال نور الدين: «هى هبة منى إليك هبة كريم لا يرد عطاؤه، ولا يرجع فى هبته»، ثم إن نور الدين نهض قائمًا على قدميه وأخذ ملوطة ورماها على الصياد، وأمره أن يخرج ويروح بالجارية، فنظرت الجارية إليه وقالت له: «يا سيدى أنت رائح بلا وداع، وإن كان ولا بد فقف حتى أودعك وأشرح حالى»، ثم أنشدت تقول:

لو كان يسبح حى فى مدامعه ... لكنت أول من فى دمعه سبحا
أيا ابن خاقان يا سؤلى ويا أملى ... يا من هواه بقلبى قط ما برحا
قد كنت عاديت مولانا وسيدنا ... فىَّ وعدت عن الأوطان منتزحا
لا أوحش الله مولانا على فقدى ... وهبتنى لكريم ظلَّ ممتدحا

فلما فرغت من شعرها أجابها نور الدين وهو يقول:

ودعتنى يوم الفراق وقالت ... وهى تبكى من لوعة الافتراق
ما الذى أنت صانع بعد بعدي ... قلت قولى هذا لمن هو باق

ثم إنه لما سمع الخليفة قولها فى شعرها: «وهبتنى لكريم» صعب عليه التفريق بينهما وعز عليه وقال للصبى: «يا سيدى إن هذه الجارية قد ذكرت في شعرها، أنك عاديت سيدها ومن ملكها، فأخبرنى أنت من عاديت ومن له عليك طلب؟» فقال نور الدين: «والله يا صياد جرى لي ولهذه الجارية حديث عجيب وأمر غريب، ولو كتب بالإبر على آماق البصر، لكان عبرة لمن اعتبر». فقال الخليفة: «أما تحدثنا بما جرى لك من حديثك، وتعرفنا بخبرك عسى أن يكون لك فيه فرج؟ فإن فرج الله قريب»، فقال نور الدين: «يا صياد هل تسمع حديثنا نظمًا أو نثرًا؟» فقال الخليفة: «النثر كلام والشعر نظام»، فأطرق نور الدين رأسه إلى الأرض وأنشد يقول:

يا خليلى إنى هجرت رقادى ... وهمومى زادت لبعد بلادى
كان لى والد عليَّ شفوق ... غاب عنى مجاور الألحاد
فأتت بعده عليَّ أمورٌ ... صرت منها مفتّت الأكباد
اشترى لى من الجوارى خودًا ... ذات حسن فيها تمام الرشاد

سمـتـهـا البـيـع إذا تزايد همي وجـوى البين لم يكن بمرادى
وإذا مـا دعـا عليهـا مناد زاد فيهـا شيخ كثير العناد
فلهـذا اغتظت غيظًا شديدًا نترتهـا يدى من الأوغـاد
فتـردى ذاك اللئيم بغيظ وتلظت فيـه لظى الإلحاد
من همومى لكمته بيمـيني وشمـالى حتى شفيت فؤادى
ومن الخوف قد أتيت لدارى وتغيبت خيفة الأضداد
أمـر الحـاكم العظيم بمسكى فأتى الحاجب الكثير السداد
رامـزًا لى أنى أسير بعيدًا حذرًا من شماتة الحساد
فخرجنا من دارنا جنح ليل طالبين المقام فى بغداد
ليس شىء من الذخائر عندي دونهـا منحة إلى الصياد
غيـر أنى أعطيك محبوب قلبى فتيقن أني وهبت فؤادى

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فلما فرغ من شعره قال له الخليفة: «يا سيد نور الدين اشرح لى أمرك بأزيد بيان»، فأخبره نور الدين بخبره من مبتدأ الأمر إلى منتهاه، فلما فهم الخليفة هذه الحال قال له: «أين تقصد فى هذه الساعة؟» قال له: «بلاد الله فسيحة»، فقال له الخليفة: «إذا كتبت لك ورقة تؤديها إلى السلطان محمد بن سليمان الزينى فإذا قرأها لم يضرك بشىء».

فقال له نور الدين علي: «وهل فى الدنيا صياد يكاتب للملوك، إن هذا شىء لا يكون أبدًا»، فقال له الخليفة: «صدقت ولكن أقول لك عن السبب، اعلم أنى قرأت أنا وإياه فى مكتب واحد، عند فقيه واحد، وكنت أنا عريفه، ثم بعد ذلك أدركته السعادة وصار سلطانًا، وأنا نقلنى الله وجعلنى صيادًا، وأنا لم أرسل له فى حاجة إلا قضاها، ولو أرسلت له كل يوم ألف حاجة لقضاها».

فلما سمع نور الدين كلامه قال له: «طيب اكتب حتى أنظر»، فأخذ دواة وقلمًا وكتب بعد البسملة: «أما بعد فإن هذا الكتاب من هارون الرشيد بن المهدى إلى حضرة محمد بن سليمان الزينى المشمول بنعمتى الذى جعلته نائبًا عنى فى بعض مملكتى، إن هذا الكتاب واصل إليك صحبة نور الدين علي بن خاقان ابن الوزير، فساعة وصوله إليك انزع نفسك من الملك وله، ولا تخالف أمرى والسلام»، ثم أعطى الكتاب نور الدين عليا بن خاقان، فأخذ نور الدين والكتاب وقبَّله وحطه فى عمامته ونزل فى الوقت مسافرًا. هذا ما جرى له، وأما ما كان من أمر الخليفة فإن الشيخ إبراهيم نظر إليه وهو فى صورة الصيادين وقال له: «يا أحقر الصيادين، قد جئت لنا بسمكتين تساويان عشرين نصفًا، فأخذت ثلاثة دنانير وتريد أن تأخذ الجارية أيضًا؟» فلما سمع الخليفة كلامه صاح عليه، وأومأ إلى مسرور فأشهر نفسه وهجم عليه، وكان جعفر أرسل مع رجل من صبيان الغيط لبواب القصر يطلب منه حلة الملك، فذهب الرجل وجاء بالحلة، وقبل الأرض بين يدى الخليفة، فخلع الخليفة ما كان عليه ولبس تلك

الحلة، وكان الشيخ إبراهيم جالسًا على الكرسى والخليفة واقف ينظر ما يجرى، فعند ذلك بهت الشيخ إبراهيم وبقى ساهيًا وهو يعض أنامله ويقول: «يا ترى أنا نائم أم يقظان؟».

فنظر إليه الخليفة وقال: «يا شيخ إبراهيم ما هذه الحال الذى أنت فيه؟» فعند ذلك أفاق من سكره ورمى نفسه على الأرض وأنشد يقول:

هب لى جناية ما زلت به القدم للعبد تطلب من ساداته النعم
فعلت ما يقتضيه الذنب معترفًا فأين ما يقتضيه العفو والكرم

فعفا عنه الخليفة، وأمر بالجارية أن تحمل إلى القصر، فلما وصلت إلى القصر أفرد لها الخليفة منزلاً وحدها، ووكل بها من يخدمها، وقال لها: «اعلمى أنى أرسلت سيدك سلطانًا على البصرة فإن شاء الله تعالى نرسل إليه خلعة ونرسلك إليه».

هذا ما جرى لهؤلاء وأما ما جرى لنور الدين على بن خاقان، فإنه لم يزل مسافرًا حتى وصل إلى البصرة ودخل قصر السلطان، ثم صرخ صرخة عظيمة فسمعه السلطان فطلبه، فلما حضر قبّل الأرض بين يديه ثم أخرج الورقة وقدمها له، فلما رأى عنوان الكتاب بخط أمير المؤمنين، قام ووقف على قدميه وقبلها ثلاث مرات وقال: «السمع والطاعة لله تعالى ولأمير المؤمنين» ثم إنه أحضر القضاة الأربعة والأمراء وأراد أن يخلع نفسه من الملك، وإذا بالوزير الذى هو المعين بن ساوى قد حضر فأعطاه السلطان الورقة، فلما قرأها قطعها عن آخرها وأخذها فى فمه ومضغها ورماها، فقال له السلطان وقد غضب: «ويلك ما الذى حملك على هذه الفعال؟» فقال له: «وحياتك يا مولانا السلطان هذا ما اجتمع بالخليفة ولا بوزيره، وإنما هو شيطان مكار وقع على ورقة بخط الخليفة بطالة، فعمل غرضه فيها، وإن الخليفة لم يرسله ليأخذ منك السلطنة، ولا معه خط شريف ولا تعليق، ولا جاء من عند الخليفة أبدًا أبدًا، ولو كان هذا الأمر وقع لأرسل معه حاجبًا أو وزيرًا لكنه جاء وحده» فقال له: «كيف العمل؟» قال له: «أرسل معى هذا الشاب، وأنا آخذه وأتسلمه منك صحبة حاجب إلى مدينة بغداد، فإن كان كلامه صحيحًا يأتينا بخط شريف وتقليد، فإن لم يأت به أنا آخذ حقى من غريمى هذا»، فلما سمع السلطان كلام الوزير ابن ساوى قال له: «دونك وإياه».

فتسلمه الوزير من السلطان ونزل به إلى داره، وصاح على الغلمان فمدوه وضربوه إلى أن أغمى عليه، وجعل فى رجليه قيدًا ثقيلاً، وجاء به إلى السجن وصاح على السجان فلما حضر قبّل الأرض بين يديه، فقال له: «يا قطيط خذ هذا وارمه فى مطمورة من المطامير التى عندك فى السجن، وتعاقبه بالليل والنهار»، فقال السجان: «سمعًا وطاعة».

ثم إن السجان أدخل نور الدين السجن وقفل عليه الباب، ثم أمر بكنس مصطبة وراء الباب وفرشها بمقعد ونطع، وأجلس نور الدين عليها وفك قيده وأحسن إليه، وكان الوزير كل يوم يرسل يوصى السجان بضربه والسجان يدافع عنه إلى مدة أربعين يومًا.

فلما كان اليوم الحادى والأربعون جاءت هدية من عند الخليفة، فلما رآها السلطان أعجبته فشاور الوزراء فى أمرها، فقال بعضهم: «لعل هذه الهدية كانت للسلطان الجديد!» فقال الوزير المعين بن ساوى: «إنما كان المناسب قتله وقت قدومه». فقال السلطان: «لقد

ذكرتني به انزل هاته واضرب عنقه»، فقال الوزير: «سمعًا وطاعة» فقام وقال له: «إن قصدي أن أنادي في المدينة: من أراد أن يتفرج على ضرب رقبة نور الدين علي بن خاقان فليأت إلى القصر، فيأتي التابع والمتبوع ليتفرج عليه وأشفي فؤادي وأكمد حسادي» فقال له السلطان: «افعل ما تريد»، فنزل الوزير وهو فرحان مسرور؛ وأقبل على الوالي وأمره أن ينادي بما ذكرناه.

فلما سمع الناس المنادي حزنوا وبكوا جميعًا حتى الصغار في المكاتب والسوقة في الدكاكين، وتسابق الناس يأخذون لهم أماكن ليتفرجوا فيها، وذهب بعض الناس إلى السجن حتى يأتي معه، ونزل الوزير ومعه عشرة مماليك إلى السجن، فقال قطيط السجان: «ما تطلب يا مولانا الوزير؟» فقال: «احضر لي هذا النحس؟ «فقال السجان: «إنه في أشأم حال من كثرة ما ضربته»، ثم دخل السجان فوجده ينشد هذه الأبيات:

من لي يساعدني على بلوائي	قد زاد بي دائي وعز دوائي
والهجر أضنى مهجتي وحشاشتي	والدهر رد أحبتي أعدائي
يا قوم هل فيكم رفيق مشفق	يرثي لحالي أو يجيب ندائي
فالموت هان علي مع سكراته	وقطعت من طيب الحياة رجائي
يا رب بالهادي البشير المصطفى	بحر العلوم وسيد الشفعاء
أدعوك تنقذني وتغفر زلتي	وتزيل عني شقوتي وعنائي

فعند ذلك نزع عنه السجان ثيابه النظيفة وألبسه ثوبين وسخين ونزل به إلى الوزير، فنظره نور الدين فإذا هو بعدوه الذي ما زال يطلب قتله، فلما رآه بكى وقال له: «هل أمنت الدهر؟ أما سمعت قول الشاعر:

«أين الأكاسرة الجبابرة الأولى	كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا»

ثم قال له: «يا وزير اعلم أن الله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد» فقال له: «يا علي أتخوفني بهذا الكلام، فأنا في هذا اليوم أضرب رقبتك على رغم أنف أهل البصرة ولا أفكر، ودع الأيام تفعل ما تريد ولا ألتفت إلى نصحك وإنما ألتفت إلى قول الشاعر:

دع الأيام تفعل ما تشاء	وطب نفسًا بما فعل القضاء

وما أحسن قول الآخر:

من عاش بعد عدوه	يومًا فقد بلغ المنى

ثم إن الوزير أمر غلمانه أن يحملوه على ظهر بغل، فقال الغلمان لنور الدين وقد صعب عليهم: «دعنا نرجمه ونقطعه لو راحت أرواحنا»، فقال لهم نور الدين علي: «لا تفعلوا ذلك أبدًا، أما سمعتم قول الشاعر:

لا بد لي من مدة محتومة	فإذا انقضت أيامها مت
لو أدخلتني الأسد في غابتها	لم تمتني ما دام لي وقت»

ثم إنهم نادوا على نور الدين: «هذا أقل جزاء من يزور على الملوك الباطل»، وما زالوا يطوفون به في البصرة إلى أن أوقفوه تحت شباك القصر وعلقوه في نطع الدم وتقدم إليه

السياف وقال له: «أنا عبد مأمور فى هذا الأمر، إن كان لك حاجة فأخبرنى بها حتى أقضيها لك، فإنه ما بقى من عمرك إلا قدر ما يخرج السلطان وجهه من الشباك»، فعند ذلك نظر يمينًا وشمالاً وخلفًا وأمامًا وأنشد يقول:

أرى السيف والسياف والنطع أحضروا ... فناديت يا ذلى وعظم مصابي
فهل فيكم خل شفوق يعيننى ... سألتكم ردوا علىَّ جوابى
مضى الوقت من عمرى وحانت منيتى ... فهل راحم لى كى ينال ثوابى
وينظر فى حالى ويكشف بلوتى ... بشربة ماء كى يهون عذابى

فتباكت الناس عليه وقام السياف وأخذ شربة ماء وقدمها له، فنضه الوزير من مكانه وضرب قلة الماء بيده فكسرها، وصاح على السياف وأمر بضرب رقبته، فعند ذلك عصب عينى نور الدين، فزعقت الناس على الوزير وقام الصراخ وكثر القيل والقال.

فبينما هم كذلك إذا بغبار قد علا وعجاج قد ملأ الجو والخلا، فلما نظر إليه السلطان وهو قاعد فى القصر قال لهم: «انظروا ما الخبر». فقال الوزير: «حتى نضرب عنق هذا قبل»، فقال له السلطان: «اصبر حتى ننظر الخبر»، وكان ذلك الغبار غبار جعفر البرمكى وزير الخليفة ومن معه، وكان السبب فى مجيئهم أن الخليفة مكث ثلاثين يومًا ولم يتذكر قصة على ابن خاقان ولم يذكرها له أحد إلى أن جاء ليلة من بعض الليالى إلى مقصورة أنيس الجليس فسمع بكاءها وهى تنشد بصوت حسن ظريف قول الشاعر:

خيالك فى التباعد والتدانى ... وذكرك لا يفارقه لسانى

ثم تزايد بكاؤها، وإذا بالخليفة هارون الرشيد قد فتح الباب ودخل المقصورة، فرأى الجارية أنيس الجليس وهى تبكى، فلما رأت الخليفة وقعت على الأرض فقبَّلت رجليه ثلاث مرات ثم أنها أنشدت تقول:

أيا من زكا أصلا وطاب ولادة ... وأثمر غصنًا يانعًا وزكا غرسا
أذكرك الوعد الذي سمحت به ... محاسنك الحسنى وحاشاك أن تنسى

فقال الخليفة: «من أنت؟» فقالت: «أنا هدية علي بن خاقان إليك، وأريد إنجاز الوعد الذي وعدتنى به من أنك ترسلنى إليه مع التشريف، والآن لى ههنا ثلاثون يومًا لم أذق طعم النوم»، فعند ذلك طلب الخليفة جعفرًا البرمكى وقال له: «يا جعفر من منذ ثلاثين يومًا لم أسمع خبرًا عن علي بن خاقان، وما أظن إلا أن السلطان قتله، ولكن وحياة رأسي وتربة آبائى وأجدادى، إن جرى له أمر مكروه لأهلكن من كان السبب فيه، ولو كان أعز الناس عندى، وأريد أن تسافر فى هذه الساعة إلى البصرة، وتأتى بأخبار الملك محمد بن سليمان الزينى مع علي ابن خاقان» وقال له: «إن غبت أكثر من مسافة الطريق ضربت رقبتك، وأنت تعلم ابن عمي بقضية نور الدين علي بن خاقان وإنى أرسلته بكتابي، وإن وجدت أن الملك عمل بغير ما أرسلت به إليه، فاحمله واحمل الوزير ابن ساوى على الهيئة التى تجدهما عليها ولا تغب أكثر من مسافة الطريق». فقال جعفر: «السمع والطاعة». ثم إن جعفرًا تجهز من وقته وسافر إلى أن وصل إلى البصرة، وقد تسابقت الأخبار إلى الملك محمد بن سليمان الزينى بحضور جعفر

البرمكي، فلما أقبل جعفر ونظر ذلك الهرج والمرج والزحام قال: «ما هذا الازدحام؟» فذكروا له ما هم فيه من أمر نور الدين علي بن خاقان، فلما سمع جعفر كلامهم أسرع إلى السلطان وسلم عليه، وأعلمه بما جاء فيه، وأنه إذا كان وقع لعلي بن خاقان أمر مكروه، فإن السلطان يهلك من كان السبب فى ذلك، ثم إنه قبض على السلطان والوزير ابن ساوى وحبسهما وأمر بإطلاق نور الدين علي بن خاقان، وأجلسه سلطانًا فى مكان السلطان محمد بن سليمان الزينى، وقعد ثلاثة أيام فى البصرة مدة الضيافة.

فلما كان صبح اليوم الرابع التفت على بن خاقان إلى جعفر وقال له: «إنى اشتقت إلى رؤية أمير المؤمنين». فقال جعفر للملك محمد بن سليمان الزينى: «تجهز للسفر فإننا نصلى الصبح ونركب إلى بغداد، فقال: «السمع والطاعة»، ثم إنهم صلوا الصبح ورركبوا جميعهم ومعهم الوزير المعين بن ساوي وصار يتندم على ما فعله.

وأما نور الدين علي بن خاقان ركب بجانب جعفر، وما زالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى بغداد دار السلام، وبعد ذلك دخلوا على الخليفة، فلما دخلوا عليه حكوا له قصة نور الدين وكيف وجدوه وهو مشرف على الهلاك، وعند ذلك أقبل الخليفة على علي بن خاقان وقال له: «خذ هذا السيف واضرب به رقبة عدوك»، فأخذه وتقدم إلى المعين بن ساوى، فنظر إليه وقال له: «أنا عملت بلبنى فاعمل أنت بلبنك»، فرمى السيف من يده ونظر إلى الخليفة وقال: «يا أمير المؤمنين إنه خدعنى بكلامه»، وأنشد يقول:

فخدعته بخديعة لما أتى والحر يخدعه الكلام الطيب

فقال له الخليفة: «اتركه أنت»، وقال لمسرور: «يا مسرور قم أنت واضرب رقبته»، فقام مسرور ورمى رقبته، فعند ذلك قال الخليفة لعلي بن خاقان: «تمن علي»، فقال: «يا سيدى أنا ما لى حاجة بملك البصرة، وما أريد إلا أن أتشرف بخدمتك وأشاهد طلعتك»، فقال الخليفة: «حبا وكرامة»، ثم إن الخليفة دعا بالجارية فحضرت بين يديه، فأنعم عليها وأعطاهما قصرًا من قصور بغداد، ورتب لهما مرتبات وجعله من ندمائه، ولم يزل مقيمًا عنده فى ألذ عيش إلى أن أدركه الممات، وليس هذا بأعجب من حكاية التاجر وأولاده، قال الملك: «وكيف كان ذلك؟».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية التاجر أيوب وابنه غانم وابنته فتنة

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد، أنه كان فى قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، تاجر من بعض التجار له مال وله ولد كأنه البدر ليلة تمامه، يسمى غانم بن أيوب، وله أخت اسمها فتنة، فريدة فى حسنها وجمالها، فتوفى والدهما وخلف لهما مالا جزيلاً.

ومن جملة ذلك، مائة حمل من الخز والديباج ونوافج المسك، ومكتوب على الأحمال: «هذا مما عمل برسم بغداد»، وكان نيته السفر إلى بغداد، فلما توفاه الله تعالى ومضت مدة، أخذ ولده هذه الأحمال وسافر بها إلى بغداد، وكان ذلك فى زمن الخليفة هارون الرشيد، وودَّع أمه وأقاربه وأهل بلدته قبل سيره، وخرج متوكلا على الله تعالى.

وكتب الله لـه السلامة حتى وصل إلى بغداد، وكان صحبته جماعة من التجار، فاكترى له دارًا حسنة، وفرشها بالبسط والوسائد، وأرخى عليها الستور، وأنزل فيها تلك الأحمال والبغال والجمال، وجلس حتى استراح، وسلمت عليه التجار وأكابر بغداد.

ثم إنه أخذ بقجة فيها عشر تفاصيل من القماش النفيس، مكتوب عليها ثمنها، ونزل بها إلى سوق التجار، فتلقوه بالترحيب وسلموا عليه وأكرموه وأنزلوه وأجلسوه على دكان شيخ السوق، ثم إنه ناوله البقجة ففتحها وأخرج منها تفاصيل، فباع له شيخ السوق التفاصيل فربح فى كل دينار دينارين مثله، ففرح غانم وصار يبيع القماش والتفاصيل أولا بأول، ولم يزل كذلك إلى مدة سنة كاملة.

وفى أول السنة الثانية جاء إلى القيصرية التى فى السوق فرأى بابها مغلقًا فسأل عن سبب ذلك، فقيل له: «إن واحدا من التجار توفي وذهب التجار كلهم يمشون فى جنازته، فهل لك أن تكسب أجرًا وتمشى معهم؟» قال: «نعم».

ثم سأل عن محل الجنازة فدلوه على المحل، فتوضأ، ثم مشى مع التجار إلى أن وصلوا إلى المصلى وصلوا على الميت، ثم مشى التجار جميعهم قدام الجنازة إلى المقبرة فتبعهم غانم من حيائه، وقد خرجوا بالجنازة من بغداد إلى خارج المدينة، وشقوا ما بين المقابر إلى أن وصلوا إلى المدفن، فوجدوا أهل الميت قد نصبوا الخيمة على القبر وأحضروا الشموع والقناديل، ثم دفنوا الميت وجلس القراء يقرأون القرآن على ذلك القبر. فجلس أولئك التجار وجلس معهم غانم بن أيوب وهو غالب عليه الحياء، فقال فى نفسه: «أنا لا أقدر أن أفارقهم حتى أنصرف معهم».

ثم إنهم جلسوا يسمعون القرآن إلى وقت العشاء، فقدموا لهم العشاء والحلوى، فأكلوا حتى اكتفوا وغسلوا أيديهم، ثم جلسوا مكانهم، فاشتغل خاطر غانم بمكانه وبضاعته، وخاف من اللصوص، فقال فى نفسه: «أنا رجل غريب ومتهم بالمال، فإن بتُّ الليلة بعيدًا عن منزلى يسرق اللصوص ما فيه من المال والأحمال»، وخاف على أمتعته فقام وخرج من بين الجماعة واستأذنهم على أنه يقضى حاجة، فصار يمشي ويتبع آثار الطريق حتى جاء باب المدينة، وكان ذلك الوقت نصف الليل، فوجد باب المدينة مقفلاً، ولم ير أحدًا غاديًا ولا رائحًا، ولا يسمع صوتًا سوى الكلاب تنبح، والذئاب تصيح فرجع وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله، كنت خائفًا على مالى وجئت لأجله فوجدت الباب مغلقًا، وبقيت الآن خائفًا على روحى».

ثم إنه رجع وراءه لينظر له محلاً ينام فيه حتى الصباح فوجد تربة محوطة بأربعة حيطان وفيها نخلة ولها باب من الصوان مفتوح، فدخلها وأراد أن ينام فيها فلم يجئه نوم، وأخذته رجفة ووحشة وهو بين القبور، فقام واقفًا على قدميه وفتح باب المكان ونظر، فإذا هو بنور على بعد في ناحية باب المدينة، فمشى قليلاً فرأى النور فى الطريق إلى التربة التى هو فيها، فخاف غانم على نفسه وأسرع برد الباب وتعلق حتى طلع فوق النخلة وتوارى فى قلبها، فصار النور يقترب من التربة.

فتأمل غانم النور فرأى ثلاثة عبيد: اثنان منهم رافعين صندوقًا وواحدًا فى يده فانوس

وفأس، فحين قربوا من التربة قال أحد العبدين الحاملين الصندوق: «ما لك يا صواب؟» فقال العبد الآخر منهما: «مالك يا كافور؟» فقال له: «أما كنا هنا وقت العشاء وتركنا الباب مفتوحًا؟» فقال: نعم هذا الكلام صحيح»، فقال: «ها هو مغلق».

فقال لهما الثالث وهو حامل الفأس والنور، وكان اسمه بخيت: «ما أقل عقلكما، أما تعرفان أن أصحاب الغيطان يخرجون من بغداد ويرعون هنا، فيمسى عليهم المساء فيدخلون ويغلقون الباب خوفًا من السودان الذين هم مثلنا أن يأخذوهم ويشووهم ويأكلوهم». فقالا له: «صدقت ما فينا أقل عقلاً منك»، فقال لهما: «إنكما لا تصدقانى حتى ندخل التربة ونجد فيها أحدًا، وأنا أظن أنه لما رأى النور ورآنا هرب فوق النخلة خوفًا منا».

فلما سمع غانم كلام العبد قال فى نفسه: «يا ألعن العبيد لا ستر الله عليك، ولا بهذا العقل ولا بهذه المعرفة كلها، لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، أى شىء بقى يخلصنى من هؤلاء العبيد»، ثم إن الحاملين الصندوق قالا للذى معه الفأس: «تعلق على الحائط وافتح لنا الباب يا بخيت، لأننا تعبنا من حمل الصندوق على رقابنا، فإذا فتحت لنا الباب، لك علينا واحد من الذين نمسكهم، نقليه لك بأيدينا بصنعة جيدة، بحيث لا يضيع من دهنه نقطة»، فقال بخيت: «أنا خائف من شىء افتكرت فيه من قلة عقلى، فالأحسن أننا نرمى الصندوق من وراء الباب لأنه ذخيرتنا». فقالا له: «إن رميناه ينكسر»، فقال لهما: «أنا خائف أن يكون فى جوَّانى التربة، اللصوص الذين يقتلون الناس ويسرقون الأشياء، لأنهم إذا أمسى عليهم الوقت يدخلون فى هذه الأماكن ويقسمون ما يكون معهم»، فقالا له: «يا قليل العقل هل يقدرون أن يدخلوا هنا؟».

ثم إنهما حملا الصندوق وتعلقا على الحائط ونزلا وفتحا الباب، والعبد الثالث الذى هو بخيت واقف لهما بالفانوس والفأس والمقطف الذى فيه بعض من الجبس، ثم إنهم جلسوا وقفلوا الباب، فقال واحد منهم: «يا إخوتى نحن تعبنا من المشى والرفع والحط وفتح الباب وقفله، وهذا الوقت نصف الليل، وما بقى فينا نفس لنفتح التربة وندفن الصندوق، ولكن نجلس هنا ثلاث ساعات لنستريح ثم نقوم ونقضى حاجتنا، وكل واحد منا يحكى لنا عن سبب تجريح وجهه وسبب كيه، وجميع ما وقع له من المبتدأ إلى المنتهى لأجل قضاء هذه الليلة، ولنأخذ لنا راحة». فقال الأول، الذى كان حامل الفانوس، واسمه بخيت: «أنا أحكى لكما حكايتى»، فقالا له: «تكلم» فقال لهما:

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية العبد بخيت

قال شهرزاد: يقول العبد: اعلما يا أخويَّ أنى كنت فى ابتداء أمرى، وأنا ابن ثمانى سنين، أكذب على الجلابة كل سنة كذبة حتى يقعوا فى بعضهم، فقلق مني الجلاب وأنزلنى فى يد الدلال وأمره أن ينادى: «من يشترى هذا العبد على عيبه؟» فقيل له: «وما هو عيبه». قال: «يكذب كل سنة كذبة واحدة»، فتقدم رجل تاجر إلى الدلال وقال له: «كم أعطوا فيه من الثمن على عيبه؟» قال: «أعطوا ستمائة درهم»، قال «ولك عشرون درهمًا»، فجمع بينه وبين الجلاب وقبض منه الدراهم.

وأوصلنى الدلال إلى منزل ذلك التاجر وأخذ دلالته وانصرف، فكسانى هذا التاجر ما يناسبنى من القماش، وصرت عنده أخدمه باقى السنة إلي أن هلَّت السنة الجديدة بالخير، وكانت سنة مباركة مخصبة بالنبات، فصار التجار يصنعون الولائم بعضهم لبعض، إلى أن أولم سيدى وليمة في غيط خارج البلد، فراح هو والتجار إلى البستان وأخذ لهم جميع ما يحتاجون إليه من أكل وغيره، فجلسوا يأكلون ويشربون ويتنادمون إلى وقت الظهر، فاحتاج سيدى إلى مصلحة من البيت فقال لى: «يا عبد اركب البغلة ورح إلى المنزل، وهات من سيدتك الحاجة الفلانية وارجع بسرعة»، فامتثلت أمره ورحت إلى المنزل.

فلما قربت من المنزل صرخت وأرخيت الدموع، فاجتمع عليَّ أهل الحارة كبارًا وصغارًا، وسمعت صراخى زوجة سيدى وبناته ففتحن لى الباب وسألننى عن الخبر، فقلت لهن: «إن سيدى كان جالسًا تحت حائط قديم هو وأصحابه فوقع عليهم، فلما رأيت ما جرى لهم ركبت البغلة وجئت مسرعًا لأخبركن» فلما سمع بناته وزوجته ذلك صرخن وشققن ثيابهن ولطمن وجوههن فأتت الجيران، وأما زوجة سيدى فإنها قلبت متاع البيت بعضه على بعض وأخرجت رفوفه وكسرت طيقانه وشبابيكه وسخمت حيطانه بطين ونيلة وقالت لى: ويلك يا بخيت تعال ساعدنى، واخرب هذه الدواليب وكسر هذه الأوانى وغيرها».

فجئت إليها وأخرجت معها رفوف البيت بكل ما عليها، ودرت على السقوف وعلى كل محل أخربه، وما كانت فى البيت من الصينى وغير ذلك حتى أخرجت الجميع وأنا أصيح: «واسيداه!». ثم خرجت سيدتى مكشوفة الوجه بغطاء رأسها لا غير وخرجت معها البنات والأولاد وقالوا: «يا بخيت امش قدامنا وأرنا مكان سيدك الذى هو تحت الحائط ميت، حتى نخرجه من تحت الردم ونحمله فى تابوت ونجىء به إلى البيت فنخرجه خرجة مليحة»، فمشيت قدامهن وأنا أصيح: «واسيداه!» وهن خلفى مكشوفات الوجوه والرؤوس يصحن: «أواه! أواه على الرجل!».

فلم يبق أحد فى الحارة لا من الرجال ولا من النساء ولا من الصبيان ولا من العجائز إلا جاء معنا، وصاروا كلهم يلطمون معنا ساعة وهم فى شدة البكاء فشققت بهم المدينة، فسأل الناس عن الخبر فأخبروهم بما سمعوا منى فقال الناس: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فقال بعض الناس: «ما هو إلا رجل كبير فنحن نمضى إلى الوالى ونخبره».

فلما وصلوا إلى الوالى أخبروه، فقام الوالى وركب وأخذ معه الفعلة بالمساحى والقفف ومشوا تابعين أثرى ومعهم كثير من الناس، وأنا قدَّامهم ألطم وجهي وأصيح، وسيدتى وأولادها خلفى يصيحون، فجريت أنا قدامهم وسبقتهم وأنا أصيح وأحثو التراب على رأسى وألطم وجهي، فلما دخلت البستان ورآنى سيدى وأنا ألطم وأقول: «واسيدتاه أواه أواه أواه! من بقي لي يحن عليَّ بعد سيدتى، يا ليتنى كنت فداء عنها؟».

فلما رآنى سيدى بهت واصفر لونه وقال: «مالك يا بخيت وما الخبر؟» فقلت له: «إنك لما أرسلتنى إلى البيت ودخلت، رأيت الحائط الذى فى القاعة وقع وانطبقت كلها على سيدتى وأولادها». فقال لى: «وهل سيدتك ما سلمت؟» فقلت له: «لا يا سيدى ما سلم منهم أحد وأول

من مات منهم سيدتى الكبيرة». فقال: «وهل سلمت بنتى الصغيرة؟» فقلت له: «لا»، فقال لى: «وما حال البغلة التى أركبها هل هى سالمة؟». فقلت له: لا والله يا سيدى؛ فإن حيطان البيت وحيطان الاصطبل انطبقت على جميع ما فى البيت، حتى على الغنم والأوز والدجاج، وصاروا كلهم كوم لحم وأكلهم الكلاب ولم يبق منهم أحد»، فقال لى: «ولا سيدك الكبير سلم؟» فقلت له: «لا لم يسلم منهم أحد، وفى هذه الساعة لم يبق دار ولا سكان ولم يبق لهم أثر، وأما الغنم والأوز والدجاج فأكلهم القطط والكلاب».

فلما سمع سيدى كلامى صار الضياء فى وجهه ظلامًا، ولم يقدر أن يملك نفسه ولا عقله ولم يقدر أن يقف على قدميه، بل جاءه الكسح وانكسر ظهره وخرَّق أثوابه ونتف لحيته ورمى عمامته من فوق رأسه وما زال يلطم وجهه حتى سال منه الدم وصاح: «آه وا أولاداه! وازوجتاه! وامصيبتاه! من جرى له مثل ما جرى لي؟» فصاحت التجار رفقاؤه لصياحه وبكوا معه ورثوا لحاله وشقوا أثوابهم، وخرج سيدى من ذلك البستان وهو يلطم من شدة ما جرى له ومن شدة اللطم على وجهه صار كأنه سكران.

فبينما هو والتجار خارجون من باب البستان وإذا بغبرة عظيمة وصياح فنظروا إلى هؤلاء المقبلين فإذا هو الوالى والمقدمون والخلق والعالم الذين يتفرجون، وأهل التاجر وراءهم يصرخون ويصيحون، وهم فى بكاء شديد زائد، فأول من لقيه سيدى، زوجته وأولاده، فلما رآهم بهت وضحك وثبت وقال له «ما حالكم أنتم وما حصل لكم فى الدار وما جرى؟»

فلما رأوه قالوا: «الحمد لله على سلامتك»، ورموا أنفسهم عليه، وتعلقت أولاده به وصاحوا: «وا أبتاه! الحمد لله على سلامتك يا أبانا»، وقالت له زوجته: «أنت طيب؟ الحمد لله الذى أرنا وجهك بسلامة»، وقد اندهشت وطار عقلها لما رأته وقالت له: «يا سيدى كيف كانت سلامتك أنت وأصحابك التجار؟» فقال لها: «وكيف حالكم فى الدار؟» فقالوا: «نحن طيبون بخير وعافية وما أصاب دارنا شيء من الشر، غير أن عبدك بخيتًا جاء إلينا وهو مكشوف الرأس مخرق الأثواب وهو يصيح: واسيداه! واسيداه! فقلنا له: ما الخبر يا بخيت؟ فقال: إن سيدى وأصحابه التجار وقع عليهم حائط فى البستان وماتوا جميعًا».

ثم نظر إلى جانبه فرآنى وعمامتى مخروقة فى رأسى وأنا أصيح وأبكى وأحثو التراب على رأسى، فصرخ علىَّ فأقبلت عليه فقال لى: «ويلك يا عبد النحس، يا ملعون الجنس، ما هذه الوقائع التى عملتها؟ ولكن لأسلخن جلدك عن لحمك وأقطعنَّ لحمك من عظمك»، فقلت له: «ما تقدر تعمل معى شيئًا، لأنك اشتريتنى على عيبى بهذا الشرط، والشهود يشهدون على عيبى، وأنت عالم به، وهو أنى أكذب فى كل سنة كذبة واحدة، وهذه نصف كذبة، فإذا كملت السنة كذبت نصفها الآخر، فتبقى كذبة كاملة».

فصاح علىَّ: «يا كلب يا ابن الكلب يا ألعن العبيد هل هذه كلها نصف كذبة، وإنما هى داهية كبيرة، اذهب عنى فأنت حر لوجه الله»، فقلت: «إن أعتقتنى أنت ما أعتقتك أنا حتى تكمل السنة وأكذب نصف الكذبة الباقية، وبعد أن أتممها فانزل بى إلى السوق وبعنى بما اشتريتنى به على عيبى، ولا تعتقنى لأنى ما معى صنعة أقتات منها، وهذه المسألة التى ذكرتها لك شرعية ذكرها الفقهاء فى باب العتق».

فبينما نحن فى الكلام وإذا بالخلائق والناس وأهل الحارة من نساء ورجال قد جاؤوا يعملون العزاء، وجاء الوالى وجماعته، فراح سيدى والتجار إلى الوالى وأعلموه بالقضية وأن هذه نصفة كذبة، فلما سمعوا ذلك منه استعظموا تلك الكذبة وتعجبوا غاية العجب، فلعنونى وشتمونى فبقيت واقفًا أضحك وأقول: «كيف يقتلنى سيدى وقد اشترانى على هذا العيب؟» فلما مضى سيدى إلى البيت وجده خرابًا، وأنا الذى أخربت معظمه وأكثره وكسرت فيه شيئًا يساوى جملة من المال، وكذلك زوجته.

فقالت له زوجته: «إن بخيتًا هو الذى كسر الأوانى والصينى»، فازداد غيظه وضرب يدًا على يد وقال: «عمرى ما رأيت ولدًا مثل هذا العبد، ويقول إنها نصف كذبة، فكيف لو كانت كذبة كاملة فإنه كان يخرب مدينة أو مدينتين».

ثم إنه من شدة غيظه ذهب بى إلى الوالى وأطعمنى علقة نظيفة حتى غبت عن الدنيا وغشى على وجرح وجهى وكوانى بالحديد، ثم أخذنى وباعنى، وما زلت ألقى الفتن فى الأماكن التى أباع فيها، وأنتقل من أمير إلى أمير، ومن كبير إلى كبير، أباع وأشترى، حتى دخلت قصر أمير المؤمنين.

فلما سمع العبدان كلامه ضحكا عليه وقالا له: «إنك تكذب كذبًا شنيعًا»، ثم قال بخيت لرفيقه كافور: «احك لنا حكايتك»، قال: «يا ابنى عمى حكايتى طويلة وما هذا وقت حكايتها لأن الصباح قريب، وربما يطلع علينا الصباح ومعنا هذا الصندوق فنبقى مفضوحين وتروح أرواحنا، فدونكما فتح الباب فإذا فتحناه ورحنا إلى قصرنا، حكيت لكما حكايتى»، ثم تعلق ونزل من الحائط وفتح الباب، فدخلوا وحطوا الشمع وحفروا حفرة بطول الصندوق وعرضه بين أربعة قبور، وصار كافور يحفر وصواب ينقل التراب بالقفف إلى أن حفروا نصف قامة ثم حطوا الصندوق فى الحفرة وردوا عليه التراب وخرجوا من التربة وردوا الباب وغابوا عن عين غانم بن أيوب.

فلما استقر وخلا لغانم المكان وعلم أنه وحده، اشتغل سره بما فى الصندوق وقال فى نفسه: «يا ترى أى شىء فى هذا الصندوق؟» ثم صبر حتى برق الفجر ولاح وبان ضياؤه، فنزل من على النخلة وأزال بيده التراب حتى كشف الصندوق وخلصه، ثم أخذ حجرًا كبيرًا وضرب به القفل وكسره وكشف الغطاء ونظر فإذا فيه صبية نائمة مبنجة، ونفسها طالع نازل، إلا أنها ذات حسن وجمال وعليها حلى ومصاغ ذهب، وقلائد من الجواهر تساوى ملك السلطان وما يفى بثمنها مال.

فلما رآها غانم بن أيوب عرف أنهم بنجوها، فلما تحقق ذلك الأمر عالجها حتى أخرجها من الصندوق وأرقدها على قفاها، فلما استنشقت الروائح ودخل الهواء فى أنفها ومنافسها عطست ثم شرقت وسعلت، فوقع من حلقها قرص بنج أقريطشى لو شمه الفيل لرقد من الليل إلى الليل، ففتحت عينيها وأدارت طرفها وقالت بكلام عذب فصيح: «ويلك يا ريح ما فيك رى للعطشان: ولا أنس للريان، أين زهر البستان؟».

فلم يجاوبها أحد فالتفتت وقالت: «يا صبيحة، شجرة الدر، نور الهدى. نجمة الصبح، ويلك شهوة، نزهة. حلوة. ظريفة، تكلموا» فلم يجبها أحد، فجالت بطرفها وقالت: «ويلى

تقبرنى فى القبور، يا من يعلم ما فى الصدور، ويجازى يوم البعث والنشور، من جاء بى من بين الستور والخدور، ووضعنى بين أربعة قبور؟».

هذا كله وغانم واقف، فقال لها: «يا سيدتى لا خدور ولا قصور ولا قبور. ما هنا إلا عبدك المسلوب غانم بن أيوب، وقد ساقه إليك علام الغيوب، حتى ينجيك من هذه الكروب، ويحصل لك غاية المطلوب»، وسكت.

فلما تحققت الأمر قالت: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله». ثم التفتت إلى غانم وقد وضعت يدها على وجهها وقالت له بكلام عذب: «أيها الشاب المبارك، من جاء بى إلى هذا المكان فها أنا أفقت؟» فقال: «يا سيدتى ثلاثة عبيد أتوا وهم حاملون هذا الصندوق»، ثم حكى لها جميع ما جرى له وكيف أمسى عليه المساء حتى كان سبب سلامتها وإلا كانت ماتت بغصتها، ثم إنه سألها عن حكايتها وخبرها، فقالت له: «أيها الشاب الحمد الله الذى رمانى عند مثلك، فقم الآن وحطنى فى الصندوق واخرج إلى الطريق، فإذا وجدت مكاريًا أو بغالا فاكتره لحمل هذا الصندوق وأوصلنى إلى بيتك، فإذا بقيت أنا فى دارك يكون خيرًا، وأحكى لك حكايتى وأخبرك بقصتى، ويحصل لك الخير من جهتى»، ففرح وخرج إلى ظاهر التربة وقد شعشع النهار ولاح الجو بالأنوار وخرج الناس ومشوا فاكترى رجلا ببغل وأتى به إلى التربة ورفع الصندوق، بعدما حط فيه الصبية، وسار بها وهو فرحان لأنها جارية تساوى عشرة آلاف دينار، وعليها حلي وحلل تساوى مالا جزيلاً، وما أيقن أنه يصل إلى داره.

فلما وصل إلى داره أنزل الصندوق وفتحه وأخرج الصبية منه، فنظرت فرأت هذا المكان محلاً مليحًا مفروشًا بالبسط والألوان المفرحة وغير ذلك، ورأت قماشًا محزومًا وأحمالاً وغير ذلك، فعلمت أنه تاجر كبير صاحب أموال كثيرة، فقالت له: «يا سيدى هات لنا شيئًا نأكله»، فقال لها غانم: «على الرأس والعين».

ثم إنه نزل إلى السوق واشترى خروفا مشويا وصحن حلاوة، وأخذ معه نقلا وشمعًا، وأخذ معه نبيذًا وما يحتاج إليه الأمر من آلة المشروب والمشموم، وأتى إلى البيت ودخل بالحوائج، فأكلا وشربا إلى أن اكتفيا، فنام كل واحد منهما فى موضعه إلى أن أصبح الصباح، فقام غانم بن أيوب إلى السوق واشترى ما يحتاج إليه من أكل وشرب وخضرة ولحم وخمر وغيره، وأتى به إلى الدار وجلس هو وإياها يأكلان، فأكلا حتى اكتفيا وبعد ذلك أحضرا الشراب وشربا، ولما نظر غانم بن أيوب كمال الصبية وأدبها عرض عليها الزواج، فقالت له: «هذا غير ممكن» فقال لها: «وما السبب؟».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية غانم بن أيوب وقوت القلوب

قالت شهرزاد: قالت الصبية: «اعلم أنى حظية أمير المؤمنين واسمى قوت القلوب، وأن أمير المؤمنين لما أن ربانى فى قصره وكبرت، ونظر إلى صفاتى وما أعطانى ربى من الحسن والجمال، أحبنى محبة زائدة، وأخذنى وأسكننى فى مقصورة، ورسم لى بعشر جوارٍ يخدمننى،

ثم إنه أعطانى هذا المصاغ الذى تراه معى، ففى يوم من بعض الأيام، سافر الخليفة إلى بعض البلاد، فجاءت السيدة زبيدة إلى بعض الجوارى التى فى خدمتى وقالت لها: «لى عندك حاجة»، فقالت لها: «وما هى يا سيدتى؟» قالت: «إذا نامت سيدتك قوت القلوب فحطى هذه القطعة من البنج فى مناخيرها أو فى شرابها، ولك علىَّ من المال ما يكفيك».

ثم إن الجارية أخذت البنج منها وهى فرحانة لأجل الدراهم، ولأنها فى الأصل كانت جاريتها، فجاءت إلى ووضعت البنج فى شرابى، فلما كان الليل شربت، فلما استقر البنج فى جوفى وقعت إلى الأرض وصار رأسى عند رجلي، فما أفقت إلا وأنا فى دنيا أخرى. وأنها لما تمت حيلتها حطتنى فى ذلك الصندوق، وأحضرت العبيد سرا وبرطلتهم، وكذلك البوابين، وأرسلتنى مع العبيد فى تلك الليلة التى أنت كنت نائمًا فوق النخلة، وفعلوا معى ما رأيت، وكانت نجاتى على يديك، وقد أحسنت إلى غاية الإحسان، وهذه قصتى وحكايتى، وما أعرف أى شيء جرى للخليفة فى غيبتى، فاعرف قدرى ولا تشهر أمرى». فلما سمع غانم بن أيوب كلام قوت القلوب وتحقق أنها حظية الخليفة، تأخر إلى ورائه، ولحقته هيبة الخلافة، وجلس وحده فى ناحية من نواحى المكان يعاتب نفسه ويتفكر فى أمره ويصبر قلبه، وبقى حائرًا. ثم قام غانم وخرج إلى السوق كعادته، وأخذ جميع ما يحتاج إليه الأمر وجاء إلى البيت فوجد قوت القلوب تبكى، فلما رأته انقطعت عن البكاء وتبسمت وقالت له: «أوحشتنى»، ثم إنهما أكلا وشربا وانبسطا.

هذا ما كان من أمر غانم بن أيوب، وأما ما كان من أمر السيدة زبيدة، فإنها لما فعلت بقوت القلوب ذلك الأمر فى غيبة الخليفة بقيت حائرة، تقول فى نفسها: «ماذا أقول للخليفة إذا جاء وسأل عنها؟ وما يكون جوابى له؟».

فدعت بعجوز كانت عندها وأطلعتها على سرها وقالت لها: «كيف أفعل وقوت القلوب قد فعلت بها ما فعلت». فقالت لها العجوز لما فهمت الحال: «اعلمى يا سيدتى أن مجىء الخليفة قرب، ولكن أرسلى إلى نجار ومريه أن يعمل لك صورة ميت من خشب، فنحفر لها قبرًا فى وسط القصر وندفنها فيه، وتعملين للقبر مقصورة ونوقد فيه الشموع والقناديل وتأمرين كل من فى القصر أن يلبسوا الأسود، ومري جواريك والخدام إذا علموا أن الخليفة أتى من السفر، أن ينشروا التبن فى الدهاليز، فإذا دخل الخليفة وسأل عن الخبر يقولون له إن قوت القلوب ماتت وعظم الله أجرك فيها، ومن معزتها عند سيدتنا دفنتها فى قصرها، فإذا سمع ذلك يبكى ويعمل لها الختمات ويسهر على قبرها.

«فإن قال فى نفسه إن بنت عمى زبيدة من غيرتها سعت فى هلاك قوت القلوب أو غلب عليها الهيام وأمر بإخراجها من القبر فلا تفزعى من ذلك، فعندما يحفرون ويطلعون على تلك الصورة التى كبني آدم، ويراها وهى مكفنة بالأكفان الفاخرة، فإن أراد إزالة الأكفان عنها لينظرها فامنعيه أنت من ذلك والأخرى تمنعه وتقول له: هذا حرام، فيصدق حينئذ أنها ماتت فيعيدها إلى مكانها ويشكرك على فعلك، وتخلصين أنت إن شاء الله تعالى من هذه الورطة».
فلما سمعت السيدة زبيدة كلامها رأته صوابًا، فخلعت عليها خلعة وأمرتها أن تفعل ذلك بعد

ما أعطتها جملة من المال، فشرعت العجوز حالا بالعمل وأمرت النجار أن يعمل لها صورة كما ذكرنا، وبعد تمام الصورة جاءت بها السيدة زبيدة فكفنتها ودفنتها وأوقدت الشموع والقناديل، وفرشت البسط حول القبر ولبست السواد وأمرت الجوارى أن يلبسن السواد، واشتهر الأمر فى القصر أن قوت القلوب ماتت.

فبعد مدة أقبل الخليفة من غيبته وطلع إلى قصره، فرأى الغلمان والخدام والجوارى كلهم لابسين السواد، فرجف فؤاد الخليفة، فلما دخل القصر على السيدة زبيدة رآها لابسة السواد، فسألها عن ذلك، فأخبرته بموت قوت القلوب، فوقع مغشيًا عليه، فلما أفاق سأل عن قبرها. فقالت: «اعلم يا أمير المؤمنين أننى من معزتها عندى دفنتها فى قصرى». فدخل الخليفة بثياب السفر إلى قبر قوت القلوب ليزورها، فوجد البسط مفروشة والشموع والقناديل موقدة، فلما رأى ذلك شكرها على فعلها وبقى حائرًا فى أمره، وهو ما بين مصدق ومكذب، فلما غلب عليه الوسواس أمر بحفر القبر وإخراجها منه، فلما رأى الكفن وأراد أن يزيله عنها ليراها خاف من الله تعالى، فقالت العجوز: «ردوها إلى مكانها»، ثم إن الخليفة أمر فى الحال بإحضار الفقهاء والمقرئين، وعمل الختمات على قبرها وجلس بجانب القبر يبكى إلى أن غشى عليه، ولم يزل قاعدًا على قبرها شهرًا كاملاً. فاتفق أن الخليفة بينما هو نائم فى أحد الأيام، وعند رأسه جارية تروحه بالمروحة، وعند رجليه جارية، انتبه وفتح عينيه وغمضهما، فسمع الجارية التى عند رأسه تقول للتى عند رجليه: «ويلك يا خيزران؟» قالت لها: «نعم يا قضيب البان»، قالت لها: «إن سيدنا ليس عنده علم بما جرى، وإن سيدنا يسهر على قبر لم يكن فيه إلا خشبة منجرة صنعة النجار»، فقالت لها الأخرى: «وقوت القلوب أى شىء أصابها؟» فقالت: «اعلمى أن السيدة زبيدة أرسلت مع جارية قرص بنج وبنجتها، فلما تحكم البنج منها جعلتها فى صندوق وأرسلتها مع صواب وبخيت، وأمرتهما أن يرمياها فى التربة». فقالت خيزران: «ويلك يا قضيب البان هل السيدة قوت القلوب ماتت؟» فقالت: «لا سلامة شبابها من الموت، ولكن أنا سمعت أن قوت القلوب عند شاب تاجر اسمه غانم بن أيوب الدمشقى وأن لها عنده بهذا اليوم أربعة شهور، وسيدنا يبكى ويسهر الليالى على قبر لم يكن فيه ميت». وصارتا تتحدثان بهذا الحديث والخليفة يسمع كلامهما، فلما فرغت الجاريتان من الحديث، وعرف القضية وأن هذا القبر زور ومحال، وأن قوت القلوب عند غانم بن أيوب من مدة أربعة أشهر، غضب الخليفة غضبًا شديدًا وقام ودخل على أمراء دولته.

فعند ذلك أقبل الوزير جعفر البرمكى وقبل الأرض بين يديه، فقال له الخليفة بغيظ: «انزل يا جعفر بجماعة واسأل عن بيت غانم بن أيوب، واكبسوا داره وأتونى بجاريتى قوت القلوب، ولا بد أن أعذبه» فأجابه جعفر بالسمع والطاعة.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فعند ذلك نزل جعفر والخلق والعالم والوالى صحبته، ولم يزالوا سائرين

يمد يده ليأكل منها هو وقوت القلوب، فلاحت منها التفاتة فوجدت البلاء أحاط بالدار من كل جانب، والوزير والوالى والظلمة والمماليك بسيوف مسلولة مجردة، وقد أحدقوا بها كما يحدق بياض العين بالسواد، فعند ذلك عرفت أن خبرها وصل إلى الخليفة سيدها فأيقنت بالهلاك واصفر لونها وتغيرت محاسنها، ثم نظرت إلى غانم وقالت له: «فر بنفسك»، فقال لها: «كيف أعمل وإلى أين أذهب ومالى ورزقى فى هذه الدار؟» فقالت له: «لا تمكث لئلا تهلك ويذهب مالك»، فقال لها: «كيف أصنع فى الخروج وقد أحاطوا بالدار؟» فقالت له: «لا تخف». ثم ألبسته ثيابًا بالية وجاءت بالقدر التى كان فيها اللحم ووضعتها على رأسه، وحطت حواليها كسرة خبز وزبدية طعام، ووضعت كل ذلك فى مقطف وقالت له: «اخرج بهذه الحيلة وما عليك منى، فأنا أعرف أى شيء فى يدى من الخليفة»، فلما سمع غانم كلام قوت القلوب وما أشارت به عليه، خرج من بينهم وهو حامل المقطف بما فيه، وستر عليه الستار ونجا من المكائد والأضرار ببركة نيته». فلما وصل الوزير جعفر إلى ناحية الدار ترجل عن حصانه ودخل البيت ونظر إلى قوت القلوب وقد تزينت وتبهرجت وعبت صندوقًا من الذهب والمصاغ والجواهر والتحف مما خف حمله وغلا ثمنه، فلما دخل عليها جعفر رآها، قامت على قدميها وقبلت الأرض بين يديه وقالت له: «يا سيدى جرى القلم من القدم بما حكم الله»، فلما رأى ذلك جعفر قال لها: «يا سيدتى إنه ما أوصانى إلا بالقبض على غانم بن أيوب»، فقالت: «يا سيدى إنه عبى تجارات وذهب بها إلى دمشق ولا علم لى بخبره، وأريد أن تحفظ لى هذا الصندوق، وتحمله إلى وأن تسلمه إلىَّ فى قصر أمير المؤمنين»، فقال جعفر: «السمع والطاعة»، ثم أخذ الصندوق وأمر بحمله وقوت القلوب معهم إلى دار الخلافة وهى مكرمة معززة، وكان هذا بعد أن نهبوا دار غانم.

ثم توجهوا إلى الخليفة وحكى جعفر للخليفة جميع ما جرى، فأمر الخليفة لقوت القلوب بمكان وأسكنها فيه، وألزم بها عجوزًا لقضاء حاجتها، ثم إنه كتب مرسومًا بعث به إلى الأمير محمد بن سليمان الزينى، وكان نائبًا للخليفة فى دمشق ومضمونه: «أنه ساعة وصول المرسوم تقبض على غانم بن أيوب وترسله إلى».

فلما وصل المرسوم إليه قبَّله ووضعه على رأسه، ونادى فى الأسواق: «من أراد أن ينهب فعليه بدار غانم بن أيوب»، فجاؤوا إلى الدار فوجدوا أم غانم وأخته قد صنعتا له قبرًا فى وسط الدار وقعدتا عنده تبكيان عليه، فمسكوهما ونهبوا الدار، ولم تعلما ما الخبر، فلما أحضروهما عند السلطان سألهما عن غانم ولدها، فقالتا له: «من مدة سنة أو أكثر ما وقفنا له على خبر»، فردوهما إلى مكانهما.

هذا ما كان من أمرهما، وأما ما كان من أمر غانم بن أيوب، فإنه لما سلبت نعمته ونظر إلى حاله بكى على نفسه حتى انفطر قلبه، وتاه على وجهه وسار إلى آخر النهار وقد ازداد به الجوع وأضر به المشى، فلما وصل إلى بلد دخلها وذهب إلى مسجد وجلس على برش وأسند ظهره إلى حائط المسجد، وارتمى وهو فى غاية الجوع والتعب، ولم يزل مقيمًا هناك إلى الصباح، وقد خفق قلبه من الجوع وتغيرت أحواله، فأتى أهل تلك البلدة يصلون الصبح، فوجدوه مطروحًا ضعيفًا هزيلاً من الجوع وعليه آثار النعمة لائحة.

فلما صلوا وأقبلوا عليه وجدوه بردانًا جائعًا فأعطوه ثوبًا عتيقًا قد بليت أكمامه وقالوا له: «يا غريب من أين تكون وما سبب ضعفك؟» ففتح عينيه فيهم وبكى ولم يرد عليهم جوابًا، فذهب أحدهم وقد عرف أنه جائع فأتى له بسكرجة عسل ورغيفين، فأكل يسيرًا وقعدوا عنده حتى طلعت الشمس وانصرفوا لأشغالهم، ولم يزل على هذه الحال شهرًا وهو عندهم وقد تزايد به الضعف والمرض، فبكوا وتعطفوا عليه وتشاوروا مع بعضهم فى أمره، فاتفقوا فى أنهم يوصلونه إلى المارستان الذى ببغداد.

فبينما هم كذلك وإذا بامرأتين سائلتين دخلتا عليه وكانتا أمه وأخته، فلما رآهما أعطاهما الخبز الذى عند رأسه، ونامتا عند تلك الليلة ولم يعرفهما، فلما كان اليوم الثانى أتاه أهل القرية وأحضروا جملاً وقالوا للجمال، «احمل هذا المريض فوق الجمل، فإذا وصلت إلى بغداد فأنزله على باب المارستان لعله يتداوى ويتعافى ويبقى لك الأجر»، فقال: «السمع والطاعة». فبعد ذلك أخرجوا غانم بن أيوب من المسجد وحملوه بالبرش الذى هو نائم عليه فوق الجمل، وجاءت أمه وأخته يتفرجان عليه من جملة الناس، ولم تعلما به، ثم إنهما نظرتا إليه وتأملتاه وقالتا: «إنه شبيه لغانم ابننا، فيا ترى هل هو هذا الضعيف أو لا؟» وأما غانم فإنه ما أفاق إلا وهو محمول على الجمل مشدود بحبل، فبكى واشتكى، وأهل القرية ينظرون أمه وأخته تبكيان عليه ولم تعرفا به، ثم سافرت أمه وأخته إلى أن وصلتا إلى بغداد.

وأما الجمال فما زال سائرًا به حتى حطه على باب المارستان وأخذ جمله وذهب، فبقى غانم راقدًا هناك إلى الصباح، فلما طلع الصباح وازدحم الناس فى الطريق نظروا إليه، وقد صارت روحه تتردد فى مثل رق الخلال، فجاء شيخ السوق وأزاح الناس عنه وقال: «أنا أكسب الجنة بهذا المسكين، فإنهم متى أدخلوه المارستان قتلوه فى يوم واحد» ثم أمر صبيانه بحمله، فحملوه إلى بيته وفرش له فرشًا جديدًا ووضع له مخدة جيدة وقال لزوجته: «اخدميه بنصح»، فقالت له: «طيب على الرأس» ثم تشمرت وسخنت ماء وغسلت يديه ورجليه وبدنه، وألبسته ثوبًا من لبس جواريها، وأسقته قدح شراب ورشت عليه ماء ورد، فأفاق واشتكى وافتكر بما قاسى فزادت به الكروب.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر قوت القلوب، فإنه لما غضب عليها الخليفة وأسكنها فى المكان المظلم، ولبثت على هذا الحال ثمانين يومًا اتفق أن الخليفة مر يومًا من الأيام على ذلك المكان فسمع قوت القلوب تنشد الأشعار، فلما فرغت من شعرها قالت: «يا غانم ما أحسنك وما أعف نفسك، أحسنت لمن أساء إليك وحفظت حرمة من ضيع حرمتك وحفظت حريمه وهو سباك وسبى أهلك، ولا بد أن تقف أنت وأمير المؤمنين بين يدي حاكم عادل، وتنتصف أنت منه فى يوم يكون فيه القاضى الله المولى جل وعز والشهود هم الملائكة».

فلما سمع الخليفة كلامها، فهم شكواها وعلم أنها مظلومة، فدخل قصره وأرسل

مسرورًا الخادم إليها، فلما حضرت بين يديه أطرقت برأسها وهى باكية العين حزينة القلب، فقال: «يا قوت القلوب أراك تتظلمين منى وتنسبيننى إلى الظلم، وتزعمين أنى أسأت لمن أحسن إليَّ، فمن هو الذى حفظ حرمتى وانتهكت حرمته، وستر حريمى، وسبيت حريمه؟» فقالت له: «غانم بن أيوب، فإنه لم يقربنى بفاحشة ولا سوء، وحق نعمتك يا أمير المؤمنين». فقال الخليفة: «لا حول ولا قوة إلا بالله، يا قوت القلوب تمنى تعطى».

فقالت: «أتمنى عليك غانم بن أيوب» فعند ذلك امتثل أمرها، فقالت: «يا أمير المؤمنين إن أحضرته تهبنى له»، فقال: «إن حضر وهبتك له هبة كريم لا يرد فى عطائه». فقالت: «يا مولاى ائذن لى أن أدور عليه لعل الله يجمعنى به» فقال: «افعلى ما بدا لك».

ففرحت وخرجت ومعها ألف دينار ذهب، فزارت المشائخ وتصدقت عنه، وطلعت ثانى يوم إلى سوق التجار وأعلمت شيخ السوق وأعطته دراهم وقالت له: «تصدق بها على الغرباء»، وطلعت ثم جاءت ثانى يوم إلى السوق ومعها ألف دينار ودخلت سوق الصاغة وسوق الجوهرية فنادت بالعريف فحضر، فدفعت له ألف دينار وقالت له: «تصدق به على الغرباء» فنظر إليها العريف وهو شيخ السوق وقال لها: «يا سيدتى هل لك أن تذهبى إلى دارى وتنظرى إلى هذا الشاب الغريب ما أظرفه وما أكمله؟» وكان هو غانم بن أيوب ولكن العريف ليس له به معرفة» وكان يظن أنه رجل مسكين مديون سلبت نعمته. فلما سمعت كلامه خفق قلبها وتقلق أحشاؤها فقالت له: «أرسل معى من يوصلنى إلى دارك»، فأرسل معها صبيا صغيرًا، فأوصلها إلى دار العريف التى فيها الغريب فشكرته على ذلك، فلما وصلت البيت ودخلت وسلمت على زوجة العريف، قامت زوجة العريف فقبلت الأرض بين يديها لأنها عرفتها، فقالت لها قوت القلوب، «أين الضعيف الذى عندك؟» فبكت وقالت: «ها هو يا سيدتى، حقا إنه ابن ناس وعليه أثر النعمة وها هو على الفراش» فالتفتت إليه ونظرته فرأته كأنه هو بذاته ورأته قد اختفى وكثر نحوله ورق إلى أن صار كالخلال واستبهم عليها أمره، فلم تتحقق أنه هو ولكن أخذتها الشفقة عليه فبكت وقالت: «إن الغرباء مساكين وإن كانوا أمراء فى بلادهم»، ولم تعرف أنه غانم، ثم أنه وجعها قلبها عليه ورتبت له الشراب والأدوية وجلست عند رأسه ساعة، ثم ذهبت إلى قصرها وصارت تذهب إلى كل الأسواق لأجل التفتيش على غانم.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية أم غانم بن أيوب وأخته وقوت القلوب

قالت شهرزاد: ثم إن العريف أتى بأمه وأخته فتنة ودخل بهما على قوت القلوب، وقال: «يا سيدة المحسنات قد دخل مدينتنا فى هذا اليوم امرأة وبنتها، ولهما وجوه ملاح وعليهما آثار النعمة والسعادة لائحة، لكنهما لابستان ثيابًا من الشعر وكل واحدة منهما معلقة فى رقبتها مخلاة، وعيونهما باكية وقلوبهما حزينة، وها أنا أتيت بهما إليك لتأويهما وتصونيهما عن التسول لأنهما ليستا من أهله، وإننا ندخل إن شاء الله بهما الجنة» فقالت: «يا سيدى لقد شوقتنى إليهما وأين هما؟» ثم قالت للعريف: «علي بهما».

فأمر الخادم أن يدخلهما على قوت القلوب، فعند ذلك دخلت فتنة وأمها، فلما نظرتهما قوت القلوب وهما ذاتا جمال بكت عليهما وقالت: «إنهما من مربي نعمة ويلوح عليهما أثر الغنى»، فقالت زوجة العريف: «يا سيدتى نحن نحب الفقراء والمساكين لأجل الثواب، وهؤلاء ربما جار عليهما الظلمة وسلبوا نعمتهما وخربوا ديارهما».

ثم إنهما بكتا بكاءً شديدًا وافتكرتا فيما كانت فيه من النعم، وما صارتا إليه من الفقر والحزن، وتفكرتا فى غانم بن أيوب، فلما بكتا بكت قوت القلوب لبكائهما وقالتا: «نسأل الله أن يجمعنا بمن نريد وهو ولدى اسمه غانم بن أيوب».

فلما سمعت قوت القلوب علمت أن هذه المرأة أم المحسن إليها والأخرى أخته. فبكت حتى غشي عليها، فلما أفاقت أقبلت عليهما وقالت لهما: «لا بأس عليكما وهذا اليوم أول سعادتكما وآخر شقاوتكما فلا تحزنا». ثم إنها أمرت العريف أن يأخذهما إلى بيته، ويخلي زوجته تدخلهما الحمام وتلبسهما ثيابًا حسنة وتتوصى بهما وتكرمهما غاية الإكرام، وأعطته جملة من المال.

وفى ثانى يوم ركبت قوت القلوب وذهبت إلى بيت العريف ودخلت عند زوجته. فقامت إليها وقبلت يديها وشكرت إحسانها، ورأت أم غانم وأخته وقد أدخلتهما زوجة العريف الحمام وغيرت ما عليهما من الثياب، فظهرت عليهما آثار النعمة، فجلست تحادثهما ساعة، ثم سألت زوجة العريف عن المريض الذى هو عندها، فقالت: «هو بحاله»، فقامت هى وزوجة العريف وأم غانم وأخته ودخلن عليه وجلسن عنده.

فلما سمعهنَّ غانم بن أيوب يذكرن قوت القلوب، وكان قد انتحل جسمه ورق عظمه، ردَّت إليه روحه ورفع رأسه من فوق المخدة ونادى: «يا قوت القلوب» فنظرت إليه وتحققته وصاحت بقولها: «نعم يا حبيبى»، فقال لها: «قربى منى» فقالت له: «لعلك غانم بن أيوب؟» فقال لها: «نعم أنا هو»، فعند ذلك وقعت مغشيًا عليها. فلما سمعت أخته فتنة وأمه كلامهما صاحتا بقولها: «وافرحتاه!» ووقعتا مغشيًا عليهما وبعد ذلك استفاقتا فقالت له قوت القلوب: «الحمد لله الذى جمع شملنا بك وبأمك وأختك»، ثم تقدمت إليه وحكت له جميع ما جرى له مع الخليفة وقالت له: «إنى أظهرت لأمير المؤمنين الحق، فصدق كلامى وعفا عنك وهو اليوم يتمنى أن يراك» ثم أخبرته وقالت له: «إنه وهبنى لك»، ففرح بذلك، ثم قالت: «لا تبرحوا حتى أحضر».

وقامت من وقتها وساعتها وانطلقت إلى قصرها وحملت الصندوق الذى أخذته من داره، وأخرجت منه دنانير وأعطتها للعريف وقالت له: «خذ هذه الدراهم واشتر لكل شخص منهم أربع حلل كوامل من أحسن القماش، وعشرين منديلاً وغير ذلك مما يحتاجون إليه»، ثم إنها دخلت بهما وبغانم الحمام وأمرت بغسلهم، وعملت لهم المساليق وماء الخولنجان وماء التفاح بعد أن خرجوا من الحمام ولبسوا الثياب.

وأقامت عندهم ثلاثة أيام وهى تطعمهم لحم الدجاج والمساليق وتسقيهم السكر المكرر، فبعد ثلاثة أيام ردت أرواحهم إليهم، وأدخلتهم الحمام ثانيا وخرجوا وغيرت لهم الثياب، وأبقتهم فى بيت العريف وذهبت إلى القصر، فاستأذنت على الخليفة فأذن لها. فدخلت عليه

وقبلت الأرض بين يديه وأعلمته بالقصة وأنه قد حضر سيدها غانم بن أيوب وأن أمه وأخته قد حضرتا، فلما سمع الخليفة كلام قوت القلوب قال للخدام: «عليَّ بغانم».

فنزل جعفر إليه وكانت قد سبقته قوت القلوب ودخلت على غانم وأعلمته أن الخليفة أرسل إليك يطلبك بين يديه، فأوصته بفصاحة اللسان وتثبيت جنانه وعذوبة كلامه، وألبسته حلة فاخرة وأعطته دنانير بكثرة وقالت له: «كثر البذل إلى حاشية الخليفة وأنت داخل عليه»، وإذا بجعفر قد أقبل عليه وهو على بغلته النوبية، فقام غانم وحياه وقبَّل الأرض بين يديه، وقد ظهر كوكب سعده وأضاء، فأخذه جعفر وما زالا سائرين هو وجعفر حتى دخلا على أمير المؤمنين فلما حضر بين يديه نظر إلى الوزراء والأمراء والحجاب والنواب وأرباب الدولة وأصحاب الصولة، فعند ذلك أبدى غانم أعذب كلامه وفصاحته، ثم نظر إلى الخليفة وأطرق برأسه إلى الأرض وأنشد يقول هذه الأبيات:

حييت من ملك عظيم الشان ... متتابع الحسنات والإحسان
لا يلهجون بغيره من قيصر ... فى ذا المقام وصاحب الإيوان
تضع الملوك على ثرى أعتابه ... عند السلام جواهر التيجان
حتى إذا بصرت له أبصارهم ... خروا لهيبته على الأذقان
ويفيدهم ذاك المقام مع الرضى ... رتب العلا وجلالة السلطان
ضاقت بعسكرك الفيافى والورى ... فاضرب خيامك فى ذرى كيوان
ونشرت عدلك فى البسيطة كلها ... حتى استوى القاصى بها والداني

فلما فرغ من شعره طرب الخليفة وأعجبه فصاحة لسانه وعذوبة منطقه، فقال له: «ادن منى»، فدنا منه، ثم قال له: «اشرح لى قصتك وأطلعنى على حكايتك، فقعد وحدث الخليفة بما جرى له فى بغداد وبنومه فى التربة وأخذ الصندوق من العبيد بعد ما ذهبوا، وأخبره بما جرى له من المبتدأ إلى المنتهى، وليس فى الإعادة إفادة، فلما علم الخليفة أنه صادق خلع عليه وقربه إليه وقال له: «أبرئ ذمتى»، فأبرأ ذمته وقال له: «يا مولانا السلطان إن العبد وما ملكت يداه لسيده»، ففرح الخليفة بذلك ثم أمر أن يفرد له قصر، ورتب له من الجوامك والجرايات والعطايا شيئًا كثيرًا، ثم نقله ونقل أخته وأمه. وسمع الخليفة بأخته فتنة أنها فى الحسن فتنة فخطبها الخليفة من غانم، فقال له غانم: «إنها جاريتك وأنا مملوكك» فشكره وأعطاه ألف دينار وأتى بالشهود والقاضى وكتبوا الكتابين فى نهار واحد وهما: كتاب الخليفة على فتنة، وكتاب غانم بن أيوب على قوت القلوب.

وأمر الخليفة أن يؤرخ ما جرى لغانم من حديثه وأن يخلد فى الخزانة حتى يقرأه الذى يأتى من بعده فيتعجب من تصاريف الأقدار، ويفوض أمره إلى خالق الليل والنهار.

وليس هذا بأعجب من حكاية الملك عمر بن النعمان وولده شركان وولده ضوء المكان، وما جرى لهم من العجائب والغرائب، قال الملك: «وما حكايتهما؟».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية الملك عمر بن النعمان وابنيه
شركان وضوء المكان

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السيعد، أنه كان بمدينة السلام، قبل خلافة عبد الملك ابن مروان، ملك يقال له: عمر بن النعمان، وكان من الجبابرة الكبار. وكان قد قهر الملوك الأكاسرة والقياصرة. وكان لا يصطلى له بنار، ولا يجاريه أحد فى مضمار. وكان إذا غضب خرج من منخريه الشرار. وكان قد ملك جميع الأقطار. وأخضع الله له جميع العباد، وقد نفذ أمره فى سائر الأمصار. ووصلت عساكره إلى أقصى البلاد. ودخل فى حكمه المشرق والمغرب، وما بينهما من الهند، والسند، والصين، وأرض الحجاز، وبلاد اليمن، وجزائر الهند، وبلاد الشمال، وديار بكر، وأرض السودان، وجزائر البحار، وما فى الأرض من مشاهير الأنهار كسيحون، وجيحون، والنيل، والفرات. وأرسل رسله إلى أقصى المدائن ليأتوه بحقيقة الأخبار، فعادوا إليه وأخبروه بالعدل والطاعة والأمان والدعاء للسلطان عمر بن النعمان. هذا وعمر بن النعمان يا ملك الزمان، له نسب عظيم الشأن تحمل إله الهدايا والتحف والخراج من كل مكان.

وكان له ولد قد سماه شركان، وهو أشبه الناس به، وقد ظهر آفة من آفات الزمان، وقهر الشجعان، وأباد الأقران، فأحبه والده حبا شديدًا ما عليه من مزيد وأوصى له بالملك من بعده، ثم إن شركان كبر حتى بلغ مبلغ الرجال وصار له من العمر عشرون سنة. فذلل الله له جميع العباد لما به من شدة اليأس والجلاد، وكان والده عمر بن النعمان له أربع نساء بالكتاب والسنة. لكنه لم يرزق منهن ولدًا غير شركان وهو من إحداهن، والباقى عواقر لم يرزق من واحدة منهن ولدًا. ومع ذلك كان له جملة جوارى.

ثم إن ولده شركان اشتهر فى سائر الآفاق ففرح به والده، وازداد قوة فطغى وتجبر وفتح الحصون والبلاد، وكان بالأمر المقدر أن جارية من جوارى عمر بن النعمان قد حملت وعلم الملك بذلك ففرح فرحًا شديدًا، وقال: «لعل أن تكون ذريتى ونسلى كلها ذكورًا». فأرخ يوم حملها وصار يحسن إليها. فعلم شركان بذلك فاغتم وعظم عليه الأمر، وقال: «لقد جاءنى من ينازعنى فى المملكة». وقال فى نفسه: «إن ولدت هذه الجارية ولدًا ذكرًا قتلته». وكتم ذلك فى نفسه.

فهذا ما كان من أمر شركان، وأما ما كان من أمر الجارية فإنها كانت رومية. وكان قد بعثها إليه هدية ملك الروم صاحب قيسارية، وأرسل معها تحفًا كثيرة. وكان اسمها صفية. وكانت أجمل الجوارى وأحسنهن وجهًا وأصونهن عرضًا، وكانت ذات عقل وافر وجمال باهر، وكانت تخدم الملك وتقول له: «أيها الملك، كنت أشتهى من إله السماء أن يرزقك منى ولدًا ذكرًا حتى إنى أحسن تربيته وأبالغ فى أدبه وصيانته». فيفرح الملك ويعجبه ذلك الكلام. وكانت فى مدة حملها على صلاح، تقوم للصلاة وتحسن العبادة وتدعو الله أن يرزقها ولدًا صالحًا ويسهل عليها ولادته، فتقبل الله منها دعاءها.

وكان الملك قد وكل بها خادمًا يخبره بما تضعه هل هو ذكر أوأنثى. وكذلك ولده شركان أرسل من يعرفه بذلك. فلما وضعت صفية ذلك المولود نظرت إليه القوابل فوجدنه بنتًا بوجه

أبهى من القمر. فأعلمن بها الحاضرين، وعاد رسول الملك وأخبره، وكذلك رسول شركان أخبره بذلك. ففرح فرحًا شديدًا. فلما انصرف الخدام قالت صفية للقوابل: «أمهلوا علىَّ ساعة فإنى أشعر بأحشائى أن فيها شيئًا آخر». ثم تأوهت وجاءها الطلق ثانيًا، وسهل الله عليها ووضعت مولودًا ثانيًا. فنظرت إليه القوابل فوجدنه ولدًا ذكرًا يشبه البدر، بجبين أزهر، وخد أحمر مورد، ففرحت به الجارية والخدم والحشم وكل من حضر، وقد أطلقوا الزغاريد فى القصر. فسمع بقية الجوارى بذلك فحسدنها.

وبلغ عمر بن النعمان الخبر ففرح واستبشر وقام وخرج وقبل رأسها ونظر إلى المولود. ثم انحنى إليه وقبله. وضربت الجوارى بالدفوف ولعبن بالآلات. وأمر الملك أن يسموا المولود ضوء المكان، وأخته نزهة الزمان. فامتثلوا أمره وأجابوا بالسمع والطاعة. وأفرد لهما الملك من يخدمهما من المراضع والخدام والحشم. ورتب لهما الرواتب من السكّر والأشربة والأدهان وغير ذلك مما يكل عن وصفه اللسان.

وسمعت أهل بغداد بما رزق الله الملك من الأولاد فزينت المدينة ودقت البشائر. وأقبلت الأمراء والوزراء وأرباب الدولة وهنأوا الملك عمر بن النعمان بولده ضوء المكان وبنته نزهة الزمان، فشكرهم الملك على ذلك وخلع عليهم وزاد فى إكرامهم من الإنعام. وأحسن إلى الحاضرين من الخاص والعام. ولم يزل على تلك الحالة إلى أن مضى أربعة أعوام، وهو بعد كل قليل من الأيام يسأل عن صفية وولديها. وبعد أربعة أعوام أمر أن ينقل إليها من المصاغ والحلى والحلل شىء كثير، وأوصاها بتربيتهما وحسن أدبهما. هذا كله وابن الملك شركان لا يعلم أن والده عمر بن النعمان رزق ولدًا ذكرًا. ولم يعلم أنه رزق سوى نزهة الزمان. وأخفوا عليه خبر ضوء المكان إلى أن مضت أعوام وأيام. وهو مشغول بمقارعة الشجعان ومبارزة الفرسان.

فبينما الملك عمر بن النعمان جالس يوم من الأيام دخل عليه الحجاب وقبلوا الأرض بين يديه، وقالوا: «أيها الملك وصل إلينا رسل من ملك الروم صاحب القسطنطينية العظمى وأنهم يريدون الدخول عليك والمثول بين يديك، فإن أذن لهم الملك فى الدخول ندخلهم وإلا فلا مرد لأمرك». فعند ذلك أذن لهم فى الدخول. فلما دخلوا عليه مال إليهم وأقبل عليهم وسألهم عن حالهم وما سبب إقبالهم. فقبلوا الأرض بين يديه، وقالوا:

«أيها الملك الجليل صاحب الباع الطويل، اعلم أن الذى أرسلنا إليك هو الملك أفريدون صاحب البلاد اليونانية والعساكر النصرانية، المقيم بمملكة القسطنطينية يعلمك أنه اليوم فى حرب شديد مع جبار عنيد هو ملك قيسارية، والسبب فى ذلك أن بعض ملوك العرب فى قديم الزمان، اتفق أنه وجد فى بعض فتوحاته كنزًا من عهد الإسكندر، فنقل منه أموالا لا تحصى. ومن جملة ما وجد فيه ثلاث خرزات مدورات على قدر بيض النعام، وهى من معدن الجوهر الأبيض الذى لا يوجد له نظير. وكل خرزة منقوش عليها بالقلم اليونانى أمور من الأسرار، ولهن منافع وخواص كثيرة. ومن بعض خاصتهن أن كل مولود علقت عليه خرزة منهن لا يصيبه ألم ما دامت الخرزة معلقة عليه ولا يئن ولا يمرض. فلما وضع يده عليها ووقع بها وعرف ما

كان من أسرارها أرسل الملك أفريدون هدايا من بعض التحف والمال، ومن جملتها ثلاث خرزات.

«وجهز مركبين الواحد فيه مال والآخر فيه رجال تحفظ الهدايا ممن يتعرض لها فى البحر. وكان يعرف من نفسه أنه لا أحد يقدر أن يحبس مراكبه لكونه ملك العرب. لا سيما وطريق المراكب التى فيها الهدايا فى البحر الذى فى مملكة القسطنطينية هى متوجهة إليه، وليس فى سواحل ذلك البحر إلا رعايا الملك الأكبر أفريدون.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: «فلما جهز المركبين سافرا إلى أن قربا من بلادنا، فخرج عليهما بعض قطاع الطريق من تلك الأرض، وفيهم عساكر من عند صاحب قيسارية، فأخذوا جميع ما فى المركبين من التحف والمال والذخائر والثلاث الخرزات وقتلوا الرجال، فبلغ ذلك ملكنا فأرسل إليهم عسكرًا فكسروه وأرسل لهم عسكرًا ثانيًا أقوى من الأول فهزموه أيضًا. فعند ذلك اغتاظ الملك وأقسم أنه لا يخرج إليهم إلا بنفسه فى جميع عسكره وأنه لا يعود عنهم حتى يترك قيسارية الأرمن خرابًا. والمراد من صاحب العصر والأوان، الملك عمر بن النعمان، ملك بغداد وخراسان، أن يمدنا بعسكر من عنده حتى يصير له الفخر، وقد أرسل إليك ملكنا معنا شيئًا من أنواع الهدايا ويسأل من إنعام الملك قبولها والتفضل عليه بالإسعاف». ثم إن الرسل قبلوا الأرض بين يديه. ومن بعد ذلك أخرجوا له الهدايا وكانت الهدية خمسين جارية من خواص بلاد الروم. وخمسين مملوكًا عليهم أقبية من الديباج بمناطق من الذهب والفضة. وكل مملوك فى أذنه قرط من الذهب فيه لؤلؤة تساوى ألف مثقال من الذهب. والجوارى كذلك. وعليهن من القماش ما يساوى مالا جزيلاً.

فلما رآهم الملك قبلهم وفرح بهم وأمر بإكرام الرسل وأقبل على وزرائه واستشارهم فيما يفعل. فنهض من بينهم وزير وكان شيخًا كبيرًا، يقال له: دندان، فقبل الأرض بين يدى الملك عمر بن النعمان. وقال: «أيها الملك، ما فى الأمر أحسن من أن تجهز عسكرًا جرارًا وتقدم عليهم ولدك شركان، ونحن بين يديه غلمان. وهذا الرأى أحسن لوجهين: الأول أن ملك الروم قد استجار بك وأرسل إليك هدية فقبلتها. والوجه الثانى: أن العدو لا يجسر على بلادنا. فإذا دافع عسكرك عن ملك الروم وانكسر عدوه، ينسب هذا الأمر إليك ويشيع فى سائر الأقطار والبلاد، ولا سيما إذا وصل الخبر إلى جزائر البحر وسمع ذلك أهل المغرب. فيحملون إليك الهدايا والتحف والأموال».

فلما سمع الملك هذا الكلام من وزيره دندان أعجبه واستصوبه وخلع عليه، وقال له: «مثلك من تستشيره الملوك وينبغى أن تكون أنت فى مقدم العسكر، وولدى شركان فى ساقة العسكر». ثم إن الملك أمر بإحضار ولده شركان. فلما حضر قبَّل الأرض بين يدي والده وجلس. فقص عليه القصة وأخبره بما قاله الرسل وبما قاله الوزير دندان، وأوصاه بأخذ الأهبة والتجهز للسفر وأنه لا يخالف الوزير دندان فيما يفعل. وأمره أن ينتخب من عسكره عشرة

آلاف فارس كاملي العدة، صابرين على الحروب والشدة. فامتثل شركان لما قاله له أبوه عمر ابن النعمان وقام في الوقت واختار من عسكره عشرة آلاف فارس. ثم دخل قصره وعرض عسكره وأنفق عليهم المال وقال لهم: «المهلة ثلاثة أيام». فقبلوا الأرض بين يديه مطيعين لأمره وخرجوا من عنده وأخذوا الأهبة وإصلاح الشأن.

ثم إن شركان دخل إلى خزائن السلاح وأخذ جميع ما يحتاج إليه من العدد. ثم دخل الإصطبل واختار منه الخيل المسوَّمة وغيرها. وبعد ذلك أقاموا ثلاثة أيام. ثم خرجت العساكر إلى ظاهر مدينة بغداد وخرج عمر بن النعمان لوداع ولده شركان. فقبل الأرض بين يديه وأهدى له سبع خزائن من المال. وأقبل على الوزير دندان وأوصاه بعسكر ولده شركان. فقبل الأرض بين يديه وأجابه بالسمع والطاعة. وأقبل الملك على ولده شركان وأوصاه أن يشاور الوزير في جميع أموره. فقبل ذلك. ورجع والده إلى داخل المدينة.

ثم إن شركان أمر النقباء بالعرض. فعرضوا العساكر وكانت عدتهم عشرة آلاف فارس غير ما يتبعهم. ثم إن القوم حملوا ودقَّت الطبول وزعقت البوقات وانتشرت الأعلام والرايات وركب شركان وإلى جانبه وزيره دندان، والأعلام تخفق على رؤوسهم.

ولم يزالوا سائرين والرسل تتقدمهم إلى أن ولَّى النهار وأقبل الليل. فنزلوا واستراحوا وباتوا تلك الليلة. فلما أصبح الله بالصباح ركبوا وساروا. ولم يزالوا مجدين في السير والرسل يدلونهم على الطريق مدة عشرين يومًا. ثم أشرفوا في اليوم الحادي والعشرين على واد واسع الجهات كثير الأشجار والنبات. فسيح النواحي. وكان وصولهم إل ذلك الوادي ليلاً. فأمرهم شركان بالنزول والإقامة فيه ثلاثة أيام. فنزل العساكر وضربوا الخيام وافترق العسكر يمينًا وشمالا ونزل الوزير دندان وصحبته رسل أفريدون صاحب القسطنطينية في وسط ذلك الوادي. وأما الملك شركان فإن كان في وقت وصول العسكر وقف بعدهم ساعة حتى نزلوا جميعهم وتفرقوا في جوانب الوادي. فأرخى عنان جواده وأراد أن يكشف ذلك الوادي ويتولى الحرس بنفسه لأجل وصية والده له، لأنهم في أول بلاد الروم وأرض العدو. فسار وحده بعد أن أمر مماليكه وخواصه بالنزول عند الوزير دندان.

ثم إنه سار على ظهر جواده في جانب الوادي إلى أن مضى من الليل ربعه. فتعب وغلب عليه النوم فصار لا يقدر أن يركض الجواد. وكان له عادة أن ينام على ظهر جواده. فلما هجم عليه النوم نام. فما زال الجواد سائرًا به إلى نصف الليل. فدخل به في بعض الغابات وكانت تلك الغابة كثيرة الأشجار فلم ينتبه شركان حتى دق الجواد حافره في الأرض. فاستيقظ فوجد نفسه بين الأشجار فطلع عليه القمر وضاء في الخافقين. فاندهش شركان لما رأى نفسه في ذلك المكان. وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

فبينما هو كذلك وهو خائف من الوحش وإذا بالقمر قد انبسط على مرج كأنه من مروج الجنة. فسمع كلامًا مليحًا وحسًا عاليًا وضحكًا يسبي عقول الرجال. فنزل الملك شركان عن جواده وربطه في الأشجار، ومشى حتى أشرف على نهر ماء يجري. وسمع كلام امرأة تتكلم بالعربي وهي تقول: «وحق المسيح ليس هذا منكن مليح. ولكن كل من تكلمت بكلمة صرعتها وكتفتها».

كل هذا وشركان يمشي إلى جهة الصوت حتى انتهى إلى طرف المكان فنظر فإذا هو بنهر يسبح، وطيور تمرح، ووحوش ترتع، والطيور باختلاف لغاتها لمعانى الحظ تشرح، وذلك المكان مزركش بأنواع النبات كما قال فيه بعض واصفيه:

ما تحسن الأرض إلا عند زهرتها والماء من فوقها يجرى بإرسال
صنع الإله العظيم الشأن مقتدرًا معطى العطايا ومعطى كل مفضال

فنظر شركان إلى ذلك المكان فرأى فيه ديرًا، ومن داخل الدير قلعة شاهقة فى الهواء فى ضوء القمر. وفى وسطها نهر يجرى الماء منه إلى تلك الرياض. وهناك امرأة بين يديها عشر جوار كأنهن الأقمار. وعليهن من أنواع الحلى والحلل ما يدهش الأبصار، وكلهن أبكار. فسمعها شركان وهى تقول للجوارى: «تقدّمن حتى أصارعكن». فصارت كل واحدة منهن تتقدم إليها فتصرعها فى الحال وتكتفها بزنارها. فلم تزل تصارعهن وتصرعهن حتى صرعت الجميع. ثم التفتت إليها جارية عجوز كانت بين يديها، وقالت لها وهى كالمغضبة عليها: «أتفرحين بصرعك للجوارى. فها أنا عجوز وقد صرعتهن أربعين مرة فكيف تعجبين بنفسك. ولكن إن كان لك قوة على مصارعتى فصارعينى حتى أقوم إليك وأجعل رأسك بين رجليك».

أما الجارية فتبسمت ظاهرًا، وقد امتلأت غيظًا منها باطنًا وقامت إليها وقالت لها: «يا سيدتى ذات الدواهى أتصارعيننى حقيقة أم تمزحين معى؟».

فقالت ذات الدواهى للجارية: «إنى أصارعكِ حقيقة». فقالت لها: «قومى للصراع إن كان لكِ قوة». فلما سمعت العجوز منها ذلك اغتاظت غيظًا شديدًا وقام شعرها كأنه شعر قنفذ ثم وثبت. وقامت إليها الجارية. فتقدمت العجوز كأنها عفريتة معطاء أو حية رقطاء. ثم هجمت على الجارية وقالت لها: «افعلى كفعلى». وكان شركان ينظر إليهما ويتأمل فى تشويه صورة العجوز ويضحك.

ثم إن العجوز والجارية تماسكتا ببعضهما. فرفع شركان رأسه إلى السماء ودعا الله أن الجارية تغلب العجوز. فأخذت الجارية العجوز ورفعتها على يديها. فانفلتت العجوز من يديها وأرادت الخلاص، فوقعت على ظهرها. فضحك شركان عليها. ثم قام وسلَّ حسامه والتفت يمينًا وشمالاً فلم ير أحدًا غير العجوز مرمية على ظهرها. فقال شركان فى نفسه: «ما كذب من سماكِ ذات الدواهى. هذا وأنتِ تعرفين قوتها مع غيركِ».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية الملك شركان والملكة إبريزة

قالت شهرزاد: ثم تقرب منهما ليسمع ما يجرى بينهما. فأقبلت الجارية واعتذرت لها وقالت: «يا سيدتى ذات الدواهى ما أردتُّ إلا صرعكِ. ولكنك انفلتِّ من بين يدى، فالحمد لله على السلامة». فلم ترد عليها جوابًا. وقامت تمشى من خجلها ولم تزل ماشية إلى أن غابت عن البصر. وصار الجوارى مكتفات مرميات والجارية واقفة وحدها. فقال شركان فى نفسه: «لكل رزق سبب. ما وقع علىَّ النوم، وسار بى الجواد إلى هذا المكان إلا لبختى. فلعل هذه

الجارية وما معها تكون غنيمة لى». ثم إنه عمد إلى جواده وركبه ولكزه ففر به كالسهم إذا فر من القوس. وبيده حسامه مجرد من قرابه وصاح: «الله أكبر». فلما رأته الجارية نهضت قائمة وحطت قدميها على جانب النهر وكان عرضه ستة أذرع بذراع العمل، ووثبت فصارت فى الجانب الآخر، وقامت على حيلها. ونادت برفيع صوتها: «من أنت يا هذا؟ فقد قطعت سرورنا، وحين شهرت حسامك كأنك قد حملت على عسكر. من أين أنت، وإلى أين تريد؟ فاصدق فى مقالك فإن الصدق أنفع لك. ولا تكذب، فإن الكذب من أخلاق اللئام. ولا شك أنك تهت فى هذه الليلة عن الطريق حتى جئت إلى هذا المكان الذى خلاصك فيه أكبر الغنيمات. وأنت الآن فى مرج لو صرخنا فيه صرخة واحدة لجاء إلينا أربعة آلاف بطريق. فقل لنا ما الذى تريد؟ فإن أردت أن نهديك إلى الطريق أهديناك، وإن أردت الرفد أرفدناك».

فلما سمع شركان كلامها قال لها: «أنا رجل غريب من المسلمين. وقد سرت فى هذه الليلة منفردًا بنفسى أطلب الغنيمة. فلم أجد غنيمة أحسن من هؤلاء الجوارى العشر فى هذه الليلة المقمرة. فآخذهن وأرجع بهن إلى أصحابى». فقالت له الجارية: «اعلم أن الغنيمة ما وصلت إليها. والجوارى ما هن غنيمتك. أما قلت لك: إن الكذب شين؟». فقال لها: «العاقل من يعتبر بغيره». فقالت له: «وحق المسيح، لولا أنى أخاف أن يكون هلاكك على يدى. لكنت صحت صيحة ملأت عليك المرج خيلاً ورجالا. ولكن أنا أشفق على الغريب. وإن أردت الغنيمة فأنا أطلب منك أن تنزل عن جوادك وتحلف لى بدينك أنك لا تتقرب إلى بشىء من السلاح، وأتصارع أنا وإياك فإن صرعتنى فضعنى على جوادك وخذنا كلنا غنيمة. وإن صرعتك أنا أتحكم فيك. فاحلف لى على ذلك؛ فإنى أخاف غدرك. فقد ورد فى الأخبار: إذا كان الغدر طبعًا، فإن الثقة بكل أحد عجز. فإن حلفت لى عدتُ إليك وأتيت.

فقال شركان، وقد طمع فى أخذها، وقال فى نفسه: «إنها لا تعرف أنى بطل من الأبطال». ثم ناداها وقال لها: «حلفينى بما أردت، وبما تثقين به أنى لا أدنو منك حتى تأخذى أهبتك وتقولى: ادن لأصارعك. فحينئذ أتقرب إليك، فإن صرعتنى فإن لى من المال ما أشترى به نفسى. وإن صرعتك أنا فهى الغنيمة الكبرى». فقالت الجارية: «أنا رضيت بذلك». فتحير شركان فى ذلك، وقال: «وحق النبى ﷺ رضيت أنا الآخر». فقالت له: «احلف الآن بمن ركّب الأرواح فى الأشباح. وشرع الشرائع للأنام، لا تتعرض لى بسوء غير المصارعة. وإلا تمُت على غير دين الإسلام». فقال شركان: «والله لو حلّفنى قاضٍ ولو كان قاضى القضاة لم يحلّفنى بهذه الإيمان».

ثم إنه حلف لها بجميع ما ذكرته وربط جواده فى الأشجار وهو غريق فى بحر من الأفكار. ثم إن شركان اشتد وأخذ أهبته للصراع، وقال للجارية: «اقطعى النهر واعبرى». فقالت له: «ليس لى إليك عبور. فإن كنت تريد فاعبر أنت إلي». فقال لها شركان: «أنا لا أقدر على ذلك». فقالت الجارية: «يا فتى، أنا أجيء إليك». ثم إنها قفزت فصارت عنده فى الجانب الآخر من النهر. فرفعته على يديها أسرع من البرق الخاطف وضربت به الأرض، وقالت له: «يا مسلم أنتم عندكم قتل الكفرة مباح. فما قولك فى قتلك؟». فقال لها: «يا سيدتى، أما قولك

عن قتلى فما هو إلا حرام. فإن نبينا محمداً ﷺ نهى عن قتل النسوان والصبيان والشيوخ والرهبان». فقالت له: «إذا كان نبيكم أوحى إليه بهذا فينبغى أن نكافئه على ذلك. ولكن قم قد وهبتك نفسك. فما يضيع عند الإنسان إحسان». فقام شركان وهو ينفض التراب عن رأسه. وأما الجارية فإنها قفزت فصارت فى الجانب الآخر من النهر، وقالت لشركان وهى تضحك: يعزّ علىّ فراقك يا مولاى، اذهب إلى أصحابك لئلا تأتيك البطارقة ويأخذوك على أسنة الرماح. وأنت ما فيك قوة لدفع النسوان، فكيف تدفع الفرسان».

فتحيّر شركان فى نفسه، وقال لها وقد ولت عنه معرضة طالبة للدير: «يا سيدتى، كيف أطأ بلادك وأرجع بلا أكل زادك وطعامك وقد صرت من بعض خدامك». فقالت: «لا يأبى الكرامة إلا اللئيم. تفضّل بسم الله على الرأس والعين. اركب جوادك وسر على جانب النهر مقابلى فأنت فى ضيافتى». ففرح شركان وبادر إلى جواده وركبه. وما زال ماشيًا فى مقابلها، وهى سائرة قباله إلى أن وصل إلى جسر معمول بأخشاب من الحور، وفيه بكَر بسلاسل من الفولاذ وعليها أقفال فى كلاليب.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فنظر شركان إلى ذلك الجسر. وإذا بالجوارى اللاتى كن معها فى المصارعة قائمات ينتظرنها. فلما أقبلت عليهن كلمت جارية منهن بلسان الرومية أن: «قومى إليه وامسكى عنان جواده واعبرى به إلى الدير».

فسار شركان وهى قدامه إلى أن عبر الجسر، وقد اندهش عقله مما رأى. ثم التفت إلى الجارية وقال لها: «الآن وقد صار عليك حرمتان: حرمة الصحبة، والأخرى بسيرى إلى منزلك وقبول ضيافتك، وصرت تحت حكمك وزمامك، فلو أنك تنعمين علىّ بالسير معى إلى بلاد الإسلام وتتفرجين على كل سيد ضرغام، وتعرفين من أنا».

فلما سمعت كلامه اغتاظت منه، وقالت له: «وحق المسيح، لقد كنت عندى ذا عقل سديد، ولكنى اطلعت الآن على سخافة عقلك وفساد قلبك، وأما قولك وتتفرجين على شجعان المسلمين. فوحق المسيح إنك قلت قولا غير صحيح، فإنى رأيت عسكركم لما استقبلتم أرضنا وبلادنا منذ هذين اليومين، فلما أقبلتم لم أر ترتيبكم ترتيب ملوك، وإنما رأيتكم طوائف مجتمعين. وأما قولك: تعرفين من أنا. فأنا لا أصنع معك جميلاً لأجل إجلالك. وإنما أفعل ذلك لأجل الفخر. ومثلك لا يقول لمثلى ذلك، ولو كنت شركان ابن الملك عمر بن النعمان الذى ظهر فى هذا الزمان». فقال لها: «وأنت تعرفين شركان؟» قالت: «نعم، وعرفت قدومه مع العساكر وعدتهم عشرة آلاف فارس. وذلك أن والده عمر بن النعمان أرسل معه هذا الجيش لنصرة ملك القسطنطينية». فقال شركان: «يا سيدتى، أقسمت عليك بما تعتقدين من دينك، حدثينى عن سبب ذلك».

فقالت له: «وحق دينك، لولا أنى خفت أن يشيع خبرى أنى من بنات الروم، لكنت خاطرت بنفسى وبارزت عشرة آلاف فارس وقتلت مقدّمهم الوزير دندان وظفرت بفارسهم

شركان، وما كان عليّ فى ذلك عار. ولكنى قرأت الكتب وتعلمت الآداب من كلام العرب ولست أصف نفسى بالشجاعة مع أنك رأيت منى الفلامة والصناعة، والقوة فى الصراع والبراعة، ولو حضر شركان مكانك فى هذه الليلة وقيل له اقفز هذا النهر لم يقدر على ذلك. وإنى أودُّ لو أن الله يرميه بين يديّ فى هذا الدير حتى أخرج له صفة الرجال وآسره وأجعله فى الأغلال».

فلما سمع شركان هذا الكلام أخذته النخوة والحمية وغيرة الأبطال، وأرد أن يظهر لها نفسه ويبطش بها، ولكن رده عنها العار من الغدر. ولم يزالا سائرين إلى أن وصلا إلى باب مقنطر وكانت قنطرته من رخام. ففتحت الجارية الباب ودخلت ومعها شركان وسارا إلى دهليز طويل مرفوع على عشر قناطر معقودة. وعلى كل قنطرة قنديل من البلور يشتعل كشعاع النار، فتلقتها الجوارى فى آخر الدهليز بالشموع الطيبة وعلى رؤوسهن العصائب المزركشة بالفصوص التى هى من سائر أصناف الجواهر.

وسارت وهن أمامها وشركان وراءها إلى أن وصلوا إلى الدير. فوجد بدائر ذلك الدير أَسِرَّة مقابلة لبعضها وعليها ستور مكللة بالذهب. وأرض الدير مفروشة بأنواع الرخام المجزّع، وفى وسطها بركة ماء وعليها أربعة وعشرون فوارة من الذهب والماء يخرج منها كاللجين. ورأى فى الصدر سريرًا مفروشًا بالحرير الملوكى. فقالت له الجارية: «اصعد يا مولاى على هذا السرير». فصعد شركان فوق السرير. وذهبت الجارية وغابت ساعة من الزمان. فسأل عنها بعض الخدام. فقالوا له: «إنها ذهبت إلى مرقدها، ونحن نخدمك كما أمرت». ثم إنهم قدموا له من غرائب الألوان فأكل حتى اكتفى. ثم إنهم قدموا له طستًا من الذهب وإبريقًا من الفضة فغسل يديه؛ وخاطره عند عسكره، لكونه لا يعلم ما جرى لهم بعده. وتذكر أيضًا كيف نسى وصية أبيه. فصار متحيرا فى أمره نادمًا على ما فعل.

فلما طلع الفجر ولاحت أنوار الصبح، رأى بهجة عظيمة قد أقبلت، فنظر فإذا هو بأكثر من عشرين جارية كالأقمار حول تلك الجارية. وهى بينهن كالبدر بين الكواكب يحجبن تلك الجارية وعليها ديباج ملوكى، وقد شدّت فى وسطها زنارًا محبوكًا مرصعًا بأنواع الجواهر. فتقدّمت منه الجارية وجعلت تنظر إليه زمانًا طويلاً وتكرر فيه النظر إلى أن تحققته وعرفته. فقالت له بعد أن أقبلت عليه: «قد أشرق وأضاء بك المكان يا شركان، كيف كانت ليلتك يا همام بعد ما مضينا وتركناك؟». ثم قالت له: «إن الكذب عند الملوك منقصة وعار لا سيما عند الملوك الكبار. أما إنك شركان ابن الملك عمر بن النعمان. فلا تكتم سرك وحالك. ولا تسمعنى بعد ذلك غير الصدق. فإن الكذب يورث البغض والعداوة فقد نفذ فيك سهم القضا. فعليك بالتسليم والرضا».

فلما قالت ذلك لم يمكنه النكران فصدقها على ذلك، وقال: «أنا شركان بن عمر بن النعمان الذى خانه الزمان، وأوقعه فى هذا المكان، فمهما شئت فافعليه الآن». فأطرقت الجارية برأسها إلى الأرض زمانًا طويلاً. ثم التفتت إلى شركان وقالت: «طب نفسًا وقر عينًا؛ فإنك ضيفى، وصار بيننا خبز وملح، فأنت فى ذمتى وفى عهدى فكن آمنًا. وحق المسيح لو أراد أهل الأرض أن يؤذوك لما وصلوا إليك إلا إن خرجت روحى من أجلك، فأنت فى أمان المسيح

وأماني». فبينما هما على هذه الحالة وإذا هما بضجة ورجال متزاحمين وبطارقة بأيديهم السيوف مسلولة تلمع، وهم يقولون بلسان الرومية: «وقعت عندنا يا شركان، فأيقن بالهلاك». فلما سمع شركان هذا الكلام قال فى نفسه: «والله لقد عملت هذه الجارية الحيلة وأمهلتنى إلى أن جاءت رجالها، وهم البطارقة الذين خوفتنى بهم، ولكن أنا الذى ألقيت نفسي فى هذا الهلاك».

ثم التفت إلى الجارية ليعاتبها فوجد وجهها قد تغير بالاصفرار، ثم وثبت على قدميها وهى تقول لهم: «من أنتم؟». فقال لها البطريق المقدَّم عليهم: «أيتها الملكة الكريمة والدرة اليتيمة، أما تعرفين من هو الذى عندك؟». قالت له: «لا أعرفه فمن يكون هذا؟». فقال لها: «هذا مخرب البلدان، وسيد الفرسان، هذا شركان ابن الملك عمر بن النعمان، هذا الذى فتح القلاع، وملك كل حصن مناع. وقد وصل خبره إلى الملك حردوب والدك من السيدة العجوز ذات الدواهى. وتحقق ذلك والدكِ ملكنا نقلاً عن العجوز. ها أنتِ قد نصرتِ عسكر الروم بأخذ هذا الأسد المشؤوم».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فلما سمعت كلام البطريق نظرت إليه، وقالت له: «ما اسمك؟». قال لها: «اسمى ماسورة ابن عبدك موسورة بن كاشرده بطريق البطارقة». قالت له: «وكيف دخلت علىَّ بغير إذنى؟». فقال لها: «يا مولاتى، لما وصلت إلى الباب ما منعنى لا حاجب ولا بواب، بل قام جميع البوابين ومشوا بين أيدينا كما جرت به العادة، إنه إذا جاء أحد غيرنا يتركونه واقفًا على الباب حتى يستأذنوا عليه فى الدخول، وليس هذا وقت إطالة الكلام والملك منتظر رجوعنا إليه بهذا الملك الذى هو شوكة عسكر الإسلام. لأجل أن يقتله ويرسل عسكره إلى الموضع الذىَ جاؤوا منه من غير أن يحصل لنا تعب فى قتالهم».

فلما سمعت الجارية منه هذا الكلام قالت له: «إن هذا الكلام غير حسن، ولكن قد كذبت السيدة ذات الدواهى، فإنها قد تكلمت بكلام باطل، وهى لا تعلم حقيقته. وحق المسيح إن الذى عندى ما هو شركان ولا هو أسير، ولكنه رجل أتى إلينا وقدم علينا وطلب الضيافة فأضفناه، فإن تحققنا أنه شركان بعينه وثبت أنه هو من غير شك، فلا يليق بمروءتى أنى أمكنكم منه، لأنه دخل تحت ذمامى، فلا تخونونى فى ضيفى ولا تفضحونى بين الأنام، بل ارجع أنت إلى الملك أبى، وقبِّل الأرض بين يديه، وأخبره بأن الأمر بخلاف ما قالت السيدة ذات الدواهى». فقال البطريق ماسورة: «يا إبريزة، أنا ما أقدر أعود إلى الملك إلا بغريمه». فقالت له وقد اغتاظت: «ويلكَ عُد إليه بالجواب، وما عليك ملام». فقال لها ماسورة: «لا أعود إلا به». فتغير لونها، وقالت له: «لا تكن كثير الكلام والهذيان، فإن هذا الرجل ما دخل إلا وهو واثق من نفسه أنه يحمل على مائة فارس وحده، ولو قلت له: أنت شركان ابن الملك عمر بن النعمان يقول: نعم. ولكن لا أمكنكم أن تتعرضوا له. فإن تعرضتم له لا يعود عنكم إلا أن يقتل جميع من يكون فى هذا المكان، وها هو عندى، وها أنا أحضره بين أيديكم وسيفه وجحفته معه».

فقال لها البطريق ماسورة: «أنا إذا أمنت غضبك لم آمن من غضب أبيك، وإنى إذا رأيته أشير إلى البطارقة فيأخذونه أسيرًا. ونمضى به إلى الملك حقيرًا».

فلما سمعت منه هذا الكلام قالت له: «لا كان هذا الأمر، فإنه عنوان السفه لأن هذا رجل واحد وأنتم مائة بطريق، فإذا أردتم مصادمته فابرزوا له واحدًا بعد واحد ليظهر عدل الملك من هو البطل فيكم». فقال البطريق ماسورة: «وحق المسيح، لقد قلت الحق، ولكن ما يخرج له أولا غيرى». فقالت له الجارية: «اصبر حتى أذهب إليه وأعرفه بالخطاب وأنظر ما عنده من الجواب، فإن أجاب فهو الصواب، وإن أبى فلا سبيل لكم إليه، وأكون أنا ومن فى الدير وجوارىَّ فداه».

ثم أقبلت على شركان وأخبرته بما كان. فتبسم وعلم أنها لم تخبر أحدًا بأمره، وإنما شاع خبره حتى وصل إلى الملك بغير إرادتها. فرجع باللوم على نفسه، وقال: «كيف رميت روحي فى بلاد الروم؟». ثم إنه لما سمع كلام الجارية قال لها: «إن بروزهم إلىَّ واحدًا بعد واحد إجحاف بهم. فهلا يبرزون لى عشرة بعد عشرة». فقالت له الجارية: «هذه الشطارة ظلم، وإن كل واحد لواحد».

فلما سمع ذلك الكلام وثب على قدميه وسار إلى أن أقبل عليهم وكان معه سيفه وآلة حربه. فعند ذلك وثب البطريق عليه وحمل عليه. فقابله شركان كأنه الأسد، وضربه بالسيف على عاتقه فخرج السيف يلمع من ظهره. فلما نظرت الجارية ذلك عظم قدر شركان عندها.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: ثم إن الجارية أقبلت على البطارقة وقالت لهم: «خذوا بثأر صاحبكم». فخرج له أخو المقتول وكان جبارًا عنيدًا فحمل على شركان. فلم يمهله دون أن ضربه بالسيف على عاتقه فخرج يلمع من أمعائه. فعند ذلك نادت الجارية: «يا عباد المسيح خذوا بثأر صاحبكم». فلم يزالوا يبرزون إليه واحدًا بعد واحد، وشركان يلعب فيهم بسيفه حتى قتل خمسين بطريقًا والجارية تنظر إليهم، وقد قذف الله الرعب فى قلوب من بقى منهم، وقد تأخروا عن البراز فلم يجسروا أن يبارزوه واحدًا بعد واحد، بل حملوا عليه بأجمعهم. وحمل هو عليهم بقلب أقوى من الحجر إلى أن طحنهم طحن الدروس وسلب منهم العقول والنفوس. فلما نظرت إلى ما صنع بالقوم قالت له: «بمثلك تفتخر الفرسان، فلله درك يا شركان». ثم إنه قام بعد ذلك يمسح سيفه من دم القتلى وينشد هذه الأبيات:

وكم فرَّقتُ فى الهيجاء جمعًا ... تركتُ كماتهم طعم السباعَ
سلوا عنى وعنهم فى نزالى ... جميع الخلق فى يوم القراعَ
تركت ليوثهم فى الحرب صرعى ... على الرمضاء فى تلك البقاعَ

ثم إن الملكة لاقت شركان وهنأته بالظفر وطلع معها إلى القصر بعد فراغه من المعاركة. وكان قد بقي من البطارقة قليل. فلما نظرت الجارية إلى ذلك القليل قامت من عند شركان ثم عادت إليه وعليها زردية ضيقة العيون وبيدها صارم هندى وقالت: «وحق المسيح لم أبخل

بنفسى عن ضيفى، ولا أتخلى عنه، ولو بقيت بسبب ذلك معيرة فى بلاد الروم». ثم إنها أقبلت عليه متبسمة وقبّلت يده وقلعت الزرد الذى كان عليها، فقال لها: «لأى شيء لبست هذا الزرد وشهرت حسامك؟» قالت: «حرصًا عليك من هؤلاء اللئام». ثم إن الجارية دعت البوابين وقالت لهم: «كيف تركتم أصحاب الملك يدخلون منزلى بغير إذنى؟». فقالوا لها: «أيتها الملكة ما جرت العادة أننا نحتاج إلى استئذان منك على رسل الملك خصوصًا البطريق الكبير». فقالت لهم: «أظنكم ما أردتم إلا هتكى وقتل ضيفى». ثم أمرت شركان أن يضرب رقابهم. وقالت: «إنهم يستحقون أكثر من ذلك».

ثم التفتت إلى شركان، وقالت له: «الآن ظهر لك ما كان خافيًا فها أنا أعلمك بقصتى. اعلم أنى بنت ملك الروم حردوب واسمى إبريزة، والعجوز التى تسمى ذات الدواهى هى جدتى أم أبى، وهى أعلمت أبى بك، ولا بد أن تعمل حيلة على هلاكى. سيما وقد قتلت بطارقة أبى، وشاع أنى قد انفردت وتحزبت مع المسلمين، فالرأى السديد أنى أترك الإقامة هنا، ما دامت ذات الدواهى خلفى. ولكن أريد منك مثل ما فعلت معك تفعل معى. فإن العداوة قد وقعت بينى وبين أبى، وذلك من أجلك، فلا تترك من كلامى شيئًا، فإن هذا كله ما وقع إلا من شأنك».

فلما سمع شركان هذا الكلام اتسع صدره وانشرح وقال: «لا يصل إليكِ أحد ما دام فى صدرى روح. ولكن هل لكِ صبر على فراق والدكِ وأهلكِ؟». قالت: «نعم». فحلّفها شركان وتعاهدا على ذلك. فقالت: «الآن طاب قلبى، ولكن بقى عليك شرط آخر». فقال: «وما هو؟». فقالت له: «إنك ترجع بعسكرك إلى بلادك». فقال لها: «يا سيدتى، إنى أبى عمر بن النعمان، أرسلنى إلى قتال والدك بسبب المال الذى أخذه، ومن جملته الثلاث الخرزات الكبار الكثيرة البركات». فقالت له:

«طب نفسًا، وقرَّ عينًا، فها أنا أحدثك بحديثها، وسبب معاداتنا لملك القسطنطينية. وذلك أن لنا عيدًا يقال له: عيد الدير، فى كل سنة تجتمع فيه الملوك من جميع الأقطار، وبنات الأكابر والتجار ونساؤهم. ويقعدون فيه سبعة أيام، وأنا من جملتهم. ولما وقعت المعاداة منعنى أبى من حضور ذلك العيد مدة سبع سنين. فاتفق فى سنة من السنين أن بنات الأكابر من سائر الجهات قد جاءت من أماكنها إلى الدير فى ذلك العيد على العادة، ومن جملة ما جاء إليه بنت ملك القسطنطينية، وهى بنت جميلة يقال لها صفية. فأقمن فى الدير ستة أيام. وفى اليوم السابع انصرفت الناس. فقالت صفية: أنا ما أرجع القسطنطينية إلا فى البحر. فجهزوا لها مركبًا ونزلت هى وخواصها.

فلما حلوا القلوع وساروا ثارت بهم ريح شديدة فأخرجت المركب عن طريقه. وكان هناك بالقضاء والقدر مركب نصارى من جزيرة الكافور. وفيه خمسمائة إفرنجى بالسلاح. وكان لهم مدة فى البحر. فلما لاح لهم قلع المركب الذى فيه صفية ومن معها من البنات. انقضوا عليها مسرعين. فما كان دون ساعة حتى وصلوا إلى ذلك المركب ووضعوا فيه الكلاليب وجروه، وحلوا قلوعه وقصدوا جزيرتهم.

فما بعدوا غير قليل حتى انعكست الريح فجذبتهم إلى شعب، وخرقت قلوعهم وجرتهم إلينا غصبًا، فخرجنا إليهم فرأيناهم غنيمة قد انساقت إلينا فأخذناهم وقتلناهم واغتنمنا ما معهم من الأموال والتحف. وكان فى مركبهم أربعون جارية فيهن صفية. فأخذناهن وقدّمناهن إلى أبى، ونحن لا نعلم أن صفية هى ابنة الملك أفريدون ملك القسطنطينية. فاختار أبى منهن عشر جوار، وفيهن ابنة الملك، وفرّق الباقى على حاشيته. ثم عزل خمس جوارى، فيهن ابنة الملك، وأرسلهن هدية إلى والدك عمر بن النعمان مع شىء من الجوخ ومن القماش الحرير الرومى. فقبل أبوك الهدية واختار من الخمس الجوارى المذكورين صفية بنت الملك أفريدون. فلما كان أول هذا العام كتب أبوها كتابًا إلى والدى بكلام لا ينبغى ذكره، وصار يوبخه. ويقول له: أنتم ربحتم منا مركبًا من منذ سنتين وكان فى يد لصوص من جماعة إفرنج، وكان فيه بنتى صفية ومعها من الجوارى نحو ستين جارية، ولم تعلمونى ولم ترسلوا إلى أحدًا يخبرنى بذلك. وأنا لا أقدر أظهر الخبر خوفًا أن يكون فى حقى عار عند الملوك من أجل هتك ابنتى. فكتمت أمرى إلى هذا العام. فكاتبت بعض اللصوص من الإفرنج وسألتهم خبر ابنتى عند أى ملك هى من ملوك الجزائر. فقالوا: والله ما خرجنا بها من بلادك، لكن سمعنا أنه أخذها من يد بعض الحرامية الملك حردوب، وحكوا له الحكاية.

ثم قال فى المكتوب الذى كتبه لوالدى: إن لم يكن مرادكم معادتى وقصدكم فضيحتى وهتك ابنتى، فساعة وصول كتابى إليكم ترسلوا إلى ابنتى من عندكم. وإن أهملتم كتابى وعصيتم أمرى فلا بد أن أكافئكم على قبيح أفعالكم وسوء أعمالكم.

فلما وصلت هذه المكاتبة إلى أبى وقرأها وفهم ما فيها، شق عليه ذلك، وندم حيث لم يعرف أن صفية بنت الملك أفريدون فى تلك الجوارى، ليردها إلى والدها. فتحير فى أمره وما بقى يمكنه بعد هذه المدة الكبيرة أن يرسل إلى الملك عمر بن النعمان يطلبها منه. ولا سيما أننا سمعنا من مدة يسيرة. أنه رزق من جاريته التى يقال لها صفية بنت الملك أرفيدون أولادًا. فلما تحققنا ذلك علمنا أن هذه الورقة هى المصيبة العظمى. فما كان لأبى حيلة غير أن كتب جوابًا إلى الملك أفريدون يعتذر إليه ويحلف له بالأقسام أنه ما علم أن ابنته كانت من جملة الجوارى التى كانت فى ذلك المركب، ثم أظهره على أنه أرسلها إلى الملك عمر بن النعمان، وأنه رزق منها الأولاد.

فلما وصلت رسالة أبى إلى أفريدون ملك القسطنطينية قام وقعد وأرغى وأزبد. وقال: كيف أنه سبى ابنتى وصارت بصفة الجوارى. ما بقيت أقعد عن هذا إلا أن آخذ الثار وأكشف العار. وإنى لأفعلن فعلاً يتحدث به المحدثون من بعدى، وما زال صابرا إلى أن دبر الحيلة ونصب مكايد عظيمة، وأرسل رسلاً إلى والدك عمر بن النعمان. وذكر له ما سمعت الأقوال. حتى إن والدك جهزك بالعساكر التى معك من أجلها، وسيرك إليه حتى يقبض ومن معك من عسكرك. وأما الثلاث الخرزات التى قال لوالدك عنها فى رسالته فلم يكن لذلك صحة. وإنما كانت مع صفية ابنته. وأخذها أبى منها حين استولى عليها هى والجوارى التى معها ووهبها لى وهى الآن عندى.

فاذهب أنت إلى عسكرك وردهم قبل أن يستغرقوا ويتوغلوا فى بلاد الإفرنج والروم. فإنكم إذا توغلتم فى بلادهم يضيقون عليكم الطرق فلا تجدون لكم خلاصًا من أيديهم إلى يوم الجزاء والقصاص، وأنا أعرف أن الجيوش مقيمون فى مكانهم، لأنك رسمت لهم بالإقامة، لا سيما أنهم فقدوك فى هذه المدة، ولم يعلموا ماذا يفعلون».

فلما سمع شركان هذا الكلام تحير ساعة وهو متفكر ثم إنه قال: «الحمد لله الذى من علي بكِ وجعلكِ سببًا لسلامتى وسلامة من معى. ولكن يعزّ عليَّ فراقك ولا أعلم ما يجرى عليك بعدى. فقالت له: «اذهب أنت الآن إلى عسكرك وردهم. وإن كانت الرسل عندهم فاقبض عليهم حتى يظهر لكم الخبر. وأنت بالقرب من بلادكم. وبعد ثلاثة أيام أنا ألحقكم وما تدخلون بغداد إلا وكلنا سواء». ثم إنها نهضت قائمة وودعته.

ثم فارقها شركان، ونزل من الدير وقدموا له جواده فركب وخرج طالبًا للجسر. فوصل إليه، ومر من فوقه ودخل بين تلك الأشجار. فلما تخلص من تلك الأشجار وشق ذلك المرج إذا هو بثلاثة فوارس. فأخذ لنفسه منهم الحذر، وشهر سيفه وانحدر. فلما قربوا منه ونظر بعضهم بعضًا عرفوه. ونظر إليهم فإذا أحدهم الوزير دندان ومعه أميران، فلما رأوه وعرفوه ترجلوا له وسلموا عليه، وسأله الوزير عن سبب غيابه، فأخبرهم عن جميع ما جرى له مع الملكة إبريزة. فحمدوا الله تعالى على ذلك. ثم قال شركان: «ارحلوا بنا من هذه البلاد لأن الرسل الذين جاؤوا معنا رحلوا من عندنا ليعلموا ملكهم بقدومنا، فربما أسرعوا إلينا وقبضوا علينا». ثم نادى شركان فى عسكره بالرحيل، فرحلوا كلهم وما زالوا سائرين مجدين فى السير إلى أن وصلوا إلى سطح الوادى. وكانَ الرسل قد توجهوا إلى ملكهم وأخبروه بقدوم شركان. فجهز إليه عسكرًا ليقبضوا عليه وعلى من معه. هذا ما كان من أمر الرسل وملكهم. وأما ما كان من أمر شركان والوزير دندان والأميرين، فإنهم قد أشرفوا أربعتهم على عسكرهم وصاحوا عليهم: «ارحلوا ارحلوا». فرحلوا من ساعتهم، وساروا أول يوم وثانى يوم وثالث يوم وما زالوا سائرين مدة خمسة أيام. ونزلوا فى واد كثير الأشجار واستراحوا فيه مدة. وبعد ذلك رحلوا منه وما زالوا سائرين مدة خمسة وعشرين يومًا حتى أشرفوا على أوائل بلادهم. فلما وصلوا إلى هناك أمنوا على أنفسهم ونزلوا لأخذ الراحة. فخرج إليهم أهل تلك البلاد بالضيافات وعليق البهائم والإقامات. فأقاموا مدة يومين ورحلوا بعد ذلك طالبين ديارهم. وتأخر شركان بعدهم فى مائة فارس، وأمر الوزير دندان فسار ومعه الجيش.

فلما كان بعد مسيرهم بيوم عوَّل شركان على السفر، فركب وركب مائة فارس. وساروا مقدار فرسخين حتى وصلوا إلى مقام ضيق أمام جبلين، وإذا أمامهم غبرة وعجاج. فمنعوا خيولهم من السير مقدار ساعة حتى انكشف الغبار وبان من تحته مائة فارس،ليوث عوابس، وفى الحديد والزرد غواطس. فلما قربوا من شركان ومن معه صاحوا عليهم، وقالوا: «نحن بلغنا ما أمَّلنا ونحن خلفكم مجدون السير ليلاً ونهارًا حتى سبقناكم إلى هذا المكان. فانزلوا عن خيولكم وأعطونا أسلحتكم وسلموا لنا أنفسكم حتى نجود بأرواحكم». فلما سمع شركان ذلك قامت عيناه فى أم رأسه، واحمرت وجنتاه. وقال: «لم يا كلاب جسرتم وجئتم إلى بلادنا

ومشيتم فى أرضنا، وما كفاكم ذلك حتى إنكم تخاطرون بأنفسكم وتخاطبونا بهذا الخطاب. أظننتم أنكم تخلصون من أيدينا وتعودون إلى بلادكم». ثم صاح على المائة الفارس الذين معه وقال لهم: «دونكم وهؤلاء الكلاب فإنهم فى عددكم». ثم سل سيفه وحمل عليهم وحملت معه المائة الفارس، فاستقبلهم الإفرنج بقلوب أقوى من الصخر، واصطدمت الرجال بالرجال، ووقعت الأبطال فى الأبطال، والتحم القتال، واشتد النزال، وعظمت الأهوال، وقد بطل القيل والقال، ولم يزالوا فى الحرب والكفاح والضرب بالصفاح إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار. فانفصلوا عن بعضهم.

واجتمع شركان بأصحابه، فلم يجد أحدًا انصاب منهم غير أربعة أنفس بجراحات حصلت لهم لكن رآها سليمة. فقال لهم شركان: «إنى طول عمرى أخوض بحر الحرب العجاج وأقابل الرجال، فما لقيتُ أصبر على الجلاد وملاقة الرجال مثل هؤلاء الأبطال». فقالوا له: «اعلم أيها الملك، إن فيهم فارسًا إفرنجيًا وهو المقدم عليهم له شجاعة وطعنات نافذات. غير أنه عفا كبارًا وصغارًا. وكل من وقع بيد يديه يتغافل عنه ولا يقاتله. ولو أردا قتلنا لقتلنا بأجمعنا». فتحير شركان لما رأى من فعله وسمع عنه ذلك المقال، وقال: «فى غداة غد نصطف ونبارزهم، فها نحن مائة رجل وهم مائة رجل. وأنا نطلب النصر عليهم من رب السماء». وباتوا تلك الليلة على ذلك الاتفاق.

وأما الإفرنج فإنهم اجتمعوا عند مقدمهم وقالوا له: «إننا ما بلغنا اليوم فى هؤلاء إربًا». فقال لهم: «فى غداة نصطف ونبارزهم واحدًا بعد واحد». فباتوا على ذلك الاتفاق.

وتحارس الفريقان إلى أن أصبح الله تعالى بالصبح، فركب الملك شركان وركبت معه المائة فارس. وأتوا كلهم إلى الميدان فوجدوا الإفرنج قد اصطفوا للقتال. فقال شركان لأصحابه: «إن أعداءنا قد عزموا على ما كانوا فيه، فدونكم والمبادرة إليهم». فنادى منادٍ من الإفرنج: «لا يكون قتالنا فى هذا اليوم إلا مناوبة بأن يبرز بطل منكم إلى بطل منا».

فعند ذلك برز فارس من أصحاب شركان وساق جواده بين الصفين وقال: «هل من مبارز هل من مناجز، لا يبرز لى اليوم كسلان ولا عاجز». فلم يتم كلامه حتى برز إليه فارس من الإفرنج غريق فى سلاحه، وقماشه من ذهب، وهو راكب على جواد أشهب، وذلك الإفرنجى لا نبات بعارضيه. فساق جواده حتى وقف فى وسط الميدان وأخذ معه فى الضرب والطعان. فلم يكن غير ساعة حتى طعنه الإفرنجى بالرمح فنكسه عن جواده وأخذه أسيرًا وقاده حقيرًا. ففرح به قومه ومنعوه أن يخرج إلى الميدان وأخرجوا غيره.

وقد خرج المسلمين آخر وهو أخو الأسير. ووقف معه فى الميدان وحمل الاثنان على بعضهما ساعة يسيرة. ثم كر الإفرنجى على المسلم وغالطه وطعنه بعقب الرمح فنكسه عن جواده وأخذه أسيرًا. وما زالت المسلمون يخرج منهم واحد بعد الواحد، والإفرنجى يأسرهم إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار، وقد أسروا من المسلمين عشرين فارسًا.

فلما عاين شركان ذلك عظم عليه وجمع أصحابه وقال لهم: «ما هذا الأمر الذى حل بنا؟ أنا أخرج فى غداة غد إلى الميدان وأطلب براز المقدم عليهم، وأنظر من كان السبب فى

دخوله إلى بلادنا وأحذره من قتالنا. فإن أبى قاتلناه وإن صالحنا صالحناه». وباتوا على تلك الحال إلى أن أصبح الله تعالى بالصباح. فركبت الطائفتان واصطف الفريقان. فأراد شركان أن ينزل إلى الميدان، وإذا بالإفرنج قد ترجل منهم أكثر من نصفهم قدام فارس منهم، ومشوا قدامه إلى أن صاروا فى وسط الميدان، فتأمل شركان ذلك الفارس. فإذا هو الفارس المقدم عليهم، وهو لابس قباء أزرق من أطلس ووجهه فيه كالبدر إذا أشرق، ومن فوقه زردية ضيقة العيون، وبيده سيف مهند، وهو راكب على جواد أدهم فى وجهه غرة كالدرهم، وذلك الإفرنجى لا نبات بعارضيه.

ثم إنه لكز جواده حتى صار فى وسط الميدان، وأشار إلى المسلمين بلسان عربى فصيح: «يا شركان، يا ابن عمر بن النعمان، يا من ملك الحصون وأخرب البلدان، دونك الحرب والطعان، وابرز إلى من قد ناصفك فى الميدان، فأنت سيد قومك، وأنا سيد قومى، فمن غلب منا صاحبه صار هو وقومه تحت طاعته».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فما استتم كلامه حتى برز له شركان، وقلبه من الغيظ ملآن، وساق جواده حتى دنا من الإفرنجى فى الميدان، وطبق عليه كالأسد الغضبان، فتلقى الإفرنجى فى الميدان بخبرة وإمكان. وصدمه صدمة الفرسان، وأخذا فى الطعن والضرب. ولم يزالا فى كر وفر وأخذ ورد كأنهما جبلان اصطدما أو بحران التطما. ولم يزالا فى قتال إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار. وانفصل كل منهما من صاحبه وعاد إلى قومه. فلما اجتمع شركان بأصحابه قال لهم: «ما رأيت مثل هذا الفارس قط، إلا أنى رأيت منه خصلة لم أرها من أحد غيره. وهو أنه إذا لاح له فى خصمه مضرب قاتل، يقلب الرمح ويضربه بعقبه. ولكن لا أدرى ماذا يكون منى ومنه. ومرادى أن يكون فى عسكرنا مثله ومثل أصحابه». وبات شركان. فلما أصبح الصباح خرج له الإفرنجى ونزل فى وسط الميدان، وأقبل عليه شركان ثم أخذا فى القتال. وأوسعا فى الحرب والمجال. وامتدت إليهما الأعناق. ولم يزالا فى حرب وكفاح وطعن بالرماح إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار. ثم افترقا ورجعا إلى قومهما وصار كل منهما يحكى لأصحابه ما لاقاه من صاحبه. ثم إن الفارس الإفرنجى قال لأصحابه فى غد يكون الانفصال، وباتوا تلك الليلة إلى الصباح.

ثم ركب الاثنان وحملا على بعضهما ولم يزالا فى الحرب إلى نصف النهار. وبعد ذلك عمل الإفرنجى حيلة ولكز الجواد. ثم جذبه باللجام فعثر به ورماه. فانكب عليه شركان وأردا أن يضربه بالسيف خوفًا أن يطول به المطال. فصاح به الإفرنجى، وقال: «يا شركان، ما هكذا تكون الفرسان». فلما سمع شركان من ذلك الفارس هذا الكلام، رفع طرفه إليه، وأمعن النظر فيه، فوجده الملكة إبريزة. فلما عرفها رمى السيف من يديه وقبل الأرض بين يديها، وقال لها: «ما حملك على هذه الفعال؟». قالت له: «أردت أن أختبرك فى الميدان وأنظر ثباتك فى الحرب والطعان. وهؤلاء الذين معى كلهم جوارىّ. وكلهن بنات أبكار وقد قهرن فرسانك. ولولا أن

جوادي قد عثر بى لكنت ترى قوتى وجلادى». فتبسم شركان من قولها وقال لها: «الحمد لله على السلامة وعلى اجتماعى بك يا ملكة الزمان». ثم إن الملكة إبريزة صاحت على جواريها وأمرتهن أن يترجلن بعد أن يطلقن العشرين أسيرًا الذين كن أسرنهم من قوم شركان، فامتثلت الجوارى أمرها، ثم إنهن قبّلن الأرض بين يديهما. فقال لهن: «مثلكن من يكن عند الملوك مدخرًا للشدائد». ثم إنه أشار إلى أصحابه قائلاً: «سلموا عليها». فترجلوا جميعًا وقبلوا الأرض بين يدى الملكة إبريزة وقد عرفوا القضية، ثم ركب المائتا فارس وساروا فى الليل والنهار إلى مدة ستة أيام».

وبعد ذلك أقبلوا على الديار، فأمر شركان الملكة إبريزة وجواريها أن ينزعن ما عليهن من لباس الإفرنج، وأن يلبسن لبس بنات الروم. ففعلن ذلك. ثم إنه أرسل جماعة من أصحابه إلى بغداد ليعلم والده عمر بن النعمان بقدومه ويخبره أن فى صحبته إبريزة ابنة الملك حردوب ملك الروم، ليرسل لها من يلاقيها، ثم إنهم نزلوا من ساعتهم ووقتهم فى المكان الذى وصلوا إليه. ونزل شركان وباتوا إلى الصباح.

فلما أصبح الله تعالى بالصباح ركب شركان هو ومن معه وركبت أيضًا إبريزة ومن معها من الجيش واستقبلوا المدينة. وإذا بالوزير دندان قد أقبل فى ألف فارس من أجل ملاقاة الملكة إبريزة وشركان وقد خرجوا بإشارة الملك عمر بن النعمان إلى ملاقاتهما. فلما قربوا منهما توجهوا إليهما وقبلوا الأرض بين أيديهما. ثم ركبا وركبوا معهما. وساروا فى خدمتهما حتى دخلا المدينة ودخلا القصر، ودخل شركان على والده، فقام إليه واعتنقه وسأله عن الخبر. فأخبره بما قالته الملكة إبريزة وما اتفق له معها، وكيف فارقت مملكتها وفارقت أباها. وقال له: «إنها اختارت الرحيل معنا والقعود عندنا. وإن ملك القسطنطينية أراد أن يعمل لنا حيلة من أجل ابنته صفية؛ لأن ملك الروم قد أخبره بحكايتها وسبب إهدائها إليك. وإن ملك الروم ما كان يعرف أنها ابنة الملك أفريدون ملك القسطنطينية. ولو كان يعرف ذلك ما كان أهداها إليك، بل كان يردها إلى والدها». ثم قال شركان لوالده: «وما كان خلاصنا من كل هذه الأمور إلا بسبب هذه الجارية إبريزة وما رأينا أشجع منها».

ثم إنه شرع يحكى لأبيه ماوقع له معها من أول الأمر إلى آخره. فلما سمع عمر بن النعمان من ولده شركان ذلك عظمت إبريزة عنده وصار يتمنى أن يراها.

ثم إنه طلبها ليسألها. فعند ذلك ذهب شركان إليها، وقال لها: «إن الملك يدعوك». فأجابت بالسمع والطاعة. فأخذها شركان وأتى بها إلى والده وكان الملك قاعدًا على كرسيه. فأخرج من كان عنده من أهل دولته ولم يبق عنده غير الخادم. فدخلت الجارية إبريزة وقبّلت الأرض بين يدي الملك عمر بن النعمان، وترجمت بحسن الكلام. فتعجب الملك من فصاحتها، وشكرها على ما فعلت مع ولده شركان. وأمرها بالجلوس فجلست.

ثم إنه أفرد لها قصرًا مختصًا بها وبجواريها، ورتب لها ولجواريها الرواتب. ثم أخذ يسألها عن تلك الخرزات الثلاث التى تقدم ذكرها. فقالت له: ها هى معى يا ملك الزمان». ثم إنها قامت ومضت إلى محلها وفتحت حوائجها وأخرجت منها علبة. وأخرجت من العلبة حقا

من الذهب وفتحته وأخرجت منه تلك الخرزات الثلاث وباستها وأعطتها للملك وانصرفت. وبعد انصرافها أرسل إلى ولده شركان فحضر فأعطاه خرزة من الخرزات. فسأله شركان عن الاثنتين الأخريين. فقال له: «يا ولدى، قد أعطيت منهما واحدة لأخيك ضوء المكان، والأخرى لأختك نزهة الزمان». فلما سمع شركان أن له أخًا يسمى ضوء المكان، وما كان يعرف إلا أخته نزهة الزمان، التفت إلى والده وقال له: «أيها الملك، ألك ولد غيرى». قال: «نعم، وعمره الآن ست سنين». ثم أعلمه أن اسمه ضوء المكان، وأخته نزهة الزمان وأنهما ولدا فى بطن واحد. فصعب عليه ذلك ولكنه كتم سره، وقال لوالده: «على بركة الله تعالى». ورمى الخرزة من يده ونفض أثوابه. فقال له الملك: «ما لى أراك قد تغيرت أحوالك لما سمعت هذا الخبر، مع أنك صاحب المملكة من بعدى؟ وقد خلَّفت لك الجيش وعاهدت أمراء الدولة على ذلك. وهذه خرزة لك من الثلاث الخرزات». فأطرق شركان برأسه إلى الأرض واستحيا أن يكافح والده. ثم قبَّل الخرزة وقام وهو لا يعلم ما يصنع من شدة الغيظ. وما زال ماشيًا حتى دخل قصر الملكة إبريزة. فلما أقبل عليها. قامت له وشكرته على فعاله ودعت له ولوالده، وجلست وأجلسته فى جانبها.

فلما استقر به الجلوس. رأت فى وجهه الغيظ فسألته، فأخبرها أن والده رزق من صفية ولدين ذكرًا وأنثى، وسمّى الولد ضوء المكان، والأنثى نزهة الزمان، وقال لها: «إنه أعطاهما خرزتين ودفع لي واحدة فتركتها، وأنا إلى الآن لم أعلم بذلك إلا فى هذا الوقت والحال أن لهما ست سنين، فلما علمت ذلك أخذنى الغيظ وقد أخبرتك بسبب غيظى». فقالت: «إن الثلاث الخرزات ما كان على بالى أن ينعم على أولاده بشىء منها. وما ظننت إلا أنه يجعلها فى خزائنه مع ذخائره. ولكن أشتهى من إحسانك أن تهبنى الخرزة التى أعطاكها والدك إن قبلتها». فقال لها: «سمعًا وطاعة». ثم أعطاها إياها. فقالت له: «لا تحمل همًا». وتحدثت معه ساعة، وقالت له: «إنى أخاف أن يسمع أبى أنى عندكم، فما يقعد عنى ويسعى فى طلبى، ويتفق هو والملك أفريدون لأجل خلاص ابنته صفية، فيأتيان إليكم بالعساكر فتكون ضجة عظيمة». فلما سمع شركان ذلك قال لها: «يا مولاتى، إذا كنت راضية بالإقامة عندنا لا تفكرى فيهم، ولو اجتمع علينا كل من فى البر والبحر». فقالت له: «ما يكون إلا الخير، وها أنتم إن أحسنتم إلىَّ قعدت عندكم. وإن أسأتم إلىَّ رحلت من عندكم». ثم إنها أمرت الجوارى بإحضار شىء من الأكل. فقدَّمن المائدة. فأكل شركان شيئًا يسيرًا، ومضى إلى داره مهموما مغمومًا.

هذا ما كان من أمره. وأما ما كان من أمر والده عمر بن النعمان، فإنه بعد انصراف ولده شركان من عنده، قام ودخل على جاريته صفية ومعه هتان الخرزتان، فلما رأته نهضت قائمة على قدميها إلى أن جلس. فأقبل عليه ولداه ضوء المكان ونزهة الزمان. فلما رآهما قبَّلهما وعلَّق على كل واحد منهما خرزة. ففرحا بهما وقبَّلا يديه. وأقبلا على أمهما ففرحت بهما ودعت للملك بطول الدوام. فقال لها الملك: «وأنت هذه المدة كلها لأى شىء لم تعلمينى أنك ابنة الملك أفريدون ملك القسطنطينية، لأجل أن أزيد فى إكرامك وأوسع لك وأرفع

منزلتك». فلما سمعت صفية ذلك قالت له: «أيها الملك، وماذا أريد أكثر وأعلى من هذه المنزلة التى أنا فيها، وأنا مغمورة بإنعامك وخيرك. وقد رزقنى الله منك ولدين ذكرًا وأنثى». فأعجب الملك عمر بن النعمان من كلامها. ثم مضى من عندها وأفرد لها ولأولادها قصرًا عجيبًا. ورتب الخدم والحشم والفقهاء والحكماء والفلكية والأطباء والجراحين. وأوصاهم بهم، وزاد فى إكرامهم وأحسن إليهم غاية الإحسان. ثم رجع إلى قصر المملكة والمحاكمة بين الناس. هذا ما كان له مع صفية وأولادها.

وأما ما كان من أمر الملكة إبريزة، فإنها عجبت الملك بأدبها فتزوجها واستمرت معه فى أهنأ عيش مدة من الزمان، ثم إنها تفكرت فى أهلها واشتاقت إلى وطنها، وأخذت تبكى، واغتمّت غما شديدًا، وضعفت وحجبت نفسها، وقالت لجواريها: «امنعن كل من أراد أن يدخل عليَّ وقلن له: إنها ضعيفة، حتى أنظر ما يفعل الله بى». فعند ذلك وصل الخبر الملك عمر بن النعمان، أن الملكة إبريزة ضعيفة، فأرسل إليها الأشربة والسكر والمعاجين. وأقامت على ذلك شهورًا وهى محجوبة. ثم إن الملك قلَّت رغبته فيها وصبر عنها، وكانت قد حبلت منه فضاقت الدنيا بها. فقالت يومًا لجاريتها مرجانة: «إن القوم ما ظلمونى وإنما أنا الجانية على نفسي، حيث فارقت أبى وأمى ومملكتى. وأنا قد كرهت الحياة وانكسرت همتى وما بقي عندى من الهمة ولا من القوة شىء. وكنت إذا ركبت جوادى أقدر عليه، وأنا الآن لا أقدر على الركوب، وقد صرت عندهم مسخرة. وإذا رجعت إلى بيت أبى بأى وجه ألقاه وبأى هيئة أرجع إليه؟ وما أحسن قول الشاعر:

بم التـــعـلـل لا أهـل ولا وطـن ولا نـديم ولا كـــاس ولا سـكـن

فقالت لها مرجانة: «الأمر أمرك وأنا فى طوعك». فقالت: «أريد الساعة أن أخرج سرا بحيث لا يعلم بى أحد غيرك، وأسافر إلى أبى وأمى، فإن اللحم إذا أنتن ما له إلا أهله، والله يفعل بى ما يريد». فقالت لها: «نعم ما تفعلين أيتها الملكة».

ثم إنها جهزت أحوالها وكتمت سرها. وصبرت أيامًا حتى خرج الملك للصيد والقنص، وخرج ولده شركان إلى القلاع ليقيم بها مدة من الزمان، فأقبلت إبريزة على جاريتها مرجانة، وقالت لها: «أريد أن أسافر فى هذه الليلة، ولكن كيف أصنع؟». ثم تفكرت ساعة، وقالت لمرجانة: «انظرى لنا رجلاً نسافر وإياه ويخدمنا فى الطريق، فإنى ليس لى قوة على حمل السلاح». فقالت مرجانة: «والله يا سيدتى ما أعرف غير عبد أسود اسمه الغضبان، وهو من عبيد الملك عمر بن النعمان، وهو شجاع ملازم لباب قصرنا، وأمره الملك أن يخدمنا وقد غمرناه بإحساننا، فها أنا أخرج إليه وأكلمه فى هذا الأمر وأعده بشىء من المال، وأقول له: إذا أردت المقام عندنا أنعمنا عليك، وقد كان أخبرنى قبل اليوم أنه كان يقطع الطريق. فإن هو طاوعنا وعمل بما نريد بلغنا مرادنا ووصلنا إلى بلادنا». فقالت لها: «ناديه حتى أحدثه».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية إبريزة والعبد غضبان

قالت شهرزاد: فخرجت إليه مرجانة ونادت: «يا غضبان، قد أسعدك الله إن قبلت من سيدتى ما تقوله لك من الكلام». وأخذت بيده وأقبلت به عليها. فلما رآها قبل الأرض بين يديها. فحين رأته نفر قلبها منه غير أنها قالت فى نفسها: «إن الضرورة لها أحكام».

وأقبلت عليه تحدثه وقلبها نافر منه، وقالت له: «يا غضبان، هل فيك مساعدة لنا على غدرات الزمان؟ فإذا أظهرتك على أمرى هل تكون كاتمًا له». فلما نظر العبد إليها لم يمكنه أن يملك نفسه غير أنه قال: «يا سيدتى، إن أمرتنى بشىء لا أخرج عنه». فقالت له: «أريد منك الساعة أن تأخذنى وتأخذ جاريتى هذه، وتشد لنا راحلتين ورأسى خيل من خيول الملك، وتجعل على كل فرس خرجًا من المال وشيئًا من الزاد، وترحل معنا إلى بلادنا. وإن أقمت عندنا عشت عيشة راضية وأصبت خيرًا. وإن طلبت الرجوع إلى بلادك، أرجعناك وأعطيناك ما تحب بعد أن تأخذ ما يكفيك من المال».

فلما سمع الغضبان ذلك الكلام فرح فرحًا شديدًا، وقال: «يا سيدتى، إنى أخدمكما بعيونى، وأمضى معكما وأشد لكما الخيل». فمضى وهو فرحان، وقال فى نفسه: «قد بلغت ما أريد، وإن لم تطاوعنى أقتلهما وآخذ ما معهما من المال». وأضمر ذلك فى سره.

ثم مضى وعاد ومعه راحلتان وثلاثة رؤوس من الخيل وهو راكب على أحدها. وأقبل على الملكة إبريزة وقدم إليها فرسين. فركبت واحدًا وأركبت مرجانة واحدًا وهى متوجعة من المرض، ولا تملك نفسها من كثرة الوجع. وما زال مسافرًا بهما فى عرصة الجبال ليلاً ونهارا إلى أن بقى بينها وبين بلادها يوم واحد. فجاءها الطلق فما قدرت تمسكه. فقالت للغضبان: «أنزلنى فقد حاشنى الطلق». وصاحت لمرجانة: «انزلى وولدينى».

فعند ذلك نزلت مرجانة من فوق فرسها. ونزل الغضبان من فوق فرسه وشد لجام الفرسين. ونزلت الملكة إبريزة من فوق الجواد وهى غائبة عن الدنيا من شدة الطلق. وحين رآها الغضبان نزلت على الأرض. وقف الشيطان فى وجه العبد الغضبان فشهر حسامه فى وجهها وعرض عليها المنكر. فلما سمعت الملكة إبريزة مقالته التفتت إليه وقالت له: «ما بقى على إلا العبيد السود بعد ما كنت لا أرضى بالملوك الصناديد».

ثم إن الملكة إبريزة اغتاظت من العبد وقالت له: «ويلك ما هذا الكلام الذى تقوله لى. ويلك لا تتفوه بشىء من هذا فى حضرتى. واعلم أننى لا أرضى بشىء مما قلته ولو سُقيت كأس الردى. ولكن اصبر حتى أصلح شأن الجنين وأصلح شأنى. ثم بعد ذلك إن قدرت علىَّ جرعنى الموت. وإن لم تترك فاحش الكلام فى هذا الوقت فإنى أقتل نفسى بيدى وأفارق الدنيا وأرتاح من هذا كله». وأنشدت تقول

أيا غضبان دعنى قد كفانى	مكابدة الحوادث والزمان
عن الفحشاء ربى قد نهانى	وقال النار مثوى من عصانى
وإنى لا أميل لفعل سوء	بعين النقص دعنى لا ترانى
وإن لم تترك الفحشاء عنى	وترى حرمتى فى من رعانى

فاصرخ طاقتى لرجال قومى ... وأجلب كل قاصيها ودانى
ولو قُطعت بالسيف اليمانى ... لما خليت فحاشًا يرانى
من الأحرار والكبراء طرا ... فكيف العبد من نسل الزوانى

ثم إن الملكة إبريزة بكت بكاءً شديدًا، وقالت: «ويلك يا غضبان، وهل بلغ من قدرك أن تخاطبنى بهذا الخطاب، يا تربية الخنى؟ أتحسب أن الناس كلهم سواء؟». فلما سمع الغضبان ذلك منها، غضب غضبًا شديدًا واحمرت عيناه، واغبرت سحنته، وانتفخت مناخره، واستدلت مشافره، وزادت به النفرات. وتقدم إليها وضربها بالسيف فى ورائها فقتلها، وساق جوادها بعد أن أخذ المال، ونجا بنفسه فى الجبال.

هذا ما كان من أمر الغضبان. وأما ما كان من أمر الملكة إبريزة فإنها وقعت صريعة وكان المولود ذكرًا مثل القمر. فأخذته مرجانة وأصلحت شأنه وجعلته إلى جنب أمه، فأخذ ثديها وهى ميتة. وصرخت مرجانة صرخة عظيمة وشقت أثوابها، وحثت التراب على رأسها، ولطمت خديها حتى خرج الدم من وجهها، وقالت: «واسيدتاه! واخيبتاه! قتلك عبدٌ أسود لا قيمة له بعد فروسيتكِ». ولم تزل تبكى. وإذا بغبار قد طلع وسد الأقطار. فانكشف ذلك الغبار وبان من تحته عسكر جرار. وكان هذا العسكر عسكر الملك حردوب والد الملكة إبريزة. وسبب ذلك أنه لما سمع أن ابنته هربت هى وجواريها من بغداد، وهى عند الملك عمر بن النعمان، خرج بمن معه يتشمم الأخبار من بعض المسافرين ليعلم إن كانوا رأوها عند الملك عمر بن النعمان. فلما خرج وبعد عن بلدته مسيرة يوم واحد، رأى ثلاثة فرسان من بعيد، فقصدهم ليسألهم من أين أتوا ويعلم خبر ابنته. وكان رأى على بعد هؤلاء الثلاثة ابنته وجاريتها والعبد الغضبان. فقصده ليسألهم، فلما قصدهم خاف العبد على نفسه فقتلها ونجا بنفسه. فلما أقبلوا عليهم، رآها أبوها قد قتلت وجاريتها بقربها تبكى عليها. فرمى نفسه من فوق جواده، ووقع على الأرض مغشيا عليه. فترجل كل من كان معه من الفرسان والأمراء والوزراء، وفى الحال ضربوا الخيام فى الجبال ونصبوا قبلة للملك حردوب، ووقف أرباب الدولة بظاهر تلك الخيمة. فلما رأت مرجانة سيدها عرفته وزادت فى البكاء، فلما أفاق الملك من غشيته وسألها عن الخبر أخبرته بالقصة، وقالت له: «إن الذى قتل ابنتك عبد أسود من عبيد عمر بن النعمان». فلما سمع الملك حردوب ذلك، اسودت الدنيا فى وجهه، وبكى بكاءً شديدًا. ثم أمر بإحضار محفّة وحمل ابنته فيها، ومضى إلى قيسارية وأدخلوها القصر.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



حكاية مشاورة الملك حردوب مع أمه ذات الدواهى

قالت شهرزاد: ثم إن الملك حردوبًا دخل على أمه ذات الدواهى وقال لها: «أهكذا يفعل المسلمون ببنتى، فإن الملك عمر بن النعمان يستهين بها، وبعد ذلك يقتلها عبد أسود من عبيده. فوحقِّ المسيح لا بد من أن آخذ ثأر ابنتى منه، وأكشف هذا العار عنى، وإلا قتلت نفسى

بيدى». ثم بكى بكاءً شديدًا. فقالت له أمه ذات الدواهى: «ما قتل ابنتك إلا مرجانة لأنها كانت تكرهها فى الباطن». ثم قالت لولدها: «لا تحزن من جهة أخذ ثارها، فإنى لا أرجع عن الملك عمر بن النعمان حتى أقتله وأقتل أولاده، ولأعملن معه عملاً تعجز عنه الدهاة والأبطال، ويتحدث به المحدثون فى جميع الأقطار وفى كل مكان، ولكن ينبغى لك أن تمتثل أمرى فى كل ما أقوله. فمن نوى على ما يريد يبلغ ما يريد». فقال لها والغصة تكاد تخنقة: «لا أخالفك أبدًا فيما تقولين».

فأطرقت ذات الدواهى قليلاً، ثم التفتت إلى الملك حردوب، وقالت: «ايتنى بجوار أبكار، وائتنى بحكماء الزمان، ودعهم يعلّمونهن الحكمة والأدب مع الملوك والمنادمة والأشعار، ويتكلمن معهم بالحكمة والمواعظ، ويكون الحكماء مسلمين حتى يعلموهن أخبار العرب وتواريخ الخلفاء، وأخبار من سلف من ملوك الإسلام، ولو أقمنا على ذلك أربعة أعوام لبلغنا المرام. فطول روحك واصبر. فإن بعض الأعراب يقول: إن أخذ الثار بعد أربعين عامًا مدته قليلة. ونحن إذا علّمنا أولئك الجوارى بلغنا من عدونا ما نختار. فإذا تعلمت الجوارى ما قلت لك عنه، أخذتهن بعد ذلك وسافرت بهن».

فلما سمع الملك حردوب كلام أمه ذات الدواهى فرح وقام وقبَّل رأسها. ثم أرسل من وقته وساعته المسافرين والقصاد إلى أطراف البلاد، ليأتوه بما طلب من العلماء والحكماء. فلما حضروا بين يديه، أكرمهم غاية الإكرام، وخلع عليهم الخلع، ورتب لهم الرواتب والجرايات، ووعدهم بالمال الجزيل إذا علموا الجوارى، ثم أحضر لهم الجوارى بين أيديهم، وأوصاهم بالتعليم والحكمة والأدب، فامتثلوا أمره.

هذا ما كان من أمر الملك حردوب، وأما ما كان من أمر الملك عمر بن النعمان فإنه لما عاد من الصيد والقنص، وجلس فى القصر طلب الملكة إبريزة فلم يجدها، ولم يخبره أحد عنها، ولم يعلمه أحد بذلك، فعظم عليه ذلك، وقال: «كيف يكون أن جارية تخرج من القصر ولم يعلم بها أحد؟ فإن كانت مملكتى على هذا الأمر فإنها ضائعة ولا ضابط لها. فما عدت أخرج إلى الصيد والقنص حتى أرسل إلى الأبواب من يتوكل بها».

واشتد حزنه وضاق صدره لفراق الملكة إبريزة. فبينما هو كذلك إذا بولده شركان قد أتى من السفر. فأعلمه والده بذلك وأخبره أنها هربت، فاغتم شركان غما شديدًا.

ثم إن الملك صار يتفقد أولاده كل يوم ويكرمهم، وكان الملك عمر بن النعمان قد أحضر الحكماء والعلماء ليعلموا أولاده العلم ورتب لهم الرواتب، فلما رأى ذلك شركان غضب غضبًا شديدًا وحسد إخوته على ذلك، إلى أن ظهر أثر الغيظ فى وجهه. ولم يزل مريضًا بسبب هذا الأمر، فقال له والده يومًا من الأيام: «ما لى أراك تزداد ضعفًا فى جسمك واصفرارًا فى لونك؟». فقال له شركان: «يا والدى، كلما رأيتك تقرب إخوتى وتحسن إليهم، يحصل عندى حسد. وأخاف أن يزيد بى الحسد فأقتلهم، وتقتلنى أنت بسببهم. فمرض جسمى وتغير لونى بسبب ذلك، ولكنى أشتهى من إحسانك، أن تعطينى قلعة فى الخارج أقيم بها بقية عمرى، لأن صاحب المثل يقول: بعدى عن حبيبى أجمل وأحسن، عين لا تنظر وقلب لا يحزن». وأطرق برأسه إلى الأرض.

فلما سمع الملك عمر بن النعمان كلامه. عرف ما هو فيه من التقصير، فلاطفه وقال له: «يا ولدى، إنى أجيبك إلى ذلك، وليس فى ملكى أكبر من قلعة دمشق، فقد ملكتك إياها من هذا الوقت، وأحضر الموقعين فى الوقت والساعة، وأمرهم بكتابة تقليد ولده شركان ولاية دمشق الشام. فكتبوا له ذلك وجهزوه، وأخذ معه الوزير دندان، وأوصاه أبوه بالمملكة والسياسة وقلده أموره والإقامة عنده. وودعه أبوه وودعته الأمراء وأكابر الدولة. ثم سار بالعسكر حتى وصل إلى دمشق. فلما وصل إليها دق أهلها الكاسات وصاحوا بالبوقات، وزينوا المدينة. وقابلوه بموكب عظيم سار فيه أهل الميمنة ميمنة والميسرة ميسرة.

هذا ما كان من أمر شركان. وأما ما كان من أمر والده عمر بن النعمان، فإنه بعد سفر ولده شركان، أقبل عليه الحكماء وقالوا له: «يا مولانا، إن أولادك تعلموا العلم، وكملوا الحكمة والأدب والحشمة». فعند ذلك فرح الملك فرحًا شديدًا وانعم على الحكماء، لأنه رأى ضوء المكان كبر وترعرع وركب الخيل، وصار له من العمر أربع عشرة سنة، وخرج مشتغلاً بالديانة والعبادة، محبًا للفقراء وأهل العلم والقرآن، وصار أهل بغداد يحبونه نساءً ورجالا. إلى أن طاف ببغداد محمل العراق من أجل الحج وزيارة قبر النبى ﷺ. فلما رأى ضوء المكان موكب المحمل دخل على والده، وقال له: «إنى أتيت إليك لأستأذنك فى أن أحج». فمنعه من ذلك وقال له: «اصبر إلى العام القابل أمضى أنا وإياك».

حكاية الملك عمر بن النعمان
وابنيه شركان وضوء المكان

قالت شهرزاد: ولما تأكد ضوء المكان من أن أباه لن يرضى بسفره للحج، فسكت على مضض، ولكنه لما رأى أن الأمر يطول عليه، دخل على أخته نزهة الزمان، فوجدها قائمة تصلى، فلما قضت الصلاة قال لها: «إنى قد قتلنى الشوق إلى الحج وزيارة قبر النبى ﷺ، واستأذنت والدى فمنعنى عن ذلك، فالمقصود أن آخذ شيئًا من المال، وأخرج إلى الحج سرا ولا أعلم أبى بذلك». فقالت له أخته: «بالله عليك إلا ما صحبتنى معك، ولا تحرمنى من زيارة قبر النبى»، فقال لها: «إذا جن الظلام فاخرجى من هذا المكان ولا تعلمى أحدًا بذلك».

فلما كان نصف الليل، قامت نزهة الزمان وأخذت شيئًا من المال ولبست لبس الرجال، وكانت قد بلغت من العمر مثل ضوء المكان، ومازالت ماشية إلى باب القصر، فوجدت أخاها ضوء المكان قد جهز الجمال، فركب وأركبها، وسارا فى الليل، واختلطها بالحجيج إلى أن سارا فى وسط الحجيج العراقى، وما زالا سائرين، وكتب الله لهما السلامة، إلى أن دخلا مكة المشرفة، ووقفا بعرفات، وقضيا مناسك الحج.

وبعد ذلك أرادا الرجوع مع الحجاج إلى بلادهما، فقال ضوء المكان لأخته: «يا أختى فى خاطرى زيارة بيت المقدس والخليل إبراهيم عليه السلام» فقالت له: «وأنا كذلك»، واتفقا على ذلك، فخرج واكترى لها وله مع المقادسة، وجهزا حالهما وتوجها مع الركب، ففى تلك الليلة حصل لأخته حمى باردة فتشوشت، ثم شفيت وتشوش الآخر فصارت تلاطفه فى ضعفه، ولم يزالا سائرين إلى أن دخلا بيت المقدس، واشتد المرض على ضوء المكان وزاد معه

فنزلا فى خان هناك واكتريا لهما محلاً فأقاما به، ولم يزل المرض يتزايد على ضوء المكان حتى أنحله وغاب عن الدنيا، فاغتمت لذلك أخته نزهة الزمان وقالت: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، هذا حكم الله».

فعند ذلك قعدت هى وأخوها فى ذلك المكان، وقد زاد به الضعف، وهى تخدمه وتنفق عليه وعلى نفسها، فنفد ما معها من المال وافتقرت حتى لم يبق معها ولا درهم، فأرسلت صبى الخان إلى السوق بشىء من قماشها، فباعته وأنفقته، ثم باعت شيئًا آخر.

ولم تزل تبيع من أمتعتها شيئًا فشيئًا حتى لم يبق لها إلا حصير مقطع، فبكت وقالت: «لله الأمر من قبل ومن بعده» فقال لها أخوها: «يا أختى إنى قد حسست بالعافية، وفى خاطرى شىء من اللحم المشوى»، فقالت له أخته: «يا أخى أنا ما لى وجه للسؤال، ولكن غدًا أدخل بيت أحد من الأكابر وأخدم فيه، وأعمل بشىء نقتات به أنا وأنت». ثم تفكرت ساعة وقالت له: «إنى لا يهون على أن أفارقك وأنت فى هذه الحالة، ولكن أروح قهرًاعنى». فقال لها أخوها: «أبعد العز تصبحين ذليلة؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله»، ثم بكى وبكت وقالت له: «يا أخى نحن غريبان، وقعدنا هنا سنة كاملة ما دق أحد علينا الباب، فهل تموت من الجوع؟ فليس عندى من الرأى يا أخى إلا أنى أخرج وأخدم، وآتيك بشىء تقتات به إلى أن تبرأ من مرضك، ثم نسافر إلى بلادنا»، ومكثت تبكى ساعة وهو يبكى وهو متكىء.

ثم قامت نزهة الزمان، وغطت رأسها بقطعة عباءة من ثياب الجمالين، وكان صاحبها نسيها عندهما، وقبّلت رأس أخيها واعتنقته، وخرجت من عنده وهي تبكى ولا تعلم أين تمضى. وما زالت سائرة وأخوها ضوء المكان ينتظرها إلى أن قرب وقت العشاء، ولم تأت، فمكث أخوها ينتظرها إلى أن طلع النهار فلم تعد إليه.

ولم يزل على هذه الحالة يومين، فعظم ذلك عنده وارتجف قلبه عليها، واشتد به الجوع، فخرج على صبي الخان وقال له «أريد أن تحملنى إلى السوق»، فحمله وألقاه فى السوق، فاجتمع عليه أهل القدس، وبكوا عليه لما رأوه على تلك الحال، فأشار إليهم يطلب شيئًا يأكله، فجاءوا له من بعض التجار الذين فى السوق ببعض دراهم، واشتروا له شيئًا وأطعموه، ثم حملوه ووضعوه على دكان، وفرشوا له ووضعوا عند رأسه إبريقًا.

فلما أقبل الليل، انصرف عنه كل الناس وحملوا همه، فلما كان نصف الليل، تذكر أخته فازداد به الضعف، وامتنع عن الأكل والشرب، وغاب عن الوجود، فقام أهل السوق وأخذوا له من التجار ثلاثين درهمًا من الفضة، واكتروا له جملاً وقالوا للجمال: «احمل هذا وأوصله إلى دمشق، وأدخله المارستان لعله يبرأ ويطيب» فقال لهم: «على الرأس»، ثم قال الجمال فى نفسه: «كيف أمضى بهذا المريض، وهو مشرف على الموت؟» فخرج به إلى مكان واختفى إلى الليل، ثم ألقاه على مزبلة مستوقد حمَّام ومضى على حال سبيله.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية ضوء المكان ووقاد الحمام

قالت شهرزاد: فلما أصبح الصباح، طلع وقاد الحمام إلى شغله فوجده ملقى على ظهره، فقال فى نفسه: «لأى شىء ما يرمون هذا الميت إلا هنا؟» ورفسه برجله فتحرك، فقال له الوقاد: «أحدكم يأكل قطعة حشيش ويرمى روحه فى أى موضع كان»، ثم نظر فى وجهه، فرآه لا نبات بعارضيه وهو ذو بهاء وجمال، فأخذته الرأفة عليه، وعرف أنه مريض وغريب، فقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله، إنى دخلت فى خطيئة هذا الصبى، وقد أوصى النبى ﷺ بإكرام الغريب، لا سيما إذا كان الغريب مريضًا»، فحمله وأتى به إلى منزله، ودخل به على زوجته وأمرها أن تخدمه وتفرش له بساطًا. ففرشت له وجعلت تحت رأسه وسادة، وسخنت له ماء وغسلت له يديه ورجليه ووجهه.

وخرج الوقاد إلى السوق، وأتى له بشىء من ماء الورد والسكر، ورش ماء الورد على وجهه، وسقاه السكر، وأخرج له قميصًا نظيفًا وألبسه إياه، فشمَّ نسيم الصحة، وتوجهت إليه العافية، واتكأ على المخدة، ففرح الوقاد بذلك وقال: «الحمد لله على عافية هذا الصبى، اللهم إنى أسألك بسرك المكنون، أن تجعل سلامة هذا الشاب على يدى».

وما زال الوقاد يتعهده ثلاثة أيام، وهو يسقيه السكر وماء الخلاف وماء الورد، ويتعطف عليه ويتلطف به، حتى سرت الصحة فى جسمه، ففتح ضوء المكان عينيه، فدخل الوقاد عليه فرآه جالسًا وعليه آثار النشاط، فقال له: «ما حالك يا ولدى فى هذا الوقت؟» فقال: «الحمد لله، فإنى بخير وعافية إن شاء الله تعالى» فحمد الوقاد المولى على ذلك ونهض إلى السوق، واشترى له عشرة فراريج، وأتى بها إلى زوجته وقال لها: اذبحى له فى كل يوم اثنين: باكر النهار واحدًا، وآخر النهار واحدًا» فقامت وذبحت له فروجًا وسلقته، وأتت به إليه وأطعمته إياه وأسقته مرقته.

فلما فرغ من الأكل، قدمت ماء حارًا، فغسل يديه واتكأ على الوسادة، وغطته بملاءة فنام إلى العصر، فقامت وسلقت له فروجًا آخر وأتت به إليه وفسخته وقالت له: «كل يا ولدى». فبينما هو يأكل، وإذا بزوجها قد دخل فوجدها تطعمه.

ثم إنه جلس عند رأسه وقال له: «ما حالك يا ولدى الآن؟» فقال: «الحمد لله على العافية. جزاك الله عنى خيرًا» ففرح الوقاد بذلك. ثم إنه خرج وأتى له بشراب البنفسج وماء الورد وسقاه، وكان ذلك الوقاد يعمل فى الحمام كل يوم بخمسة دراهم، فيشترى كل يوم، بدرهم: السكر وماء الورد وشراب البنفسج وماء الخلاف، ويشترى له بدرهم آخر فراريج، وما زال يلاطفه إلى أن مضى عليه شهر من الزمان حتى زال عنه آثار المرض، وقد توجهت له العافية.

ففرح الوقاد وزوجته بعافية ضوء المكان. فقال له الوقاد: «يا ولدى هل لك أن تدخل معى الحمام؟» قال: «نعم» فمضى إلى السوق، وأتى له بمكار وأركبه على حمار وجعل يسنده إلى أن وصل معه إلى الحمام، فأجلسه وأدخل الحمار إلى المستوقد، ومضى إلى السوق واشترى له سدرًا ودقاقًا، وقال لضوء المكان: «يا سيدى بسم الله، ادخل أغسل لك جسدك»،

فدخل هو وإياه إلى داخل الحمام، وأخذ الوقاد يحك لضوء المكان رجليه، وجعل يغسل له جسده بالسدر والدقاق، وإذ ببلان قد أرسله معلم الحمام إلى ضوء المكان، فوجد الوقاد يغسله ويحك رجليه، فتقدم إليه البلان وقال له: «هذا نقص فى حق المعلم»، فقال الوقاد: «والله إن المعلم غمرنا بإحسانه». فشرع البلان يحلق رأس ضوء المكان، ثم اغتسل هو والوقاد.

وبعد ذلك أتى به الوقاد إلى منزله، وألبسه قميصًا رفيعًا وثوبًا من ثيابه، وعمامة لطيفة وحزامًا رفيعًا، وكانت زوجة الوقاد ذبحت له فروجين وطبختهما، فلما طلع ضوء المكان وجلس على الفراش، قام الوقاد، وأذاب السكر فى ماء الخلاف، وسقاه. ثم قدم له السفرة، وصار الوقاد يفسخ له من تلك الفراريج ويطعمه ويسقيه من المسلوقات، إلى أن اكتفى وغسل يديه، وحمد الله تعالى على العافية.

وبعد ذلك قال ضوء المكان للوقاد: «أنت الذى منَّ الله تعالى علىَّ بك، وجعل سلامتى على يديك» فقال له الوقاد: «دع عنك هذا الكلام، وقل لنا ما سبب مجيئك إلى هذه المدينة؟ ومن أين أنت؟ فإنى أرى على وجهك آثار النعمة»، فقال له ضوء المكان: «قل لى كيف وقعت بى، حتى أخبرك بحديثى»؟ فقال له الوقاد: «أما أنا، فإنى لما توجهت إلى أشغالى، وجدتك مرميًا على القمامة قريب الصبح على باب المستوقد، ولم أعرف من رماك، فأخذتك عندى، وهذه حكايتى». فقال ضوء المكان: «سبحان من يحيى العظام وهى رميم، إنك يا أخى ما فعلت الجميل إلا مع أهله، وستجنى ثمرة ذلك». ثم إنه قال للوقاد: «وأنا الآن فى أى البلاد؟» فقال له: «أنت فى مدينة القدس يا ولدى» فعند ذلك تذكر ضوء المكان غربته، وفراق أخته، وبكى وباح بسره للوقاد، وحكى له حكايته وأنشد يقول:

هم حملونى فى الهوى غير طاقتى	ومن أجلهم قامت علىَّ قيامتى
إلا فارقوا يا هاجرون بمهجتى	فقد رق لى من بعدكم كل شامت
ولا تبخلوا أن تسمحوا لى بنظرة	تخفف أحوالى وفرط صبابتى
سألت فؤادى الصبر عنكم فقال لى	إليك فإنَّ الصبر من غير عادتى

ثم زاد بكاؤه، فقال له الوقاد: «لا تبك، واحمد الله على السلامة والعافية» فقال ضوء المكان: «كم بيننا وبين دمشق؟» فقال: «ستة أيام» فقال ضوء المكان: «هل لك أن ترسلنى إليها؟» فقال له الوقاد: «يا سيدى، كيف أدعك تروح وحدك، وأنت شاب صغير وغريب؟ فإن شئت السفر إلى دمشق، فأنا الذى أروح معك، وإن سمعت منى زوجتى وأطاعتنى وسافرت معى، أقمت هناك؛ فإنه لا يهون علىَّ فراقك».

ثم قال الوقاد لزوجته: «هل لك أن تسافرى معى إلى دمشق الشام، أو تكونى مقيمة هنا، أوصل سيدى هذا إلى دمشق الشام وأعود إليك، فإنه يطلب دمشق الشام؟ فإنى والله لا يهون علىَّ فراقه، وأخاف عليه من قطاع الطريق» فقالت له زوجته: «أسير معكما». فقال الوقاد: «الحمد لله على الموافقة وإتمام الأمر».

ثم إن الوقاد قام وباع أمتعته وأمتعة زوجته، واشترى جملاً واكترى حمارًا، وأركب ضوء المكان إياه وسافروا، وما زالوا مسافرين ستة أيام إلى أن دخلوا دمشق. فنزلوا هناك فى آخر النهار، وذهب الوقاد واشترى شيئًا من الأكل والشرب على العادة.

وما زالوا على ذلك الحال خمسة أيام، فبعد ذلك مرضت زوجة الوقاد أيامًا قلائل، وانتقلت إلى رحمة الله تعالى. فعظم ذلك على ضوء المكان لأنها كانت تخدمه، فلما ماتت، حزن عليها الوقاد حزنًا شديدًا، فالتفت ضوء المكان إلى الوقاد فوجده حزينًا فقال له: «لا تحزن فإننا كلنا داخلون من هذا الباب» فالتفت الوقاد إلى ضوء المكان فقال له: «جزاك الله خيرًا يا ولدى، فالله تعالى يعوض علينا بفضله ويزيل عنا الحزن، فهل لك يا ولدى أن تخرج بنا، ونتفرج فى دمشق لينشرح خاطرك؟» فقال له: «الرأى رأيك».

فقام الوقاد ووضع يده بيد ضوء المكان، وسارا إلى أن أتيا تحت اصطبل والى دمشق، فوجدوا جمالاً محملة صناديق وفرشًا وقماشًا من الديباج، وجنائب مسرجة، وبخاتى وعبيدًا ومماليك، والناس فى هرج ومرج، فقال ضوء المكان فى نفسه: «يا ترى، لمن تكون هؤلاء المماليك والجمال والأقمشة؟» فسأل بعض الخدم وقال: «لمن تكون هذه التقدمة؟ فقال له: «هذه هدية من أمير دمشق يريد إرسالها إلى الملك عمر بن النعمان، مع خراج الشام».

فلما سمع ضوء المكان هذا الكلام اغرورقت عيناه بالدموع وأنشد يقول:

أيها الغائبون عن جفن عينى ... إنهم فى الفؤاد منى حلول
غاب عنى جمالكم فحياتى ... ليس تحلو ولا اشتياقى يحول
إن قضى الله باجتماعى عليكم ... اذكر الوجد فى حديث يطول

فلما فرغ من شعره بكى، فقال له الوقاد: «يا ولدى، نحن ما صدَّقنا أنك جاءتك العافية، فطب نفسًا ولا تبك، فإنى أخاف عليك من الانتكاس»، وما زال يلاطفه ويمازحه، وضوء المكان يتنهد ويتحسر على غربته، وعلى فراقه لأخته ومملكته، ويرسل العبرات، ثم أنشد هذه الأبيات:

تزود من الدنيا فإنك راحل ... وأيقن بأن الموت لا شك نازل
نعيمك فى الدنيا غرور وحسرة ... وعيشك فى الدنيا محال وباطل
ألا إنما الدنيا كمنزل راكب ... أناخ عشيا وهو فى الصبح راحل

ثم جعل ضوء المكان يبكى وينتحب على غربته، والوقاد يبكى على فراقه زوجته، ولكنه ما زال يتلطف بضوء المكان إلى أن أصبح الصباح، فلما طلعت الشمس قال له الوقاد: «كأنك تذكرت بلادك؟» فقال له ضوء المكان: نعم، ولا أستطيع أن أقيم هنا، واستودعك الله، فإنى مسافر مع هؤلاء القوم، وأمشى معهم قليلاً قليلاً إلى أن أصل إلى بلادى»، فقال له الوقاد: «وأنا معك، فإنى لا أقدر أن أفارقك، وأنا عملت معك حسنة، وأريد أن أتممها بخدمتى لك»، فقال له ضوء المكان: «جزاك الله عنى خيرًا» وفرح ضوء المكان بسفر الوقاد معه. ثم إن الوقاد خرج من ساعته، واشترى له حمارًا آخر وباع الجمل ، وعبى زاده، وقال لضوء المكان: «اركب هذا الحمار فى السفر، فإذا تعبت من الركوب انزل وامش». فقال ضوء المكان: «بارك الله فيك وأعاننى على مكافأتك، فإنك فعلت معى من الخير ما لا يفعله أحدٌ مع أخيه». ثم صبرا إلى أن جن الظلام، فحملا زادهما وأمتعتهما على ذلك الحمار وسافرا. هذا ما كان من أمر ضوء

المكان والوقاد، وأما ما كان من أمر أخته نزهة الزمان، فإنها لما فارقت أخاها ضوء المكان، خرجت من الخان الذى كانا فيه فى القدس، بعد أن التفت بالعباءة، وخرجت لأجل أن تخدم واحدًا، وتشترى لأخيها ما اشتهاه من اللحم المشوى، فخرجت تبكى، وهى لا تعلم أين تتوجه، وكان خاطرها مشغولا بأخيها، وتفكرت فى الأهل والأوطان، فصارت تتضرع إلى الله تعالى فى دفع هذه البليات وأنشدت تقول:

جن الظلام وهاج الوجد بالسقم	والشوق حرَّك ما عندى من الألم
ولوعة البين فى الأحشاء قد سكنت	والوجد صيرنى فى حالة العدم
وليس لى حيلة فى الوصل أعرفها	حتى تزحزح من ضعفى ومن سقمى
فنار قلبى بالأشواق موقدة	ومن لظاها يظل الصب فى نقم
يا من يلوم على ما حلَّ بى وكفى	أنى صبرت على ما خطّ بالقلم
أقسمت بالحب مالى سلوة أبدًا	يمين أهل الهوى مبرورة القسم
يا ليل بلغ رواة الحب عن خبرى	واشهد بعلمك أنى فيك لم أنم

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية نزهة الزمان والبدوي

قالت شهرزاد: ثم إن نزهة الزمان، أخت ضوء المكان، بكت وصارت تمشى وتتلفت يمينًا ويسارًا، وإذا بشيخ مسافر من البدو، ومعه خمسة أنفار من العرب، فالتفت ذلك الشيخ إلى نزهة الزمان فرآها جميلة وعلى رأسها عباءة مقطعة، فتعجب من حسنها وقال فى نفسه: «إن هذه جميلة تدهش العقل، ولكنها ذات قشف، فإن كانت من أهل هذه المدينة أو كانت غريبة، فلا بد لى منها»، ثم إنه تبعها قليلاً قليلاً حتى تعرض لها فى مكان ضيق، وناداها ليسألها عن حالها وقال لها: «يا بنية هل أنت حرَّة أو مملوكة؟».

فلما سمعت كلامه نظرت إليه وقالت له: «بحياتك لا تجدد علىَّ الأحزان»، فقال لها: «إنى رزقت ست بنات، مات لى منهنَّ خمسة، وبقيت واحدة وهى أصغرهن، وأتيت إليك لأسألك هل أنت من أهل هذه القرية أو غريبة، لأجل أن آخذك وأجعلك عندها لتؤانسيها، فتشتغل بك عن الأحزان على أخواتها، فإن لم يكن لك أحد جعلتك مثل واحدة منهن، وتصيرين مثل أولادى».

فلما سمعت نزهة الزمان كلامه قالت فى سرها: «عسى أن آمن على نفسى عند هذا الشيخ»، ثم أطرقت برأسها من الحياء فقالت: «يا عم أنا ابنة عربية غريبة، ولى أخ ضعيف، فأنا أمضى معك إلى بنتك بشرط أن أكون عندها بالنهار، وبالليل أمضى إلى أخى، فإن قبلت هذا الشرط، مضيت معك لأنى غريبة، وكنت عزيزة فى قومى فأصبحت ذليلة حقيرة، وجئت أنا وأخى من بلاد الحجاز، وأخاف أن أخى لا يعرف لى مكانًا.

فلما سمع البدوى كلامها قال لها: «ما بقى عندى أعز منك، ولا أريدك إلا لتؤانسى بنتى نهارًا، وتمضى إلى أخيك من أول الليل، وإن شئت فانقليه إلى عندنا»، ولم يزل البدوى

يطيب قلبها ويلين لها الكلام إلى أن لانت له ووافقته على الخدمة، ومشى قدامها وتبعته، فغمز من معه، فسبقوه وهيأوا الهجان، وحملوا عليها الأحمال ووضعوا فوقها الماء والزاد، حتى إذا وصل إليهم ساروا بالجمال وسافروا.

وكان البدوى قاطع الطريق وخائن الرفيق ولصا صاحب مكر وحيل، لا عنده بنت ولا ولد، وما كان إلا عابر طريق، فوقع بهذه المسكينة لأمر قدَّره الله، وما زال البدوى يحدثها فى الطريق إلى أن خرج من مدينة القدس إلى ظاهرها، واجتمع برفقته فوجدهم قد جهزوا الهجان، فركب البدوى جملاً وأردفها خلفه وساروا الليل كله، فعرفت نزهة الزمان أن كلامه حيلة عليها، وأن البدوى غرها، فصارت تبكى وتصرخ طول الليل، وهم مسافرون فى الطريق، قاصدون الجبال خوفًا من أن يراهم أحد.

فلما صاروا قريب الفجر، نزلوا عن الهجان وتقدم البدوى إلى نزهة الزمان وقال لها: «يا مدنية ما هذا البكاء؟ والله إن لم تسكتى من البكاء ضربتك إلى أن تهلكى يا قطعة حضريَّة» فلما سمعت نزهة الزمان كلامه، كرهت الحياة وتمنت الموت، فالتفتت إليه وقالت له: «يا شيخ النحس، يا شيبة جهنم، كيف أستأمنتك وأنت غدرتنى، وتريد أن تعذبنى؟» فلما سمع البدوى كلامها قال لها: «ألك لسان تجاوبيننى به؟» وقام إليها ومعه سوط فضربها وقال: «إن لم تسكتى قتلتك»، فسكتت ساعة، ثم تفكرت في أخيها وما كان فيه من النعمة، فبكت سرا.

وفى ثانى يوم التفتت إلى البدوى وقالت له: «كيف تعمل علىَّ هذه الحيلة حتى أتيت بى إلى هذه الجبال القفرة، وما قصدك منى؟» فلما سمع كلامها قسا قلبه وقال لها: «يا بنت النحس، ألك لسان تجاوبيننى به؟» وأخذ السوط ونزل به على ظهرها إلى أن غشى عليها، فانكبت على رجليه وقبلتهما، فكف عنها وصار يشتمها ويقول لها: «وحق طرطورى، إن رأيتك أو سمعتك تبكين قطعت لسانك»، فعند ذلك سكتت ولم ترد جوابًا، وآلمها الضرب فقعدت على القرفصاء ونكست رأسها ونظرت إلى حالها وذلها بعد عزها، وما حلَّ بها من الضرب، وتفكرت فى حال أخيها وفى مرضه ووحدته واغترابهما، وأرسلت دموعها على وجنتيها وبكت سرا وأنشدت تقول:

من عادة الدهر إدبار وإقبال فما يدوم له بين الورى حال
وكل شىء من الدنيا له أجل وتنقضى لجميع الناس آجال
كم أحمل الضيم والأهوال يا أسفى من عيشة كلها ضيم وأهوال
لا أسعد الله أيامًا عززت بها دهرا وفى طى ذاك العز إذلال
قد خاب قصدى وآمالى بها انصرمت وقد تقطع بالتغريب أوصالى
يا من يمر على دار بها سكنى بلغه عنى أن الدمع هطال

فلما فرغت من شعرها، قام إليها البدوى وعطف عليها ورثى لها، ومسح دموعها، وأعطاها قرص شعير وقال لها: «أنا لا أحب من يجاوبنى فى وقت الغيظ، وأنت بعد ذلك لا تجاوبينى بشىء من هذا الكلام الفاحش، وأنا أبيعك لرجل جيد مثلى يفعل معك الخير، مثل ما

فعلت معك»، قالت: «نعم ما تفعل» ثم إنها لما طال عليها الليل وأحرقها الجوع، أكلت من ذلك القرص الشعير شيئًا يسيرًا.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: ثم إن البدوى أمر جماعته أن يسافروا، فحملوا الجمال وركب البدوى جملاً، وأردف نزهة الزمان خلفه وساروا، وما زالوا سائرين مدة ثلاثة أيام إلى أن دخلوا مدينة دمشق ونزلوا فى خان السلطان، بجانب باب النائب، ونزهة الزمان قد تغير لونها من الحزن وتعب السفر، فصارت تبكى من أجل ذلك، فأقبل عليها البدوى وقال لها: «يا حضرية، وحق طرطورى، إن لم تتركى هذا البكاء لا أبيعك إلا ليهودى».

ثم إنه قام وأخذها بيدها وأدخلها فى مكان، وتمشى إلى السوق، ومرَّ على التجار الذين يتجرون فى الجوارى، وصار يكلمهم ويقول لهم: «عندى جارية أتيت بها، وأخوها ضعيف، فأرسلته إلى أهلى ببلاد القدس، لأجل أن يداووه إلى أن يبرأ. وقصدى أن أبيعها، ومن يوم ضعف أخوها ما انفكت تبكى، وصعب عليها فراقه، وأريد من الذى يحب أن يشتريها منى، أن يلين لها الكلام ويقول لها: إن أخاك عندى فى القدس ضعيف؛ وأنا أرخص له ثمنها» فنهض له رجل من التجار وقال له: «كم عمرها؟» فقال: «هى بكر بالغة، ذات عقل وأدب وفطنة وحسن وجمال، ومن حين أرسلت أخاها إلى القدس، اشتغل قلبها به وتغيرت محاسنها وانقلبت سيمتها». فلما سمع التاجر ذلك تمشى مع البدوى وقال له: «اعلم يا شيخ العرب، أنى أروح معك وأشترى منك الجارية التى تمدحها وتثنى على عقلها وأدبها وحسنها وجمالها، وأعطيك ثمنها، وأشرط عليك شروطًا، إن قبلتها نقدتك ثمنها وإن لم تقبلها رددتها عليك».

فقال له البدوى: «إن شئت فاذهب بها إلى السلطان، واشرط علىَّ ما شئت من الشروط، فإنك إذا أوصلتها إلى الملك شركان بن عمر بن النعمان، صاحب بغداد وأرض خراسان، فربما يستحسنها ويعطيك ثمنها، ويكثر لك الربح فيها»، فقال له التاجر: «وأنا لى عنده حاجة، وهى أن يكتب لى مرسومًا فى الديوان بأن لا يؤخذ منى مكس، ثم تكتب أنت إلى والده عمر بن النعمان بأن يكون صاحب التفات إلىَّ ورعاية، فإن قبل الجارية منى، وزنت لك ثمنها فى الحال»، فقال البدوى: «قبلت منك هذا الشرط».

ومشيا إلى أن أقبلا إلى المكان الذى فيه نزهة الزمان، ووقف البدوى على باب المخزن وناداها، «يا ناجية» وكان سماها بهذا الاسم، فلما سمعته بكت ولم تجبه، فالتفت البدوى إلى التاجر وقال له: «ها هى قاعدة، دونك وإياها، فأقبل عليها وانظرها، ولاطفها مثلما أوصيتك»، فتقدم التاجر إليها بخلق حسن، فرآها بديعة فى الحسن والجمال، لا سيما أنها كانت تعرف بلسان العرب، فقال التاجر: «إن كانت كما وصفت لى، فإنى أبلغ بها عند السلطان ما أريد»، فقال لها التاجر: «السلام عليك يا بنية، كيف حالك؟» فالتفتت إليه وقالت: «كان ذلك فى الكتاب مسطورًا».

ونظرت إليه فإذا هو رجل محتشم ووجهه حسن. فقالت فى نفسها: «أظن أن هذا

الرجل يشترينى»، ثم قالت: «إن امتنعت منه، صرت عند هذا الظالم، فيهلكنى من الضرب، فعلى كل حال هذا رجل وجهه حسن، وهو أرجى للخير من هذا البدوى الجلف، ولعله ما جاء إلا ليسمع منطقى، فإنى أجاوبه جوابًا حسنًا». كل ذلك وعينها إلى الأرض. ثم رفعت بصرها إليه، وقالت له بكلام عذب: «وعليك السلام يا سيدى، ورحمة الله وبركاته، بهذا أمر النبى ﷺ، وأما قولك كيف حالك، فإن شئت أن تعرفه، فلا تتمناه إلا لأعدائك». ثم سكتت.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فلما سمع التاجر كلامها، طار عقله فرحًا بها، ثم التفت إلى البدوى وقال له: «كم ثمنها فإنها جليلة؟» فاغتاظ البدوى وقال له: «أفسدت على الجارية بهذا الكلام، لأى شيء تقول أنها جليلة مع إنها من سافلات الجوارى ورعاع الناس؟ فلا أبيعها لك».

فلما سمع التاجر كلامه، عرف أنه قليل العقل وقال له: «روض خلقك، فأنا أشتريها على هذه العيوب التى ذكرتها»، فقال البدوى: «وكم تدفع لى فيها؟» فقال له التاجر: «ما يسمى الولد إلا أبوه، فاطلب فيها غرضك»، فقال له البدوى: «ما يتكلم إلا أنت». فقال التاجر فى نفسه: «هذا البدوى غبى ناشف الرأس، والله أنا لا أعرف لها قيمة إلا أنها ملكت قلبى بفصاحتها وحسن منظرها، وإن كانت تكتب وتقرأ فهذا من تمام النعمة عليها وعلى من يشتريها، لكن هذا البدوى لا يعرف لها قيمة» ثم التفت إلى البدوى وقال له: يا شيخ العرب أدفع لك فيها مائتى دينار، سالمة ليدك خارجًا عن الضمان وحق السلطان». فلما سمع البدوى ذلك اغتاظ غيظًا شديدًا، وصرخ على التاجر وقال له: «قم إلى حال سبيلك، والله أن أعطيتنى مائتى دينار فى قطعة العباءة التى عليها ما بعتها لك، وأنا ما عدت أبيعها، بل أخليها عندى ترعى الجمال وتطحن الطحين»، ثم صاح عليها وقال: «تعالى يا منتنة، أنا لا أبيعك»، ثم التفت إلى التاجر وقال له: «كنت أحسبك أهل معرفة، وحق طرطورى إن لم تذهب عنى لأسمعنك ما لا يرضيك».

فقال التاجر فى نفسه: «إن هذا البدوى مجنون لا يعرف قيمتها، ولا أقول له شيئًا فى ثمنها فى هذا الوقت، لأنه لو كان صاحب عقل، ما قال وحق طرطورى، والله إنها تساوى ملك كسرى، وأنا ما معى ثمنها، ولكن إن طلب منى زيادة، أعطيه ما يريد ولو أخذ جميع مالى»، ثم التفت إلى البدوى وقال له: «يا شيخ العرب طول بالك وروض نفسك، وقل لى ما لها من الثياب عندك»، فقال له البدوى: «وما يصلح هذه المنتنة من الثياب، إن هذه العباءة التى هى ملتفة بها كثيرة عليها».

ثم إن التاجر قال لها: يا سيدتى ما اسمك؟» فقالت له: «تسأل عن اسمى اليوم أو قبل هذا اليوم؟» فقال لها: «أنت لك اسم اليوم واسم قبل اليوم؟» قالت: «نعم اسمى قبل هذا اليوم نزهة الزمان، واسمى اليوم غصة الزمان». فلما سمع التاجر هذا الكلام منها، اغرورقت عيناه بالدموع وقال لها: «هل لك أخ ضعيف؟» فقالت: «أي والله يا سيدى، ولكن فرق الزمان بينى وبينه، وهو مريض فى بيت المقدس»، فتحير عقله من عذوبة منطقها وقال فى نفسه: «لقد

صدق البدوى فى مقالته». ثم إن نزهة الزمان تذكرت أخاها ومرضه وغربته وافتراقها عنه، وهو ضعيف، وهى لا تعلم ما وقع له، وتذكرت كيف جرى لها هذا الأمر مع البدوى وبعدها عن أمها وأبيها ومملكتها، فجرت دموعها على خدها وأرسلت العبرات، وأنشدت تقول هذه الأبيات:

حيثما كنت قد وقال إلهى	أيها الراحل المقيم بقلبى
ولك الله حيث أمسيت جار	حافظ من صروف دهر وخطب
غبت فاستوحشت لقربك عينى	واستهلت مدامعى أى سكب
ليت شعرى بأى ربع وأرض	أنت مستوطن بدار وشعب
إن تكن شاربًا لماء حياة	خضر الورد فالمدامع شربي
أو شهدت الرقاد نومًا فجمر	من سهادى بين الفراش وجنبى
كل شيء إلا فراقك سهل	عند قلبى وغيره غير صعب

فلما سمع التاجر ما قالته من الشعر بكى، ومد يده ليمسح دموعها عن خدها، فغطت وجهها وقالت له: «حاشاك يا سيدى». ثم إن البدوى قعد ينظر إليها، وهى تغطى وجهها من التاجر، حيث أراد أن يمسح دمعها على خدها، فاعتقد أنها تمنعه من التقليب فقام إليها يجرى، وكان معه مقود جمل فضربها به على أكتافها، فجاءت الضربة بقوة، فأكبت بوجهها على الأرض، فجاءت حصاة من الأرض فى حاجبها فشقته، فسال دمها على وجهها، فصرخت صرخة عظيمة، وبكت حتى غشى عليها، وبكى التاجر معها، فقال التاجر: لا بد أن أشترى هذه الجارية ولو بثقلها ذهبًا وأريحها من هذا الظالم»، وصار التاجر يشتم البدوى، وهى فى غشيتها، فلما أفاقت مسحت الدموع والدم عن وجهها وعصبت رأسها، ورفعت طرفها إلى السماء، وطلبت من مولاها بقلب حزين وأنشدت تقول:

وارحمتا لعزيزة	بالضيم قد صارت ذليله
تبكى بدمع هاطل	وتقول ما فى الوعد حيله

فلما فرغت من شعرها التفتت إلى التاجر وقالت له بصوت خفى: «بالله لا تدعنى عند هذا الظالم الذى لا يعرف الله تعالى فإنى إن بت هذه الليلة عنده، قتلت نفسى بيدى، فخلصنى منه يخلصك الله من نار جهنم». فقام التاجر وقال للبدوى: «يا شيخ العرب هذه ليست غرضك، بعنى إياها بما تريد». فقال البدوى: «خذها وادفع ثمنها، وإلا أروح بها إلى النجع، وأخليها هناك تلم البعر وترعى الجمال». فقال التاجر: «أعطيك خمسين ألفا». فقال البدوى: «يفتح الله تعالى»، فقال التاجر: «سبعين ألف دينار»، فقال البدوى: «يفتح الله، هذا ما هو رأس مالها، لأنها أكلت عندى أقراص شعير بتسعين ألف دينار»، فقال له التاجر: «أنت وأهلك وقبيلتك، فى طول زمانكم، ما أكلتم بألف دينار شعيرًا؛ ولكن أنا أقول لك كلمة واحدة، فإن لم ترض غمزت عليك نائب دمشق فيأخذها منك قهرًا»، فقال البدوى: «تكلم»، فقال: «بمائة ألف دينار»، فقال البدوى: «بعتك إياها بهذا الثمن، وأحسب أننى اشتريت بها ملحًا».

فلما سمعه التاجر ضحك ومضى إلى منزله وأتاه بالمال وقبَّضه أياه، فأخذه البدوى

وقال فى نفسه: «لا بد أن أذهب إلى القدس لعلى أجد أخاها فأجىء به وأبيعه» ثم ركب وسافر إلى أن وصل بيت المقدس، فذهب إلى الخان وسأل عن أخيها فلم يجده.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية نزهة الزمان والتاجر

قالت شهرزاد: هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر التاجر ونزهة الزمان فإنه لما أخذها ألقى عليها شيئًا من ثيابه، ومضى بها إلى منزله وألبسها أفخر الملبس، وأخذها ونزل بها إلى السوق، وأخذ لها مصاغًا مما طلبته، ووضعه فى صرة من الأطلس، ووضعها بين يدى نزهة الزمان، وقال لها: «هذا كله من أجلك، ولا أريد منك إلا إذا ذهبت بك إلى السلطان نائب دمشق، أن تعلميه بالثمن الذى اشتريتك به وإن كان قليلاً فى ظفرك، فإذا وصلتى إليه واشتراك منى، اذكرى له ما فعلت معك، واطلبى له منه منشورًا سلطانيًا توصيه بى، لأذهب به إلى والده صاحب بغداد، عمر بن النعمان، لأجل أن يمنع من يأخذ منى مكسًا على نسيج أو غيره، من جميع ما أتجر فيه».

فلما سمعت كلامه، بكت وانتحبت، فقال لها التاجر: «يا سيدتى، إنى أراك كلما ذكرت بغداد تدمع عيناك، ألك فيها أحد تحبينه؟ فإن كان تاجرًا أو غيره، فأخبرينى به؛ فأنا أعرف جميع من فيها من التجار وغيرهم، وإن أردت رسالة أنا أوصلها إليه». فقالت: «والله ما لى معرفة بأحد، وإنما لى معرفة بالملك عمر بن النعمان صاحب بغداد».

فلما سمع التاجر كلامها، ضحك وفرح فرحًا شديدًا وقال فى نفسه: «والله إنى وصلت إلى ما أريد». ثم قال لها: «هل عرضت عليه سابقًا؟» فقالت: «لا، بل تربيت أنا وبنته، فكنت عزيزة عنده، ولى عنده حرمة كبيرة، فإن كان غرضك أن الملك عمر بن النعمان يكتب لك ما تريد، فأتنى بدواة وقرطاس فإنى أكتب لك كتابًا، فإذا دخلت إلى مدينة بغداد، فسلم الكتاب من يدك إلى يد عمر بن النعمان وقل له: إن جاريتك نزهة الزمان قد طرقتها صروف الليالى والأيام، حتى بيعت من مكان إلى مكان، وهى تقرئك السلام، وإذا سألك عنى فأخبره أنى عند نائب دمشق». فتعجب التاجر من فصاحتها وقال «ما أظن إلا أن الرجال لعبوا بعقلك وباعوك بالمال، فهل تحفظين القرآن؟» قالت: «نعم، وأعرف الحكمة والطب، ومقدمة المعرفة، وشرح فصول بقراط لجالينوس الحكيم وشرحته أيضًا، وقرأت التذكرة، وشرحت البرهان، وطالعت مفردات ابن البيطار، وتكلمت على القانون لابن سينا، وحللت الرموز، ووضعت الأشكال، وتحدثت فى الهندسة، وأتقنت حكمة الأبدان، وقرأت كتب الشافعية، وقرأت الحديث والنحو وناظرت العلماء، وتكلمت فى سائر العلوم، وألفت فى علم المنطق والبيان والحساب والجدل، وأعرف الروحانى والميقات، وفهمت هذه العلوم كلها»، ثم قالت للتاجر: «ايتنى بدواة وقرطاس حتى أكتب لك كتابًا ينفعك فى سفرك إلى بلادك، ويغنيك عن مجلدات الأسفار». فلما سمع التاجر ذلك منها صاح: «بخ بخ يا سعد، من تكونين فى قصره؟» ثم أتاها بدواة وقرطاس وقلم من نحاس. فلما أحضر التاجر ذلك بين يديها، قبَّل الأرض تعظيمًا لها، فأخذت نزهة الزمان الدرج، وتناولت القلم وكتبت فيه شعرًا:

النوم من مقلتى قـد طار أو نفـرا ... ألنت علمت طرفى بعدك السهرا
ومـا لذكرك يصلى النار فى كبدى ... أهكـذا كل صب للهوى ذكرا
سقيًا لأيامنا ما كان أطيبها ... ولت ولـم أقض من لذاتها وطرا
أستعطف الريح أن الريح حاملة ... إلى المتيم مـن أكنافكم خبرا
يشكو إليك محب قلّ ناصره ... وللفراق خطوب تصدع الحجرا

ثم إنها لما فرغت من كتابة شعرها، كتبت بعد ذلك هذا الكلام وهى تقول: «من اخترمها الفكر، وأنحلها السهر، فظلمتها لا تجد لها من أنوار، ولا تعلم الليل من النهار، وتتقلب على مراقد البين، وهى للنجوم رقيبة، وللظلام نقيبة، قد أذابها الفكر والنحول، وشرح حالها يطول، لا مساعد لها غير العبرات، وأنشدت تقول هذه الأبيات:

مـا غـرَّدت سحرًا ورقـاء فى فنن ... إلا تحـرك عندى يقاتل الشجن
ولا تأوّه مشتاق به طرب ... إلا الأحبـة إلا زاد بى حزنى
أشكو الغرام إلى من ليس يرحمنى ... كم فرق الوجد بين الروح والبدن

ثم أفاضت دموع العين، وكتبت أيضًا هذين البيتين:

وكيف يذوق النوم من عدم الكرى ... ويسهر ليلاً والأنام رقود
وقد كان ذا مال وأهل وعزة ... فأضحى غريب الدار وهو وحيد

ثم أفاضت دموع العين، وبعد ذلك كتبت فى أسفل الدرج: «هذا من عند البعيدة عن الأهل والأوطان، الحزينة القلب والجنان، نزهة الزمان». ثم لفت الدرج وناولته التاجر، فأخذه وقبله، وعرف ما فيه ففرح وقال: «سبحان من صورك»، وزاد فى إكرامها، وصار يلاطفها نهاره كله. فلما أقبل الليل خرج إلى السوق، وأتى بشىء فأطعمها إياه، ثم أدخلها الحمام وأتاها ببلانة وقال لها: «إذا فرغت من غسل رأسها فألبسيها الأثواب، ثم أرسلى أعلمينى». فقالت: «سمعًا وطاعة»، ثم أحضر لها طعامًا وفاكهة وشمعًا، وجعل ذلك على مصطبة الحمام، فلما فرغت البلانة من تنظيفها، ألبستها ثيابها فخرجت من الحمام وجلست على مصطبته، وأرسلت البلانة أعلمته، وخرجت فوجدت المائدة حاضرة، فأكلت هى والبلانة من الطعام والفاكهة، ودفعتا الباقى لصناع الحمام وحارسه، ثم باتت إلى الصباح، وبات التاجر منعزلاً عنها فى مكان آخر.

فلما استيقظ من نومه، أيقظ نزهة الزمان وأحضر لها قميصًا رفيعًا، وأخذ كوفية بألف دينار وحلة تركية مزركشة، وخفا مزركشًا بالذهب الأحمر، مرصعًا بالدر والجوهر وجعل فى أذنيها حلقًا من ذهب، مرصعًا بلؤلؤ بألف دينار، ووضع فى رقبتها طوقًا من ذهب وقلادة من عنبر فيها عشر أكر وتسعة أهلّة، كل هلال فى وسطه فص من ياقوت، وكل أكرة فيها فص من البلخش، وثمن تلك القلادة ثلاثة آلاف دينار، وكل أكرة بعشرين ألف درهم، فصارت الكسوة التى كساها إياها بجملة بليغة من المال، فلما لبستها أمرها التاجر أن تتزين، فتزينت بأحسن الزينة وأرخت على عينيها خاقونية ومشت ومشى التاجر قدامها، فلما عاينها الناس، بهتوا من حسنها وقالوا: «تبارك الله أحسن الخالقين»، ومازال التاجر يمشى وهى تمشى خلفه إلى أن دخل على السلطان شركان.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية شركان مع نزهة الزمان

قالت شهرزاد: فلما دخل على الملك، قبل الأرض بين يديه وقال: «أيها الملك السعيد أتيت إليك بهدية غريبة الأوصاف، معدومة المثال فى هذا الزمان، حزت الحسن والإحسان»، فقال له الملك: «أرنى إياها عيانًا»، فخرج التاجر وأتى بها، وهى خلفه إلى أن أوقفها قدَّام الملك شركان، فلما رآها حنّ الدَّم إلى الدم، وكانت قد فارقته وهى صغيرة ولم ينظرها لأنه بعد مضى مدة من ولادتها، سمع أن له أختًا تسمى نزهة الزمان، وأخًا يسمى ضوء المكان، فكان يبغضهما لأجل المملكة، فهذا سبب قلة معرفته بهما.

ثم إن التاجر قال له: «يا ملك الزمان، إنها مع كونها بديعة الحسن والجمال بحيث لا نظير لها فى عصرها، تعرف جميع العلوم الدينية والدنيوية والسياسية والرياضية»، فقال الملك للتاجر: «خذ ثمنها مثل ما اشتريتها، ودعها ورح إلى حال سبيلك»، فقال: «سمعًا وطاعة، ولكن اكتب لى مرقومًا على أنى لا أدفع عشرًا أبدًا على تجارتى»، فقال الملك: «إنى أول ما أفعل ذلك، ولكن أخبرنى كم وزنت ثمنها»، فقال: «وزنت ثمنها مائة ألف دينار، وكسوتها بمائة ألف دينار»، فلما سمع الملك هذا الكلام قال: «أنا أعطيك فى ثمنها أكثر من ذلك».

ثم دعا بخازن داره وقال له: «أعط هذا التاجر ثلاثمائة ألف دينار، وعشرين ألف دينار، فيكون له مائة وعشرون ألف دينار فائدة».

ثم أحضر السلطان شركان القضاة الأربعة، وسلمه المال بحضرتهم وقال للقضاة: «أشهدكم بأنى أعتقت جاريتى هذه، وأريد أن أتزوجها»، فكتب القضاة حجة بإعتاقها ثم كتبوا كتابه عليها، ونثر الملك على رؤوس الحاضرين ذهبًا كثيرًا، فصار الغلمان والخدم يلتقطون ما نثره عليهم الملك من المال.

ثم بعد ذلك أمر الملك شركان بكتابة منشور للتاجر، بعد أن سلمه المال، وكتب التوقيع مخلدًا بأنه لا يدفع على تجارته عشرًا ولا مكسًا أبدًا، ولا يتعرض له أحد بسوء فى سائر مملكته، وبعد ذلك أمر له بخلعة سنية.

وعند ذلك انصرف الجميع من عنده، ولم يبق عنده غير القضاة والتاجر، فقال للقضاة: «أريد أن تسمعوا من ألفاظ هذه الجارية ما يدل على علمها وأدبها من كل ما ادعاه التاجر، لنحقق صدق كلامه»، فقالوا: «لا بأس بذلك» فأمر بإرخاء ستارة بينه هو ومن معه وبين الجارية ومن معها، وصار جميع النساء اللاتى مع الجارية خلف الستارة، يهنينها ويقبلن يديها ورجليها، لما علموا أنها صارت زوجة الملك.

ثم سمعت نساء الأمراء والوزراء، أن الملك شركان اشترى جارية ما مثلها فى الجمال والعلم والحكمة والحساب، وإنها حوت جميع العلوم، وقد وزن ثمنها ثلاثمائة وعشرين ألف دينار، وأعتقها وكتب كتابه عليها، وأحضر القضاة الأربعة لأجل امتحانها حتى تجاوبهم على ما يسألونها وينظرونها به، فطلب النساء الإذن من أزواجهن ومضين إلى القصر الذى فيه نزهة الزمان، فلما دخلن عليها، وجدن الخدم وقوفًا بين يديها، فحين رأت نساء الأمراء والوزراء وأرباب الدولة داخلة عليها، قامت لهنَّ على أقدامها وقابلتهنَّ، ووقفت الجوارى خلفها وتلقت

النساء بالترحيب، وصارت تبتسم فى وجوههنَّ فأخذت بقلوبهنَّ، ثم وعدتهنَّ بكل خير، وأنزلتهنّ فى مراتبهنَّ كأنها تربَّت معهنَّ.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فتعجبن من عقلها وأدبها، مع حسنها وجمالها، وقال بعضهن لبعض: «ما هذه جارية بل ملكة بنت ملك» فجلسن يعظمن قدرها وقلن لها: «يا سيدتنا أضاءت بك بلدتنا، وشرفت بلادنا وأماكننا وأوطاننا ومملكتنا، فالمملكة مملكتك، والقصر قصرك وكلنا جواريك، فبالله لا تحرمينا من إحسانك والنظر إلى حسنك»، فشكرتهنَّ على ذلك.

هذا كله والستارة مرخاة بينها ومن عندها من النساء، وبين الملك شركان والقضاة الأربعة والتاجر، وهم جالسون بجانب الملك، فعند ذلك ناداها الملك شركان وقال لها: «أيتها الملكة العزيزة فى زمانها، إن هذا التاجر قد وصفك بالعلم والأدب، وادَّعى أنك تعرفين جميع العلوم حتى علم النجوم، فأسمعينا شيئًا مما ذكره لنا التاجر، واذكرى لنا من الشىء بابًا يسيرًا». فلما سمعت كلامه قالت: «سمعًا وطاعة أيها الملك، الباب الأول فى السياسات والآداب الملكية، وما ينبغى لولاة الأمور الشرعية، وما يلزم لهم من قبل الأخلاق المرضية».

«اعلم أيها الملك، أن محاسن الخلق مجموعة فى الدين والدنيا، فلا يتوصل أحد إلى الدين إلا بالدنيا لأنها نعم الطريق إلى الآخرة، وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال أهلها، وأعمال الناس تنقسم على أربعة أقسام: الإمارة والتجارة والزراعة والصناعة».

«فالإمارة ينبغى لها السياسة التامة والفراسة الصادقة، لأن الإمارة مدار عمارة الدنيا التى هى طريق إلى الآخرة، لأن الله تعالى جعل الدنيا للعباد كزاد المسافر إلى تحصيل المراد. فينبغى لكل إنسان أن يتناول منها بقدر ما يوصله إلى الله، ولا يتبع فى ذلك نفسه وهواه، ولو تناولها الناس بالعدل لانقطعت الخصومات، ولكنهم يتناولونها بالجور ومتابعة الهوى، فتسببت عن انهماكهم بها الخصومات، فاحتاجوا إلى السلطان لأجل أن ينصف بينهم ويضبط أمورهم، ولولا ردع الملك الناس عن بعضهم، لغلب قويهم ضعيفهم. وقد قال أزدشير: إن الدين والملك توأمان، فالدين كنز والملك حارس.

«وقد دلت الشرائع والعقول على أنه يجب على الناس أن يتخذوا سلطانًا يدفع الظالم عن المظلوم، وينصف الضعيف من القوى، ويكف بأس العاتى والباغى.

«واعلم أيها الملك، أنه على قدر حسن أخلاق السلطان يكون الزمان، فإنه قد قال رسول الله ﷺ: «شيئان فى الناس إن صلحا صلح الناس، وإن فسدا فسد الناس، العلماء والأمراء» وقد قال بعض الحكماء: الملوك ثلاثة: ملك دين، وملك محافظ على الحرمات، وملك هوى.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: «فأما ملك الدين فإنه يلزم رعيته باتباع دينهم، وينبغى أن يكون أدينهم، لأنه هو الذى يقتدى به فى أمور الدين ويلزم الناس طاعته فيما أمر به، موافقًا للأحكام الشرعية، ولكنه ينزل الساخط منزلة الراضى بسبب التسليم إلى الأقدار.

«وأما الملك المحافظ على الحرمات، فإنه يقوم بأمور الدين والدنيا، ويلزم الناس باتباع الشرع والمحافظة على المروءة، ويكون جامعًا بين القلم والسيف، فمن زاغ عما سطر القلم وزلت به القدم، فيقوم اعوجاجه بحد الحسام، وينشر العدل فى جميع الأنام.

«وأما ملك الهوى فلا دين له إلا اتباع هواه، فلا يخشى سطوة مولاه الذى ولاه، فمآل ملكه إلى الدمار، ونهاية عتوه إلى دار البوار، وقالت الحكماء: الملك يحتاج إلى كثير من الناس، وهم محتاجون إلى واحد، ولأجل ذلك، وجب أن يكون عارفًا بأخلاقهم ليردَّ اختلافهم إلى وفاقهم، ويعمهم بعدله ويغمرهم بفضله.

«واعلم أيها الملك أن أزدشير، وهو أول بنى ساسان، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس، قد ملك الأقاليم جميعها وقسمها أربعة أقسام، وجعل له من أجل ذلك أربعة خواتم لكل قسم خاتم: الأول خاتم البحر والشرطة والمحاماة، وكتب عليه النيابات، والثانى خاتم الخراج وجباية الأموال، وكتب عليه العمارة، والثالث خاتم القوت، وكتب عليه الرخاء، والرابع خاتم المظالم، وكتب عليه العدل، فبقيت واستمرت، هذه الرسوم فى الفرس إلى أن ظهر الإسلام.

«وكتب كسرى لابنه وهو فى جيشه: لا توسعنَّ على جيشك فيستغنوا عنك، ولا تضيق عليهم فيضجروا منك، واعطهم عطاء قصدًا، وامنحهم منحًا جميلاً، ووسع عليهم فى الرخاء، ولا تضيق عليهم فى الشدة، وروى أن أعرابيا جاء إلى المنصور وقال له: جوِّع كلبك يتبعك، فغضب المنصور من الأعرابى لما سمع منه هذا الكلام، فقال أبو العباس الطوسى: أخشى أن يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويتركك. فسكن غيظ المنصور وعلم أنها كلمة لا تخطئ، وأمر للأعرابى بعطية.

«واعلم أيها الملك، أن عبد الملك بن مروان كتب لأخيه عبد العزيز، حين وجهه إلى مصر: تفقد كتّابك وحجابك، فإن الثابت يخبرك عنه كتابك، والتوسيم تعرفك به حجابك، والخارج من عندك يعرفك بجيشك، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه، إذا استخدم خادمًا شرط عليه أربعة شروط: أن لا يركب البراذين، وأن لا يلبس الثوب الرقيق، وأن لا يأكل من الفىء، وأن لا يؤخر الصلاة عن وقتها.

«وقيل: لا مال أجود من العقل، ولا عقل كالتدبير، والحزم؛ ولا حزم كالتقوى، ولا قربة كحسن الخلق؛ ولا ميزان كالأدب، ولا فائدة كالتوفيق؛ ولا تجارة كالعمل الصالح؛ ولا ربح كثواب الله؛ ولا ورع كالوقوف عند حدود السنَّة؛ ولا حسب كالتواضع؛ ولا شرف كالعلم، فاحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، واذكر الموت والبلا.

«وقال على كرم الله وجهه: اتقوا أشرار النساء وكونوا منهنَّ على حذر، ولا تشاورهنَّ فى أمر، ولا تضيقوا عليهن فى معروف، ولا يطمعن فى الكرم، وقال: من ترك الاقتصاد حار عقله، وله آداب نذكرها إن شاء الله.

«وقال عمر رضى الله عنه: النساء ثلاثة، امرأة تقية ودود ولود، تعين بعلها على الدهر، ولا تعين الدهر على بعلها، وأخرى تراد للولد لا تزيد على ذلك، وأخرى غل يجعلها الله فى عنق من يشاء، والرجال أيضًا ثلاثة: رجل عاقل إذا أقبل على رأيه، وآخر أعقل منه، وهو من إذا نزل به الأمر لا يعرف عاقبته؛ فيأتى ذوى الرأى فينزل عند آرائهم، وآخر حائر لا يعلم رشدًا ولا يطيع مرشدًا.

«والعدل لا بد منه فى كل الأشياء، حتى إن الجوارى يحتجن إلى العدل، وضربوا لذلك مثلاً فى قطاع الطريق المقيمين على ظلم الناس، فإنهم لو لم يتناصفوا فيما بينهم ويستعملوا الواجب فى ما يقسمونه، لاختلَّ نظامهم، وبالجملة فسيد مكارم الأخلاق الكرم وحسن الخلق، وما أحسن قول الشاعر:

ببذل وحلمٍ ساد فى قومه الفتى ... وكونك إياه عليك يسير

وقال آخر:

ففى الحلم إتقان وفى العفو هيبة ... وفى الصدق منجاة لمن كان صادقا

ومن يلتمس حسن الثناء بماله ... يكن بالندى فى حلبة المجد سابق

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: ثم إن نزهة الزمان تكلمت فى سياسة الملوك حتى قال الحاضرون: «ما رأينا أحدا تكلم فى باب السياسة مثل هذا الجارية، فلعلها تسمعنا شيئًا من غير هذا الباب»، فسمعت نزهة الزمان ما قالوه وفهمته فقالت: «وأما باب الأدب فإنه واسع المجال لأنه مجمع الكمال، فقد اتفق أنه دخل على معاوية رجل من ندمائه فذكر أهل العراق وحسن رأيهم، وزوجته ميسون أم يزيد تسمع كلامهما. فلما انصرف قالت: يا أمير المؤمنين أحب أن تأذن للقوم من أهل العراق فى الدخول عليك ليتحدثوا معك، فأسمع حديثهم، فقال معاوية: انظروا من بالباب. فقالوا: بنو تميم، قال: ليدخلوا، فدخلوا ومعهم الأحنف بن قيس، فقال له معاوية: أقرب منى يا أبا بحر، وضرب بينهما ستر بحيث تسمع كلامهما فقال: يا أبا بحر كيف رأيك لى؟ قال: أفرق الشعر وقص الشارب وقلم الأظفار وانتف الإبط وأدم السواك، فإن فيه اثنتين وسبعين فضيلة، وغسل الجمعة كفارة لما بين الجمعتين.

«قال معاوية للأحنف بن قيس: كيف رأيك لنفسك؟ قال: أطأ بقدمى على الأرض وأنقلها على تمهل وأراعيها بعينى. قال: كيف رأيك إذا دخلت على نفر من قومك دون الأمراء؟ قال: أطرق حياء وأبدأ بالسلام وأدع ما لا يعنينى وأقل الكلام. قال: كيف رأيك إذا دخلت على نظرائك؟ قال: أستمع لهم إذا قالوا، ولا أجول عليهم إذا جالوا، فقال: كيف رأيك إذا دخلت على أمرائك؟ قال أسلم من غير إشارة وأنتظر الإجابة، فإن قربونى قربت، وإن أبعدونى بعدت، فقال معاوية: أحسنت فى الجواب فقل عن حاجتك، فقال: حاجتى أن تتقى الله فى الرعية وتعدل بينهم بالسوية، ثم نهض قائمًا من مجلس معاوية، فلما ولى قالت ميسون: لو لم يكن بالعراق إلا هذا لكفاه» ثم إن نزهة الزمان قالت: «وهذه النبذة من جملة باب الأدب».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: بلغنى أيها الملك السعيد أن نزهة الزمان قالت: «واعلم أيها الملك، أنه كان معيقب عاملاً على بيت المال، فى خلافة عمر بن الخطاب، فاتفق أنه رأى ابن عمر يومًا، فأعطاه درهما من بيت المال (قال معيقب): وبعد أن أعطيته الدرهم انصرفت إلى بيتى، فبينما أنا جالس، وإذا برسول عمر جاءنى، فرهبت منه وتوجهت إليه، فإذا الدرهم فى يده، فقال لى: ويحك يا معيقب إنى وجدت فى نفسك شيئًا، قلت: وما ذلك؟ قال: إنك تخاصم أمة محمد ﷺ فى هذا الدرهم يوم القيامة.

«وكتب عمر إلى أبى موسى الأشعرى كتابًا مضمونه: إذا جاءك كتابى هذا فأعط الناس الذى لهم واحمل إلىَّ ما بقي، ففعل فلما ولى عثمان الخلافة كتب إلى أبى موسى مثل ذلك، ففعل، وجاء زياد معه، فلما وضع الخراج بين يدى عثمان، جاء ولده فأخذ منه درهمًا، فبكى زياد، فقال عثمان: ما يبكيك؟ قال: أتيت عمر بن الخطاب بمثل ذلك، فأخذ ابنه درهمًا فأمر بنزعه من يده، وابنك أخذ، فلم أر أحدًا قال له شيئًا أو ينزعه منه، فقال عثمان: وأين تلقى مثل عمر.

«وروى زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال: خرجت مع عمر ذات ليلة، حتى أشرفنا على نار تضرم فقال: يا أسلم، إنى أحسب هؤلاء ركبًا أضر بهم البرد؛ فانطلق بنا إليهم، فخرجنا حتى أتينا إليهم، فإذا امرأة توقد نارًا تحت قدر ومعها صبيان يتضورون فقال عمر: السلام عليكم أصحاب الضوء، وكره أن يقول أصحاب النار، ما بالكم؟ قالت أضر بنا البرد والليل. قال: فما بال هؤلاء القوم يتضاغون؟ قالت: من الجوع، قال: فما هذه القدر؟ قالت: أسكتهم به، وإن عمر ابن الخطاب ليسأله الله عنهم يوم القيامة. قال: وما يدرى عمر بحالهم؟ قالت: كيف يتولى أمور الناس ويغفل عنهم. (قال أسلم) فأقبل عمر علىَّ وقال: انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الصرف، فأخرج عدلاً فيه دقيق وإناء فيه شحم، ثم قال: حملنى هذا. فقلت: أنا أحمله عنك يا أمير المؤمنين، فقال أتحمل عنى وزرى يوم القيامة؟ فحملته إياه، وخرجنا نهرول حتى ألقينا ذلك العدل عندها، ثم أخرج من الدقيق شيئًا وجعل يقول للمرأة: ترددى إلىَّ، وكان ينفخ تحت القدر، وكان ذا لحية عظيمة فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته حتى طبخ، وأخذ مقدارًا من الشحم فرماه فيه ثم قال: «أطعميهم وأنا أبرد لهم».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: «ولم يزالوا حتى أكلوا وشبعوا وترك الباقى عندهم، ثم أقبل علىَّ وقال: يا أسلم، إنى رأيت الجوع أبكاهم، فأحببت إن لا أنصرف حتى يتبين لى سبب الضوء الذى رأيته».

ثم إن نزهة الزمان قالت: «قيل أن عمر مرَّ فى أحد الأيام براع مملوك فاستباعه شاة فقال له: إنها ليست لى. فقال أنت القصد، فاشتراه ثم أعتقه، فقال: اللهم كما رزقتنى العتق الأصغر، فارزقنى العتق الأكبر.

«وقيل إن عمر بن الخطاب كان يطعم الحليب للخدم ويأكل الغليظ، ويكسوهم اللين

ويلبس الخشن، ويعطى الناس حقوقهم ويزيد فى إعطائهم، وأعطى رجلاً أربعة آلاف درهم وزاده ألفًا، فقيل له: أما تزيد ابنك كما زدت هذا؟ قال: هذا ثبت والده يوم أحد.

«وقال الحسن: أتى عمر بمال كثير، فأتته حفصة، فقالت له: يا أمير المؤمنين حق قرابتك، فقال: يا حفصة، انما أوصي الله بحق قرابتى من مالى؛ وأما مال المسلمين فلا، يا حفصة قد أضريت قومك وأغضبت أباك، فقامت تجر ذيلها.

«وقال ابن عمر: تضرعت إلى ربى سنة من السنين أن يرينى أبى حتى رأيته يمسح العرق عن جبينه، فقلت له: «ما حالك يا والدى؟ فقال: لولا رحمة الله لهلك أبوك».

ثم قالت نزهة الزمان: «اسمع أيها الملك السعيد، الفصل الثانى من الباب الأول من أخبار التابعين وسائر الصالحين، قال الحسن البصرى: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا وهو يتأسف على ثلاثة أشياء: عدم تمتعه بما جمع، وعدم إدراكه لما أمل، وعدم استعداده بكثرة الزاد لما هو قادم عليه، وقيل لسفيان: أيكون الرجل زاهدًا وله مال؟ قال: نعم إذا كان متى ابتلى صبر، وإذا أعطى شكر، وقيل إنه لما حضرت عبدالله بن شداد الوفاة، أحضر ولده محمدًا فأوصاه وقال له: يا بنى إنى لأرى داعى الموت قد دعانى. فعليك بتقوى الله فى السر والعلانية، والشكر لله على ما أنعم، والصدق فى الحديث، فالشكر يؤذن بازدياد النعم، والتقوى خير زاد فى المعاد كما قال بعضهم:

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكنَّ التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد حقا ... وعند الله تلقى ما تريد

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: ثم قالت نزهة الزمان: «ليسمع الملك هذه النكت من الفصل الثانى من الباب الأول». قيل لها: «وما هى؟» قالت: «لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، جاء أهل بيته، فأخذ ما بأيديهم ووضعه فى بيت المال، ففزعت بني أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان، فأرسلت إليه قائلة إنه لا بد من لقائك، ثم أتته ليلاً فأنزلها عن دابتها، فلما أخذت مجلسها قال لها: يا عمة أنت أولى بالكلام، لأن الحاجة لك، فأخبرينى عن مرادك، فقالت: يا أمير المؤمنين أنت أولى بالكلام، ورأيك يستشف ما يخفى عن الأفهام، فقال عمر بن عبد العزيز: إن الله تعالى بعث محمدًا رحمة لقوم وعذابًا على آخرين، ثم اختار له ما عنده فقبضه إليه، وترك للناس نهرًا يشربون منه، ثم قام أبو بكر الصديق خليفة بعده، فترك النهر على حاله وعمل ما يرضي الله، ثم قام عمر مقامه، فعمل عملاً واجتهد اجتهادًا ما يقدر أحد على مثله، فلما قام عثمان، اشتق من النهر نهرًا، ثم ولى معاوية فاشتق الأنهار منه، ثم لم يزل كذلك يشتق منه يزيد وبنو مروان كعبد الملك والوليد وسليمان ويبس النهر الأعظم، حتى آل الأمر إلىَّ، فأحببت أن أردّ النهر إلى ما كان عليه، فقالت: قد أردت كلامك ومذاكراتك فقط، فإن كانت هذه مقالتك، فلست بذاكرة لك شيئًا، ورجعت إلى بنى أمية فقالت لهم: ذوقوا عاقبة أمركم بتزويجكم إلى عمر.

«وقيل: لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة جمع أولاده حوله، فقال له مسلمة بن عبد الملك: يا أمير المؤمنين كيف تترك أولادك فقراء وأنت راعيهم؟ فما يمنعك أحد فى حياتك من أن تعطيهم من بيت المال ما يغنيهم، وهذا أولى من أن ترجعه إلى الوالى بعدك، فنظر إلى مسلمة نظر مغضب متعجب ثم قال: يا مسلمة، منعتهم أيام حياتى، فكيف أشقى بهم بعد مماتى، إن أولادى ما بين رجلين: إما مطيع لله تعالى فالله يصلح شأنه، وإما عاص، فما كنت لأعينه على معصية، يا مسلمة، إنى حضرت وأباك حين دفن بعض بنى مروان، فحملتنى عينى عنده، فرأيته فى المنام أفضى إلى أمر من أمور الله عز وجل فهالنى وراعنى، فعاهدت الله أن لا أعمل عمله إن وليت وقد اجتهدت فى ذلك مدة حياتى، وأرجو أنى أفضى إلى عفو ربى، قال مسلمة: توفى رجل حضرت دفنه، فلما فرغت من دفنه حملتنى عينى، فرأيته فيما يرى النائم فى روضة فيها أنهار جارية، وعليه ثياب بيض، فأقبل علىَّ وقال: يا مسلمة، لمثل هذا فليعمل العاملون، ونحو هذا كثير.

«وقال بعض الثقات: كنت أحلب الغنم فى خلافة عمر بن عبد العزيز، فمررت براع فرأيت فى غنمه ذئبًا أو ذئابًا، فظننت أنها كلابها، ولم أكن رأيت الذئاب قبل ذلك، فقلت: ما تصنع بهذه الكلاب؟ فقال إنها ليست كلابًا بل هى ذئاب، فقلت: هل ذئاب فى غنم لم تضرها؟ فقال: إذا صلح الرأس صلح الجسد.

«وخطب عمر بن عبد العزيز على منبر من الطين، فحمد الله تعالى وأثنى عليه. ثم تكلم بثلاث كلمات فقال: أيها الناس، أصلحوا أسراركم لتصلح علانيتكم لإخوانكم وتكفوا أمر دنياكم، واعلموا أن الرجل ليس بينه وبين آدم رجل حى فى الموتى، مات عبد الملك ومن قبله ويموت عمر ومن بعده، فقال له مسلمة: يا أمير المؤمنين، لو عملنا لك متكأ لتعتمد عليه قليلاً؟ فقال: أخاف أن يكون فى عنقى منه إثم يوم القيامة ثم شهق شهقة فخر مغشيًا عليه، فقالت فاطمة: يا مريم، يا مزاحم، يا فلان، انظروا إلى هذا الرجل، فجاءت فاطمة تصب عليه الماء وتبكى حتى أفاق من غشيته، فرآها تبكى فقال: ما يبكيك يا فاطمة؟ قالت: يا أمير المؤمنين، رأيت مصرعك بين أيدينا، فتذكرت مصرعك بين يدى الله تعالى للموت وتخليك عن الدنيا وفراقك لنا، فذاك الذى أبكانى، فقال: حسبك يا فاطمة فلقد أبلغت، ثم قام فسقط، فضمته فاطمة إليها وقالت: بأبى أنت وأمى يا أمير المؤمنين، ما نستطيع أن نكلمك كلنا».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: ثم إن نزهة الزمان قالت لأخيها شركان، وهى لا تعرفه، وللقضاة الأربعة، تتمة الفصل الثانى من الباب الأول: «اتفق أنه كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الموسم: أما بعد فإنى أشهد الله فى الشهر الحرام والبلد الحرام ويوم الحج الأكبر، أبرأ من ظلمكم وعدوان من اعتدى عليكم أن أكون أمرت بذلك أو تعمدته، أو يكون أمر من أموره بلغنى أو أحاط به علمى، وأرجو أن يكون لذلك موضع من الغفران، إلا أنه لا إذن منى بظلم أحد، فإنى مسؤول عن كل مظلوم، وأى عامل من عمالى زاغ عن الحق وعمل بلا كتاب ولا

سنة، فلا طاعة له عليكم حتى يرجع إلى الحق، وقال رضى الله عنه: ما أحب أن يخفف عنى الموت، لأنه آخر ما يؤجر عليه المؤمن.

«وقال بعض الثقات: قدمت على أمير المؤمنين عمر بن العزيز وهو خليفة، فرأيت بين يديه اثنى عشر درهمًا، فأمر بوضعها فى بيت المال، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنك أفقرت أولادك وجعلتهم عيالاً لا شىء لهم، فلو أوصيت لهم بشىء، وإلى من هو فقير من أهل بيتك؟ فقال: ادن منى، فدنوت منه فقال: أما قولك أفقرت أولادك فأوص إليهم أو إلى من هو فقير من أهل بيتك فغير سديد، لأن الله خليفتى على أولادى وعلى من هو فقير من أهل بيتى، وهو كفيل عليهم، وهم ما بين رجلين: إما رجل يتقى الله فسيجعل الله له مخرجًا، وإما رجل معتكف على المعاصى، فإنى لم أكن لأقويه على معصية الله. ثم بعث إليهم وأحضرهم بين يديه وكانوا اثنى عشر ذكرًا فلما نظر إليهم ذرفت عيناه بالبكاء ثم قال: إن أباكم ما بين أمرين: إما أن تستغنوا فيدخل أبوكم النار؛ وإما أن تفتقروا، فيدخل أبوكم الجنة، ودخول أبيكم الجنة أحب إليه من أن تستغنوا، قوموا عصمكم الله، فقد وكلت أمركم إلى الله.

«وقال خالد بن صفوان: صحبنى يوسف بن عمر إلى هشام بن عبد الملك، فلما قدمت عليه، وقد خرج بقرابته وخدمه، نزل فى أرض وضربت له خيمة، فلما أخذت الناس مجالسهم، خرجت من ناحية البساط فنظرت إليه، فلما صارت عينى فى عينه قلت له: أتمَّ الله نعمته عليك يا أمير المؤمنين، وجعل ما قلدك من هذه الأمور رشدًا، ولا خالط سرورك أذى، ولم أجد لك نصيحة يا أمير المؤمنين أبلغ من حديث من سلف من قبلك من الملوك.

«فاستوى جالسًا وكان متكئًا وقال: هات ما عندك يا ابن صفوان، فقال: يا أمير المؤمنين إن ملكًا من الملوك خرج قبلك فى عام، قبل عامك هذا، إلى هذه الأرض فقال لجلسائه: هل رأيتم مثل ما أنا فيه؟ وهل أعطى أحد مثل ما أعطيته؟ وعنده رجل من بقايا الحجبة والمعينين على الحق، السالكين فى منهاجه، فقال: أيها الملك، إنك سألت عن أمر عظيم، أتأذن لى فى الجواب عنه؟ قال: نعم، قال: أرأيت الذى أنت فيه شيئًا لم يزل أم شيئًا زائلاً؟ فقال: هو شىء زائل، قال: فما لى أراك قد أعجبت بشىء تكون فيه قليلاً وتسأل عنه طويلاً، وتكون عند حسابه مرتهنًا؟ قال: فأين المهرب وأين المطلب؟ قال: أن تقيم فى ملكك، فتعمل على إطاعة الله تعالى، أو تلبس أطمارك وتعبد ربك حتى يأتيك أجلك، فإذا كان السَّحَر فإنى قادمٌ عليك.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: «قال خالد بن صفوان: ثم إن الرجل قرع عليه بابه عند السحر، فإذا هو قد وضع تاجه وتهيأ للسياحة من عظم موعظته، فبكى هشام بن عبد الملك بكاء كثيرًا حتى بل لحيته، وأمر بنزع ما عليه ولزم قصره، فأتت الموالى والخدم إلى خالد بن صفوان وقالوا: أهكذا فعلت بأمير المؤمنين؟ أفسدت لذته ونغصت حياته؟».

ثم إن نزهة الزمان قالت لشركان: «وكم فى هذا الباب من نصائح! إنى لأعجز عن الإتيان بجميع ما فى هذا الباب فى مجلس واحد، ولكن على طول الأيام يا ملك الزمان يكون

خير» فقال القضاة: «أيها الملك إن هذا الجارية أعجوبة الزمان، ويتيمة العصر والأوان، وما سمعنا بمثلها فى زمن من الأزمان»، ثم إنهم دعوا للملك وانصرفوا.

فعند ذلك التفت شركان إلى خدامه، وقال لهم: «اشرعوا فى عمل العرس وهيئوا الطعام من جميع الألوان»، ففى الحال امتثلوا أمره وهيأوا جميع الأطعمة. وأمر نساء الأمراء والوزراء وأرباب الدولة أن لا ينصرفن حتى يحضرن الجلاء والعرس، فما جاء وقت العصر حتى مدَّت السفرة ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين عن مشوى وأوز ودجاج، وأكل جميع الناس حتى اكتفوا، ورسموا لكل مغنية فى دمشق فحضرن وكذلك جوارى الملك شركان الكبار اللاتى يعرفن الغناء، وطلع جميعهنَّ إلى القصر.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فلما أتى المساء وأظلم الظلام، أوقدوا الشموع من باب القلعة إلى باب القصر يمينًا وشمالاً، ومشى الأمراء والوزراء والكبراء بين يدى الملك شركان، وأخذت المغانى والمواشط الصبية لتزينها وتلبسها، فرأتها لا تحتاج إلى زينة، وكان الملك شركان قد دخل الحمام، فلما خرج جلس على المنصة وجليت عليه العروس سبع خلع.

فلما أصبح جلس على الكرسى، وطلع له أرباب دولته وهناوه، وأحضر كاتب سره، وأمره أن يكتب كتابا لوالده عمر بن النعمان بأنه اشترى جارية ذات علم وأدب قد حوت فنون الحكمة، وأنه لا بدَّ من إرسالها إلى بغداد لتزور أخاه ضوء المكان وأخته نزهة الزمان، وأنه أعتقها وكتب كتابه عليها وحملت منه، وشكر عقلها، وأن يسلم على أخوته ووزيره دندان وعلى سائر الأمراء، وختم الكتاب وأرسله إلى أبيه صحبة بريد فغاب ذلك البريد شهرًا كاملاً، ثم رجع إليه بالجواب وناوله إياه فأخذه وقرأه.

وقد جاء فيه بعد البسملة: «هذا من عند الحائر الولهان الذى فقد الولدان، وهجر الأوطان، الملك عمر بن النعمان، إلى ولده شركان، اعلم إنه بعد مسيرك من عندى، ضاق علىَّ المكان حتى لا استطيع صبرًا، ولا أقدر أن أكتم سرا، وسبب ذلك أنى ذهبت إلى الصيد والقنص، وكان ضوء المكان قد طلب منى الذهاب إلى الحجاز، فخفت عليه نوائب الزمان ومنعته من السفر إلى العام الثانى أو الثالث.

«فلما ذهبت إلى الصيد والقنص غبت شهرًا كاملاً، فلما أتيت وجدت أخاك وأختك أخذا شيئًا من المال وسافرا مع الحجاج إلى الحج خفية، فلما علمت بذلك ضاق بى الفضاء، وأنى يا ولدى قد انتظرت مجئ الحجاج لعلهما يجيئان معهم، فلما جاء الحجاج سألت عنهما فما أخبرنى عنهما أحد، فلبست لأجلهما ثياب الحزن، وأنا مرهون الفؤاد عادم الرقاد غريق دمع العين».

وأنشد يقول:

خيالهما ما ليس يبرح ساعة	**جعلت له القلب أشرف موضع**
ولولا رجاء العود ما عشت ساعة	**ولولا خيال الطيف لم أتهجع**

ثم كتب من جملة المكتوب: «وبعد السلام عليك وعلى من عندك، أعرفك أنك لا تتهاون فى كشف الأخبار، فإن هذا عار علينا».

فلما قرأ الكتاب حزن على أبيه، وفرح لفقد أخته وأخيه، وأخذ الكتاب ودخل به على زوجته نزهة الزمان، ولم يعلم أنها أخته، وهى لا تعلم أنه أخوها، إلى أن كملت أشهرها وجلست على كرسى الطلق، فسهل الله عليها الولادة فولدت بنتًا، وأرسلت تطلب شركان، فلما رآته قالت له: «هذه بنتك فسمها ما تريد» فقال: «عادة الناس أن يسموا أولادهم فى سابع يوم من ولادتهم»، ثم انحنى شركان على ابنته وقبَّلها، فوجد فى عنقها خرزة معلقة من الثلاثة الخرزات التى جاءت بها الملكة أبريزة من بلاد الروم.

فلما عاين الخرزة معلقة فى عنق ابنته، غاب عقله ولحقه الغيظ وحملق عينيه وعرف الخرزة حق المعرفة، ثم نظر إلى نزهة الزمان وقال لها: «من أين جاءتك هذه الخرزة يا جارية؟» فلما سمعت من شركان هذا الكلام قالت له: «أنا سيدتك وسَيدة كل من فى قصرك، أما تستحى وأنت تقول يا جارية، وأنا ملكة بنت ملك، والآن زال الكتمان، واشتهر الأمر وبان، أنا نزهة الزمان بنت الملك عمر بن النعمان.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية تعارف شركان بأخته نزهة الزمان

قالت شهرزاد: فما سمع منها هذا الكلام لحقه الارتعاش وأطرق برأسه إلى الأرض، وعرف أنها أخته من أبيه، فغاب عن الدنيا، فلما أفاق صار يتعجب ولكنه لم يعرفها بنفسه فقال لها: «يا سيدتى، هل أنت بنت الملك عمر بن النعمان؟» قالت: «نعم» فقال لها: «احكى لى عن سبب فراقك لوالدك وبيعك»، فحكت له جميع ما جرى لها من الأول إلى الآخر، وأخبرته أنها تركت أخاها مريضًا فى القدس، وباختطاف البدوى لها وبيعه إياها للتاجر.

فلما سمع شركان هذا الكلام، تحقق أنها أخته من أبيه وقال فى نفسه: «كيف أتزوج بأختى؟ ولكن والله لا بد أن أزوجها لواحد من حجابى، وإذا ظهر أمر أدعى أنى طلقتها وزوجتها بالحاجب الكبير»، ثم رفع رأسه وتأسف وقال: «يا نزهة الزمان أنت أختى حقيقة، وأنا أقول أستغفر الله من هذا الذنب الذى وقعنا فيه، فإنى أنا شركان ابن الملك عمر بن النعمان»، فنظرت إليه وحققته، فلما عرفته غابت عن صوابها وبكت ولطمت وجهها وقالت: «لا حول ولا قوة إلا بالله، قد وقعنا فى ذنب عظيم، ماذا يكون العمل وما أقول لأبى وأمى؟» فقال شركان: الرأى أن أزوجك بالحاجب، وأدعك تربى بنتى عنده فى بيته، بحيث لا يعلم أحد بأنك أختى، وهذا الذى قدره الله تعالى علينا لأمر أراده، فما يسترنا إلا زواجك بهذا الحاجب قبل أن يدرى أحد» ثم صار يأخذ بخاطرها ويقبل رأسها، فقالت له: «وما تسمى البنت؟» قال: «نسميها قضى فكان».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

ثم زوج نزهة الزمان للحاجب الكبير ونقلها إلى بيته، هى وبنتها قضى فكان، فربوها على أكتاف الجوارى، وواظبوا على الأشربة وأنواع السفوف، هذا كله وأخوها ضوء المكان مع الوقاد بدمشق، فلما كان يوم من الأيام، أقبل بريد من عند الملك عمر بن النعمان من عند الملك شركان ومعه كتاب، فأخذه وقرأه وإذا فيه بعد البسملة: «اعلم أيها الملك العزيز، أنى حزين حزنًا شديدًا، على فراق الأولاد، وعدمت الرقاد، ولازمنى السهاد، وقد أرسلت هذا الكتاب إليك، فحال وصول هذا الكتاب تجهز لنا المال والخراج وترسل صحبته الجارية التى اشتريتها وتزوجت بها، فإنى أحببت أن أراها وأسمع كلامها، لأنه جاءنا من بلاد الروم عجوز من الصالحات، وصحبتها خمس جوار قد حزن من العلم والأدب وفنون الحكمة، ما يجب على الإنسان معرفته. «ويعجز عن وصف هذه العجوز ومن معها اللسان، فإنهنَّ حزن أنواع الفضيلة والحكمة، فلما رأيتهن أحببتهنَّ، وقد اشتهيت أن يكنَّ فى قصرى وفى ملك يدى، لأنهنَّ لا يوجد لهن نظير عند سائر الملوك، فسألت المرأة العجوز عن ثمنهن، فقالت: لا أبيعهن إلا بخراج دمشق، وأنا ما رأيت هذا كثيرًا فى ثمنهن، فإن الواحدة منهنَّ تساوى الثمن جميعه. فأجبتها إلى ذلك، فعجل لنا بالخراج لأجل أن تسافر المرأة إلى بلادها، وأرسل إلينا الجارية لأجل أن تناظرهن بين العلماء، فإذا غلبتهن أرسلتها لك وصحبتها خراج بغداد» فلما علم بذلك شركان أقبل على صهره وقال له: «هات الجارية التى زوجتك إياها». فلما حضرت أوقفها على الكتاب وقال لها: «يا أختى ما عندك من الرأى فى رد الجواب؟» قالت له: «الرأى رأيك» ثم قالت له وقد اشتاقت إلى أهلها ووطنها: «أرسلنى صحبة زوجى الحاجب، لأحكى لأبى حكايتى، وأخبره بما وقع لى مع البدوى الذى باعنى للتاجر، وأخبره بأن التاجر باعنى لك، وأنت زوجتنى للحاجب بعد عتقى». فقال لها شركان: «وهو كذلك» فأخذ شركان ابنته قضى فكان وسلمها للمراضع والخدم. وشرع فى تجهيز الخراج وأعطاه للحاجب وأمره بالسير مع الجارية والخراج إلى بغداد، ورسم له الجمال والبغال، وكتب كتابًا وسلمه إلى الحاجب وودَّع أخته نزهة الزمان، وكان أخذ منها الخرزة وجعلها فى عنق ابنته فى سلسلة من خالص الذهب.

حكاية سفر ضوء المكان
مع الوقاد إلى بغداد

وسافر الحاجب فى تلك الليلة، فاتفق أنه خرج ضوء المكان، وكان معه الوقاد، يتفرجان تحت الطارمة، فرأيا جمالا وبخاتى وبغالا محملة، ومشاعل وفوانيس مضيئة، فسأل ضوء المكان عن هذه الأحمال وعن صاحبها، فقالوا له: «هذا خراج دمشق مسافر إلى الملك عمر بن النعمان، صاحب مدينة بغداد»، فقال: «ومن هو رئيس هذه المحامل؟» قيل: «هو الحاجب الكبير الذى تزوَّج الجارية التى تعلمت العلم والحكمة».

فعند ذلك بكى بكاءً شديدًا، وافتكر وتذكر أمه وأباه وأخته ووطنه وقال للوقاد: «ما بقى لى هنا قعود، بل أسافر مع هذه القافلة، وأمشى قليلاً حتى أصل إلى بلادى»، فقال له الوقاد: «أنا ما أمنت عليك من القدس إلى دمشق فكيف آمن عليك إلى بغداد؟ فأنا أكون معك وصحبتك حتى تصل إلى مقصدك»، فقال ضوء المكان: «حبا وكرامة» فشرع الوقاد فى تجهيز

حاله وشد له حمارًا، وجعل خرجه على حماره وجعل فيه شيئًا من الزاد، وشد وسطه وتأهب ووقف حتى جازت عليه الأحمال، والحاجب راكب على هجين والمشاة حوله، وركب ضوء المكان حمار الوقاد وقال للوقاد: «اركب معى» فقال: «لا أركب ولكن أكون فى خدمتك» فقال ضوء المكان: «لا بد أن تركب الساعة»، فقال له: «إذا تعبت أركب»، ثم إن ضوء المكان قال له: «سوف تنظر يا أخى ما أفعل بك إذا وصلت إلى أهلى» وما زالوا مسافرين إلى أن طلعت الشمس.

فلما جاء وقت القائلة أمرهم الحاجب بالنزول، فنزلوا واستراحوا وسقوا جمالهم، ثم أمرهم بالمسير، وبعد خمسة أيام وصلوا إلى مدينة حماة، فنزلوا وأقاموا فيها ثلاثة أيام.

ثم سافروا حتى دخلوا ديار بكر، وهب عليهم نسيم بغداد، فتذكر ضوء المكان أخته نزهة الزمان وأباه وأمه ووطنه، وكيف يرجع إلى أبيه بغير أخته، فبكى، وأنَّ واشتكى، واشتدت به الحسرات، فأنشد يقول هذه الأبيات:

خليلى كم هذا التأنى وأصبر ... ولم يأتنى منكم رسول يخبر
إلا أن أيام الوصال قصيرة ... فيا ليت أيام التفرق تقصر
خذوا بيدى ثم اكشفوا الثوب تنظروا ... ضنى جسدى لكننى أتستر
فإن تطلبوا منى سلوًا أقل لكم ... والله ما أسلو إلى حين أحشر

فقال له الوقاد: «اترك هذا البكاء والأنين، فإننا قريبان من خيمة الحاجب»، فقال ضوء المكان: «لا بد من إنشادى شيئًا من الشعر لعل نار قلبى تنطفىء»، فقال له الوقاد: «بالله عليك يا ولدى اترك الحزن حتى تصل إلى بلادك، وافعل بعد ذلك ما شئت، وأنا معك حيث كنت»، فقال ضوء المكان: «والله لا أفتر عن ذلك»، ثم التفت بوجهه ناحية بغداد، وكان القمر مضيئًا مسبلاً أنواره، ونزهة الزمان لم تنم تلك الليلة، فقلقت وتذكرت أخاها ضوء المكان وبكت، فبينما هى تبكى إذ سمعت أخاها ضوء المكان يبكى، وهو ينشد هذه الأبيات:

لمع البرق اليمانى ... فشجانى ما شجانى
من حبيب كان عندى ... ساقيًا كأس التهانى
يا وميض البرق هلم ... ترجع أيام التدانى
يا عذولى لا تلمنى ... أن ربى قد بلانى
بحبيب غاب عنى ... وزمان قد دهانى
قد نأت نزهة قلبى ... عند ما ولى زمانى
وحوى لى الهم صرفًا ... وبكأس قد سقانى
وأرانى يا خليلى ... ميتًا قبل التدانى
يا زمانى بالتصابى ... عد قريبًا بالتهانى
فى سرور مع أمان ... من زمان قد رمانى
من لمسكين غريبٌ ... بات مرعوب الجنان
ظل فى الحزن فريدًا ... بعد نزهات الزمان
حكمت فينا برغم ... كف أولاد الزوانى

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فلما فرغ ضوء المكان من شعره صاح وخرَّ مغشيًا عليه.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر نزهة الزمان، فإنها كانت ساهرة فى تلك الليلة لأنها تذكرت أخاها فى ذلك المكان، فلما سمعت ذلك الصوت بالليل، ارتاح فؤادها وقامت وتنحنحت ودعت الخادم، فقال لها: «ما حاجتك؟» فقالت له: «قم وأتنى بهذا الذى ينشد هذه الأشعار»، فقال لها الخادم: «إنى لم أسمعه ولم أعرفه، والناس كلهم نائمون»، فقالت له: «كل من رأيته مستيقظًا فهو الذى ينشد الأشعار».

ففتش فلم ير مستيقظًا سوى الرجل الوقاد وضوء المكان فإنه كان فى غشيته، فلما رأى الوقاد الخادم واقفًا فوق رأسه، خاف منه، فقال له الخادم: «هل أنت الذى كنت تنشد الشعر، وقد سمعتك سيدتنا؟» فاعتقد الوقاد أنها اغتاظت من إنشاد الشعر فخاف وقال له: «والله ما هو أنا». فقال له الخادم: «ومن هو الذى كان ينشد؟ فدلنى عليه، فأنت تعرفه لأنك يقظان»، فخاف الوقاد على ضوء المكان وقال فى نفسه: «ربما أن الخادم يقره بشىء»، فقال: «لا أعرفه» فقال له الخادم: «والله إنك تكذب، فليس هنا أحد يقظا إلا أنت، فأنت تعرفه»، فقال الوقاد: «والله أنا أقول الحق، إن الذى كان ينشد الأشعار رجل عابر طريق، وهو الذى أزعجنى وأقلقنى، فالله يجازيه»، فقال له الخادم: «إذا كنت تعرفه فدلنى عليه، وأنا أمسكه وأجىء به إلى سيدتنا، أو أمسكه أنت بيدك»، فقال له: «اذهب أنت حتى آتيك به». فاقتنع الخادم بما قاله الوقاد وانصرف، ودخل على سيدته وأعلمها بذلك وقال: «ما أحد يعرفه يا سيدتى وما هو إلا عابر سبيل» فسكتت.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



قالت شهرزاد: وأما ضوء المكان، فإنه لما أفاق من غشيته، رأى القمر وصل إلى وسط السماء، وهبَّ عليه نسيم الأسحار فهيج فى قلبه البلابل والأشجان، فحسن صوته وأراد أن ينشد فقال له الوقاد: «ماذا تريد أن تصنع؟» فقال له: «أريد أنشد شيئًا من الشعر لأطفىء به نار قلبى»، قال له: «أنت علمت بما جرى لى؟ وما سلمت من القتل إلا لأنى استرضيت خاطر الخادم»، فقال له ضوء المكان: «وماذا كان فأخبرنى بما وقع؟» فقال: «يا سيدى قد أتانى الخادم، وأنت مغشى عليك، ومعه عصًا طويلة من اللوز، وظل يتطلع فى وجوه الناس وهم نائمون، وهو يسأل عمن كان ينشد الأشعار، فلم يجد أحدًا مستيقظًا غيرى فسألنى، فقلت له: إنه كان عابر سبيل، فانصرف وسلمنى الله منه، وإلا كان قتلنى، ثم قال لى: إذا سمعته ثانيًا فأت به إلينا».

فلما سمع ضوء المكان ذلك بكى وقال من يمنعنى من الإنشاد: وليجر علىَّ ما يجرى، فإنى قربت من بلادى وما أبالى بأحد»، فقال له الوقاد: «أنت ما مرادك إلا هلاك نفسك»، فقال له ضوء المكان: «لا بد من إنشادى»، فقال له الوقاد: «قد وقع الفراق بينى وبينك من هنا، وكان فى نيتى أن لا أفارقك حتى تدخل مدينتك وتجتمع بأبيك وأمك، وقد مضى لك عندى سنة ونصف ما حصل لك منى ما يضرك، فما الذى اهتاجك على الإنشاد، ونحن فى غاية

التعب من المشى والسهر، والناس قد هجعوا ليستريحوا من التعب وهم محتاجون إلى النوم؟» فقال ضوء المكان: «لا أرجع عما أنا فيه»، ثم حركته الأشجان، فباح بالكتمان، وجعل ينشد هذه الأبيات:

قف بالديار وحى الأربع الدرسا	**ونادها فعساها أن تجيب عسى**
فإن أجنك ليل من توحشها	**أوقد من الشوق فى ظلماتها قبسا**
إن صر صل عذرايه فلا عجب	**أن يجتنى لسمًا إن اجتنى لعسا**
يا جنة فارقتها النفس مكرهة	**لولا التأسى بدار الخلد مت أسى**

وأنشد أيضًا هذين البيتين:

كنا وكانت لنا الأيام خادمة	**والشمل مجتمع فى أبهج الوطن**
من لى بدار أحبائى وكان بها	**ضوء المكان وفيها نزهة الزمن**

فلما فرغ من شعره، صاح ثلاث صيحات ثم وقع على الأرض مغشيًا عليه، فقام الوقاد وغطاه، فلما سمعت نزهة الزمان الإنشاد الأول، تذكرت أباها وأمها وأخاها، ولما سمعت الإنشاد الثانى المتضمن لذكر اسمها واسم أخيها ومعاهدهما، بكت وصاحت على الخادم وقالت له: «ويلك إن الذى أنشد أولاً أنشد ثانيًا، وسمعته قريبًا منى، والله إن لم تأتنى به لأنبهنَّ الحاجب فيضربك ويطردك، ولكن خذ هذه المائة دينار واعطه إياها، وأتنى به برفق ولا تضره، فإن أبى، فادفع له هذا الكيس وفيه ألف دينار، فإن أبى، فاتركه واعرف مكانه وصنعته ومن أى البلاد هو، وارجع إلىَّ بسرعة ولا تغب».

ثم قالت له: «إياك أن ترجع إلىَّ وتقول: ما وجدته» فخرج الخادم يضرب فى الناس ويدوس فى الخيم، فلم يجد أحدًا مستيقظًا، وجميع الناس من التعب نائمون، فجاء إلي الوقاد فوجده قاعدًا مكشوف الرأس، فدنا منه ومسك يده وقال له: «أنت الذى كنت تنشد الشعر؟» فخاف علي نفسه وقال: «لا والله يا مقدم القوم ما هو أنا» فقال له: «لا أتركك حتى تدلنى عليه، لأنى أخاف من سيدتى إذا أنا رجعت إليها بغيره».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فلما سمع الوقاد كلام الخادم، خاف على ضوء المكان وبكى بكاءً شديدًا وقال للخادم: «والله ما هو أنا ولا أعرفه، وإنما سمعت إنسانًا عابر سبيل ينشد، فلا تدخل فى خطيئتى، فإنى غريب وجئت معكم من بلاد القدس والخليل»، فقال له الخادم: «قم أنت معى واحك لسيدتى بفمك، فإنى ما رأيت أحدًا مستيقظًا غيرك»، فقال له الوقاد: «أما جئت ورأيتنى فى هذا الموضع الذى أنا فيه قاعد، وعرفت مكانى، وما أحد يقدر أن ينفك عن موضعه إلا أمسكته الحراس؟ فامض أنت إلى مكانك، وإن عدت سمعت أحدًا من هذه الساعة ينشد شيئًا من الشعر، سواء كان بعيدًا أو قريبًا، فيكون أنا أو واحدًا أعرفه، فلا تعرفه إلا منى» ثم إنه قبَّل رأس الخادم واستعطفه.

فتركه الخادم ودار دورة، وجاء فاستتر ووقف من وراء الوقاد، وخاف أن يرجع إلى

سيدته بلا فائدة، فقام الوقاد إلى ضوء المكان ونبهه وقال له: «قم أجلس حتى أحكى لك ما جرى»، فقام فحكى له ما وقع، فقال له: «دعنى، ما عدت أفكر ولا أبالى بأحد؛ فإن بلادى قريبة»، فقال الوقاد لضوء المكان: «لأى شىء أنت مطاوع نفسك والشيطان؟ وأنت لا تخاف من أحد، وأنا خائف عليك وعلى نفسى، فبالله عليك أنك لا تتكلم بشىء من الشعر حتى تدخل إلى بلدك، فإنى ما كنت أظنك على هذه الحالة، أما علمت أن هذه السيدة زوجة الحاجب تريد زجرك لأنك أقلقتها، وكأنها مريضة أو سهرانة من تعب السفر وبعد المسافة، وهذه ثانى مرة ترسل الخادم يفتش عليك».

فلم يلتفت ضوء المكان إلى كلام الوقاد، بل صاح ثالثًا وأنشد يقول هذه الأبيات:

تركت كل لائم	ملامه أقلقنى
يعذلنى وما درى	بأنه حرضنى
قال الوشاة قد سلا	قلت لحب الوطن
قالوا فما أحسنه	قلت فما أعشقنى
قالوا فما أعزه	قلت فما أذلنى
هيهات أن أتركه	لو ذقت كأس الشجن
وما أطعت لائما	لى فى الهوى يعذلنى

فلما أنشد شعره، كان الخادم يسمعه وهو مستخفٍ، فما فرغ من شعره وانتهى إلا والخادم على رأسه، فلما رآه الوقاد، فر ووقف بعيدًا ينظر ما يقع بينهما، فقال له الخادم: «السلام عليكم يا سيدى». فقال ضوء المكان: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»، فقال الخادم: «يا سيدى، إنى أتيت إليك فى هذه الليلة ثلاث مرات، لأن سيدتى تدعوك إليها». قال: «ومن تكون هذه التى تطلبنى؟ لعنها الله ولعن زوجها معها» وأوسع الخادم شتمًا. فما قدر الخادم أن يرد عليه جوابًا لأنها أوصته أن لا يؤذيه ولا يحضره إلا بمراده، وإن لم يأت معه فيعطيه المائة الدينار، فجعل الخادم يلين له الكلام ويقول له: «يا سيدى، خذ هذه واذهب معى، يا ولدى نحن ما أخطأنا معك ولا جرنا عليك، فالقصد أن تصل بخطواتك الكريمة معى إلى سيدتى، تأخذ منها جوابًا وترجع بسلامة، ولك عندنا بشارة عظيمة». فلما سمع ذلك الكلام قام ومشى بين الناس وتخطاهم، والوقاد ماش خلفه وناظر إليه وهو يقول فى نفسه: «يا خسارة شبابه فى غد يشنقونه»، وما زال الوقاد ماشيًا وراءهما حتى قرب من مكانهم، وهم لا يرونه ووقف وهو يرتجف من الخوف وقال: «ما يكون أخسه، إن كان يقول عنى أنى أشرت عليه أن ينشد الأشعار».

هذا ما كان من أمر الوقاد، وأما ما كان من أمر ضوء المكان، فإنه ما زال ماشيًا مع الخادم حتى وصل إلى المكان ودخل على نزهة الزمان وقال لها: «يا سيدتى، قد أحضرت لك من تطلبينه، وهو شاب حسن الصورة، وعليه آثار النعمة»، فلما سمعت ذلك، خفق قلبها وقالت: «دعه ينشد شيئًا من الشعر حتى أسمعه من قرب، وبعد ذلك اسأله عن اسمه ومن أى البلاد هو»، فخرج الخادم إليه وقال له: «قل ما عندك من الشعر، فإن السيدة حاضرة بالقرب

منك تسمعك، وبعد ذلك أسألك عن اسمك وبلدك وحالك»، فقال: «حبا وكرامة، ولكن إذا سألتنى عن اسمى، فإنه امحى، ورسمى فنى، وجسمى بلى، ولى حكاية لا أول لها يعرف، ولا آخر لها يوصف، وها أنا بمنزلة السكران الذى أكثر من الشراب، وحلت به الأوصاب، وتاه عن نفسه، واحتار فى أمره، وغرق فى بحر من الأفكار».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية تعارف نزهة الزمان بأخيها ضوء المكان

قالت شهرزاد: فلما سمعت نزهة الزمان هذا الكلام بكت وزادت فى البكاء والأنين وقالت للخادم: «قل له هل فارقت أحدًا ممن تحب، مثل أمك وأبيك؟» فسأله الخادم ذلك، فقال: «نعم فارقت الجميع، وأعزهم عندى أختى التى فرق بينى وبينها الدهر».

فسكتت نزهة الزمان لما سمعته يقول هذا الكلام وقالت: «الله تعالى يجمع شمله بمن يحب»، ثم إن نزهة الزمان قالت للخادم: «قل له: اسمعنا شيئًا من مفارقتك لأهلك ووطنك»، فقال له الخادم كما أمرته سيدته، فصعد الزفرات وأنشد هذه الأبيات:

كأن ثرى الوادى ممسك عنبر — إذا ما جرت يومًا بساحته هند
سلام على محبوبة بربى الحمى — عزيزة قول كل من حولها عبد
خليلى ما عبد العشيقة منزل — أريحا فهذا البان والعلم الفرد
فلا تسأل من غير قلبى فإنه — حليف هوى لا يستطاع له رد
سقى الله نزهة الزمان سحائبًا — تسح فلا ينفك عن مثلها رعد

فلما فرغ من شعره وسمعته نزهة الزمان، كشفت ذيل الستارة عن المحفة ونظرته، فلما وقع بصرها على وجهه، عرفته وحققته فصاحت قائلة: «يا أخى، يا ضوء المكان»، فنظر الآخر إليها فعرفها، فصاح قائلاً: «يا أختى، يا نزهة الزمان»، فألقت نفسها عليها، ووقع الاثنين مغشيًا عليهما. فلما رآهما الخادم على تلك الحالة تعجب فى أمرهما، وألقى عليهما شيئًا سترهما به، وصبر عليهما حتى أفاقا.

فلما أفاقا من غشيتهما، فرحت نزهة الزمان غاية الفرح، وزال عنها ما كانت به من الهم والترح، وتوالت عليها المسرات، وأنشدت هذه الأبيات:

الدهر أقسم لا يزال مكدرى — حنثت يمينك يا زمان فكفر
السعد وافى والحبيب مساعدى — فانهض إلى داعى السرور وشمر

فلما سمع ذلك ضوء المكان، ضم أخته إلى صدره، وفاضت لفرط سروره من أجفانه العبرات، وأنشد هذه الأبيات:

كلانا سواء فى الجوى غير أنها — تجلد أحيانًا وما بى تجلد
تخاف وعيد الكاشحين وإنما — جنونى عليها حين أنهى وأوعد

وجلسا على باب المحفة ساعة، ثم قالت: «قم بنا إلى داخل المحفة واحك لى ما وقع لك، وأنا أحكى لك ما وقع لى» فدخلا، فقال ضوء المكان: «احكى لى أنت أولاً»، فحكت له جميع ما وقع لها منذ فارقته من الخان، وما وقع لها مع البدوى والتاجر، وكيف اشتراها منه، وكيف أخذها التاجر إلى أخيها شركان وباعها له، وإن شركان أعتقها من حين اشتراها، وكتب كتابه عليها، وإن الملك أباها سمع بخبرها فأرسل إلى شركان يطلبها منه، ثم قالت له: «الحمد لله الذى منَّ علىَّ بك، يا أخى يا ضوء المكان، ومثل ما خرجنا من عند والدنا معًا نرجع إليه معًا»، ثم قالت له: إن أخى شركان زوجنى بهذا الحاجب لأجل أن يوصلنى إلى والدى، وهذا ما وقع لى من الأول إلى الآخر، فاحك لى أنت ما وقع بعد ذهابى من عندك».

فحكى لها جميع ما وقع له من الأول إلى الآخر، وكيف منَّ الله عليه بالوقاد، وكيف سافر معه وأنفق عليه ماله، وأنه كان يخدمه فى الليل والنهار فشكرته على ذلك، ثم قال لها: «يا أختى، إن هذا الوقاد فعل معى من الإحسان فعلا لا يفعله أحد مع أحبابه، ولا والد مع ولده، حتى كان يجوع ويطعمنى، ويمشى ويركبنى، وكان حياتى على يديه»، فقالت له نزهة الزمان: «إن شاء الله تعالى، نكافئه على ما نقدر عليه».

ثم إن نزهة الزمان صاحت على الخادم، فحضر وقبل يد ضوء المكان، فقالت له: «خذ بشارتك يا وجه الخير، لأنه كان جمع شملى بأخى على يديك، فالكيس الذى معك وما فيه لك، فاذهب وأتنى بسيدك عاجلاً»، ففرح الخادم وتوجه إلى الحاجب ودخل عليه ودعاه إلى سيدته، فأتى به ودخل على زوجته نزهة الزمان، فوجد عندها أخاها فسأل عنه، فحكت له ما وقع لهما من أوله إلى آخره، ثم قالت: «اعلم أيها الحاجب، إنك ما أخذت جارية، وإنما أخذت بنت الملك عمر بن النعمان، فأنا نزهة الزمان وهذا الشاب الذى تراه أمامك هو أخى ضوء المكان».

فلما سمع الحاجب القصة منها، تحقق ما قالته وبان له الحق الصريح؛ وتيقن أنه صار صهر الملك عمر بن النعمان، فقال فى نفسه: «مصيرى أن آخذ نيابة على قطر من الأقطار». ثم أقبل على ضوء المكان، وهنأه بسلامته، وجمع شمله بأخته، ثم أمر خدمه فى الحال أن يهيئوا لضوء المكان خيمة ومركوبًا من أحسن الخيل، فقالت له أخته: «إنا قد قربنا من بلادنا، فأنا أختلى مع أخى نستريح مع بعضنا ونشبع من بعضنا قبل أن نصل إلى بلادنا، فإن لنا زمنًا ونحن مفترقان»، فقال الحاجب: «الأمر كما تريدان».

ثم أرسل إليهما الشموع وأنواع الحلوى، وخرج من عندهما، وأرسل إلى ضوء المكان ثلاثة أكسية من أفخر الثياب، وتمشى إلى أن جاء إلى المحفة، وعرف مقدار نفسه فقالت له نزهة الزمان: «ارسل إلى الخادم وأمره أن يأتى بالوقاد ويهىء له حصانًا يركبه، ويرتب له سفرة طعام فى الغداة والعشى، ويأمره بأن لا يفارقنا، فعند ذلك أرسل الحاجب إلى الخادم، وأمره أن يفعل ذلك، فقال: «سمعًا وطاعة».

ثم إن الخادم أخذ غلمانه وذهب يفتش على الوقاد إلى أن وجده فى آخر الركب، وهو يشد على حماره ويريد أن يهرب، ودموعه تجرى على خده من الخوف على نفسه ومن حزنه

على فراق ضوء المكان، وصار يقول: «قد نصحته فى سبيل الله، فلم يسمع منى، يا ترى كيف حاله؟» فلم يتم كلامه إلا والخادم واقف على رأسه، ودارت حوله الغلمان.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فالتفت الوقاد، فرأى الخادم واقفًا فوق رأسه، ورأى الغلمان حوله، فاصفر لونه وخاف، وقال وقد رفع صوته بالكلام: «إنه ما عرف مقدار ما عملته معه من المعروف، فأظن أنه غمز الخادم وهؤلاء الغلمان علىَّ، وإنه أشركنى معه فى الذنب»، وإذا بالخادم صاح عليه وقال له: «من الذى كان ينشد الأشعار يا كذاب؟ كيف تقول لى أنا ما أنشدت الأشعار ولا أعرف من أنشدها وهو رفيقك؟ فأنا لا أفارقك من هنا إلى بغداد، والذى يجرى على رفيقك يجرى عليك»، فلما سمع كلامه ازداد خوفه وقال فى نفسه: «ما خفت منه وقعت فيه»، ثم أنشد هذا البيت:

كان الذى قد خفت أن يكونا ... إنا إلى الرحمن راجعونا

ثم إن الخادم صاح على الغلمان وقال: «أنزلوه عن الحمار» فأنزلوا الوقاد عن حماره، وأتوه بحصان فركبه ومشى صحبة الركب، والغلمان حوله محدقون به، فقال لهم الخادم: «إن عدم منه شعرة، كانت بواحد منكم»، وأوصاهم سرا أن: «أكرموه ولا تهينوه».

فلما رأى الوقاد الغلمان حوله، يئس من الحياة والتفت إلى الخادم وقال له: «يا مقدم، ما أنا أخوه ولا قريبه، وإنما رجل وقاد فى حمام، وجدته ملقى على مزيلة مريضًا».

وسار الركب، والوقاد يبكى ويحسب فى نفسه ألف حساب، والخادم ماش بجانبه، ولم يعرفه بشىء بل يقول له: «أقلقت سيدتنا بإنشادك الشعر أنت وهذا الصبى ولا تخاف على نفسك؟» وصار الخادم يضحك عليه سرا، وإذا نزلوا أتاهم الطعام، فيأكل هو و الوقاد فى آنية واحدة، فإذا أكلوا أمر الخادم الغلمان أن يأتوا بقلة سكر، فيشرب منها ويعطيها للوقاد فيشرب، لكن الوقاد لم تنشف له دمعة من الخوف على نفسه والحزن على فراق ضوء المكان وعلى ما وقع لهما فى غربتهما.

أما الحاجب فيكون تارة على باب المحفة لأجل خدمة ضوء المكان ابن الملك عمر بن النعمان وأخته نزهة الزمان، وتارة يلاحظ الوقاد، ونزهة الزمان وأخوها فى حديث وشكوى، ولم يزالا على تلك الحالة، حتى قرب الركب من البلاد، ولم يبق بينهم وبين البلاد إلى ثلاثة أيام، فنزلوا وقت المساء واستراحوا، ولم يزالوا نازلين، إلى أن لاح الفجر، فاستيقظوا وأرادوا أن يتحملوا، وإذا بغبار عظيم قد لاح لهم وأظلم الجو منه حتى صار كالليل الداجى، فصاح الحاجب قائلاً: «تمهلوا ولا تحملوا» وركب هو ومماليكه، وساروا نحو ذلك الغبار، فلما قربوا منه، بان من تحته عسكر جرار كالبحر الزاخر، وفيه رايات وأعلام وطبول وفرسان وأبطال، فتعجب الحاجب من أمرهم.

فلما رآهم العسكر، افترقت منه فرقة خمسمائة فارس وأتوا إلى الحاجب ومن معه وأحاطوا بهم، وأحاطت كل خمسة بمملوك من مماليك الحاجب، فقال لهم الحاجب: «ما

الخبر؟ ومن أين هذه العساكر حتى تفعل معنا هذه الأفعال؟» فقالوا له: «من أنت؟ ومن أين أتيت؟ وإلى أين تتوجه؟» فقال لهم: «أنا حاجب أمير دمشق الملك شركان بن عمر بن النعمان، وأتيت من عنده بالخراج والهدية، متوجهًا إلى والده ببغداد».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية الحاجب والوزير دندان
وخبر موت عمر بن النعمان

قالت شهرزاد: فلما سمعوا كلامه، أرخوا مناديلهم على وجوههم وبكوا وقالوا له: «إن عمر بن النعمان قد مات مسمومًا، فتوجه وما عليك بأس، حتى تجتمع بوزيره الأكبر الوزير دندان».

فلما سمع الحاجب ذلك الكلام، بكى بكاءً شديدًا وقال: «يا خيبتنا فى هذه السفرة»، وسار يبكى هو ومن معه إلى أن اختلطوا بالعسكر، فاستأذنوا له من الوزير دندان، فأذن له، وأمر الوزير بضرب خيامه، وجلس على سرير فى وسط الخيمة وأمر الحاجب بالجلوس، فلما جلس سأله عن خبره، فأعلمه أنه حاجب أمير دمشق وقد جاء بالهدايا وخراج دمشق. فلما سمع الوزير دندان ذلك، بكى عند ذكر الملك عمر بن النعمان، ثم قال الوزير دندان: «إن الملك عمر بن النعمان قد مات مسمومًا، وبسبب موته اختلف الناس فى من يولونه بعده حتى أوقعوا القتل فى بعضهم، ولكن منعهم عن بعضهم الأكابر والأشراف والقضاة الأربعة، واتفق جميع الناس على أننا نسير إلى دمشق، ونقصد ولده شركان، ونأتى به ونسلطنه على مملكة أبيه، وبين هؤلاء الناس جماعة يريدون ولده الثانى، وقالوا إنه يسمى ضوء المكان، وله أخت تسمى نزهة الزمان، وكانا قد توجها إلى أرض الحجاز، ومضى لهما خمس سنين ولم يقع لهما أحد على خبر».

فلما سمع ذلك الحاجب، علم أن القضية التى وقعت لزوجته صحيحة، فاغتم لموت السلطان عمر بن النعمان غما عظيمًا ولكنه من جهة ثانية فرح فرحًا شديدًا، وخصوصًا بمجىء ضوء المكان، لأنه يصير سلطانًا ببغداد وخراسان ومكان أبيه.

ثم التفت الحاجب إلى الوزير دندان وقال: «إن قصتكم من أعجب العجائب اعلم أيها الوزير الكبير إنكم حيث صادفتمونى الآن أراحكم الله من التعب ومشاق السفر، وقد جاءكم الأمر كما تشتهون على أهون سبب، لأن الله سبحانه وتعالى رد إليكم ضوء المكان، هو وأخته نزهة المكان، وانصلح الأمر وهان».

فلما سمع الوزير هذا الكلام، فرح فرحًا شديدًا ثم قال له: أيها الحاجب أخبرني بقصتهما وبما جرى لهما وبسبب غيابهما»، فحدثه بحديث نزهة الزمان، وأنها صارت زوجته، وأخبره بحديث ضوء المكان من أوله إلى آخره.

فلما فرغ الحاجب من حديثه، أرسل الوزير دندان إلى الأمراء والوزراء وأكابر الدولة

وأطلعهم على القصة، ففرحوا بذلك ووقفوا فى خدمته، وقبَّلوا الأرض بين يديه، وأقبل الوزير دندان من ذلك الوقت على الحاجب ووقف بين يديه.

ثم إن الحاجب فى ذلك اليوم عمل ديوانًا عظيمًا، وجلس هو والوزير دندان على تخت، وبين أيديهما جميع الأمراء والكبراء وأصحاب المناصب على حسب مراتبهم، ثم بلوا السكر فى ماء الورد وشربوا، ثم قعد الأمراء والوزراء للمشورة، وأعطوا بقية الجيش إذنًا فى أن يركبوا مع بعضهم، ويتقدموا قليلاً قليلاً حتى يتموا المشورة ويلحقوهم فقبلوا الأرض بين يدى الحاجب، وركبوا وقدامهم رايات الحرب، فلما فرغ الوزراء والأمراء والكبراء من مشورتهم، ركبوا خيولهم ولحقوا العساكر.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية سلطنة ضوء المكان

قالت شهرزاد: ثم أقبل الحاجب على الوزير دندان وقال له: «الرأى عندى أن أتقدم وأسبقكم لأجل أن أهيىء للسلطان مكانًا يناسبه، وأعلمه بقدومكم، وأنكم اخترتموه على أخيه شركان سلطانًا عليكم». فقال الوزير: «نعم الرأى الذى رأيته»، ثم نهض ونهض الوزير دندان تعظيمًا له، وقدَّم التقادم وأقسم عليه أن يقبلها، وكذلك الأمراء الكبار وأرباب المناصب قدموا له التقادم، ودعوا له وقالوا: «لعلك تحدث السلطان فى أمرنا، ليبقينا فى مناصبنا».

فأجابهم لما سألوه، ثم أمر غلمانه بالسير، فأرسل الوزير دندان الخيام مع الحاجب وأمر الفراشين أن ينصبوها خارج المدينة بمسافة يوم، فامتثلوا أمره، وركب الحاجب وهو فى غاية الفرح وقال فى نفسه: «ما أبرك هذه السفرة».

ثم جد فى السفر إلى أن وصل إلى مكان بينه وبين المدينة مسافة يوم، ثم أمر بالنزول فيه لأجل الراحة وتهيئة مكان لجلوس السلطان ضوء المكان بن عمر بن النعمان، ثم نزل من بعيد هو ومماليكه، وأمر الخدام أن يستأذنوا السيدة نزهة الزمان فى أن يدخل عليها، فأذنت له، فدخل عليها واجتمع بها وبأخيها، وأخبرهما بموت أبيهما، وأن ضوء المكان جعله الرؤساء ملكًا عليهم، عوضًا عن أبيه عمر بن النعمان، وهنأهما بالملك، فبكيا على فقد أبيهما، وسألا عن سبب قتله، فقال لهما: «الخبر مع الوزير دندان، وفى غد يكون هو والجيش كله فى هذا المكان، وما بقى فى الأمر أيها الملك إلا أن تفعل ما أشاروا به، لأنهم كلهم اختاروك سلطانًا، وإن لم تفعل بايعوا غيرك، وأنت لا تأمن على نفسك من الذى يتسلطن غيرك، فربما يقتلك أو يقع الفشل بينكما، ويخرج الملك من أيديكما».

فأطرق ضوء المكان رأسه ساعة من الزمان ثم قال: «قبلت هذا الأمر لأنه لا يمكن التخلى عنه»، وتحقق أن الحاجب تكلم بما فيه الرشاد، ثم قال للحاجب: «يا عم، وكيف أعمل مع أخى شركان؟» فقال: «يا ولدى، أخوك يكون سلطان دمشق وأنت سلطان بغداد فشدَّ عزمك وجهز أمرك»، فقبل منه ضوء المكان ذلك.

ثم إن الحاجب قدم له الكسوة التى كانت مع الوزير دندان من ملابس الملوك، وناوله

النمشة وخرج من عنده، وأمر الفراشين أن يختاروا موضعًا عاليًا وينصبوا فيه خيمة واسعة عظيمة للسلطان ليجلس فيها إذا قدم عليه الأمراء، ثم أمر الطباخين أن يطبخوا طعامًا فاخرًا ويحضروه، وأمره السقائين أن ينصبوا حياض الماء، وبعد ساعة طار الغبار حتى سد الأقطار، ثم انكشف ذلك الغبار وبان من تحته عكسر جرَّار مثل البحر الزاخر، وتبين أن ذلك العسكر عسكر بغداد وخراسان، ومقدمه الوزير دندان، وكلهم فرحون بسلطنة ضوء المكان.

وكان ضوء المكان لابسًا خلعة الملك، متقلدًا سيف الموكب، فقدم له الحاجب الفرس، فركب وسار هو ومماليكه وجميع من في الخيام مشى في خدمته، حتى دخل القبة الكبيرة وجلس ووضع النمشة على فخذيه، ووقف الحاجب في خدمته بين يده، ووقفت مماليكه في دهليز الخيمة، وشهروا في أيديهم السيوف.

ثم أقبل العساكر والجيوش وطلبوا الإذن، فدخل الحاجب واستأذن لهم السلطان ضوء المكان، فأمر أن يدخلوا عليه عشرة عشرة، فأعلمهم الحاجب بذلك فأجابوا بالسمع والطاعة، ووقف الجميع على باب الدهليز، فدخلت عشرة منهم فشق بهم الحاجب في الدهليز ودخل بهم على السلطان ضوء المكان. فلما رأواه هابوه، فتلقاهم بأحسن ملتقى ووعدهم بكل خير، فهنأوه بالسلامة ودعوا له وحلفوا له الأيمان الصادقة أنهم لا يخالفون له أمرًا، ثم قبلوا الأرض بين يديه وانصرفوا.

ودخل عشرة آخرون؛ ففعل بهم مثل ما فعل بغيرهم، ولم يزالوا يدخلون عشرة بعد عشرة حتى لم يبق غير الوزير دندان، فدخل عليه وقبل الأرض بين يديه، فقام إليه ضوء المكان، وأقبل عليه وقال له: «مرحبًا بالوزير والوالد الكبير، إن فعلك فعل المشير العزيز، والتدبير بيد اللطيف الخبير». ثم أمر بمد السماط، وأمر بإحضار العسكر جميعًا، فحضروا وأكلوا وشربوا.

ثم إن الملك ضوء المكان قال للوزير دندان: «مر العسكر بالإقامة عشرة أيام حتى أختلي بك وتخبرني عن سبب مقتل أبي»، فامتثل الوزير قول السلطان وقال: «لا بد من ذلك» ثم خرج إلى وسط الخيام وأمر العسكر بالإقامة عشرة أيام، فامتثلوا أمره.

ثم إن الوزير أعطاهم إذنًا أنهم يتجولون ويتفرجون، وأمر أن لا يدخل أحد من أرباب الخدمة على الملك مدة ثلاثة أيام، فتضرع جميع الناس ودعوا لضوء المكان بدوام العز، ثم أقبل عليه الوزير وأعلمه بالذى كان، فصبر إلى الليل ودخل على أخته نزهة الزمان وقال لها: «هل علمت بسبب قتل أبي أم لم تعلمي بسببه كيف كان؟» فقالت له: «لم أعلم سبب قتله». ثم إنها ضربت لها ستارة من حرير، وجلس ضوء المكان خارج الستارة، وأمر بإحضار الوزير دندان، فحضر بين يديه، فقال له: «أريد أن تخبرني بالتفصيل عن سبب قتل أبي، الملك عمر بن النعمان»، فقال الوزير دندان: حبًا وكرامة.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية سبب قتل عمر بن النعمان

قال الوزير: اعلم أيها الملك، أن والدك عمر بن النعمان لما أتى من سفره من الصيد والقنص وجاء إلى المدينة، سأل عنكما فلم يجدكما فعلم أنكما قصدتما الحج، فاغتم لذلك، فازداد به الغيظ وضاق صده، وأقام نصف سنة وهو يستخبر عنكما كل شارد ووارد، فلم يخبره أحد، «فبينما نحن بين يديه يومًا من الأيام، بعد ما مضى لكما سنة كاملة من تاريخ فقدكما، وإذا بعجوز عليها آثار العبادة، قد وردت علينا ومعها خمس جوار نهد أبكار، كأنهن الأقمار، وقد حوين من الحسن والجمال، ما يعجز عن وصفه اللسان، ومع كمال حسنهن يقرأن القرآن، ويعرفن الحكمة وأخبار المتقدمين، فاستأذنت تلك العجوز فى الدخول على الملك فأذن لها.

«فدخلت عليه وقبلت الأرض بين يديه، وكنت أنا جالسًا بجانب الملك. فلما دخلت عليه قرَّبها إليها لما رأى عليه من آثار الزهد والعبادة، فلما استقرَّت العجوز عنده، أقبلت عليه وقالت له: اعلم أيها الملك أن معى خمس جوار، ما ملك أحد من الملوك مثلهن، لأنهنَّ ذوات عقل وجمال، وحسن وكمال، يقرأن القرآن بالروايات، ويعرفن العلوم وأخبار الأمم السابقة، وهن بين يديك، واقفات فى خدمتك يا ملك الزمان، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

فنظر المرحوم والدك إلى الجوارى فسرته رؤيتهن وقال لهنَّ: كل واحدة منكنَّ تسمعنى شيئًا مما تعرفه من أخبار الناس الماضين والأمم السابقين.

فتقدمت واحدة منهنَّ وقبلت الأرض بين يديه وقالت: «اعلم أيها الملك، أنه ينبغى لذى الأدب أن يجتنب الفضول ويتحلى بالفضائل، وأن يؤدى الفرائض ويجتنب الكبائر، ويلازم ذلك ملازمة من لو أفرد عنه لهلك، وأساس الأدب مكارم الأخلاق، واعلم أن معظم أسباب المعيشة طلب الحياة، والقصد من الحياة عبادة الله، فينبغى أن تحسن خلقك مع الناس وأن لا تعدل عن هذه السنة، فإن أعظم الناس خطرًا أحوجهم إلى التدبير، والملوك أحوج إليه من السوقة، لأن السوقة قد تفيض فى الأمور من غير نظر فى العاقبة، وأن تبذل فى سبيل الله نفسك ومالك.

واعلم أن العدو خصم تعرفه وتخصمه بالحجة وتحترز منه، وأما الصديق، فليس بينك وبينه قاض يحكم غير حسن الخلق، فاختر صديقك لنفسك بعد اختباره، فإن كان من إخوان الآخرة، فليكن محافظًا على اتباع ظاهر الشرع عارفًا بباطنه على حسب الإمكان، وإن كان من إخوان الدنيا، فليكن حرا صادقًا ليس بجاهل ولا شرير، فإن الجاهل أهل لأن يهرب منه أبواه، والكاذب لا يكون صديقًا، لأن الصديق مأخوذ من الصدق الذى يكون ناشئًا عن صميم القلب، فيكف به إذا ظهر الكذب على اللسان، واعلم أن اتباع الشرع ينفع صاحبه، فأحبب أخاك إذا كان بهذه الصفة ولا تقطعه، وإن ظهر لك منه ما تكره، فإن قلبه كالزجاج إذا انصدع لا ينجبر، والله در القائل:

أحرص على صون القلوب من الأذى ... فرجوعها بعد التنافر يعسر
إن القلوب إذا تنافر ودها ... مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

ثم قالت الجارية فى آخر كلامها، وهى تشير إلينا: «إن أصحاب العقول قالوا: خير الإخوان أشدهم فى النصيحة، وخير الأعمال أجملها عاقبة، وخير الثناء ما كان على أفواه الرجال، وقد قيل: لا ينبغى للعبد أن يغفل عن شكر الله، خصوصًا على نعمتين هما: العافية والعقل، وقيل: من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته. ومن عظم صغائر المصائب ابتلاه الله بكبارها، ومن أطاع الهوى ضيع الحقوق، ومن أطاع الواشى ضيع الصديق، ومن ظن بك خيرًا فـ صدق ظنه بك، ومن بالغ فى الخصومة أثم، ومن لم يحذر الخيف لم يأمن من السيف.

«وها أنا أذكر لك شيئًا من آداب القضاة: اعلم أيها الملك، أنه لا ينفع حكم بحق إلا بعد التثبت، وينبغى للقاضى أن يجعل الناس فى منزلة واحدة حتى لا يطمع شريف فى الجور ولا ييأس ضعيف من العدل، وينبغى أيضًا أن يجعل البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالاً، وما شككت فيه اليوم فراجع فيه عقلك، وتبين به رشدك لترجع فيه إلى الحق، فالحق فرض، والرجوع إلى الحق خير من التمادى على الباطل، ثم اعرف الأمثال وافقه المقال وسوِّ بين الخصوم فى الوقوف، وليكن نظرك على الحق مقصورًا، وفوض أمرك إلى الله عز وجل، واجعل البينة على من ادعى، فإن حضرت بينته أخذت له بحقه، وإلا فحلف المدعى عليه، وهذا حكم الله، واقبل شهادة عدول المسلمين بعضهم على بعض، فإن الله تعالى أمر الحكام أن تحكم بالظاهر، وهو يتولى السرائر، ويجب على القاضى أن يجتنب القضاء عند شدة الألم والجوع، وأن يقصد بقضائه بين الناس، وجه الله تعالى فإن من خلصت نيته وأصلح ما بينه وبين نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس.

«وقال الزهرى: ثلاث إذا كنَّ في قاض كان منعزلاً: إذ أكرم اللئام وأحب المحامد وكره العزل، وقد عزل عمر بن عبد العزيز قاضيًا فقال له: لم عزلتنى؟ فقال عمر: قد بلغنى عنك أن مقالك أكبر من مقامك».

وحكى أن الإسكندر قال لقاضيه: «إنى وليتك منزلة واستودعتك فيها روحى وعرضى ومروءتى، فاحفظ هذه المنزلة وعقلك، وقال لطباخه: إنك مسلط على جسمى، فارفق بنفسك فيه، وقال لكاتبه: إنك متصرف فى عقلى، فاحفظنى فيما تكتبه عنى».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: ثم تأخرت الجارية الأولى وتقدمت الثانية وقبلت الأرض بين يدى الملك والدك سبع مرات ثم قالت: «قال لقمان لابنه: ثلاثة لا تعرف إلا فى ثلاثة مواطن: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا أخوك إلا عند حاجتك إليه وقيل: إن الظالم نادم وإن مدحه الناس، والمظلوم سليم وإن ذمه الناس».

«وقال الله تعالى: **﴿ولا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم﴾**، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» وأيضًا قال عليه الصلاة والسلام: «إن فى الجسد لمضغة إذا

صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»، وأعجب ما فى الإنسان قلبه، لأن به زمام أمره فإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه الأسى قتله الأسف، وإن عظم عنده الغضب اشتد به العطب، وإن سعد بالرضا أمن من السخط، وإن ناله الخوف أشغله الحزن، وإن أصابته مصيبة ضمنه الجزع، وإن استفاد مالاً ربما اشتغل به عن ذكر ربه، وإن غصته فاقة أشغله الهم. وإن أجهده الجزع أقعده الضعف، فعلى كل حالة، لا صلاح له إلا بذكر الله واشتغاله بما فيه تحصيل معاشه وصلاح معاده».

«وقيل لبعض العلماء: من أسر الناس حالا؟ قال: من غلبت مروءته شهوته وبعدت فى المعالى همته، فاتسعت معرفته وضاقت معذرته، ما أحسن ما قاله قيس:

وإنى لأغنى الناس عن متكلف ... يرى الناس ضلالا وما هو مهتد

وما المال والأخلاق إلا معارة ... فكل بما يخفيه فى الصدر مرتد

إذا ما أتيت الأمر من غير بابه ... ضللت وإن تدخل من الباب تهتد

ثم إن الجارية قالت: «وأما أخبار الزاهدين فقد قال هشام بن بشر: قلت لعمر بن عبيد: «ما حقيقة الزهد؟ فقال لى: قد بينه رسول الله ﷺ فى قوله: «الزاهد من لم ينس القبر والبلاء، وآثر ما يبقى على ما يفنى، ولم يعد غدًا من أيامه، وعد نفسه فى الموتى». وقيل: إن أبا ذر كان يقول: الفقر أحب إلىَّ من الصحة، فقال بعض السامعين: رحم الله أبا ذر. أما أنا فأقول: من اتكل على حسن الاختيار من الله تعالى، رضى بالحالة التى اختارها الله له، وقال بعض الثقات: صلى بنا ابن أبى أوفى صلاة الصبح فقرأ: يا أيها المدثر... حتى بلغ: فإذا نقر فى الناقور، فخر ميتًا».

«ويروى أنا ثابتًا البنانى بكى حتى كادت أن تذهب عيناه، فجاؤوا برجل يعالجه، فقال: أعالجه بشرط أن يطاوعنى، قال ثابت: فى أى شىء؟ قال الطبيب: فى أن لا تبكى. قال ثابت: فما فضل عينى إن لا تبكيا؟».

«وقال رجل لمحمد بن عبدالله: أوصنى. فقال: أوصيك أن تكون فى الدنيا مالكًا زاهدًا وفى الآخرة مملوكًا طامعًا، قال: وكيف ذلك؟ قال: الزاهد فى الدنيا يملك الدنيا والآخرة».

«وقال غوث بن عبدالله: كان أخوان فى بنى إسرائيل، فقال أحدهما للآخر: ما أخوف عمل عملته؟ قال له: إنى مررت ببيت فراخ، فأخذت منه واحدة ثم ندمت ورميتها فى ذلك البيت، ولكن بين الفراخ التى لم آخذها منها، فهذا أخوف عمل عملته فما أخوف ما عملته أنت؟ فقال: أما أنا فأخوف عمل أعمله أنى إذا قمت إلى الصلاة أخاف أن أكون لا أعمل ذلك إلا للجزاء. وكان أبوهما يسمع كلاهما، فقال: اللهمَّ، إن كانا صادقين فاقبضهما إليك قبل أن يفسدا، فقال بعض العقلاء: إن هذين من أفضل الأولاد».

«وقال عبيد بن جبير: صحبت فضالة بن عبيد فقلت له: أوصنى، فقال: احفظ عن هاتين الخصلتين: أن لا تشرك بالله شيئًا، وأن لا تؤذى من خلق الله أحدًا وأنشد هذين البيتين:

كن كيف شئت فإن الله ذو كرم ... وانف الهموم فما فى الأمر من باس

إلا اثنتين فلا تقربهما أبدًا ... الشرك بالله والإضرار بالناس

وما أحسن قول الشاعر:

إذا أنت لم يصحبك زادٌ من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله وإنك لم ترصد كما كان أرصدا»

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: ثم تقدمت الجارية الثالثة، بعد أن تأخرت الثانية وقالت: «إن باب الزهد واسع جدا، ولكن أذكر بعض ما يحضرنى فيه عن السلف الصالح، قال بعض العارفين: أنا استبشرت بالموت ولا أتيقن فيه راحة، غير أنى علمت أن الموت يحول بين المرء وبين الأعمال، فأرجو مضاعفة العمل الصالح وانقطاع العمل السيء».

«وكان عطاء السلمى إذا فرغ من وصيته، انتفض وارتعد وبكى بكاء شديدًا فقيل له: لم ذلك؟ فقال: إنى أريد أن أقبل على أمر عظيم وهو الانتصاب بين يدى الله تعالى للعمل بمقتضى الوصية، ولذلك كان على زين العابدين بن الحسين يرتعد إذا قام للصلاة فسئل عن ذلك، فقال: أتدرون لمن أقوم ومن أخاطب؟».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: ثم تأخرت الجارية الثالثة وتقدمت الجارية الرابعة وقالت: «وها أنا أتكلم ببعض ما يحضرنى من أخبار الصالحين، قال بعض العارفين: فعل الحسنات يكفر السيئات، وقال إبراهيم: التمست من بشر الحافى شيئًا من أسرار الحقائق، فقال: يا بنى هذا العلم لا ينبغى أن نعلمه كل أحد، فمن كل مائة خمسة مثل زكاة الدراهم، قال إبراهيم بن أدهم: فاستحليت كلامه واستحسنته، فبينما أنا أصلى وإذا ببشر يصلى، فقمت وراءه أركع إلى أن يؤذن المؤذن، فقام رجل رث الحالة وقال: يا قوم احذروا الصدق الضار ولا بأس بالكذب النافع[1]، وليس مع الاضطرار اختيار، ولا ينفع الكلام عند العدم كما لا يضر السكوت عند وجود الجود. وقال إبراهيم: رأيت بشرًا سقط منه دانق فقمت إليه وأعطيته درهمًا، فقال: لا آخذه، فقلت: إنه من خالص الحلال، فقال لى: أنا لست استبدل نعم الدنيا بنعم الآخرة.

«ويروى أن أخت بشر الحافى قصدت أحمد بن حنبل فقالت له: «يا إمام الدين إنا قوم نغزل بالليل ونشتغل بمعاشنا فى النهار، وربما تمر بنا مشاعل ولاة بغداد ونحن على السطح نغزل فى ضوئها، فهل يحرم علينا ذلك؟ فقال لها: من أنت؟ قالت أخت بشر الحافى، فقال: يا أهل بشر لا أزال استشف الورع من قلوبكم».

«وقال بعض العارفين: إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح عليه باب العمل، وكان مالك بن دينار إذا مر بالسوق ورأى ما يشتهيه يقول: يا نفس صابرى فلا أوافقك على ما تريدين».

وقال رضى الله عنه: «سلامة النفس فى مخالفتها، وبلاؤها فى متابعتها».

---

(١) الكذب هو الكذب وهو ما حرمته الأديان إلا ما أباحه الإسلام وهو الكذب الذى تصلح به بين متخاصمين أو الكذب فى الحرب على العدو وما إلى ذلك.

وقال منصور بن عمار: «حججت حجة، فقصدت مكة من طريق الكوفة. وكانت ليلة مظلمة، وإذا بصارخ يصرخ فى جوف الليل ويقول: إلهى، وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتى مخالفتك، وما أنا جاهل بك، ولكن خطيئة قضيتها علىَّ فى قديم أزلك، فاغفر لى ما فرط منى فإنى قد عصيتك بجهلى، فلما فرغ من دعائه تلا هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة﴾ فسمعت سقطة لم أعرف لها حقيقة، فمضيت فلما كان الغد مشينا إلى مدرجنا، وإذا بجنازة خرجت ووراءها عجوز ذهبت قوتها، فسألتها عن الميت فقالت: هذه جنازة رجل كان مر بنا البارحة وولدى قائم يصلى، فتلى آية من كتاب الله فانفطرت مرارة ذلك الرجل فوقع ميتًا».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: ثم تأخرت الجارية الرابعة وتقدمت الجارية الخامسة وقالت: «وها أنا أذكر بعض ما يحضرنى من أخبار السلف الصالح، كان مسلمة بن دينار يقول: عند تصحيح الضمائر تغفر الصغائر والكبائر، وإذا عزم العبد ترك الآثام أتاه الفتوح، وقال: كل نعمة لا تقرب إلى الله فهى بلية، وقليل الدنيا يشغل عن كثير الآخرة، وكثيرها ينسيك قليلها».

«وسئل أبو حازم: من أيسر الناس؟ فقال رجل أذهب عمره فى طاعة الله، قال: فمن أحمق الناس؟ قال: رجل باع آخرته بدنيا غيره».

«وروى أن موسى عليه السلام، لما ورد ماء مدين قال: رب إنى لما أنزلت إلىَّ من خير فقير فسأل موسى ربه ولم يسأل الناس، وجاءت جاريتان فسقى لهما ولم تصدر الرعاة، فلما رجعتا أخبرتا أباهما شعيبًا عليه السلام، فقال: لعله جائع، ثم قال لإحداهما: ارجعى إليه وادعيه، فلما أتته غطت وجهها وقالت: إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، فكره موسى ذلك وأراد أن لا يتبعها، ثم قال لها: كونى خلفى وأنا أمامك. فمشت خلفه حتى دخل على شعيب عليه السلام والعشاء مهيأ».

«فقال شعيب لموسى: يا موسى إنى أريد أن أعطيك أجر ما سقيت لهما، فقال موسى: أنا من أهل بيت لا نبيع شيئًا من عمل الآخرة بما على الأرض من ذهب وفضة فقال شعيب: يا شاب ولكن أنت ضيفى، وإكرام الضيف عادتى وعادة آبائى بإطعام الطعام، فجلس موسى فأكل، ثم إن شعيبًا استأجر موسى عشر حجج أى سنين، وجعل أجرته على ذلك تزويجه إحدى بنتيه، وكان عمل موسى لشعيب صداقًا لها؛ كما قال تعالى حكاية: ﴿إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرًا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك﴾.

«وقال رجل لبعض أصحابه وكان له مدة لم يره: «إنك أوحشتنى لأننى ما رأيتك منذ زمان، قال: اشتغلت عنك بابن شهاب، أتعرفه؟ قال: نعم هو جارى من ثلاثين سنة إلا أننى لم أكلمه، قال له: إنك نسيت الله فنسيت جارك، ولو أحببت الله لأحببت جارك، أما علمت أن للجار على الجار حقا كحق القرابة».

«وقال حذيفة: دخلنا مكة مع إبراهيم بن أدهم، وكان شقيق البلخى قد حج فى تلك السنة، فاجتمعنا فى الطواف، فقال إبراهيم لشقيق: ما شأنكم فى بلادكم؟ فقال شقيق: إننا إذا رزقنا أكلنا وإذا جعنا صبرنا، فقال: كذا تفعل كلاب بلخ، ولكننا إذا رزقنا آثرنا وإذا جعنا شكرنا، فجلس شقيق بين يدى إبراهيم وقال له: أنت أستاذى.

«وقال محمد بن عمران: سأل رجل حاتمًا الأصم فقال: ما أمرك فى التوكل على الله تعالى؟ قال: على خصلتين: علمت أن رزقى لا يأكله غيرى، فاطمأنت نفس به وعلمت أنى لم أخلق من غير علم الله، فاستحييت منه».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: ثم تأخرت الجارية الخامسة وتقدمت العجوز وقبلت الأرض بين يدى والدك تسع مرات وقالت: «قد سمعت أيها الملك ما تكلم به الجميع فى باب الزهد، وأنا تابعة لهنّ، فأذكر بعض ما بلغنى عن أكابر المتقدمين، قيل: كان الإمام الشافعى يقسم الليل ثلاثة أقسام: الثلث الأول للعلم والثانى للنوم والثالث للتهجد، وكان الإمام أبو حنيفة يحيى نصف الليل، فأشار إليه إنسان وهو يمشى وقال لآخر: إن هذا يحيى الليل كله، فلما سمع ذلك قال: إنى أستحى من الله أو أوصف بما ليس فىَّ فصار بعد ذلك يحيى الليل كله.

«وقال الربيع: كان الشافعى يختم القرآن فى شهر رمضان سبعين مرة، كل ذلك فى الصلاة وقال الشافعى رضى الله عنه: ما شبعت من خبز الشعير عشر سنين، لأن الشبع يقسى القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن القيام».

«وروى عن عبدالله بن محمد السكرى أنه قال: كنت أنا وعمر نتحدث. فقال لى: ما رأيت أورع ولا أفصح من محمد بن إدريس الشافعى، واتفق أننى خرجت أنا والحارث بن لبيب الصفّار، وكان الحارث تلميذ المزنى، وكان صوته حسنًا، فقرأ الآيتين ﴿**هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون**﴾. فرأيت الأمام الشافعى تغير لونه واقشعرَّ جلده واضطرب اضطرابًا شديدًا وخر مغشيًا عليه. فلما أفاق قال: أعوذ بالله من مقام الكذابين وإعراض الغافلين، اللهم لك خشعت قلوب العارفين، اللهم هب لى غفران ذنوبى من جودك وجملنى بسترك واعف عن تقصيرى بكرم وجهك، ثم قمت وانصرفت، وقال بعض الثقات: لما دخلت بغداد، كان الشافعى بها فجلست على الشاطىء لأتوضأ للصلاة، فمر بى إنسان وقال لى: يا غلام، أحسن وضوءك يحسن الله إليك فى الدنيا والآخرة، فالتفت وإذا برجل يتبعه جماعة، فأسرعت فى وضوئى وجعلت أقفو أثره. فالتفت إلىَّ وقال: هل لك من حاجة؟ فقلت: نعم تعلمنى مما علمك الله تعالى. فقال: اعلم من صدق الله نجا، ومن أشفق على دينه سلم من الردى، ومن زهد فى الدنيا قرت عيناه غدًا، أفلا أزيدك؟ قلت: بلى. قال: كن فى الدنيا زاهدًا وفى الآخرة راغبًا، واصدق فى جميع أمورك تنج مع الناجين، ثم مضى، فسألت عنه فقيل لى: هذا الإمام الشافعى.

«وكان الإمام الشافعى يقول: وددت أن الناس ينتفعون بهذا العلم على أن لا ينسب إلينا

منه شيء، وقال: ما نظرت أحدًا إلا أحببت أن يوفقه الله تعالى للحق ويعينه على إظهاره، وما ناظرت أحدًا قط إلا لأجل إظهار الحق، وما أبالي إن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه.

«وقال رضى الله عنه: إذا خفت على علمك العجب، فاذكر رضى من تطلب وفي أي نعيم ترغب ومن أي عقاب ترهب، وقيل لأبي حنيفة: إن أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور، قد جعلك قاضيًا، ورسم لك بعشرة آلاف درهم، فما رضى فلما كان اليوم الذي توقع أن يأتي إليه فيه بالمال، صلى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم، ثم جاءه رسول أمير المؤمنين بالمال، فلما دخل عليه وخاطبه لم يكلمه، فقال له رسول الخليفة: إن هذا المال حلال، فقال: أعلم أنه حلال لي، ولكن أكره أن يقع في قلبي مودة الجبابرة، فقال له: لو دخلت إليهم وتحفظت من ودهم. قال: هل آمن أن ألج البحر ولا تبتل ثيابي؟

«ومن كلام الشافعي رضى الله تعالى عنه:

ألا يا نفس إن ترضى بقولي ... فأنت عزيزة أبدًا غنيه
دعي عنك المطامع والأماني ... فكم أمنية جلبت منيه

«ومن كلام سفيان الثوري فيما أوصى به عليَّ بن حسن السلمي: عليك بالصدق وإياك والكذب والخيانة والرياء والعجب، فإن العمل الصالح يحبطه الله بخصلة من هذه الخصال، ولا تأخذ دينك إلا عمن هو مشفق على دينه، وليكن جليسك من يزهد في الدنيا، وأكثر ذكر الموت وأكثر الاستغفار، واسأل الله السلامة فيما بقى من عمرك وانصح كل مؤمن إذا سألك عن أمر دينه، وإياك أن تخون مؤمنًا، فإن من خان مؤمنًا قد خان الله ورسوله، وإياك والجدال والخصام، ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك تكن سليمًا وأمر بالمعروف وانه عن المنكر تكن حبيب الله، وأحسن سريرتك يحسن الله علانيتك، واقبل المعذرة ممن اعتذر إليك ولا تبغض أحدًا من المسلمين، وصل من قطعك، واعف عمن ظلمك تكن رفيق الأنبياء، وليكن أمرك مفوضًا إلى الله في السر والعلانية، واخش الله خشية من قد علم أنه ميت ومبعوث وصائر إلى الحشر والوقوف بين يدي الجبار، واذكر مصيرك إلى إحدى الدارين، إما جنة عالية وإما نار حامية».

«ثم إن العجوز جلست إلى جانب الجواري، فلما سمع والدك المرحوم كلامهنَّ، علم أنهن أفضل أهل زمانهن، ورأى حسنهنَّ وجمالهنَّ وزيادة أدبهنَّ، ففرح بهنَّ، وأقبل على العجوز فأكرمها وأخلى لها ولجواريها القصر الذي كانت فيه الملكة إبريزة بنت ملك الروم، ونقل إليهنَّ ما يحتجن إليه من الخيرات، فأقمن عنده عشرة أيام والعجوز معهنَّ، وكلما دخل عليها يجدها معتكفة على صلاتها وقيامها في ليلها وصيامها في نهارها، فوقع في قلبه محبتها وقال لي: «يا وزير إن هذه العجوز من الصالحات وقد عظمت في قلبي مهابتها».

فلما كان اليوم الحادي عشر اجتمع بها لأجل أن يدفع إليها ثمن الجواري، فقالت له: «أيها الملك، اعلم أن ثمن الجواري فوق ما تتعامل به الناس، فإني لا أطلب فيهنَّ ذهبًا ولا فضة ولا جواهر قليلاً كان ذلك أو كثيرًا» فلما سمع والدك كلامها تعجب وقال: «أيتها السيدة وما ثمنهنَّ؟» «قال: «ما أبيعهنَّ لك إلا بصيام شهر كامل، تصوم نهاره وتقوم ليله لوجه الله تعالى، فإن فعلت ذلك، فهنَّ ملك لك في قصرك تصنع بهنَّ ما شئت».

فتعجب الملك من كمال صلاحها وزهدها وورعها، وعظمت في عينه وقال: «نفعنا الله بهذه المرأة الصالحة. ثم اتفق معها على أنه يصوم الشهر كما اشترطت عليه وقالت له: «وأنا أعينك بدعوات أدعو بهنَّ لك، فأتني بكوز ماء»، فأتاها بكوز ماء فأخذته وقرأت عليه وهمهمت، وقعدت ساعة تتكلم بكلام لا نفهمه ولا نعرف منه شيئًا، ثم غطته بخرقة وختمته وناولته لوالدك وقالت له: «إذا صمت العشرة الأولى، فافطر فى الليلة الحادية عشرة على ما فى هذا الكوز، فإنه ينزع حب الدنيا من قلبك ويملأه نورًا وإيمانًا، وفى غد أخرج أنا إلى إخوانى، وهم رجال الغيب، فإنى اشتقت إليهم، ثم أجىء إليك إذا مضت العشرة الأولى»، فأخذ والدك الكوز، ثم نهض وأفرد له خلوة فى القصر ووضع الكوز فيها، وأخذ مفتاح الخلوة فى جيبه، فلما كان النهار، صام السلطان وخرجت العجوز إلى حال سبيلها. «وأتم الملك صوم العشرة الأيام، وفى اليوم الحادى عشر، فتح الكوز وشربه، فوجد له فى فؤاده فعلاً جميلاً، وفى العشرة الأيام الثانية من الشهر جاءت العجوز ومعها حلاوة فى ورق أخضر لا يشبه ورق الشجر، فدخلت على والدك وسلمت عليه، فلما رآها قام لها وقال: «مرحبًا بالسيدة الصالحة»، فقالت له: «أيها الملك، إن رجال الغيب يسلمون عليك لأنى أخبرتهم عنك، ففرحوا بك وأرسلوا معى هذه الحلاوة، وهى من حلاوة الآخرة، فأفطر عليها فى آخر النهار».

ففرح والدك فرحًا زائدًا وقال: «الحمد الله الذى جعل لى إخوانًا من رجال الغيب» ثم شكر العجوز وقبل يديها وأكرمها وأكرم الجوارى غاية الإكرام.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: ثم مضت مدة عشرين يومًا وأبوك صائم، وعند رأس العشرين يومًا، أقبلت عليه العجوز وقالت له: «أيها الملك، اعلم أنى أخبرت رجال الغيب بما بينى وبينك من المحبة، وأعلمتهم بأنى تركت الجوارى عندك ففرحوا لوجودهن عند ملك مثلك، لأنهم كانوا إذ رأوهن يبالغون لهنَّ فى الدعاء المستجاب، فأريد أن أذهب بهن إلى رجال الغيب لتحصل نفحاتهم لهنَّ، وربما إنهن لا يرجعن إليك إلا ومعهنَّ كنز من كنوز الأرض، حتى إنك بعد تمام صومك تشتغل بكسوتهن وتستعين بالمال الذى يأتينك به على أغراضك».

فلما سمع والدك كلامها، شكرها على ذلك وقال لها: «لولا أنى أخشى مخالفتى لك، ما رضيت بالكنز ولا غيره، ولكن متى تخرجين بهن؟» فقالت له: «فى الليلة السابعة والعشرين، وأرجع بهن إليك فى رأس الشهر، وتكون أنت قد أوفيت الصوم وحصل استبراؤهن وصرن لك وتحت أمرك، والله، إن كل جارية منهن ثمنها أعظم من ملكك مرات»، فقال لها: «وأنا أعرف ذلك أيتها السيدة الصالحة» فقالت له بعد ذلك: «ولا بد أن ترسل معهن من يعز عليك من قصرك حتى يجد الأنس ويلتمس البركة من رجال الغيب». فقال لها: «عندى جارية رومية اسمها صفية، ورزقت منها ولدين أنثى وذكر، ولكنهما فقدا منذ سنين، فخذيها معهن لأجل أن تحصل لها البركة «ولعل رجال الغيب يدعون الله لها بأن يرد عليها ولديها ويجمع شملها بهما». فقالت العجوز: «نعم ما قلت». وكان ذلك أعظم غرضها.

«ثم إن والدك أخذ فى تمام صيامه فقالت له: «يا ولدى، إنى متوجهة إلى رجال الغيب، فأحضر لى صفية»، فدعا بها فحضرت فى ساعتها، فسلمها إلى العجوز فخلطتها بالجوارى، ثم دخلت العجوز مخدعها وخرجت للسلطان بكأس مختوم وناولته إياه وقالت له: «إذا كان اليوم الثلاثون، فادخل الحمام ثم اخرج منه، وادخل خلوة من الخلوات التى فى قصرك، واشرب هذا الكأس ونم، فقد نلت ما تطلب، والسلام منى عليك».

«فعند ذلك فرح الملك وشكرها وقبل يديها، فقالت له: «استودعك الله»، فقال لها: «ومتى أراك أيها السيدة الصالحة، فإنى أود أن لا أفارقك؟».

فدعت له وتوجهت ومعها الجوارى والملكة صفية، وقعد الملك بعدها ثلاثة أيام، ثم هل الشهر، فقام الملك ودخل الحمام، وخرج من الحمام ودخل الخلوة التى فى القصر وأمر أن لا يدخل عليه أحد، ورد الباب عليه، ثم شرب الكأس ونام، ونحن قاعدون في انتظاره إلى آخر النهار، فلم يخرج من الخلوة، فقلنا: «لعله تعبان من الحمام ومن سهر الليل وصيام النهار، فبسبب ذلك نام»، فانتظرناه ثانى يوم فلم يخرج وقفنا بباب الخلوة، وأعلنا برفع للصوت لعله ينتبه ويسأل عن الخبر، فلم يحصل منه ذلك، فخلعنا الباب ودخلنا عليه، فوجدناه قد تمزق وتهرأ لحمه وتفتت عظمه.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فلما رأيناه على هذه الحالة، عظم علينا ذلك وأخذنا الكأس، فوجدنا فى غطائه قطعة ورق مكتوب فيها: «من أساء لا يستوحش منه، وهذا جزاء من يتحيل على بنات الملوك ويفسدهن، والذى نعلم به كل من وقف على هذه الورقة أن شركان، لما جاء إلى بلادنا، قد أفسد علينا رأي الملكة إبريزة، وما كفاه ذلك حتى أخذها من عندنا وجاء بها إليكم ثم أرسلها مع عبد أسود فقتلها، ووجدناها مقتولة فى الخلاء مطروحة على الأرض، فهذا ما هو فعل الملوك، وما جزاء من يفعل هذا الفعل إلا ما حل به، وأنتم لا تتهموا أحدًا بقتله، فما قتله إلا المحتالة الشاطرة التى اسمها ذات الدواهى، وها أنا أخذت زوجة الملك صفية ومضيت بها إلى والدها أفريدون ملك القسطنطينية، ولا بد أن نغزوكم ونقتلكم ونأخذ منكم الديار، فتهلكون عن آخركم ولا يبقى منكم ديَّار ولا من ينفخ النار».

«فلما قرأنا هذه الورقة، علمنا أن العجوز خدعتنا وتمت حيلتها علينا، فعند ذلك صرخنا ولطمنا على وجهنا وبكينا، فلم يفدنا البكاء شيئًا، واختلفت العساكر فيمن يجعلونه سلطانًا عليهم، فمنهم من يريدك، ومنهم من يريد أخاك شركان، ولم نزل فى هذا الاختلاف مدة شهر، ثم جمعنا بعضنا وأردنا أن نمضى إلى أخيك شركان، فسافرنا إلى أن وجدناك، وهذا سبب موت السلطان عمر بن النعمان».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فلما فرغ الوزير دندان من كلامه، بكى ضوء المكان هو وأخته نزهة الزمان، وبكى الحاجب أيضًا، ثم قال الحاجب لضوء المكان: «أيها الملك إن البكاء لا يفيد شيئًا، ولا يفيدك إلا أنك تشد قلبك وتقوى عزمك وتؤيد مملكتك، ومن خلَّف مثلك ما مات» فعند ذلك سكت عن بكائه وأمر بنصب السرير خارج الدهليز، ثم أمر أن يعرضوا عليه العساكر، ووقف الحاجب بجانبه وجميع السلاحدارية من ورائه، ووقف الوزير دندان قدامه، ووقف كل واحد من الأمراء وأرباب الدولة فى مرتبته.

ثم إن الملك ضوء المكان قال للوزير دندان: «أخبرنى عن خزائن أبى»، فقال: «سمعًا وطاعة»، وأخبره بخزائن الأموال: وبما فيه من الذخائر والجواهر، وعرض عليه ما فى خزانته من الأموال، فأنفق على العساكر وخلع على الوزير دندان خلعة سنية وقال له: «أنت فى مكانك». فقبل الأرض بين يديه ودعا له بالبقاء، ثم خلع على الأمراء.

ثم إن ضوء المكان قال للحاجب: «أعرض علىَّ الذى معك من خراج دمشق» فعرض عليه صناديق المال والتحف والجواهر، فأخذها وفرَّقها على العساكر ولم يبق منها شيئًا أبدًا، فقبل الأمراء الأرض بين يديه ودعوا له بطول البقاء وقالوا له: «ما رأينا ملكًا يعطى مثل هذه العطايا»، ثم إنهم مضوا إلى خيامهم، فلما أصبحوا، أمرهم بالسفر فسافروا ثلاثة أيام، وفى اليوم الرابع أشرفوا على بغداد، فدخلوا المدينة، فوجدها قد تزينت، وصعد السلطان ضوء المكان إلى قصر أبيه، وجلس على السرير، ووقف أمراء العسكر والوزير دندان وحاجب دمشق بين يديه، فعند ذلك أمر كاتب السر أن يكتب كتابًا إلى أخيه شركان، ويذكر فيها ما جرى من الأول إلى الآخر، ويذكر فى آخره: «وساعة وقوفك على هذا المكتوب، تجهز أمرك وتحضر بعسكرك حتى نتوجه إلى غزو النصارى، ونأخذ لوالدنا منهم الثأر ونكشف عنا العار».

ثم طوى الكتاب وختمه وقال للوزير دندان: «ما يتوجه بهذا الكتاب إلا أنت، ولكن ينبغى أن تتلطف به فى الكلام وتقول له: إن أردت ملك أبيك فهو لك، وأخوك يكون نائبًا عنك فى دمشق كما أخبرنا بذلك»، فنزل الوزير دندان من عنده وتجهز للسفر.

ثم إن ضوء المكان أمر أن يجعلوا للوقاد مكانًا فاخرًا ويفرشوه بأحسن الفرش، وذلك الوقاد له حديث طويل، ثم إن ضوء المكان خرج يومًا إلى الصيد والقنص وعاد إلى بغداد، فقدم له بعض الأمراء من الخيول الجياد ومن الجوارى الحسان ما يعجز عن وصفه اللسان، فأعجبته جارية منهن، فاتخذها له امرأة.

وبعد مدة رجع الوزير دندان من سفره وأخبره بخبر أخيه شركان، وإنه قادم عليه وقال له: «ينبغى أن تخرج وتلاقيه» فقال له ضوء المكان: «سمعًا وطاعة» فخرج إليه مع خواص دولته من بغداد، مسيرة يوم، ثم نصب خيامه هناك لانتظار أخيه.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية تجهيز شركان وضوء المكان العساكر للجهاد

قالت شهرزاد: وعند الصباح، أقبل الملك شركان فى عساكر الشام ما بين فارس مقدام، وأسد ضرغام، وبطل مصدام، فلما أشرفت الكتائب، وتقدمت السحائب، وأقبلت العصائب، وخفقت أعلام المواكب، توجه شركان، وهو ومن معه، لملاقاتهم، فلما عاين ضوء المكان أخاه، أراد أن يترجل له، فأقسم عليه شركان أن لا يفعل ذلك، وترجل شركان ومشى خطوات، فلما صار بين يدى ضوء المكان، رمى ضوء المكان نفسه عليه، فاحتضنه شركان إلى صدره وبكيا بكاءً شديدًا وعزّى بعضهما بعضًا.

ثم ركب الاثنان وسارا، وسار العسكر معهما إلى أن أشرفوا على بغداد ونزلوا، ثم طلع ضوء المكان وأخوه شركان إلى قصر الملك وباتا تلك الليلة.

وعند الصباح، خرج ضوء المكان وأمر أن يجمعوا العساكر من كل جانب وينادوا بالغزو والجهاد، وأقاموا ينتظرون مجىء الجيوش من سائر البلدان، وكل من حضر يكرمونه ويعدونه بالجميل، إلى أن مضى على ذلك مدة شهر كامل، والقوم يأتون أفواجًا متتابعة.

ثم قال شركان لأخيه: «يا أخى، أعلمنى بقضيتك»، فأعلمه بجميع ما وقع له من الأول إلى الآخر، وبما صنعه معه الوقاد من المعروف، فقال شركان: «أما كافأته على معروفه؟» فقال له: «يا أخى، ما كافأته إلى الآن، ولكن أكافئه إن شاء الله تعالى عندما أرجع من الغزو وأتفرغ له»، فعند ذلك عرف شركان أن أخته، الملكة نزهة الزمان، صادقة فى جميع ما أخبرته به، ثم كتم أمره وأمرها وأرسل إليها السلام مع الحاجب زوجها، فبعثت له أيضًا معه السلام ودعت له، وسألت عن ابنتها قضى فكان، فأخبرها أنها فى عافية وأنها فى غاية ما يكون من الصحة والسلامة، فحمدت الله تعالى وشكرته. ورجع شركان إلى أخيه يشاوره فى أمر الرحيل، فقال له: «يا أخى، إذا تكاملت العساكر وأتت العربان من كل مكان»، ثم أمر بتجهيز الميرة وإحضار الذخيرة، وجعل أرباب الأقلام وأهل الحساب تحت طاعة زوجته، ورتب لهم الجرايات والجوامك، وسافر فى ثالث شهر من حين نزول عسكر الشام، بعد أن قدمت العربان وجميع العساكر من كل مكان، وسارت الجيوش والعساكر وتتابعت الجحافل، وكان اسم رئيس عسكر الديلم رستم، واسم رئيس عسكر الترك بهرام. وسار ضوء المكان فى وسط الجيش وعن يمينه أخوه شركان، وعن يساره الحاجب صهره، ولم يزالوا سائرين مدة شهر، وكل جمعة ينزلون فى مكان ويستريحون فيه ثلاثة أيام لأن الخلق كثير، ولم يزالوا سائرين على هذه الحالة حتى وصلوا إلى بلاد الروم، فنفرت أهل القرى والضياع والصعاليك وفروا إلى القسطنطينية.

فلما سمع حردوب ملكهم بخبرهم، قام وتوجه إلى ذات الدواهى، فإنها هى التى دبرت الحيل وسافرت إلى بغداد حتى قتلت الملك عمر بن النعمان، ثم أخذت جواريها والملكة صفية ورجعت بالجميع إلى بلادها، فلما رجعت إلى ولدها ملك الروم وأمنت على نفسها، قالت لابنها: «قر عينًا، فقد أخذت لك بثار ابنتك إبريزة وقتلت الملك عمر بن النعمان وجئت بصفية: فقم الآن وارحل إلى ملك القسطنطينية، ورد عليه صفية ابنته، وأعلمه بما جرى حتى يكون

جميعنا على حذر ونتجهز بأبهة وأسافر أنا معك إلى الملك أفريدون ملك القسطنطينية، وأظن أن المسلمين لا يثبتون على قتالنا»، فقال لها: «أمهلى إلى أن يقربوا من بلادنا حتى نجهز أحوالنا»، ثم أخذوا في جمع رجالهم وتجهيز أحوالهم.

فلما جاءهم الخبر، كانوا قد جهزوا حالهم وجمعوا الجيوش، وسارت فى أوائلهم ذات الدواهى، فلما وصلوا إلى القسطنطينية، سمع الملك الأكبر ملكها أفريدون بقدوم حردوب ملك الروم، فخرج لملاقاته، فلما اجتمع أفريدون بملك الروم، سأله عن حاله وعن سبب قدومه، فأخبره بما عملته أمه ذات الدواهى من الحيل، وأنها قتلت ملك المسلمين وأخذت من عنده صفية، وقالت: «إن المسلمين جمعوا عساكرهم وجاءوا، ونريد أن نكون جميعًا يدا واحدة ونلقاهم»، ففرح الملك أفريدون بقدوم ابنته وقتل عمر بن النعمان، وأرسل إلى سائر الأقاليم يطلب منهم النجدة ويذكر لهم سبب قتل الملك عمر بن النعمان، فهرعت إليه جيوش النصارى، فما مر ثلاثة شهور حتى تكاملت جيوش الروم.

ثم أقبلت الإفرنج من سائر أطرافها، كالفرنسيس، والنمسا، ودوبره، وجورنه، والبندقية، وجنويز، وسائر عساكر بنى الأصفر، فلما تكاملت العساكر وضاقت بهم الأرض من كثرتها، أمرهم الملك الأكبر أفريدون أن يرحلوا عن القسطنطينية، فرحلوا واستمر تتابع عساكرهم في الرحيل عشرة أيام، وساروا حتى نزلوا بواد واسع الأطراف، وكان ذلك الوادى قريبًا من البحر المالح، فأقاموا ثلاثة أيام.

وفى اليوم الرابع أرادوا أن يرحلوا فأتتهم الأخبار بقدوم عساكر الإسلام، فأقاموا فيه ثلاثة أيام أخرى، وفى اليوم الرابع رأوا غبارًا طار حتى سد الأقطار، فلم تمض ساعة من النهار حتى انجلى ذلك الغبار، وتمزق إلى الجو وطار، ومحت ظلمته كواكب الأسنة والرماح، وبريق بيض الصفاح، وبان من تحته رايات إسلامية وأعلام محمدية.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية القتال بين عسكر المسلمين والنصارى

قالت شهرزاد: وأقبلت الفرسان كاندفاع البحار فى دروع تحسبها سحبًا مزرَّدة على أقمار، فعند ذلك تقابل الجيشان، والتطم البحران، ووقعت العين فى العين، فأول من برز للقتال الوزير دندان هو وعساكر الشام، وكانوا ثلاثين ألف عنان، وكان مع الوزير مقدم الترك ومقدم الديلم بهرام ورستم فى عشرين ألف فارس، وطلع من ورائهم رجال من صوب البحر المالح، وهم لابسون زرد الحديد وقد صاروا فيه كالبدور السافرة فى الليالى العاكرة، وصار عساكر النصارى ينادون: «يا لعيسى ومريم والصليب المعظم».

ثم انطبقوا على الوزير دندان: ومن معه من عساكر الشام، وكان هذا كله بتدبير العجوز ذات الدواهى لأن الملك أقبل عليها قبل خروجه وقال لها: كيف العمل والتدبير وأنت السبب فى هذا الأمر العسير؟ فقالت: «اعلم أيها الملك الكبير، والكاهن الخطير أنى أشير عليك بأمر يعجز عن تدبيره إبليس، ولو استعان عليه بحزبه المتاعيس... وهو أنك ترسل خمسين ألفًا من

الرجال، ينزلون فى المراكب ويتوجهون فى البحر إلى أن يصلوا إلى جبل الدخان ويقيمون هناك ولا يرحلون من ذلك المكان حتى تأتيكم أعلام الإسلام، فدونكم وإياهم ثم تخرج إليهم العساكر من البحر ويكونون خلفهم، ونحن نقابلهم من البر فلا ينجو منهم أحد، وقد زال عنا العناء ودام لنا الهناء» فاستصوب الملك أفريدون كلام العجوز وقال: «نعم الرأى رأيك يا سيدة العجائز الماكرة ومرجع الكهان فى الفتن الثائرة».

وحين هجم عليهم عسكر الإسلام فى ذلك الوادى، لم يشعروا إلا والنار تلتهب فى الخيام والسيوف تعمل فى الأجسام، ثم أقبلت جيوش بغداد وخراسان وهم فى مائة وعشرين ألف فارس، وفى أوائلهم ضوء المكان، فلما رآهم عسكر النصارى الذين كانوا فى البحر، طلعوا إليهم من البحر وتبعوا أثرهم، فلما رآهم ضوء المكان قال: «ارجعوا إليهم يا حزب النبى، وقاتلوا أهل العدوان فى طاعة الرحيم الرحمن»، وأقبل شركان بطائفة أخرى من عساكر المسلمين نحو مائة ألف وعشرين ألفًا، وكان عساكر النصارى نحو ألف ألف وستمائة ألف. فلما اختلط المسلمون بعضهم ببعض قويت قلوبهم ونادوا قائلين: «إن الله وعدنا بالنصر وأوعد الكفار بالخذلان»، ثم تصادموا بالسيف والسنان، واخترق شركان الصفوف وهاج فى الألوف، وقاتل قتالا تشيب منه الأطفال، ولم يزل يجول فى جيوش الأعداء ويعمل فيهم صارمه ذا المضاء، وينادى: «الله أكبر»، حتى رد القوم إلى ساحل البحر وكلت منهم الأجسام ونصر الله الإسلام، والناس يقاتلون وهم سكارى من غير مدام.

وقد قتل من النصارى فى هذه الوقعة خمسة وأربعون ألفًا، وقد قتل من المسلمين ثلاثة آلاف وخمسمائة، ثم إن أسد الدين شركان، لم ينم تلك الليلة، لا هو ولا أخوه ضوء المكان. بل كانا يبشران الناس ويتفقدان الجرحى ويهنئونهم بالنصر والسلامة والثواب فى القيامة، هذا ما كان من أمر المسلمين، وأما ما كان من أمر الملك أفريدون ملك القسطنطينية، وملك الروم وأمه العجوز ذات الدواهى، فإنهم جمعوا أمراء العسكر وقالوا لبعضهم: «إنَّا كنا بلغنا المراد وشفينا الفؤاد، ولكنا إعجابنا بكثرتنا هو الذى خذلنا»، فقالت لهم العجوز ذات الدواهى: «إنه لا ينفعكم إلا أن تتمسكوا بالعزم الصريح، وتهجموا الهجوم الصحيح فوحق المسيح ما قوى عسكر المسلمين إلا هذا الشيطان الملك شركان»، فقال الملك أفريدون: «إنى قد عولت فى غد على أن أصف لهم الصفوف، وأخرج لهم الفارس المعروف لوقا بن شملوط، فإنه إذا برز إلى الملك شركان، قتله وقتل غيره من الأبطال حتى لم يبق منهم أحد».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فلما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح، وتبادرت الفرسان إلى حمل الرماح، دعا الملك أفريدون بخواص بطارقته وأرباب دولته، وخلع عليهم ونقش الصليب فى وجوههم ثم أحضر لوقا بن شملوط الذى يسمونه سيف المسيح، وكان ذلك الفارس لوقا لا يوجد فى بلاد الروم أعظم منه ولا أرمى بالنبال ولا أضرب بالسيف ولا أطعن منه بالرمح يوم النزال، وكان بشع المنظر، له من الليل ظلمته ومن الأسد نكهته ومن النمر وقاحته وبعد ذلك

أقبل على الملك أفريدون وقبل قدميه، ثم وقف بين يديه، فقال له الملك أفريدون: «إنى أريد أن تبرز إلى شركان ملك دمشق ابن عمر بن النعمان، وقد انجلى عنا هذا الشر وهان»، فقال: «سمعًا وطاعة».

ثم انصرف لوقا من عند الملك أفريدون وركب جوادًا أشقر، وعليه ثوب أحمر وزردية من الذهب المرصع بالجوهر، وحمل رمحًا له ثلاث حراب، كأنه إبليس اللعين يوم الأحزاب، وتوجه هو وحزبه وبينهم مناد ينادى بالعربى ويقول: «يا أمة محمد، لا يخرج منكم إلا فارسكم سيف الإسلام، شركان صاحب دمشق الشام».

فما استتم كلامه إلا وعلت ضجة في الفلا، سمع صوتها جميع الملا، وركضات فرقت الصفين وأذكرت يوم حنين، ففزع الأعداء منها والفتوا الأعناق نحوها، وإذا هو الملك شركان ابن الملك عمر بن النعمان، وكان أخوه ضوء المكان، لما رأى ذلك فى الميدان وسمع المنادى التفت إلى أخيه شركان وقال له: «إنهم يريدونك»، فقال: «إن كان الأمر كذلك فهو أحب إليَّ»، فلما تحققوا الأمر وسمعوا هذا المنادى وهو يقول فى الميدان: «لا يبرز لى إلا شركان»، علموا أن هذا المقدام هو فارس من بلاد الروم. وكان قد حلف أن يخلى الأرض من المسلمين، وإلا فهو من أخسر الخاسرين، لأنه هو الذى حرق الأكباد وفزعت من شره الأجناد، من الترك والديلم والأكراد، فعند ذلك برز إليه شركان كأنه أسد غضبان، وكان راكبًا على ظهر جواد يشبه شارد الغزلان، فساقه نحو لوقا حتى صار عنده، وهز الرمح فى يده كأنه أفعى من الحيات، وأنشد هذه الأبيات:

«لى أشقر سمح العنان مسابق يعطيك ما يرضيك من مجهوده
ومثقف لدن السنان كأنما أم المنايا ركبت فى عوده
ومهند عضب إذا جردته خلت البروق تموج في تجريده

فلم يفهم لوقا معنى هذا الكلام ولا حماسة هذا النظام، بل أشرع الرمح نحو شركان وكر عليه، ثم طوح الحربة بإحدى يديه حتى خفيت عن أعين الناظرين وتلقاها باليد الأخرى كفعل الساحرين، ثم رمى بها شركان، فخرجت من يده كأنها شهاب ثاقب، فضجت الناس وخافوا على شركان، فلما قربت الحربة من شركان، اختطفها من الهواء فتحيرت عقول الورى، ثم إن شركان هزها بيده التى أخذها بها من النصرانى حتى كاد أن يقصفها، ورماها فى الجو حتى خفيت عن النظر، والتقاها بيده الثانية فى أقرب لمح البصر، وصاح صيحة من صميم قلبه وقال: «وحق من خلق السبع الطباق، لأجعلن هذا المشؤوم شهرة فى الآفاق»، ثم رماه بالحربة، فأراد لوقا أن يفعل بالحربة، كما فعل شركان، ومد يده إلى الحربة ليختطفها من الهواء، فعاجله شركان بحربة ثانية وضربه بها، فوقعت فى وجهه وفاضت روحه.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهرزاد: فلما رأى الروم لوقا بن شملوط وقع مقتولا، لطموا وجوههم ونادوا بالويل والثبور واستغاثوا ببطارقة الديور، ثم اجتمعوا جميعًا وأعملوا الصوارم والرماح،

وهجموا للحرب والكفاح، والتقت العساكر بالعساكر، وصارت الصدور تحت وقع الحوافر، وتحكمت الرماح والصوارم، وضعفت السواعد والمعاصم، وكان الخيل قد خلقت بلا قوائم، وما زال منادى الحرب ينادى إلى أن كلت الأيادى وذهب النهار وأقبل الليل بالاعتكار، وافترق الجيشان، وصار كل شجاع كالسكران من شدة الضرب والطعان، وقد امتلأت الأرض بالقتلى وعظمت الجراحات، ولا يعرف الجريح ممن مات.

ثم إن شركان اجتمع بأخيه ضوء المكان والحاجب والوزير دندان، فقال شركان لأخيه ضوء المكان والحاجب: «إن الله قد فتح بابًا لهلاك الكافرين، والحمد لله رب العالمين»، فقال ضوء المكان لأخيه: «لم نزل نحمد الله لكشف الكرب عن العرب؛ وسوف تتحدث الناس جيلاً بعد جيل بما صنعت بلوقا، ويبقى حديثك إلى آخر الزمان».

ثم قال لشركان: «أيها الحاجب الكبير والمقدم الخطير» فأجابه بالتلبية، فقال له: «خذ معك الوزير دندان وعشرين ألف فارس، وسر بهم إلى ناحية البحر مقدار سبعة فراسخ، وأسرعوا فى السير حتى تكونوا قريبًا من الساحل، بحيث يبقى بينكم وبين القوم قدر فرسخين، واختفوا فى وهدات الأرض حتى تسمعوا ضجة الروم إذا طلعوا من المراكب، ويصل إليكم الصياح من كل جانب، وقد عملت بيننا وبينهم القواضب. فإذا رأيتم عساكرنا تقهقروا إلى الوراء كأنهم منهزمون، وجاءت الروم زاحفة خلفهم من جميع الجهات حتى من جانب الساحل والخيام، فكونوا لهم بالمرصاد، وإذا رأيت أنت علمًا عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله، فارفع العلم الأخضر وصح قائلاً: الله أكبر، واحمل عليهم من ورائهم واجتهد في أن لا يحول الأعداء بين المنهزمين وبين البحر» فقال: «السمع والطاعة» واتفقوا على ذلك الأمر فى تلك الساعة.

ثم تجهزوا وساروا، وقد أخذ الحاجب معه الوزير دندان وعشرين ألفا كما أمر الملك شركان. فلما أصبح الصباح، ركب القوم وهم مجرودن الصفاح ومعلقون الرماح وحاملون السلاح، وانتشرت الخلائق فى الربى والبطاح، وصاحت القسوس وكشفت الرؤوس، ورفعت الصلبان على قلوع المراكب، وقصدوا الساحل من كل جانب، وأنزلوا الخيل فى البر، وعزموا علي الكر والفر، ولمعت السيوف وتوجهت الجموع وبرقت شهاب الرماح على الدروع، ودارت طاحون المنايا على رؤوس الرجال والفرسان وطارت الرؤوس عن الأبدان، وخرست الألسن وتغشت الأعين وانفطرت المرائر، وعملت البواتر وطارت الجماجم وقطعت المعاصم، وخاضت الخيل فى الدماء، وتقابضوا فى اللحى، وصاحت عساكر الإسلام بالصلاة والسلام على سيد الأنام وبالثناء على الرحمن بما أولى من الإحسان، وصاحت عساكر الروم بالثناء على الصليب العظيم، وتأخر ضوء المكان، هو وشركان إلى ورائهما.

ثم تقهقرت الجيوش وأظهروا الانهزام للأعداء وزحفت عليهم عساكر الروم وتهيأوا للطعن والضرب، فاستهل أهل الإسلام بقراءة أول سورة البقرة، وصارت القتلى تحت أرجل الخيل مندثرة، وصار منادى الروم يقول: «يا عبدة المسيح وذوى الدين الصحيح يا خدم الجاثليق، قد لاح لكم التوفيق، إن عساكر الإسلام قد جنحوا إلى الفرار، فلا تولوا عنهم

الأدبار، فمكنوا السيف في أقفيتهم، ولا ترجعوا من ورائهم وإلا برئتم من المسيح ابن مريم الذى في المهد تكلم»، وظن أفريدون ملك القسطنطينية أن عساكر الروم منصورة، ولم يعلم أن ذلك من حسن تدبير المسلمين، فأرسل إلى ملك الروم يبشره بالظفر، وأقسم بالمعجزات النصرانية المريمية ومياه المعمودية: «أنى لا أترك على الأرض مجاهدًا بالكلية، وأنى مصر على هذه النية»، وتوجه الرسول بهذا الخطاب، ثم صاح الروم على بعضهم قائلين: «خذوا بثأر لوقا».

وصار ملك الروم ينادى: «يا لأخذ ثأر إبريزة»، فعند ذلك صاح ضوء المكان وقال: «يا عباد الملك الديان، اضربوا أهل البغى والطغيان ببيض الصفاح وسمر الرماح»، فرجع المسلمون على النصارى وأعملوا فيهم الصارم البتار، وصار ينادى مناد يا مسلمين ويقول: «عليكم بأعداء الدين يا محبى النبى المختار، هذا وقت إرضاء الكريم الغفار، يا راجى النجاة فى اليوم المخوف، إن الجنة تحت ظلال السيوف» وإذا بشركان قد حمل، وهو ومن معه، على العدو الغدار وقطع عليهم طريق الفرار، وجال بالصفوف وطاف، وإذا بفارس مليح الانعطاف، وقد فتح فى عسكر الروم ميدانًا وجال فيهم حربًا وطعانًا وملأ الأرض رؤوسًا وأبدانًا، قد خافوا من حربه ومالت أعناقهم لطعنه وضربه، وقد تقلد بسيفين لحظ وحسام، واعتقل رمحين قناة وقوام، بوفرة تغنى عن وافر عدد العساكر، كما قال فيه الشاعر:

لا تحسن الوفرة إلا وهى   منشورة الفرعين للنزال

على فتى معتقل صعدة   يعلها من كل وافى السبال

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهرزاد: فلما رآه شركان قال: «أعيذك بالقرآن وآيات الرحمن، من أنت أيها الفارس من الفرسان، فلقد أرضيت بفعلك الملك الديان الذى لا يشغله شأن عن شأن، حيث هزمت أهل الطغيان؟» فناداه الفارس قائلاً: «أنت الذى بالأمس عاهدتنى، فما أسرع ما نسيتنى»، ثم كشف اللثام عن وجهه حتى ظهر ما خفى من حسنه، فإذا هو ضوء المكان ففرح به شركان، إلا أنه خاف عليه من ازدحام الأقران وانطباق الشجعان، وذلك لأمرين: أحدهما صغر سنه وصيانته من العين، والثانى: أن بقاءه للملكة أعظم الجناحين فقال له: «يا ملك، إنك لقد خاطرت بنفسك، فالصق جوادك بجوادى، فإنى لا آمن عليك من الأعداء والمصلحة فى أن لا تخرج من تلك العصائب لأجل أن ترمى الأعداء بسهمك الصائب»، فقال ضوء المكان: «إنى أردت أن أساويك فى النزال، ولا أبخل بنفسى بين يديك فى القتال، ثم انطبقت عساكر الإسلام على الأعداء وأحاطوا بهم من جميع الأقطار، وجاهدوهم حق الجهاد وكسروا شوكتهم.

فتأسف الملك أفريدون لما رأى ما حل بالروم من الأمر المذموم، وقد ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار يقصدون المراكب، وإذا بالعساكر قد خرجت عليهم من ساحل البحر وفى أولهم الوزير دندان، مجندل الشجعان، وضرب فيهم بالسيف والسنان، وكذا الأمير بهرام صاحب

دوائر الشام، وهو فى عشرين ألف ضرغام، وأحاطت بهم عساكر الإسلام من خلف ومن إمام، ومالت فرقة المسلمين على من كان فى المراكب وأوقعوا فيهم المعاطب، فرموا أنفسهم فى البحر وقتلوا منهم جمعًا عظيمًا يزيد عن مائة ألف بطريق، ولم ينج من أبطالهم صغير ولا كبير، وأخذوا مراكبهم بما فيها من الأموال والذخائر والأثقال إلا عشرين مركبًا. وغنم المسلمون فى ذلك اليوم غنيمة ما غنم أحد مثلها فى سالف الزمان، ولا سمعت أذن بمثل هذا الحرب والطعان، ومن جملة ما غنموه خمسون ألفًا من الخيل غير الذخائر والأسلاب بما لا يحيط به حصر ولا حساب، وفرحوا فرحًا ما عليه مزيد بما مَنَّ الله عليهم من النصر. هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر المنهزمين، فإنهم وصلوا إلى القسطنطينية. وكان الخبر قد وصل إلى أهلها أولاً بأن الملك أفريدون هو الظافر بالمسلمين فقالت العجوز ذات الدواهى: «أنا أعلم أن ولدى ملك الروم لا يكون من المنهزمين ولا يخاف من الجيوش الإسلامية، ويرد أهل الأرض إلى الملة النصرانية».

ثم إن العجوز كانت أمرت الملك الأكبر أفريدون أن يزين البلد، فأظهروا السرور وشربوا الخمور وما علموا بالمقدور، فبينما هم فى وسط الأفراح، إذا نعق عليهم غراب الحزن والأتراح، وأقبلت عليهم العشرون مركبًا الهاربة وفيها ملك الروم، فقابلهم أفريدون على الساحل وأخبروه بما جرى لهم من المسلمين، فزاد بكاؤهم وعلا نحيبهم وانقلبت بشارات الخير إلى الغم والضير، وأخبروه أن لوقا بن شملوط حلت به النوائب وتمكن منه سهم المنية الصائب، فقامت على الملك أفريدون القيامة، وعلم أن اعوجاجهم ليس له استقامة، وقامت بينهم المآتم وانحلت منهم العزائم وندبت النوادب وعلا النحيب والبكاء من كل جانب. ولما دخل ملك الروم على الملك أفريدون وأخبره بحقيقة الحال وأن هزيمة المسلمين كانت على وجه الخداع والمحال، قال له: «لا تنتظر أن يصل من المسكر إلا من وصل إليك»، فلما سمع الملك أفريدون ذلك الكلام وقع مغشيا عليه، وصار أنفه تحت قدميه فلما أفاق من غشيته قال: «لعل المسيح غضب عليهم حتى أوصل المسلمين إليهم»، فأقبل البطريق الكبير على الملك مهمومًا، فقال له الملك: «يا أبانا قد وقع في عسكرنا الفناء»، فقال البطريق: «لا تغتموا ولا تحزنوا، فإنه لا بد أن أحدكم فعل ذنبًا فى حق المسيح وعوقب الجميع بذنبه، والآن نقرأ لكم الدعاء فى البيع حتى تندفع عنكم هذه العساكر المحمدية». ثم بعد ذلك أتت العجوز ذات الدواهى وقالت: «أيها الملك، إن عسكر المسلمين كثير ونحن ما نصل إليهم إلا بالحيلة، وإنى عولت أن أعمل حيلة ومكيدة وأمضى إلى هذه العساكر الإسلامية لعلى أبلغ غرضى من المقدم عليهم وأقتل فارسهم مثل ما قتلت أباه، وإذا تمت حيلتى عليه، فما يرجع أحد من عساكره إلى بلاده، فإنهم كلهم أقوياء بسببه، ولكنى أريد من النصارى القاطنين بالشام، الذين يخرجونَ لبيع بضائعهم في كل شهر وعام، أن يساعدونى فإن بهم يتم غرضى». فقال لها الملك: «فى أى وقت أردت ذلك الأمر يكون»، فأمرت بأن يحضر لها مائة رجل من نجران الشام، فأحضروهم عند الملك، فقالَ لهم الملك: «أما تعلمون ما تم على النصارى من المسلمين؟» قالوا: «نعم» فقال لهم الملك: «اعلموا أن هذه المرأة قدمت نفسها للموت، والآن عولت على أن تذهب بكم فى زى الموحدين لتدبير حيلة يعود نفعها علينا وتمنع المسلمين من الوصول إلينا، فهل أنتم واهبون أنفسكم

للمسيح، وأنا أعطيكم قنطارًا من الذهب؟ فمن سلم منكم فله المال، ومن مات فيجازيه المسيح». فقالوا: «أيها الملك، قد وهبنا أنفسنا للمسيح ونحن فداؤك». فعند ذلك أخذت العجوز ما تحتاج إليه من العقاقير ووضعتها فى الماء وغلتها على النار، فانحل السواد، وصبرت حتى بردت، فأخرت عليها طرف منديل طويل، ولبست فوق أثوابها ملوطة مطرزة بطراز وبيدها مسبحة، فعند ذلك دخلت على الملك، فلم يعرفها ولا أحد من الجالسين، فكشفت لهم عن وجهها، فما فى المجلس أحد إلا شكرها على حيلتها، وفرح ابنها وقال: «لا عدم النصارى طلعتك»، فعند ذلك خرجت ومعها النصارى الذين من نجران الشام وساروا طالبين عسكر بغداد.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية مكر العجوز ذات الدواهى

قالت شهرزاد: أما العجوز ذات الدواهى، فكانت كاهنة من الكهان ومتقنة للسحر والبهتان، مكارة غدارة، ولها فم أبخر وجفن أحمر وخد أصفر بوجه أغبش وطرف أعمش وجسم أجرب وشعر أشهب وظهر أحدب ولون حائل ومخاط سائل، لكنها قرأت فى كتب الإسلام وسافرت إلى بيت الله الحرام، كل ذلك لأجل أن تطلع على الأديان وتعرف آيات القرآن وتهودت فى بيت المقدس سنتين لتحوز مكر الثقلين، فهى آفة من الآفات وبلية من البليات فاسدة الاعتقاد، ليس لدين تنقاد، وكان أكثر إقامتها عند ولدها حردوب ملك الروم.

ثم إنها سارت وسار معها عظماء النصارى وعساكرهم وتوجهوا إلى عسكر الإسلام، وبعدها، دخل الملك حردوب على الملك أفريدون وقال له: «أيها الملك، ما لنا حاجة بأمر البطريق الكبير ولا بدعائه، بل نعمل برأى أمى ذات الدواهى، وننظر ما تعمل بخداعها غير المتناهى مع عسكر المسلمين، فإنهم بقوتهم واصلون إلينا، وعن قريب يكونون لدينا ويحيطون بنا». فلما سمع الملك أفريدون ذلك الكلام، عظم فى قلبه الرعب، فكتب من وقته وساعته إلى سائر أقاليم النصارى يقول لهم: «ينبغى أن لا يتخلف أحد من أهل الملة النصرانية والعصابة الصليبية، خصوصًا أهل الحصون والقلاع، بل يأتون إلينا جميعًا رجالاً وركبانًا، فإن عسكر المسلمين قد وطئوا أرضنا، فالعجل العجل قبل حلول الأجل».

هذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من أمر العجوز ذات الدواهى، فإنها طلعت خارج البلد مع أصحابها وألبستهم زى تجار المسلمين، وكانت قد أخذت معها مائة بغل محملة من القماش الأنطاكى ما بين أطلس معدنى وديباج ملكى وغير ذلك، وأخذت من الملك أفريدون كتابًا مضمونه: «إن هؤلاء التجار من أرض الشام وكانوا فى ديارنا؛ فلا ينبغى أن يتعرض لهم أحد بسوء ولا يأخذ منهم عشرًا حتى يصلوا إلى بلادهم ومحل أمنهم، لأن التجار بهم عمار البلاد وليسوا من أهل الحرب والفساد».

ثم إن الملعونة ذات الدواهى قالت لمن معها: «إنى أريد أن أدبر حيلة على هلاك المسلمين» فقالوا لها: «أيها الملكة، مرينا بما شئت فنحن تحت طاعتك، فلبست ثيابًا من

الصوف الأبيض الناعم، وحكّت جبينها حتى صار له وسم جسيم ودهنته بدهان دبرته، حتى صار له ضوء عظيم، وكانت الملعونة نحيلة الجسم، غائرة العينين، فقيدت رجليها من فوق قدميها، وسارت حتى وصلت إلى عسكر المسلمين.

ثم حلت القيد من رجليها، وقد أثر القيد فى ساقيها، ثم دهنتهما بدم الأخوين، وأمرت من معها أن يضربوها ضربًا عنيفًا وأن يضعوها فى صندوق، وقالت لهم: «اعلنوا كلمة التوحيد، وما عليكم فى ذلك من بأس شديد». فقالوا لها: «كيف نضربك وأنت سيدتنا ذات الدواهى، أم الملك المباهى؟» فقالت: «لا لوم عليكم ولا تعنيف فلأجل الضرورات تباح المحظورات، وبعد أن تضعونى فى الصندوق خذوه فى جملة الأموال. واحملوه على البغال، ومروا بذلك بين عسكر الإسلام، ولا تخشوا شيئًا من الملام، وإن تعرض لكم أحد من المسلمين، فسلموا إليه البغال وما عليها من الأموال.

«وانصرفوا إلى ملكهم ضوء المكان واستغيثوا به وقولوا: نحن كنا فى بلاد الروم ولم يأخذوا منا شيئًا، بل كتبوا توقيعًا أنه لا يتعرض لنا أحدٌ، فكيف تأخذون أنتم أموالنا؟ وهذا كتاب ملك الروم الذى مضمونه أن لا يتعرض لنا أحد بمكروه، فإذا قال: وما الذى ربحتموه من بلاد الروم فى تجارتكم؟ فقالوا له: ربحنا خلاص رجل زاهد، وقد كان فى سرداب تحت الأرض، له فيه نحو خمسة عشر عامًا وهو يستغيث فلا يغاث بل يعذبه الروم ليلاً ونهارًا، ولم يكن عندنا علم بذلك مع أننا أقمنا بالقسطنطينية مدة من الزمان، وبعنا بضائعنا واشترينا خلافها، وجهزنا حالنا وعزمنا على الرحيل إلى بلادنا.

وبتنا تلك الليلة نتحدث فى أمر السفر، فلما أصبحنا رأينا صورة مصورة فى الحائط فلما قربنا منها تأملناها فإذا هى تحركت وقالت: يا مسلمون، هل فيكم من يعامل رب العالمين؟ فقلنا: وكيف ذلك؟ فقالت تلك الصورة: إن الله أنطقنى لكم ليقوى يقينكم وتخرجوا من بلاد النصارى وتقصدوا عسكر المسلمين، فإن فيهم سيف الرحمن وبطل الزمان الملك شركان، وهو الذى يفتح القسطنطينية ويهلك أهل النصرانية، فإذا قطعتم سفر ثلاثة أيام، تجدون ديرًا يعرف بدير مطروحنا، وفيه صومعة، فاقصدوها بصدق نيتكم، وتحيلوا على الوصول إليها بقوة عزيمتكم، لأن فيها رجلاً عابدًا من بيت المقدس اسمه عبدالله، وهو من أدين الناس، وله كرامات تزيح الشك والالتباس، قد خدعه بعض الرهبان وسجنه فى سرداب له فيه مدة من الزمان، وفى إنقاذه رضاء رب العباد، لأن فكاكه من أفضل الجهاد».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: ثم إن العجوز لما اتفقت مع من معها على هذا الكلام، قالت: «فإذا ألقى إليكم سمعه الملك شركان، فقولوا له: فلما سمعنا هذا الكلام من تلك الصورة، علمنا أن ذلك العابد من أكابر الصالحين وعباد الله المخلصين، فسافرنا مدة ثلاثة أيام، ثم رأينا ذلك الدير فعرَّجنا عليه وملنا إليه، وأقمنا هناك يومًا فى البيع والشراء على عادة التجار، فلما ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار، قصدنا الصومعة التى فيها السرداب، فسمعنا بعد تلاوة الآيات، ينشد هذه الأبيات:

كـبد أكـابده وصـدرى ضـيق ... وجـرى بقلبى بحـر هم مـفـرق
إن لم يكن فـرج فـمـوت عـاجل ... إن الحـمـام مـن الرزايا أرفق
يا برق إن جـئت الديار وأهلهـا ... وعـلا عليك من البـشـائر رونق
كـيف السـبيل إلى اللقـاء وبيننا ... تلك الحـروب وباب رهن مـغلق
بلغ أحـبـتنا السـلام وقل لهم ... إنى بدير الروم قـاص مـوثق

ثم قالت: «إذا وصلتم بى إلى عسكر المسلمين وصرت عندهم، ترون كيف أدبر حيلة فى خديعتهم وقتلهم عن آخرهم»، فلما سمع النصارى كلام العجوز، قبلوا يديها ووضعوها فى الصندوق بعد أن ضربوها أشد الضربات الموجعات تعظيمًا لها، لأنهم يرون طاعتها من الموجبات، ثم قصدوا بها عسكر المسلمين كما ذكرنا.

هذا ما كان من أمر هذه اللعينة ذات الدواهى ومن معها، وأما ما كان من أمر عسكر المسلمين، فإنهم لما نصرهم الله على أعدائهم وغنموا ما كان فى المراكب من الأموال والذخائر، قعدوا يتحدثون مع بعضهم، فقال ضوء المكان لأخيه: «إن الله نصرنا بسبب عدلنا وانقيادنا لبعضنا، فكن يا شركان ممتثلاً لأمرى فى طاعة الله عز وجل، لأنى نويت أن أقتل عشرة ملوك عوضًا عن أبى، وأذبح خمسين ألفًا من الروم وأدخل القسطنطينية»، فقال له أخوه شركان: «روحى فداؤك من الردى، ولا بد لى من الجهاد ولو أقمت ببلادهم ألف عام، لكن يا أخى، لى فى دمشق ابنة واسمها قضى فكان، وقلبى متعلق بحبها، وهى من غرائب الزمان، وسيكون لها شان»، فقال ضوء المكان: «وأنا الآخر تركت جاريتى وهى حبلى على ميلاد، وما أدرى ما يرزقنى الله فيا أخى، عاهدنى إن رزقنى الله ولدًا ذكرًا، تسمح لى بابنتك قضى فكان أن تكون لولدى وتعطينى المواثيق والأيمان»، فقال شركان: «حبا وكرامة» ومد يده إلى أخيه وقال: «إن جاءك ولدٌ أعطيته قضى فكان»، ففرح بذلك وصار يهنئ بعضهم بعضًا بالنصر على الأعداء.

وهنأ الوزير دندان شركان وأخاه وقال لهما: «اعلما أيها الملكان، أن اللهنصرنا حيث وهبنا أنفسنا لله عـز وجل، وهجـرنا الأهل والأوطان، والرأى عندى أن نرحل وراءهم ونحاصرهم ونقاتلهم، لعل الله يبلغنا مرادنا ونستأصل أعداءنا، وإن شئتم فانزلوا فى هذه المراكب وسيروا فى البحر ونحن نسير فى البر ونصبر على القتال، والطعن فى النزال». ثم إن الوزير دندان ما زال يحرضهم على القتال، وأنشد قول من قال:

أطيب الطيبـات قـتل الأعـادى ... واحـتـمـالى على ظهـور الجـيـاد
ورسـول يأتى بوعـد حـبـيب ... وحـبـيب يأتـى بلا مـيـعـاد
وإن عـمـرت جـعلت الحـرب والدة ... والسـمـهـرى أخًـا والمشرفى أبا
بكل أشعث يلقى الموت مـبـتسمًـا ... حـتى كـأن له فى قـتله أربا

فلما فرغ الوزير دندان من شعره قال: «سبحان من أيدنا بنصره العزيز وأظفرنا بغنيمة لفضة والإبريز»، ثم أمر ضوء المكان العسكر بالرحيل، فسافروا طالبين القسطنطينية، وجدوا فى سيرهم حتى أشرفوا على مرج فسيح فيه كل شىء مليح ما بين وحوش تمرح وغزلان سنح، وكانوا قد قطعوا مفاوز كثيرة وانقطع عنهم الماء ستة أيام، لما أشرفوا على ذلك المرج

نظروا تلك العيون النابعة والأثمار اليانعة وتلك الأرض كأنها جنة أخذت زخرفها وازدانت، وسكرت أغصانها من رحيق الطل فتمايلت، وجمعت بين عذوبة التسنيم واعتلال النسيم، فتدهش العقل والناظر، كما قال الشاعر:

انظروا إلى الروض النضير كأنما ... نشرت عليه ملاءة خضراء
فإذا سنحت بلحظ عينك لا ترى ... إلا غديرًا جال فيه الماء
وترى بنفسك عزة في دوحه ... إذ فوق رأسك حيث سرت لواء
النهر خد بالشعاع مورد ... قد دب فيه عذار ظل البان
والماء في سوق الغصون خلاخل ... من فضة والزهر كالتيجان

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: فلما نظر ضوء المكان إلى ذلك المرج الذي التفت أشجاره وزهت أزهاره وترنمت أطياره، نادى أخاه شركان وقال له: «يا أخي، إن دمشق ما فيها مثل هذا المكان، فلا نرحل منه إلا بعد ثلاثة أيام، حتى نأخذ لنا راحة لأجل أن تنشط عساكر الإسلام وتقوى نفوسهم على لقاء الأعداء اللئام». فبينما هم كذلك، إذا سمعوا أصواتًا من بعيد، فسأل عنها ضوء المكان، فقيل له: «إنها قافلة تجار من بلاد الشام كانوا نازلين بهذا المكان للراحة، لعل العساكر صادفوهم وربما أخذوا شيئًا من بضائعهم، لأنهم كانوا في بلاد الروم».

وبعد ساعة جاء التجار وهم صارخون يستغيثون بالملك، فلما رأى ضوء المكان ذلك، أمر بإحضارهم فحضروا بين يديه وقالوا: «أيها الملك، إنا كنا في بلاد النصارى ولم ينهبوا منا شيئًا، فكيف تنهب أموالنا إخواننا المسلمون ونحن في بلادهم؟ فإننا لما رأينا عساكركم، أقبلنا، فأخذوا ما كان معنا، وقد أخبرناك بما حصل لنا».

ثم أخرجوا له كتاب ملك القسطنطينية، فأخذه شركان وقرأه ثم قال لهم: «سوف نرد عليكم ما أخذ منكم، ولكن كان الواجب أن لا تحملوا تجارة إلى بلاد النصارى»، فقالوا: «يا مولانا، إن الله سيرنا إلى بلادهم لنظفر بما لم يظفر به أحد من الغزاة، ولا أنتم في غزواتكم»، فقال لهم شركان: «وما الذي ظفرتم به؟» فقالوا: «لا نذكر ذلك إلا في الخلوة، لأن هذا الأمر إذا شاع بين الناس، ربما اطلع عليه أحد، فيكون ذلك سببًا لهلاكنا وهلاك كل من يتوجه إلى بلاد الروم من المسلمين»، وكانوا قد خبأوا الصندوق الذي فيه ذات الدواهي، فأخذهم ضوء المكان وأخوه واختليا بهم، فشرحوا لهما حديث الزاهد وصاروا يبكون حتى أبكوهما.

وأخبروهما كما علمتهم الكاهنة ذات الدواهي، فرق قلب شركان للزاهد وأخذته الرأفة عليه، وقامت به الحمية لله تعالى وقال لهم: «هل خلصتم هذا الزاهد أم هو في الدير إلى الآن؟» فقالوا: «بل خلصناه وقتلنا صاحب الدير من خوفنا على أنفسنا»، ثم أسرعنا في الهرب خوفًا من العطب، وقد أخبرنا بعض الثقات أن في هذا الدير قناطير من الذهب والفضة والجواهر».

وبعد ذلك أتوا بالصندوق وأخرجوا منه تلك الخبيثة، كأنها قرن خيار شنبر من شدة السواد والنحول، وهى مكبلة بتلك السلاسل والقيود، فلما نظرها ضوء المكان هو والحاضرون ظنوا أنه رجل من خيار العباد وأفضل الزهاد، خصوصًا وجبينها يضيء من الدهان الذى دهنت به وجهها، فبكى ضوء المكان وأخوه بكاء شديدًا.

ثم قاما إليها وقبلا يديها ورجليها وصارا ينتحبان، فأشارت إليهما وقالت: «كفًا عن هذا البكاء واسمعا كلامى» فتركا البكاء امتثالاً لأمرها، فقالت: «اعلما أنى قد رضيت بما صنعه بى مولاى، لأنى أرى أن البلاء الذى نزل بى امتحان منه عز وجل، ومن لا يصبر على البلاء والمحن، فليس له وصول إلى جنات النعيم، وكنت أتمنى أنى أعود إلى بلادى، لا جزعا من البلاء الذى حل بى، بل لأجل أن أموت تحت حوافر خيل المجاهدين الذى هم بعد القتل أحياء غير أموات»، ثم أنشدت هذه الأبيات:

الحصن طور ونار الحرب موقدة وأنت موسى وهذا الوقت ميقات

ألق العصا تتلقف كل ما صنعوا ولا تخف ما حبال القوم حيات

فاقرأ سطور العدى يوم الوغى سورًا فإن سيفك فى الأعناق آيات

فلما فرغت العجوز من شعرها، تناثرت من عينيها المدامع، وجبينها بالدهان كالضوء اللامع، فقام إليها شركان وقبل يديها وأحضر لها الطعام، فتمنعت وقالت: «إنى لم أفطر من مدة خمسة عشر عامًا، فكيف أفطر فى هذه الساعة وقد جاد على المولى بالخلاص من أسر الروم ودفع عنى ما هو أشق من عذاب النار، فأنا أصبر إلى الغروب».

فلما جاء وقت العشاء أقبل شركان هو وضوء المكان، وقدما إليها الأكل وقالا لها: «كل أيها الزاهد»، فقالت: «ما هذا وقت الأكل، وإنما هذا وقت عبادة الملك الديان» ثم انتصبت فى المحراب تصلى إلى أن ذهب الليل، ولم تزل على هذه الحالة ثلاثة أيام بلياليها وهى لم تقعد إلا وقت التحية، فلما رآها ضوء المكان على تلك الحالة، ملك قلبه حسن الاعتقاد فيها وقال لشركان: «اضرب خيمة من الأديم لذلك العابد ووكل فراشًا بخدمته»، وفى اليوم الرابع دعت بالطعام، فقدموا لها من الألوان ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، فلم تأكل من ذلك كله إلا رغيفًا واحدًا بملح، ثم نوت الصوم.

ولما جاء الليل قامت إلى الصلاة، فقال شركان لضوء المكان: «أما هذا الرجل فقد زهد الدنيا غاية الزهد، ولولا هذا الجهاد لكنت لازمته وأعبد الله بخدمته حتى ألقاه. وقد اشتهيت أن أدخل معه الخيمة وأتحدث مع ساعة»، فقال له ضوء المكان: «وأنا كذلك، ولكن نحن فى غد ذاهبون إلى غزو القسطنطينية ولم نجد لنا ساعة مثل هذه الساعة»، فقال الوزير دندان: «وأنا الآخر أشتهى أن أرى هذا الزاهد لعله يدعو لى بقضاء نحبى فى الجهاد ولقاء ربى، فإنى زهدت فى الدنيا».

فلما جن عليهما الليل، دخلا على تلك الكاهنة ذات الدواهى فى خيمتها، فرأياها قائمة تصلى، فدنوا منها وصارا يبكيان رحمة لها، وهى لا تلتفت إليهما، إلى أن انتصف الليل، فسلمت من صلاتها، ثم أقبلت عليهما وحيتهما وقالت لهما: «لماذا جئتما؟» فقالا لها: «أيها العابد، أما

سمعت بكاءنا حولك؟» فقالت: «إن الذى يقف بين يدى الله لا يكون له وجود فى الكون حتى يسمع صوت واحد أو يراه»، ثم إنهما قالا: «إننا نشتهى أن تحدثنا بسبب أسرك وتدعو لنا فى هذه الليلة، فأنه خير لنا من ملك القسطنطينية».

فلما سمعت كلامهما قالت: «والله، لولا أنكم أمراء المسلمين لما حدثتكم بشيء من ذلك أبدًا، فإنى لا أشكو إلا إلى الله، وهنا أنا أخبركم بسبب أسرى».

«اعلموا أننى كنت فى القدس مع بعض الأبدال وأرباب الأحوال، وكنت لا أتكبر عليهم لأن الله سبحانه وتعالى أنعم علي بالتواضع والزهد، فاتفق أننى توجهت إلى البحر ليلة ومشيت على الماء، فداخلنى العجب من حيث لا أدرى وقلت فى نفسى: من مثلى يمشى على الماء؟ فقسا قلبى من ذلك الوقت، وابتلانى الله بحب السفر، فسافرت إلى بلاد الروم وجلت فى أقطارها سنة كاملة حتى لم أترك موضعًا إلا عبدت الله فيه.

«فلما وصلت إلى هذا المكان، صعدت إلى هذا الجبل، وفيه دير وراهب يقال له مطروحنا، فلما رآنى خرج إلى وقبل يدي ورجلي فقال: «إنى رأيتك منذ دخلت بلاد الروم وقد شوقتنى إلى بلاد الإسلام، ثم إنه أخذ بيدى وأدخلنى الدير، ثم دخل بى إلى بيت مظلم، فلما دخلت فيه، غافلنى وأغلق على الباب وتركنى فيه أربعين يومًا من غير طعام ولا شراب، وكان قصده بذلك قتلى صبرًا.

فاتفق فى بعض الأيام أنه دخل ذلك الدير بطريق يقال له دقيانوس، ومعه عشرة غلمان، ومعه ابنة يقال لها تماثيل، ولكنها فى الحسن ليس لها مثيل، فلما دخلوا الدير أخبرهم الراهب مطروحنا بخبرى، فقال البطريق: أخرجوه لأنه لم يبق من لحمه ما يأكله الطير، ففتحوا باب ذلك البيت المظلم، فوجدونى منتصبًا كالمحراب أصلى وأقرأ وأسبح وأتضرع إلى الله تعالى، فلما رأونى على تلك الحالة، قال مطروحنا: إن هذا ساحر من السحرة، فلما سمعوا كلامه، قاموا جميعًا ودخلوا على، وأقبل دقيانوس هو وجماعته وضربونى ضربًا عنيفًا، فعند ذلك تمنيت الموت ولمت نفسى وقلت: هذا جزاء من يتكبر ويعجب بما أنعم عليه ربه مما ليس فى طاقته، وأنت يا نفسى، قد داخلك العجب والكبر، أما علمت أن الكبر يغضب الرب ويقسى القلب ويدخل الإنسان النار؟

«ثم بعد ذلك قيدونى وردونى إلى مكانى، وكان سردابًا فى ذلك البيت تحت الأرض وكل ثلاثة أيام يرمون إلى قرصًا من الشعير وشربة ماء، وكل شهر أو شهرين يأتى البطريق ويدخل ذلك الدير، وقد كبرت ابنته تماثيل، لأنها كانت بنت تسع سنين حين رأيتها، ومضى لى فى الأسر خمس عشرة سنة، فجملة عمرها أربعة وعشرون عامًا، وليس فى بلادنا ولا فى بلاد الروم أحسن منها، وكان أبوها يخاف عليها من الملك أن يأخذها منه، لأنها تبتلت ووهبت نفسها للمسيح، غير أنها تركب مع أبيها فى زى الرجال الفرسان، وليس لها مثيل فى الحسن، ولا يعلم من رآها أنها جارية.

«وقد خزن أبوها ماله فى هذا الدير، لأن كل من كان عنده شيء من نفائس الذخائر يضعه فى ذلك الدير، وقد رأيت فيه أنواع الذهب والفضة والجواهر وسائر الأوانى والتحف

ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، فأنتم أولى به من هؤلاء اللئام، فخذوا ما فى هذا الدير من الغنائم وأنفقوه على المسلمين وخصوصًا المجاهدين.

«ولما وصل هؤلاء التجار إلى القسطنطينية وباعوا بضاعتهم، كلمتهم تلك الصورة التى فى الحائط لكرامة أكرمنى الله بها، فجاؤوا إلى ذلك الدير وقتلوا البطريق مطروحنا بعد أن عاقبوه أشد العقاب، وجروه من لحيته، فدلهم على موضعى فأخذونى، ولم يكن لهم سبيل إلا الهرب خوفًا من العطب، وفى ليلة غد تأتى تماثيل إلى ذلك الدير كعادتها، ويلحقها أبوها مع غلمانه لأنه يخاف عليها، فإن شئتم أن تشاهدوا هذا الأمر فخذونى بين أيديكم، وأنا أسلم إليكم الأموال وخزانة البطريق دقيانوس التى فى ذلك الجبل، وإن شئتم، فادخلوا ذلك الدير وأكمنوا فيه إلى أن يصل البطريق دقيانوس ومعه ابنته، فخذوها، فإنها لا تصلح إلا لملك الزمان شركان أو للملك ضوء المكان».

ففرحوا بذلك حين سمعوا كلامها، إلا الوزير دندان، فإنه لم يصدقها وما دخل كلامها فى عقله، وإنما كان يتحدث معها لأجل خاطر الملك، وصار باهتًا من كلامها، يلوح على وجهه علامة الإنكار عليها، فقالت العجوز ذات الدواهى: إنى أخاف أن يقبل البطريق وينظر هذه العساكر فى المرج، فما يجسر أن يدخل الدير»، فأمر السلطان العسكر أن يرحلوا صوب القسطنطينية. وقال ضوء المكان: «إن قصدى أن نأخذ معنا مائة فارس وبغالاً كثيرة ونتوجه إلى ذلك الجبل لأجل أن نحملهم المال الذى فى الدير».

ثم أرسل من وقته وساعته إلى الحاجب الكبير فأحضره بين يديه وأحضر المقدمين والأتراك والديلم وقال: «إذا كان وقت الصباح، فارحلوا إلى القسطنطينية، وأنت أيها الحاجب، عوض عنى فى الرأى والتدبير، وأنت يا رستم، تكون نائبًا عن أخى فى القتال، ولا تعلموا أحدًا أننا لسنا معكم، وبعد ثلاثة أيام نلحقكم».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: ثم انتخب مائة فارس من الأبطال، وانحاز هو وأخوه شركان والوزير دندان والمائة فارس وأخذوا معهم البغال والصناديق لأجل حمل المال. فلما أصبح الصباح نادى الحاجب بين العساكر بالرحيل، فرحلوا وهم يظنون أن شركان وضوء المكان والوزير دندان معهم، ولم يعلموا أنهم ذهبوا إلى الدير. هذا ما كان من أمرهم. وأما ما كان من أمر شركان وأخيه ضوء المكان والوزير دندان، فإنهم أقاموا إلى آخر النهار، وكانت الروم، أصحاب ذات الدواهى، رحلوا خفية بعد أن دخلوا عليها وقبلوا يديها ورجليها، واستأذنوها فى الرحيل، فأذنت لهم وأمرتهم بما شاءت من المكر.

فلما جنّ الظلام، قامت العجوز وقالت لضوء المكان وأصحابه: «قوموا معى إلى الجبل وخذوا معكم قليلاً من العساكر». فأطاعوها وتركوا فى سفح الجبل خمسة فوارس وسار الباقون بين يدى ذات الدواهى، وصار عندها قوة من شدة فرحها، وصار ضوء المكان يقول: «سبحان من قوّى هذا الزاهد الذى ما رأينا مثله».

وكانت الكاهنة قد أرسلت كتابًا على أجنحة الطير إلى ملك القسطنطينية تخبره فيه بما جرى، وقالت في آخر الكتاب: «أريد أن تنفذ لي عشرة آلاف فارس من شجعان الروم ويكون سيرهم في سفح الجبل خفية، لئلا يراهم عسكر الإسلام، ويأتون إلى الدير ويكمنون فيه حتى أحضر إليهم ومعي ملك المسلمين وأخوه، فإني خدعتهما وجئت بهما ومعهما الوزير ومائة فارس لا غير، وقد عزمت على قتل الراهب مطروحنا لأن الحيلة لن تتم إلا بقتله، فإذا تمت الحيلة، فلا يصل من المسلمين إلى بلادهم لا ديار ولا نافخ نار».

فلما وصل الكتاب إلى القسطنطينية، جاء برّاج الحمام إلى الملك أفريدون بالورقة، فلما قرأها، أنفذ الجيش من وقته وجهز كل واحد بفرس وهجين وبغل وزاد، وأمرهم أن يصلوا إلى ذلك الدير، فلما وصلوا إلى البرج المعروف كمنوا فيه.

هذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من أمر الملك ضوء المكان وأخيه شركان والوزير دندان والعسكر، فإنهم لما وصلوا إلى الدير دخلوه، فرأوا الراهب مطروحنا قد أقبل لينظر حالهم، فقال الزاهد: «اقتلوا هذا اللعين» فضربوه بالسيف وسقوه كأس الحتوف، ثم مضت بهم الملعونة إلى موضع النذور، فأخرجوا منه من التحف والذخائر أكثر مما وصفته لهم، وبعد أن جمعوا ذلك، وضعوه في الصناديق وحملوه على البغال.

وأما تماثيل فإنها لم تحضر لا هي ولا أبوها خوفًا من المسلمين، فأقام ضوء المكان في انتظارها ذلك النهار وثاني يوم وثالث يوم، فقال شركان: «والله قلبي مشغول بعسكر الإسلام ولا أدري ما حالهم». فقال أخوه: «إنّا قد أخذنا هذا المال العظيم، وما نظن أن تماثيل ولا غيرها يأتي إلى هذا الدير بعد أن جرى لعسكر الروم ما جرى، فينبغي أننا نقنع بما يسره الله لنا ونتوجه لعلّ الله يعيننا على فتح القسطنطينية، ثم نزلوا من الجبل فما أمكن ذات الدواهي أن تتعرض لهم خوفًا من التفطن لخداعها.

ثم إنهم ساروا إلى أن وصلوا إلى باب الشعب، وإذا بالعجوز قد أكمنت لهم عشرة آلاف فارس، فلما رأوهم أحاطوا بهم من كل جانب وأشرعوا نحوهم الرماح، وجردوا عليهم بيض الصفاح، وفوقوا سهام شرهم، فنظر ضوء المكان وأخوه شركان والوزير دندان إلى هذا الجيش، فرأوه جيشًا عظيمًا وقالوا: «من أعلم هذه العساكر بنا؟» فقال شركان: «يا أخي ما هذا وقت كلام، بل هذا وقت الضرب بالسيف والرمي بالسهام، فشدوا عزمكم وقووا نفوسكم لأن هذا الشعب مثل الدرب له بابان، ولولا أن هذا المكان ضيق لكنت أفنيتهم ولو كانوا مائة ألف فارس» فقال ضوء المكان: «لو علمنا ذلك، لأخذنا معنا خمسة آلاف فارس»، فقال الوزير دندان:

«لو كان معنا عشرة آلاف فارس في هذا المكان الضيق لا تفيدنا شيئًا، ولكن الله يعيننا عليهم، وأنا أعرف هذا الشعب وضيقه، وأعرف أن فيه مفاوز كثيرة، لأني قد غزوت فيه مع الملك عمر بن النعمان حيث حاصرنا القسطنطينية، وكنا نقيم فيه، وفيه ماء أبرد من الثلج، فانهضوا بنا لنخرج من هذا الشعب قبل أن يكثر علينا العساكر ويسبقونا إلى رأس الجبل، فيرمَون علينا الحجارة ولا نملك منهم أربًا» فأخذوا في الإسراع بالخروج من ذلك الشعب، فنظر إليهم الزاهد وقال له «ما هذا الخوف وأنتم قد بعتم أنفسكم لله تعالى في سبيله، إني

مكثت مسجونًا تحت الأرض خمسة عشرة عامًا ولم أعترض على الله فيما فعل بى فقاتلوا فى سبيل الله. فمن قتل منكم فالجنة مأواه، ومن قتل فإلى الشرف مسعاه». فلما سمعوا من الزاهد هذا الكلام زال عنهم الهم والغم، وثبتوا حتى هجمت عليهم الروم من كل مكان، ولعبت فى أعناقهم السيوف، ودارت بينهم كاس الحتوف، وقاتل المسلمون أشد القتال، وأعملوا فى أعدائهم الأسنة والنصال، وصار ضوء المكان يضرب الرجال ويجندل الأبطال ويرمى رؤوسهم خمسة خمسة وعشرة عشرة، حتى أفنى منهم عددًا لا يحصى وجملاً لا تستقصى.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهرزاد: فبينما هو كذلك إذ نظر الغادرة وهى تشير بالسيف إليهم وتقويهم، وكل من خاف يهرب إليها، وصارت تومىء إليهم بقتل شركان، فيميلون إلى قتله فرقة بعد فرقة، وكل فرقة حملت عليه يحمل عليها ويهزمها، وتأتى بعدها فرقة أخرى حاملة عليه، فيردها بالسيف على أعقابها، فظن أنه نصره عليهم ببركة العابد وقال فى نفسه: «إن هذا العابد قد نظر الله إليه بعين عنايته، وقوّى عزمى على العدو بخالص نيته، فأراهم يخافوننى ولا يستطيعون الإقدام علىّ، بل كل ما حملوا علىّ يولون الأدبار ويركنون إلى الفرار»، ثم قاتلوا بقية يومهم إلى آخر النهار.

ولما أقبل الليل نزلوا فى مغارة من ذلك الشعب من كثرة ما حصل لهم من الوبال ورمى الحجارة، وقتل منهم فى ذلك خمسة وأربعون رجلاً. ولما اجتمعوا مع بعضهم فتشوا على ذلك الزاهد فلم يروا له أثرًا، فعظم عليهم ذلك وقالوا لعله استشهد، فقال شركان: أنا رأيته يقوى الفرسان بالإشارة الربانية ويعيذهم بالآيات الرحمانية»، فبينما هم في الكلام وإذا بالخبيثة ذات الدواهى قد أقبلت وفى يدها رأس البطريق الكبير، الرئيس على العشرين ألفًا، وكان جبارًا عنيدًا وشيطانًا مريدًا وقد قتله رجل من الأتراك بسهم.

فلما رأى الروم ما فعل ذلك المسلم بصاحبهم مالوا بكيلتهم عليه وأوصلوا الأذية إليه وقطعوه بالسيوف، ثم إن الملعونة قطعت رأس ذلك البطريق وأتت به وألقته بين يدى شركان والملك ضوء المكان والوزير دندان، فلما رآها شركان وثب قائمًا على قدميه وقال: «الحمد لله على سلامتك ورؤيتك أيها العابد الماجد الزاهد».

أما ذات الدواهى فأجابته قائلة: «يا ولدى، إنى قد طلبت الشهادة فى هذا اليوم، فصرت أرمى روحى بين عسكر الأعداء وهم يهابوننى، فلما انفصلتم، أخذتنى الغيرة عليكم وهجمت على البطريق الكبير رئيسهم، وكان يعد بألف فارس، فضربته حتى أطحت رأسه عن بدنه، ولم يقدر أحد من الأعداء أن يدنو منى، وأتيت برأسه إليكم لتقوى نفوسكم على الجهاد وترضوا بسيوفكم رب العابد وأريد أن أشغلكم فى الجهاد وأذهب إلى عسكركم ولو كانوا على باب القسطنطينية، وآتيكم من عندهم بعشرين ألف فارس يهلكون هؤلاء اللئام»، فقال شركان: «وكيف تمضى إليهم أيها الزاهد، والوادى مسدود بالعدو من كل جانب؟» فقالت الخبيثة: «الله يسترنى عن أعينهم فلا يروننى، ومن رآنى لا يجسر أن يقبل علىّ فإنى فى ذلك الوقت أكون

فانيًا في الله، وهو يقاتل عني عداه». فقال شركان: «صدقت أيها الزاهد، لأني شاهدت ذلك، وإذا كنت تقدر أن تمضي أول الليل يكون ذلك أجود لنا»، فقال: «أنا أمضي في هذه الساعة، وإن كنت تريد أن تجيء معي ولا يراك أحد فقم، وإن كان أخوك يذهب معنا أخذناه دون غيره، فإن ظل الولي لا يستر غير اثنين»، فقال شركان: «أما أنا فلا أترك أصحابي ولكن إذا كان أخي يرضى بذلك فلا بأس حيث ذهب معك وخلص من هذا الضيق، فإنه هو حصن المسلمين وسيف رب العالمين، وإن شاء فليأخذ معه الوزير دندان أو من يختار، ثم يرسل إلينا عشرة آلاف فارس إعانة على هؤلاء اللئام» فاصطلحوا واتفقوا على هذا الحال.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: ثم إن العجوز قالت: «أمهلوني حتى أذهب قبلكم وأنظر حال العدو: هل هم نيام أو يقظانون» فقالوا: «ما نخرج إلا معك ونسلم أمرنا لله» فقالت: «إذا طاوعتكم لا تلوموني ولوموا أنفسكم، فالرأي عندي تمهلوني حتى أكشف خبرهم» فقال شركان: «امض إليهم ولا تبطئي علينا لأننا ننتظرك»، فعند ذلك خرجت ذات الدواهي.

وجعل شركان يحدث أخاه بعد خروجها وقال: «لولا أن الزاهد صاحب كرامات ما كان قتل هذا البطريق الجبار، وفي هذا القدر كفاية في كرامة هذا الزاهد، وقد انكسرت شوكة العدو بقتل هذا البطريق، لأنه كان جبارًا عنيدًا وشيطانًا مريدًا». فبينما هما يتحدثان في كرامات الزاهد، وإذا بذات الدواهي قد دخلت عليهما ووعدتهما بالنصر على القوم، فشكرا الزاهد على ذلك، ولم يعلما أن هذه حيلة وخداع ثم قالت لهما: «أين ملك الزمان ضوء المكان؟» فأجابها بالتلبية، فقالت له: «خذ معك وزيرك وسر خلفي حتى نذهب إلى القسطنطينية». وكانت ذات الدواهي قد أعلمت الروم بالحيلة التي عملتها، ففرحوا بذلك غاية الفرح وقالوا: «ما جبير خاطرنا إلا قتل ملكهم في نظير قتل البطريق، لأنه لم يكن عندنا أفرس منه»، وقالوا لعجوز النحس ذات الدواهي، حتى أخبرهم بأنها تذهب إليهم بملك المسلمين: «إذا أتيت به نأخذه إلى الملك أفريدون».

ثم إن العجوز ذات الدواهي توجهت وتوجه معها ضوء المكان والوزير دندان وهي تتقدمهما وتقول لهما: «سيرا على بركة الله تعالى» فأجاباها إلى قولها، ونفذ فيهما سهم القضاء والقدر، ولم تزل سائرة بهما حتى توسطت بهما بين عسكر الروم ووصلوا إلى الشعب المذكور الضيق، وعساكر الروم ينظرون إليهم ولا يتعرضون لهم بسوء لأن العجوز أوصتهم بذلك، فلما نظر ضوء المكان والوزير دندان إلى عسكر العدو وعرفوا أن الروم عاينوهم ولم يتعرضوا لهم قال الوزير دندان: «حقا إن هذا كرامة من الزاهد ولا شك أنه من الخواص». فقال ضوء المكان: «ما أظن العدى إلا عميانًا نراهم وهم لا يروننا».

فبينما هما في الثناء على الزاهد وتعداد كراماته وزهده وعبادته، وإذا بالروم قد هجموا عليهما وأحاطوا بهما وقبضوا عليهما وقالوا: «هل معكما أحد غيركما فنقبض عليه؟» فقال الوزير دندان: «أما ترون هذا الرجل الآخر الذي بين أيدينا؟» فقالوا لهما: «إننا لا نرى

أحدًا غيركما»، فقال ضوء المكان: «إن الذى حل بنا عقوبة لنا من الله تعالى». ثم إن الروم وضعوا القيود فى أرجلهما ووكلوا بهما من يحرسهما فى المبيت وغابت العجوز ذات الدواهى عن أعينهما، فصارا يتأسفان ويقولان لبعضهما: «إن الاعتراض على الصالحين يؤدى إلى أكثر من ذلك، وجزاؤنا ما حلَّ بنا من الضيق الذى نحن فيه».

هذا ما كان من أمر ضوء المكان والوزير دندان، وأما ما كان من أمر الملك شركان فإنه بات تلك الليلة، فلما أصبح الصباح قام وصلى صلاة الصبح، ثم نهض هو ومن معه من العساكر وتأهبوا لقتال الروم، وقوَّى قلبهم شركان ووعدهم بكل خير، ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى الروم، فلما رآهم الروم من بعيد قالوا لهم: «يا مسلمون، إنا أسرنا سلطانكم ووزيره الذى به انتظام أمركم، وإن لم ترجعوا عن قتالنا، قتلناكم عن آخركم، وإذا سلمتم لنا أنفسكم، فإننا نروح بكم إلى ملكنا فيصالحكم على أن لا تخرجوا من بلادنا ولا تذهبوا إلى بلادكم ولا تضرونا بشىء ولا نضركم بشىء، فإن طاب خاطركم كان الحظ لكم، وإن أبيتم فما يكون إلاَّ قتلكم، وقد عرَّفناكم وهذا يكون آخر كلامنا معكم».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



بقية حكاية قتل عسكر المسلمين والنصارى

قالت شهرزاد: فلما سمع شركان كلامهم وتحقق أسر أخيه والوزير دندان، عظم عليه ذلك وبكى وضعفت قوته وأيقن بالهلاك، فقال فى نفسه: «يا ترى ما سبب أسرهما؟ هل حصل منهما إساءة أدب فى حق الزاهد واعترضا عليه أو ما شأنهما؟» ثم نهضوا إلى قتال الروم فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وتبين فى ذلك اليوم الشجاع من الجبان، واختضب السيف والسنان، وتهافت عليهم الأعداء، تهافت الذئاب على الشراب من كل مكان، وما زال شركان ومن معه يقاتلون قتال من لا يخاف الموت، ولا يعتريه فى طلب الفرصة فوت، حتى سال الوادى بالدماء وامتلأت الأرض بالقتلى.

فلما أقبل الليل تفرقت الجيوش، وكل من الفريقين ذهب إلى مكانه، وعاد المسلمون إلى تلك المغارة وبانت منهم الغلبة والخسارة، ولم يبق منهم إلا القليل، ولم يكن منهم إلا على الله والسيف تعويل، وقد قتل منهم فى هذا النهار خمسة وثلاثون فارسًا من الأمراء والأعيان، وإن قتل بسيفهم من الروم آلاف من الرجال والركبان.

فلما عاين شركان ذلك، ضاق عليه الأمر وقال لأصحابه: «كيف نعمل؟». فقال له أصحابه: «لا يكون إلا ما يريده الله تعالى»، فلما كان ثانى يوم قال شركان لبقية العسكر: «إن خرجتم للقتال ما بقى منكم أحد، لأنه لم يبق عندنا إلا قليل من الماء والزاد، والرأى الذى عندى فيه الرشاد أن تجردوا سيوفكم وتخرجوا وتقفوا على باب تلك المغارة لأجل أن تدفعوا عن أنفسكم من يدخل عليكم، فلعل الزاهد يكون قد وصل إلى عسكر المسلمين ويأتينا بعشرة

آلاف فارس فيعينونا على قتال الأعداء، ولعل الأعداء لم ينظروه هو ومن معه». فقال له أصحابه: «إن هذا الرأى هو الصواب، وما فى سداده ارتياب».

ثم إن العسكر خرجوا وملكوا باب المغارة ووقفوا فى طرفيه، وكل من أراد أن يدخل عليهم من الروم يقتلونه، وصاروا يدفعون الأعداء من الباب، وصبروا على القتال إلى أن ذهب النهار وأقبل الليل بالاعتكار، ولم يبق عند الملك شركان إلا خمسة وعشرون رجلاً لا غير. فقال الروم لبعضهم: «متى تنقضى هذه الأيام فإننا قد تعبنا من قتال المسلمين؟» فقال بعضهم: «قوموا لنهجم عليهم، فإنه لم يبق منهم إلا خمسة وعشرون رجلاً؛ فإن لم نقدر عليهم نضرم عليهم النار، فإن انقادوا وسلموا أنفسهم إلينا، أخذناهم أسرى، وإن أبوا، تركناهم حطبًا للنار حتى يصيروا عبرة لأولى الأبصار». ثم إنهم حملوا الحطب إلى باب المغارة وأضرموا فيه النار، فأيقن شركان ومن معه بالبوار، فسلموا نفوسهم، فبينما هم كذلك وإذا بالبطريق الرئيس عليهم التفت إلى المشير بقتلهم فقال له: «لا يكون قتلهم إلا عند الملك أفريدون لأجل أن يشفى غليله، فينبغى أن نبقيهم عندنا أسرى وفى غد نسافر بهم إلى القسطنطينية ونسلمهم إلى الملك أفريدون فيفعل بهم ما يريد». فقالوا: «هذا هو الرأى الصواب». ثم أمروا بتكتيفهم وجعلوا عليهم حراسًا.

فلما جن الظلام اشتغلوا باللهو والطعام ودعوا بالشراب فشربوا حتى انقلب كل منهم على قفاه، وكان شركان وأخوه ضوء المكان مقيدين وكذلك من معهم من الأبطال، فعند ذلك نظر شركان إلى أخيه وقال له: «يا أخى كيف الخلاص؟» فقال ضوء المكان: «لا أدرى وقد صرنا كالطير فى الأقفاص»، فاغتاظ شركان وتنهد من شدة غيظه وتمطى فانقطع الكتاف، فلما خلص من الوثاق قام إلى رئيس الحراس وأخذ مفاتيح القيود من جيبه وفكَّ ضوء المكان وفك الوزير دندان وفك بقية العسكر، ثم التفت إلى أخيه ضوء المكان والوزير دندان وقال: «إنى أريد أن أقتل من الحراس ثلاثة ونأخذ ثيابهم ونلبسها نحن الثلاثة حتى نصير فى زى الروم ونسير بينهم حتى لا يعرفوا أحدًا منَّا، ثم نتوجه إلى عسكرنا». فقال ضوء المكان: «إن هذا الرأى غير صواب، لأننا إذا قتلناهم نخاف أن يسمع أحد شخيرهم فتنتبه إلينا الروم فيقتلوننا، والرأى السديد أن نسير إلى خارج الشعب». فأجابوه إلى ذلك، وساروا مسرعين فى جنح الظلام.

فلما صاروا بعيدًا عن الشعب بقليل، رأوا خيلاً مربوطة وأصحابها نائمون، فقال شركان لأخيه: «ينبغى أن يأخذ كل واحد منا جوادًا من هذه الخيول» وكانوا خمسة وعشرين رجلاً، فأخذوا خمسة وعشرين جوادًا، وقد ألقى الله النوم على الروم والحكمة يعلمها، ثم إن شركان جعل يختلس من الروم السلاح، من السيوف والرماح، حتى اكتفى، ثم ركبوا الخيل التى أخذوها، مع السيوف والرماح التى اختلسوها، وساروا آمنين مطمئنين.

وكان فى ظن الروم أنه لا يقدر أحد على فكاك ضوء المكان وأخيه ومن معهما من العساكر وأنهم لا يقدرون على الهرب، فلما خلصوا جميعًا من الأسر وصاروا فى أمن منهم، ولى شركان إلى أصحابه فوجدهم فى انتظاره واقفين على نار، وهم من أجله فى غاية

الافتكار، فالتفت إليهم شركان وقال لهم: «لا تخافوا حيث سترنا الله، ولكن عندى رأى ولعله صواب» فقالوا: «وما هو؟» قال: «أريد أن تطلعوا إلى فوق الجبل وتكبروا كلكم تكبيرة واحدة وتقولوا: لقد جاءتكم العساكر الإسلامية، ونصيح كلنا صيحة واحدة بقول: «الله أكبر». فيفترق الجمع من ذلك ولا يجدون لهم فى هذا الوقت حيلة، فإنهم سكارى، ويظنون أن عسكر المسلمين أحاطوا بهم من كل جانب واختلطوا بهم، فيقعون ضربًا بالسيوف فى بعضهم من دهشة السكر والنوم، فنقطعهم بسيوفهم ويدور السيف فيهم إلى الصباح»، فقال ضوء المكان: «إن هذا الرأي غير صواب، والصواب أننا نسير إلى عساكرنا ولا ننطق بكلمة، لأننا إن كبرنا تنبهوا لنا ولحقونا فلم يسلم منا أحد».

فقال شركان: «ولو تنبهوا لنا ما علينا بأس، وأشتهى أن توافقونى على هذا الرأى وهو لا يكون إلا خيرًا علينا»، عندئذ أجابوه إلى ذلك وطلعوا فوق الجبل وصاحوا بالتكبير، فكبرت معهم الجبال والوديان والأشجار والأحجار، من خشية الله تعالى.

فسمع الروم ذلك التكبير، فصاحوا على بعضهم ولبسوا السلاح وقالوا: «قد هجمت علينا الأعداء»، ثم قتلوا من بعضهم ما لا يعلم عدده إلا الله تعالى، فلما كان الصباح فتشوا على الأسرى فلم يجدوا لهم أثرًا، فقال رؤساؤهم: «إن الذى فعل بكم هذه الفعال هم الأسرى الذين كانوا عندنا، فدونكم والسعى خلفهم حتى تلحقوهم فتسقوهم كأس الوبال ولا يحصل لكم خوف ولا انذهال، ثم إنهم ركبوا خيولهم وسعوا خلفهم، فما كان لحظة حتى لحقوهم وأحاطوا بهم، فلما رأى ضوء المكان ذلك ازداد به الفزع وقال لأخيه: «إن الذى خفت من حصوله قد حصل وما بقى لنا حيلة إلا الجهاد».

فلزم شركان السكوت عن المقال. ثم انحدر ضوء المكان من أعلى الجبل وكبر وكبرت معه الرجال وعوَّلوا على الجهاد وباعوا أنفسهم فى طاعة رب العباد، فبينما هم كذلك وإذا بقوم يصيحون بالتهليل والتكبير، فالتفتوا إلى جهة الصوت، فرأوا جيوش المسلمين مقبلين، فلما رأوهم قويت قلوبهم. وحمل شركان على الروم وهلل وكبر هو ومن معه، فارتجت الأرض كالزلزال، وتفرقت عساكر العدو فى عرض الجبال، فتبعهم المسلمون بالضرب والطعان، وأزاحوا منهم الرؤوس عن الأبدان، ولم يزل ضوء المكان هو ومن معه من المسلمين يضربون فى الأعناق إلى أن ولَّى النهار وأقبل الليل بالاعتكار، ثم انحاز المسلمون إلى بعضهم وباتوا مستبشرين طول ليلهم.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: ولما أصبح الصباح وضاء بنوره ولاح، رأوا بهرام مقدم الديلم ورستم مقدم الأتراك ومعهما عشرون ألف فارس، مقبلين عليهم كالليوث العوابس، فلما رأوا ضوء المكان، ترجل الفرسان وسلموا عليه وقبلوا الأرض بين يديه، فقال لهم ضوء المكان: «أبشروا بنصر المسلمين وهلاك قوم العدو» ثم هنأوا بعضهم بالسلامة وعظيم الأجر فى القيامة.

وكان السبب فى مجيئهم إلى هذا المكان أن الأمير بهرام والأمير رستم والحاجب الكبير

لما ساروا بجيوش المسلمين والرايات على رؤوسهم منشورة حتى وصلوا إلى القسطنطينية، رأوا أهل المدينة قد خرجوا إلى الأسواق وملكوا الأبراج والقلاع واستعدوا فى كل حصن مناع، حين علموا بقدوم العساكر الإسلامية والأعلام المحمدية وسمعوا قعقعة السلاح وضجة الصياح، ونظروا فرأوا المسلمين، وسمعوا وقع حوافز خيولهم من تحت الغبار، فإذا هم كالجراد المنتشر والسحاب المنهمر، وسمعوا أصوات المسلمين بتلاوة القرآن وتسبيح الرحمن.

وكان السبب فى إعلام الروم بذلك ما دبرته العجوز ذات الدواهى بحيلتها ومكرها حتى قربت العساكر كالبحر الزاخر من كثرة الرجال والفرسان والنساء والصبيان، فقال أمير الترك لأمير الديلم: «يا أمير إنا صرنا على خطر من الأعداء الذين فوق الأسوار، فانظر إلى تلك الأبراج وإلى هذا العالم الذى كالبحر العجاج، المتلاطم بالأمواج، إن هؤلاء الأعداء يزيدون علينا مائة مرة ولا نأمن من جاسوس يخبرهم أن ليس فينا من سلطان وأننا على خطر من الأعداء الذين لا يحصى عددهم ولا ينقطع مددهم، خصوصًا مع غيبة ضوء المكان وأخيه والوزير دندان. فعند ذلك يطمعون فينا لغيبتهم عنا فيمحقوننا بالسيف عن آخرنا ولا ينجو منا ناج. ومن الرأى أن تأخذ أنت عشرة آلاف فارس من المواصلة والأتراك وتذهب بهم إلى دير مطروحنا ومرج ملوخنا فى طلب إخواننا وأصحابنا، فإن أطعتمونى كنتم سببًا فى التفريج عنهم إن كان الأعداء قد ضيقوا عليهم، وإن لم تطيعونى فلا لوم علىَّ، وإذا توجهتم ينبغى أن ترجعوا إلينا مسرعين، فإن من الحزم سوء الظن» فعندها قبل الأمير المذكور كلامه، وانتخبا عشرين ألف فارس وساروا يقطعون الطرقات طالبين المرج المذكور والدير المشهور.

هذا ما كان من أمر سبب مجيئهم، وأما ما كان من أمر العجوز ذات الدواهى، فإنه لما أوقعت السلطان ضوء المكان وأخاه شركان والوزير دندان فى أيدى الروم أخذت جوادًا وركبته وقالت للروم: «أريد أن ألحق بعسكر المسلمين وأتحيل على هلاكهم لأنهم فى القسطنطينية، فأعلمهم أن أصحابهم هلكوا، فإذا سمعوا ذلك منى تشتت شملهم وانصرم حبلهم وتفرق جمعهم، ثم أدخل أنا إلى الملك أفريدون ملك القسطنطينية وولدى الملك حردوب ملك الروم وأخبرهما بهذا الخبر، فيخرجان بعساكرنا إلى المسلمين فيهلكانهم ولا يبقيان أحدًا منهم»، ثم إنها سارت تقطع الأرض على ذلك الجواد طول الليل.

فلما أصبح الصباح لاح لها عسكر بهرام ورستم، فدخلت بعض الغابات وأخفت جوادها هناك ثم خرجت وتمشت قليلاً وهى تقول فى نفسها: «لعل عساكر المسلمين قد رجعوا منهزمين من حرب القسطنطينية؟» فلما قربت منهم نظرت إليهم وتحققت أعلامهم، فرأتها غير منكسة، فعلمت أنهم أتوا غير منهزمين ولا خائفين على ملكهم وأصحابهم، فلما عاينت ذلك أسرعت نحوهم بالجرى الشديد، مثل الشيطان المريد، إلى أن وصلت إليهم وقالت لهم: «العجل العجل يا جند الرحمن إلى الجهاد».

فلما رآها بهرام أقبل عليها وترجل وقبل الأرض بين يديها وقال لها: «يا ولىَّ الله ما وراءك؟» فقال: «لا تسأل عن سوء الحال وشديد الأهوال، فإن أصحابنا لما أخذوا المال من دير مطروحنا، أرادوا أن يتوجهوا إلى القسطنطينية فعند ذلك خرج عليهم عسكر جرار ذو بأس

شديد»، ثم إن الماكرة أعادت عليهم الحديث إرجافًا ووجلاً وقالت: «إن أكثرهم هلك ولم يبق منهم إلا خمسة وعشرون رجلاً»، فقال بهرام: «أيها الزاهد متى فارقتهم؟» فقال: «في ليلتي هذه» فقال بهرام: «سبحان الذي طوى لك الأرض البعيدة، وأنت ماش على قدميك متكئ على جريدة، لكنك من الأولياء الطيارة، الملهمين وحي الإشارة»، ثم ركب على ظهر جواده وهو مدهوش حيران بما سمعه من ذات الإفك والبهتان وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله لقد ضاع تعبنا وضاقت صدورنا وأسر سلطاننا ومن معه» ثم جعلوا يقطعون الأرض طولاً وعرضًا ليلاً ونهارًا، فلما كان وقت السحر أقبلوا على رأس الشعب، فرأوا ضوء المكان وأخاه شركان يناديان بالتهليل والتكبير، فحمل هو وأصحابه وأحاطوا بالروم إحاطة السيل بالقفار، وصاحوا عليهم صياحًا ضجت منه الأبطال وتصدعت به الجبال.

فلما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح، فاح لهم من ضوء المكان طيبه ونشره، وتعارفوا ببعضهم كما تقدم ذكره، فقبلوا الأرض بين يدي ضوء المكان وأخيه شركان وأخبرهم شركان بما جرى لهم في المغارة، فتعجبوا من ذلك ثم قالوا لبعضهم: «اسرعوا بنا إلى القسطنطينية لأننا تركنا أصحابنا هناك وقلوبنا عندهم»، فعند ذلك أسرعوا في المسير، وتوكلوا على اللطيف الخبير، وكان ضوء المكان يقوى المسلمين على الثبات، وينشد:

لك الحمد يا مستوجب الحمد والشكر ... فما زلت لي بالعون يا رب في أمري

ربيت غريبًا في البلاد وكنت لي ... كفيلاً وقد قدرت يا ربنا نصري

وأعطيتني مالاً وملكًا ونعمة ... وقلدتني سيف الشجاعة والنصر

وخولتني ظل المليك معمرًا ... وقد جدت لي من فيض جودك بالغمر

وسلمتني من كل خطب حذرته ... بمشورة الصدر الوزير فتى الدهر

بفضلك قد صلنا على الروم صولة ... وقد رجعوا بالضرب في حلل حمر

وأظهرت أني قد هزمت هزيمة ... وعدت عليهم عودة الضيغم الغمر

تركتهم في القاع صرعى كأنهم ... نشاوى بكأس الموت لا قهوة الخمر

وصارت بأيدينا المراكب كلها ... وصار لنا السلطان في البر والبحر

وجاء إلينا الزاهد العابد الذي ... كرامته شاعت لدى البدو والحضر

أتينا لأخذ الثأر من كل غادر ... وقد شاع عند الناس ما كان من أمري

وقد قتلوا منا رجالا فأصبحوا ... لهم غرف في الخلد تعلو على نهر

فلما فرغ ضوء المكان من شعره، هناه أخوه شركان بالسلامة وشكره على أفعاله ثم إنهما توجها مجدين المسير طالبين عساكرهما، هذا ما كان من أمرهما، وأما ما كان من أمر العجوز ذات الدواهي فإنها لما لاقت عسكر بهرام ورستم، عادت إلى الغابة وأخذت جوادها وركبته وأسرعت في سيرها حتى أشرفت على عسكر المسلمين المحاصرين للقسطنطينية، ثم إنها نزلت وأخذت جوادها وأتت به إلى السرادق الذي فيه الحاجب، فلما رآها نهض لها قائمًا وقال: «مرحبًا بالعابد الزاهد»، ثم سألها عما جرى، فأخبرته بخبرها المرجف وبهتانها المتلف وقالت: «إني أخاف على الأمير رستم والأمير بهرام، لأني قد لاقيتهما مع عسكرهما في

الطريق وأرسلتهما إلى الملك ومن معه، وكانا فى عشرين ألف فارس، والأعداء أكثر منهم بكثير، وأنى أردت فى هذه الساعة أن ترسل جملة من عسكرك حتى يلحقوهم بسرعة لئلا يهلكوا عن آخرهم».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: فلما سمع الحاجب والمسلمون منها ذلك الكلام، انحلّت عزائمهم وبكوا، فقالت لهم ذات الدواهى: «استعينوا بالله واصبروا على هذه الرزية، فلكم أسوة بمن سلف من الأمة المحمدية، فالجنّة ذات القصور أعدّها الله لمن يموت شهيدًا ولا بدَّ من الموت لكل أحد، ولكنه فى الجهاد أحمد». فلما سمع الحاجب كلام اللعينة ذات الدواهى دعا بأخ الأمير بهرام، وكان فارسًا شجاعًا يقال له تركاش وانتخب له عشرة آلاف فارس، أبطالاً عوابس وأمره بالسير، فسار ذلك اليوم وطول الليل حتى قرب من المسلمين فلما أصبح الصباح رأى شركان ذلك الغبار فخاف على المسلمين وقال: «إن هذه العساكر مقبلة علينا، فإما أن يكونوا من عسكر النصارى فلا اعتراض على الأقدار». ثم إنه أتى إلى أخيه ضوء المكان وقال له: «لا تخف أبدًا فإنى أفديك بروحى من الردى، فإن كان هؤلاء من عسكر الإسلام فهذا من مزيد الإنعام، وإن كان هؤلاء أعداؤنا فلا بدَّ من قتالهم، لكن اشتهى أن أقابل العابد قبل موتى، لأسأله أن يدعو لى أن لا أموت إلا شهيدًا».

فبينما هم كذلك وإذا برايات المسلمين قد لاحت، فصاح شركان: «كيف حال المسلمين؟» قالوا: «بعافية وسلامة وما أتينا إلا خوفًا عليكم». وترجل رئيس العسكر عن جواده وقبَّل الأرض بين يديه وقال: «يا مولانا، كيف السلطان والوزير دندان ورستم أخى بهرام هل هم جميعًا سالمون؟» فقال: «بخير ثم قال له: «ومن الذى أخبركم بخبرنا؟» قال: «الزاهد، وقد ذكر أنه لقى أخى بهرام ورستم وأرسلهما إليكم وقال لنا: إن العدو قد أحاطوا بهم وهم كثيرون، وما أرى الأمر إلا بخلاف ذلك وأنتم منصورون». فقال لهم: «وكيف وصول الزاهد إليكم؟» فقالوا له: «كان سائرًا على قدميه، وقطع فى يوم وليلة مسيرة عشرة أيام للفارس المجد»، فقال شركان: «لا شك أنه ولى الله، وأين هو؟» قالوا له: «تركناه عند عسكرنا يحضهم على قتال العدو» ففرح شركان بذلك وحمدوا الله على سلامتهم وسلامة الزاهد وترحموا على من قتل منهم، وقالوا: «كان ذلك فى الكتاب مسطورًا» ثم ساروا مجدين فى سيرهم.

فبينما هم كذلك وإذا بغبار قد طار حتى سد الأقطار وأظلم منه النهار، فنظر إليه شركان وقال: «إنى أخاف أن يكون الروم قد كسروا عسكر الإسلام لأن هذا الغبار سد المشرقين وملأ الخافقين، ثم لاح من تحت ذلك الغبار عمود من الظلام، أشد سوادًا من حالك الأيام، وما زالت تقرب منهم تلك الدعامة، وهى أشد من هول يوم القيامة، فتسارعت إليها الخيل والرجال لينظروا ما سبب سوء هذا الحال، فرأوا الزاهد المشار إليه. فازدحموا على تقبيل يديه وهو ينادى: «يا أمة خير الأنام ومصباح الظلام، إن الروم غدروا بالمسلمين، فأدركوا

عساكر الموحدين وانقذوهم من أيدى الأعداء اللئام، فإنهم هجموا عليهم فى الخيام ونزل بهم العذاب المهين وكانوا فى مكانهم آمنين».

فلما سمع شركان ذلك الكلام، طار قلبه من شدة الخفقان وترجّل عن جواده وهو حيران، ثم قبّل يد الزاهد ورجليه وكذلك أخوه ضوء المكان وبقية العسكر من الرجال والركبان، إلا الوزير دندان، فإنه لم يترجل عن جواده وقال: «إن قلبى نافر من هذا الزاهد، لأنى ما عرفت للمتنطعين والمرائين فى الدين غير المفاسد، فاتركوه وأدركوا أصحابكم المسلمين، فإن هذا من المطرودين عن باب رحمة رب العالمين، فكم غزوت مع الملك عمر بن النعمان ودست أراضى هذا المكان» فقال له شركان: «دع هذا الظن الفاسد، أما نظرت إلى هذا العابد وهو يحرض المؤمنين على القتال ولا يبالى بالسيوف ولا النبال، لأن الغيبة مذمومة ولحوم الصالحين مسمومة، وانظر إلى تحريضه لنا على قتال أعدائنا، ولولا أن الله تعالى يحبه ما طوى له البعيد من الأرض بعد أن أوقعه سابقًا فى العذاب الشديد». ثم إن شركان أمر أن يقدموا بغلة نوبية إلى الزاهد ليركبها وقال له: «اركب أيها الزاهد، الناسك العابد»، فلم يقبل ذلك وامتنع من الركوب، وأظهر الزهد لينال المطلوب، وما دروا أن هذا الزاهد الماكر هو الذى قال فى مثله الشاعر:

صلى وصام لأمـــــــر كان يطلبه   فلما قضى الأمر لا صلّى ولا صاما

ثم إن ذلك الزاهد ما زال ماشيًا بين الخيل والرجال، كأنه الثعلب المحتال للاغتيال، وصار رافعًا صوته بتلاوة القرآن وتسبيح الرحمن، وما زالوا سائرين حتى أشرفوا على عسكر الإسلام، فوجدهم شركان فى حالة الانكسار، والحاجب قد أشرف على الهزيمة والفرار، وسيف الروم يفعل بين الأبرار والفجار، وكان السبب فى خذل المسلمين أن اللعينة ذات الدواهى، لما رأت بهرام ورستم قد سارا بعسكرهما نحو شركان وأخيه ضوء المكان، سارت هى نحو عسكر المسلمين وانفذت الأمير تركاش كما تقدم ذكره.

وكان قصدها بذلك أن تفرق بين عسكر المسلمين لأجل أن يضعفوا، ثم تركتهم وقصدت القسطنطينية، ونادت بطارقة الروم بأعلى صوتها وقالت: «أدلوا حبلاً لأربط فيه هذا الكتاب وأوصلوه إلى ملككم أفريدون ليقرأه هو وولدى ويعملا بما فيه، من أمره ونواهيه»، فأدلوا إليها حبلاً، فربطت به الكتاب وكان مضمونه «من عند الداهية العظمى والطامة الكبرى ذات الدواهى إلى الملك أفريدون».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: «أما بعد فإنى دبرت لكم حيلة على هلاك المسلمين، فكونوا مطمئنين، وقد أسرتهم وأسرت سلطانهم ووزيرهم، ثم توجهت إلى عسكرهم وأخبرتهم بذلك، فانكسرت شوكتهم وضعفت قوتهم، وقد خدعت العسكر المحاصرين للقسطنطينية حتى أرسلت اثنى عشر ألف فارس مع الأمير تركاش خلاف المأسورين، وما بقى منهم إلا القليل، فالمراد منكم أنكم تخرجون إليهم بجميع عسكركم فى بقية هذا النهار وتهجمون عليهم فى خيامهم حتى

تقتلوهم عن آخرهم» فلما وصل كتابها إلى الملك أفريدون، فرح فرحًا شديدًا وأرسل فى الحال إلى ملك الروم، ابن ذوات الدواهى، وقرأ الكتاب عليه، ففرح وقال: «انظروا مكر أمى فإنه يغنى عن السيوف، وطلعتها تنوب عن هول اليوم المخوف» فقال الملك أفريدون: «لا عدمنا طلعة أمك» ثم إنه أمر البطارقة أن ينادوا بالرحيل إلى المدينة، وشاع الخبر فى القسطنطينية وخرجت العساكر النصرانية، وجردوا السيوف الحداد. فلما نظر الحاجب إلى ذلك قال: «إن الروم قد وصلوا إلينا وقد علموا أن سلطاننا غائب، فربما هجموا علينا وأكثر عسكرنا قد توجه إلى ضوء المكان»، واغتاظ الحاجب ونادى: «يا عسكر المسلمين وحماة الدين المتين، إن هربتم هلكتم وإن صبرتم نصرتم، فاعلموا أن الشجاعة صبر ساعة، وما ضاق أمر إلا وجد الله اتساعه، بارك الله فيكم ونظر إليكم بعين الرحمة» فعند ذلك كبر المسلمون، وصاح الموحدون، ودارت رحى الحرب بالطعن والضرب، وعملت الصوارم والرماح، وملأ الدم الأودية والبطاح، وطارت الرؤوس عن الأبدان، ولم يزل السيف يعمل إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار.

وقد أحاطت الروم بالمسلمين وطمعوا فيهم إلى أن طلع الفجر، فركب الحاجب هو وعسكره وترجى أن الله ينصره، واختلطت الأمم بالأمم، وقامت الحرب على قدم، وطارت القمم، وثبت الشجاع وتقدم، وولى الجبان وانهزم، وقضى قاضى الموت وحكم، حتى تطاوحت الأبطال عن السروج، وامتلأت بالأمواج المروج، وتأخر المسلمون عن أماكنهم، وملكت الروم بعض خيامهم ومساكنهم، وعزم المسلمون على الانكسار والهزيمة والفرار، فبينما هم كذلك إذ وصل شركان بعساكر المسلمين ورايات الموحدين.

فلما أقبل عليهم شركان، حمل على الأعداء وتبعه ضوء المكان، وحمل بعدهما الوزير دندان، وكذلك أمير الديلم بهرام ورستم وأخوه تركاش، فإنهم لم رأوا ذلك طارت عقولهم وغاب معقولهم، وثار الغبار، حتى ملأ الأقطار، واجتمع المسلمون الأخيار وأصحابهم الأبرار، واجتمع شركان بالحاجب فشكره على صبره، وهنأه بتأييده ونصره، وفرح المسلمون وقويت قلوبهم، وحملوا على أعدائهم وأخلصوا الله فى جهادهم.

فلما نظر الروم إلى الرايات المحمدية، وعليها كلمة الإخلاص الإسلامية، صاحوا بالويل والثبور وانقبضت أيديهم عن القتال، وقد أقبل الملك أفريدون على ملك الروم وصار أحدهما فى الميمنة والآخر فى الميسرة، وعندهم فارس مشهور يسمى لاويا، فوقف وسطًا واصطفوا للنزال، وإن كانوا فى فزع وزلزال، ثم صف المسلمون عساكرهم.

فعند ذلك أقبل شركان على أخيه ضوء المكان وقال له: «يا ملك الزمان، لا شك أنهم يريدون البراز وهذا غاية مرادنا، ولكن أحب أن أقدم من العسكر من له عزم ثابت فإن التدبير نصف المعيشة» فقال السلطان: «ماذا تريد يا صاحب الرأى السديد؟» فقال شركان: «أريد أن أكون فى قلب عسكر العدو؛ وأن يكون الوزير دندان فى الميسرة وأنت فى الميمنة والأمير بهرام فى الجناح الأيمن والأمير رستم فى الجناح الأيسر، وأنت أيها الملك العظيم تكون تحت الأعلام والرايات لأنك عمادنا، وعليك بعد الله اعتمادنا، ونحن كلنا نفديك من كل أمر يؤذيك» فشكره ضوء المكان على ذلك، وارتفع الصياح.

فبينما هم كذلك وإذا بفارس قد ظهر من عسكر الروم، فلما قرب رأوه راكبًا على بغلة قطوف، تفر بصاحبها من وقع السيوف، وبرذعتها من أبيض الحرير، وعليها سجادة من كشمير، وعلى ظهرها شيخ مليح الشيبة، ظاهر الهيبة، عليه مدرعة من الصوف الأبيض، ولم يزل يسرع بها وينهض حتى قرب من عسكر المسلمين وقال: «إنى رسول إليكم أجمعين، وما على الرسول إلا البلاغ، فأعطونى الأمانة والإقالة حتى أبلغكم الرسالة» فقال له شركان: «لك الأمان، فلا تخش حرب سيف ولا طعن سنان».

فعند ذلك ترجل الشيخ بين يدى السلطان وخضع له خضوع راجى الإحسان، فقال له المسلمون: «ما معك من الأخبار؟» فقال: «إنى رسول من عند الملك أفريدون، فإنى نصحته ليمتنع عن تلف هذه الصور الإنسانية والهياكل الرحمانية، وبينت له أن الصواب حقن الدماء والاقتصار على فارسين فى الهيجاء، فأجابنى إلى ذلك وهو يقول لكم: «إنى فديت عسكرى بروحى فليفعل ملك المسلمين مثلى ويفدى عسكره بروحه، فإن قتلنى فلا يبقى لعسكر الروم ثبات، وإن قتلته فلا يبقى لعسكر الإسلام ثبات» فلما سمع شركان هذا الكلام قال: «يا راهب إنا أجبناه إلى ذلك فإن هذا هو الإنصاف، فلا يكن منه خلاف، وها أنا أبرز إليه وأحمل عليه، فإن قتلنى فاز بالظفر، ولا يبقى لعسكر المسلمين غير المفر، فارجع إليه أيها الراهب وقل له: «إن البراز يكون فى غد لأننا أتينا من سفرنا على تعب فى هذا اليوم، وبعد الراحة لا عتب ولا لوم».

فرجع الراهب وهو مسرور حتى وصل إلى الملك أفريدون وملك الروم وأخبرهما بذلك، ففرح الملك أفريدون غاية الفرح، وزال عنه الهم والترح وقال فى نفسه: «لا شك أن شركان هذا هو أضربهم بالسيف وأطعنهم بالسنان، فإذا قتلته انكسرت همتهم وضعفت قوتهم» وقد كانت ذات الدواهى كاتبت الملك أفريدون بذلك وقالت له: «إن شركان هو فارس الشجعان وشجاع الفرسان» وحذرت أفريدون من شركان، وكان أفريدون فارسًا عظيمًا لأنه كان يقاتل أنواع القتال ويرمى بالحجارة والنبال، ويضرب بعمود الحديد، ولا يخشى من البأس الشديد، فلما سمع أفريدون قول الراهب من أن شركان أجاب إلى البراز كاد يطير من شدة الفرح لأنه واثق بنفسه ويعلم أنه لا طاقة لأحد به، ثم بات الروم تلك الليلة فى فرح وسرور وشرب خمور.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية قتال شركان مع الملك أفريدون وجرح شركان

قالت شهرزاد: فلما كان الصباح، أقبلت الفوارس بسمر الرماح وبيض الصفاح، وإذا هم بفارس قد برز فى الميدان، وهو راكب على جواد من الخيل الجياد معد للحرب والجلاد، وله قوائم شداد، وعلى ذلك الفارس درع من الحديد معد للبأس الشديد، وفى صدره مرآة من الجوهر، وفى يده صارم أبتر وقنطارية خولنج من غريب عمل الإفرنج.

ثم إن الفارس كشف على وجهه وقال: «من عرفني اكتفاني، ومن لم يعرفني فسوف يراني، أنا أفريدون المغمور ببركة ذات الدواهي» فما أتم كلامه حتى خرج في وجهه فارس المسلمين شركان وهو راكب على جواد أشقر يساوي ألفًا من الذهب الأحمر، وعليه عدة مزركشة بالدر والجوهر، وهو متقلد بسيف هندي مجوهر يقد الرقاب ويهون الأمور الصعاب، ثم ساق جواده بين الصفين، والفرسان تنظره بالعين ونادى أفريدون وقال له: «ويلك يا ملعون، أتظنني كمن لاقيت من الفرسان، ولا يثبت معك في حومة الميدان»، ثم حمل كل منهما على صاحبه، كأنهما جبلان يصطدمان أو بحران يلتطمان.

ثم تقاربا وتباعدا والتصقا وافترقا، ولم يزالا في كر وفر وهزل وجد وضرب وطعن، والجيشان ينظران إليهما، وبعضهم يقول: «إن شركان غالب» والبعض يقول: «إن أفريدون غالب» ولم يزل الفارسان على هذا الحال حتى بطل القيل والقال وعلا الغبار وولى النهار ومالت الشمس إلى الاصفرار، وصاح الملك أفريدون على شركان وقال له: «وحق دين المسيح والاعتقاد الصحيح، ما أنت إلا فارس كرَّار وبطل مغوار، غير أنك غدَّار، وطبعك ما هو طبع الأخيار، لأن أرى فعلك غير حميد، وقتالك قتال الصنديد وقومك ينسبونك إلى العبيد، وها هم أخرجوا لك غير جوادك وتعود إلى القتال وإني قد أعياني قتالك وأتعبني ضربك وطعانك، فإن كنت تريد قتالي في هذه الليلة، فلا تغير شيئًا من عدتك ولا جوادك حتى يظهر للفرسان كرمك وقتالك».

فلما سمع شركان هذا الكلام اغتاظ من قول أصحابه في حقه حيث ينسبونه إلى العبيد فالتفت شركان إليهم وأراد أن يشير إليهم ويأمرهم أن لا يغيروا له جوادًا ولا عدة، وإذا بأفريدون هز حربته وأرسلها إلى شركان، فالتفت وراءه فلم يجد أحدًا فعلم أنها حيلة من الخبيث، فردَّ وجهه بسرعة وإذا بالحربة قد أدركته، فمال عنها حتى ساوى برأسه قربوس سرجه، فوقعت الحربة على صدره، وكان شركان عالي الصدر، فكشطت جلدة صدره، فصاح صيحة واحدة وغاب عن الدنيا، ففرح الملك أفريدون بذلك وغاب وعرف أنه قد قتله، فصاح على الروم ونادى بالفرح، فهاجت الروم وبكى المسلمون، فلما رأى ضوء المكان أخاه مائلاً على الجواد حتى كاد أن يقع، أرسل نحوه الفرسان، فتسابقت إليه الأبطال وأتوا به إليه، وحملت الروم على المسلمين والتقى الجيشان، واختلط الصفان وعمل اليماني البتار. وكان أسبق الناس إلى شركان الوزير دندان وأمير الترك بهرام وأمير الديلم، فلحقوه، وقد مال عن جواده فسندوه ورجعوا به إلى أخيه ضوء المكان، ثم أوصوا به الغلمان، وعادوا إلى الحرب والطعان، واشتد النزال وتقصفت النصال وبطل القيل والقال.

فلم ير إلا دم سائل وعنق مائل، ولم يزل السيف يعمل في الأعناق، واشتد الشقاق إلى أن ذهب أكثر الليل وكلت الطائفتان عن القتال، فنادوا بالانفصال، ورجعت كل طائفة إلى خيامها، وتوجه جميع الروم إلى ملكهم أفريدون وقبلوا الأرض بين يديه وهنأوه على ظفره بشركان، ثم إن الملك أفريدون دخل القسطنطينية وجلس على كرسي مملكته.

وأقبل الملك حردوب وقال له: «قوَّى الله ساعدك ولا زال مساعدك، واستجاب من الأم

الصالحة ذات الدواهي ما تدعو به لك، واعلم أن المسلمين ما بقى لهم إقامة بعد شركان».
فقال أفريدون: «في غد يكون الانفصال، إذا خرجت إلى النزال وطلبت ضوء المكان وقتلته، فإن عسكرهم يولون الأدبار ويركنون إلى الفرار».

هذا ما كان من أمر الروم، وأما ما كان من أمر عسكر الإسلام، فإن ضوء المكان لما رجع إلى الخيام لمن يكن له شغل إلا بأخيه، فلما دخل عليه وجده في أسوأ الأحوال وأشد الأهوال، فدعا بالوزير دندان ورستم بهرام للمشورة، فلما دخلوا عليه اقتضى رأيهم إحضار الأطباء لعلاج شركان، ثم بكوا وقالوا: «لم يسمح بمثله الزمان» وسهروا عنده تلك الليلة، وفي آخر الليل أقبل عليهم الزاهد وهو يبكي، فلما رآه ضوء المكان، قام إليه، فلمس بيده على جرح أخيه وتلا شيئًا من القرآن، وعوذه بآيات الرحمن، وما زال سهران عنده إلى الصباح، فعند ذلك استفاق شركان وفتح عينه وأدار لسانه في فمه وتكلم.

ففرح السلطان ضوء المكان وقال: «قد حصل هذه ببركة الزاهد»، فقال شركان: «الحمد لله على العافية، فإنني بخير في هذه الساعة، وقد عمل عليَّ هذا الخبيث حيلة. ولولا أني حدت بأسرع من البرق لكانت الحربة نفذت من صدري، فالحمد لله الذي نجاني، وكيف حال المسلمين؟» فقال ضوء المكان: «هم في بكاء من أجلك»، فقال: «إني بخير وعافية، وأين الزاهد؟» وكان عند رأسه قاعدًا، فقال له: «عند رأسك»، فالتفت شركان إليه وقبل يديه، فقال الزاهد: «يا ولدي عليك بجميل الصبر، يعظم الله لك الأجر، فإن الأجر على قدر المشقة» فقال شركان: «ادع لي» فدعا له.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية قتل الملك ضوء المكان للملك حردوب

قالت شهرزاد: فلما أصبح الصباح وبان الفجر ولاح، برز المسلمون فطلبوا الحرب، وتهيأ الروم للطعن والضرب، وتقدمت عساكر المسلمين إلى ميدان الحرب والكفاح، وجرَّدوا السلاح. وأراد الملكان ضوء المكان وأفريدون أن يحملا على بعضهما، وإذا بضوء المكان خرج إلى الميدان، وخرج معه الوزير دندان والحاجب بهرام وقالوا لضوء المكان «نحن فداك» فقال لهم: «وحق البيت الحرام وزمزم والمقام، لا أقعد عن الخروج إلى هؤلاء العلوج». فلما صار في الميدان، لعب بالسيف والسنان، حتى أذهل الفرسان وتعجب الفريقان، وحمل في الميمنة فقتل منها بطريقين، وفي الميسرة فقتل منها بطريقين، ووقف في وسط الميدان وقال: «أين أفريدون حتى أذيقه عذاب الهون؟». فأراد أفريدون أن يولي وهو مغبون، فلما رآه الملك حردوب على هذا الحال، أقسم عليه أن لا يخرج إليه وقال له: «بالأمس كان قتالك واليوم قتالي، وأنا بشجاعتك لا أبالي».

ثم خرج وفي يده صارم، وتحته حصان كأنه الأبجر، وهو أدهم مغائر كما قال الشاعر:

قد سابق الطرف بطرف سابق كأنه يريد إدراك القدر
دهمته تبدى سوادًا حالكًا كأنها ليل إذا الليل اعتكر

صهيله يطرب من يسمعه كأنه الرعد إذا الرعد زجر
لو سابق الريح جرى من قبلها والبرق لا يسبقه إذا ظهر

ثم حمل كل منهما على صاحبه، واحترز من مضاربه، وأظهر ما فى قلبه من عجائبه، وأخذا فى الكر والفر، حتى ضاقت الصدور وقل الصبر للمقدور، وصاح ضوء المكان، وهجم على ملك الأرمن حردوب وضربه ضربة أطاح بها رأسه وقطع أنفاسه.

فلما نظرت الروم إلى ذلك حملوا جميعًا عليه، وتوجهوا بكليتهم إليه، فقابلهم فى حومة الميدان، واستمرَّ الضرب والطعان حتى سال الدم بالجريان وضج المسلمون بالتكبير والتهليل والصلاة على البشير النذير، وقاتلوا قتالاً شديدًا، وأنزل الله النصر على الإسلام والغلبة على العدو، وصاح الوزير دندان: «خذوا بثأر الملك عمر بن النعمان وثأر ولده شركان»، وكشف رأسه وصاح بالأتراك، وكان بجانبه أكثر من عشرين ألف فارس، فحملوا معه حملة واحدة، فلم يجد الروم لأنفسهم غير الفرار وتولى الأدبار، وعمل فيهم الصارم البتار، فقتلوا منهم نحو خمسين ألف فارس وأسروا ما يزيد على ذلك، وقتل عند دخول الباب خلق كثير من شدة الزحام، ثم أغلق الروم الباب، ودخلوا ما وراء الأسوار خوف العذاب، وعاد المسلمون مؤيدين منصورين فدخلوا خيامهم.

ودخل الملك ضوء المكان على أخيه فوجده فى أسر الأحوال، فسجد شكرًا للكريم المتعال، ثم أقبل عليه وهنأه بالسلامة، فقال له شركان: «إننا كلنا فى بركة هذا الزاهد الأوَّاب وما انتصرتم إلا بدعائه المستجاب، فإنه لم يزل اليوم قاعدًا يدعو للمسلمين بالنصر، وكنت وجدت فى نفسى قوة حين سمعت تكبيركم، فعلمت أنكم منصورين على أعدائكم، فاحك لى يا أخى ما وقع لك»، فحكى له جميع ما وقع له مع الملك حردوب وأخبره أنه قتله، فأثنى عليه وشكره مسعاه.

فلما سمعت ذات الدواهى وهى فى صفة الزاهد بقتل ولدها الملك حردوب، انقلب لونها بالاصفرار، واغرورقت عيناها بالدموع الغزار، ولكنها أخفت ذلك وأظهرت للمسلمين أنها فرحت وأنها تبكى من شدة الفرح، ثم إنها قالت فى نفسها: «ما بقى فى حياتى فائدة إن لم أحرق قلبه على أخيه شركان كما أحرق قلبى على عماد الملة النصرانية والعصابة الصليبية الملك حردوب». ولكنها كتمت ما بها.

ثم إن الوزير دندان والملك ضوء المكان والحاجب استمروا جالسين عند شركان حتى عملوا له اللزق والأدهان وأعطوه الدواء، فتوجهت إليه العافية، وفرحوا بذلك فرحًا شديدًا وأعلموا به العساكر، فتباشر المسلمون وقالوا: «فى غد يركب معنا ويباشر الحصار»، ثم إن شركان قال لهم: «إنكم قاتلتم اليوم وتعبتم من القتال فينبغى أن تتوجهوا إلى أماكنكم وتناموا ولا تسهروا» فأجابوه إلى ذلك وتوجه كل منهم إلى سرادقه، وما بقى عند شركان سوى قليل من الغلمان والعجوز ذات الدواهى، فتحدث معها قليلاً من الليل، ثم اضطجع لينام وكذلك الغلمان، ثم غلب عليهم النوم فصاروا مثل الأموات.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية قتل ذات الدواهي لشركان ودفنه في الجبل

قالت شهرزاد: هذا ما كان من أمر شركان وغلمانه، وأما ما كان من أمر العجوز ذات الدواهي فإنها بعد نومهم بقيت يقظى وحدها في الخيمة، ونظرت إلى شركان فوجدته مستغرقًا في النوم، فوثبت على قدميها كأنها دبة معطاء أو حية رقطاء، وأخرجت من وسطها خنجرًا مسمومًا لو وضع على صخرة لأذابها، ثم جردته من غمده وأتت إلى رأس شركان، وجرَّته على رقبته، فذبحته وأزالت رأسه عن جسده، ثم وثبت على قدميها وأتت إلى الغلمان النيام وقطعت رؤوسهم لئلا ينتبهوا، ثم خرجت من الخيمة وأتت خيام السلطان فوجدت الحراس غير نائمين، فمالت إلى خيمة الوزير دندان، فوجدته يقرأ القرآن.

فوقعت عينه عليها فقال: «مرحبًا بالزاهد العابد، فلما سمعت ذلك من الوزير ارتجف قلبها وقالت له: «إن سبب مجيئي إلى هنا هذا الوقت، أني سمعت صوت ولي من أولياء الله وأنا ذاهب إليه»، ثم ولت، فقال الوزير دندان في نفسه: «والله لأتبع هذا الزاهد في هذه الليلة»، فقام ومشى خلفها، فلما أحست الخبيثة بمشيه عرفت أنه وراءها فخشيت أن تفتضح وقالت في نفسها: «إن لم أخدعه بحيلة فإني افتضح معه».

فأقبلت إليه من بعيد وقالت: «أيها الوزير إني سائر خلف هذا الولي لأعرفه؛ وبعد أن أعرفه أستأذنه في مجيئك إليه وأقبل عليك وأخبرك؛ لأني أخاف أن تذهب معي بغير استئذان الولي فيحصل له نفرة مني إذا رآك معي».

فلما سمع الوزير كلامها استحى أن يرد عليها جوابًا، فتركها ورجع إلى خيمته وأراد أن ينام فما طاب له منام، وكادت الدنيا تنطبق عليه، فقام وخرج من خيمته وقال في نفسه: «أنا أمضي إلى شركان وأتحدث معه إلى الصباح» فسار إلى أن دخل خيمة شركان، فوجد الدم سائلاً كالقناة، ونظر الغلمان مذبوحين، فصاح صيحة أزعجت من كان نائمًا فتسارعت الخلق إليه، فرأوا الدم سائلاً، فضجوا بالبكاء والنحيب. فعند ذلك استيقظ السلطان ضوء المكان وسأل عن الخبر، فقيل له إن شركان أخاك والغلمان مقتولون، فقام مسرعًا إلى أن دخل الخيمة، فوجد الوزير دندان يصيح ووجد جثة أخيه بلا رأس فغاب عن الدنيا، وصاحت كل العساكر وبكوا وداروا حول ضوء المكان ساعة حتى استفاق، ثم نظر إلى شركان وبكى بكاء شديدًا وفعل مثله الوزير ورستم وبهرام، وأما الحاجب فإنه صاح وأكثر من النواح، ثم طلب الارتحال لما به من الأوجال، فقال الملك: «أما علمتم من الذي فعل بأخي هذه الفعال، وما لي لا أرى الزاهد الذي هو عن متاع الدنيا متباعد؟» فقال الوزير: «ومن جلب هذه الأحزان إلا هذا الزاهد الشيطان؟ فوالله إن قلبي نفر منه في الأول والآخر، لأنني أعرف أن كل مراءٍ في الدين خبيث ماكر»، وأعاد على الملك قصته وأنه أراد أن يتبعه فما مكنه. ثم إن الناس ضجوا بالبكاء والنحيب، وتضرَّعوا إلى القريب المجيب أن يوقع بين أيديهم ذلك الزاهد الذي هو لآيات الله جاحد، ثم جهزوا شركان ودفنوه في الجبل المذكور، وحزنوا على فضله المشهور، ثم انتظروا باب المدينة أن يفتح، فما فتح ولا بان لهم على الأسوار أثر، فتعجبوا غاية العجب، فقال الملك ضوء المكان «لا أحول عنهم ولو قعدت سنين وأعوامًا حتى آخذ بثأر أخي شركان وأخرب

القسطنطينية، وأقتل ملوك النصرانية، وإن أدركتني المنية، فأستريح من الدنيا الدنية». ثم أمر بإحضار الأموال التي أخذوها من دير مطروحنا وجمع العساكر وفرق الأموال، وما ترك أحدًا حتى أعطاه وكفاه من المال، وأحضر من كل طائفة ثلاثمائة فارس وقال لهم: «أرسلوا النفقات إلى بيوتكم لأني مقيم هنا سنين وأعوامًا حتى آخذ ثأر أخي شركان، ولو مت في هذا المكان» فلما سمعت العساكر هذا الكلام أخذوا ما أعطاهم إياه من الأموال وأجابوا بالسمع والطاعة، وأحضر ضوء المكان القصاد وسلمهم الكتب وأوصاهم بإيصالها وإيصال الأموال إلى بيوت العساكر وأخبروهم بأنهم سالمون مطمئنون وأعلموهم أننا في حصار القسطنطينية إما أن نخربها أو نموت، ولو أقمنا شهورًا وأعوامًا ما نرحل عنها إلا بفتحها».

ثم أمر الوزير دندان أن يكتب كتابًا إلى أخته نزهة الزمان وقال له: «أعلمها بما وقع لنا وما نحن فيه، وأوصها بولدي، لأني، لما خرجت، كانت زوجتي قريبة من الولادة، وما هي الآن إلا ولدت، فإن كانت رزقت ولدًا كما سمعت، فاسرع في العود وائتني بالأخبار» ثم وهبهم شيئًا من المال فأخذوه وسافروا من وقتهم وساعتهم.

وبعد مسيرهم، أقبل الملك على الوزير دندان وناداه أن يأمر الناس بالزحف من قرب السور، فزحفوا فلم يجدوا أحدًا على الأسوار، فتعجبوا من ذلك، وبقي السلطان مهمومًا لذلك، حزينًا على فراق أخيه شركان، متحيرًا من الزاهد الخوَّان، فأقاموا على ذلك ثلاثة أيام فلم يروا أحدًا، هذا ما كان من أمر المسلمين.

أما ما كان من أمر الروم وسبب غيابهم عن القتال في هذه الثلاثة أيام، فإن ذات الدواهي، لما قتلت شركان، أسرعت في مشيها وأتت إلى السور، وصاحت بلسان الروم للحراس أن يدلوا لها الحبل، فقالوا لها: «من أنت؟» فقالت: «أنا ذات الدواهي»، فعرفوها وأدلوا لها الحبل، فربطت نفسها وسحبوها، فلما وصلت إليهم دخلت على الملك أفريدون وقالت له: «ما هذا الذي سمعته من المسلمين، فإنهم قالوا أن ابني حردوب قتل؟»، فقال: «نعم» فصاحت وبكت، وما زالت تبكي حتى أبكت أفريدون ومن حضر عنده ثم أعلمت أفريدون أنها ذبحت شركان وثلاثين من الغلمان، ففرح أفريدون بذلك وشكرها، وقبَّل يديها ودعا لها بالصبر على ولدها، فقالت: «إني لم أرض بقتل خسيس من المسلمين في ثأر ملك من ملوك الزمان، ولا بد أني أعمل حيلة وأدبر مكيدة أقتل بها السلطان ضوء المكان والوزير دندان والحاجب ورستم وبهرام وعشرة آلاف فارس من عسكر الإسلام، ولا أرضى أن يكون رأس ولدي برأس شركان ولا يكون ذلك أبدًا».

ثم قالت للملك أفريدون: «اعلم يا ملك الزمان، أني أريد أن أقيم على ولدي المآتم والأحزان»، فقال أفريدون: «افعلي ما شئت، فإني لا أخالف لك أمرًا ولو عملت حزنك زمانًا طويلاً لكان قليلاً، فإن المسلمين لو أرادوا أن يحاصرونا سنين وأعوامًا لما نالوا منا أربًا ولا نالهم منا غير التعب والنصب» ثم إن ذات الدواهي الخبيثة لما فرغت من الداهية التي عملتها، والمخازي التي لنفسها أبدتها، أخذت دواة وقرطاسًا وكتبت فيه:

«من عند ذات الدواهي إلى حضرة المسلمين. «اعلموا أني دخلت بلادكم وغششت

كرامكم وقتلت سابقًا ملككم عمر بن النعمان فى وسط قصره، وقتلت أيضًا فى وقعة الشعب والمغارة رجالاً كثيرين وآخر من قتلته شركان وغلمانه، وإذا ساعدنى الزمان فلا بد من قتل السلطان والوزير دندان وأنا الذى أتيت إليكم فى زى الزاهد وانطلقت عليكم من الحيل والمكايد، فإن شئتم سلامتكم بعد ذلك فارحلوا، وإن شئتم الهلاك فمن الإقامة لا تعدلوا، فلو أقمتم سنين، فما تبلغون منا مرامًا والسلام».

وبعد أن كتبت الكتاب أقامت فى حزنها على الملك حردوب ثلاثة أيام، وفى اليوم الرابع دعت بطريقًا وأمرته أن يأخذ الورقة ويضعها فى سهم ويرميها إلى المسلمين، ثم دخلت الكنيسة وصارت تندب وتبكى على فقد ولدها، وقالت لمن تسلطن بعده: «لا بد أن أقتل ضوء المكان وجميع أمراء الإسلام»، هذا ما كان من أمرها.

أما ما كان من أمر المسلمين، فإنهم أقاموا ثلاثة أيام فى هم واغتمام، وفى اليوم الرابع نظروا إلى ناحية السور وإذا ببطريق معه سهم نشاب وفى طرفه كتاب، فصبروا عليه حتى رماه إليهم فأمر السلطان الوزير أن يقرأه، فلما قرأه وسمع ما فيه وعرف معناه، هملت بالدموع عيناه وصاح وتضجر من مكرها، وقال الوزير: «لقد كان قلبى نافرًا منها».

فقال السلطان: «وهذه الماكرة كيف عملت علينا الحيلة مرتين؟ ولكن لا أحول من هنا حتى أسجنها سجن الطير فى الأقفاص، وبعد ذلك أربطها من شعرها وأصلبها على باب القسطنطينية»، وتذكر أخاه فبكى بكاء شديدًا، ثم إن الروم لما توجهت لهم ذات الدواهى وأخبرتهم بما حصل فرحوا لقتل شركان وسلامة ذات الدواهى.

أما المسلمون فرجعوا على باب القسطنطينية ووعدهم السلطان أنه إن فتح المدينة فرق أموالها عليهم بالسوية، هذا والسلطان لم تنشف دموعه حزنًا على أخيه، وعرا جسمه الهزال حتى صار كالخلال، فدخل عليه الوزير دندان وقال له: «طب نفسًا وقر عينًا فإن أخاك ما مات إلا بأجله، وليس فى هذا الحزن فائدة، وما أحسن قول الشاعر:

ما لا يكون فلا يكون بحيلة ... أبدًا وما هو كائن فيكون
سيكون ما هو كائن فى وقته ... وأخو الجهالة دائمًا مغبون

فدع البكاء والنواح، وقو قلبك لحمل السلاح» فقال: «يا وزير إن قلبى مهموم من أجل أبى وأخى، ومن أجل غيابنا عن بلادنا، فإن خاطرى مشغول برعيتى». فبكى الوزير هو والحاضرون، وما زالوا مقيمين على حصار القسطنطينية مدة من الزمان. فبينما هم كذلك وإذا بالأخبار وردت عليهم من بغداد صحبة أمير من أمرائه مضمونها: «إن زوجة الملك ضوء المكان رزقت ولدًا، وسمته نزهة الزمان، أخت الملك، كان ما كان، ولكن هذا الغلام سيكون له شأن بسبب ما رأوه له من العجايب والغرائب. وقد أمرت العلماء والخطباء أن يدعوا لكم على المنابر ودبر كل صلاة، وإننا طيبون بخير والأمطار كثيرة، وإن صاحبك الوقاد فى غاية النعمة الجزيلة، وعنده الخدم والغلمان، ولكنه إلى الآن لم يعلم بما جرى لك والسلام» فقال ضوء المكان: «الآن اشتد ظهرى حيث رزقت ولدًا اسمه كان ما كان». ثم قال للوزير دندان: «إنى أريد أن أترك هذا الحزن وأعمل لأخى ختمات، وأمورًا من الخيرات» فقال الوزير: «نعم ما أردت»

ثم أمر بنصب الخيام على قبر أخيه، فنصبوها وجمعوا من العسكر من يقرأ القرآن، فصار بعضهم يقرأ وبعضهم يذكر الله إلى الصباح.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية رثاء ضوء المكان ومن معه لشركان

قالت شهرزاد: ثم تقدم السلطان ضوء المكان إلى قبر أخيه شركان وسكب العبرات وأنشد هذه الأبيات:

خرجوا به ولكل باك خلفه ... صعقات موسى يوم دك الطور
حتى أتوا جدثًا كأن ضريحه ... فى قلب كل موحد محفور
ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى ... رضوى على أيدى الرجال تسير
كلا ولا من قبل دفنك فى الثرى ... أن الكواكب فى التراب تغور
أمجاور الديماس رهن قراره ... فيها الضياء بوجهه والنور
كفل الثناء له برد حياته ... لما انطوى فكأنه منشور

فلما فرغ ضوء المكان من شعره بكى وبكى معه جميع الناس، ثم أتى إلى القبر ورمى نفسه عليه وهو حائر، وأنشد الوزير قول الشاعر:

تركت الذى يفنى ونلت الذى يبقى ... ومثلك أقوامًا فقد سبقوا سبقا
وفارقت هذه الدار من غير ريبة ... فمن هذه الدنيا تسر بما تلقى
وكنت فى الأعداء تبدى وقاية ... إذا ما سهام الحرب حاولت الرشقا
أرى هذه الدنيا غرورًا وباطلاً ... وجل مراد الخلق أن يطلبوا الحقا
حباك إله العرش فوزًا بجنة ... وأسكنك الهادى بها مقعدًا صدقا
وإنى قد أمسيت فيك بحسرة ... أرى الغرب محزونًا بفقدك والشرقا

فلما فرغ الوزير دندان من شعره بكى بكاء شديدًا، ونثرت عيونه الدمع درا نضيدًا، ثم تقدم رجل كان من ندمان شركان، وبكى حتى حكت دموعه الخلجان، وذكر ما لشركان من المكرمات، وأنشد هذه الأبيات:

أين العطاء وكف جودك فى الثرى ... والجسم بعدك بالسقام قد انبرى
يا حادى الأظعان سرك ما ترى ... كتبت دموعى فوق خدى أسطرا
تعنى بها وتلذ منها منظرا
والله ما حدثت عنك ضمائرى ... كلا ولا خطرت علاك بخاطرى
إلا وقد جرح الدموع محاجرى ... وإذا صرفت إلى سواك نواظرى
جذب الغرام عنان طرفى فى الكرى

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: فلما فرغ الرجل من شعره، بكى ضوء المكان هو والوزير دندان وضج جميع العسكر بالبكاء، ثم إنهم انصرفوا إلى الخيام، وأقبل السلطان على الوزير دندان وأخذا يتشاوران فى أمر القتال، واستمرا على ذلك أيامًا وليالى وضوء المكان يتضجر من الهم والأحزان، ثم قال: «إنى أشتهى سماع أخبار الناس وأحاديث الملوك، لعل الله يفرج ما بقلبى من الهم الشديد، ويذهب عنى البكاء والتعديد»، فقال الوزير: «إذا كان لا يفرج همك إلا سماع قصص الملوك من نوادر الأخبار وحكايات المتقدمين، فإن هذا أمر سهل، لأننى لم يكن لي شغل فى حياة المرحوم والدك إلا بالحكايات والأشعار، وفى هذه الليلة أحدثك بخبر ينشرح به صدرك». فلما سمع ضوء المكان كلام الوزير دندان تعلق قلبه بما وعد به، ولم يبق له إشغال إلا بانتظار مجئ الليل لأجل أن يسمع ما يحكيه الوزير دندان من أخبار المتقدمين من الملوك، فما أيقن أن الليل أقبل، حتى أمر بإيقاد الشموع والقناديل وإحضار ما يحتاجون إليه من الأكل والشرب وآلات البخور، فأحضروا له جميع ذلك، ثم أرسل إلى الوزير دندان فحضر، وأرسل إلى بهرام ورستم وتركاش والحاجب الكبير فحضروا، فلما حضر جميعهم بين يديه التفت إلى الوزير دندان وقال له: «اعلم أيها الوزير، إن الليل قد أقبل وسدل جلابيبه علينا وأسبل، ونريد أن تحكى لنا ما وعدتنا به من الحكايات». فقال الوزير: «حبا وكرامة».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



حكاية سليمان شاه

قالت شهرزاد: قال الوزير: اعلم أيها الملك السعيد، أنه كان فى سالف الزمان، مدينة وراء جبال أصبهان، يقال لها المدينة الخضراء، وكان بها ملك يقال له الملك سليمان شاه وكان صاحب جود وإحسان، وعدل وأمان، وفضل وامتنان، سارت إليه الركبان من كل مكان، وشاع ذكره فى سائر الأقطار والبلدان، وأقام فى المملكة مدة مديدة من الزمان وهو فى عز واطمئنان، إلا أنه كان خاليًا من الأولاد والزوجات، وكان له وزير يقاربه فى الصفات، من الجود والهبات، فاتفق أنه أرسل إلى وزيره يومًا من الأيام وأحضره بين يديه وقال له: «يا وزيرى إنه قد ضاق صدرى، وعيل صبرى، وضعف منى الجلد، لكونى بلا زوجة ولا ولد، وما هذا سبيل الملوك والأحكام على كل أمير وصعلوك، فإنهم يفرحون بالأولاد، وتتضاعفت بهم العدد والأعداد، فما عندك من الرأى يا وزير؟ فأشر علىَّ بما فيه النصح من التدبير».

فلما سمع الوزير ذلك الكلام، فاضت الدموع من عينيه بالانسجام، وقال له: «هيهات يا ملك الزمان أن أتكلم فيما هو من خصائص الرحمن، أتريد أن أدخل النار بسخط الملك الجبار؟ فإن شئت فاشتر لك جارية». فقال له الملك: «اعلم أيها الوزير، إن الملك إذا اشترى جارية لا يعلم حسبها، ولا يعرف نسبها، فهو لا يدرى خساسة أصلها، ولا شرف عنصرها، وربما ولدت له ولدًا منافقًا ظالما سافكًا للدماء، فيكون مثلها مثل الأرض السبخة إذا زرع فإنه يخبث نباته، ولا يحسن ثباته، وقد يكون ذلك الولد متعرضًا لسخط مولاه ولا يفعل ما أمره به، ولا يجتنب ما نهاه عنه، فأنا لا أتسبب فى هذا بشراء جارية أبدًا، وإنما مرادى أن تخطب لى

بنتًا من بنات الملوك، يكون نسبها معروفا، وجمالها موصوفا، فإن دللتنى على ذات النسب والدين، من بنات الملوك المسلمين، فإنى أخطبها وأتزوج بها على رؤوس الأشهاد، ليحصل لى بذلك رضى رب العباد». فقال له الوزير: «إن الله قضى حاجتك، وبلغك أمنيتك». اعلم أيها الملك، أنه بلغنى أن الملك زهر شاه صاحب الأرض البيضاء، له بنت بارعة الجمال، يعجز عن وصفها القيل والقال، ولا يوجد لها فى هذا الزمان مثيل لأنها فى غاية الكمال، ونهاية الاعتدال، والرأى عندى أيها الملك أن ترسل إلى أبيها رسولاً فطنًا خبيرًا بالأمور، مجربًا لتصاريف الدهور، ليتلطف فى خطبتها لك من أبيها، فإنه لا نظير لها فى أقاصى الأرض ودانيها، وتحظى منها بالوجه الجميل، ويرضى عليك الرب الجليل، فقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «لا رهبانية فى الإسلام».

فعند ذلك دخل الملك كمال الفرح، واتسع صدره وانشرح، وزال عنه الهم والغم ثم أقبل على الوزير وقال له: «اعلم أيها الوزير أنه لا يتوجه إلى هذا إلا أنت لكمال عقلك وأدبك، فقم إلى منزلك واقض أشغالك وتجهز فى غد واخطب لى هذه البنت ولا تعد إلىَّ إلا بها» فقال الوزير: «سمعًا وطاعة».

ثم إن الوزير توجه إلى منزله واستدعى بالهدايا التى تصلح للملوك من الجواهر ونفيس الذخائر، وغير ذلك مما هو خفيف فى الحمل، ثقيل فى الثمن، ومن الخيل العربية، والدروع الداودية، وصناديق المال التى يعجز عن وصفها المقال، ثم حملوها على البغال والجمال، وتوجه الوزير ومعه مائة مملوك ومائة عبد ومائة جارية وانتشرت على رأسه الرايات والأعلام، وأوصاه الملك أن يأتى إليه فى مدة قليلة من الأيام.

وسار الوزير ليلاً ونهارًا، يطوى برورًا وقفارًا، حتى بقى بينه وبين المدينة التى هو متوجه إليها يوم واحد، ثم نزل على شاطئ نهر وأحضر بعض خواصه، وأمره أن يتوجه إلى الملك زهر شاه بسرعة ويخبره بقدومه عليه، فقال: «سمعًا وطاعة» ثم توجه بسرعة إلى تلك المدينة، فلما قدم عليها وافق قدومه أن الملك زهر شاه كان جالسًا فى بعض المنتزهات قدام باب المدينة، فرآه وهو داخل وعرف أنه غريب، فأمر بإحضاره بين يديه، فلما حضر الرسول أخبره بقدوم وزير الملك الأعظم سليمان شاه صاحب الأرض الخضراء وجبال أصبهان، ففرح الملك زهر شاه ورحب بالرسول وأخذه وتوجه إلى قصره وقال: «أين فارقت الوزير؟» فقال: «فارقته فى أول النهار على شاطئ النهر الفلانى، وفى غد يكون واصلاً إليك، أدام الله نعمته عليك ورحم والديك» فأمر زهر شاه بعض وزرائه أن يأخذ معظم خواصه وحجابه ونوابه وأرباب دولته ويخرج بهم إلى مقابلته تعظيمًا للملك سليمان شاه لأن حكمه نافذ فى الأرض.

هذا ما كان من أمر زهر شاه، وأما ما كان من أمر الوزير فإنه استقر فى مكانه إلى نصف الليل، ثم رحل متوجهًا إلى المدينة، فلما لاح الصباح، وأشرقت الشمس على الروابى والبطاح، لم يشعر إلا وزير الملك زهر شاه وحجابه وأرباب دولته وخواص مملكته قدموا عليه واجتمعوا به على فراسخ من المدينة، فأيقن الوزير بقضاء حاجته، وسلم على الذين قابلوه، ولم يزالوا سائرين قدامه حتى وصلوا إلى قصر الملك، ودخلوا بين يديه فى باب القصر إلى سابع

.هليز، وهو المكان الذى لا يدخله الراكب لأنه قريب من الملك، فترجَّل الوزير وسعى على
ندميه حتى وصل إلى إيوان عال، وفى صدر ذلك الإيوان سرير من المرمر مرصع بالدر
الجوهر، وله أربع قوائم من أنياب الفيل، وعلى ذلك السرير مرتبة من الأطلس الأخضر
طرزة بالذهب الأحمر، ومن فوقها سرادق مرصع بالدر والجوهر، والملك زهر شاه جالس
لى ذلك السرير، وأرباب دولته واقفون فى خدمته.

فلما دخل الوزير عليه، وصار بين يديه، ثبت جنانه، وأطلق لسانه، وأبدى فصاحة
لوزراء، وتكلم بكلام البلغاء، وأشار إلى ذلك بلطف التفات، وأنشد:

وافى وأقبل فى الغلائل ينثنى	يولى الندى للمجتبى والمجتنى
ورقى فما تغنى التمائم والرقى	والسحر من لحظات تلك الأعين
قل للعواذل لا تلوموا إننى	طول المدى عن حبه لا أنثنى
حتى فؤادى خاننى ووفى له	وكذا الرقاد صبا إليه وملنى
يا قلب ما أمسيت وحدك رأفة	فامكث لديه وإن تكن أوحشتنى
لا شيء يطرب مسمعى بسماعه	إلا الثناء لزهر شاه أجتنى
ملك إذا أنفقت عمرك كله	فى نظرة من وجهه أنت الغنى
وإذا انتخبت له دعاء صالحًا	لم تلق غير مشارك ومؤمن
يا أهل ذا الملك الذى من فاته	ورجا سواه فما أراه بمؤمن

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام.

◆◆◆

قالت شهرزاد: فلما فرغ الوزير من هذا النظام، قربه الملك زهر شاه وأكرمه غاية
لإكرام، وأجلسه بجانبه وتبسم فى وجهه وشرفه بلطيف الكلام، ولم يزالوا على ذلك إلى وقت
صباح، ثم قدموا السماط فى ذلك الإيوان فأكلوا جميعًا حتى اكتفوا، ثم رفعوا السماط
خرج كل من فى المجلس ولم يبق إلا الخواص، فلما رأى الوزير خلو المكان نهض قائمًا على
دميه، وانثنى على الملك وقبَّل الأرض بين يديه، ثم قال: «أيها الملك الكبير، والسند الخطير
ى سعيت إليك، وقدمت عليك، فى أمر لك فيه الصلاح والخير والفلاح، وهو أنى قد أتيتك
سولاً خاطبًا، وفى بنتك الحسيبة النسيبة راغبًا، من عند الملك سليمان شاه صاحب العدل
لأمان، والفضل والإحسان ملك الأرض الخضراء، وجبال أصبهان، وقد أرسل إليك الهدايا
كثيرة، والتحف الغزيرة، وهو فى مصاهرتك راغب، فهل أنت له كذلك طالب»؟ ثم إنه سكت
تظر الجواب.

فلما سمع الملك زهر شاه ذلك الكلام، نهض قائمًا على الأقدام، ولثم الأرض باحتشام،
تعجب الحاضرون من خضوع الملك للرسول، واندهشت منهم العقول، ثم إن الملك أثنى على
ك الجلال والإكرام، وقال وهو فى حالة القيام: «أيها الوزير المعظم، والسيد المكرم، اسمع ما
ول: إننا للملك سليمان شاه من جملة رعاياه، ونتشرف بنسبه ونتنافس فيه، وابنتى جارية من
ملة جواريه، وهذا جل مرادى، ليكون ذخرى واعتمادى»، ثم إنه أحضر القضاة والشهود

وشهدوا أن الملك سليمان شاه وكَّل وزيره فى الزواج، وتولى الملك زهر شاه عقد بنته بابتهاج، ثم إن القضاة أحكموا عقد الزواج ودعوا لهما بالفوز والنجاح، فعند ذلك قام الوزير وأحضر ما جاء به من الهدايا، ونفائس التحف والعطايا، وقدم الجميع للملك زهر شاه.

ثم إن الملك أخذ فى تجهيز ابنته وإكرام الوزير، وعمَّ بولائمه العظيم والحقير، واستمرَّ فى إقامة الفرح مدة شهرين، ولم يترك فيه شيئًا مما يسر القلب والعين، ولما تم ما تحتاج إليه العروس، أمر الملك بإخراج الخيام ، فضربت بظاهر المدينة، وعبوا القماش فى الصناديق، وهيأوا الجوارى الروميات، والوصائف التركيات، وأصحب العروسة بنفيس الذخائر وثمين الجواهر، ثم صنع لها محفة من الذهب الأحمر، مرصعة بالدر والجوهر، وأفرد لها عشرين بغلاً للمسير، وصارت تلك المحفة كأنها مقصورة من المقاصير، ثم حزموا الذخائر والأموال، وحملوها على البغال والجمال، وتوجه الملك زهر شاه معهم قدر ثلاثة فراسخ، ثم ودع الوزير ومن معه ورجع إلى الأوطان، فى فرح وأمان.

وتوجه الوزير بابنه الملك وسار، ولم يزل يطوى المراحل والقفار، ويجد السير فى الليل والنهار، حتى بقى بينه وبين بلاده ثلاثة أيام، ثم أرسل إلى الملك سليمان شاه من يخبره بقدوم العروس، فأسرع الرسول بالسير حتى وصل إلى الملك وأخبره بقدوم العروس، ففرح الملك سليمان شاه وخلع على الرسول، وأمر عساكره أن يخرجوا فى موكب عظيم إلى ملاقاة العروس ومن معها بالتكريم، وإن يكونوا فى أحسن البهجات، وأن ينشروا على رؤوسهم الرايات، فامتثلوا أمره، ونادى مناد فى المدينة أنه لا تبقى بنت مخدرة ولا حرّة موقرة، ولا عجوز مكسرة إلا وتخرج إلى لقاء العروس.

فخرجوا جميعًا إلى لقائها، وسعت كبراؤهم فى خدمتها، واتفقوا على أن يتوجهوا بها فى الليل إلى قصر الملك، واتفق أرباب الدولة على أن يزينوا الطريق، وأن يقفوا حتى تمر بهم العروس والخدام قدامها والجوارى بين يديها وعليها الخلعة التى أعطاها إياها أبوها، فلما أقبلت أحاط بها العسكر ذات اليمين وذات الشمال، ولم تزل المحفة سائرة بها إلى أن قربت من القصر ولم يبق أحد إلا وقد خرج ليتفرج عليها، وصارت الطبول ضاربة، والرماح لاعبة، والبوقات صائحة، وروائح الطيب فائحة، والرايات خافقة، والخيل متسابقة، حتى وصلوا إلى باب القصر، وتقدمت الغلمان بالمحفة إلى باب السر، فأضاء المكان من بهجتها، وأشرقت جهاته بحلي زينتها. فلما أقبل الليل، فتح الخدام أبواب السرادق، ووقفوا وهم محيطون بالباب، ثم جاءت العروس وهى بين الجوارى كالقمر بين النجوم، أو الدرة الفريدة بين اللؤلؤ المنظوم ثم دخلت المقصورة وقد نصبوا لها سريرًا من المرمر، مرصعًا بالدر والجوهر فجلست عليه واحتفلوا بالزواج أعظم حفلة حتى قيل إنه لم يجر لها مثيل فى جميع المملكة.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

حكاية تاج الملوك خاران

قالت شهرزاد: وبعد سنة ولدت الملكة غلامًا ذكرًا تلوح عليه علامات السعادة، فلما سمع الملك بالولد فرح فرحًا جليلاً، وأعطى المبشر مالاً جزيلاً، ومن فرحه توجه إلى الغلام وقبله بين عينيه وتعجب من جماله الباهر، وتحقق فيه قول الشاعر:

الله خول من آجام العلا أسدًا وآفاق الرئاسة كوكبا
هشت لمطلعه الأسنة والأسرة والمحافل والجحافل والظبى
لا تركبوه على النهود فإنه ليرى ظهور الخيل أوطأ مركبا
وليفطموه عن الرضاع فإنه ليرى دم الأعداء أحلى مشربا

ثم إن القوابل أخذن ذلك المولود وقطعن سرته، وكحلن مقلته، وسمينه تاج الملوك خاران، وارتضع ثدى الدلال، وتربى فى حجر الإقبال، ولا زالت الأيام تجرى، والأعوام تمضى، حتى صار له من العمر سبع سنين، فعند ذلك أحضر الملك سليمان شاه العلماء والحكماء، وأمرهم أن يعلموا ولده الخط والحكمة والأدب، فمكثوا على ذلك مدة سنين حتى تعلم ما يحتاج إليه الأمير، فلما عرف جميع ما عليه الملك أحضره من عند الفقهاء والمعلمين، وأحضر له أستاذًا يعلمه الفروسية، فلم يزل يعلمه حتى صار له من العمر أربع عشرة سنة، وكان إذا خرج إلى بعض أشغاله يسبح الله كل من رآه، فلما بلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، دب عذاره الأخضر، على شامة خده الأحمر، وزانهما خال كنقطة عنبر، كما قال فيه الشاعر:

أضحى ليوسف فى الجمال خليفة تخشاه كل الناظرين إذا بدا
عرج معى وانظر إليه لكى ترى فى خده علم الخلافة أسودا
ما أبصرت عيناك أحسن منظرًا فيما يرى من سائر الأشياء
كالشامة الخضراء فوق الوجنة الحمراء تحت المقلة السوداء
عجبت لخال يعبد النار دائمًا بخدك لم يحرق بها وهو كافر
وأعجب من ذا أن باللحظ مرسلاً يصدق بالآيات وهو لساحر
وما اخضر ذاك الخال نبتًا وإنما لكثرة ما شقت عليه المرائر

ثم صار لتاج الملوك خاران أصحاب وأحباب، وكل من تقرب إليه يرجو أنه يصير سلطانًا بعد موت أبيه، وأنه يكون عنده أميرًا، ثم إنه تعلق بالصيد والقنص وصار لا يفتر عنه ساعة واحدة، وكان والده الملك سليمان شاه ينهاه عن ذلك مخافة عليه من آفات البر والوحوش، فلم يقبل منه ذلك، واتفق أنه قال لخدامه: «خذوا معكم عليق عشرة أيام» فامتثلوا ما أمرهم به.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: فلما خرج بأتباعه للصيد والقنص ساروا فى البر، ولم يزالوا سائرين أربعة أيام حتى أشرفوا على أرض خضراء فرأوا فيها وحوشًا راتعة، وأشجارًا يانعة، وعيونًا

تابعة، فقال تاج الملوك لأتباعه: «انصبوا الحبائل هنا وأوسعوا دائرة حلقتها، ويكون اجتماعنا عند رأس الحلقة فى المكان الفلانى» فامتثلوا أمره ونصبوا الحبائل، ووسعوا دائرة حلقتها، فاجتمع فيها شىء كثير من أصناف الوحوش والغزلان، إلى أن ضجت منهم الوحوش ونفرت فى وجوه الخيل، فأغرى عليها الكلاب والفهود والصقور، ثم ضربوا الوحوش بالنشاب فأصابوا مقاتلها، وما وصلوا إلى آخر الحلقة إلا وقد أخذوا من الوحوش شيئًا كثيرًا وهرب الباقى.

وبعد ذلك نزل تاج الملوك على الماء وأحضر الصيد وقسمه، وأفرد لأبيه سليمان شاه خاص الوحوش وأرسله إليه، وفرق البعض على أرباب دولته، وبات تلك الليلة فى ذلك المكان، فلما أصبح الصباح، أقبلت عليهم قافلة كبيرة مشتملة على عبيد وغلمان وتجار، فنزلت تلك القافلة على الماء والخضرة، فلما رآهم تاج الملوك قال لبعض أصحابه: «ائتنى بخبر هؤلاء واسألهم لأى شىء نزلوا فى هذا المكان؟» فلما توجه إليهم الرسول قال له «أخبرونا من أنتم وأسرعوا فى رد الجواب»؟ فقالوا له: «نحن تجار ونزلنا هنا لأجل الراحة، لأن المنزل بعيد علينا، وقد نزلنا فى هذا المكان لأننا مطمئنون بالملك سليمان شاه وولده، ونعلم أن كل من نزل عنده صار فى أمان واطمئنان، ومعنا كسوة نفيسة جئنا بها من أجل ولده تاج الملوك». فرجع الرسول إلى ابن الملك وأعلمه بحقيقة الحال، وأخبره بما سمعه من التجار، فقال ابن الملك: «إذا كان معهم شىء من أجلى فليجيئوا به فما أدخل المدينة ولا أرحل من هذا المكان حتى يعرض على».

ثم ركب جواده وسار، وسارت مماليكه خلفه إلى أن أشرف على القافلة، فقام له التجار ودعوا له بالنصر والإقبال، ودوام العز والأفضال، وقد ضربت له خيمة من الأطلس الأحمر، مزركشة بالدر والجوهر، وفرشوا له مقعدًا سلطانيا فوق بساط من الحرير وصدره مزركش بالزمرد، فجلس تاج الملوك ووقفت المماليك فى خدمته وأرسل إلى التجار وأمرهم أن يحضروا بجميع ما معهم، فأقبل عليه التجار ببضائعهم فاستعرض جميع بضاعتهم وأخذ منها ما يصلح له وأوفى لهم بالثمن، ثم ركب وأراد أن يسير، فلاحت منه التفاتة إلى القافلة فرأى شابا جميل الشباب، نظيف الثياب، ظريف المعانى، بجبين أزهر، ووجه أقمر، إلا أن ذلك الشاب قد تغيَّرت محاسنه وعلاه الاصفرار من فرقة الأحباب، وزاد به الأنين والانتحاب، وسالت من جفنيه العبرات وهو ينشد هذه الأبيات:

طال الفراق ودام الهم والوجل ... والدمع من مقلتى يا صاح منهمل
والقلب ودعته يوم الفراق وقد ... بقيت فردًا فلا قلب ولا أمل

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: ثم إن الشاب بعد ما فرغ من الشعر بكى ساعة وغشى عليه، وتاج الملوك ناظر إليه، وهو متعجب من أمره، فلما أفاق من غشيته نظر ابن الملك واقفًا فوق رأسه، فنهض قائمًا على قدميه، وقبل الأرض بين يديه، فقال له تاج الملوك: «لأى شىء لم تعرض بضاعتك علينا؟» فقال: «يا مولاى إن بضاعتى ليس فيها شىء يصلح لحضرة سعادتك» فقال: «لا بد أن

تعرض علي ما معك، وتخبرني بحالك، فإني أراك باكي العين حزين القلب، فإن كنت مظلومًا أزلنا ظلامتك، وإن كنت مديونًا قضينا دينك، فإن قلبي قد احترق من أجلك حين رأيتك» ثم إن تاج الملوك أمر بنصب كرسيين، فنصبوا له كرسيا من العاج والأبنوس مشبكًا بالذهب، وبسطوا له بساطًا من الحرير، فجلس على الكرسي وأمر الشاب أن يجلس على البساط وقال له: «اعرض على بضاعتك»، فقال له الشاب: «يا مولاي لا تذكر لي ذلك فإن بضاعتي ليست بمناسبة لك» فقال له تاج الملوك: «لا بد من ذلك» ثم أمر بعض غلمانه بإحضارها، فاحضروها قهرًا، فلما رآها الشاب جرت دموعه وبكى وأنّ واشتكى، وأصعد الزفرات.

ثم فتح بضاعته وعرضها على تاج الملوك قطعة قطعة وتفصيلة تفصيلة، وأخرج من جملتها ثوبًا من الأطلس منسوجًا بالذهب يساوي ألفي دينار، فلما فتح الثوب وقعت من وسطه خرقة فأخذها الشاب بسرعة ووضعها تحت وركه وقد ذهل عن المعقول، فتعجب تاج الملوك من أمره غاية العجب، ولم يعلم لذلك من سبب، ولما أخذ الخرقة ووضعها تحت وركه قال له تاج الملوك: «ما هذه الخرقة؟» قال له: «يا مولاي أنا ما امتنعت من عرض بضاعتي عليك إلا لأجلها فإني لا أقدر أدعك تنظر إليها». فقال له تاج الملوك: «لا بد من أن أنظر إليها»، وألح عليه واغتاظ، فأخرجها من تحت ركبته وبكى واشتكى وأكثر من الأنات، وأنشد هذه الأبيات:

لا تعذليه فإن العذل يوجعه	قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
أستودع الله في البطحاء لي قمرًا	بالحي من فلك الأنوار مطلعه
ودعته وبودي لو يودعني	صفو الحياة وأني لا أودعه
وكم تشفع بي يوم الفراق ضحى	وأدمعي مستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ثوب العذر منخرق	عني بفرقته لكن أرقعه
لا يستقر لجنبي مضجع وكذا	لا يستقر له مذ بنت مضجعه
وقد سعى الدهر فيما بيننا بيد	عسراء تمنعني حظي وتمنعه
وصبّت الهم صرفًا عندما ملأت	كأسًا تجرع منها ما أجرعه

فلما فرغ من شعره قال له تاج الملوك: «أرى أحوالك غير مستقيمة فأخبرني ما سبب بكائك عند نظرك إلى هذه الخرقة» فلما سمع الشاب ذكر الخرقة تنهد وقال: «يا مولاي إن حديثي عجيب، وأمري غريب، مع هذه الخرقة». ثم نشر الخرقة وإذا فيها صورة غزال مرقومة بالحرير مزركشة بالذهب الأحمر، وقبالها صورة غزال آخر وهي مرقومة بالفضة، وفي رقبته طوق من الذهب الأحمر وثلاث قصبات من الزبرجد، فلما نظر تاج الملوك إليه وإلى حسن صنعته قال: «سبحان الله الذي علم الإنسان ما لم يعلم» وتعلق قلب تاج الملوك بحديث هذا الشاب فقال له: «احك لي قصتك».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

حكاية عزيز وعزيزة

قالت شهرزاد: فقال الشاب: اعلم يا مولاي إن أبي كان من التجار الكبار ولم يرزق ولدًا

غيرى وكان لى بنت عم تربيت أنا وإياها فى بيت أبى، لأن أباها مات وكان قبل موته اتفق هو وأبى على أن يزوجانى بها، ثم تحدث والدى مع أمى وقال لها: «فى هذه السنة نكتب كتاب عزيز على عزيزة»، واتفق مع أمى على هذا الأمر، ثم شرع أبى فى تجهيز مؤن الولائم، فلما جهز أبى أدوات الفرح ومعدات العرس أراد أن يكتب الكتاب بعد صلاة الجمعة، فتوجه إلى أصحابه من التجار وغيرهم وأعلمهم بذلك، ومضت أمى ودعت صواحباتها وذوات قرابتها، فلما جاء يوم الجمعة غسلوا القاعة المعدة للجلوس، وغسلوا رخامها، وفرشوا فى دارنا البسط ووضعوا فيها ما يحتاج إليه الأمر بعد أن زوقوا حيطانها بالقماش المقصب، واتفق الناس على أن يجيئوا بيتنا بعد صلاة الجمعة. ثم مضى أبى وعمل الحلويات وأطباق السكر، وما بقى غير كتابة الكتاب، ثم إن أمى أرسلتنى إلى الحمام وأرسلت إلى كسوة جديدة من أفخر الثياب، فلما خرجت من الحمام لبست تلك الكسوة الفاخرة وكانت مطيبة، فلما لبستها فاحت منها رائحة زكية عبقت فى الطريق، ثم أردت أن أذهب إلى الجامع فتذكرت صاحبًا لى فرجعت أفتش عليه ليحضر كتابة الكتاب، وقلت فى نفسى: «اشتغل فى هذا الأمر إلى أن يقرب وقت الصلاة».

ثم إنى دخلت زقاقًا ما دخلته قط، وكنت عرقان من أثر الحمام والكسوة الجديدة التى على جسدى، فساح عرقى وفاحت روائحى، فقعدت فى رأس الزقاق لأرتاح على مصطبة، وفرشت تحتى منديلاً مطرزًا كان معى، فاشتد على الحر فعرق جبينى وصار العرق ينحدر على وجهى، ولم يمكننى مسح العرق عن وجهى بالمنديل لأنه مفروش تحتى، فأردت أن آخذ فرجيتى وأمسح بها وجنتى، فما أدري إلا ومنديل أبيض وقع على من فوق، وكان ذلك المنديل أرق من النسيم، ورؤيته ألطف من شفاء السقيم فمسكته بيدى ورفعت رأسى إلى فوق لأنظر من أين سقط هذا المنديل، فوقعت عينى فى عين صاحبة هذا الغزال، وإذا بها مطلة من طاقة فى شباك من نحاس لم تر عينى أجمل منها.

ولما رأتنى نظرت إليها، وضعت أصبعها فى فمها، ثم أخذت أصبعها الوسطى وألصقتها بالشاهد ووضعتهما على صدرها، ثم أدخلت رأسها من الطاقة وسدت باب الطاقة وانصرفت، فأعقبتنى هذه النظرة حيرة عظيمة، فلم أسمع ما قالت، ولم أفهم ما به أشارت، فنظرت إلى الطاقة ثانيًا فوجدتها مطبوقة، فصبرت إلى مغيب الشمس فلم أسمع حسا ولم أر شخصًا فقمت على حيلى من مكانى وأخذت المنديل معى ثم فتحته ففاحت منه رائحة المسك فحصل لى من تلك الرائحة طرب عظيم حتى صرت كأننى فى الجنة، ثم نشرته بين يدى، فسقطت منه ورقة لطيفة، ففتحت الورقة، فرأيتها مضمخة بالروائح الزكيات ومكتوب فيها هذه الأبيات:

كتب العذار ويا له من كاتب سطرين فى خديه بالريحان
وا حيرة القمرين منه إذا بدا وإذا انثنى واخجلة الأغصان

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆◆◆

قالت شهرزاد: فلما رأيت ما على المنديل من الأشعار، زادت بى الأشواق والأفكار، وأخذت المنديل والورقة وأتيت بهما إلى البيت وأنا لا أدرى ما فى المنديل من المضرة، فما وصلت إلى البيت إلا بعد مدة من الليل، فرأيت بنت عمى جالسة تبكى، فلما رأتنى مسحت دموعها وأقبلت على وسألتنى عن سبب غيابى وأخبرتنى أن جميع الناس من أمراء وكبراء وتجار وغيرهم قد اجتمعوا فى بيتنا، وحضر القاضى والشهود وأكلوا الطعام واستمروا مدة جالسين ينتظرون حضورك من أجل كتب الكتاب، فلما يئسوا من حضورك تفرقوا وذهبوا إلى حال سبيلهم، وقالت لى: «إن أباك اغتاظ بسبب ذلك غيظًا شديدًا وحلف أنه لا يكتب كتابنا إلا فى السنة القابلة لأنه غرم فى هذا الفرح مالاً كثيرًا». ثم قالت لى: «ما الذى جرى لك فى هذا اليوم حتى تأخرت إلى هذا الوقت وحصل ما حصل بسبب غيابك»؟ فقلت لها: «يا بنت عمى لا تسألى عما جرى لى». وذكرت لها المنديل وأخبرتها بالخبر من أوله إلى آخره، فأخذت الورقة والمنديل وقرأت ما فيهما وجرت دموعها على خدودها، أما أنا فما اكترثت بحزنها لأن بالى كان اشتغل بصاحبة المنديل، وكنت أرغب أن أتزوج بها وأترك ابنة عمى، ومن ثم أخذت أقضى الأيام فى الشرب واللهو والمسرات. ولما رجعت ثانى يوم عند المساء رأيت ابنة عمى عزيزة قائمة، وإحدى يديها قابضة على وتد مدقوق فى الحائط ويدها الأخرى على صدرها وهى تصعد الزفرات وتنشد هذه الأبيات:

وما وجد أعرابية بان أهلها	فحنت إلى بان الحجاز ورنده
إذا آنست ركبًا تكفل شوقها	بنار قراه والدموع بورده
بأعظم من وجدى وحبىَ وإنما	يرى أننى أذنبت بوده

فلما فرغت من شعرها التفتت إلىّ فرأتنى، فمسحت دموعها بكمها وتبسمت فى وجهى وسلمت على، فلما سمعت كلامها رفستها برجلى فى صدرها فانقلبت على الإيوان فجاءت جبهتها على طرف الإيوان، وكان هناك وتد فجاء فى جبهتها، فتأملتها فرأيت جبهتها قد انفتح وسال دمها، فسكتت ولم تنطق بحرف واحد، ثم إنها قامت فى الحال وأحرقت حراقًا وحشت به ذلك الجرح وتعصبت بالعصابة ومسحت الدم الذى سال على البساط، وكأن ذلك شىء ما كان.

ثم إنها أتتنى وتبسمت فى وجهى وقالت لى بلين الكلام: «والله يا ابن عمى ما أردت الاستهزاء بك، ولكن قد كنت مشغولة بوجع رأسى، وكان فى خاطرى أن أخرج الدم، وفى هذه الساعة قد خف وجع رأس، وصارت تسلينى على ما بى، وأنا لم أزل متزايد الهموم والغموم، ثم قدمت لى الطعام فرفسته برجلي فانكبت كل زبدية فى ناحية وقلت: «كل من كان عاشقًا فهو مجنون، لا يميل إلى طعام ولا يلتذ بمنام»، فقالت لى ابنة عمى عزيزة «والله يا ابن عمى إن هذه علامات المحبة»، وسالت دموعها ولمت شقافة الزبادى، ومسحت الطعام وجلست تسامرنى. فلما أصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح، توجهت إلى جهلى ولهوى وملذاتى ولما رجعت عند المساء ودخلت البيت، رأيت ابنة عمى قاعدة ووجهها إلى الحائط وقد احترق قلبها من الهم والغم والغيرة، ولكن محبتها منعتها أن تخبرنى بشىء مما عندها لما رأت ما أنا فيه من

كثرة الوجد، ثم نظرت إليها فرأيت على رأسها عصابتين إحداهما من الوقعة على جبهتها، والأخرى على عينها بسبب وجع أصابها من شدة بكائها وهى فى أسوأ الحالات.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فلما رأتنى ابنة عمى وهى تبكى، مسحت دموعها ونهضت إلى ولم تقدر أن تتكلم مما هى فيه، ولم تزل ساكتة برهة من الزمان، ثم إنها أقبلت على وصارت تسلينى بلين الكلام، ولم تجسر أن تأتينى بشىء من الطعام مخافة من غضبى عليها ورجاء ميلى إليها، ولم يكن لها قصد إلا أنها أتت إلى وقلعتنى ثيابى، ثم بكت وأنشدت هذين البيتين:

درج الأيام تندرج	**وبيوت الهم لا تلج**
رب أمر عز مطلبه	**قربته ساعة الفرج**

ثم إنى خرجت ثالث يوم وذهبت إلى بنت الدليلة المحتالة لأدبر أمر الزواج، ولما أردت الانصراف إذا بها أمسكتنى وقالت لى: «قف»، فوقفت، فحلت منديلاً وأخرجت هذه الخرقة ونشرتها قدامى وفيها صورة غزال على هذا المثال، فتعجبت منها غاية العجب وحين أعطتنى الخرقة التى فيها صورة الغزال قالت لى: «هذه عمل أختى» فقلت لها: «وما اسم أختك؟» قالت: «اسمها نور الهدى، فاحتفظ بهذه الخرقة»، ثم ودعتها وانصرفت وأنا فرحان، ومشيت إلى أن دخلت على ابنة عمى، فوجدتها تدق بيدها على صدرها وتبكى بدمع يبارى السحب الماطرات، وتنشد هذه الأبيات:

هب ريح من الحمى ونسيمه	**فأهاج الهوى بنشر هبوبه**
يا نسيم الصبا هلم إلينا	**كل صب بحظه ونصيبه**
حرم الله بعد وجه ابن عمى	**كل عيش من الزمان وطيبه**
ليت شعرى هل قلبه مثل قلبى	**ذائب من حر الجوى ولهيبه**

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فلما رأتنى، قامت مسرعة ومسحت دموعها وأقبلت على بلين كلامها وقالت لى: «يا ابن عمى أنت فى فرحك قد لطف الله إلى بك، وأنا فى بكائى وحزنى على فراقك، من يلومنى ويعذرنى، ولكن لا يؤاخذك الله من جهتى». أما أنا فكنت مشغولاً بصورة هذا الغزال، فرميت الخرقة قدامها، فقامت وقعدت ولم تطق الصبر وأفاضت دمع العين وقالت لى: «هب لى هذه الخرقة» فوهبتها لها، فأخذتها ونشرتها ورأت ما فيها، ثم إنها تبسمت فى وجهى تبسم الغيظ ولاطفتنى وقلعتنى أثوابى ونشرتها وقالت: «الله يخلصك من أعدائك ويكفيك شرهم» وأنشدت هذه الأبيات:

جسد ناحل وقلب جريح	**ودموع على الخدود تسيح**
وحبيب صعب التجنى ولكن	**كلما يفعل المليح مليح**
يا ابن عمى ملأت بالوجد قلبى	**إن طرفى من الدموع قريح**

فتهرت ابنة عمى وشتمتها فبكت، ثم مسحت دموعها وأقبلت على، وقبّلت يدى وأخذت تتقرب منى وأنا أتباعد عنها وأعاتب نفسى، فقالت لى: «يا ابن عمى الله يسامحك»، ثم بكت فأوجعنى قلبى عليها من كثرة بكائها.

ورجعت يومًا آخر إلى البيت، وأتيت إلى ابنة عمى فوجدتها راقدة وأمى عند رأسها تبكى على حالها، فلما دخلت عليها قالت لى أمى: «تبا لك من ابن عم، كيف تترك بنت عمك على غير استواء ولا تسأل عن مرضها؟» فلما رأتنى ابنة عمى رفعت رأسها وقعدت وتبسمت فى وجهى، فتركتها وخرجت ولم أكترث بمرضها، وغبت عدة أيام، ثم تشوش خاطرى وتوجهت إلى البيت، وما زلت ماشيًا إلى أن أتيت إلى زقاقنا، فسمعت عياطًا، فسألت عنه، فقيل لى: «إن عزيزة وجدناها خلف الباب ميتة»، ثم دخلت الدار، فلما رأتنى أمى قالت: «إن خطيئتها فى ذمتك فلا سامحك الله من بعدها، تبا لك من ابن عم».

ثم إن أبى جاء وجهزناها وأخرجناها وشيعنا جنازتها ودفناها وعملنا على قبرها الختمات، ومكثنا على القبر ثلاثة أيام، ثم رجعنا ودخلنا البيت وأنا حزين عليها، فأقبلت على أمى وقالت لى: «إن قصدى أن أعرف ما كنت تفعله معها حتى فطرت مرارتها، وإنى يا ولدى كنت أسألها فى كل الأوقات عن سبب مرضها فما أطلعتنى على شىء ولم تخبرنى؟ به، فبالله عليك أخبرنى عما كنت تفعل معها حتى ماتت؟» فقلت: «ما عملت شيئًا». فقالت: «الله يقتص لها منك فإنها ما ذكرت لى شيئًا بل كتمت أمرها حتى ماتت وهى راضية عنك، ولما كنت عندها ففتحت عينها وقالت لى: «يا إمرأة عمى جعل الله ولدك فى حل من دمى، ولا آخذه بما فعل معى، وإنما نقلنى الله من دار الدنيا الفانية إلى دار الآخرة الباقية» فقلت: «يا بنتى سلامتك وسلامة شبابك، وصرت أسألها عن سبب مرضها فما تكلمت، ثم تبسمت وقالت: «يا امرأة عمى قولى لابنك هاتين الكلمتين: «الوفا مليح، والغدر قبيح» فإن هذه شفقة منى عليه لأكون شفوقة عليه فى حياتى وبعد مماتى».

«ثم أعطتنى لك حاجة وحلّفتنى أنى لا أعطيك إياها حتى أراك تبكى عليها وتنوح، والحاجة عندى، فإذا رأيتك على الصفة التى ذكرتها أعطيتك إياها»، فقلت لها: «أرنى إياها». فما رضيت، ثم إنى اشتغلت بلذاتى عن تذكر موت ابنة عمى، لأنى كنت طائشًا.

وصادفت يومًا الابنة التى منعتنى عن الزواج، فسألتنى عن بنت عمى، فقلت لها إنها ماتت، وعملنا لها الذكر والختوم، ومضى لها أربع ليال وهذه الخامسة، فلما سمعت ذلك صاحت وبكت وقالت: «أما قلت لك أنك قتلتها ولو أعلمتنى بها قبل موتها لكنت أكافئها على ما فعلت معى من المعروف فإنها خدمتنى، وأنا خائفة عليك أن تقع بك رزية بسبب خطيئتها»، فقلت لها: «إنها قد جعلتنى فى حل قبل موتها»، ثم ذكرت لها ما أخبرتنى به أمى، فقالت: «بالله عليك إذا ذهبت إلى أمك فاعرف الحاجة التى عندها» فقلت لها: «إن أمى قالت لى أن ابنة عمك قبل أن تموت أوصتنى وقالت لى: «إذا أراد ابنك أن يذهب إلى الموضع الذى عادته الذهاب إليه فقولى له هاتين الكلمتين: «الوفاء المليح، والغدر القبيح».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فلما سمعت الصبية ذلك قالت: «رحمة الله تعالى عليها فإنها خلصتك منى وقد كنت أضمرت ضررك فأنا لا أضرك، ولا أشوش عليك»، فتعجبت من ذلك وقلت لها: «ما كنت تريدين قبل ذلك أن تفعليه معى وقد صارت بينى وبينك مودة» فقالت: «أنت مولع بى ولكنك صغير السن وغشيم، وقلبك خال من الخداع، فأنت لا تعرف مكرنا ولا خداعنا ولو كانت عاشت لكانت معينة لك فإنها سبب سلامتك وكانت أنجتك من الهلكة، والآن أوصيك أن لا تتكلم مع واحدة ولا تخاطب واحدة من أمثالنا لا صغيرة ولا كبيرة، فإياك ثم إياك فإنك غشيم وغير عارف بخداع النساء ومكرهنَّ، والتى كانت تسهر عليك قد ماتت وإنى أخاف عليك أن تقع فى رزية فما تلقى من يخلصك منها بعد موت بنت عمك».

ثم قالت لى: «ليتنى علمت بها قبل موتها حتى كنت أكافئها على ما فعلت معى من المعروف، وأزورها رحمة الله تعالى عليها فإنها كتمت سرها ولم تبح بما عندها ولولاها ما كنت وصلت إلى أبدًا، وإنى أرغب إليك أمرًا» فقلت: «ما هو؟» قالت: «هو أن توصلنى إلى قبرها حتى أزورها فى القبر الذى هى فيه وأكتب عليه أبياتًا»، فقلت لها: «فى غد إن شاء الله تعالى»، ثم إنها قالت لى: «ليتك أخبرتنى ببنت عمك قبل موتها» فقلت لها: «ما معنى هاتين الكلمتين اللتين قالتهما وهما: «الوفاء مليح، والغدر قبيح»؟ فلم تجبنى.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: وفى الغد أتيتها فقامت وأخذت كيسًا فيه دنانير وقالت لى: «قم وأرنى قبرها حتى أزوره وأكتب عليه هذه الأبيات وأعمل عليه قبة وأترحم عليها وأصرف هذه الدنانير صدقة عن روحها»، فقلت لها: «سمعًا وطاعة». ثم مضيت قدامها ومشت خلفى وصارت تتصدق وهى ماشية فى الطريق، وكلما تصدقت صدقة تقول: «هذه الصدقة عن روح عزيزة التى كتمت سرها حتى شربت كأس منونها»، ولم تزل تتصدق من الكيس وتقول: «عن روح عزيزة، حتى نفد ما فى الكيس ووصلنا إلى القبر، فلما عاينت القبر بكت ورمت نفسها عليه، ثم إنها أخرجت بيكارًا من الفولاذ ومطرقة لطيفة وخطت بالبيكار على الحجر الذى على رأس القبر خطا لطيفًا ورسمت هذه الأبيات:

مررت بقبر دارس وسط روضة ... عليه من النعمان سبع شقائق

فقلت لمن ذا القبر جاوبنى الثرى ... تأدب فهذا القبر قبر مفارق

فقلت رعاك الله يا ميت الجوى ... وأسكنك الفردوس أعلى الشواهق

مساكين أهل الحب حتى قبورهم ... عليها تراب الذل بين الخلائق

فلو استطع أنبت حولك روضة ... وأسقيتها من دمعى المتدفق

ثم مضت وهى تبكى، ومضيت أنا أيضًا، وكنت كلما زرتها تحسن إلى وتكرمنى وتسألنى عن الكلمتين اللتين قالتهما ابنة عمى عزيزة لأمى فأعيدها لها، وما زلت على ذلك الحال من أكل وشرب ولهو وتغيير ثياب من الملابس الرقاق حتى غلظت وسمنت، ولم يكن بى هم ولا حزن ونسيت بنت عمى، ولم أزل على ذلك الحال مدة سنة كاملة، وعند رأس السنة دخلت

الحمام وأصلحت شأني ولبست بدلة فاخرة، ولما خرجت من الحمام شربت قدح شراب وشممت روائح ثيابي المضمخة بأنواع الطيب وأنا منشرح الصدر ولم أعلم غدر الزمان وطوارق الحدثان وأنا سكران لا أدرى أين أتوجه، فمال بى السكر إلى زقاق يقال له زقاق النقيب، فبينما أنا ماش فى ذلك الزقاق نظرت بعيني وإذا أنا بعجوز ماشية وفى إحدى يديها شمعة موقدة وفى يدها الأخرى كتاب ملفوف، فتقدمت إليها، وإذا هى تبكى وتنشد هذه الأبيات:

رسول الرضا أهلاً وسهلاً ومرحبًا ... حديثك ما أحلاه عندى وأطيبا
فيا مهديًا ممن أحب سلامة ... عليك سلام الله ما هبت الصبا

فلما رأتنى قالت لى: «يا ولدى هل تعرف أن تقرأ؟» فقلت لها بفضولى: «نعم يا خالتى العجوز» فقالت لى: «خذ هذا الكتاب واقرأه لى» وناولتنى الكتاب فأخذته منها وفتحته وقرأته عليها فإذا هو كتاب مضمونه: «من عند الغياب، بالسلام على الأحباب» فلما سمعته فرحت واستبشرت وقالت: «فرج الله همك كما فرجت همى».

ثم أخذت الكتاب ومشت وذهبت أنا فى سبيلى، وإذا بالعجوز قد أقبلت على وطاطات على يدى وقبلتها وقالت لى: «يا سيدى ربنا يهنيك بشبابك أترجاك أن تمشى معى خطوات إلى ذلك الباب فإنى قلت لهم ما قلته لى فى قراءة الكتاب فلم يصدقونى، فامش معى خطوتين واقرأ لهم الكتاب من خلف الباب واستقبل منى دعوة صالحة».

فقلت لها: «وما قصة هذا الكتاب؟» فقالت لى: «يا ولدى هذا الكتاب جاء من عند ولدى وهو غائب عنى مدة عشر سنين، فإنه سافر بمتجر ومكث فى بلاد الغربة مدة، فقطعنا الرجاء منه وظننا أنه مات، ثم بعد مدة وصل إلينا هذا الكتاب من عنده وله أخت وهى تبكى عليه آناء الليل وأطراف النهار» فقلت لها: «إنه طيب بخير». فلم تصدقنى وقالت لى: «لا بد أن تأتينى بمن يقرأ هذا الكتاب بحضرتى حتى يطمئن قلبى ويطيب خاطرى، وأنت تعلم يا ولدى أن المحب مولع بسوء الظن، فأنعم على بأن تذهب معى وتقرأ لها هذا الكتاب وأنت واقف خلف الستارة وأنا أنادى أخته تسمع من داخل الباب وتفرج عنا كربة وتقضى حاجتنا، فقد قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مكروب كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه مائة كربة»، وفى حديث آخر: «من نفس عن أخيه كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه اثنتين وسبعين كربة من كرب يوم القيامة»، وأنا قصدتك فلا تخيبنى، فقلت لها: «سمعًا وطاعة تقدمى».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: فمشت العجوز قدامى ومشيت وراءها قليلاً حتى وصلت إلى باب دار حسنة كبيرة وبابها مصفح بالنحاس الأحمر، فوقفت أنا خلف الباب، فصاحت العجوز بالعجمية فما أشعر إلا وصبية أتت بخفة ونشاط وفى رجليها خلاخل الذهب المرصعة بالجوهر، وفى يديها زوجان من الأساور بأقفال من اللؤلؤ الكبار، وفى رقبتها قلادة من ثمين الجواهر، وفى أذنيها قرطان من اللؤلؤ، وعلى رأسها كوفية دق المطرقة مكللة بالفصوص الثمينة، فقالت: «يا أمى أهذا الذى جاء يقرأ الكتاب؟» فقالت لها: «نعم»، فمدت يدها إلى

بالكتاب وكان بينها وبين الباب نحو نصف قصبة، فمددت يدى لأتناول منها الكتاب، فأدخلت رأسى وأكتافى فما أشعر إلا والعجوز قد وضعت رأسها فى ظهرى ودفعتنى ويدى فيها الكتاب، فما أشعر إلا وأنا فى وسط الدار وبقيت من داخل الدهليز، ودخلت العجوز أسرع من البرق الخاطف وما كان لها شغل إلا قفل الباب.

وأما الصبية فإنها لما رأتنى من داخل الدهليز أقبلت على، ثم دخلت بى والعجوز قدامها والشمعة موقدة معها حتى قطعت بى سبع دهاليز، وبعد ذلك دخلت بى إلى قاعة كبيرة بأربعة أواوين يلعب فيها الخيال بالأكر، ثم أدخلتنى فرأيت بناء القاعة كلها رخام من أبهج المرمر، وجميع فرشها من حرير وديباج، وكذلك المخدات والمراكب وهناك دكتان من النحاس الأصفر، وسرير من الذهب الأحمر، مرصع بالدر والجوهر، ومقاعد وبيت سعادة لا يصلح إلا للملك مثلك، ثم قالت لى: «أيما أحب إليك الموت أم الحياة؟» فقلت لها: «الحياة» فقالت لى: «إذا كانت الحياة أحب إليك فتزوج بى «فقلت: «أنا أكره أن أتزوج مثلك». فقالت لى: «إن تزوجت بى تسلم من المكروه ومن بنت الدليلة المحتالة التى تعاشرها، أهلكها الله تعالى وابتلاها بما هو أشد منها، والله ما يوجد أمكر منها، وكم قتلت ناسًا، قبلك، وكم فعلت أفعالا، وكيف سلمت منها ولم تقتلك أو تشوش عليك؟».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قال الصبى: فلما سمعت كلامها تعجبت غاية العجب فقلت لها: «يا سيدتى ومن عرفك بها؟» فقالت: «أنا أعرفها مثل ما يعرف الزمان مصائبه، ولكن قصدى أن تحكى لى جميع ما وقع لك معها حتى أعرف ما سبب سلامتك منها»، فحكيت لها جميع ما جرى لى معها ومع ابنة عمى عزيزة، فترحمت عليها ودمعت عيناها، ثم دقت يدا على يد لما سمعت بموت بنت عمى عزيزة وقالت: «فى سبيل الله شبابها، وعوضك الله فيها خيرًا، والله يا عزيز إنها ماتت وهى سبب سلامتك من بنت الدليلة المحتالة، ولولا هى لكنت هلكت، وأنا خائفة عليك من مكرها وشرها، ولكن فمى ملآن لا أقدر أن أتكلم». فقلت لها: «أى والله قد حصل كل ذلك» فهزت رأسها وقالت: «لا يوجد اليوم مثل عزيزة»، فقلت: «وعند موتها أوصتنى أن أقول لها هاتين الكلمتين لا غير وهما: «الوفاء مليح، والغدر قبيح»، فلما سمعت ذلك منى قالت لى: «يا عزيز والله إن هاتين الكلمتين هما اللتان خلصتاك منها ومن القتل من يدها، والآن قد اطمأن قلبى عليك منها وما عادت تقتلك، فقد خلصتك بنت عمك حية وميتة، وأنت الآن غشيم لا تعرف مكر النساء ولا دواهى العجائز»، فقلت: «لا والله» فقالت لى: «طب نفسًا وقر عينًا، أنت شاب مليح وأنا ما أريدك إلا بسنة الله ورسوله ﷺ، ومهما أردت من مال وقماش يحضر لك سريعًا، وما أكلفك بشيء أبدًا، وأيضًا عندى دائمًا الخبز المخبوز والماء فى الكوز».

ثم إنها صفقت بيديها وقالت: «يا أمى أحضرى من عندك»، وإذا بالعجوز قد أقبلت بأربعة شهود عدول، ومعها شقة حرير، ثم إنها أوقدت أربع شمعات، فلما دخل الشهود سلموا على وجلسوا، فقامت الصبية وأرخت عليها إزارًا ووكلت بعضهم فى ولاية عقد الزواج فكتبوا الكتاب، وأشهدت على نفسها أن قبضت جميع المهر المقدم والمؤخر، وأن فى ذمتها لى عشرة

آلاف درهم، ثم إنى أردت أن أخرج وإذا هى أقبلت على تضحك وتقول: «يوه يوه هل تحسب أنت أن دخول الحمام مثل خروجه؟ وما أظن إلا أنك تحسبنى مثل بنت الدليلة المحتالة، إياك وهذا الظن، فما أنت إلا زوجى بالكتاب والسنة، وإن كنت سكران فاصح لعقلك، إن هذه الدار التى أنت فيها ما تفتح إلا فى كل سنة يومًا، قم وانظر إلى الباب الكبير». فقمت إلى الباب الكبير فوجدته مغلقًا مسمرًا، فعدت وأعلمتها بأنه مغلق مسمر فقالت لى: «يا عزيز إن عندنا من الدقيق والحبوب والفواكه والرمان والسكر واللحم والغنم ما يكفينا أعوامًا عديدة ومن هذه الساعة لا يفتح الباب إلا بعد سنة». فقلت: «لا حول ولا قوة إلا بالله». فقالت: «وأى شىء يضرك وأنت تعرف أن كل شىء موفور؟».

فلما كملت السنة كنت رزقت منها ولدًا، وعند رأس السنة سمعت فتح الباب وإذا برجال دخلوا بكعك ودقيق وسكر، فأردت أن أخرج، فقالت: «اصبر إلى وقت العشاء ومثل ما دخلت فاخرج» فصبرت إلى وقت العشاء فأردت أن أخرج وأنا خائف، وإذا هى قالت: «والله ما أدعك تخرج حتى أحلفك أنك تعود فى هذه الليلة قبل أن يغلق الباب». فأجبتها إلى ذلك، فحلفتنى بالأيمان الوثيقة على السيف والمصحف والطلاق أنى أعود إليها، ثم خرجت من عندها وأنا ضعيف ومتضجر من هذه العيشة النكدة، ومضيت إلى البستان فوجدته مفتوحًا كعادته، فاغتظت وقلت فى نفسى: «إنى غائب عن هذا المكان سنة كاملة وجئته على غفلة فوجدته مفتوحًا كعادته، يا ترى أباقية الصبية على حالها أم لا؟ ولكن لا بد أنى أدخل وأنظر قبل أن أروح إلى أمى».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: قال عزيز: ثم دخلت البستان وإذا بالصبية قد صاحت، فما دريت إلا وعشر عبيد أتوا ورمونى على الأرض، فلما وقعت تحت أيديهم قامت هى وأخذت سكينًا وقالت: «لأذبحنك ولأقتلنك شر قتلة، ويكون هذا أقل جزائك على ما فعلت مع ابنة عمك» فلما نظرت روحى وأنا تحت العبيد، وتعفر خدى بالتراب، ورأيت السكينة فى يدها، تحققت الموت، فاستعنت بها فلم تزدد إلا قسوة، فأمرت العبيد أن يكتفونى فكتفونى، وأمرتهم أن يضربونى فضربونى حتى أغمى على وخفى صوتى.

فلما استفقت قلت: «إن موتى مذبوحًا أهون على من هذا الضرب»، وتذكرت كلمة ابنة عمى حيث قالت: «كفاك الله شرها» فصرخت وبكيت حتى انقطع صوتى، ثم سنت السكين وقالت للعبيد: «امسكوا رأسه» فألهمنى الله أن أقول الكلمتين اللتين أوصتنى بهما ابنة عمى وهما: «الوفاء مليح والغدر قبيح» فلما سمعت ذلك صاحت وقالت: «يرحمك الله يا عزيزة، سلامة شبابك، نفعت ابن عمك فى حياتك وبعد موتك، ثم قالت لى: «إنك خلصت من يدى بواسطة هاتين الكلمتين». ثم قالت لى: «رح الآن إلى من تزوجت بها، رحم الله ابنة عمك التى هى سبب نجاتك، ولولا أنك أسمعتنى كلمتيها لكنت ذبحتك، فقم والمس رأسك وترحم على ابنة عمك».

ثم رفستني برجلها، فقمت وما قدرت أن أمشى فتمشيت قليلاً حتى أتيت إلى منزلى فدخلت فيه فوجدت أمى تبكى على وتقول: «يا هل ترى يا ولدى أنت فى أى أرض» فدنوت منها ورميت نفسى عليها، فلما نظرت إلى وحست بى وجدتنى على غير استواء وصار على وجهى الاصفرار والسواد، فتفكرت فى بنت عمى وما عملت معى من المعروف وتحققت أنها كانت تحبنى فبكيت عليها وبكت أمى، فقالت أمى: «يا ولدى إن والدك قد مات»، فازددت غيظًا وبكت أمى، وبيكت حتى أغمى على، فلما أفقت نظرت إلى موضع ابنة عمى التى كانت تقعد فيه فبكيت ثانيًا وكدت أن يغمى على من شدة البكاء.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: ثم إن الفتى قال: «وما زلت فى هذا البكاء والنحيب إلى نصف الليل، فقالت لى أمى: «إن لوالدك عشرة أيام وهو ميت»، فقلت لها: «أنى لا أفكر فى أحد أبدًا غير ابنة عمى لأنى أستحق كل ما حصل لى حيث أهملتها وهى تحبنى» فقالت: «وما حصل لك؟» فحكيت لها ما حصل لى، فبكت ساعة، ثم قامت وأحضرت لى شيئًا من المأكول فأكلت وأعدت لها قصتى، وأخبرتها بجميع ما وقع لى فقالت: «الحمد لله الذى جرى لك هذا وما ذبحتك». ثم إنها عالجتنى وداوتنى حتى برئت وتكاملت عافيتى، فقالت لى: «يا ولدى الآن أخرج لك الوديعة التى وضعتها عندى بنت عمك فإنها لك، وقد حلفتنى أنى لا أخرجها لك حتى أراك تتذكرها وتبكى عليها، والآن علمت فيك هذه الشروط» ثم قامت وفتحت صندوقًا وأخرجت منه هذه الخرقة التى فيها صورة هذا الغزال المصور وهى التى كنت وهبتها لها أولاً، فلما أخذتها بكيت بكاء ولطمت على وجهى وفتحت الرقعة فوقعت منها ورقة أخرى ففتحتها فإذا مكتوب فيها: «اعلم يا ابن عمى أنى جعلتك فى حل من دمى وأرجو الله أن ينجيك من بنت الدليلة المحتالة ولكن الحمد لله الذى جعل يومى قبل يومك، وسلامى عليك، واحتفظ على هذه الخرقة التى فيها صورة الغزال ولا تخليها تفارقك، فإن تلك الصورة كانت تؤانسنى إذا غبت عنى».

«وبالله عليك إن قدرت فتباعد ما أمكنك عن صاحبة هذا الغزال ولا تخليها تقربك ولا تتزوج بها، واعلم أن صاحبة هذا الغزال تعمل كل سنة غزالاً وترسله إلى أقصى البلاد لأجل أن يشيع خبرها وحسن صنعتها التى يعجز عنها أهل الأرض».

«وأما بنت الدليلة المحتالة فوصل إليها هذا الغزال فصارت تصدم به الناس وتريه إياهم وتقول: «إن لى أختًا تصنع هذا، وهى كذابة فى قولها، وهذه وصيتى، وما أوصيك بهذه الوصية إلا لأننى أعلم أن الدنيا قد تضيق عليك بعد موتى وربما تتغرب بسبب ذلك وتطوف فى البلاد وتسمع بصاحبة هذه الصورة فتتشوق نفسك إلى معرفتها فتذكرنى فما ينفعك، فلا تعرف قدرى إلا بعد موتى، واعلم أن الصبية التى صنعت هذا الغزال بنت ملك جزائر الكافور وست الأحرار».

فلما قرأت تلك الورقة، وفهمت ما فيها وبكيت بكت أمى لبكائى، وما زلت أنظر إليها وأبكى إلى أن أقبل الليل، وما زلت على تلك الحالة مدة سنة وبعد السنة تجهز هؤلاء التجار من مدينتى إلى السفر وهم هؤلاء الذين أنا معهم فى القافلة، فأشارت علىَّ أمى أن أتجهز معهم وأسافر لعلى أتسلى ويذهب ما بى من الحزن وقالت لى: «اشرح صدرك واترك هذا الحزن عنك وتغيب سنة أو سنتين أو ثلاثا حتى تعود القافلة فلعله ينشرح صدرك وينجلى خاطرك»، وما زالت تلاطفنى بالكلام حتى جهزت متجرى وسافرت معهم وأنا لم تنشف لى دمعة طول سفرى أبدًا، وفى كل منزلة ننزل بها أفتح هذه الخرقة وأنظر فيها إلى هذا الغزال فأتذكر ابنة عمى وأبكى عليها كما ترانى فإنها كانت تحبنى محبة زائدة وقد ماتت مقهورة منى، وما فعلت معها إلا الضرر، وهى لم تفعل معى إلا الخير، ومتى رجع التجار من سفرهم فأنا أرجع معهم وتكمل مدة غيابى سنة كاملة وأنا فى حزن زائد.

وما جدد همى وحزنى إلا أنى جزت على جزائر الكافور وقلعة البلور وهى سبع جزائر والحاكم عليهم ملك يقال له شهرمان وله بنت يقال لها دنيا، فقيل لى إنها هى التى تصنع الغزلان، وهذا الغزال الذى معك من جملة رقمها، فلما علمت ذلك زادت بى الأشواق، وغرقت فى بحر الفكر والاحتراق وإنى من يوم فراقى لجزائر الكافور وأنا بكى العين حزين القلب، ولى مدة على هذا الحال وما أدرى هل يمكننى أن أرجع إلى بلدى وأموت عند والدتى أو لا وقد شبعت من الدنيا، ثم بكى وأنَّ واشتكى، ونظر إلى صورة الغزال وجرت دموعه على خدوده وسالت، وأنشد يقول هذه الأبيات:

وقائل قال لى لا بدَّ من فرج ... فقلت للغيظ كم لا بدَّ من فرج
فقال لى بعد حين قلت يا عجبى ... من يضمن العمر لى يا بارد الحجج
الله يعلم أنى بعد فرقتكم ... بكيت حتى استلفت الدمع بالدين
فقال لى عاذلى اصبر تنالهم ... فقلت يا عاذلى الصبر من أين

وهذه حكايتى أيها الملك فهل سمعت أغرب من هذا الحديث، فتعجب تاج الملوك غاية العجب لما سمع قصة الشاب وأخذته الهواجس بسبب ذكر الست دنيا وجمالها.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: ولما عرف أنها هى التى ترقم الغزلان قال للشاب: «والله لقد جرى لك شىء ما جرى لأحد غيرك مثله ولكن لك عمر تقضيه وقصدى أن أسألك عن شىء»، فقال عزيز: «وما هو؟» قال: «تحكى لى كيف رأيت تلك الصبية التى عملت هذا الغزال؟» فقال: «يا مولاى إنى أتيتها بحيلة وهو أنى لما دخلت مع القافلة إلى بلدها كنت أخرج وأدور فى البساتين وهى كثيرة الأشجار وحارس تلك البساتين شيخ كبير طاعن فى السن، فقلت له: «يا شيخ لمن هذا البستان؟» فقال لى: «هو لابنة الملك الست دنيا ونحن تحت قصرها فإذا أرادت أن تتفرج تفتح باب السر وتتفرج فى البستان وتشم روائح الأزهار» فقلت له: «أنعم على بأن أقعد فى هذا البستان حتى تأتى وتمر لعلى أنظرها» فقال الشيخ: «لا بأس بذلك»، فلما قال لى ذلك

أعطيته بعض الدراهم وقلت له: «اشترِ لنا شيئًا نأكله». فأخذ الدراهم وهو فرحان وفتح الباب ودخل وأدخلنى معه وسرنا، وما زلنا سائرين إلى أن أتينا إلى مكان لطيف وقال لى: «اجلس هنا إلى أن أذهب وأعود إليك بعد أن أحضر لى شيئًا من الفواكه، وتركنى ومضى وغاب ساعة ورجع ومعه خروف مشوى فأكلنا حتى اكتفينا، فبينما نحن جالسان وإذا الباب قد انفتح، فقال لى: «قم اختف» فقمت واختفيت وإذا بطواشى أسود أخرج رأسه من باب الريح وقال: «يا شيخ هل عندك أحد؟» فقال: «لا» فقال له: «أغلق باب البستان»، فأغلق الشيخ باب البستان، وإذا بالست دنيا طلعت من باب السر، فلما رأيتها ظننت أن القمر قد طلع من الأفق وأضاء، وبعد ساعة أغلقت الباب ومضت، فعند ذلك خرجت أنا من البستان وطلبت منزلى وعرفت أنه لا يمكنى أن أخطبها، ولا أنا من رجالها، خصوصًا وهى بنت ملك وأنا رجل تاجر، فمن أين الوصول إلى مثل هذه أو غيرها؟ فلما تجهز أصحابى هؤلاء تجهزت أنا وسافرت معهم وهم قاصدون هذه البلدة، حتى إذا وصلنا إلى هذا المكان واجتمعنا بك وسألتنى فأخبرتك وهذه حكايتى وما جرى لى والسلام».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية تاج الملوك والست دنيا

قالت شهرزاد: فلما سمع تاج الملوك هذا الكلام اشتغل باله وفكره وحار فى أمره، ثم إنه نهض وركب جواده وأخذ عزيزًا وغاد به إلى مدينة أبيه، وأفرد لعزيز دارًا ووضع له فيها كل ما يحتاج إليه من المأكل والمشرب والملبس وتركه ومضى إلى قصره، ولم يزل تاج الملوك على تلك الحالة حتى دخل إليه أبوه فوجده متغير اللون، فعلم أنه مهموم لأمر نزل به، فقال له: «يا ولدى أخبرنى عن حالك، وما الذى جرى لك حتى تغير لونك ونحل جسمك؟» فأعاد له جميع ما جرى له وما سمعه من قصة عزيز وقصة السيدة دنيا.

فقال له أبوه: «يا ولدى إنها بنت ملك وبلاده بعيدة عنا فدع عنك هذا وادخل إلى قصر أمك ففيه خمسمائة جارية كالأقمار، فمن أعجبتك منهن خذها وإلا نأخذ ونخطب لك بنتًا من بنات الملوك تكون أحسن منها» فقال له: «يا أبى لا أريد غيرها أبدًا وهى صاحبة الغزال الذى رأيته ولا بدَّ لى منها وإلا أهج فى البرارى والقفار وأقتل نفسى بسببها». فقال له أبوه: «أمهلنى حتى أرسل إلى أبيها وأخطبها منه وأبلغك المرام مثل ما فعلت لنفسى فى أمك لعل الله أن يبلغك ما تريد، وإن لم يرض زلزلت عليه مملكته بجيش آخره عندى وأوله عنده»، ثم دعا بالشاب عزيز وقال له: «يا ولدى هل أنت تعرف الطريق؟» فقال: «نعم» قال له اشتهى منك أن تسافر مع وزيرى، فقال له عزيز: «سمعًا وطاعة يا ملك الزمان». ثم إن الملك أحضر وزيره وقال له: «دبر لى رأيًا فى أمر ولدى يكون صوابًا واذهب إلى جزائر الكافور واخطب بنت ملكها لولدى» فأجابه الوزير بالسمع والطاعة ثم عاد تاج الملوك إلى منزله وقد زاد به الحال، وطال عليه المطال، فلما جن عليه الليل بكى وأنشد يقول:

جن الظلام ودمعى زائد المدد والوجد من شدة النيران فى كبدى
سلوا الليالى عنى وهى تخبركم إن كان شغلى غير الهم والكمد
أبيت أرعى نجوم الليل من ولهى والدمع منهمل فى الخد كالبرد
وقد بقيت وحيدًا ليس لى أحدا كمثل صب بلا أهل ولا ولد

ثم لما فرغ من شعره غشى عليه ساعة فلم يفق إلا وقت الصباح، فأتى خادم أبيه ووقف عند رأسه ودعاه إلى والده فراح معه، فلما رآه أبوه وجده قد تغير لونه فصبره ووعده بجميع شمله، ثم جهز عزيزًا ووزيره وأعطاهم الهدايا، فسافروا أيامًا وليالى إلى أن أشرفوا على جزائر الكافور، فعند ذلك أقاموا على شاطىء نهر وأنفذ الوزير رسولاً من عنده إلى الملك ليخبره بقدومهم، فراح الرسول، فلم يكن غير ساعة إلا وحجاب الملك وأمراؤه قد أقبلوا عليهم ولاقوهم من مسيرة فرسخ، فتلقوهم وساروا فى خدمتهم إلى أن دخلوا بهم على الملك، فقدموا له الهدايا وبقوا فى ضيافته ثلاثة أيام.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فلما كان اليوم الرابع قام الوزير ودخل على الملك ووقف بين يديه وحدثه بالأمر الذى جاء فيه، فبقى الملك حائرًا فى رد الجواب لأن ابنته لا تحب الرجال ولا تشتهى الزواج، فأطرق الملك برأسه إلى الأرض ساعة، ثم رفعه ودعا بخادم من بعض الخدام وقال له: «اذهب إلى سيدتك دنيا وأعد عليها ما سمعت وبما جاء به هذا الوزير» فقام الخادم وذهب وغاب ساعة، ثم عاد إلى الملك وقال له: «يا ملك الزمان إنى لما دخلت وأخبرت الست دنيا بما سمعت غضبت غضبًا شديدًا ونهضت إلىَّ بعصا وأرادت كسر رأسى، ففررت منها هاربًا، وقالت لى: إن كان أبى يغصبنى على الزواج فالذى أتزوج به أقتله». فقال أبوها للوزير ولعزيز: «قد سمعتما فأنتما تعلمان وأخبرا الملك بذلك وسلما، وإن ابنتى لا تحب الرجال ولا تشتهى الزواج». فلما سمعوا ذلك رجعوا من غير فائدة وما زالوا مسافرين إلى أن دخلوا على الملك وأخبروه بما جرى، فعند ذلك أمر النقباء أن ينادوا على العساكر بالسفر من أجل الحرب والجهاد، فقال له الوزير: «أيها الملك لا تفعل ذلك فإن الملك لا ذنب له وإن ابنته حين علمت بذلك أرسلت تقول: إن غصبنى أبى على الزواج أقتل من أتزوج به وأقتل نفسى بعده، وإنما الامتناع منها». فلما سمع الملك كلام الوزير خاف على تاج الملوك وقال: «إن أنا حاربت أباها وظفرت بابنته فهى تقتل نفسها فلا يفيدنى شىء». ثم إن الملك أعلم ابنه تاج الملوك بذلك، فلما علم ذلك قال لأبيه: «يا أبى أنا أروح إليها وأتحايل فى خطبتها ولو مت ولا أفعل غير هذا». فقال له أبوه: «وكيف تروح إليها؟» فقال: «أروح فى صفة تاجر». فقال الملك: «إن كان ولا بد فخذ معك الوزير وعزيزًا»، ثم إنه أخرج له شيئًا من خزائنه وهيأ له متجرًا بمائة ألف دينار واتفقا معه على ذلك، فلما جاء الليل ذهب تاج الملوك وعزيز إلى منزل عزيز وباتا تلك الليلة هناك، وصار تاج الملوك يتوسل بالخلاق، أن يمن عليه بالتلاق وأنشد يقول:

ترى هل لنا بعد البعاد وصول فأشكو إليكم صبوتى وأقول
تذكرتكم والليل فى غفلاته وأسهرتمونى والأنام غفول

فلما فرغ من شعره بكى بكاء شديدًا، وبكى معه عزيز وتذكر ابنة عمه، وما زالا كذلك يبكيان إلى أن أصبح الصباح، ثم قام تاج الملوك ودخل على والدته وهو لابس أهبه السفر، فسألته عن حاله فأعاد عليها الخبر، فأعطته خمسين ألف دينار، ثم ودعته وخرج من عندها ودعت له بالسلامة، ثم دخل على والده واستأذنه أن يرحل، فأذن له وأعطاه خمسين ألف دينار وأمر أن تضرب له خيمة فى خارج المدينة فضربت له الخيمة، فأقام فيها يومين ثم سافر. واستأنس تاج الملوك بعزيز وقال له: «يا أخى أنا ما بقيت أطيق أن أفارقك» فقال عزيز: «وأنا الآخر كذلك وأنا أحب أن أموت تحت رجليك ولكن يا أخى قلبى اشتغل بوالدتى» فقال له تاج الملوك «عندما تبلغ المرام لا يكون إلا خيرًا» وسافروا، وكان الوزير قد أوصى تاج الملوك بالاصطبار، وصار عزيز يسامره وينشد له الأشعار، ويحدثه بالتواريخ والأخبار، وهم يجدون فى السير ليلاً ونهارًا مدة شهرين كاملين، فطالت الطريق على تاج الملوك فقال للوزير: «يا وزير طالت مدة السفر فأخبرنى كم بيننا وبين البلد؟» فقال له عزيز: «ما بقى إلا القليل». ثم ساروا يقطعون البرارى والقفار.

وأقبل عليه عزيز وصار يلهيه ويحادثه ويحكى له الحكايات وهم يجدون فى السير ولم يزالوا مسافرين أيامًا وليالى إلى مدة شهرين آخرين، فلما كان يوم من الأيام أشرقت عليهم الشمس ولاح لهم من البعد شىء أبيض، فقال تاج الملوك لعزيز: «ما هذا البياض؟» فقال عزيز: «يا مولاى هذه القلعة البيضاء وهذه المدينة التى أنت طالبها». ففرح تاج الملوك، ولم يزالوا مسافرين إلى أن قربوا من المدينة، فلما قربوا منها فرح تاج الملوك غاية الفرح، وزال عنه الهم والترح، ثم دخلوها فى سيمة التجار وابن الملك فى زى تاجر كبير، ثم أتوا إلى مكان يعرف بمنزل الدخان وهو خان عظيم، فقال تاج الملوك لعزيز: «أهذا محل التجار؟» فقال عزيز: «نعم وهو الخان الذى كنت أنا نزلت فيه». فنزلوا فيه وأناخوا فيه مطيهم وحطوا رحالهم وخزنوا أمتعتهم وأقاموا للراحة أربعة أيام.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



قالت شهرزاد: ثم إن الوزير أشار عليهم أن يكتروا لهم دارًا كبيرة، فأجابوه واكتروا لهم دارًا واسعة البنيان معدة للأفراح فنزلوا فيها، وأقام الوزير وعزيز يدبران حيلة لتاج الملوك وتاج الملوك حائر لا يدرى ما يفعل، ولم يجد له حيلة غير أنه يتعاطى التجارة فى قيصرية البز، ثم إن الوزير أقبل على تاج الملوك وعزيز وقال لهما: «اعلما أنه إذا كان مقامنا هنا على هذه الحالة فإننا لا نبلغ مرادنا ولا تقضى لنا حاجة، وقد خطر ببالى شىء وهو إن شاء الله فيه الصلاح»، فقال له تاج الملوك وعزيز: «افعل ما بدا لك فإن المشايخ فيهم البركة لا سيما أنك قد مارست الأمور فقل لنا ما خطر ببالك»؟ فقال لتاج الملوك: «الرأى أننا نكترى لك دكانًا فى سوق البز تقعد فيها للبيع والشراء لأن كل واحد من الخاص والعام يحتاج إلى البز والتفاصيل، وإذا سكنت وقعدت فى تلك الدكان ينصلح أمرك إن شاء الله تعالى خصوصًا وصورتك جميلة، ولكن اجعل عزيزًا أمينًا عندك وأجلسه فى داخل الدكان ليناولك التفاصيل

والأقمشة». فلما سمع تاج الملوك ذلك الكلام قال: «إن هذا رأى سديد ومليح»، فعند ذلك أخرج تاج الملوك بدلة سنية تجارية ولبسها وقام يمشى وغلمانه خلفه وأعطى لأحدهم ألف دينار ليقضى بها مصالح الدكان، وما زالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى سوق البز، فلما رأت التجار تاج الملوك ونظروا إلى حسنه وجماله تحيروا وصاروا يقولون: «إن رضوان فتح أبواب الجنان وغفل عنها فخرج منها هذا الشاب البديع الحسن»، وآخر يقول: «لعل هذا من الملائكة». فلما دخلوا عند التجار سألوا عن دكان العريف فدلوهم عليها، فما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى العريف فسلموا عليه، فقام إليهم هو ومن عنده من التجار، وأجلسوهم وعظموهم لأجل الوزير فإنهم رأوه رجلاً كبيرًا مهيبًا ومعه الشاب تاج الملوك وعزيز، فقال التجار لبعضهم: «لا شك أن هذا الشيخ والد هذين الشابين». فقال لهم الوزير: «من شيخ السوق فيكم؟» فقالوا: «ها هو». وإذا به قد أقبل، فنظر إليه الوزير وتأمله فرآه شيخًا كبيرًا صاحب هيبة ووقار وخدم وغلمان وعبيد. فعند ذلك حياهم العريف تحية الأحباب وبالغ فى إكرامهم وأجلسهم إلى جانبه وقال لهم: «هل لكم من حاجة نفوز بقضائها؟» فقال الوزير: «نعم أنا رجل كبير طاعن فى السن ومعى هذان الغلامان وسافرت بهما سائر الأقاليم والبلاد وما دخلت بلدة إلا أقمت بها سنة كاملة حتى يتفرجا عليها ويعرفا أهلها، وإنى قد أتيت بلدتكم هذه واخترت المقام فيها وأشتهى منك دكانًا تكون جيدة من أحسن المواضع حتى أجلسهما فيها ليتجرا ويتفرجا فى هذه البلدة ويتخلقا بأخلاق أهلها ويتعلما البيع والشراء والأخذ والعطاء». فقال العريف: «لا بأس بذلك»، فنظر العريف إلى الولدين وفرح بهما وأحبهما حبا زائدًا، فعند ذلك وقف العريف لخدمتهما كالغلام بين أيديهما.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: ثم إنه قام وهيأ لهما الدكان وكانت فى وسط القيصرية ولم يكن أكبر ولا أوجه منها فى السوق عندهم لأنها كانت متسعة مزخرفة فيها رفوف من عاج وخشب الأبنوس، ثم سلم المفاتيح للوزير وهو فى صفة الشيخ التاجر وقال له: «خذ يا سيدى جعلها الله منزلا مباركًا على ولديك» فأخذ منه المفاتيح. ثم إنهم مضوا إلى الخان الذى وضعوا فيه أمتعتهم وأمروا الغلمان أن ينقلوا جميع ما معهم من البضائع والقماش إلى تلك الدكان، وكان شيئًا كثيرًا يساوى خزائن من المال، فنقلوا جميع ذلك، ثم مضوا إلى الدكان ووضعوا أمتعتهم فيها وباتوا تلك الليلة، فلما أصبح الصباح أخذهما الوزير ودخل بهما الحمام فاغتسلوا وتنظفوا ولبسوا الثياب الفاخرة وتطيبوا وأخذوا غاية حظهم من الحمام، وكان كل من الغلامين ذا جمال باهر فصارا كما قال الشاعر:

بشرى لقيمه إذ لامست يده	جسمًا تولد بين الماء والنور
ما زال يظهر لطفًا من صناعته	حتى جنى المسك من تمثال كافور

ثم خرجا منه، فلما سمع العريف بدخولهما الحمام قعد فى انتظارهما، وإذا بهما قد أقبلا وهما كالغزالين، وقد احمرت خدودهما واسودت عيونهما ولمت وجوههما فصارا كأنهما

قمران زاهيان أو غصنان مثمران، فلما رآهما قام على حيله وقال: «يا ولدى حمامكما نعيم دائم» فقال له تاج الملوك بأعذب كلام: «أنعم الله عليك يا والدى، لأى سبب ما حضرت عندنا واستحممت معنا؟» ثم نزل الاثنان على يد العريف وقبلاها ومشيا قدامه حتى وصلا إلى الدكان حشمة وتعظيمًا له لأنه كبير التجار والسوق وتقدم منه الإحسان فى حقهما بإعطائهما الدكان.

ثم إنهما أقسما أن يدخل معهما الحمام ثانى مرة فما صدق بذلك وأسرع إلى الحمام ودخلا معه والوزير لم يكن خرج من الحمام، فلما سمع به خرج وتلقاه من وسط الحمام وعزم عليه فامتنع فمسك تاج الملوك يده من ناحية وعزيز يده الأخرى من ناحية ودخلا به واغتسلوا، ثم بعد ذلك أتى لهم الغلمان بالمناشف فتنشفوا ولبسوا حوائجهم وخرجوا من الحمام، فأقبل الوزير على العريف وقال له: «يا سيدى إن الحمام نعيم الدنيا» فقال العريف: «جعله الله لك ولأولادك عافية وكفاهما الله شر العين». ثم إن العريف عزم عليهم، فامتنعوا ومضوا إلى منزلهم ليستريحوا من شدة حر الحمام، فاستراحوا وأكلوا وشربوا وباتوا تلك الليلة فى منزلهم على أتم ما يكون من الحظ والسرور.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فلما أصبح الصباح قاموا من نومهم وتوضأوا وصلوا فرضهم واصطبحوا، ولما طلعت الشمس وفتحت الدكاكين والأسواق خرجوا من المنزل وتمشوا وأتوا إلى السوق وفتحوا الدكان وكانت الغلمان قد هيأوها أحسن تهيئة وفرشوا فيها السجادات والبسط الحرير ووضعوا فيها مرتبتين كل مرتبة تساوى مائة دينار وجعلوا فوق كل مرتبة نطعًا ملوكيًا دائره شريط من الذهب وفى وسط الدكان الفرش الفائق اللائق بالمقام.

فجلس تاج الملوك على مرتبة وعزيز على الأخرى وجلس الوزير فى وسط الدكان ووقف الغلمان بين أيديهم، وتسامعت بهم أهل البلد فازدحموا عليهم، فباعوا بعض بضائعهم وبعض أقمشتهم وشاع فى المدينة ذكر تاج الملوك وحسنه وجماله، ثم أقاموا على ذلك أيامًا وفى كل يوم تتزايد الناس عليهم وتهرع إليهم، فأقبل الوزير على تاج الملوك وأوصاه بكتمان سره وأوصى عليه عزيزًا ومضى الوزير إلى الدار ليختلى بنفسه ويدبر أمرًا يعود نفعه عليهم، وصار تاج الملوك وعزيز يتحادثان وتاج الملوك يقول لعزيز: «عسى أحد يجىء من عند الست دنيا».

ولم يزل تاج الملوك على ذلك أيامًا وليالى وهو قلق الفؤاد، فبينما تاج الملوك جالس وإذا هو بامرأة عجوز أقبلت عليه وتقدمت إليه وخلفها جاريتان، وما زالت ماشية حتى وقفت على دكان تاج الملوك فرأت قده واعتداله وحسنه وجماله فتعجبت من ملاحته، ثم قالت: «سبحان من خلقك وجملك فتنة للناظرين». ثم تأملت فيه وقالت: «ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم» ثم دنت منه وسلمت عليه، فرد عليه السلام، وقام لها واقفًا على الأقدام، وتبسم فى وجهها، هذا كله بإشارة عزيز، ثم أجلسها إلى جانبه وصار يروح عليها بمروحة حتى استفاقت واستراحت، فالتفتت العجوز إلى تاج الملوك وقالت له: «يا ولدى يا كامل الأوصاف والمعانى هل

أنت من هذه الديار؟» فقال لها تاج الملوك بكلام فصيح عذب مليح «والله يا سيدتي عمري ما دخلت هذه الديار إلا هذه المرة ولا أقمت فيها إلا على سبيل الفرجة»، فقالت: «أكرم بك من قادم على الرحب والسعة، وأي شيء جئت به معك من القماش؟ أرني شيئًا مليحًا فإن المليح لا يحمل إلا المليح».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: فلما سمع تاج الملوك كلامها خفق فؤاده ولم يعلم معنى كلامها، فغمزه عزيز بالإشارة فقال لها تاج الملوك: «عندي كما تشتهين وعندي شيء لا يصلح إلا للملوك وبنات الملوك فأخبريني بالشيء الذي تريدينه لمن حتى أريك كل شيء يصلح لأربابه» وأراد بذلك الكلام أن يفهم معنى كلامها، فقالت له: «أريد قماشًا يصلح للست دنيا بنت الملك شهرمان»، فلما سمع تاج الملوك ذكر اسمها فرح فرحًا شديدًا وقال لعزيز: «ائتني بالبقجة الفلانية»، فأتى بها عزيز وحلها بين يديه، فقال لها تاج الملوك: «انتخبي ما يصلح لها فإن هذا شيء لا يوجد عند غيري».

فاختارت العجوز شيئًا يساوي ألف دينار وقالت: «بكم هذا؟» وصارت العجوز تحدثه، فقال لها تاج الملوك: «وهل أنا أساوم مثلك في هذا الثمن الحقير الحمد لله الذي عرفني بك» فقالت له العجوز: «اسم الله عليك أعوذ وجهك المليح برب الفلق، إن الوجه مليح واللفظ فصيح»، ثم قالت له: «يا ولدي ما اسمك»؟ فقال: «اسمي تاج الملوك» فقالت العجوز: «إن هذا اسم الملوك وأولاد الملوك وأنت في زي التجار». فقال لها عزيز: «من محبته عند والديه وأهله ومعزته عليهم سموه بهذا الاسم» فقالت العجوز: «صدقت، كفاكما الله شر العين وشر الأعادي والحساد، ولو فتنت بمحاسنكم الأكباد». ثم أخذت القماش ومضت وهي باهتة في حسنه وجماله، وقده واعتداله.

ولم تزل ماشية حتى دخلت على الست دنيا وقالت لها: «يا سيدتي جئت لك بقماش مليح»، فقالت لها: «أريني إياه»، فقالت: «يا سيدتي ها هو فقلبيه يا عيني وأبصريه»، فلما رأته الست دنيا بهتت فيه وقالت لها: «يا دادتي إن هذا القماش مليح ما رأيته في مدينتنا»، فقالت العجوز: «يا ستي إن بائعه أحسن منه، كأن رضوانًا فتح باب الجنان وسها فخرج منها شاب هو الذي يبيع هذا القماش فإنه أتى مدينتك بأقمشة مثمنة لأجل الفرجة وهو فتنة لمن يراه» فضحكت الست دنيا من كلام العجوز وقالت: «أخزاك الله يا عجوز النحس إنك خرفتي وما بقي لك عقل» ثم قالت: «هات القماش حتى أنظره نظرًا جيدًا»، فأعطتها إياه، فنظرته ثانيًا فرأته قليلاً وثمنه كثير، فأعجبها لأنها ما رأت في عمرها مثله، فقالت: «والله إنه قماش مليح». فقالت لها العجوز: «يا سيدتي والله لو رأيت صاحبه لعرفت أنه أحسن من يكون على وجه الأرض». فقالت لها الست دنيا: «هل كنت سألته إن كان له حاجة يعلمنا بها فنقضيها له؟ فاذهبي إليه وسلمي عليه وقولي له: شرفت بقدومك أرضنا ومدينتنا ومهما كان لك من الحوائج قضيناها لك على الرأس والعين».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: فرجعت العجوز إلى تاج الملوك فى الوقت فلما رآها طار قلبه من الفرح والسرور وقام لها قائمًا على قدميه وأخذ يدها وأجلسها إلى جانبه، فلما جلست واستراحت أخبرته بما قالته لها الست دنيا، فلما سمع ذلك فرح غاية الفرح واتسع صدره وانشرح ودخل فى قلبه سرور وقال فى نفسه: «قد قضيت حاجتى» ثم قال للعجوز: «لعلك تأخذين لها من عندى رسالة فتأتينى بجوابها»، فقالت: «سمعًا وطاعة»، فعند ذلك قال لعزيز: «ائتنى بدواة وقرطاس وقلم من نحاس» فلما أتاه بتلك الأدوات أخذ القلم وكتب يطلب خطبتها.

ثم طوى الكتاب وختمه وأعطاه للعجوز وقال لها: «أوصليه إلى الست دنيا»، فقالت: «سمعًا وطاعة»، ثم أعطاها ألف دينار وقال: «يا أمى اقبلى هذه هدية منى على سبيل المحبة». فأخذتها منه ودعت له وانصرفت، ولم تزل ماشية حتى دخلت على الست دنيا، فلما رأتها قالت لها: «يا دادتى أى شىء طلب من الحوائج حتى نقضيها له؟» فقالت لها: «يا سيدتى إنه قد أرسل معى هذا الكتاب ولا أعلم ما فيه»، ثم ناولتها الكتاب، فأخذته وقرأته وفهمت معناه ثم قالت: «من أين إلى أين حتى اتصلنا ووصلنا إلى السوقة أواه أواه»، وقالت: «والله لولا خوفى من الله لقتلته وصلبته على دكانه».

فقالت العجوز: «وأى شىء فى هذا الكتاب حتى أزعج قلبك وغير خاطرك؟ يا ترى هل فيه شاية مظلمة أم فيه طلب ثمن القماش؟» فقالت لها: «ويلك ما فيه إلا أن يريد أن يخطبنى وهذا كله منك وإلا فمن أين هذا الشيطان كان يعرفنى؟» فقالت لها العجوز: «يا سيدتى أنت قاعدة فى قصرك العالى وما يصل إليك أحد ولا الطير الطائر، سلامتك وسلامة شبابك من اللوم والعتاب وما عليك من نبيح الكلاب فأنت سيدة بنت سيد فلا تؤاخذينى حيث جئت إليك بهذا الكتاب ولا أعلم بما فيه، ولكن الرأى أن تردى إليه جوابًا وتهدديه فيه بالقتل وتنهيه عن هذا الهذيان فإنه ينتهى ولا يعود إلى مثل ذلك»، فقالت السيدة دنيا: «أخاف أن أكاتبه فيطمع فىَّ». فقالت العجوز: «إنه إذا سمع التهديد والوعيد رجع عما هو فيه»، فقالت: «علىَّ بدواة وقرطاس، وقلم من نحاس»، فلما أحضروا لها تلك الأدوات كتبت هذه الأبيات:

«إنى نصحتك عما أنت طالبه ... فاقصر فإنك فى هذا على خطر
وإن رجعت إلى هذا الكلام فقد ... أتاك منى عذاب زائد الضرر
وحق من خلق الإنسان من علق ... ومن أنار ضياء الشمس والقمر
لئن رجعت إلى ما أنت ذاكره ... لأصلبنك فى جذع من الشجر»

ثم طوت الكتاب وأعطته للعجوز وقالت لها: «أعطيه إياه وقولى له: كف عن هذا الكلام»، فقالت لها: «سمعًا وطاعة»، ثم أخذت الكتاب وهى فرحانة ومضت إلى منزلها وباتت فى بيتها، فلما أصبح الصباح توجهت إلى دكان تاج الملوك فوجدته فى انتظارها، فلما رآها كاد يطير من الفرح، فلما قربت منه نهض إليها قائمًا وأقعدها بجانبه، فأخرجت له الورقة وناولته إياها وقالت له: «اقرأ ما فيها»، ثم قالت له: «إن السيدة دنيا لما قرأت كتابك اغتاظت ولكننى لاطفتها ومازحتها حتى أضحكتها ورقت لك وردت لك الجواب». فشكرها تاج الملوك على ذلك وأمر عزيزًا أن يعطيها ألف دينار، ثم إنه قرأ الكتاب وفهمه وبكى بكاءً شديدًا، فرقَّ له قلب العجوز وعظم عليها بكاؤه وشكواه.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: ثم قالت له العجوز: «يا ولدى وأى شىء فى هذه الورقة حتى أبكاك؟» فقال لها: «إنها تهددنى بالقتل والصلب وتنهانى عن خطبتها، وإن لم أخطبها يكون موتى خيرًا من حياتى فخذى جواب كتابها ودعيها تفعل ما تريد». فقالت له العجوز: «وحياة شبابك لا بدَّ أنى أخاطر معك بروحى وأبلغك مرادك وأوصلك إلى ما فى خاطرك» فقال لها تاج الملوك: «كل ما تفعلينه أجازيك عليه ويكون فى ميزانك فإنك خبيرة بالسياسة، وكل عسير عليك يسير، والله على كل شىء قدير، ثم أخذ ورقة وكتب فيها هذا البيت:

«أمست تهددنى بالقتل واحزنى والقتل لى راحة والموت مقدور»

ثم إن تاج الملوك تنفس الصعداء وبكى حتى بكت العجوز، وبعد ذلك أخذت الورقة منه وقالت له: «طب نفسًا وقرَّ عينًا فلا بد أن أبلغك مقصودك».

ثم قامت وتركته وتوجهت إلى السيدة دنيا، فرأتها متغيرة اللون من غيظها بمكتوب تاج الملوك، فناولتها الكتاب، فازدادت غيظًا وقالت للعجوز: «أما قلت لك أنه يطمع فينا؟» فقالت لها: «وأى شىء هذا الكلب حتى يطمع فيك؟» فقالت لها: «اذهبى إليه وقولى له: إن راسلتها بعد ذلك ضربت عنقك». فقالت العجوز: «اكتبى له هذا الكلام فى مكتوب وأنا آخذه معى لأجل أن يزداد خوفه»، فأخذت ورقة وكتبت فيها هذه الأبيات:

«أيا غافلاً عن حادثات الطوارق وليس إلى نيل الوصال بسابق
أتزعم يا مغرور أن تدرك السها وما أنت للبدر المنير بلاحق
فدع عنك هذا القصد خيفة سطوتى بيوم عبوس فيه شيب المفارق».

ثم طوت الكتاب وناولته العجوز، فأخذته وانطلقت به إلى تاج الملوك، فلما رآها قام على قدميه وقال: «لا أعدمنى الله بركة قدومك» فقالت له العجوز: «خذ جواب مكتوبك» فأخذ الورقة وقرأها وبكى بكاء شديدًا وقال: «إنى اشتهى من يقتلنى الآن حتى أستريح فإن القتل أهون علىَّ من هذا الأمر الذى أنا فيه»، ثم أخذ داوة وقلمًا وقرطاسًا وكتب مكتوبًا، ثم طوى الكتاب وأعطاه للعجوز وقال لها: «لا تؤاخذينى فقد أتعبتك بدون فائدة»، وأمر عزيزًا أن يدفع لها ألف دينار وقال لها: «يا أمى هذه الورقة لا بد وأن يعقبها كمال الاتصال أو كمال الانفصال». فقالت لها: «يا ولدى والله ما أشتهى لك إلا الخير ومرادى أن أخطبها لك فإنك أنت القمر صاحب الأنوار الساطعة، وهى الشمس الطالعة، وإن لم أجمع بينكما فليس فى حياتى فائدة، وأنا قد قطعت عمرى فى المكر والخداع حتى بلغت التسعين من الأعوام فكيف أعجز عن هذا الأمر؟».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: ثم ودعته العجوز وطيبت قلبه وانصرفت، ولم تزل تمشى حتى دخلت على السيدة دنيا، وقد أخفت الورقة فى شعرها، فلما جلست عندها حكت رأسها وقالت: «يا سيدتى عساك أن تفلى شوشتى فإن لى زمانًا ما دخلت الحمام»، فكشفت السيدة دنيا عن مرفقيها وحلت شعر العجوز وصارت تفلى شوشتها، فسقطت الورقة من رأسها فرأتها السيدة

دنيا، فقالت: «ما هذه الورقة؟» فقالت: «كأنى قعدت على دكان التاجر فتعلقت معى هذه الورقة هاتيها حتى أؤديها له ربما يكون فيها حساب يحتاجه» ففتحتها السيدة دنيا وقرأتها وفهمت ما فيها وقالت للعجوز: «هذه حيلة من بعض حيلك ولولا أنك ربيتنى لبطشت بك فى هذا الوقت، وقد بلانى الله بهذا التاجر، وكل ما جرى لى منه من تحت رأسك وما أدرى من أى أرض جاءنا هذا ولم يقدر أحد من الناس أن يتجاسر علىّ غيره وأنا أخاف أن ينكشف أمرى وخصوصًا فى رجل ما هو من جنسى ولا من أقرانى».

فأقبلت العجوز عليها وقالت: «لا يقدر أحد أن يتكلم بهذا الكلام خوفًا من سطوتك وهيبة أبيك ولا بأس أن تردى له الجواب»، فقالت: «يا دادتى هذا شيطان كيف تجاسر على هذا الكلام ولم يخف من سطوة السلطان وقد تحيرت فى أمره: فإن أمرت بقتله فليس بصواب وإن تركته ازداد فى تجاسره»، فقالت لها العجوز: «اكتبى له كتابًا لعله ينزجر»، فطلبت ورقة ودواة وقلمًا وكتبت له هذه الأبيات:

«طال العتاب وفرط الجهل أغراكا ... فكم بخط يدى فى الشعر أنهاكا

فإن رجعت إلى ما أنت تذكره ... فقد أتاك غراب البين ينعاكا

وعن قليل يكون الموت منخفضًا ... عليك والدفن تحت الأرض مثواكا

وتترك الأهل يا مغرور فى ندم ... على فراقك طول الدهر تنعاكا»

ثم طوت الورقة ودفعتها للعجوز، فأخذتها وتوجهت إلى تاج الملوك فأعطته إياها، فلما قرأها علم أنها قاسية القلب وأنه لا يصل إليها، فشكا أمره إلى الوزير وطلب منه حسن التدبير، فقال له الوزير: «اعلم أنه ما بقى شىء يفيد فيها غير أنك تكتب لها كتابًا وتدعو عليها فيه»، فقال: «يا أخى عزيز اكتب لها عن لسانى مثل ما تعرف»، فأخذ عزيز ورقة وكتب هذه الأبيات:

«يا رب بالخمسة الأشياخ تنقذنى ... ومن بليت به فاجعله فى شجنى

فلكم أرق لها فيما بليت به ... وكم تجور على ضعفى وتظلمنى

أهيم فى غمرات لا انقضاء لها ... ولا أرى مسعفًا يا رب يسعفنى»

ثم إن عزيزًا طوى الكتاب وناوله إلى تاج الملوك، فلما قرأه أعجبه، ثم ناوله للعجوز، فأخذته العجوز وتوجهت به إلى أن دخلت على السيدة دنيا فناولتها إياه، فلما قرأته وفهمت مضمونه اغتاظت غيظًا شديدًا، وقالت: «كل الذى جرى لى من تحت رأس هذه العجوز النحس»، فصاحت على الجوارى وقالت: «امسكوا هذه العجوز الملعونة الماكرة واضربوها بنعالكم»، فنزلوا عليها ضربًا بالنعال حتى غشى عليها، ثم أمرتهم أن يجروها ويرموها خارج الباب فسحبوها على وجهها ورموها قدام الباب، فلما أفاقت قامت تمشى وتقعد حتى وصلت إلى منزلها وصبرت إلى الصباح.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: ثم قامت العجوز وتمشت حتى أتت إلى تاج الملوك وأخبرته بجميع ما جرى لها، فصعب عليه ذلك وقال لها: «يعز علينا يا أمي ما جرى لك ولكن كل شيء بقضاء وقدر»، فقالت له: «طب نفسًا وقر عينًا، فإني لا أزال أسعى حتى أزوجك بهذه الظالمة التى أحرقتنى بالضرب»، فقال لها تاج الملوك: «أخبرينى ما سبب بغضها للرجال؟» فقالت: «لأنها رأت منامًا أوجب ذلك»، فقال لها: «وما ذلك المنام؟» فقالت: «إنها كانت نائمة ذات ليلة فرأت صيادًا نصب شركًا فى الأرض وبذر حوله قمحًا ثم جلس قريبًا منه، فلم يبق شيء من الطيور إلا وقد أتى إلى ذلك الشرك، ورأت فى الطيور حمامتين ذكرًا وأنثى، فبينما هى تنظر إلى الشرك وإذا برجل الذكر تعلقت فى الشرك وصار يتخبط فنفرت عنه جميع الطيور وفرت، فرجعت إليه امرأته وحامت عليه ونزلت، ثم تقدمت إلى الشرك والصياد غافل فصارت تنقر العين التى فيها رجل الذكر وصارت تجذبه بمنقارها حتى خلصت رجله من الشرك وطارت هى وإياه.

فجاء بعد ذلك الصياد وأصلح الشرك وقعد بعيدًا عنه، فلم يمض غير ساعة حتى نزلت الطيور وعلق الشرك فى الأنثى، فنفرت عنها جميع الطيور ومن جملتها الطير الذكر ولم يعد لأنثاه، فجاء الصياد وأخذ الطيرة الأنثى وذبحها، فانتبهت مرعوبة من منامها وقالت: «كل ذكر مثل هذا ما فيه خير والرجال جميعهم ما عندهم خير للنساء».

فلما فرغت من حديثها قال لها تاج الملوك: «يا أمي أريد أن أنظر إليها نظرة واحدة ولو كان فى ذلك مماتى، فتحيلى لى بحيلة حتى أنظر إليها»، فقالت: «اعلم أن لها بستانًا تحت قصرها وهو برسم فرجتها وأنها تخرج إليه فى كل شهر مرة من باب السر، وبعد عشرة أيام يجيء أوان خروجها إلى الفرجة، فإذا أرادت الخروج أجيء إليك وأعلمك حتى تخرج وتصادفها، واحرص على أنك لا تفارق البستان فلعلها إذا رأت حسنك وجمالك ترضى بالزواج»، فقال: «سمعًا وطاعة»، ثم قام من الدكان هو وعزيز وأخذا معهما العجوز ومضيا إلى منزلهما وعرفاه لها.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: ثم إن تاج الملوك قال لعزيز: «يا أخى ليس لى حاجة بالدكان وقد قضيت حاجتى منها ووهبتها لك وجميع ما فيها لأنك تغربت معى وفارقت بلادك»، فقبل عزيز منه ذلك، ثم جلسا يتحدثان وصار تاج الملوك يسأله عن غريب أحواله وما جرى له وصار هو يخبره بما حصل له، وبعد ذلك أقبلا على الوزير وأعلماه بما عزم عليه تاج الملوك وقالا له: «كيف العمل؟» فقال: «قوموا بنا إلى البستان» فلبس كل واحد منهم أفخر ما عنده وخرجوا وخلفهم ثلاثة مماليك وتوجهوا إلى البستان فرأوه كثير الأشجار، غزير الأنهار، ورأوا الخولى جالسًا على الباب، فسلموا عليه، فرد عليهم السلام، فناوله الوزير مائة دينار وقال: «أشتهى أن تأخذ هذه النفقة وتشترى لنا شيئًا نأكله فإننا غرباء ومعى هؤلاء الأولاد وأردت أن أفرجهم»، فأخذ البستانى الدنانير، وقال لهم: «ادخلوا وتفرجوا وجميعه ملككم واجلسوا حتى أحضر لكم ما تأكلون».

ثم توجه إلى السوق، ودخل الوزير وتاج الملوك وعزيز داخل البستان بعد أن ذهب البستانى إلى السوق، ثم بعد ساعة أتى ومعه خروف مشوى وخبز مثل القطن ووضعه بين أيديهم فأكلوا وشربوا، وبعد ذلك أحضر لهم حلوى فتحلوا وغسلوا أيديهم وجلسوا يتحدثون، فقال الوزير: «أخبرنى عن هذا البستان هل هو لك أم أنت مستأجره»، فقال الشيخ: «ما هو لى وإنما هو لبنت الملك السيدة دنيا»، فقال الوزير: «كم لك فى الشهر من الأجرة؟» فقال: «دينار واحد لا غير»، فتأمل الوزير فى البستان فرأى هناك قصرًا عاليًا إلا أنه عتيق، فقال الوزير: «يا شيخ أريد أن أعمل هنا خيرًا تذكرنى به»، فقال: «يا سيدى وما تريد أن تفعل من الخير؟» فقال: «خذ هذه الثلاثمائة دينار»، فلما سمع الخولى بذكر الذهب قال: «يا سيدى مهما شئت فافعل»، ثم أعطاه الدنانير وقال له: «إن شاء الله تعالى نفعل فى هذا المحل خيرًا»، ثم خرجوا من عنده وتوجهوا إلى منزلهم وباتوا تلك الليلة.

فلما كان من الغد أحضر الوزير مبيضًا ونقاشًا وصائغًا جيدًا وأحضر لهم جميع ما يحتاجون إليه من الآلات ودخل بهم البستان وأمرهم بتبييض ذلك القصر وزخرفته بأنواع النقش، ثم أمر بإحضار الذهب واللازورد وقال للنقاش: «اعمل فى صدر هذا الإيوان صورة آدمى صياد كأنه نصب شركه وقد وقعت فيه طيور وحمامة واشتبكت بمنقارها فى الشرك»، فلما نقش النقاش جانبًا وفرغ من نقشه قال له الوزير: «افعل في الجانب الآخر مثل الأول وصور صورة الحمامة وحدها فى الشرك وأن الصياد أخذها ووضع السكين على رقبتها، واعمل فى الجانب الآخر صورة جارح كبير قد قنص ذكر الحمام وأنشب فيه مخالبه»، ففعل ذلك، فلما فرغوا من هذه الأشياء التى ذكرها الوزير وأعطاهم أجرتهم انصرفوا، وانصرف الوزير ومن معه وودعوا البستانى ثم توجهوا إلى منزلهم.

هذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من أمر العجوز فإنها انقطعت فى بيتها واشتاقت بنت الملك إلى الفرجة فى البستان وهى لا تخرج إلا بالعجوز، فأرسلت إليها وصالحتها وطيبت خاطرها وقالت: «إنى أريد أن أخرج إلى البستان لأتفرج على أشجاره وأثماره وينشرح صدرى بأزهاره»، فقالت لها العجوز: «سمعًا وطاعة ولكن أريد أن أذهب إلى بيتى وألبس أثوابى وأحضر عندك» فقالت لها: «اذهبى ولا تتأخرى عنى».

فخرجت العجوز من عندها وتوجهت إلى تاج الملوك وقالت له: «تجهز والبس أفخر أثوابك واذهب إلى البستان وادخل على البستانى وسلم عليه ثم اختف فى البستان»، فقال: «سمعًا وطاعة»، وجعلت بينها وبينه إشارة، ثم توجهت إلى السيدة دنيا، وبعد ذهابها قام الوزير وعزيز وألبسا تاج الملوك بدلة من أفخر ملابس الملوك تساوى خمسة آلاف دينار وشدا فى وسطه منطقة من الذهب مرصعة بالجواهر والمعادن، ثم توجهوا إلى البستان، فلما وصلوا إلى باب البستان وجدوا الخولى جالسًا هناك، فلما رآه البستانى نهض له على الأقدام وقابله بالتعظيم والإكرام وفتح له الباب وقال له: «ادخل اتفرج فى البستان»، ولم يعلم البستانى أن بنت الملك تدخل البستان فى هذا اليوم.

فلما دخل تاج الملوك لم يلبث إلا مقدار ساعة حتى سمع الضجة ولم يشعر إلا والخدم والجوارى خرجوا من باب السر، فلما رآهم الخولى ذهب إلى تاج الملوك وأعلمه بمجيئها وقال

له: «يا مولاي كيف يكون العمل وقد أتت ابنة الملك السيدة دنيا؟» فقال: لا بأس عليك فإني أختفى فى بعض مواضع البستان»، فأوصاه البستانى بغاية الاختفاء، ثم تركه وراح، فلما دخلت بنت الملك هى وجواريها والعجوز فى البستان قالت العجوز لابنة الملك: «يا سيدتى إنى أقول لك على شىء فيه راحة لقلبك»، فقالت السيدة دنيا: «قولى ما عندك» فقالت العجوز: «يا سيدتى إن هؤلاء الخدم لا حاجة بك إليهم فى هذا الوقت ولا ينشرح صدرك ما داموا معنا فاصرفيهم عنا»، فقالت السيدة دنيا: «صدقت»، ثم صرفتهم، وبعد قليل تمشت فنظرها تاج الملوك، وصارت العجوز تسارقها فى الحديث إلى أن أوصلتها إلى القصر الذى أمر الوزير بنقشه.

ثم دخلت ذلك القصر وتفرجت على نقشه وأبصرت الطيور والصياد والحمام فقالت: «سبحان الله إن هذه صفة ما رأيته فى المنام»، وصارت تنظر إلى صور الطيور والصياد والشرك وتتعجب، ثم قالت: «يا دادتى إنى كنت ألوم الرجال وأبغضهم ولكن انظرى الصياد كيف ذبح الطيرة الأنثى وتخلص الذكر وأراد أن يجىء إلى الأنثى ويخلصها فقابله الجارح وافترسه»، وصارت العجوز تتجاهل عليها وتشاغلها بالحديث إلى أن قربتا من المكان المختفى فيه تاج الملوك فأشارت إليه العجوز أن يتمشى تحت شبابيك القصر.

فبينما السيدة دنيا كذلك إذ لاحت منها التفاتة فرأته وتأملت جماله وقده واعتداله، ثم قالت: «يا دادتى من أين هذا الشاب المليح؟» فقالت: «لا أعلم به غير أنى أظن أنه ولد ملك عظيم فإنه بلغ من الحسن النهاية، ومن الجمال الغاية»، فقالت للعجوز: «يا دادتى هذا الشاب مليح»، فقالت لها العجوز: «صدقت يا سيدتى» ثم إن العجوز أشارت إلى ابن الملك أن يذهب إلى بيته، فسار ولم يقف وودع الخولى وانصرف إلى منزله، وأخبر الوزير وعزيزًا بأن العجوز أشارت إليه بالانصراف فصارا يصبرانه ويقولان له: «لولا أن العجوز تعلم أن فى رجوعك مصلحة ما أشارت عليك به».

هذا ما كان من أمر تاج الملوك والوزير وعزيز، وأما ما كان من أمر بنت الملك السيدة دنيا فإنها قالت للعجوز: «أطلب منك أن تعملى لى طريقة وتخطبى لى هذا الشاب»، فقالت لها العجوز: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أنت لا تريدين الرجال فكيف تغيرت الأحوال؟ لكن والله لا يصلح لشبابك إلا هو»، فقالت السيدة دنيا: «يا دادتى اسعفينى وساعدينى بخطبته ولك عندى ألف دينار وحلة بألف دينار وإن لم تسعفينى فإنى أغضب عليك»، فقالت العجوز: «امضى أنت إلى قصرك وأنا أتسبب فى اجتماعكما وأبذل روحى فى مرضاتكما»، ثم إن السيدة دنيا توجهت إلى قصرها وتوجهت العجوز إلى تاج الملوك، فلما رآها نهض لها على الأقدام، وقابلها بإعزاز وإكرام، وأجلسها إلى جانبه، فقالت له: «إن الحيلة قد تمت»، وحكت له ما جرى لها مع السيدة دنيا، فأعطاها ألف دينار وحلة بألف دينار فأخذتهما وانصرفت، وما زالت سائرة حتى دخلت على السيدة دنيا، فقالت لها: «يا دادتى ما عندك من الخبر؟» فقالت لها: «قد عرفت مكانه»، ففرحت السيدة دنيا بذلك وأعطتها ألف دينار وخلعة بألف دينار، فأخذتهما وانصرفت إلى منزلها.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



قالت شهرزاد: ولما كان الصباح جاءت العجوز وأخذت تاج الملوك إلى مقصورة الست دنيا، فكان أول ما رآها قال لها: «مرادى أن أخبرك بحقيقتى: فاعلمى أنى لست بتاجر بل أنا ملك ابن ملك واسم أبى الملك الأعظم سليمان شاه الذى أنفذ الوزير رسولاً إلى أبيك ليخطبك لى، فلما بلغك الخبر ما رضيت». ثم إنه قص عليه قصته من الأول إلى الآخر، وليس فى الإعادة إفادة، وأريد الآن أن أتوجه إلى أبى ليرسل رسولاً إلى أبيك ويخطبك منه ونستريح، فلما سمعت ذلك الكلام فرحت فرحًا شديدًا لأنه وافق غرضها.

ثم اتفق بالأمر المقدر أنه فى ذلك الوقت كان الملك شهرمان جالسًا فى دست مملكته وبين يديه أمراء دولته إذ دخل عليه عريف الصياغ وبيده حق كبير فتقدم وفتحه بين يدى الملك وأخرج منه علبة لطيفة تساوى مائة ألف دينار لما فيها من الجواهر واليواقيت والزمرد مما لا يقدر عليه أحد من ملوك الأقطار، فلما رآها الملك تعجب من حسنها والتفت إلى الخادم الكبير وقال له: «يا كافور خذ هذه العلبة وامض بها إلى السيدة دنيا» فأخذها الخادم ومضى حتى وصل إلى بنت الملك فوجد السيدة دنيا تتحدث مع تاج الملوك.

فلما رأى ذلك تحير فى أمره ورجع إلى الملك، فقال له الملك «هل أعطيت العلبة لسيدتك؟» فقال له الخادم: «خذ العلبة ها هى وأنا لا أقدر أن أخفى عنك شيئًا، اعلم أنى رأيت عند السيدة دنيا شابا جميلاً يتحدث معها»، فأمر الملك بإحضارهما، فلما حضرا بين يديه قال لهما: «ما هذه الفعال؟» واشتد به الغيظ فأخذ نمشة وهم أن يضرب تاج الملوك، فرمت السيدة دنيا وجهها عليه وقالت لأبيها: «اقتلنى قبله»، فنهرها الملك وأمرهم أن يمضوا بها إلى حجرتها، ثم التفت إلى تاج الملوك وقال له: «ويلك من أين أنت ومن أبوك وما جرّاك على أن تتحدث مع ابنتى؟» فقال تاج الملوك: «اعلم أيها الملك أنك إن قتلتنى هلكت وندمت أنت ومن فى مملكتك»، فقال له الملك: «ولِمَ ذلك؟» فقال: «اعلم أنى ابن الملك سليمان شاه وما تدرى إلا وقد أقبل عليك بخيله ورجله»، فلما سمع الملك شهرمان ذلك الكلام أراد أن يؤخر قتله فوضعه فى السجن حتى ينظر صحة قوله، وبقى تاج الملوك مدة شهر فى الحبس.

هذا ما كان من أمر تاج الملوك والسيدة دنيا، وأما ما كان من أمر الوزير وعزيز فإنهما لما توجه تاج الملوك إلى قصر بنت الملك ومكث تلك المدة فى الحبس لم يعلما له بخبر وأيقنا أنه هالك لا محالة، فقال عزيز للوزير: «يا والدى ماذا تصنع؟» فقال الوزير: «يا ولدى إن هذا الأمر مشكل وإن لم نرجع إلى أبيه ونعلمه فإنه يلومنا على ذلك».

ثم تجهزا فى الوقت والساعة وتوجها إلى الأرض الخضراء والعمودين وتخت الملك سليمان شاه وسارا يقطعان الأودية فى الليل والنهار إلى أن دخلا على الملك سليمان شاه وأخبراه بما جرى لولده وأنه من حين دخل قصر بنت الملك لم يعلموا له خبرًا، فعند ذلك قامت عليه القيامة، واشتدت به الندامة، وأمر أن ينادى فى مملكته بالجهاد ثم أخرج العساكر إلى خارج مدينته ونصب لهم الخيام وجلس فى سرادقه حتى اجتمعت الجيوش من سائر الأقطار وكانت رعيته تحبه لكثرة عدله وإحسانه، ثم سار فى عسكر سد الأفق فى طلب ولده. هذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من أمر تاج الملوك فإن الوزير قال للملك: «يا ملك الزمان،

الرأي عندى أن تعجل قتل هذا الخائن فإنه تجاسر على بنات الملوك». فقال الملك للسياف: «اذهب واضرب عنقه فإنه خائن». فذهب السياف وأخرجه من الحبس وشد وثاقه ورفع يده وشاور الأمراء أولاً وثانيًا وقصد بذلك أن يكون فى الأمر تأن، فزعق عليه الملك وقال له: «إلى متى تشاور؟ إن شاورت مرة أخرى ضربت عنقك». فرفع السياف يده حتى بان شعر إبطه وأراد أن يضرب عنقه.

وإذا بزعقات عالية والناس أغلقوا الدكاكين؛ فقال الملك للسياف: «لا تعجل» ثم أرسل من يكشف له الخبر، فمضى الرسول ثم عاد إليه وقال له: «رأيت عسكرًا كالبحر العجاج، المتلاطم الأمواج، وخيلهم فى ركض، وقد ارتجت لهم الأرض، وما أدرى خبرهم، فاندهش الملك وخاف على ملكه أن ينزع منه، ثم التفت إلى وزيره وقال له: «أما خرج أحد من عسكرنا إلى هذا العسكر؟».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

قالت شهرزاد: فما تم الملك كلامه إلا وحجابه قد دخلوا عليه ومعهم رسل الملك القادم ومن جملتهم الوزير فابتدأهم بالسلام، فنهض لهم قائمًا وقربهم وسألهم عن شأن قدومهم، فنهض الوزير من بينهم وتقدم إليه وقال له: «اعلم أن الذى نزل بأرضك ملك ليس كالملوك المتقدمين؛ ولا مثل السلاطين السالفين». فقال له الملك: «ومن هو؟» قال له الوزير: «هو صاحب العدل والأمان، الذى تحدث بعلو همته الركبان، السلطان سليمان شاه صاحب الأرض الخضراء والعمودين وجبال أصفهان، وهو يحب العدل والإنصاف، ويكره الجور والاعتساف، ويقول لك إن ابنه عندك وفى مدينتك وهو حشاشة قلبه، وثمرة فؤاده، فإن وجده سالما فهو المقصود، وأنت المشكور والمحمود، وإن كان فقد من بلادك أو أصابه شىء فابشر بالدمار، وخراب الديار، فإنه يصنير بلدك قفرًا ينعق فيه الغراب، وها قد بلغتك الرسالة والسلام».

فلما سمع الملك شهرمان ذلك الكلام من الرسول انزعج فؤاده وخاف على مملكته وزعق على أرباب دولته ووزرائه وحجابه ونوابه، فلما حضروا قال لهم: «ويلكم انزلوا وفتشوا عن ذلك الغلام»، وكان تحت يد السياف وقد تغير من كثر ما حصل له من الفزع ثم إن الرسول لاحت منه التفاتة فوجد ابن ملكه على نطع الدم فعرفه وقام ورمى روحه عليه وكذلك بقيه الرسل، ثم تقدموا وحلوا وثاقه وقبلوا يديه ورجليه، ففتح تاج الملوك عينه فعرف وزير والده وعرف صاحبه عزيزًا فوقع مغشيًا عليه من شدة فرحته بهما.

ثم إن الملك شهرمان صار متحيرًا فى أمره وخاف خوفًا شديدًا لما تحقق أن مجىء هذا العسكر بسبب هذا الغلام، فقام وتمشى إلى عند تاج الملوك وقبل رأسه ودمعت عيناه وقال له: «يا ولدى لا تؤاخذنى ولا تؤاخذ المسىء بفعله فارحم شيبتى ولا تخرب مملكتى». فدنا منه تاج الملوك وقبل يده وقال له: «لا بأس عليك وأنت عندى بمنزلة والدى ولكن الحذر أن يصيب السيدة دنيا شىء». فقال: «يا سيدى لا تخف عليها فما يحصل لها إلا السرور»، وصار الملك يعتذر إليه ويطيب خاطر وزير الملك سليمان شاه ووعده بالمال الجزيل على أن يخفى عن الملك ما رآه.

ثم إن الملك شهرمان أمر كبراء دولته أن يأخذوا تاج الملوك ويمضوا به إلى الحمام ويلبسوه كسوة من خيار ملبوسه ويأتوا به بسرعة، ففعلوا ذلك وأدخلوه الحمام وألبسوه الكسوة التى أفردها له الملك شهرمان، ثم أتوا به إلى المجلس.

فلما دخل على الملك شهرمان وقف له هو وأوقف له جميع أكابر دولته فى الخدمة ثم إن تاج الملوك جلس يحدث وزير والده وعزيزًا بما وقع له، فقال له الوزير وعزيز: «ونحن فى تلك المدة مضينا إلى والدك فأخبرناه بأنك دخلت سراية بنت الملك ولم تخرج؛ والتبس علينا أمرك، فحين سمع بذلك جهز العساكر، ثم قدمنا هذه الديار وكان بقدومنا غاية الفرج لك والسرور لنا»، فقال لهما: «لم يزل الخير يجرى على أيديكما أولاً وآخرًا»، هذا والملك شهرمان دخل على بنته الست دنيا فوجدها تولول وتبكى على تاج الملوك وأخذت سيفًا وركزت قبضته فى الأرض وجعلت ذبابته على رأس قلبها وانحنت على السيف ووقفت تقول: «لا بد أن أقتل نفسى ولا أعيش بعد حبيبى».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فلما دخل عليها أبوها ورآها فى هذه الحالة صاح عليها وقال لها: «يا سيدة بنات الملوك لا تفعلى وارحمى أباك وأهل بلدتك»، ثم تقدم إليها وقال: «أحاشيك أن يصيب والدك بسببك سوء»، ثم أعلمها بالقصة أن ابن الملك سليمان شاه يريد زواجها وقال لها: «إن أمر الخطبة والزواج مفوض إلى رأيك»، فتبسمت وقالت له: «أنا ما قلت لك أنه ابن سلطان؟ والله لا بد أن أخليه يصلبك على خشبة لا تساوى درهمين»، فقال لها أبوها: «يا بنتى ارحمينى يرحمك الله». فقالت له: هيا بالعجل، رح وائتنى به بسرعة بلا مهل»، فقال لها: «على الرأس والعين» ثم رجع من عندها عاجلاً ودخل على تاج الملوك وساره بهذا الكلام وقام هو وإياه وأتيا إليها، فلما رأت تاج الملوك عانقته بحضرة أبيها وقالت له: «أوحشتنى» ثم التفتت إلى أبيها وقالت: «هل رأيت أحدًا يفرط فى مثل هذه الذات الجميلة ومع ذلك أنه ملك وابن ملك ومن الأحرار المصونين عن الرذائل؟» فعند ذلك خرج الملك شهرمان ومضى إلى وزير الملك سليمان شاه ومن بصحبته من الرسل وأمرهم أن يعلموا ملكهم أن ولده فى خير وسرور، فتوجهوا إلى الملك ليعلموه بذلك. ثم إن الملك شهرمان أمر بإخراج التقادم والعلوفات والضيافات إلى عساكر الملك سليمان شاه، فلما أخرجوا جميع ما أمر به أخرج مائة جواد وهجين ومائة مملوك ومائة سرية ومائة عبد ومائة جارية وساق الجميع قدامه هدية، وركب هو فى أكابر دولته وخواصه حتى صاروا خارج المدينة، فلما علم السلطان سليمان شاه بذلك قام وتمشى خطوات إلى لقائه، وكان الوزير وعزيز أعلماه بالخبر ففرح وقال: «الحمد لله الذى بلغ ولدى مناه».

ثم إن الملك سليمان شاه ضمَّ الملك شهرمان إلى صدره وأجلسه بجانبه على السرير وتحادثا وانبسطا مع بعضهما فى الكلام، ثم قدم لهم الطعام فأكلوا حتى اكتفوا ثم قدمت لهم الحلويات فتحلوا، والفواكه والنقل فتفكهوا وتنقلوا، ولم يكن غير ساعة إلا وتاج الملوك قد أقبل

عليهم فى زى عظيم وزينة، فلما رآه والده قام إليه واحتضنه وقبله وقام جميع من كان جالسًا وأجلسه الملكان بينهما وجلسوا يتحدثون ساعة، فقال الملك سليمان شاه للملك شهرمان: «إنى أريد أن أكتب كتاب ولدى على ابنتك على رؤوس الأشهاد ليشتهر ذلك كما هو السنة»، فقال له: «السمع والطاعة».

فعند ذلك أرسل الملك شهرمان إلى القاضى والشهود فحضروا وكتبوا كتاب تاج الملوك على الست دنيا وفرقت البقاشيش والسكر وانطلق البخور والطيب وكان يوم فرح وسرور وفرحت جميع الأكابر والعساكر بذلك وشرع الملك شهرمان فى تجهيز ابنته، ثم إن تاج الملوك قال لوالده: «إن هذا الشاب عزيزًا رجل من الكرام وقد خدمنى خدمة عظيمة وتعب معى وسافر برفقتى وأوصلنى إلى بغيتى، وصبر حتى نلت ما كنت أريد، وله الآن بخدمتى سنتان وهو مشتت من بلاده وقصدى أننا نهيء له تجارة من هنا ويسافر مجبور الخاطر فإن بلاده قريبة»، فقال له والده: «نعم ما رأيت».

فعند ذلك هيأوا له مائة حمل من أفخر الكسوة وأغلاها وأقبل عليه تاج الملوك وأنعم عليه بالمال الجزيل وودعه وقال له: «يا أخى وصديقى خذ هذه الأموال واقبلها منى على سبيل الهدية والمحبة وتوجه إلى بلدك مع السلامة»، فقبلها منه وقبل الأرض بين يديه وبين يدى والده وودعهم وركب تاج الملوك مع عزيز حتى شيعه قدر ثلاثة أميال وأخذ خاطره وأقسم عليه أن يرجع بعدها، فقال له عزيز: «والله يا سيدى لولا والدتى ما فارقتك ولكن يا سيدى لا تقطع أخبارك عنى» فقال له: «وهو كذلك» ورجع تاج الملوك، وسافر عزيز حتى وصل إلى بلاده، فدخلها ولم يزل سائرًا حتى دخل على أمه فوجدها قد بنت له قبرًا فى وسط الدار وصارت تزوره فلما دخل الدار وجدها قد حلت شعرها على القبر وهى تبكى وتقول:

«وإنى لصبَّار على كل حادث ... ولكننى من خطة البين أجزع
ومن ذا يطيق الصبر بعد خليله ... ومن ذا لو شك البين لا يتضعضع»

ثم صعدت الزفرات وأنشدت هذه الأبيات:

«مالى مررت على القبور مسلمًا ... قبر الحبيب فلم يردَّ جوابى
قال الحبيب وكيف رد جوابكم ... وأنا رهين جنادل وتراب
أكل التراب محاسنى فنسيتكم ... وحجبت عن أهلى وعن أحبابى»

فبينما هى كذلك إذا بعزيز أقبل ودخل عليها، فلما رأته وقعت مغشيًا عليها من شدة الفرح، فنضح على وجهها الماء، فأفاقت وقامت وأخذته فى حضنها وضمته وسلم عليها وسلمت عليه وسألته عن سبب غيابه، فحكى لها عما وقع له من الأول إلى الآخر وأخبرها أن تاج الملوك أعطاه من المال والكسوة مائة حمل، ففرحت بذلك وأقام عزيز عند والدته فى بلدته يحكى ما وقع له.

هذا ما وقع لعزيز، وأما ما كان من أمر تاج الملوك فإن الملك شهرمان شرع فى تجهيز ابنته للسفر مع زوجها وأبيه فأحضر لهم الزاد والهدايا والتحف فحملوا وساروا وسار معهم الملك شهرمان ثلاثة أيام لأجل الوداع، فأقسم عليه الملك سليمان شاه بالرجوع فرجع، وما زال

تاج الملوك ووالده وزوجته وعساكرهم سائرين فى الليل والنهار حتى أشرفوا على مدينتهم، فتواترت الأخبار بقدومهم فزينت لهم المدينة.

ثم دخلوا وجلس الملك على كرسى مملكته وولده تاج الملوك بجانبه فأعطى ووهب وأطلق من كان مسجونًا عنده، ثم عمل لولده عرسًا ثانيًا واستمرت به المغنيات والملاهى شهرًا كاملاً، ثم دخل تاج الملوك إلى مقصورة زوجته بعد أن اجتمع مع أبيه وأمه وما زالوا فى ألذ عيش وأهناه حتى أتاهم هادم اللذات.

بقية حكاية ضوء المكان فى حصار القسطنطينية

قالت شهرزاد: فعند ذلك قال ضوء المكان للوزير دندان: «إن مثلك من يشرح القلب الحزين وينادم الملوك، ويسلك فى تدبيرهم أحسن السلوك»، هذا كله وهم محاصرون القسطنطينية حتى مضى عليهم أربع سنين، فاشتاقوا إلى أوطانهم وضجر العساكر وملوا من السهر والحصار، وإدامة الحرب فى الليل والنهار، فأمر الملك ضوء المكان بإحضار بهران ورستم وتركاش، فلما حضروا قال لهم: «اعلموا أننا أقمنا هذه السنين وما بلغنا مرامًا بل ازددنا همًا وغمًا وقد أتينا لنخلص ثار الملك عمر بن النعمان فقتل منا أخى شركان فصارت الحسرة حسرتين، والمصيبة مصيبتين، وسبب هذا كله العجوز ذات الدواهى فإنها هى التى قتلت السلطان فى مملكته، وأخذت زوجته الملكة صفية، وما كفاها ذلك حتى عملت الحيلة علينا وذبحت أخى شركان، وقد التزمت وحلفت الأيمان العظيمة أنه لا بد من أخذ الثأر، فما أنتم قائلون فافهموا هذا الخطاب وردوا علىَّ الجواب».

فأطرق الرجال برؤوسهم وقالوا: «الرأى للوزير دندان»، فعند ذلك تقدم الوزير دندان إلى الملك ضوء المكان وقال له: «اعلم يا ملك الزمان أنه ما بقى فى إقامتنا فائدة والرأي أننا نرحل إلى الأوطان، ونقيم هناك مدة من الزمان ثم نعود ونغزو الروم». فقال الملك: «نعم هذا الرأى لأن الناس اشتاقوا إلى رؤية عيالهم وأنا الآخر قد أقلقنى الشوق إلى ولدى كان ما كان، وإلى ابنة أخى قضى فكان، ولا أعلم ما كان من أمرهما».

فلما سمع العساكر ذلك فرحوا ودعوا للوزير دندان، ثم إن الملك ضوء المكان أمر المنادى أن ينادى بالرحيل بعد ثلاثة أيام، فأخذوا فى تجهيز أحوالهم، وفى اليوم الرابع دقت الكوسات ونشرت الرايات، وتقدم الوزير دندان فى مقدم العسكر وسار الملك فى وسطه وبجانبه الحاجب الكبير وسارت الجيوش، وما زالوا سائرين فى الليل والنهار حتى وصلوا إلى مدينة بغداد ففرح بقدومهم الناس، وزال عنهم الهم والباس والتقت الحضار بالغياب، وذهب كل أمير إلى داره وصعد الملك إلى قصره ودخل على ولده كان ما كان وقد بلغ من العمر سبع سنين وصار ينزل ويركب.

حكاية ضوء المكان والوقاد

قالت شهرزاد: ولما استراح الملك من السفر دخل الحمام هو وولده كان ما كان ثم رجع وجلس على كرسى مملكته، ووقف الوزير دندان بين يديه وخرج الأمراء وخواص الدولة ووقفوا فى خدمته، فعند ذلك طلب ضوء المكان صاحبه الوقاد الذى كان أحسن إليه فى غربته،

فأحضر، فلما حضر بين يديه قام له الملك إعظامًا لحقه وأجلسه إلى جانبه وكان الملك قد حدث الوزير بما فعله معه من الخير والمعروف فعظمته الأمراء وعظمه الوزير وكان الوقاد قد غلظ وسمن من الأكل والراحة، وصار عنقه كعنق الفيل، ووجهه كبطن الدرفيل، وأضحى طائش العقل لأنه كان لا يخرج من المكان الذى هو فيه، فلم يعرف الملك بسيماه، فأقبل عليه الملك وبش فى وجهه وحياه أعظم التحيات وقال له: «ما أسرع ما نسيتنى»، فعند ذلك تنبه الوقاد وأمعن فيه النظر وتحققه فعرفه وقام واثبًا على الأقدام وقال: «يا حبيبى من الذى عملك سلطانًا»!

فضحك ضوء المكان عليه. ثم أقبل الوزير وشرح له القصة وقال له: «إنه كان أخاك وصاحبك والآن صار ملك الأرض، ولا بد أن يصل إليك منه خير كثير، وها أنا أوصيك، إذا قال لك: تمنَّ علىَّ فلا تتمنَّ إلا شيئًا عظيمًا لأنك عنده عزيز»، فقال الوقاد: «إنى أخاف أن أتمنى شيئًا فلا يسمح لى به أو لا يقدر عليه»، فقال له الوزير: «كلما تمنيته يعطيك إياه وما عليك شىء». فقال له: «إذًا سأتمنى عليه الشىء الذى فى خاطرى وأرجو من الله تعالى أن يسمح لى به»، فقال له الوزير: «طيب قلبك، لو طلبت ولاية دمشق موضع أخيه لأعطاك وولاك عليها».

فعند ذلك قام الوقاد على قدميه، فأشار له ضوء المكان أن يجلس، فأبى وقال: «معاذ الله قد انقضى أيام قعودى فى حضرتك»، فقال له السلطان: «لا بل هى باقية إلى الآن فإنك كنت سببًا لحياتى، لو طلبت منى كل ما أردت لأعطيتك إياه، لكن تمن على الله ثم علىَّ»، فقال له: «يا سيدى إنى أخاف» فقال: «لا تخف». فقال: «أخاف أن أتمنى شيئًا فلا تسمح لى به»، فضحك السلطان وقال له: «وما هو؟ لو تمنيت نصف مملكتى لشاركتك فيها فتمنَّ ما تريد ودع الكلام»، قال الوقاد: «أخاف»، فقال: «لا تخف»، فقال: «أخاف أن أتمنى شيئًا لا تقدر عليه».

فعند ذلك غضب السلطان وقال له: «تمن ما أردت»، فقال له: «أتمنى على الله ثم عليك أن تكتب لى مرسومًا بعرافة جميع الوقادين الذين بمدينة القدس». فضحك السلطان وجمع من حضر وقال له: «تمنى غير هذا»، فقال: «يا سيدى أما قلت لك إنى أخاف أن أتمنى شيئًا لا تسمح لى به أو لا تقدر عليه»، فلكزه الوزير ثانيًا وثالثًا، وفى كل مرة يقول: «أتمنى عليك» فقال له السلطان: «تمنَّ وأسرع». فقال: «أتمنى عليك أن تجعلنى رئيس الزبَّالين فى مدينة القدس أو فى مدينة دمشق».

فانقلب الحاضرون على ظهورهم من الضحك عليه وضربه الوزير، فالتفت الوقاد إلى الوزير وقال له: «أى شىء تكون حتى تضربنى وما لى ذنب فإنك أنت الذى قلت لى تمن شيئًا عظيمًا»، ثم قال: «دعونى أسير إلى بلادى»، فعرف السلطان أنه يلعب فصبر عليه قليلاً، ثم أقبل عليه وقال له: «يا أخى تمنَّ علىَّ شيئًا عظيمًا لائقًا بمقامنا»، فقال: «يا ملك الزمان إنى أتمنى على الله ثم على الملك أن تجعلنى نائب دمشق موضع أخيك شركان»، فقال الملك: «إن الله أعطاك».

فقبَّل الأرض بين يديه، وأمر الملك بوضع كرسى له فى مرتبته وخلع عليه خلعة النيابة

وكتب له التوقيع بذلك وختمه له وقال للوزير دندان: «ما يروح معه غيرك وإذا أردت العود وجئت فأحضر معك ابنة أخى قضى فكان». فقال الوزير: «سمعًا وطاعة» ثم أخذ الوقاد ونزل بها وتجهز للسفر، وأمر الملك أن يخرجوا للوقاد خدمًا وحشمًا وتختًا جديدًا وكسوة سلطنة وقال للأمراء: «من يحبنى فليكرم هذا ويقدم له هدية عظيمة»، فقدم له الأمراء كل واحد بقدر همته، وسماه السلطان الزبلكان ولقبه بالمجاهد.

ولما كملت حوائجه خرج وصحبته الوزير دندان، ثم ذهب إلى الملك ليودعه ويطلب منه إذنًا فى السفر، فقام له الملك وعانقه وأوصاه بالعدل بين الرعية وأمره أن يأخذ الأهبة للجهاد بعد سنتين وودع بعضهم بعضًا وسار الملك المجاهد المسمى بالزبلكان بعد أن أوصاه الملك ضوء المكان بالرعية خيرًا وقدم له الأمراء والمماليك والخدم فبلغوا خمسة آلاف مملوك وركبوا خلفه وركب الحاجب الكبير، ومقدم الديلم بهرام ومقدم العجم رستم ومقدم العرب تركاش وهم فى خدمته وتوديعه، وما زالوا سائرين معه ثلاثة أيام، ثم عادوا إلى بغداد، ولم يزل السلطان الزبلكان والوزير دندان ومن معهم من العساكر سائرين إلى أن وصلوا إلى دمشق، وكانت الأخبار قد وصلت إليهم على أجنحة الطيور بأن الملك ضوء المكان سلطن على دمشق سلطانًا يقال له الزبلكان ولقبه بالمجاهد، فلما وصل إلى دمشق فى موكب عظيم وصعد إلى القلعة وجلس على سرير المملكة ووقف الوزير دندان فى خدمته يعرفه منازل الأمراء ومراتبهم وهم يدخلون عليه ويقبلون يديه ويدعون له، فأقبل عليهم الملك الزبلكان وخلع وأعطى ووهب، ثم فتح خزائن الأموال وأنفقها على جميع العساكر وحكم وعدل.

وشرع الزبلكان فى تجهيز بنت السلطان شركان قضى فكان وجعل لها محفة من الإبرسم وجهز الوزير وقدم له شيئًا من المال فأبى الوزير دندان وقال له: «أنت قريب عهد بالملك وربما تحتاج إلى الأموال وبعد هذا نقبل منك ونرسل إليك نطلب مالاً للجهاد أو غير ذلك»، ولما تهيأ الوزير دندان للسفر ركب السلطان المجاهد إلى وداع الوزير دندان وأحضر قضى فكان وأركبها فى المحفة وأرسل معها عشر جوار برسم الخدمة، وبعد أن سافر الوزير دندان رجع الملك المجاهد إلى مملكته ليدبرها واهتم بآلة السلاح وصار ينتظر الوقت الذى يرسل إليه فيه الملك ضوء المكان.

هذا ما كان من أمر السلطان الزبلكان، وأما ما كان من أمر الوزير دندان فإنه لم يزل يقطع المراحل بقضى فكان حتى وصل إلى الرحبة بعد شهر، ثم سار حتى أشرف على بغداد وأرسل فأعلم ضوء المكان بقدومه، فركب وخرج إلى لقائه، فأراد الوزير دندان أن يترجل، فأقسم عليه الملك ضوء المكان أن لا يفعل، فساق جواده حتى جاء إلى جانبه وسأله عن الزبلكان المجاهد، فأعلمه أنه بخير وأعلمه بقدوم قضى فكان بنت أخيه شركان، ففرح وقال له: «دونك والراحة من تعب السفر» فقال: «حبا وكرامة».

حكاية ضوء المكان وابنة أخيه قضى فكان

ثم إن الوزير توجه إلى منزله، وخرج الملك إلى قصره ودخل على ابنة أخيه قضى فكان وهى ابنة ثمانى سنين، فلما رآها فرح بها وحزن على أبيها وفصل لها ثيابًا وأعطاها مصاغًا

وحليا وأمر أن يبيتوها مع ابنه كان ما كان فى مكان واحد، فخرجا أذكى أهل زمانهما وأشجع، غير أن قضى فكان أصبحت صاحبة تدبير وعقل وخبرة بعواقب الأمور، وأصبح كان ما كان سمحًا كريمًا لا يفكر فى عاقبة شىء، فكبر الاثنان وصار لهما من العمر عشر سنين وصارت قضى فكان تركب الخيل وتذهب مع ابن عمها فى البر ويتعلمان الضرب والسيف والطعن بالرمح حتى بلغ عمر كل منهما اثنتى عشرة سنة.

ثم إن الملك انتهت أشغاله للجهاد وأكمل الأهبة والاستعداد فأحضر الوزير دندان وقال له: «اعلم أنى عزمت على شىء فأذكره لك وأريد إطلاعك عليه فأسرع فى رد الجواب»، فقال له الوزير دندان: «ما هو يا ملك الزمان؟» قال: «عزمت أن أسلطن ولدى كان ما كان وأفرح به فى حياتى وأقاتل قدامه إلى أن يدركنى الممات فما عندك من الرأى؟» فقبل الوزير دندان الأرض بين يدى الملك ضوء المكان وقال له: «اعلم أيها الملك والسلطان صاحب العصر والأوان، أن ما خطر ببالك مليح، غير أنه ما هو وقته الآن لخصلتين: الأولى أن ولدك كان ما كان صغير السن، والثانية ما جرت به العادة أن من سلطن ولده فى حياته لا يعيش إلا قليلاً وهذا ما عندى من الجواب».

حكاية مرض ضوء المكان ووفاته

قال السلطان: اعلم أيها الوزير أننا نقيم وصيا عليه الحاجب الكبير فإنه صار منا وإلينا وقد تزوّج أختى وهو فى منزلة أخى»، فقال له الوزير: «افعل ما بدا لك فإنا مطيعون أمرك»، فأرسل الملك إلى الحاجب الكبير فأحضره وكذلك أكابر مملكته وقال لهم: «إن هذا ولدى كان ما كان قد علمتم أنه فارس أهل زمانه وليس له نظير فى حربه وطعانه وقد جعلته سلطانًا عليكم والحاجب الكبير عمه وهو وصى عليه»، فقال الحاجب: يا ملك الزمان ما أنا إلا غريس نعمتك»، فقال ضوء المكان: «أيها الحاجب إن ولدى كان ما كان وابنة أخى قضى فكان أولاد عم وإنى قد زوجتها به وأشهد الحاضرين على ذلك».

ثم إن ضوء المكان نقل لولده من المال ما يعجز عن وصفه اللسان، وبعد ذلك دخل على أخته نزهة الزمان وأعلمها بذلك، ففرحت وقالت: «إن الاثنين ولداى أبقاك الله وتعيش لهما أنت مدى الزمان»، فقال: «يا أختى إنى قضيت من الدنيا ما بقلبى وأمنت على ولدى لكن ينبغى أن تلاحظيه بعينك وتلاحظى أمه»، ثم صار يوصى الحاجب ونزهة الزمان بولده وبنت أخيه وزوجته ليالى وأيامًا، وقد أيقن بكأس الحمام ولزم الوساد وصار الحاجب يتعاطى أحكام العباد والبلاد.

وبعد سنة أحضر ولده كان ما كان والوزير دندان وقال: «يا ولدى إن هذا الوزير والدك من بعدى واعلم أنى راحل من الدار الفانية إلى الدار الباقية وقد قضيت غرضى من الدنيا، ولكن بى فى قلبى حسرة يزيلها الله على يديك». فقال ولده: «وما تلك الحسرة يا والدى؟» فقال: «يا ولدى أن أموت ولم آخذ بثأر جدك عمر بن النعمان وعمك الملك شركان من عجوز يقال لها ذات الدواهى، فإن أعطاك الله النصر لا تنم عن أخذ الثأر وكشف العار، وإياك من مكر العجوز، واقبل ما يقول لك الوزير دندان، لأنه عماد ملكنا من قديم الزمان»، فقبل منه

ولده ذلك، ثم هملت عيناه بالدموع وازداد به المرض وصار أمر المملكة للحاجب صهره وكان رجلاً كبيرًا فصار يحكم ويأمر وينهى، واستمر على ذلك سنة كاملة وضوء المكان مشغول بمرضه ولم تزل تنهكه الأمراض إلى أربع سنين، وقعد الحاجب الكبير بالملك وارتضى به أهل المملكة وأكابر الدولة ودعت له جميع البلاد.

هذا ما كان من أمر ضوء المكان والحاجب، أما ما كان من أمر ابن الملك كان ما كان فلم يكن يشتغل إلا بركوب الخيل واللعب بالرمح والضرب بالنشاب، وكذلك بنت عمه قضى فكان وكانت تخرج هي وإياه من أول النهار إلى الليل فتدخل هي إلى أمها ويدخل هو إلى أمه فيجدها جالسة عند رأس أبيه تبكي، فيخدمه إلى الصباح. ثم يخرج هو وبنت عمه على عادتهما، وطلت بضوء المكان التوجعات، فبكى وأنشد يقول:

«تفانت قوتي ومضى زماني ... وها أنا قد بقيت كما تراني

فيوم العز كنت أعز قومي ... وأسبقهم إلى نيل الأماني

تراني قبل الممات أرى ولیدی ... يكون على الورى ملكًا مكاني

ويفتك بالعداة لأخذ ثار ... بضرب السيف أو طعن السنان

أنا المغبون في هزل وجد ... إذا مولاي لا يشفي جناني»

فلما فرغ من شعره وضع رأسه على الوسادة فغفلت عيناه فنام فرأى في منامه قائلاً له: «ابشر فإن ولدك يملأ البلاد عدلاً ويملكها وتطيعه العباد» فانتبه من منامه مسرورًا من هذه البشارة التي رآها، ثم إنه بعد أيام قلائل طرقه الممات فأصاب أهل بغداد لموته هم عظيم وبكى عليه الوضيع والعظيم، ومضى عليه الزمان كأنه ما كان، وتغير حال كان ما كان وعزله أهل بغداد وجعلوه هو وعياله في مكان على حدتهم.

فلما رأت أم كان ما كان ذلك صارت في أذل الأحوال فقالت: «لا بد لي من قصد الحاجب الكبير وأرجو من اللطيف الخبير» فقامت من منزلها إلى أن أتت إلى بيت الحاجب الذي صار سلطانًا فوجدته جالسًا في فراشه، فدخلت إلى زوجته نزهة الزمان وبكت بكاء شديدًا وقالت لها: «إن الميت ما له صاحب فلا أحوجكم الله مدى الدهور والأعوام ولا زلتم تحكمون بالعدل بين الخاص والعام، قد سمعت أذناك ورأت عيناك ما كنا فيه من الملك والعز والجاه والمال وحسن المعيشة والحال، والآن انقلب علينا الزمان وخاننا الدهر والأوان وقصدنا بالعدوان، وأتيت إليك قاصدة إحسانك بعد إسدائي للإحسان، لأنه إذا مات الرجل ذلت بعده النساء والبنات، ثم أنشدت تقول هذه الأبيات:

«كفاك فإن الموت مبدى العجائب ... وما غائب الأعمار عنا بغائب

وما هذه الأيام إلا مراحل ... مواردها ممزوجة بالمصائب

وما ضر قلبي مثل فقد أكارم ... أحاطت بهم مستعظمات النوائب»

فلما سمعت نزهة الزمان هذا الكلام تذكرت أخاها ضوء المكان وابنه كان ما كان فقربتها وأقبلت عليها وقالت: «أنا الآن غنية وأنت فقيرة فوالله ما تركنا افتقادك إلا خوفة من انكسار قلبك لئلا يخطر ببالك أن ما نهديه إليك صدقة مع أن جميع ما نحن فيه منك ومن

زوجك فبيتنا بيتك ومحلنا محلك لك ما لنا وعليك ما علينا». ثم خلعت عليها ثيابًا فاخرة وأفردت لها مكانًا فى القصر ملاصقًا لمكانها وأقامت عندها فى عيشة طيبة هى وولدها كان ما كان وألبسته ثياب الملوك وأفردت لهما الجوارى برسم خدمتهما، ثم إن نزهة الزمان بعد مدة قليلة ذكرت لزوجها حديث زوجة أخيها ضوء المكان، فدمعت عيناه وقال: «إن شئت أن تنظرى الدنيا بعدك فانظريها بعد غيرك فأكرمى مثواها وأغنى فقرها».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.



حكاية كان ما كان وقضى فكان

قالت شهرزاد: هذا ما كان من أمر نزهة الزمان وزوجها وأم ضوء المكان، وأما ما كان من أمر كان ما كان وبنت عمه قضى فكان فإنهما كبرا وترعرعا حتى صارا كأنهما غصنان مثمران، أو قمران زاهران، وبلغا من العمر خمسة عشر عامًا وكانت قضى فكان من أحسن البنات المخدرات، وقد جمع الله تعالى فيها كل المحاسن، وأما كان ما كان فإنه كان بديع الجمال، فائق الكمال، ليس له فى الوصف والحسن مثال، تلوح الشجاعة بين عينيه، وتشهد له ولا تشهد عليه، وتميل القلوب القاسية إليه، أكحل الطرف، كامل الوصف، فلما اخضرَّ شاربه وصار له عذار كثرت فيه الأشعار.

ثم إن كان ما كان دخل على جرى عادته على عمته نزهة الزمان وسلم عليها، فردت عليه السلام، فقال لها «يا عمتى متى ينجز السلطان وعده الذى وعد به أبى أن يزوجنى ابنته؟» فقالت له عمته: «يا ولدى عندى كلام ما كنت أحب أن أقوله، ولكن أخبرك به رغمًا عنى»، فقال لها: «قولى» فقالت: «إن أباك الحاجب أبا قضى فكان قد تغيرت نيته فأمر بحجبها عنك، فإذا كان يا ولدى لك عندنا حاجة فأنا أرسلها إليك من وراء الباب ولا عدت ترجع إلى هنا من هذا الوقت» فلما سمع كان ما كان كلامها قام وخرج ولم ينطق بحرف واحد ودخل على والدته فأعلمها بما قالته عمته وقال: «ومن يأخذها غيرى وهى بنت عمى وأنا أحق بها؟» فقالت له أمه: «بطل هذا الكلام يا ولدى واسكت لئلا يصل الخبر إلى الملك ساسان فيكون ذلك سبب حرمانك منها وسبب هلاكك وكثرة أحزانك ولا يبعثون لنا فى هذه الليلة عشاءً نأكله ونموت جوعًا ونحن لو كنا فى بلد غير هذه لكنا هلكنا من ألم الجوع أو ذل السؤال».

فلما سمع كان ما كان من أمه هذا الكلام زادت حسرته ودمعت عيناه فأن واشتكى وقال لأمه: «ما بقى لى عند عمتى ولا عند هؤلاء القوم مقام بل أخرج من القصر وأسكن فى أطراف المدينة»، فخرجت به أمه من القصر فأقاما بجوار قوم صماليك وصارت أمه تتردد إلى قصر الملك ساسان وتأخذ منه ما تقتات به هى وإياه.

ثم إن قضى فكان اختلت بأم كان ما كان وقالت لها: «يا عمتاه كيف حال ولدك؟ فقالت: «يا ابنتى إنه باكى العين حزين القلب» فبكت قضى فكان وقالت «ما هجرته لكلامه ولا بغضًا له ولكن خوفًا عليه من الأعداء، ولولا عثرات لسانه وخفقان جنانه ما قطع أبى عنه إحسانه

وأولاه منعه وحرمانه ولكن أيام الورى دول، والصبر فى كل الأمور أجمل، ولعلّ من قضى علينا بالفراق يمن علينا بالتلاق.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية سفر كان ما كان

قالت شهرزاد: فلما سمعت منها أم كان ما كان ذلك شكرتها ودعت لها وخرجت من عندها وأعلمت ولدها كان ما كان بذلك، ثم مضت الأيام والليالى حتى مضى له من العمر سبع عشرة سنة، وقد كمل حسنه وتم ظرفه، فسهر ليلة من الليالى وحدث نفسه وقال: «ما لى أسكت عن نفسى حتى أذوب وما لى عيب إلا الفقر، ها أنى أريد أن أرحل من هذه البلاد وأطوف فى البرارى والقفار فإن مقامى فى هذه البلاد عذاب ولا لى فيها صديق ولا حبيب يسلينى وأريد أن أسلى نفسى بالغربة عن الوطن حتى أموت واستريح من هذا الذل والمحن»، ثم إنه أنشد وجعل يقول هذه الأبيات:

«دع مهجتى تزداد فى خفقاتها ليس التذلل فى العدى من شأنها
سأسير فى الأرض الوسيعة منقذًا نفسى وأمنحها سوى حرمانها
وأعود مسرور الفؤاد منعمًا وأقاتل الأبطال فى ميدانها
ولسوف استاق الغنائم عائدًا وأصول مقتدرًا على أقرانها»

ثم إن كان ما كان خرج من القصر حافيًا ماشيًا فى قميص قصير الأكمام، وعلى رأسه لبدة لها سبعة أعوام، وصحبته رغيف ناشف له ثلاثة أيام، وخرج فى حندس الظلام وأتى إلى باب الأرج ببغداد فوقف هناك، ولما فتح باب المدينة كان أول من خرج منه كان ما كان وساح على وجهه فى القفار ليلاً ونهارًا، ولما أتى الليل طلبته أمه فلم تجده أبدًا فضاقت عليها الدنيا باتساعها، ولم تلتذ بشىء من متاعها، فانتظرته أول يوم وثانى يوم وثالث يوم إلى أن مضى عشرة أيام فلم تقع له على خبر فضاق صدرها وصرخت وقالت: «يا ولدى يا أنيسى هيجت أحزانى، لقد كان بى ما كفانى، حتى بعدت عن أوطانى، فلا أتمتع بعدك بطعام، ولا ألتذ بمنام، وما بقى لى إلا البكاء والأحزان، يا ولدى من أى البلاد أناديك، وأى بلد تأويك» ثم صعدت الزفرات، وأنشدت تقول:

«علمنا بأنا بعد غيبتكم نبلى ومدَّت قسى للفراق بنا نبلا
وقد خلفونى بعد شد رحالهم أعالج كرب الموت إذ قطعوا الرملا
لقد هتفت بى فى جنح ليل حمامة مطوقة ناحت فقلت لها مهلا
لعمرك لو كانت كمثلى حزينة لما لبست طوقًا ولا خضبت رجلا
وفارقنى إلفى فلاقيت بعده دواعى هم لا تفارقنى أصلا»

ثم إنها امتنعت من الطعام والشراب، وزادت فى البكاء والانتحاب، وصار بكاؤها على رؤوس الأشهاد، فأبكت العباد والبلاد، وصار الناس يقولون: «أين عينك يا ضوء المكان، فترى ما جرى على كان ما كان، وشكوا تحامل الزمان، وقالوا: يا هل ترى ما جرى على كان ما كان

حتى بعد عن وطنه وطرد من المكان وكان أبوه يشبع الجيعان، ويأمر بالعدل والأمان، وزادت أمه فى البكاء والأنان.

ثم إن الملك ساسان وصل إليه خبر كان ما كان من الأمراء الكبار وقالوا له: «إنه ولد ملكنا ومن ذرية الملك عمر بن النعمان، وقد بلغنا أنه تغرب عن الأوطان»، فلما سمع الملك ساسان كلامهم غضب عليهم وأمر بشنق واحد منهم وعلقه، فوقعت هيبته فى قلوب بقية الدولة ولم يقدر أحد منهم أن يتكلم، ثم إن ساسان تذكر ما صنعه معه ضوء المكان من الجميل وأنه أوصاه به فحزن على كان ما كان وقال: «لا بد من التفتيش عليه فى سائر البلاد»، ثم إنه أحضر تركاش وأمره أن ينتخب مائة فارس ويفتش معهم على كان ما كان، فذهب تركاش ومعه مائة فارس وغاب عشرة أيام ثم رجع وقال: «لم أطلع له على خبر ولا وقف له على أثر»، فحزن الملك ساسان على ما فعله معه، وأما أمه فإنها صارت لا يقر لها قرار ولا يطاوعها اصطبار.

هذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من أمر كان ما كان فإنه لما خرج من بغداد صار متحيرًا فى أمره ولم يعلم أين يروح، فسار فى البر ثلاثة أيام وحده، فلم يرَ راجلاً ولا فارسًا، فطار رقاده، وزاد سهاده، وتذكر أهله وبلاده، وصار يتقوت من نبات الأرض ويشربَ من أنهارها، ويقيل وقت الحر فى كل قائلة تحت أشجارها ثم خرج من تلك الطريق إلى طريق أخرى وسار فيها ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع أشرف على أرض معشبة الفلوات، مخضلة النبات، مليحة الجنبات، وهذه الأرض قد شربت من كاسات الغمام، على أصوات الرعود والحمام، فاخضرَّت جوانبها وطاب فلاها، فتذكر كان ما كان بلاد أبيه بغداد فأنشد من فرط ما هو فيه يقول:

«خرجت وفى أملى عودة ... ولكننى لست أدرى متى
وشردنى أننى لم أجد ... سبيلاً إلى دفع ما قد أتى»

فلما فرغ من شعره بكى ثم مسح دموعه وأكل من ذلك النبات ما يتقوَّت به وتوضأ وصلى ما فاته من الفرائض وجلس يستريح ذلك اليوم بطوله فى ذلك المكان، فلما جاء الليل ونام ولم يزل نائمًا إلى نصف الليل، ثم انتبه فسمع صوت إنسان يقول هذه الأبيات:

«يا حبذا وقت الربيع وزهره ... طاب الزمان بما إليه تسابق
يا شارب الصهباء دونك هذه ... أرض مزخرفة وماء دافق»

فلما سمع كان ما كان هذه الأبيات هاجت به الأشجان، وجرت دموعه على خده كالغدران، وقام ينظر قائل هذا الكلام، فلم ير أحدًا فى جنح الظلام، فزاد وجده وفزع وأخذه القلق، ونزل من مكانه إلى أسفل الوادى ومشى على شاطئ النهر فسمع صاحب الصوت يصعد الزفرات ويقول هذه الأبيات:

«إن كنت تضمر ما فى الحب إشفاقا ... فاطلق الدمع يوم البين إطلاقا
بينى وبين أحبابى عهود هوى ... لذا إليهم أظل الدهر مشتاقا
وهل تعود ليالى الوصل تجمعنا ... يومًا ويشرح كل بعض ما لاقا؟»

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية كان ما كان والبدوى

قالت شهرزاد: فلما سمع كان ما كان هذه الأشعار من صاحب ذلك الصوت ثانى مرة ولم ير شخصه علم أن ذلك القائل حزين مثله، وقد أصابه ما أصابه، فقال فى نفسه: هذا يصلح أن يضع رأسه إلى رأسى وأجعله أنيسًا لى فى هذه الغربة، ثم تنحنح ونادى قائلاً: «أيها السائر فى الليل الماكر، تقرب منى وقصَّ على قصتك، لعلك تجدنى معينًا لك على بليتك». فلما سمع صاحب الصوت ذلك الكلام نادى: «أيها المجيب لدعوتى، والسامع لقصتى، من تكون من الفرسان، وهل أنت من الإنس أو الجان، عجل لى بكلامك، قبل دنو حمامك، فقد مضى على فى هذه البرية نحو عشرين يومًا لا أرى شخصًا ولا أسمع صوتًا غير صوتك». فلما سمع كان ما كان هذا الكلام قال فى نفسه «هذا قصته مثل قصتى فإنى أنا الآخر لى أيضًا عشرون يومًا وأنا سائر لم أر شخصًا ولم أسمع صوتًا وقال فى نفسه: «لا أرد عليه جوابًا حتى يطلع النهار، ثم سكت، فناداه صاحب الصوت: «أيها الداعى إن كنت من الجان فاذهب بسلام، وإن كنت إنسيا فالبث مليا حتى يطلع الفجر والنهار، ويذهب الليل بالاعتكار».

ثم لبث المنادى مكانه ولبث كان ما كان مكانه، ولم يزالا يتناشدان الأشعار، ويبكيان بالدموع الغزار، حتى طلع ضوء النهار، وذهب الليل بالاعتكار، فنظر إليه كان ما كان فوجده رجلاً من عرب البادية إلا أنه شاب فى سنه وعليه ثياب رثة متقلد سيفًا صدئ فى جفيرة وآثار الحزن عليه لائحة، فأتى إليه وتقدم وسلم عليه، فرد البدوى عليه السلام وحياه بالإكرام إلا أنه احتقره لما رأى من صغر سنه وحالته حالة فقير فقال له: «يا فتى من أى القوم أنت وإلى من تنسب من العربان وما قصتك وأنت سائر فى الليل وهو فعل الأبطال؟ وقد كلمتنى فى الليل كلامًا لا يتكلم به إلا كل فارس همام، وبطل ضرغام، والآن روحك فى قبضتى ولكنى أرحمك لصغر سنك فأجعلك رفيقى وتكون عندى برسم خدمتى».

فلما سمع كان ما كان فظاعة كلامه بعد ما أبداه من حسن نظامه علم أنه احتقره وطمع فيه، فقال له بكلام لين فصيح: «يا وجه العرب دعنا من صغر سنى وأخبرنى عن سبب سيرك بالليل والقفار، وإنشادك الأشعار، وأراك تذكر أننى أخدمك فمن تكون أنت وما حملك على هذا المقال؟» فقال له: «اسمع يا غلام أنا صباح بن رماح بن همام، وقومى من عرب الشام، ولى بنت عم اسمها نجمة، فلما كبرت أنا وكبرت بنت عمى حجبها عنى وحجبنى عنها لما رآنى فقير الحال، قليل المال، فدخلت العرب الكبار، وسادات القبائل وألحفت عليه، فاستحى منهم وأجاب أن يعطينى بنت عمى ولكن اشترط على فى مهرها خمسين رأسًا من الخيل وخمسين ناقة عشاريات وخمسين جملاً محملة برا ومثلها شعيرًا وعشرة عبيد وعشر جوار وحملنى ما لا أطيق وأكثر على فى الصداق، وها أنا مسافر من الشام إلى العراق، ولى عشرون يومًا ما نظرت أحدًا سواك وعزمت أنى أدخل بغداد وأنظر من يخرج منها من التجار المياسير الكبار فأخرج فى أثرهم، وأغير على أموالهم، وأقتل رجالهم، وأسوق جمالهم وأحمالهم، فمن تكون أنت من الناس؟».

فلما سمع ذلك قال له كان ما كان: «إن قصتك مثل قصتى غير أن مرضى أخطر من

مرضك لأن ابنة عمى بنت ملك وأهلها لا يكفيهم منى ما ذكرت ولا يرضهم شيء مثل هذا». فقال صباح: «لعلك مهبول كيف تكون من أبناء الملوك وأنا ما أرى عليك سية الملوك، وما أنت إلا صعلوك؟» فقال: «يا وجه العرب لا تستغرب هذا الحال وما فات فات، وإن شئت منى البيان فأنا كان ما كان، ابن الملك ضوء المكان، ابن الملك عمر بن النعمان، صاحب بغداد وأرض خراسان، وقد جار على الزمان، فمات والدى وتسلطن الملك ساسان، وخرجت من بغداد خفية لئلا يرانى إنسان، فها أنا قد أوضحت لك البيان، ولى عشرون يومًا ما رأيت أحدًا غيرك، فقصتك مثل قصتى». فلما سمع ذلك صبّاح صاح: «وافرحتى، فإنى بلغت منيتى، وليس لى اليوم كسب غيرك لأنك من ذرية الملوك، وخرجت فى زى صعلوك، ولا بد أن أهلك يطلبونك، وإذا وجدوك عند أحد فبالأموال الجزيلة يفدونك، هيا فأدرك كتافك يا غلامى، وامش قدامى». فقال كان ما كان: «لا تفعل يا أخا العرب، لأن أهلى لا يشترونى بفضة ولا ذهب ولا بدرهم نحاس، وأنا رجل فقير، ولا معى قليل ولا كثير، فدع عنك هذا الأخلاق، واتخذنى من الرفاق، واخرج بنا من أرض العراق لنجول فى نواحى الآفاق لعلنا نظفر بالمهر والصداق». فلما سمع صباح ذلك الكلام غضب وزاد به الإعجاب وقال له: «ويلك أتراجعنى فى الجواب يا أخس الكلاب، أدر كتافك وإلا أنزلت عليك العذاب». فتبسم كان ما كان وقال له: كيف أدير لك الكتاف، أما عندك إنصاف، أما تخشى معايرة العربان أن تسوق رجلاً مثلى أسيرًا فى الذل والهوان، وأنت ما اختبرته فى الميدان لتعلم هل هو فارس أو جبان؟» فضحك صباح وقال: «يا للعجب إنك فى سن الغلام ولكنك كبير الكلام، لأن هذا القول لا يصدر إلا ـن البطل المصدام، فما تريد من إنصاف؟» فقال له كان ما كان: «إن كنت تريدنى أسيرًا معك ـى خدمتك فارم سلاحك وخفف ثيابك وادن منى وصارعنى، فكل من صرع منا صاحبه بلغ منه مرامه وجعله غلامه». فضحك صباح وقال: «أظن أن كثرة كلامك تدل على قرب حمامك».

ثم نهض ورمى سلاحه وشمر أذياله ودنا من كان ما كان، فدنا منه الآخر وتجاذبا ـجده البدوى يفوق عنه ويرجح عليه كما يرجح القنطار على الدينار، ونظر إلى ثبات رجليه فـ الأرض فوجدهما كالمأذنتين المؤسستين، أو وتدين مدقوقين، أو جبلين راسخين، فعرف من نفسه قصر باعه، وندم على الدنو من صراعه، وقال فى نفسه: «ليتنى قاتلته بسلاحى». ثم إن ـن ما كان قبض عليه وتمكن منه وهزه، فحس البدوى أن أمعاءه تقطعت فى بطنه فصاح: ـسك يدك يا غلام» فلم يلتفت إلى ما أبداه من الكلام بل هزه ورفعه من الأرض وقصد به النهر ليرميه فيه، فناداه البدوى: «يا أيها البطل ما الذى عزمت عليه؟» فقال: «أريد أن أرميك هذا النهر فهو يعبر بك إلى دجلة، ودجلة تدخل بك إلى نهر عيسى، ونهر عيسى يوصلك ـلفرات، والفرات يلقيك إلى بلادك فيراك قومك فيعرفونك ويعرفون مروءتك وصدق ـك» فصاح صباح ونادى: «يا فارس البطاح، لا تفعل فعل القباح، أطلقنى بحياة آبائك». فعند ذلك وضعه كان ما كان فى الأرض، فلما رأى نفسه خالصًا أتى إلى سيفه وترسه ـما وقعد يشاور نفسه فى الغدر به والهجوم عليه، فعرف كان ما كان من عينيه ذلك

فقال له: «قد عرفت ما فى قلبك حيث ملكت سيفك وترسك وما لك فى الصراع يد طويلة وأنت عديم الحيل ولو كنت على فرس تجول، وبسيفك على تصول، لكنت من زمان مقتول، وأنا أبلغك ما تختار حتى لا يبقى فى قلبك إنكار، فأعطنى الترس واهجم علىّ بسيفك فإما أن تقتلنى وإما أن أقتلك»، فقال له: «دونك ها هو»، ورمى له الترس وجرد سيفه وهجم به على كان ما كان، فتناول الترس بيمينه وصار يدافع به عن نفسه، وصار صباح يضربه بالسيف حتى كلت يده.

وعرف خصمه منه ذلك فهجم عليه واحتضنه وهزه وألقاه فى الأرض وأدار أكتافه وكتفه بحمائل سيفه وجره من رجليه وقصد به النهر، فناداه صباح: «أى شىء تريد أن تصنع بى أيها الشاب وفارس الزمان وبطل الميدان؟» فقال له: «ألم أقل لك أن قصدى أن أرسلك إلى أهلك وقومك فى النهر حتى لا يشغل خاطرك ولا خاطرهم عليك؟» فتضجر صباح وبكى وصاح وقال: «لا تفعل يا فارس الزمان، وأطلقنى واجعلنى لك من بعض الغلمان»، ثم بكى واشتكى وأنشد يقول:

«تغربت عن أهلى فيا طول غربتى ... ويا ليت شعرى هل أموت غريبا
أموت وأهلى ليس يعرف مقتلى ... وأودى غريبًا لا أزور حبيبا؟»

فرحمه كان ما كان وقال له: «تعاهدنى بالعهود والمواثيق على أنك تكون لى نعمَ الرفيق، وتصحبنى فى كل طريق؟» فقال: «نعم»، وعاهده على ذلك، فأطلقه كان ما كان، فقام صباح وأراد أن يقبل يد كان ما كان فمنعه من ذلك، ثم أخذ جرابه وفتحه وأخرج منه ثلاثة أقراص من الشعير ووضعهما قدام كان ما كان وجلس هو وإياه على حافة النهر وأكل الاثنان مع بعضهما، ولما فرغا من الأكل توضآ وصليا وجلس يتحدثان على ما لقياه من أهلهما ومن صروف الزمان، فقال له كان ما كان: «أى محل تقصد؟» فقال صباح: «أقصد بغداد بلدك أقيم بها حتى يمن الله على بالصداق»، فقال له: «دونك الطريق وها أنا هنا»، فودعه البدوى وطلب طريق بغداد، وقام كان ما كان وقال فى نفسه: يا نفسى أى وجه للرجوع مع الفقر والفاقة فلا أرجع خائبًا ولا بد لى من الفرج إن شاء الله تعالى. ثم تقدم إلى النهر وتوضأ وصلى، فلما سجد ووضع جبهته على التراب نادى ربه وقال: «اللهم منزل القطر ورازق الدود فى الحجر، أسألك أن ترزقنى بقدرتك ولطيف رحمتك، ثم فرغ من صلاته وضاق به كل مسلك.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية كان ما كان والفارس غسان

قالت شهرزاد: فبينما هو جالس يلتفت يمينًا وشمالاً وإذا بفارس أقبل على جواد وقد اقتعد ظهره وأرخى عنانه، فاستوى كان ما كان جالسًا، وبعد ساعة وصل إليه الفارس وهو فى آخر نفس وقد أيقن بالفناء لأنه كان به جرح بالغ.

فلما وصل إليه جرى دمعه على خده مثل أفواه القرب قال لكان ما كان: «يا وجه العرب اتخذنى ما عشت لك صديقًا فإنك لا تجد مثلى واسقنى قليلاً من الماء وإن كان شرب الماء لا

يصلح للمجروح ولا سيما وقت خروج الدم والروح، وإن عشت دفعت لك ما يجبر كسرك وفقرك وإن مت فأنت المسعود بحسن نيتك» وكان تحت ذلك الفارس جواد من جياد الخيل يكل عن وصفه اللسان وله قوائم مثل أعمدة الرخام فلما نظر إليه كان ما كان إلى ذلك الحصان أخذه الهيمان وقال فى نفسه: «إن مثل هذا الحصان لا يوجد فى هذا الزمان، ثم إنه أنزل الفارس ورفق به وجرّعه يسيرًا من الماء وصبر عليه حتى أخذ الراحة وأقبل عليه وقال له: «من الذى فعل بك هذا الفعال؟» فقال الفارس: «أنا أخبرك بحقيقة الحال، أنا رجل سلال غيار، طول دهرى أسل الخيل واختلسها فى الليل والنهار، وأنا يقال لى غسان، آفة كل حجرة وحصان، وقد سمعت بهذا الحصان فى بلاد الروم عند الملك أفريدون، وقد سماه بالقاتل ولقبه بالمجنون.

وقد كنت سافرت إلى القسطنطينية من أجله وصرت أراقبه، فبينما أنا كذلك إذ خرجت عجوز معظمة عند الروم وأمرها عندهم نافذ تسمى شواهى ذات الدواهى، عندها الخداع المتناهى، ومعها هذا الجواد وصحبتها عشرة عبيد لا غير وهم برسم خدمتها وسياسة الحصان وقصدت هى بغداد وخراسان تريد الدخول على الملك ساسان لتطلب منه الصلح والأمان، فخرجت فى أثرهم طمعًا فى الحصان، وما زلت أتتبع آثارهم ولا أقدر أن أصل إليه لأن العبيد شداد الحرص عليه إلى أن وصلوا إلى تلك البلاد، وخفت أن يدخلوا مدينة بغداد، فبينما أنا أشاور نفسى فى سرقة الحصان إذا طلع عليهم غبار حتى سد الأقطار، ثم انكشف ذلك الغبار عن خمسين فارسًا مجتمعين لقطع الطريق على التجار، ومقدمهم بطل كأنه الضيغم الهراش يقال له كهرداش، ولكنه فى الحرب كأسد يجعل الأبطال كالفراش.

ثم أطبق عليهم وصاح بهم وما كان إلا سعة حتى ربط العشرة العبيد والعجوز، وأخذ منهم الحصان وسار فرحان، فقلت فى نفسى: ضاع تعبى وما بلغت أربى، ثم صبرت حتى أنظر ما يؤول إليه الأمر، فلما رأت العجوز نفسها فى الأسر بكت وقالت للمقدم كهرداش: «أيها الفارس الهمام والبطل الضرغام ماذا تصنع بالعجوز والعبيد، وقد بلغت بالحصان ما تريد»، ثم إنها خادعته بلين الكلام وحلفت أنها تسوق له الخيل والأنعام فأطلق العبيد وأطلقها، ثم سار هو وأصحابه وتبعتهم حتى وصلوا إلى هذه الديار وأنا ألاحظه وأتبعه، فلما وجدت إليه سبيلاً سرقته وركبته وأخرجت من خلاتى سوطًا وضربته، فلما أحسوا بى لحقونى وأحاطوا بى من كل مكان ورمونى بالسهام والسنان وأنا ثابت عليه وهو يقاتل عنى بيديه ورجليه إلى أن خرج من بينهم مثل السهم الراشق والنجم الطارق.

ولكن لما اشتد الكفاح، أصابنى بعض الجراح، وقد مضى لى على ظهره ثلاثة أيام لم أذق منامًا ولم ألتذ بطعام، وقد ضعفت منى القوة وهانت علىَّ الدنيا، وأنت أحسنت إلىَّ، وشفقت علىَّ، وأراك عارى الجسد، ظاهر الكمد، ويلوح عليك أثر النعمة، فمن أنت ومن أين أقبلت وإلى أين تريد؟ فقال له: «أنا اسمى كان ما كان ابن الملك ضوء المكان ابن الملك عمر بن النعمان، قد مات والدى وتربيت يتيمًا وتولى بعده رجل لئيم، وصار ملكًا على الحقير والعظيم»، ثم حدثه بحديثه من أوله إلى آخره.

فقال له السلال وقد رق له: «إنك ذو حسب عظيم، وشرف جسيم، وسيكون لك شأن، وتصير أفرس أهل هذا الزمان، فإن قدرت أن تحملني وأنت راكب ورائي وتؤديني إلى بلادي، يكن لك الشرف في الدنيا والأجر يوم التنادي، فإنه ما بقي لي قوة أمسك بها نفسي، وإن كانت الأخرى فأنت بالجواد أولى من غيرك». فقال له كان ما كان: «لو قدرت أحملك على أكتافي أو أقاسمك عمري لفعلت من غير أن آخذ هذا الجواد لأني من أهل المعروف، وأحب إغاثة الملهوف، وفعل الخير لوجه الله تعالى يدفع سبعين بلاءً عن صاحبه، فاعزم على المسير وتوكل على اللطيف الخبير». فأراد أن يحمله على الحصان ويسير متوكلاً على الله المستعان فقال له: «اصبر عليَّ قليلاً». فغمض عينيه وفتح يديه وتلا الشهادتين ثم قال: «يا عظيم، اغفر لي الذنب العظيم، فإنه لا يغفر الذنب العظيم إلا العظيم». وتهيأ للممات وأنشد هذه الأبيات:

«ظلمت العباد وطفت البلاد	وأمضيت عمري بشرب الخمور
وخضت السيول لسل الخيول	وهدم الطلول بفعل النكور
وأمري عظيم وجرمي جسيم	وقالتول مني تمام الأمور
وأملت أني أنال المنى	بذاك الحصان فأعيا مسيري
وطول الحياة أسل الخيول	فكانت وفاتي عند القدير
وآخر أمري أني تعبت	لرزق الغريب اليتيم الفقير»

فلما فرغ من شعره غمض عينيه وفتح فاه وشهق شهقة ففارق الدنيا، فقام كان ما كان وحفر له حفرة وواراه في التراب ثم أتى إلى الجواد فقبَّله ومسح وجهه وفرح فرحًا شديدًا وقال: «ما أحد حظي بمثل هذا الحصان ولا هو عند الملك ساسان».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

حكاية قتال كان ماكان للروم

قالت شهرزاد: هذا ما جرى لكان ما كان، وأما ما كان من أمر الملك ساسان فإنه أتته الأخبار أن الوزير دندان خرج من طاعته هو ونصف العسكر وحلفوا أن ليس لهم ملك غير كان ما كان، واستوثق الوزير من العسكر بالعهود والأيمان، ودخل بهم إلى جزائر الهند والبربر وبلاد السودان، واجتمع معهم عساكر مثل البحر الزاخر، لا يعرف لها أول من آخر، وعزم الوزير أن يقصد بهم مدينة بغداد، ويملك تلك البلاد، ويقتل من خالفه من العباد، وأقسم أنه لا يرد سيف الحرب إلى غمده حتى يملك كان ما كان، فلما بلغته هذه الأخبار غرق في بحر من الأفكار، وعلم أن الدولة انحرفت عليه الصغار والكبار، فزاد به الغم، وكثر عليه الهم، وفتح الخزائن وفرَّق على أرباب دولته الأموال وتمنى أن يقدم عليه كان ماكان، ويجذب قلبه بالملاطفة والإحسان، ويجعله أميرًا على العساكر الذين لم يزالوا تحت طاعته لتطفىء به شرارة جمرته. ثم إن كان ما كان لما بلغه الخبر من التجار رجع مسرعًا إلى بغداد، على ظهر ذلك الجواد، فبينا الملك ساسان في أريكته حيران، إذ سمع بقدوم كان ما كان، فأخرج جميع العساكر ووجهاء بغداد لملاقاته، فخرج كل من في بغداد ولاقوه ومشوا بين يديه إلى القصر

يقبلون الأعتاب، ودخلت الجوارى والطواشية على أمه فبشروها بقدومه، فأتت إليه وقبلته بين عينيه فقال: «يا أماه دعينى أمضى إلى عمى الملك ساسان، الذى غمرنى بالنعمة والإحسان»، هذا وقد تحيرت عقول أهل القصر والدولة فى حسن ذلك الحصان وقالوا: «ما ملك مثل هذا الجواد إنسان».

فدخل كان ما كان إلى الملك ساسان وسلم عليه، فقام له، فقبَّل كان ما كان يديه ورجليه وقدم له الحصان هدية، فرحب به وقال له: «أهلاً وسهلاً بولدى كان ما كان لقد ضاقت بى الدنيا لغيابك والحمد لله على سلامتك» فدعا له كان ما كان، ثم نظر الملك إلى هذا الحصان المسمى بالقاتول فعرف أنه الحصان الذى رآه من سنة كذا وكذا فى حصار الروم مع أبيه ضوءالمكان حين قتل عمه شركان، وقال له: «لو قدر عليه أبوك لاشتراه بألف جواد، ولكن عاد العز إلى أهله وقد قبلناه ومنا لك وهبناه، وأنت أحق به من كل إنسان، لأنك سيد الفرسان». ثم أمر الملك ساسان أن يحضروا لكان ما كان الخلع وقاد له الخيول وأفرد له فى القصر أكبر الدور، وأقبل عليه العز والسرور وأعطاه مالاً جزيلاً وأكرمه غاية الإكرام لأنه كان يخشى عاقبة أمر الوزير دندان، ففرح بذلك كان ما كان وزال عنه الذل والهوان، ودخل بيته وأقبل على أمه ففرحت به كثيرًا، ثم أخبرها بما قاله السلال من أن العجوز ذات الدواهى دخلت أرضهم وهى قاصدة مدينة بغداد وأنها هى التى قتلت عمه وجده، ثم قال: «لا بد لى أنى آخذ الثأر، وأكشف عنا العار».

أما قضى فكان فإنها فرحت لقدوم كان ما كان وأخذت تتشكى من أبيها لأنه أبى أن يزوجها بابن عمها، فسمعتها الجوارى فذهبت جارية منهنَّ إلى الملك ساسان وأعلمته بذلك، فتوجه إليها وبيده حسام مسلول يريد أن يقتلها، فدخلت عليها أمها نزهة الزمان وقالت له: «بالله لا تفعل بها ضررًا فإنك إن فعلت بها ضررًا يشيع الخبر بين الناس وتبقى معيرة عند ملوك الزمان، واعلم أن كان ما كان ما هو إلا ابن ملك وإنها تربَّت معه وأنه صاحب عرض ومروءة ولا يفعل أمرًا يعاب عليه، فاصبر ولا تعجل فإن أهل القصر وجميع أهل بغداد قد شاع عندهم خبر الوزير دندان أنه قاد العساكر من جميع البلدان وجاء بهم ليملكوا كان ما كان». فقال لها: «لا بد من أن أرميه فى بلية بحيث لا أرض تقله ولا سماء تظله، وأنى ما أنعمت عليه وطيبت خاطره إلا لأجل أهل مملكتى ودولتى لئلا يميلوا إليه، وسوف ترين ما يكون». ثم تركها وخرج.

هذا ما كان من أمر الملك ساسان، وأما ما كان من أمر كان ما كان فإنه أقبل على أمه فى ثانى يوم وقال لها: «يا أمى إنى عزمت على شن الغارات وقطع الطرقات وسوق الخيل والنعم والعبيد والمماليك، وإذا كثر مالى وحسن حالى خطبت بنت عمى قضى فكان من عمي الملك ساسان»، فقالت له: «يا ولدى إن أموال الناس غير سائبة لك لأن دونها ضرب الصفاح طعن الرماح، ورجالاً تأكل السباع وتوحش البقاع، وتقتنص الأسود وتصيد الفهود»، فقال لها: «هيهات أن أرجع عن عزيمتى إلا إذا بلغت منيتى».

ثم عول كان ما كان على السفر ودخل على أمه وودعها ونزل من القصر وتقلد سيفه

وتعمم وتلثم وركب جواده القاتول وشق المدينة وهو كالبدر حتى وصل إلى باب بغداد وإذا برفيقه صباح بن رماح خارج من المدينة، فلما رآه جرى فى ركابه وحياه، فرد عليه السلام، فقال له صباح: «يا أخى كيف صار لك هذا الجواد وهذا السيف والثياب، وأنا إلى الآن لا أملك غير سيفى وترسى؟» فقال له كان ما كان: «ما يرجع الصياد بصيد إلا على قدر نيته، وبعد فراقك بساعة حصلت لى السعادة، وهل تأتى معى وتخلص النية فى صحبتى وتسافر معى فى هذه البرية؟» فقال: «والله ما أبقيت أناديك إلا يا مولاى».

ثم جرى قدام الجواد وسيفه على عاتقه وجرابه بين كتفيه وكان ما كان وراءه وتوغلا فى البر أربعة أيام وهما يأكلان من صيد الغزلان ويشربان من ماء العيون، وفى اليوم الخامس أشرفا على تل عال تحته مرابع وغدير تسيح فيها إبل وبقر وغنم وخيول ملأت الروابى والبطاح، وأولادها الصغار تلعب حول المراح، فلما رأى ذلك كان ما كان زادت به الأفراح، وامتلأ صدره بالانشراح، وعوَّل على القتال ليأخذ النوق والجمال، فقال لصباح: «انزل بنا على هذا المال الذى عن أهله وحيد، وقاتل معى القريب والبعيد، حتى يكون لك من أخذ المال نصيب»، فقال صباح: «يا مولاى إن أصحاب هؤلاء خلق كثيرون وفيهم أبطال من فرسان ورجال وإن رمينا أرواحنا فى هذا الخطب الجسيم فإننا نكون من هوله على خطر عظيم، وما يرجع أحد منا سليمًا»، فضحك كان ما كان وعلم أنه جبان، فتركه وانحدر من الرابية عازمًا على شن الغارات، وصاح وترنم وأنشد هذه الأبيات:

«وآل نعمان نحن ذو الهمم	والسادة الضاربون فى القمم
قوم إذا ما الهياج قام لهم	قاموا بأسواقه على قدم
تنام عين الفقير بينهم	ولا يرى قبح صورة العدم
وإننى أرتجى معاونة	من مالك الملك بارىء النسم»

ثم إنه حمل على تلك النوق مثل الجمل الهائج، وساق جميع الإبل والبقر والغنم والخيل قدامه، فتبادرت إليه العبيد بالسيوف الصقال، والرماح الطوال، وفى أوائلهم فارس تركى إلا أنه شديد الحرب والكفاح، عارف بأعمال سمر القنا وبيض الصفاح، فحمل على كان ما كان وقال له: «ويلك لو علمت لمن هذا المال لما فعلت هذه الفعال، اعلم أن هذه الأموال للعصابة الرومية، والأبطال البحرية، والفرقة الجركسية، الذين ما فيهم إلا كل بطل عابس، وهم مائة فارس، خرجوا عن طاعة كل سلطان، وقد سرق منهم حصان، وحلفوا أن لا يرجعوا من هنا إلا به».

فلما سمع كان ما كان هذا الكلام صاح قائلا: «يا لئام هذا هو الحصان الذى تعنون، وأنتم له طالبون، وفى قتالى بسببه أنتم راغبون، فبارزونى كلكم أجمعون، وشأنكم وما تريدون»، ثم صرخ بين أذنى القاتول، فخرج عليهم مثل الغول، وعطف على الفارس فطعنه ورماه وأخرج كلاه، ومال على ثان وثالث ورابع أعدمهم الحياة، فعند ذلك هابته العبيد، فصاح عليهم: «يا لئام سوقوا المال والخيول وإلا خضبت من دمائكم سنانى»، فساقوا المال وأخذوا فى الانطلاق، فانحدر إليه صباح وأعلن بالصياح وزادت به الأفراح.

حكاية قتال كان ما كان مع كهرداش

وإذا بغبار قد طلع وطار حتى سد الأقطار، وبان من تحته مائة فارس مثل الليوث العوابس، فهرب صباح وطلع إلى أعلى الرابية وترك البطاح وصار يتفرج على الكفاح وقال: «ما أنا فارس إلا فى اللعب والمزاح»، ثم إن المائة فارس أحاطوا بكان ما كان، وداروا به من كل جانب ومكان، فتقدم إليه فارس وقال له: «إلى أين تمضى بهذا المال؟» فقال له: «آخذه وأذهب به وأحرمك منه فدونك والقتال، واعلم أن من دونه أسدًا أروع، وبطلاً سميدعًا، وسيفًا أينما مال قطع». فلما سمع الفارس ذلك الكلام نظر إليه فوجده فارسًا كالأسد الضرغام، إلا أن وجهه كالقمر الطالع ليلة أربعة عشر، والشجاعة تلوح بين عينيه، وكان ذلك الفارس هو المقدم على المائة فارس واسمه كهرداش، فقال لكان ما كان: «إنى أترحم على صغر سنك، فخل المال ورح إلى حال سبيلك قبل أن أعجل عليك بضربة تلصق فى التراب جبينك» فلما سمع كان ما كان هذا الكلام صارت نيران غيظه فى اضطرام ونادى: «ويلك يا كلب الأعجام تقدم إلى الطعن والضراب، فمن قريب تلقى صريعًا على التراب»، ثم إنه جال وصال ومد واستطال، فلما نظره كهرداش، علم أنه فارس همام وبطل ضرغام، وتبين له خطأ ظنه وتهيب من كرّته وقال للذين معه: «ويلكم ليحمل واحد منكم عليه ويظهر له السيف البتار والرمح الخطار، واعلموا أن قتال الجماعة للواحد عار ولو كان فارسًا شجاعًا وقرمًا مناعًا»، فعند ذلك حمل عليه فارس ضيغم، تحته جواد أدهم، بتحجيل وغرة كالدرهم، يحيل العقل والناظر كما قال فيه الشاعر:

«وقد جاءك المهر الذى نزل الوغى	جذلان يخلط أرضه بسمائه
وكأنما لطم الصباح جبينه	واقتص منه فخاض فى أحشائه».

فحمل على كان ما كان وابتدرا وتجاولا فى الحرب برهة من الزمان وتضاربا ضربًا يحير الأفكار ويغشى الأبصار، فسبقه كان ما كان بضربة بطل شجاع فقطّت منه العمامة والمغفر، فمال عن الجواد كأنه البعير إذا انحدر، ثم تقدم إليه الثانى وحمل عليه، وكذا الثالث والرابع والخامس، ففعل بهم كالأول، ثم حمل عليه الباقون وقد اشتد بهم القلق، فما كان إلا ساعة حتى التقطهم بسنان الرمح، وجرّعهم كؤوس الحتف.

فما نظر كهرداش إلى هذه الفعال، خاف من الارتحال، وعرف أنه مقدام ثبت الجنان، واعتقد أنه أوحد الأبطال والفرسان، فقال لكان ما كان: «لقد وهبت لك دمك ودم أصحابى فخذ من المال ما شئت واذهب إلى حال سبيلك فقد رحمتك لحسن ثباتك والحياة أولى بك»، فقال له كان ما كان: «لا عدمت مروءة الكرام، ولكن اترك عنك هذا الكلام، وفز بنفسك ولا تخش الملام، ولا تطمع نفسك فى رد الغنيمة، واسلك لنجاة نفسك طريقة مستقيمة»، فعند ذلك اشتد بكهرداش الغضب وحصل عنده ما يوجب العطب، فقال له كان ما كان: «ويلك لو عرفت من أنا ما نطقت بهذا الكلام فى حومة الزحام، فاسأل عنى فأنا الأسد البطاش المعروف بكهرداش الذى نهب الملوك الكبار، وقطع الطريق على جميع السفّار، وأخذ أموال التجار، وهذا الحصان الذى تحتك طلبتى وأريد أن تعرفنى كيف وصلت إليه حتى استوليت

عليه؟» فقال: «اعلم أن هذا الجواد كان سائرًا إلى عمى الملك ساسان، وقائدته عجوز كبيرة ومعها عشرة عبيد يخدمونها، وأنت تعديت عليها وأخذته منها ولنا عندها ثأر من جهة جدى الملك عمر بن النعمان وعمى الملك شركان»، فقال كهرداش: «ويلك ومن أبوك؟» فقال: «اعلم أنى كان ما كان بن ضوء المكان بن عمر بن النعمان».

فلما سمع كهرداش هذا الخطاب قال: «لا يستنكر عليك الكمال والجمع بين الفروسية والجمال». ثم قال له: «توجه بأمان، فإن أباك كان صاحب فضل علينا وإحسان»، فقال له كان ما كان: «أنا ما أوقرك حتى أقهرك فى حومة الميدان» فاغتاظ البدوى، ثم حمل كل منهما على صاحبه وتصايحا، فسدت لهما الخيل آذانها ورفعت أذنابها، ولم يزالا يصطدمان حتى ظن كل منهما أن السماء قد انشقت، وبعد ذلك تقاتلا ككباش النطاح، واختلفت بينهما طعنات الرماح، فحاوله كهرداش بطعنة فزاغ عنها كان ما كان، ثم كر عليه وطعنه فى صدره فأطلع السنان من ظهره، فأمر كان ما كان بجمع الخيل والأسلاب، وصاح بالعبيد: «دونكم والسوق الشديد».

فنزل عند ذلك صباح وجاء إلى كان ما كان وقال له: «أحسنت يا فارس الزمان إنى دعوت لك وقد استجاب ربى دعائى» ثم إن صبَّاحًا قطع رأس كهرداش، فضحك كان ما كان وقال له: «ويلك يا صباح كنت أظنك فارس الحرب والكفاح» فقال له: «لا تنس عبدك من هذه الغنيمة»، فقال له: «لا بد لك فيها من نصيب، ولكن كن محافظًا على الغنيمة والعبيد»، ثم إن كان ما كان سار متوجهًا إلى الديار، ولم يزل سائرًا بالليل والنهار، حتى أشرف على مدينة بغداد، وعلم به جميع الأجناد، ورأوا ما معه من الغنيمة والأموال ورأس كهرداش على رمح صباح، وعرف التجار رأس كهرداش ففرحوا وقالوا: «لقد أراح الله الخلق منه لأنه كان قاطع الطريق»، وتعجبوا من قتله ودعوا لقاتله، وأتت جميع أهل بغداد إلى كان ما كان يسألونه عما جرى له من الأخبار، فأخبرهم بما جرى، فهابته جميع الرجال، وخافته الفرسان والأبطال، وساق ما معه إلى أن أوصله تحت القصر، وركز الرمح الذى عليه رأس كهرداش إلى الباب، ووهب للناس وأعطاهم الخيل والجمال، فأحبه أهل بغداد ومالت إليه القلوب، ثم أقبل على صباح وأنزله فى بعض الأماكن الفساح وأعطاه شيئًا من الغنيمة، ثم دخل على أمه وأخبرها بما جرى له.

حكاية كان ما كان والملك ساسان

ولما وصل إلى الملك خبره قام من مجلسه واختلى بخواصه وقال لهم: «اعلموا أنى أريد أن أبوح لكم بسرى، وأبدى لكم مكنون أمرى، اعلموا أن كان ما كان هو الذى يكون سببًا لانقلاعنا من هذه الأوطان، لأنه قتل كهرداش مع أنه له قبائل من الأكراد والأتراك، وأمرنا معه آيل إلى الهلاك، وأكثر جيشنا من أقاربه، وقد علمتم ما فعل الوزير دندان، فإنه جحد معروفى بعد الإحسان، وخاننى فى الأيمان، وبلغنى أنه جمع عساكر البلدان، وقصد أن يسلطن كان ما كان، لأن السلطنة كانت لأبيه وجده، ولا شك أنه قاتلى بلا محالة، فلما سمع خواص مملكته منه هذا الكلام قالوا له: «أيها الملك إنه أقل من ذلك، ولولا أننا علمنا بأنه تربيتك لم يقبل عليه منا أحد، واعلم أننا بين يديك إن شئت قتله قتلناه؛ وإن شئت بعده أبعدناه» فلما سمع الملك

ساسان كلامهم قال: «إن قتله هو الصواب ولكن لا بد من أخذ الميثاق». فتحالفوا على أنهم لا بد أن يقتلوا كان ما كان لأنه إذا أتى الوزير دندان وسمع بقتله تضعف قوته عما هو عازم عليه، فلما أعطوه العهد والميثاق على ذلك أكرمهم غاية الإكرام ثم دخل إلى بيته وقد تفرق عنه الرؤساء وامتنعت العساكر من الركوب والنزول حتى يبصروا ما يكون لأنهم رأوا غالب العسكر مع الوزير دندان، ثم إن ذلك الخبر وصل إلى قضى فكان فحصل عندها غم زائد وأرسلت إلى ابن عمها عجوزًا تخبره بالخبر، فلما وصلت إليه العجوز سلمت عليه ففرح بها وأخبرته بالخبر، فلما سمع ذلك قال: «بلغى بنت عمى سلامى وقولى لها إن الأرض لله عزَّ وجل يورثها من يشاء من عباده، وما أحسن قول القائل:

«الملك لله من يظفـــــر بنيل منى   يردده قهـرًا وتضمن نفسه الدركا
لو كان لى أو لغيرى قيد أنملة   من البسيطة كان الأمر مشتركا»

فرجعت العجوز إلى قضى فكان وأخبرتها بما قاله وأعلمتها بأن كان ما كان أقام بالمدينة، ثم إن الملك ساسان صار ينتظر خروجه من بغداد ليرسل وراءه من يقتله، فاتفق أنه خرج إلى الصيد والقنص وخرج صباح معه لأنه كان لا يفارقه ليلاً ونهارًا، فاصطاد عشر غزالات وفيهن غزالة صارت تتلفت يمينًا وشمالاً فأطلقها، فقال له صباح: «لأى شىء أطلقت هذه الغزالة؟» فضحك كان ما كان وأطلق الباقى وقال له: «إن من المروءة إطلاق الغزالات التى لها أولاد وما تتلفت تلك الغزالة إلا لأن لها أولادًا فأطلقتها وأطلقت الباقى فى كرامتها»، فقال له صباح: «أطلقنى حتى أروح إلى أهلى»، فضحك وضربه بعقب الرمح على قلبه فوقع على الأرض يتلوى كالثعبان. فبينما هما كذلك وإذا بغبرة ثائرة وخيل تركض، وبان من تحتها فرسان وشجعان، وسبب ذلك أن الملك ساسان أخبره جماعة إن كان ما كان خرج إلى الصيد والقنص فأرسل أميرًا من الديلم يقال له جامع ومعه عشرون فارسًا ودفع إليهم المال، ثم أمرهم أن يقتلوا كان ما كان، فلما قربوا منه حملوا عليه وحمل عليهم فقتلهم عن آخرهم، ثم إن الملك لحق بالعسكر فوجدهم مقتولين فتعجب ورجع، فلما رأى ذلك أقارب القتلى قبضوا عليه وشدوا وثاقه.

ثم إن كان ما كان توجه من ذلك المكان وتوجه مع صباح البدوى، فبينما هو سائر رأى فى طريقه شابا على دار فألقى كان ما كان عليه السلام، فرد الشاب عليه السلام، ثم دخل الدار وخرج ومعه قصعتان: إحداهما فيها لبن والثانية فيها ثريد والسمن فى جوانبها يموج، ووضع القصعتين قدام كان ما كان وقال له: «تفضل علينا بالأكل من زادنا»، فامتنع كان ما كان من الأكل، فقال له الشاب: «مالك أيها الإنسان لا تأكل؟» فقال له كان ما كان: «أنه علىَّ نذر»، فقال له الشاب: «وما سبب نذرك؟» فقال له كان ما كان: «اعلم أن الملك ساسان غصب ملكى ظلمًا وعدوانًا مع أن ذلك الملك كان لأبى وجدى من قبلى فاستولى عليه قهرًا بعد موت أبى ولم يعتبرنى لصغر سنى، فنذرت أنى لا آكل لأحد زادًا حتى أشفى فؤادى من غريمى»، فقال له الشاب: «أبشر فقد وفى الله نذرك واعلم أنه مسجون وأظنه يموت قريبًا»، فقال له كان ما كان: «فى أى بيت هو معتقل؟» فقال له: «فى تلك القبة العالية»، فنظر كان ما كان إلى قبة عالية، ورأى الناس فى تلك القبة يدخلون ولساسان يلطمون، وهو يتجرع غصص المنون.

فقام كان ما كان ومشى حتى وصل إلى تلك القبة وعاين ما فيها، ثم عاد إلى موضعه وقعد على الأكل وأكل ما تيسر ووضع ما بقى من اللحم فى مزوده، ثم جلس فى مكانه ولم يزل جالسًا إلى أن أظلم الليل ونام الشاب الذى هو ضيفه، فذهب كان ما كان إلى القبة التى فيها ساسان وكان حولها كلاب تحرسها، فوثب له كلب من الكلاب فرمى له قطعة من لحم من الذى فى مزوده، وما زال يرمى للكلاب لحمًا حتى وصل إلى القبة وتوصل إلى أن صار عند الملك ساسان ووضع يده على رأسه، فقال له بصوت عال: «من أنت؟» فقال: «أنا كان ما كان الذى سعيت فى قتله فأوقعك الله فى سوء تدبيرك، أما يكفيك أخذ ملكى وملك أبى وجدى حتى تسعى فى قتلى؟».

فحلف ساسان الأيمان الباطلة أنه لم يسع فى قتله وأن هذا الكلام غير صحيح، فصفح عنه كان ما كان وقال له: «اتبعنى» فقال: «لا أقدر أن أخطو خطوة واحدة لضعف قوتى»، فقال كان ما كان: «إذا كان الأمر كذلك نأخذ لنا فرسين ونركب أنا وأنت ونطلب البر»، ثم فعل كما قال وركب هو وساسان وسارا إلى الصباح، ثم صليا الصبح وسارا، ولم يزالا كذلك حتى وصلا إلى بستان فجلسا فيه يتحدثان ثم قام كان ما كان إلى ساسان وقال له: «هل بقى فى قلبك منى أمر تكرهه؟» قال ساسان: «لا يا ولدى».

ثم اتفق الاثنان على أنهما يرجعان إلى بغداد، فقال صباح البدوى: «أنا أسبقكما لأبشر الناس»، فسبق يبشر النساء والرجال، فخرجت إليه الناس بالدفوف والمزامير، ولم يبق لأهل القصر حديث إلا فى كان ما كان، وشهد له الفرسان أنه أشجع أهل الزمان وقالوا: لا يصح أن يكون سلطانًا علينا إلا كان ما كان ويعود إليه ملك جده كما كان.

وأما ساسان فإنه دخل على نزهة الزمان، فقالت له: «إنى أرى الناس ليس لهم حديث إلا فى كان ما كان، ويصفونه بأوصاف يعجز عنها اللسان»، فقال لها: «ليس الخبر كالعيان، فإنى رأيته ولم أرَ فيه صفة من صفات الكمال، وما كل ما يسمع يقال، ولكن الناس يقلد بعضهم بعضًا فى مدحه ومحبته، وأجرى الله على ألسنة الناس مدحه حتى مالت إليه قلوب أهل بغداد والوزير دندان الغادر الخوان، وقد جمع له عساكر من سائر البلدان، ومن الذى يكون مالك الأقطار، ويرضى أن يكون تحت يد حاكم يتيم ما له مقدار؟» فقالت له نزهة الزمان: «وعلى ماذا عولت؟» فقال لها: «عولت على قتله ويرجع الوزير دندان خائبًا فى قصده ويدخل تحت أمرى وطاعتى، ولا يبقى له إلا فى خدمتى». فقالت له نزهة الزمان: «إن الغدر قبيح بالأجانب فكيف بالأقارب، والصواب أن تزوجه ابنتك قضى فكان، وتسمع ما قيل فيما مضى من الزمان».

«إذا رفع الزمان عليك شخصًا ‏ وكنت أحق منه ولو تصاعد
أنه حق رتبته تجده ‏ ينيلك إن دنوت وإن تباعد
ولا تقل الذى تدريه فيه ‏ تكن عمن عن الحسنى تقاعد».

فلما سمع ساسان منها هذا الكلام وفهم الشعر والنظام قام مغضبًا من عندها وقال: «لولا أن قتلك عارٌ وشنار لعلوت بالسيف رأسك وأخمدت أنفاسك» فقالت: «حيث غضبت منى

فأنا أمزح معك». ثم وثبت إليه وقبلت رأسه ويديه وقالت له: «الصواب ما تراه وسوف أتدبر أنا وأنت فى حيلة نقتله بها». فلما سمع منها هذا الكلام فرح وقال لها: «عجلى بالحيلة وفرجى كربتى فلقد ضاق علىَّ باب الحيل». فقالت له: «سوف أتحيل لك على إتلاف مهجته». فقال لها: «بأى شىء؟» فقالت له: «بجاريتنا باكون، فإنها فى المكر ذات فنون». وكانت هذه الجارية من أنحس العجائز، وعدم الخُبث فى مذهبها غير جائز، وكانت قد ربَّت كان ما كان وقضى فكان، وهو يميل إليها كثيرًا».

فلما سمع الملك ساسان من زوجته هذا الكلام قال: «إن هذا الرأى هو الصواب»، ثم أحضر الجارية باكون وحدثها بما جرى وأمرها أن تسعى فى قتله ووعدها بكل جميل، فقالت له: «أمرك مطاع، ولكن أريد يا مولاى أن تعطينى خنجرًا قد سقى بماء الهلاك لأعجل لك بإتلافه». فقال لها ساسان: «مرحبًا بك»، ثم أحضر لها خنجرًا يكاد يسبق القضاء، وكانت هذه الجارية قد سمعت الحكايات والأشعار وحفظت النوادر والأخبار، فأخذت الخنجر وخرجت من الدار مفكرة فيما يكون به الدمار، وأتت إلى كان ما كان وهو قاعد غائص فى بحر من الأفكار فقالت له: «اعلم أنى قدمت إليك لأحدثك بكلام يسليك، وخطاب يرضيك». فقال لها كان ما كان: «حدثينى بحديث يفرح به قلبى، ويزول به كربى» فقالت له العجوز باكون: «حبا وكرامة».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: ثم جلست إلى جانبه وذلك الخنجر من داخل أثوابها، فقالت له: «اعلم أن أعذب ما سمعت أذنى أن رجلاً كان يحب اللهو وقد صرف فيه ماله حتى افتقر وصار لا يملك شيئًا، فضاقت عليه الدنيا فصار يمشى فى الأسواق ويتفش عن شىء يقتات به، فبينما هو ماش وإذا بقطعة مسمار شكته فى أصبعه فسال دمه فقعد ومسح الدم وعصب أصبعه ثم قام وهو يصرخ حتى جاز الحمام وخلع ثيابه، فلما صار داخل الحمام وجده نظيفًا فجلس على الفسقية وما زال ينزح الماء على رأسه حتى تعب.

«ثم جلس إلى الحوض البارد فلم يجد أحدًا، فاختلى بنفسه وأخذ قطعة حشيش وبلعها فساحت فى مخه فانقلب على الرخام وخيل له الحشيش أن مهتارًا كبيرًا يكبسه وعبدين واقفان على رأسه واحد معه الطاسة والآخر معه آلة الحمام وما يحتاج إليه البلان، فلما رأى ذلك قال فى نفسه: كأن هؤلاء غلطوا فىَّ أو فى طائفتنا الحشاشين، ثم إنه مدَّ رجليه فتخيل له أن البلان قال له: يا سيدى قد أزف الوقت إلى طلوعك واليوم نوبتك، فضحك وقال فى نفسه: ما شاء الله يا حشيش، ثم قعد وهو ساكت، فقام البلان وأخذ بيده وأدار على وسطه مئزرًا من الحرير الأسود ومشى العبدان وراءه بالطاسات والحوائج.

«ولم يزالوا به حتى أدخلوه فى الخلوة وأطلقوا فيها البخور، فوجدها ملأى من سائر الفواكه والمشموم، وشقوا له بطيخة وأجلسوه على كرسى من الأبنوس ووقف البلان يغسله والعبدان يصبان الماء، ثم دلكوه دلكًا جيدًا وقالوا له: يا مولانا الصاحب نعيم دائم.

«ثم خرجوا وردوا عليه الباب، فلما تخيل ذلك قام وصار يضحك إلى أن غشى عليه واستمر ساعة يضحك، ثم قال فى نفسه: ما بالهم يخاطبوننى خطاب الوزير ويقولون: يا مولانا الصاحب، ولعل الأمر التبس عليهم فى هذه الساعة وبعد ذلك يعرفوننى ويشبعوننى صكا فى رقبتى، ثم إنه استحمى وفتح الباب فتخيل أن مملوكًا صغيرًا وطواشيًا قد دخلا عليه فالمملوك معه صرة ففتحها وأخرج منها ثلاث فوط من الحرير فرمى الأولى على رأسه والأخرى على كتافه وحزمه بالثالثة وقدم له الطواشى قبقابا فلبسه، وأقبلت عليه مماليك وطواشية وصاروا يسندونه، كل ذلك حصل وهو يضحك إلى أن خرج إلى الإيوان فوجد فرشًا عظيمًا لا يصلح إلا للملوك، وتبادرت إليه الغلمان وأجلسوه على المرتبة وصاروا يكبسونه حتى غلب عليه النوم، فلما نام رأى عظماء المملكة يكرمونه ويجلسونه على التخت الملوكى ويضعون التاج على رأسه وإذا بصوت يقول له: قم انتبه قد جاء الظهر وأنت نائم، ففتح عينيه فوجد روحه على الحوض البارد وحوله جماعة يضحكون عليه فنهض وتبين له أن كل هذه أضغاث أحلام وتخيلات حشيش، فاغتم ونظر إلى الذى نبهه وقال له: لو صبرت حتى يضعوا التاج على رأسى، فقال له الناس: ها نحن نتوج رأسك بالضرب، وصكوه حتى شبع وهو جوعان، قد ذاق طعم السعادة وهو فى المنام».

فلما سمع كان ما كان من الجارية هذا الكلام ضحك حتى استلقى على قفاه وقال لباكون: «إن هذا حديث عجيب فإنى ما سمعت مثل هذه الحكاية فهل عندك غيرها؟» فقالت له: «نعم»، ثم إن الجارية باكون لم تزل تحدث كان ما كان بمخارف حكايات ونوادر مضحكات حتى غلب عليه النوم، ولم تزل تلك الجارية جالسة عند رأسه حتى مضى غالب الليل، فقالت فى نفسها: هذا وقت انتهاز الفرصة.

ثم نهضت وسلّت الخنجر ووثبت على كان ما كان وأرادت ذبحه، وإذا بأم كان ما كان دخلت عليهما، فلما رأتها باكون قامت لها واستقبلتها، ثم لحقها الخوف فصارت تنتفش كأنها أخذتها الحمى، فلما رأتها أم كان ما كان تعجبت ونبهت ولدها من النوم، فلما استيقظ وجد أمه جالسة فوق رأسه، وكان السبب فى حياته مجيئها.

أما سبب مجيء أمه إليه فهو أن قضى فكان سمعت الحديث والاتفاق على قتله فقالت لأمه: «الحقى ولدك قبل أن تقتله اللعينة باكون»، وأخبرتها بما جرى من أوله إلى آخره، فخرجت وهى لا تعقل ولا تنتظر شيئًا حتى دخلت فى الساعة التى نام فيها وهمت باكون عليه تريد ذبحه، فلما استيقظ قال لأمه: «لقد جئت يا أمى فى وقت طيب»، ثم التفت إلى باكون وقال لها: «بحياتى عليك هل تعرفين حكاية أحسن من الحكايات التى حدثتنى بها؟» فقالت له الجارية: «وأين ما حدثتك به سابقًا مما أحدثك به الآن فإنه أعذب ولكن أحكيه لك فى غير هذا الوقت»، ثم قامت باكون وهى لا تصدق بالنجاة، فقال لها: «مع السلامة»، ولمحت بمكرها أن أمه عندها خبر بما حصل فذهبت إلى حالها.

فعند ذلك قالت له والدته: «يا ولدى هذه ليلة مباركة حيث نجاك الله تعالى من هذه العجوز الملعونة»، فقال لها: «وكيف ذلك؟» فأخبرته والدته بالأمر من أوله إلى آخره» فقال :

«يا والدتى إن الحى ما له قاتل وإن قتل لا يموت، ولكن الأحوط لنا أننا نرحل من عند هؤلاء الأعداء والله يفعل ما يريد».

حكاية أسر كان ما كان ونجاته

فلما أصبح الصباح خرج كان ما كان من المدينة واجتمع بالوزير دندان، وبعد خروجه حصلت أمور بين الملك ساسان ونزهة الزمان أوجبت خروج نزهة الزمان أيضًا من المدينة، فاجتمعت بهم واجتمع عليهم جميع أرباب دولة الملك ساسان الذى يميلون إليهم، فجلسوا يدبرون الحيلة فاجمع رأيهم على غزو ملك الروم وأخذ الثأر، ثم توجهور إلى غزور الروم ووقعوا فى أسر الملك رومزان ملك الروم بعد أمور يطول شرحها كما يظهر من السياق.

فلما أصبح الصباح أمر الملك رومزان أن يحضر كان ما كان والوزير دندان وجماعتهما فحضروا بين يديه وأجلسهم بجانبه وأمر بإحضار الموائد فاحضرت وأكلوا وشربوا واطمأنوا بعد أن أيقنوا بالموت لما أمر بإحضارهم وقالوا لبعضهم: إنه ما أرسل إلينا إلا لأنه يريد قتلنا، وبعد أن اطمأنوا قال لهم الملك: «إنى رأيت منامًا وقصصته على الرهبان فقالوا: ما يفسره لك إلا الوزير دندان» فقال له الوزير: «خيرًا ما رأيت يا ملك الزمان»، فقال له: «أيها الوزير رأيت أنى فى حفرة على صفة بئر أسود وكأن أقوامًا يعذبونى، فأردت القيام، فلما نهضت وقعت على أقدامى وما قدرت على الخروج من تلك الحفرة، ثم التفت فرأيت فيها منطقة من ذهب فمددت يدى لأخذها فلما رفعتها من الأرض رأيتها منطقتين، فشددت وسطى بهما فإذا هما قد صارتا منطقة واحدة، وهذا أيها الوزير منامى، والذى رأيته فى لذيذ أحلامى»، فقال له الوزير دندان: «اعلم يا مولانا السلطان أن رؤياك تدل على أن لك أخًا أو ابن أخ أو ابن عم أو أحدًا يكون من أهلك من دمك ولحمك وعلى كل هو من العصب».

فلما سمع الملك هذا الكلام نظر إلى كان ما كان ونزهة الزمان وقضى فكان والوزير دندان ومن معهم من الأسرى وقال فى نفسه: إذا رميت رقاب هؤلاء انقطعت قلوب عسكرهم بهلاك أصحابهم ورجعت إلى بلادى عن قريب لئلا يخرج الملك من يدى.

ولما صمم على ذلك استدعى بالسياف وأمره أن يضرب رقبة كان ما كان من وقته وساعته، وإذا بقابلة الملك قد أقبلت فى تلك الساعة فقالت له: «أيها الملك السعيد على ما عولت؟» فقال لها: «عولت على قتل هؤلاء الأسرى الذين فى قبضتى وبعد ذلك أرمى رؤوسهم إلى أصحابهم ثم أحمل أنا وأصحابى عليهم حملة واحدة فنقتل الذى نقتله ونأسر الباقى، وتكون هذه وقعة الانفصال وأرجع إلى بلادى عن قريب قبل أن يحدث بعد الأمور أمور فى مملكتى» فعندما سمعت منه قابلته هذا الكلام أقبلت عليه وقالت له بلسان الإفرنج: «كيف يطيب عليك أن تقتل ابن أخيك وأختك وابنة أختك؟».

فلما سمع الملك منها هذا الكلام اغتاظ غيظًا شديدًا وقال لها: «يا ملعونة ألم تعلمى أن أمى قد قتلت وأن أبى قد مات مسمومًا وأنت قد أعطيتنى خرزة وقلت لى إن هذه الخرزة كانت لأبيك؟ فلم لا تصدقينى فى الحديث؟» فقالت له: «كل ما أخبرتك به صدق ولكن شأنى وشأنك عجيب، وأمرى وأمرك غريب، فإننى أنا اسمى مرجانة واسم أمك إبريزة، وكانت ذات

حسن وجمال، وشجاعتها تضرب بها الأمثال، واشتهرت بالشجاعة بين الأبطال، وأما أبوك فإنه الملك عمر بن النعمان صاحب بغداد وخراسان من غير شك ولا ريب ولا رجم غيب، وكان قد أرسل ولده شركان إلى بعض غزواته صحبة الوزير دندان، وكان منهم الذى قد كان، ثم استضافته أمك مدة خمسة أيام فى قصرها فبلغ أبوها ذلك الخبر من أمه العجوز شواهى الملقبة بذات الدواهى.

«وكانت أمك قد أسلمت على يد شركان أخيك، فأخذها وتوجه بها إلى مدينة بغداد، سرا، وكنت أنا وريحانة وعشرون جارية معها وكنا قد أسلمنا كلنا على يد الملك شركان، فلما دخلنا على أبيك الملك عمر بن النعمان ورأى أمك الملكة إبريزة اتخذها زوجة له فحملت بك، وكان مع أمك ثلاث خرزات فأعطتهما لأبيك، فوهب خرزة لابنته نزهة الزمان، ووهب الثانية لأخيك ضوء المكان، والثالثة لأخيك الملك شركان، فأخذتها منه الملكة إبريزة وحفظتها لك، فلما قربت ولادتها اشتاقت أمك إلى أهلها وأطلعتنى على سرها، فاجتمعت بعبد أسود يقال لها الغضبان، وأخبرته بالخبر سرا ورغبته فى أن يسافر معنا، فأخذنا العبد وخرج من المدينة وهرب بنا.

«وكانت أمك قد قربت ولادتها، فلما دخلنا على أوائل بلادنا فى مكان منقطع أخذ أمك الطلق بولادتك، فحدَّث العبد نفسه بالمنكر، فدنا منها وراودها عن الفاحشة، فصرخت عليه صرخة عظيمة وانزعجت منه، فمن عظم انزعاجها وضعتك حالاً، وكان فى تلك الساعة قد طلع فى البر من ناحية بلادنا غبار قد علا وطار حتى سد الأقطار فخشى العبد على نفسه من الهلاك وضرب الملكة إبريزة بسيفه فقتلها من شدة غيظه وركب جواده وتوجه إلى حال سبيله، وبعد ما راح العبد انكشف الغبار عن جدك الملك حردوب ملك الروم، فرأى أمك ابنته وهى فى ذلك المكان قتيلة وعلى الأرض جديلة، فصعب ذلك عليه وكبر لديه وسألنى عن سبب قتلها وعن سبب خروجها خفية من بلاد أبيها، فحكيت له جميع ذلك من الأول إلى الآخر، وهذا هو سبب العداوة بين أهل بلاد الروم وبين أهل بلاد بغداد.

«فعند ذلك احتملنا أمك وهى قتيلة ودفناها؛ وقد احتملتك أنا وربيتك وعلقت لك الخرزة التى كانت مع الملكة إبريزة، ولما كبرت وبلغت مبلغ الرجال لم يمكننى أن أخبرك بحقيقة الأمر لأننى لو أخبرتك بذلك لثارت بينكم الحروب، وقد أمرنى جدك بالكتمان ولا قدرة لى على مخالفة أمر جدك الملك حردوب ملك الروم، فهذا سبب كتمان الخبر عنك وعدم إعلامك بأن أباك الملك عمر بن النعمان، فلما استقللت بالمملكة أخبرتها، وما أمكننى أن أعلمك إلا فى هذا الوقت يا ملك الزمان، وقد كشفت لك السر والبرهان، وهذا ما عندى من الخبر، وأنت برأيك أخبر».

وكان الأسرى قد سمعوا من الجارية مرجانة هذا الكلام جميعه، فصاحت نزهة الزمان من وقتها وساعتها صيحة وقالت: «هذا الملك رومزان أخى من أبى عمر بن النعمان وأمه الملكة إبريزة بنت الملك حردوب ملك الروم وأنا أعرف هذه الجارية مرجانة حق المعرفة» فلما سمع الملك رومزان هذا أخذته الحدة وصار متحيرًا فى أمره وأحضر من وقته وساعته نزهة الزمان

بين يديه، فلما رآها حن الدم للدم واستخبرها عن قصته، فحكت له القصة، فوافق كلامها كلام مرجانة، فصحَّ عند الملك أنه من أهل العراق من غير شك ولا ارتياب، وإن أباه الملك عمر ابن النعمان، فقام من تلك الساعة وحلَّ كتاف أخته نزهة الزمان، فتقدمت إليه وقبَّلت يديه ودمعت عيناها فبكى الملك لبكائها وأخذته حنية الأخوة ومال قلبه إلى ابن أخته السلطان كان ما كان وقام ناهضًا على قدميه وأخذ السيف من يد السياف، فأيقن الأسرى بالهلاك لما رأوا منه ذلك.

ثم إن الملك أمر بإحضارهم بين يديه وفك وثاقهم وقال لمرجانة: «اشرحى حديثك الذى شرحته لى لهؤلاء الجماعة»، فقالت مرجانة: «اعلم أيها الملك أن هذا الشيخ هو الوزير دندان، وهو لى أكبر شاهد لأنه يعرف حقيقة الأمر»، ثم إنها أقبلت عليهم من وقتها وساعتها وعلى من حضرهم من ملوك الروم وملوك الإفرنج وحدثتهم بذلك الحديث، والملكة نزهة الزمان والوزير دندان ومن معهما من الأسرى يصدقونها على ذلك.

وفى آخر الحديث لاحت من الجارية مرجانة التفاتة فرأت الخرزة الثالثة بعينها رفيقة الخرزتين اللتين كانتا مع الملكة إبريزة فى رقبة السلطان كان ما كان فعرفتها فصاحت صيحة عظيمة دوى لها الفضاء وقالت للملك: «يا ولدى اعلم أنه قد زاد فى هذه الساعة يقينى لأن الخرزة التى فى رقبة هذا الأسير نظير الخرزة التى وضعتها فى عنقك وهى رفيقتها، وهذا الأسير هو ابن أخيك وهو كان ما كان» ثم إن الجارية مرجانة التفتت إلى كان ما كان وقالت له: «أرنى هذه الخرزة يا ملك الزمان»، فنزعها من عنقه وناولها لجارية الملك رومزان، فأخذتها منه، ثم سألت نزهة الزمان عن الخرزة الثالثة فأعطتها إياها، فلما صارت الخرزتان فى يد الجارية ناولتهما للملك رومزان، فظهر له الحق والبرهان، وتحقق أنه عم السلطان كان ما كان، وأن أباه الملك عمر بن النعمان، فقام من وقته وساعته إلى الوزير دندان وعانقه، ثم عانق الملك كان ما كان وعلا الصياح بكثرة الأفراح.

وفى تلك الساعة انتشرت البشائر ودقَّت الكوسات والطبول وزمرت الزمور وزادت الأفراح وسمع عساكر العراق والشام ضجيج الروم بالأفراح، فركبوا عن آخرهم وركب الملك الزبلكان وقال فى نفسه: يا ترى ما سبب هذا الصياح والسرور الذى فى عسكر الإفرنج والروم. وأما عسكر العراق فإنهم قد أقبلوا، وعلى القتال عولوا، وصاروا فى الميدان مقام الحرب والطعان، فالتفت الملك رومزان فرأى العساكر مقبلين وللحرب متهيئين، فسأل عن سبب ذلك، فأخبروه بالخبر، فأمر قضى فكان ابنة أخيه شركان أن تسير من وقتها وساعتها إلى عسكر الشام والعراق وتعلمهم بحصول الاتفاق، وإن الملك رومزان ظهر أنه عم السلطان كان ما كان، فسارت قضى فكان بنفسها ونفت عنها الشرور والأحزان حتى وصلت إلى الملك الزبلكان وسلمت عليه وأعلمته بما جرى من الاتفاق، وأن الملك رومزان ظهر أنه عمها وعم كان ما كان.

وحين أقبلت عليه وجدته باكى العين خائفًا على الأمراء والأعيان، فشرحت له القصة من أولها إلى آخرها، فزادت أفراحهم، وزالت أتراحهم، وركب الملك الزبلكان هو وجميع الأكابر

والأعيان وسارت قدامهم الملكة قضى فكان حتى أوصلتهم إلى سرادق الملك رومزان، فلما دخلوا عليه وجدوه جالسًا مع ابن أخيه السلطان كان ما كان، وقد استشاره هو والوزير دندان فى أمر الملك الزبلكان، فاتفقوا على أنهم يسلمون إليه مدينة دمشق الشام ويتركونه ملكًا عليها كما كان وأما هم فيدخلون إلى العراق، فجعلوا الملك الزبلكان عاملاً على دمشق الشام، ثم أمروه بالتوجه، فتوجه بعساكره إليها ومشوا معه ساعة لأجل الوداع وبعد ذلك رجعوا إلى مكانهم، ثم نادوا فى المسكر بالرحيل إلى بلاد العراق واجتمع العسكران مع بعضهم، ثم إن الملوك قالوا لبعضهم: ما بقيت قلوبنا تستريح ولا يشفى غيظنا إلا بأخذ الثأر وكشف العار بالانتقام من العجوز شواهى الملقبة بذات الدواهى.

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: فعند ذلك سار الملك رومزان مع خواصه وأرباب دولته وفرح السلطان كان ما كان بعمه الملك رومزان ودعا للجارية مرجانة لأنها عرفتهما ببعضهما، ثم ساروا ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى أرضهم، فسمع بهم الحاجب الكبير ساسان فطلع وقبل يد الملك رومزان فخلع عليه، ثم إن الملك رومزان جلس وأجلس ابن أخيه السلطان كان ما كان إلى جانبه، فقال كان ما كان لعمه الملك رومزان: «يا عم ما يصلح هذا الملك إلا لك»، فقال له: «معاذ الله أن أعارضك فى ملكك»، فعند ذلك أشار عليهما الوزير دندان أن يكون الاثنان في الملك سواء وكل واحد يحكم يومًا، فارتضيا بذلك.

ثم أولموا الولائم وذبحوا الذبائح وزادت بهم الأفراح وأقاموا على ذلك مدة من الزمان، وبعد تلك المدة بينما هم قاعدون فرحين بهذا الأمر وإصلاح الشأن إذ ظهر لهم غبار قد علا وطار حتى سدَّ الأقطار، وقد أتى إليهم من التجار صارخ يستغيث وهو يصيح ويقول: «يا ملوك الزمان كيف أسلب فى بلاد الروم وأنهب فى بلادكم وهى بلاد العدل والأمان؟» فأقبل عليه الملك رومزان وسأله عن حاله فقال له: «أنا تاجر من التجار ومضى على غيابى عن الأوطان مدة مديدة من الزمان، واستغرقت فى البلاد نحو عشرين سنة من الأعوام، وأن معى كتابًا من مدينة دمشق كان قد كتبه لى المرحوم الملك شركان، وسبب ذلك أنى قد أهديته جارية، فلما قربت من تلك البلاد وكان معى مائة جمل من تحف الهند أتيت بها إلى بغداد التى هى حرمكم ومحل أمنكم وعدلكم خرجت علينا عربان ومعهم أكراد مجتمعة من جميع البلاد فقتلوا رجالى ونهبوا أموالى وهذا شرح حالى».

ثم إن التاجر بكى بين يدى الملك رومزان وحوقل واشتكى فرحمه الملك ورقَّ إليه، وكذلك رحمه ابن أخيه الملك كان ما كان وحلفوا أنهم يخرجون إليهم، فخرجوا إليهم فى مائة فارس كل فارس منهم يعد بين الرجال بألوف، وأما ذلك التاجر فسار أمامهم يدلهم على الطريق، ولم يزالوا سائرين ذلك النهار وطول الليل إلى السحر، حتى أشرفوا على وادٍ غزير الأنهار، كثير الأشجار، فوجدوا القوم قد تفرقوا فى ذلك الوادى وقسموا بينهم أحمال ذلك التاجر وبقى البعض، فأطبق عليهم المائة الفارس وأحاطوا بهم من كل مكان، وصاح عليهم الملك رومزان هو

وابن أخيه كان ما كان فما كان غير ساعة حتى أسروا الجميع وكانوا نحو ثلاثمائة فارس اجتمعوا من أوباش العربان.

فلما أسروهم أخذوا ما معهم من مال التاجر وشدوا وثاقهم وذهبوا بهم إلى مدينة بغداد، فعند ذلك جلس الملك رومزان هو وابن أخيه الملك كان ما كان على تخت واحد مع بعضهما، ثم عرضوا الجميع بين أيديهما وسألاهم عن حالهم وعن كبارهم، فقالوا: «ما لنا كبار غير ثلاثة أشخاص وهم الذين جمعونا من سائر النواحي والأقطار»، فقالا لهم: «ميزوهم لنا بأعيانهم»، فميزوهم لهما، فأمر بالقبض عليهم وإطلاق بقية أصحابهم بعد أخذ جميع ما معهم من الأموال وتسليمه للتاجر، فتفقد التاجر بضاعته وماله فوجده قد هلك ربعه، فوعدوه أنهم يعوضون له جميع ما ضاع منه، فعند ذلك أخرج التاجر كتابين أحدهما بخط شركان والآخر بخط نزهة الزمان، وقد كان هذا التاجر اشترى نزهة الزمان مع البدوى وهى بكر وقدمها لأخيها شركان وجرى بينها وبين أخيها ما جرى.

ثم إن الملك كان ما كان وقف على الكتابين وعرف خط عمه شركان وسمع حكاية عمته نزهة الزمان فدخل عليها بذلك الكتاب الثانى الذى كانت كتبته للتاجر الذى ضاع منه المال وأخبرها كان ما كان بقصة التاجر من أولها إلى آخرها، فعرفته نزهة الزمان وعرفت خطها وأخرجت للتاجر الضيافات ووصت به أخاها الملك رومزان وابن أخيها الملك كان ما كان، فأمر له بأموال وعبيد وغلمان من أجل خدمته، وأرسلت إليه نزهة الزمان مائة ألف درهم من المال وخمسين حملاً من البضائع وقد أتحفته بهدايا وأرسلت إليه تطلبه، فلما حضر برزت له وسلمت عليه وأعلمته أنها بنت الملك عمر بن النعمان وأن أخاها الملك رومزان وأن ابن أخيها الملك كان ما كان ففرح التاجر بذلك فرحًا شديدًا وهنأها بسلامتها واجتماعها بأخيها وقبل يديها وشكرها على فعلها وقال لها: «ما ضاع الجميل معك» ثم دخلت إلى خدرها وأقام التاجر عندهم ثلاثة أيام، ثم ودعهم ورحل إلى بلاد الشام.

وبعد ذلك أحضر الملوك الثلاثة الأشخاص اللصوص الذين كانوا رؤساء قطاع الطريق وسألوهم عن حالهم، فتقدم واحد منهم وقال: «اعلموا أنى رجل بدوى أقف فى الطريق لأخطف الصغار والبنات الأبكار وأبيعهم للتجار، ودمت على ذلك مدة من الزمان إلى هذه الأيام، وأغوانى الشيطان فاتفقت مع هذين الشقيين على جمع الأوباش من الأعراب والبلدان لأجل نهب الأموال وقطع الطريق على التجار»، فقالوا له: «احك لنا من أعجب ما رأيت فى خطفك الصغار؟» فقال لهم: «أعجب ما جرى لى يا ملوك الزمان أننى من مدة اثنتين وعشرين سنة خطفت بنتًا من بنات بيت المقدس ذات يوم من الأيام، وكانت البنت ذات حسن وجمال، غير أنها كانت خادمة وعليها أثواب خلقة وعلى رأسها قطعة عباءة، فرأيتها وقد خرجت من أهلها خطفتها بحيلة فى تلك الساعة وحملتها على جمل وسبقت بها، وكان فى أملى أننى أذهب بها إلى أهلى فى البرية وأجعلها عندى ترعى الجمال وتجمع البعر فى الوادى، فبكت بكاءً شديدًا، فدنوت منها وضربتها ضربًا وجيعًا وأخذتها وسرت بها إلى مدينة دمشق، فرآها معى تاجر فتحير عقله لما رآها وأعجبته فصاحتها وأراد اشتراءها منى، ولم يزل يزيد فى

ثمنها حتى بعتها بمائة ألف درهم، فعندها أعطيتها إياه رأيت منها فصاحة عظيمة وبلغنى أن التاجر كساها كسوة مليحة وقدمها إلى الملك صاحب دمشق فأعطاه قدر المبلغ الذى دفعه إلىَّ مرتين، وهذا يا ملوك الزمان أعجب ما جرى لى، ولعمرى إن ذلك الثمن قليل فى تلك البنت»، فلما سمع الملوك هذه الحكاية تعجبوا.

ولما سمعت نزهة الزمان من البدوى ما حكاه صار الضياء فى وجهها ظلامًا وصاحت وقالت لأخيها رومزان: «إن هذا البدوى هو الذى خطفنى من بيت المقدس هذا هو بعينه من غير شك»، ثم إن نزهة الزمان حكت لهم جميع ما جرى لها معه فى غربتها من الشدائد والضرب والجوع والذل والهوان، ثم قالت لهم: «الآن حل لى قتله، ثم جذبت السيف وقامت إلى البدوى لتقتله وإذا هو صاح وقال: «يا ملوك الزمان لا تدعوها تقتلنى حتى أحكى ما جرى لى من العجائب»، فقال لها ابن أخيها كان ما كان: «يا عمتى دعيه يحكى لنا حكايته وبعد ذلك فافعلى ما تريدين»، فرجعت عنه. فقال له الملوك: «الآن احك لنا حكاية»، فقال: «يا ملوك الزمان إن حكيت لكم حكاية عجيبة تعفون عنى؟» قالوا: «نعم»، فابتدأ البدوى يحدثهم بأعجب ما وقع له وقال:

«اعلموا أنى من مدة يسيرة أرقت ليلة أرقًا شديدًا وصرت أتمنى طلوع النهار، فلما أصبح الصباح قمت من وقتى وساعتى وتقلدت سيفى وركبت جوادى واعتقلت رمحى وخرجت أريد الصيد والقنص، فواجهنى جماعة فى الطريق فسألونى عن قصدى، فأخبرتهم به، فقالوا: «ونحن رفقاؤك، فنزلنا كلنا مع بعضنا، فبينما نحن سائرون وإذا نعامة ظهرت لنا فقصدناها، ففرَّت من بين أيدينا وهى فاتحة أجنحتها، ولم تزل شاردة ونحن خلفها إلى الظهر حتى رمتنا فى برية لا نبات فيها ولا ماء، ولم نسمع فيها غير صفير الحيَّات وزعيق الجان وصريخ الغيلان، فلما وصلنا إلى ذلك المكان غابت عنا فلم ندر أفى السماء طارت، أم فى الأرض غارت، فرددنا رؤوس الخيل وأردنا الرواح، ثم رأينا فى الرجوع فى هذا الوقت الشديد الحر لا خير فيه ولا صلاح، قد اشتد علينا الحر وعطشنا عطشًا شديدًا ووقفت خيولنا فأيقنا بالموت، فبينما نحن كذلك إذ نظرنا من بعيد مرجًا أفيح فيه غزلان تمرح، وهناك خيمة مضروبة وفى جانب الخيمة حصان مربوط وسنان يلمع على رمح مركوز فانتعشت نفوسنا من بعد اليأس ورددنا رؤوس خيلنا نحو تلك الخيمة نطلب ذلك المرج فوقفنا على عين وشربنا وسقينا خيولنا، فأخذتنى حمية الجاهلية وقصدت باب ذلك الخباء، فرأيت شابًا لا نبات بعارضيه وهو كأنه هلال، وعن يمينه جارية هيفاء كأنها قضيب بان، فسلمت على ذلك الشاب فرد علىَّ السلام، فقلت: يا أخا العرب أخبرنى من أنت وما تكون لك تلك الجارية التى عندك؟

فأطرق الشاب رأسه إلى الأرض ساعة، ثم رفع رأسه وقال: أخبرنى من أنت وما الخيل التى معك، فقلت: أنا حماد بن الفزارى الفارسى الموصوف الذى أعد بين العرب بخمس مائة فارس، ونحن خرجنا من محلنا نريد الصيد والقنص فأدركنا العطش فقصدت أنا باب تلك الخيمة لعلى أجد عندكم شربة ماء. فلما سمع منى ذلك الكلام التفت إلى الجارية وقال: ائتى إلى هذا الرجل بالماء وما حضر من الطعام، فقامت الجارية تسحب أذيالها وحجول الذهب

تخشخش فى رجليها وهى تتعثر فى شعرها، وغابت قليلاً ثم أقبلت وفى يدها اليمنى إناء من فضة مملوء ماء باردًا، وفى يدها اليسرى قدح ملآن تمرًا ولبنًا وما حضر من لحوم الوحوش. ثم قلت للشاب بعد أن أكلت وشربت: يا وجه العرب اعلم أنى قد أوقفتك على حقيقة خبرى وأريد أن تخبرنى بحالك، وتوقفنى على حقيقة خبرك، فقال الشاب: أما هذه الجارية فهى أختى، فقلت: أريد أن تزوجنى بها طوعًا وإلاّ اقتلك وآخذها غصبًا، فعند ذلك أطرق الشاب رأسه إلى الأرض ساعة، ثم رفع بصره إلىَّ وقال لى: لقد صدقت فى دعواك أنك فارس معروف، وبطل موصوف، وأنك أسد البيداء، ولكن إن هجمتم على غدرًا وقتلتمونى قهرًا وأخذتم أختى فإن هذا يكون عارًا عليكم، وإن كنتم على ما ذكرتم من أنكم فرسان تعدون من الأبطال، ولا تبالون بالحرب والنزال، فأمهلونى قليلاً حتى ألبس آلة حربى، وأتقلد سيفى، وأعتقل رمحى، وأركب فرسى، وأصير أنا وإياكم فى ميدان الحرب، فإن ظفرت بكم أقتلكم عن آخركم، وإن ظفرتم بى وقتلتمونى فهذه الجارية أختى لكم. فلما سمعت منه الكلام قلت له: هذا هو الإنصاف، وما عندنا خلاف، ثم رددت رأس جوادى إلى خلفى ورجعت إلى أصحابى وأخبرتهم بالأمر ووصفت لهم حسن الشاب وشجاعته وقوة جنانه وكيف يذكر أنه يصادم ألف فارس، ثم أعلمت أصحابى بجميع ما فى الخباء من الأموال والتحف وقلت لهم: اعلموا أن هذا الشاب ما هو منقطع فى تلك الأرض إلا لكونه ذا شجاعة عظيمة وأنا أوصيكم أن كل من قتل هذا الغلام يأخذ أخته، فقالوا: رضينا بذلك، ثم إن أصحابى لبسوا آلة حربهم وركبوا خيلهم وقصدوا الغلام، فوجدوه قد لبس آلة حربه وركب جواده ووثبت إليه أخته وتعلقت بركابه وبلّت برقعها بدموعها وهى تنادى بالويل والثبور من خوفها على أخيها وتنشد هذه الأبيات:

«إلى الله أشكو محنة وكآبة ... لعل إله العرش يرهقهم رعبا
يريدون قتلاً يا أخى تعمدًا ... ولا شىء من قبل القتال ولا ذنبا
وقد عرفت ذا الخيل أنك فارس ... وأشجع من حلَّ المشارق والغربا
تحامى عن الأخت الذى قل عزمها ... فأنت أخوها وهى تدعو لك الربا
فلا تترك الأعداء تملك مهجتى ... وتأخذنى قهرًا وتأسرنى غصبا
ولست وحق الله أبقى ببلدة ... إذا لم تكن فيها وإن ملئت خصبا
وأقتل نفسى فى هواك محبة ... وأسكن لحدًا فيه أفترش التربا»

«فلما سمع أخوها شعرها بكى ورد رأس جواده إلى أخته وأجابها على شعرها بقوله:

«قفى وانظرى منى وقوع عجائب ... إذا ما التقينا حين أطعنهم ضربا
وإن برز الليث المقدم فيهم ... وأشجعهم قلبًا وأثبتهم لبًّا
سأسقيه منى ضربة ثعلبية ... وأترك فيه الرمح يستغرق الكعبا
وإن لم أقاتل عنك أختى فليتنى ... قتيل وليت الطير تنهبنى نهبا
أقاتل عنك ما استطعت تكرمًا ... وهذا حديث بعدنا يملأ الكتبا»

فلما فرغ من شعره قال: يا أختى اسمعى ما أقوله لك وما أوصيك به، فقالت له: سمعًا وطاعة، فقال لها: إن هلكت فاهربى أنت بنفسك، فعند ذلك لطمت وجهها وقالت: معاذ الله

ي أخى أن أراك صريعًا، فعند ذلك مدَّ الغلام يده إليها وكشف برقعها عن وجهها فقبَّلها بين عينيها وودعها، وبعد ذلك التفت إلينا وقال لنا: يا فرسان هل أنتم ضيفان، أو تريدون الضرب والطعان، فإن كنتم ضيفانًا فابشروا بالقرى، وإن أضمرتم العداوة فليبرز لى منكم فارس بعد فارس فى هذا الميدان، ومقام الحرب والطعان.

فعند ذلك برز إليه فارس شجاع، فقال له الشاب: «ما اسمك وما اسم أبيك فإنى حالف أنى ما أقتل من اسمه موافق لاسمى واسم أبيه موافق لاسم أبى، فإن كنت بهذا الوصف فقد سلمت إليك الجارية، فقال له الفارس: اسمى بلال، فأجابه الشاب:

«كذبت فى قولك من بلال وجئت بالزور وبالمحال
إن كنت شهمًا فاستمع مقالى مجندل الأبطال فى المجال
بصارم ماض كما الهلال فاصبر لطعن مرجف الجبال»

«ثم حملا على بعضهما، فطعنه الشاب فى صدره فخرج السنان من ظهره، ثم برز إليه واحد، فقال الشاب:

«يا أيها الكلب رخيم الرجس فأين غال سعره من بخس
وإنما الليث الكريم الجنس من لم يبال بالوغى بنفس»

«ثم لم يمهله الشاب دون أن تركه غريقًا فى دمه، ثم نادى الشاب: هل من مبارز، فبرز إليه واحد، فانطلق على الشاب وجعل يقول:

«إليك أقبلت وفى قلبى لهب منه أنادى عند صحبى بالحرب
لما قتلت اليوم سادات العرب فاليوم لا تلقى فكاكًا من طلب»

«فلما سمع الشاب كلامه أجابه بقوله:

«كذبت بئس أنت من شيطان قد جئت بالزور وبالبهتان
اليوم تلقى فاتك السنان فى موقف الحرب وفى الطعان»

«ثم طعنه فى صدره فطلع السنان من ظهره، ثم قال: هل من مبارز؟ فخرج إليه الرابع، وسأله الشاب عن اسمه فقال له الفارس: اسمى هلال، فأنشد يقول:

«أخطأت إذ وردْت خوض بحرى وجئت بالزور وكل الأمر
أنا الذى تسمع منى شعرى أختلس النفس ولست تدرى»

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

❖ ❖ ❖

قالت شهرزاد: «ثم حملا على بعضهما واختلف بينهما ضربتان فكانت ضربة الشاب هى السابقة إلى الفارس فقتله، وصار كل من نزل إليه يقتله، فلما نظرت أصحابى قد قتلوا قلت فى نفسى: إن نزلت إليه فى الحرب لم أطقه وإن هربت أبقى معيرة بين العرب؛ فلم يمهلنى الشاب دون أن انقض علىَّ وجذبنى بيده فأطاحنى من سرجى، فوقعت مغشيًا علىَّ ورفع سيفه وأراد أن يضرب عنقى، فتعلقت بأذياله، فحملنى بكفه فصرت معه كالعصفور فلما

رأت ذلك الجارية فرحت بفعل أخيها وأقبلت عليه وقبلته بين عينيه، ثم إنه سلمنى إلى أخته
وقال لها: دونك وإياه وأحسنى مثواه، لأنه دخل فى ذمامنا، فقبضت الجارية على أطواق درعى
وصارت تقودنى كما تقود الكلب، وفكت عن أخيها لأمة الحرب، وألبسته كسوة ونصبت له
كرسيا من العاج فجلس عليه وقالت له: بيَّض الله عرضك وجعلك عدة للنائبات، فأجابها
بهذه الأبيات:

«تقـول وقـد رأت فى الحـرب أختى
لوامــع غـرتى مـثل الشـمـاع
الا لله درك من شـجـــاع
تذل لحـربه أسـد البـقـاع
فـقلت لهـا سلى الأبطال عنى
إذا مـا فـرَّ أرباب القـراع
أنا المعـروف فى سـعـدى وجـدى
وعـزمـى قـد عـلا أى ارتفـاع
أيا حـمـاد قـد نازلت ليـثًـا
يريك الموت يسـعى كـالأفـاعى
فلما سمعت شعره حرت فى أمرى ونظرت إلى حالتى وما صرت إليه من الأسر
وتصاغرت إلىَّ نفسى، ثم إن الجارية أحضرت لأخيها الطعام، فدعانى إلى الأكل معه، ففرحت
وأمنت على نفسى من القتل، ولما فرغ أخوها من الأكل أحضرت له آنية المدام، ثم إن الشاب
أقبل على المدام وشرب حتى شعشع الشراب فى رأسه واحمر وجهه فالتفت إلى وقال لى:
ويلك يا حماد أنا عباد بن تميم بن ثعلبة إن الله وهب لك نفسك، وأبقى عليك عرسك، ثم
حيَّانى بقدح شربته وحيانى بثان وثالث ورابع فشربت الجميع ونادمنى وحلفنى أنى لا أخونه،
فحلفت له ألفًا وخمسمائة يمين أنى لا أخونه قط بل أكون له معينًا، فعند ذلك أمر أخته أن
تأتينى بعشر خلع من الحرير، فأتت بها وأفرغتها على بدنى وهذه خلعة منها على جسدى،
وأمرها أن تأتينى بناقة من أحسن النياق، فأتتنى بناقة محملة من التحف والزاد، وأمرها
أيضًا أن تحضر لى الحصان الأشقر فأحضرته لى، ثم وهب لى جميع ذلك وأقمت عندهم
ثلاثة أيام فى أكل وشرب والذى قد أعطانيه موجود عندى إلى الآن، وبعد الثلاثة أيام قال لى:
يا أخى يا حمَّاد أريد أن أنام قليلاً لأريح نفسى وقد استأمنتك على نفسى فإن رأيت خيلاً
ثائرة فلا تفزع منها واعلم أنهم من بنى ثعلبة يطلبون حربى، ثم توسد سيفه فسحبته من تحت
رأسه وضربته ضربة أطاحت رأسه عن جثته، فعلمت بى أخته فوثبت من جانب الخباء ورمت
نفسها على أخيها وشقت ما عليها من الثياب، وأنشدت:

«إلى الأهل بلغ إن ذا أشـأم الخبـر
وما لامرئ مما الحكيم قضى مفر
وأنت صـريع يا أخـى متـجندل
ووجـهك يحكى حسنه دورة القـمـر
لقـد كان يوم الشـؤم يوم لقيتهم
ورمـحك من بعـد اطراد قد انكسر
وبعـدك لا يرتاح للخـيل راكب
ولا تلد الأنثى نظيـرك من ذكـر
وأصبح حمَّاد لك اليوم قـاتلا
وقـد خان أيمانًا وبالعهد قد غدر
يريد بهـذا أن ينال مــراده
لقـد كـذب الشيطان فى كل أمـر»
فلما فرغت من شعرها قالت لى: «يا ملعون الجدين لماذا قتلت أخى وخنته، وكان مراده
أن يردك إلى بلادك بالزاد والهدايا، وأن يزوجنى لك فى أول الشهر، ثم جذبت سيفًا كان

عندها وجعلت قائمه فى الأرض وطرفه فى صدرها وانحنت عليه حتى طلع من ظهرها فخرت على الأرض ميتة، فحزنت عليها وندمت حيث لا ينفعنى الندم وبكيت، ثم قمت مسرعًا إلى الخباء وأخذت ما خف حمله وغلا ثمنه وسرت إلى حال سبيلى، ومن خوفى وعجلتى لم التفت إلى أحد من أصحابى ولا دفنت الصبية ولا الشاب، وهذه الحكاية أعجب من حكايتى الأولى مع 'لبنت الخادمة التى خطفتها من بيت المقدس».

فلما سمعت نزهة الزمان من البدوى هذا الكلام تبدل النور فى عينها بالظلام فقامت وجردت السيف وضربت به البدوى حمادًا على عاتقه فاطلعته من علائقه، فقال لها الحاضرون: «لأى شىء استعجلت على قتله؟» فقالت: «الحمد لله الذى فسح فى أجلى حتى أخذت ثارى بيدى»، ثم إنها أمرت العبيد أن يجروه من رجليه ويرموه للكلاب، وبعد ذلك أقبلوا على الاثنين الباقيين وكان أحدهما عبدًا أسودًا فقالوا له: «ما اسمك أنت فاصدقنا فى حديثك؟» قال: «أنا اسمى الغضبان» وأخبرهم بما وقع له مع الملكة إبريزة بنت الملك حردوب ملك الروم وكيف قتلها وهرب، فلم يتم العبد كلامه حتى رمى الملك رومزان رقبته بالحسام وقال: «الحمد لله الذى أحيانى وأخذت ثار أمى بيدى، وأخبرهم أن جاريته مرجانة حكت له عن هذا العبد الذى اسمه الغضبان».

وبعد ذلك أقبلوا على الثالث وهو الجمال الذى اكتراه أهل بيت المقدس إلى حمل ضوء المكان وإيصاله إلى المارستان الذى فى دمشق فذهب به وألقاه فى المستوقد وذهب إلى حال سبيله، ثم قالوا له: «أخبرنا أنت بخبرك واصدق فى حديثك»، فحكى لهم جميع ماوقع له مع السلطان ضوء المكان وكيف حمله من بيت المقدس وهو ضعيف على أن يوصله إلى الشام ويرميه فى المارستان، وكيف جاء له أهل بيت المقدس بالدراهم فأخذها وهرب بعد أن رماه على المزبلة التى بجانب مستوقد الحمام، فلما أتمَّ كلامه أخذ السلطان كان ما كان السيف وضربه فرمى عنقه وقال: «الحمد لله الذى أحيانى حتى جازيت هذا الخائن بما فعل مع أبى، فإننى سمعت هذه الحكاية بعينها من والدى السلطان ضوء المكان»، فقال الملوك لبعضهم: «ما بقى علينا إلا العجوز شواهى، الملقبة بذات الدواهى، فإنها سبب هذه البلايا، حيث أوقعتنا فى الرزايا، ومن لنا بها حتى نأخذ الثار، ونكشف العار؟» فقال الملك رومزان عم الملك كان ما كان: «لا بد من حضورها»، ثم إن الملك رومزان كتب كتابًا من وقته وساعته وأرسله إلى جدته العجوز شواهى الملقبة بذات الدواهى وذكر لها فيه أنه غلب على مملكة دمشق والموصل والعراق، وكسر عسكر المسلمين وأسر ملوكهم، وقال: «أريد أن تحضرى عندى من كل بد أنت والملكة صفية بنت الملك أفريدون ملك القسطنطينية ومن شئتم من أكابر النصارى من غير عسكر، فإن البلاد أمان لأنها صارت تحت أيدينا».

فلما وصل إليها الكتاب وقرأته وعرفت خط الملك رومزان فرحت فرحًا شديدًا وتجهزت من وقتها وساعتها للسفر هى والملكة صفية أم نزهة الزمان ومن صحبهما ولم تزالا مسافرتين حتى وصلتا إلى بغداد، فتقدم الرسول وأخبرهم بحضورها، فقال رومزان: «المصلحة تقتضى أن نلبس لبس الإفرنج ونقابل العجوز حتى نأمن من خداعها وحيلها» فقالوا:

«سمعًا وطاعة»، ثم إنهم لبسوا لباس الإفرنج، فلما رأت ذلك قضى فكان قالت: «وحق الرب المعبود لولا أنى أعرفكم لقلت أنكم إفرنج»، ثم إن رومزان تقدم أمامهم وخرجوا يقابلون العجوز فى ألف فارس، فلما وقعت العين فى العين ترجل رومزان عن جواده وسعى إليها، فلما رأته وعرفته ترجلت إليه وعانقته، فقرط بيده على أضلاعها حتى كاد أن يقصفها، فقالت: «ما هذا يا ولدى؟» فلم تتم كلامها حتى نزل إليهما كان ما كان والوزير دندان، وزعقت الفرسان على من معها من الجوارى والغلمان، وأخذوهم جميعهم ورجعوا إلى بغداد وأمرهم رومزان أن يزينوا بغداد فزينوها ثلاثة أيام، ثم أخرجوا العجوز شواهى الملقبة بذات الدواهى وعلى رأسها طرطور أحمر من الخوص مكلل بالأقذار، وقدامها مناد ينادى: «هذا جزاء من يجترىء على الملوك وعلى أولاد الملوك». ثم صلبوها على باب بغداد، ولما رأى أصحابها ما جرى لها أسلموا جميعًا.

ثم إن كان ما كان وعمه رومزان ونزهة الزمان والوزير دندان تعجبوا لهذه السيرة العجيبة وأمروا الكتّاب أن يؤرخوها فى الكتب حتى تقرأ من بعدهم، وأقاموا بقية الزمان فى ألذ عيش وأهناه إلى أن أتاهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وهذا آخر ما انتهى إلينا من تصاريف الزمان بالملك عمر بن النعمان وولده شركان وولده ضوء المكان وولد ولده كان ما كان وبنته نزهة الزمان وبنتها قضى فكان، ثم إن الملك قال لشهرزاد: «أشتهى أن تحكى لى شيئًا من حكاية الطيور»، فقالت لها أختها: «لم أر الملك فى طول هذه المدة انشرح صدره غير هذه الليلة وأرجو أن تكون عاقبته معك محمودة».

وهنا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

◆ ◆ ◆

- تم بعون الله -

المجلد الأول من كتاب «ألف ليلة وليلة»

ويليه إن شاء الله المجلد الثانى، وأوله الليلة (١٤٦)

حكاية الطيور والوحوش مع ابن آدم

فهرس كتاب
ألف ليلة وليلة

الحكاية	صفحة

مطبعة الدار البيضاء